افتتاحية العدد

بين التعريب والتغريب

بقلم: د. أحمد بن محمد الضبيب*

كان التعريبُ موضوعَ مؤتمر مجمع اللغة العربية في القاهرة في دورته الثمانين هذا العام (٢٤/٣/٢٠١٤-٦/٤/٢٠١٤م). وقد حفل المؤتمر بوافر من البحوث والدراسات، وتعدّدت فيه المناقشات التي ترى -في معظمها- أنّ التعريب لصيق بمستقبل هذه الأمّة العربية، وأنه أمرٌ محتَّم لنهضة العرب وتقدّمهم، وأنّ من الواجب البدء في تعميمه في البلاد العربية لما في ذلك من تعزيز لكيان الأمّة، واستشراف لنهضتها، وتوثيق لعرى تواصلها وتكامل بين أقطارها المتعددة. فاللغة العربية هي الوشيجة الباقية المهمة التي تربط بين الأقطار العربية، ومن خلال اللغة يمكن نشر العلم وتطويره بين جماهير هذه الأمّة.

والكلام عن التعريب ممتدّ متجدّد منذ زمن بعيد في الفكر العربي المعاصر، وسيظل قائمًا ما دام العلم غريبًا بين العرب، وما دامت التقنية مستوردة مستهلكة، وليست قارة مطورة في هذه البلدان. ولا يغرنّك ما تشاهده من مظاهر توحي بالنهضة من مبان باذخة وآلات وأدوات مستوردة، وضجة حول البرامج الجامعية التي تؤدَّى في معظمها باللغة

الأجنبية، فذلك كله من الزبد الذي يذهب جفاء ما دام العلم يؤدَّى بغير اللغة الأمّ، لم يتحدث العربية، وما دامت الأعمال والأنشطة لم تدر بين الناس بهذه اللغة. إنّ كل ما تراه بعينك هو شيئ مستعار لا يغني ولا يسمن من جوع، فالحياة الراقية الحقيقية هي التي تتمتع بالاستقلال المعرفي المستمد أساسًا من هوية الأمّة، والقائم على الاختراع والابتكار والإنتاج، والإضافة إلى ما عند الآخرين، ومشاركة العالم في تقدم الحضارة.

لقد درس العرب العلوم والطب باللغة الأجنبية منذ أكثر من مئة عام، منذ أن أطفأ الاستعمار الإنجليزي شعلة التعريب المضيئة في مصر التي ظلت متّقدة لمدة تقارب السبعين عامًا، وحين حوّل الاستعمار الشمال الإفريقي العربي إلى الفرنسية، ومع ذلك لم يستطع العرب النهوض من كبوتهم الحضارية، بل ازدادوا فيها ارتكاسًا، واستمروا مستهلكين لما ينتجه الشرق والغرب دون إضافة تذكر، وإن حدثت بعض الإضافات فإنها تنسب إلى الأمم التي أنتجت بلغتها الأجنبية، وطوّرت في معامل تلك الأمم، ثم بيعت منتوجًا مستوردًا أجنبيًّا، كي تستهلكه هذه البقعة من العالم.

والسؤال الذي يطرح نفسه بإلحاح هو: ألم تكن هذه المدة الطويلة التي غبرت ونحن ندرس الطب والعلوم باللغة الأجنبية، دون إحراز نتائج تذكر على المستوى الوطني في معظم أقطار العالم العربي، ألم تكن كافية لنعي الدرس الذي وعته شعوب العالم كله، وهو أن لا تقدّم دون امتلاك

العلوم والتقنية باللغة الأمّ، واستنباتها وتوطينها في البيئة العربية من خلال هذه اللغة؟.

إنّ استنبات العلوم والتقانة في الأرض العربية من خلال التعليم باللغة العربية ضروري حتى يحسن الطالب استيعاب هذه العلوم، ويستزيد منها في لغته فيتشربها، وتختلط بكيانه المادي والمعنوي، وتمتزج بروحه وفكره، فيصدر عن ذلك بالإبداع والابتكار. وحتى يصبح العلم مشاعًا بين أبناء الشعب يصلون إليه بطريق سهلة ميسّرة هي هذه اللغة.

والذي نقوله ليس سرًّا من الأسرار، أو لغزًا من الألغاز، أو ضربًا من ضروب المستحيلات، فالشواهد عليه قائمة أمام أعيننا من خلال ممارسات جميع الدول المتقدمة والناهضة، وتلك التي هي بسبيل النهوض. فجميع هذه الدول اتخذت لغتها الوطنية سبيلاً لتعليم جميع العلوم ولم تتهافت على اللغة الأجنبية تهافت العرب في هذا العصر. ولك أن تختار أيّ دولة من دول العالم لترى الشواهد واضحة جليّة. فكيف يشذّ العرب وحدهم عمّا يجري حولهم؟.

سيقول لك المخذلون عن التعريب إنّ فيه انقطاعًا عمّا يجري في العالم من إيقاع علمي سريع، ومعظمه يجري باللغة الإنجليزية.

وسيقولون لك إنه يحتاج إلى حركة دائبة للترجمة تستطيع مواجهة السيل الجارف من البحوث والأفكار العلمية المتجددة، والترجمة لدينا ضعيفة وغير مؤهلة.

وسيقولون لك ماذا نصنع بالمصطلحات التي تنهمر علينا كل يوم، وكيف نستطيع تعريبها؟.

ثم كيف لنا أن نؤلف الكتب والمراجع بالعربية؟.

وهذه حجج لا تصمد أمام النظر، ولو ركنت إليها الأمم الناهضة والتي هي بسبيل النهوض لما حققت شيئًا من التقدم. فالمطالبون بالتعريب لا يغفلون أهمية اللغة الأجنبية ويرون أنّ **تعلّمها** واجب على كل باحث ودارس، بل على كل مثقّف يريد أن يكون على اطلاع بما يجري حوله في العالم. لكن **تعلّم** الأجنبية يختلف عن **التعليم بها**؛ فالأول مطلوب بشدة والثاني مرفوض بشدة. وإذا تعلّم الباحث أو الطالب اللغة الأجنبية سهل عليه الرجوع إلى المراجع الأجنبية والاتصال بقواعد المعلومات الأجنبية، وأصبح مسايرًا إيقاع العلم في العالم المتقدم. فالتعليم بالعربية لا يعني الانغلاق على الذات وتجاهل ما يجري في ساحات العلم والاختراع.

أمّا موضوع الترجمة فهو من الموضوعات التي لا ينقضي منها العجب في البلاد العربية؛ فهناك مراكز للترجمة في معظم هذه البلدان، لكنها -في معظمها- لا تسهم في تقديم العلم بالعربية، وهي مراكز تقوم على الاختيار العشوائي للمواد المترجمة، وتستجيب في الغالب للطلب الشعبي دون العلمي المتخصص، وكان بالإمكان إنشاء مراكز متخصصة مدعومة من الدولة من أجل نقل العلوم والطب إلى العربية، لكن شرط إقامة مثل هذه المراكز أن يكون هنالك قرّاء لإنتاجها، وما دام التعليم في جامعاتنا وبعض مدارسنا يؤدَّى باللغة الأجنبية فإنّ عمل مثل هذه المراكز سيكون

عبثيًّا. ثم هنالك الترجمة الآلية التي تتيح كثيرًا من المواد العلمية باللغة العربية بنسبة دقة توازي ٩٠٪ على ما يقوله المختصون، ولو استثمر العرب في هذا الجانب لدرّ عليهم الكثير من الربح المادي والعلمي والمعنوي. ويضاف إلى ذلك أنّ الترجمة يمكن أن تؤدَّى من قِبل الأساتذة في الجامعات وكذلك الباحثين، ولو كلّف كل طالب من طلاب الدراسات العليا بترجمة كتاب في تخصصه ضمن ترتيبات قانونية وعلمية وتشجيعية تقوم بها وزارات التعليم العالي، والجهات الراعية لأولئك الطلاب، لكانت الحصيلة كبيرة ومشجعة. وأخيرًا فإنّ من المتوقع أن يكون الناشرون الأجانب على استعداد لترجمة كتبهم وتوزيعها في البلاد العربية إذا ما استقر التعريب في هذه البلدان، لما يدرّه ذلك من أرباح وفيرة لهم، إذ ستتوسع القاعدة القرائية لكتبهم بين هذا العدد الكبير من سكان الوطن العربي.

أمّا موضوع المصطلحات العلمية فالأمر فيها أيسر، فليس هنالك ما يمنع من أن نأخذ المصطلح الأجنبي كما هو دون ترجمة، أو نقوم بصياغته على مقتضى قواعد اللغة العربية إذا لم نتمكن من ترجمته، أو إيجاد بديل له مما لدينا من مصطلحات. أمّا التنسيق بين هذه المصطلحات فهي مهمة مركز أنشأته المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، باسم مركز تنسيق التعريب في الوطن العربي، ويعدّ هذا الأمر مسوغًا لوجوده.

إنّ موقف المعارضين للتعريب ليس موقفًا علميًّا أو عمليًّا، وإنما هو أشبه ما يكون بالموقف النفسي، والتخلص من هذا الموقف لا يكون

بالبطء والركون إلى السائد، وإنما يكون بتهيئة الأنموذج والمثال الناجح الذي تتبنّاه سياسة لغوية تبتغي كل دولة عربية من ورائها تأكيد سيادتها من خلال لغتها العربية، التي تنص عليها جميع دساتيرها ونظم الحكم فيها، وتتوخى بها المصلحة العامة المتوقعة من التعريب كي تخرج من حالة الانسداد الحضاري الذي يعيشه العالم العربي الآن.

❖ رئيس التحرير

الجُزْء المفقود من عنوان كتاب (الحُلَّة السِّيَرَاء) لابن الأبَّار البَلْنسي

بقلم: د. خالد بن عبد الكريم البكر❖

يجد القائمون على تحقيق الكتب ونشرها صعوبات جمّة في مشروعهم العلمي، بدءًا من التحقق من عنوان الكتاب كاملاً، ثم هويّة مؤلفه، فسلامة نصوصه وشرحها وتوضيح ما غمُض منها.

وبين أيدينا كتاب "**الحُلَّة السِّيَرَاء**" لأبي عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي البلنسي، المعروف بابن الأبّار (ت ٦٥٨هـ/١٢٦٠م)، وهو من أُمّهات المصادر الأندلسية. قصَد به مؤلفه الترجمة لأمراء الأندلس والمغرب وإظهار مزاياهم الأدبية، منذ القرن الأول إلى منتصف القرن السابع الهجري، فجاء كتابه تاريخًا سياسيًّا وأدبيًّا يمزج بين الحوادث والقصائد، ويلتمس أخبار الأمراء أولاً ثم ما نُسِب إليهم من شِعْرٍ، فهو تاريخٌ بنكهة أدبية.

ظهرت طبعته الأولى سنة ١٩٦٣م بتحقيق الدكتور حسين مؤنس، رحمه الله، بعنوان "**الحُلة السِّيَرَاء**"، وقد سبقتها -حسبما ذكر المحقق نفسه- مُحاولات مُبكرة لنشر تراجم مُختارة من كتاب **الحُلة** قام بها كل من راينهارت دوزي عام ١٨٤٧م، وماركوس جوزيف موللر عام ١٨٦٦م.

من المعروف أنّ مثل هذه العناوين ذات الإيقاع الأدبي تتطلب السَجْع في عنوانها بحيث تظهر في جُمْلة تامة مسجوعة، مثلما دَرَج عليه مؤلفو تلك العصور. غير أنّ عنوان الكتاب -كما هو بأيدي الناس اليوم- يخلو من التسجيع ، إذ يتألف من كلمتين اثنتين: "الحُلة السِّيَراء". والناظر فيهما يُدْرك بوضوح أنّ ابن الأبّار -وهو مَنْ هو في الأدب والشِعْر- لم يَأت بهاتين الكلمتين ليُبْقيَهما وحدهما عنوانًا غامضًا لكتابٍ واضح الملامح والقسَمات، وإنما أراد بهما أن يَسْتهل عنوانه استهلالاً أدبيًّا يُنبئ عن اتجاهه العلمي، ثم يُتْبِعُه بكلمتين أُخْرَيَيْن تشرحان موضوع الكتاب الأساسي. ومن ثَمَّ فإنّ عنوان الكتاب كما وصل إلينا غيرُ تام!، ولم يغفل المُحقق عن هذه القضية فخصَّص مساحة من مُقدمة تحقيقه لمناقشتها، فقال في ذلك: (وقد ذهب بعض المُحْدَثين إلى أنّ عنوان الكتاب الكامل: "الحُلة السَيراء في شِعْر الأمراء" ولم نجد ما يؤيد هذا في المخطوط ولا عند الموثوق فيهم ممن كتبوا عنه، ولهذا جعلنا عنوان الكتاب "**الحُلة السِّيَرَاء**" فحسب، ولو أنّ إكماله بعبارة "في شِعر الأمراء" معقول)[1].

ولقد ضاعف من صعوبة استكمال العنوان لدى المحقق أنه حين همّ بنشر الكتاب، لم يجد أمامه سوى نسخة وحيدة من المخطوط، محفوظة في مكتبة الإسكوريال برقم (١٦٥٤)[2]، فلم يُتَح له النظر في نُسْخة أخرى، عسى أن يجد فيها ما افتقده في الأولى. وزاد الأمر سوءًا فيما يتعلق بهذا الجانب؛ أنّ المحقق وجد نقصًا في أول المخطوط الذي اعتمد عليه في تحقيق الكتاب، بمقدار ورقتين أو ثلاث على الأكثر، فيها خُطبة الكتاب وشيءٌ من فاتحته.

ومن المعتاد أنّ المؤلفين يذكرون عناوين كُتُبهم بتمامها في ثنايا فاتحة الكتاب والمعروفة بخُطْبة الكتاب.

وشيءٌ آخر أسْهَم في تكريس تداول العنوان -على نقصه- دون مناقشة تُذكر، وهو أنّ بعض الباحثين تناولوا كتاب "**الحُلة السِّيَرَاء**" في دراسات علمية متنوعة، لكنهم لم يقفوا حول العنوان (الناقص) للكتاب، ليبنوا آراءً أخرى على الآراء التي ذكرها مؤنس؛ وإنما أعرضوا عن الخوض فيما يعتقدون ألاَّ طائل من ورائه[٣].

وعليه؛ فإننا لا نجد -حسبما نعلم- رأيًا منشورًا في هذه المسألة لأحد الباحثين المتخصصين حتى يُمكن مناقشته؛ وإنما سنبدأ بمناقشة ما انتهى إليه حسين مؤنس -رحمه الله- حول الجزء المفقود من عنوان الكتاب.

يستوقف نظرنا فيما ذكره مؤنس عن الجزء (المقترح) لإكمال عنوان الكتاب بعبارة (في شِعْر الأمراء)؛ أنه -أي مؤنس- نَسَب الاقتراح إلى أحد (المُحدَثين)، ما يعني وجود اقتناع لدى بعض المُتخصصين بعدم التماس حلّ المشكلة عَبَر النظر في المصادر ذات العلاقة، ثم إن مؤنس أعلن أنه لم يجد لا في مخطوط الكتاب ولا فيما كُتب عن ابن الأبّار ما يفيد في إكمال الجزء المتبقّي من عنوان الكتاب، ولذا آثر الاقتصار على المقطع الأول من عنوان الكتاب "**الحُلة السِّيَراء**" فاعتمدها في تحقيقه، وذاعت في أوساط الباحثين وطلاب العلم، فلا تكاد تجد أحدًا منهم يعرف من عنوان كتاب "**الحُلة السِّيَراء**" لابن الأبّار أكثر من "**الحُلة السِّيَرَاء**".

ولحُسْن الحظ؛ فإنّ بعض المصادر الأدبية المتأخرة عن عصر ابن الأبّار، أحالت إلى كتابه هذا واستفادت من مادته العلمية، ومن أبرز تلك المصادر كتاب: "**بُغْيَة الوُعاة في طبقات اللغويين والنُحَاة**" لأبي بكر السيوطي (ت ٩١٤هـ/١٥٠٨م)، حيث أفرد مساحة واسعة من كتابه لأدباء الأندلس وعلماء اللغة فيها، وساق تراجمهم من مصادر أندلسية، كان في مُقدمتها كتاب "**الحُلة السِّيَراء**" لابن الأبّار. ففي ترجمته رقم (١٠٩١) لـ(الحسن بن منصور بن نافع بن عبد الرحمن بن عامر بن نافع المذحجي، أبو علي النحوي)، أورد ما ذكره ابن الأبّار في **الحُلّة** عن الحسن بن منصور(٤)، وأحال إلى ذلك بقوله: "قال ابن الأبّار في "**الحُلة السِّيَراء في أخبار الأمراء**": كان يجمع إلى شرف بيته علمًا واسعًا وأدبًا كاملاً، بصيرًا باللغة، ناقدًا في النحو، عالمًا بأيام العرب وأخبارها ووقائعها وأشعارها، من بيت قيادة وإمارة"(٥).

أعتقد أنّ تلك الإشارة ذات أهمية واضحة فيما نحن بصدده، فهي من جانب تُقدِّم لنا إجابة شافية عن سؤالٍ حائر، يئس المتخصصون -على ما يبدو- من إعادة طرحه. ومن جانبٍ ثان؛ فما وجدناه في "**بُغية الوعاة**" هو بمثابة معلومة مُوّثقة من مصدرٍ أدبي، سلك -تقريبًا- ذات الاتجاه العلمي الذي سلكه كتاب "**الحُلة السِّيَراء**" لابن الأبّار، بل ونَهَل من مادته العلمية الشيء الكثير. وفي ذلك ما يُحقق أمَل الدكتور حسين مؤنس -رحمه الله- في الوصول إلى معلومة موثوق بها تُعِينُه في استكمال عنوان الكتاب، إذ لم يَجْد أمامه سوى اقتراح من باحثٍ مُحْدَث.

ومن جانبٍ ثالث؛ فإنّ عنوان الكتاب كما جاء في "**بُغية الوعاة**"، وهو: "**الحُلة السِّيَراء في أخبار الأمراء**" ينسجم ومحتويات الكتاب. فالُمتأمل في تراجمه يجدها تتناول بالدرجة الأولى أمراء المغرب والأندلس ومن في حُكْمهم من المُتغلبين، فتستعرض أخبارهم وشيئًا من مأثوراتهم الأدبية في النظم والنثر، كما تتناول بعض من التَصَق بهم من الوزراء والكُتّاب. فالمحور الأساسي في بناء المادة العلمية لكتاب **الحُلة** هو الأمراء وأخبارهم، يتلوه المحور الثاني الخاص بأشعارهم. كما أنّ تبويب الكتاب جاء أولاً وِفق الترتيب الزمني (تسلسل الحوادث)، ثم تكَوّنت الفقرات حسب أسماء الأمراء وأبناء الأمراء والولاة والمتوثبين. ثم يجيء ما وجده المؤلف من أشعارهم في سياق الترجمة لكل واحدٍ منهم كمادة إضافية لبناء مكوّنات ترجمته. فتبويب الكتاب لا يوحي بأنّ مؤلفه جعل من مهمته الرئيسة التماس الشِعر فَحسْب؛ إذ اشتمل الكتاب على مادة تاريخية غزيرة، جعلت منه مصدرًا مُهِمًّا من مصادر تاريخ المغرب والأندلس. وتبويب الكتاب على هذا النحو يختلف -مثلاً- عن تنظيم كتاب "**العُمْدة في محاسن الشِّعر وآدابه**" لابن رشيق القيرواني (ت ٤٥٦هـ/١٠٦٣م)، إذ التزم صاحب **العُمْدة** بخُطة واضحة في تبويب كتابه لاستيفاء ما قاله الأدباء عن الشِّعر وما أبدعه الشعراء في أبوابه المختلفة، واتخذ منها محاور أساسية لبناء مادة الكتاب[٦]. وهو -أيضًا- بخلاف تنظيم كتاب "**المُطرب في أشعار أهل المغرب**" لابن دِحْية (ت ٦٣٣هـ/ ١٢٣٥م)، إذ لم يلتزم بمعايير مُحددة للتبويب، وأوضح ذلك في فاتحة كتابه قائلاً: "بل استرسلتُ فيه مع الخاطر على ما يجودُ به ويَسمح، ويَعنُّ

له ويَسْنَح. فالناظر فيه يسرَح في بساتين، ويَمْرح في ميادين، ويخرج من فن إلى فنون، والحديث ذو شجون"[٧].

ولعل مما يقوِّي الاعتماد على المعلومة التي أوردها السيوطي لإتمام عنوان الكتاب هو أنّ (ابن الأبار) قد أفرد فصلاً مستقلاً في ثنايا كتابه **الحُلة**، أسماه: "بابٌ في الذين ما عثرتُ على أشعارهم فاقتصرتُ على نُكَتٍ من أخبارهم" فذكر منهم عشرة أمراء لإفريقية والمغرب في القرن الأول الهجري، وخمسة عشر أميرًا لإفريقية والمغرب والأندلس في القرن الثاني الهجري، وتسعة عشر أميرًا لإفريقية والمغرب والأندلس في القرن الثالث الهجري، وأميرين اثنين في المغرب خلال القرن الرابع الهجري[٨].

وفي ذلك ما يدل على أنّ طلب الخبر عن الأمراء المعروفين بالأدب، كان هو الغرض الأول لابن الأبار في تأليفه **الحُلة**، إذ لا بأس عنده في أن يُشير إلى أمراء حتى وإن لم يجد لهم شيئًا محفوظًا من أشعارهم، فكأنّ كتابه هذا قائمٌ على المحاور التالية: (خبرٌ وشِعرٌ وأميرٌ) في نطاق الغرب الإسلامي، فجاء عنوان الكتاب: (**الحُلّة السِّيَرَاء في أخبار الأمراء**) مؤكدًا على علاقته بالمحتوى.

الهوامش:

❖ قسم التاريخ- كلية الآداب- جامعة الملك سعود- الرياض.

(١) حسين مؤنس، مقدمة تحقيقه لكتاب **الحلة السيراء**، ط١، (القاهرة: الشركة العربية للطباعة والنشر، ١٩٦٣م)، ص١.

(٢) حسين مؤنس، مقدمة التحقيق لكتاب **الحُلة السِّيَرَاء**، ج١، ص٥٤.

(٣) انظر مثلاً: إبراهيم الأبياري، **الحلة السيراء** لابن الأبّار بتحقيق حسين مؤنس، **مجلة الرسالة**، العدد ١١٠٨، ١٣٨٤هـ/١٩٦٥م، ص١٦-١٧. وانظر أيضًا هذه الدراسة الضافية لكتاب الحُلة: منى حسين القحطاني، دراسة **مصادر تاريخ ابن الأبار في كتابه "الحُلة السِّيَراء"**، رسالة دكتوراه، جامعة الأميرة نورة، الرياض، ١٤٣٠هـ/٢٠٠٩م، ص١٠٣ وما بعدها.

(٤) ابن الأبار، **الحُلّة**، ج١، ص١٨٧.

(٥) السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن، **بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة**، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، (بيروت: المكتبة العصرية، د.ت)، ج١، ص٥٢٧، رقم الترجمة (١٠٩١).

(٦) ابن رَشِيق القيرواني، أبو علي الحسن، **العُمْدة في محاسن الشِعْر وآدابه**، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، ط١، (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤٢٢ هـ/٢٠٠١م).

(٧) ابن دحية، أبو الخطاب عمر بن حسن، **المُطْرب من أشعار أهل المغرب**، تحقيق: إبراهيم الأبياري وزميليه، ط ١، (القاهرة: المطبعة الأميرية، ١٩٥٤م)، ص٢.

(٨) ابن الأبار، **الحلة السيراء**، ج٢، ص٣٢١.

مِن وحي العشق والألم:
نظرة في حواشي العلاّمة الراجكوتي

بقلم: د. نادية غازي العزّاوي*

إضاءة:

حواشي كتب العلاّمة عبد العزيز الميمنيّ (١٨٨٨-١٩٧٨م) -تأليفًا وتحقيقًا- أكبر من مجرد هوامش للتخريج والتفسير والإحالة، فهي عنده غنية المحتوى، متنوعة الأغراض، تتناغم مع متونه بما تضمّ من دقائق المسائل والملاحظات والاستدراكات الأدبية واللغوية والنقدية، فضلاً عن احتضانها لنفثات قلمه وبوحه بما يجيش به الصدر ويضطرب، نفثات يمرّرها في تضاعيف تعليقاته العلمية، بلا بتر أو تشعيث أو إقحام، بل بانسيابية ونسج ماهر لا يخطئه من ألف النظر في كتب هذا العلم الجليل عاشق العربية.

وعشقه العربية مضرب المثل: إخلاصًا ودأبًا وجدية في البحث والتحصيل والتنقيب في المكتبات العربية والعالمية، عشق غرّبه عن أهله، وأورثه اغترابًا بينهم، فكان يردّد: ((أنا بين أهلي ووطني كأجنبي عنهم))[1]، وليس قليلاً أن يقدّم نعت (الغريب) على باقي النعوت التي اعتاد الانتساب

إليها: (الغريب العاجز خادم العلم...)، والتقديم معبّر -من الوجهتين النفسية والبيانية- عن عمق الأثر وتغلغله في داخله.

قال في خاتمة كتابه النفيس (أبو العلاء وما إليه): ((تمّ الكتاب... ببلدة لاهور... وأنا أسير غربتين: غربة عن الوطن، وغربة عن أهل العلم الذين كانوا -لو كانوا- غرة في جبين الزمن))[٢]. عشق تلمسه في غيرته على الكتب العربية مخطوطها ومطبوعها، وسعادته الغامرة في اكتشافها، عشق تلمحه في حزنه على مآل حال مكتباتها، وأسفه على ما أصابها من عبث وضياع لمقتنياتها[٣]، بأكثر ممّا يحسّ به أبناؤها أو المحسوبون عليها من أهلها، وهو الذي قال يومًا: ((يكاد الحزن يذيب القلب حين نذكر ما صنعه الدمستق بحلب، أو ما صنعه من قبل هولاكو ببغداد، فخسرنا ما خسرنا من كنوز اللغة وذخائر العلم والأدب... من تلك المنابع اللغوية الثرّة وعيونها الفيّاضة قبل إغراق كتبنا في دجلة))[٤].

ولا أظنّ القارئ الكريم غافلاً عن هذا التوحّد المتجلّي في كلمة (كُتبنا) في السطر السابق، وكأنّ العاشق توحّد بمعشوقته، فصار هو إياها.

تناغم المتون والحواشي:

تقود النظرة الفاحصة في كتبه إلى فرز جملة من الملامح الأسلوبية والمنهجية التي اتسمت بها حواشيها، على تنوّع الوظائف المناطة بها: إحالة أو تخريجًا أو تعليقًا أو تعقيبًا... إلخ، وكما سنبيّن لاحقًا.

من أبرز تلك الملامح:

أ- الإيجاز: وهي خصيصة نوعية إلتزمها في أغلب حواشيه، وروى عنه العلاّمة أحمد راتب النفّاخ في هذا الجانب عبارة دالّة: ((المعنى الذي يمكن أن أؤديه بلفظين لا أجعلهما ثلاثة))[٥]، فالاختصار والتركيز غالبان على إحالاته على المراجع فيها ((ثقة منه بأنّه لا يكتب للناشئين، ولا يخاطب غير الخاصة من أهل العلم والثقافة))[٦]، إذ اعتاد أن يورد في مقدماته قوائم بمصادره الرئيسة مرفقة برموزها المستعملة في الحواشي وفي المتن أحيانًا أيضًا، وظل يؤكد على حواشي "**سمط اللآلي**" خاصة، ويحيل عليها في كتبه الأخرى، ولم يشأ التكرار اختصارًا للجهد والوقت، فأنت تجد أمثال هذه العبارات في حواشي كثير من كتبه: ((خرّجناها في **السمط**))، ((وقد فرغنا منها في السمط))...إلخ[٧].

ويبدو هذا الإجراء على وفق مناهج البحث الحديثة غير مقبول وغير سليم، لأنّه مظنّة اللبس والخلط والتداخل، ولكنّه على وفق منظور الراجكوتي مبرّر من زاوية معينة، فكأنّه يريد من قارئه الإحاطة التامة في قراءة نتاجه، والوقوف على دقائق طريقته الخاصة. والإحالات عنده برقيات سريعة، لابدّ أن يصل مضمونها بأسرع السبل، وأقصر الطرق الدالة والمؤدية للغرض. وله في اختزال مصادره في الإحالات صيغ متنوعة، تتغيّر من كتاب إلى آخر مع وجود مشتركات، من هذه الصيغ:

١- الاكتفاء بحرف واحد فقط من العنوان:

د= ديوان، ذ= **ذكرى أبي العلاء**، س= **سقط الزند**، ل= **اللزوميات**، ك= **كشف الظنون**، ت= **تاج العروس**، خ= **خزانة الأدب للبغدادي**، غ= **الأغاني**... إلخ.

٢- الاقتصار على حرفين فقط:

خر= **خريدة القصر**، معا= **معاهد التنصيص**، مل= **رسالة الملائكة**...إلخ.

٣- وربما اتخذ كلمة واحدة لتكون مفتاحًا للعنوان، مثل:

الأدباء= **معجم الأدباء**، الإصلاح= **تهذيب إصلاح المنطق**، الثمار= **ثمار القلوب في المضاف والمنسوب**، الدرة= **درة الغوّاص**، العيون= **عيون الأخبار**...إلخ.

٤- وفي أحيان قليلة يستعين بالعنوان الكامل تقريبًا:

❖ **شرح المختار من أشعار بشّار**، ❖ **نقد الشِّعر**، ❖ **المقصور والممدود**... إلخ.

٥- وقد يحوّل الاختزال من عنوان الكتاب إلى اسم المؤلف أو لقبه أو كنيته، دون توضيح سبب التحوّل في الإحالة، وبخاصة إذا ما جمع بين الطريقتين في الموضع نفسه أو الكتاب نفسه، فيضطرب الأمر ولا يتسق، من قبيل: ذهبي = **تاريخ الإسلام**، البحتري= **حماسته**، ابن الجرّاح= رسالته فيمن سمِّي عمرًا من الشعراء[٨].... إلخ.

وهكذا يتضح أنّ أسلوبه في إحالاته لا يطّرد، لا في حواشي كل كتاب على حدة، ولا في كتبه مجتمعة، وهي ظاهرة لا نستطيع عزوها إلى سبب علميّ أو منهجيّ، فلعلها مزاجية المؤلف نفسه، وما اعتاده هو شخصيًّا

بين الحين والآخر، ولذلك لم يستطع تعميم طريقة محدّدة على إحالاته ولا توحيدها، فتارة يستعمل المختصرات وتارة أخرى يتركها، وحينًا يلجأ إلى الترميز وحينًا آخر يفصّل، وفي مواضع يحيل على لقب المؤلف وفي أخرى يستعين بالعنوان، ولم تستقم له في النهاية وجهة محدّدة.

ب- في غير الإحالات تفيض حواشيه بأخبار المخطوطات ونسخها والأمّات الموثّقة، بطريقة تثير الدهشة من قدرة هذا الذي يصف نفسه بالعجز والضعف، وهو من طوى المشارق والمغارب بحثًا عنها، ليستمدّ منها المثل والخبر والشاهد، منبّهًا على مخطوطات كان قد رآها منذ عشرينات القرن العشرين وثلاثيناته، لم تر النور وتُنشر إلا في نهايات ذلك القرن أو بدايات لاحقه، وتلك مفارقة موجعة تثير سؤالاً مشكّكًا: مَنْ العاجز الحقيقيّ هو أو نحن؟؟!! وحواشيه في هذا تتلقّف أصداء متونه في ارتشاف الضَرَب من مخزونه الثرّ الذي: ((يروعك بسعة علمه ومدى إحاطته، وهو يخرّج النصوص شِعرها ونثرها، وكأنّ المصادر العربية بين يديه يستخرج منها ما يشاء، وتطالعك في تعليقاته الفوائد الكثيرة والفرائد الغريبة: يدلّك على ما وقع فيه الناسخ من تصحيف وتحريف، ويقوّم ما وهم فيه المؤلف، ويقرن الشقيق بالشقيق وإن تباعدا، ويرشدك إلى الينابيع: مخطوطها ومطبوعها إنْ شئت الاستزادة والتوسّع))(٩).

فإذا ذكر في المتن -مثلاً- معلومة مهمة عن أقدم نسخ **لزوميات** المعرِّي (ت ٤٤٩هـ) ممّا ورد في فهرس خزانة ليدن: ((وأقدم نسخه الموجودة نسخة ابن الخشّاب قارئه على ابن الجواليقيّ، وثبت عليه صورة قراءة ابن

الخشّاب على ابن الجواليقيّ سنة ٥١٧هج، وصورة سماع ابن الجواليقيّ على التبريزيّ))، أتبع المتن بحاشية تضمّ معلومة من كشوفه لا تقلّ قيمة عمّا ذكر في أعلاه: ((رأيت نسخة أخرى تضاهيها في القدم أو تفضل عليها ببومباي، وثبت عليه من الإجازات وبيتي التبريزيّ وغيرهما، ممّا هو مثبت على نسخة ابن الخشّاب كله، وهي أيضاً منقولة من نسخة الجواليقيّ))[١٠]. وغبر بعيد عن هذا ما جاء في حاشية علّق فيها على عنوان كتاب أبي عبيدة (المجاز)، إذ ذكر: ((ورأيت من المجاز نسخة عتيقة جليلة فذة إمامًا))[١١]، وكقوله في إحدى حواشي "**سمط اللآلي**": ((ومن حسن حظي أنّي عثرت بالدار على نسخة من **الأمالي** لم يبق منها إلا أشلاؤها، وهي أصل علماء الأندلس، ولهم طرر عليها كالوقشي وغيره، كتبت سنة ٤٨٦هـ لثلاث خلون من شهر ربيع الآخر، قوبلت بأصليْ ابن سراج ومروان، ولها صلة بأصل أبي علي نفسه))[١٢].

ج- وكانت حواشيه ميدانه الفسيح الذي صال وجال فيه، داحضًا المزاعم ومصوّبًا الأخطاء والأوهام وناسبًا الأبيات الغفل أو المشكوك فيها، ومترجمًا لغير المعروفين من الشخصيات، وبما يدلّ على تفلية السطور وما بين السطور في المطبوعات والمخطوطات.

لقد ارتفعت حواشيه -بحقّ- إلى مستوى التأليف، ولاسيما في جوهرتيه الخالدتين "**سمط اللآلي**" للبكري (ت٤٨٧هـ) و"**التنبيهات**" لعلي ابن حمزة البصريّ (ت٣٧٥هـ)، ففيهما بارى ((العلماء الأعلام في آرائهم

والاحتجاج لهم وعليهم، على طريقتهم هم كما يتضح ذلك لمن يتعمّق في حواشي الكتاب))[١٣].

ذكر في بعض حواشيه على "**رسالة الملائكة**" حين مرّ البيت الآتي:

فلستُ لإنسيّ ولكن لملاكٍ   تنزّل من جوّ السماء يصوبُ

((قال أبو عبيدة: هو رجل من عبد القيس، جاهليّ يمدح بعض الملوك. وقال السهيليّ: البيت مجهول قائله، وقد نسبه ابن سيده إلى علقمة وأنكر ذلك عليه. أه. وأنا رأيت البيت مع ثلاثة أبيات أخرى في بعض النسخ من ديوان علقمة بن عبدة))[١٤]. تعضده في هذا حافظة قوية كثيرًا ما يكون لها القول الفصل في حسم المشكلة أو ترجيح الرأي الأقوى، فحين نسب البكريّ البيتين التاليين لابن المعتز:

موسومة بالحسن معشوقة   تميت من شاءتْ وتحييهِ

باتَ يرينيها هلال الدجى   حتى إذا غاب أرتنيهِ

انبرى هو في الحاشية لتجلية أمر هذه النسبة، مقدّمًا المحصول من معلومات المصادر أولاً، ومثنِّيًا برأيه المستند إلى أدلة نصيّة، فقال: ((لا أعرفهما في شِعر ابن المعتز، إلا أنّ العكبريّ ١/٤٠٠ روى الثاني له، وكذا رواهما الشريف في **شرح مقصورة حازم** ١م٣٥ وكأنّهما عن **اللآلي**، ورواهما في **المصارع** ١٧٥ في خبر طريف عن الجليس للمعافى... لعلي بن أبي البغل الكاتب وما أحراه بالصواب...، وفي **العيون** ٤/٢٦ ذكر بعض الأعراب امرأة قال: خلوتُ بها والقمر يرينيها، فلمّا غاب أرتنيه. وهذا ممّا يقوِّي شكنا، فإنّ نسبة القتبي وهو معاصر لابن المعتز بل أقدم منه معنى شِعره

إلى أعرابيّ مستبعدة))[١٥]. وإذا قرأ في طرة بعض الكتب -مثلاً- عبارة ورد فيها اسم (علي بن ثروان بن الحسن الكندي النحويّ) استنفر معرفته بعلم الرجال، فلم يدع الصفحة تمرّ دون أن يمهرها بحاشية ذكر فيها: ((وابن ثروان هذا ابن عمّ أبي اليمن الكنديّ، قرأ على الجواليقيّ وتوفي سنة ٥٦٥))[١٦].

وإذا احتاجت المسألة إلى خبراته في غير العربية كالفارسية -مثلاً- أدلى برأي سديد لتجلية الأمر، قال معلّقًا على معنى لفظة (الدِّرفْس) الواردة في بيت مديح: ((وهي بالفارسية الحية: درفش "بضم ففتح فسكون" كاويان "بالواو"، منسوبة إلى كاوة الحداد "آهنكر"، تبرّكوا برقعة الجلد الذي كان يجلس عليه، فقدّموها أمامهم في الحروب))[١٧].

د- ثمة سمة أسلوبية أخرى بارزة هي من أطرف مزايا حواشيه وأكثرها حيوية وخصوصية، أعني (السخرية)، والسخرية موقف فكري قبل أن تكون طريقة مخصوصة في أداء الكلام، وهي واضحة في متونه وحواشيه على السواء، تكشف فيه عن موقفه الرافض لحال البلاد العربية والإسلامية، وواقعها المختَرق سياسيًّا واجتماعيًّا وثقافيًّا، واحتجاجه على الجهل المتفشِّي وتردِّي المستوى العلميّ، بسبب فتور الهمم وضعف التعليم، وحزنه على تراجع المدّ الحضاريّ الإسلاميّ ومستوى العطاء والإنجاز، والرضوخ للزحف الاستعماريّ الغربيّ الذي استباح نظم التعليم، وعبث بالأعراف والقيم، فنشأ الخلف مقطوعًا عن جذوره، جاهلاً بتراث أسلافه، وهي قضية أقضّت مضجعه، فاتخذ السخرية

وسيلة للتنبيه والتوجيه والرفض. يقول في بعض حواشيه: ((قد اتسع الخرق على الراقع ولم يبق للمتأخرين مجال للإقرار أو الإنكار... إلا للمجتهدين من أهل عصرنا، الذين أخذوا في بنيّات الطريق، وتنكّبوا عن جادة المحجة، فصاروا على جرف هارٍ، وأخذوا وردّوا بمجرد شبهة على استقرائهم الناقص وعلمهم البكئ))(١٨).

وتثير مثل هذه الموضوعات جرحه فيدع قلمه يسترسل على غير المعتاد في حواشيه، وينتبه أحيانًا فيستدرك قائلاً: ((وإنما أطلتُ خلافًا لعادتي لأنّ أهل العصر... صاروا من العلم أفرغ من حجّام ساباط... فإلى الله المشتكى))(١٩).

الهوامش:

* أستاذة الأدب العباسي، كلية التربية، الجامعة المستنصرية، العراق.

(١) جوانب مجهولة من حياة عبد العزيز الميمني الراجكوتي، أ.د. ظهور أحمد مظهر، **مجلة آفاق الثقافة والتراث** ع٢٩، ٣٠: ص١٥٤.

(٢) **أبو العلاء وما إليه**، المطبعة السلفية، القاهرة، ١٣٤٤هـ: ص٣٠٢.

(٣) ينظر -مثلاً- وصفه حال مكتبة جامع القرويين بفاس: (بحوث وتحقيقات)، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٩٥م، ١/ص١٩٤-١٩٦.

(٤) م. ن: ١/ص٤٧٨.

(٥) من مقدمة شاكر الفحّام لمذكراته: بحوث وتحقيقات: ١/١٥٢ حاشية ٢.

(٦) **ديوان سحيم عبد بني الحسحاس**، تحقيق: الراجكوتي، ط٣، مطبعة دار الكتب والوثاق القومية، القاهرة، ١٤٣٠هـ/٢٠٠٩م: كلمة أمين مرسي قنديل في التقديم.

(٧) تنظر -على سبيل المثال- حواشيه على **كتاب الوحشيات**، ط٣، دار المعارف، مصر: ص٢٥، ٧٧، ١٢٢، ١٧٥، ٢٢٤، وغيرها.

(٨) تنظر مقدماته: **أبو العلاء وما إليه**: ص٧-١٠، **سمط اللآلي**، أبو عبيد البكري، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة ١٣٥٤هـ/١٩٣٦م، ١/ص ق- ت، ومواضع متفرقة من حواشيه على **ديوان سحيم عبد بني الحسحاس**، وأيضًا في أغلب كتبه الأخرى التي سترد الإشارة إليها لاحقًا.

(٩) **بحوث وتحقيقات**: ١/ص٨.

(١٠) **أبوالعلاء وما إليه**: ص٢٧٧.

(١١) **التنبيهات**، علي بن حمزة البصريّ، ط٣، دار المعارف، مصر: ص٦٩ حاشية ٧.

(١٢) **سمط اللآلي**: ١/حاشية ٣ ص٣٤٦.

(١٣) **بحوث وتحقيقات**: ١/ص٥٩.

(١٤) **رسالة الملائكة**، أبو العلاء المعرِّيّ، المطبعة السلفية، القاهرة، ١٣٤٥هـ، منشورة مع كتابه **أبو العلاء وما إليه**): ص٦ حاشية ١.

(١٥) **سمط اللآلي**: ١/ص٤٦٩ حاشية ٣. البيتان في ملحق **ديوان ابن المعتز**، صنعة أبي بكر الصوليّ، تحقيق: المرحوم د. يونس أحمد السامرائي، بغداد، ١٩٧٨م: ق١/ج٣/ ص٣٩٦-٣٩٧، وقد أورد المحقق الكريم حاشية الراجكوتي.

(١٦) **أبو العلاء وما إليه**: ص٩١ حاشية ٥.

(١٧) **الفاضل**، المبرِّد (ت ٢٨٦هـ)، ط٢، دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٩٥م، ص٨١.

(١٨) **سمط اللآلي**: ٢/ص٨١٤ حاشية ٢.

(١٩) م. ن: ١/ص٥١٤ حاشية ١.

معلّقة امرئ القيس وأثرها في الشِّعر العربي

بقلم: د. عبد الحميد محمد بدران*

دأب كثير من الشعراء على مر عصور الأدب العربي على إظهار إعجابهم بقصائد معيّنة، يرونها أقرب إلى نفوسهم، وأعلق بأذهانهم وأذهان محبِّي الشِّعر، وهذا الإعجاب قد ترجمه كثير منهم في صورة محاكاة هذه القصيدة أو تلك، مقتبسين منها شيئًا مما يتعلق بها، كالوزن العروضي والإيقاع الموسيقي، أو وضوح المعاني والأفكار، ولم يقف الأمر عند حد المحاكاة وإنما تعدّاه إلى التشطير والتخميس والأخذ والتضمين وغير ذلك، مما ينمّ في نهاية الأمر عن إعجاب الشاعر بقصيدة معيّنة ورغبته في محاكاتها، ربطًا لقصيدته بما حققته هذه القصيدة من ذيوع وشهرة[1].

وقد اكتسبت معلّقة امرئ القيس شهرة واسعة في الأوساط الأدبية، لدرجة جعلتها مضرب الأمثال، ولم تكن هذه الشهرة وليدة هوًى أو تعصّب، أو وليدة خواء فني تمتلك ناصيته القصيدة، وإنما على العكس تمامًا، مثّلت القصيدة اتجاها في الشِّعر العربي، ومنهجًا في معالجة التجربة يقوم على القص، ويتكئ على التشويق والإثارة، وحضورها بهذه الكثرة في الوجدان العربي، إنما يعكس إعجابًا بطرائق الفن في هذا النص الشِّعري

الجيّد، الذي أخذ الألباب عن طريق إجادة الحكي وتتابع الأحداث، وهو إعجاب قد تعدّى حدود المعارضة والتضمين والتشطير، إلى محاذاة النهج والطريقة، بما يمكن معه أن يصير نص امرئ القيس نصًّا غائبًا، تسرّب إلى ذهن الشاعر فحاول توظيفه ليقف قارئه على مقارنة الماضي بالحاضر والتراثي بالمعاصر.

وتسليط الضوء على معلّقة امرئ القيس ينبع من كونها مثّلت منهجًا متميزًا من مناهج المعالجة الشعرية في الأدب العربي كما أشرنا، إضافة إلى ما أحدثته من رصيد فني تمثّل في حرص الشعراء على أن تظل في وجدان الشاعر العربي المسلم على مرّ العصور، على الرغم مما فيها من عبث ومجون، وإلا فهناك من قصائد امرئ القيس التي تحمل سماته الفنية ما كان ملجأ لكثير من الشعراء سواء بالتضمين أو التشطير، على النحو الذي حدث مثلاً في قصيدته التي مطلعها: (قِفَا نَبْكِ من ذكرى حبيب وعرفان) وقصيدته التي مطلعها: (ألا عِمْ صباحًا أيها الطلل البالي)، ولكنّ هذه القصائد لم تحقق من الشهرة ما حققته معلقته التي مطلعها:

قفا نبك مِن ذكرى حبيبٍ ومنزل ... بسقط اللوى بين الدخول فحومل

وقد اقتضت طبيعة البحث أن ألقي الضوء على شِعر امرئ القيس، ومدى ما حققته بعض قصائده من شهرة، ومدى تأثير معانيه الجيّدة في الشعراء من بعده، ثم ألقي الضوء على أثر معلّقة امرئ القيس في الشِّعر القديم، والتي كان الشاعر فيه مأخوذًا بدافع الإعجاب والاحتذاء، وقد ظهر أثر الاحتذاء واضحًا من خلال ظاهرتَيْ (التضمين) و(المطارحات

الشِّعرية)، ثم ألقي الضوء على أثر المعلّقة، الذي تعدّى نطاق الإعجاب والاحتذاء، إلى امتصاص نص المعلّقة من خلال التناص، ومحاولة تحويله في نص جديد، يتخذ من النص القديم نصًّا غائبًا حاضرًا في آن معًا، كما يتناول بالتحليل قصيدة من القصائد الجيّدة التي استطاعت أن تمتص معلّقة امرئ القيس بطريقة جيّدة، تضع يدها على الجرح المعاصر مِن خلال الخداع الفني وهي قصيدة (معلّقة جديدة لامرئ قيس جديد) للأستاذ الدكتور محمد أحمد العزب.

وبعد، فحسبنا أننا نطمح في التأصيل لرؤية عربية نقدية، تنطلق من تراثنا العربي، لتمدّ القارئ العربي بما يحفظ له هويته، ويحفظ للقصيدة العربية أصالتها وجودتها في آن.

﴿رَّبَّنَا عَلَيۡكَ تَوَكَّلۡنَا وَإِلَيۡكَ أَنَبۡنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ [الممتحنة الآية ٤]

شِعر امرئ القيس

لقد اكتسبت معلّقة امرئ القيس شهرة واسعة في الأوساط الأدبية، بما أنها إحدى المعلّقات الجاهلية التي حفرت لها مكانًا عاليًا بين قصائد الشِّعر آنذاك، وبما أنها تمثّل اتجاهًا فريدًا في معالجة التجربة يقوم على المغامرة والقص، ويتكئ على التشويق والإثارة في إجادة الحكي وتتابع الأحداث، وهذه الشهرة الواسعة جعلت القصيدة مضرب الأمثال، حتى قيل: (أشهر مِن قِفَا نَبْكِ)[٢]، وقال ابن نباتة[٣]:

وعادات حب هن أشهر فيك من ‍ ‍ ‍ قفا نبك من ذكرى حبيبٍ ومنزل

ونتيجة لهذه الشهرة كان هجاء من يبالغ في السطو على القصائد بأنّ آخر ما يصبو إليه هو ادّعاء نسبة قصيدة امرئ القيس له، على النحو الذي يبدو في قول أبي البركات بن الحاج مضمّنًا(٤):

لقد صرت في غصب القصائد ماهرًا   فما اسم جميع الشِّعر عندك غير لي
ولم تبق شعرًا لامرئ متأخر   ولم تبق شعرًا يا ابن فعل لأول
فشِعر جرير قد غصبت ورؤبة   وشِعر ابن مرج الكحل وابن المرحل
وان دام هذا الأمر أصبحت تدعي   "قِفا نَبْكِ من ذكرى حبيب ومنزل"

ولم يخل مدح امرئ القيس وشِعره من إشارة إلى معلّقته باعتبارها أشهر ما قال، على النحو الذي تبديه لنا قصيدة الشاعر أمين تقي الدين التي يقول فيها:

القصور الغر تفدي خيما   لبنى كندة تبتز الخياما
لابن حجر في ذراها خيمة   ظللت منه الفتى الحر الهماما
ملك في طي يروي ملكه   شاعر أبدع حتى لن يراما
أمراء الشِّعر تحني رأسها   لأمير الشعر حبا واحتشاما
يا أميري إن للعرب إذا   ذكر المجد لآيات جساما
إن تكن قد قمت فيهم ملكا   كم مليك بعدك الدهر أقاما
لم يخلد ذكرك الملك كما   خلد الشعر لك الذكر دواما
وبكيت التاج يوما ذلة   وبكيت الطلل البالي هياما
ما أذل الدمع للملك وما   أشرف الدمع إذا سال غراما

... يا امرأ القيس أطف روحك في روحنا في هذه الليلة تملأها سلاما
في فروق العرب عزت منزلاً مثلما عزت ببغداد مقاما
حيثما كانوا فهم أهل العلى لو هم لا يتحدون الخصاما
أنا لو كنت امرأ القيس لهم لأجدت القول فيهم والكلاما
فقفا نبك حبيبا لم أقل بل قفا نبك اتحادا ووئاما

ولم يقف إعجاب الشعراء بشِعر امرئ القيس عند حد معلّقته (قِفَا نَبْكِ)، وإنما تعددت النصوص التي تحمل سماته الفنية، والتي تجد قبولاً من متلقّيها سواء أكانوا شعراء أم غير شعراء، تحدوها رغبة الشاعر في ربط قصيدته بقصيدة شهيرة لأمير الشِّعر في العصر الجاهلي، كلون من ألوان الصنعة الفنية التي قد تضمن لقصيدته مزيدًا من الشيوع والشهرة، ومن ثم لا نعجب حين نجد صدى قصيدة امرئ القيس التي مطلعها: (ألا عِمْ صباحًا أيها الطلل البالي) ظاهرًا في قول أبي بكر أحمد بن جزي الكلبي الغرناطي -رحمه الله- يمدح رسول الله ﷺ في قصيدة طويلة منها(٥):

أقول لعزمي أو لصالح أعمالي "ألا عم صباحا أيّها الطال البالي"
أما واعظي شيب سما فوق لمتي "سمو حباب الماء حالا على حال"
أنار به ليل الشباب كأنه "مصابيح رهبان تشب لقفال"
نهاني عن غي وقال منبها "ألست ترى السمار والناس أحوالي"
يقولون غيّره لتنعم برهة "وهل يعمن من كان في العصر الخالي"

أغـالط دهـري وهـو يعلـم إنـني "كبرت وأن لا يحسن اللهو أمثالي"

ومـؤنس نـار الـشيب يقـبح لـهوه "بآنــسة كأنهـــا خـــط تمثـــال"

..ألا ليت شِعري هل تقول عزائمي "لخيلـي كـرى كـرة بعـد إجفـال"

فـــأنزل دارًا للرســـول نزيلـــها "قليل الهمـوم مـا يبيت بأوجـال"

فطوبى لـنفس جاورت خيرمرسلٍ "بيثـرب أدنـى دارهـا نظـر عـالي"

ومن ذكـره عنـد القبـول تعطّـرت "صـبا وشمائـل في منـازل قفـال"

جـــوار رســـول الله مجـــد مؤثـــل "و قد يـدرك المجـد المؤثـل أمثـالي"

ومن ذا الذي يثني عنان السرى وقد "كفاني ولم أطلب قليل مـن المـال"

ألم تـر أنَّ الظبيـة استـشفعت بـه "تميـل عليـه هونـة غـير مجفـال"

وقال لها عـودي فقالت لـه نعـم "ولو قطعوا رأسي لديك وأوصالـي"

وقد أجاد الشاعر في تقمص حالة امرئ القيس في لهوه ومجونـه، تمهيـدًا للندم عليها، ورغبة في الخلاص منها، من خلال زيارة الرسول ﷺ، وقـد كان موفقًا إلى مدى بعيد في التوفيق بين حـديث الـشيب ومـا استدعى مـن أشطر امـرئ القـيس (مـصابيح رهبـان تـشب لقفـال، ألـست تـرى الـسمار والناس أحوالي، وهـل يعمـن مـن كـان في العـصر الخـالي، كـبرت وأن لا يحسن اللهو أمثالي)، كما ساعدت بعـض المفـردات الموجـودة في القـصيدة في قبول المزج بين القصيدتين، على النحـو الـذي يبـدو في ذكـر (يثـرب) في قول الشاعر:

فطوبى لنفس جاورت خير مرسلٍ "بيثـرب أدنـى دارهـا نظـر عـالي"

كما يبدو في ذِكر الرأس والأوصال في معجزة الظبية في قول الشاعر :

ألم تـر أنَّ الظبيـة استـشفعت بـه "تميـل عليـه هونـة غـير مجفـال"

وقال لها عودي فقالت لـه نعـم "ولو قطعوا رأسي لديك وأوصالي"

والملاحظ هنا أنّ الشاعر في نظره وتضمينه بعض أشطر امرئ القيس لم يكن يلتزم في التقفية ترتيب أبيات القصيدة ، وإنما كان يختار من أعجازها ما يلائم الصدور التي أبدعها.

وإعجاب الشاعر المسلم بنهج امرىء القيس القصصي وتوظيفه حتى في مدح الرسول ﷺ، ثم وقوفنا على ما رواه الإمام أحمد من طريق هشيم عن أبي الجهيم الواسطي عن الزهري عن أبي سلمة عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : امرؤ القيس صاحب لواء الشعراء إلى النار[٦] ، يقف بنا على مفارقة صارخة ، إذ كيف يوظف شِعر غزلي كهذا في مدح الرسول ﷺ إلا إذا كان الشاعر مشدودًا لنهج الشاعر ، ومفتونًا بطريقته في القص ، ناهيك عن طواعية مفرداته وإيحائها بمفردات البيئة العربية ومناخها في العصر الجاهلي ، وناهيك أيضًا عما يمكن أن يكون قد قرّ في ذهن هؤلاء من ضعف هذا الحديث ، حيث يقول عنه الأستاذ أحمد شاكر : "إسناده ضعيف جدًّا ، فأبو جهم قال فيه أبو زرعة الرازي : واه ، وقال ابن عدي : شيخ مجهول لا يعرف له اسم ، وخبره منكر ، وترجم له ابن حبّان في كتاب المجروحين من المحدثين ، قال الشيخ شاكر : ولهذا الأثر قصة يذكرها الأدباء وينسبون إلى رسول الله ﷺ أنه قال : ذاك رجل

مذكور في الدنيا شريف فيها، منسيّ في الآخرة، خامل فيها يجيء معه لواء الشعراء إلى النار"(٧).

وقد تم المزج بين قصيدة امرئ القيس سالفة الذّكر ومعلّقته (قِفَا نَبْكِ) في قول أبي الحسين الجزار (يحيى بن عبد العظيم بن يحيى بن محمد بن علي أبو الحسين جمال الدين المصري)(٨):

قِفَا نَبْكِ من ذكرى قميص وسرْوالٍ ... ودُرَّاعةٍ لي قدْ عفَا رَسْمها البالِي
وما أَنا منْ يبكي لأسماءَ إنْ نأَتْ ... ولكنَّني أَبكي على فقدِ أسمالِي
لوَ انَّ امرئ القيسِ بن حُجْرٍ رأَى الذي ... أُكابدُهُ من فرطِ همٍّ وبَلبالِ
لما مالَ نحوَ الخدر خدر عنيزةٍ ... ولا باتَ إلَّا وهوَ عنْ حبّها سالِي
ولي من هوى سكنى القياس عن الهوى ... بتوضح فالمقراة أعظم أَشغالِ
... ولو أنَّني أَسعَى لتفضيل جبةٍ ... كفاني ولم أَطلب قليلاً من المالِ
ولكنَّني أَسعَى لمجدٍ بجوختةٍ ... وقد يُدْركُ المجد المؤثل أَمثالِي
... وكم ليلةٍ أَستغفرُ الله بتُّها ... بخدّ وريق بين وَرْدٍ وجِرْيالِ
تَبطَّنت فيها بَدْرَ تمٍّ مُشَنَّف ... ولم أَتَبَطَّن كاعِبًا ذات خلخالِ

كما نجد صدى قصيدة امرئ القيس التي مطلعها (قِفَا نَبْكِ مِن ذِكرى حبيب وعرفان) ظاهرًا في قول أبي الحسين الإشبيلي (عبيد الله بن محمد بن جعفر)(٩):

وذي صَلَفٍ خطَّ العذارُ بخدِّه ... كخطٍّ زبورٍ في عَسيبِ يمانِ
فقلتُ له مستفهمًا كُنْهَ حاله ... لمن طللٌ أبصرتهُ فشجاني

فقـال ولم يملـك عـزاءً لنفـسه تمتـعْ مـن الـدُّنيا فإنـك فـان
فمـا كـان إلاَّ برهـةً ورأيتـهُ كتـيسِ ظِبـاءِ الحلَّـبِ العـدوانِ

ولم يقف التأثر بشِعر امرئ القيس عند حدّ تضمين قصائد بعينها، وإنما تجاوزه إلى التأثر ببعض معانيه الجيّدة التي وقعت في شِعره، ولم تقف آلة النقد مكتوفة الأيدي أمام هذا الصنيع، وإنما أشارت إليه ونبّهت عليه على النحو الذي يبدو مثلاً في قول الزمخشري في قول العرب: (حسبك من غنى شبع ورى)، هذا من قول امرئ القيس:

إذا مـا لم تكـن إبـل فمعـزى كـأن قـرون جلتهـا العـصي
فتمـلأ بيتنـا أقطـا وسمنـا وحـسبك مـن غنـى شبـع وري

يضرب في القناعة[١٠].

كما يبدو توظيف معاني امرئ القيس في المدح في قول ابن نباتة المصري[١١]:

أحبـاء سـاروا قبلنـا لمنـازلٍ فيا صاحبي رحلى قفا نبك من ذكرى
كأنهمُ لم يركبوا ظهر سابح ولا ركبـوا في يـوم مكرمـةٍ ظهـرا
ولا بـسطوا يمنـى ببـذلِ رغيبـةٍ ولا أوجدوا من بعد جائحةٍ يسرا

فالمعنى هنا من قول امرئ القيس:

كـأني لم أركـب جـوادًا للـذة ولم أتـبطن كاعبـا ذات خلخـال
ولم أسبا الزق الروي ولم أقـل لخيل كرى كرة بعد إجفـال

ويدل على ذلك إشارة الشاعر إلى مطلع قصيدة امرئ القيس بقوله:

أحباء ساروا قبلنا لمنـازلٍ فيا صاحبي رحلى قِفَا نَبْك من ذكرى

لا نستطيع -مهما حاولنا- أن ننكر على الشاعر تأثره بنص شِعري سابق عليه، لأنّ هذه النصوص الرائدة هي التي تسهم في تشكيل وجدان الشعراء، وموقفهم منها -إيجابًا وسلبًا- هو الذي يساعد في دفع مسيرة العملية الشعرية على مر العصور، والشاعر مطالب بحفظ كثير من الأشعار، حتى يستقر في ذهنه ما راق من الأساليب الجيّدة؛ لأنّ الشِّعر -باعتراف الجاحظ- "صناعة وضرب من النسج وجنس من التصوير"[١٢]، ومن شأن الصناعة والنسج أن توضع لهما شروط ضابطة، جعل منها ابن خلدون الحفظ من جنس شِعر العرب وتعمّد نسيان ذلك المحفوظ، وذلك "حتى تنشأ في النفس ملكة ينسج على منوالها، ويتخيّر المحفوظ من الحر النقي الكثير الأساليب... ومن كان خاليًا من المحفوظ فنظمه قاصر رديء، ولا يعطيه الرونق والحلاوة إلا كثرة المحفوظ، فمن قل حفظة أو عدم لم يكن له شِعر، وإنما هو نظم ساقط، واجتناب الشِّعر أولى بمن لم يكن له محفوظ، ثم بعد الامتلاء من الحفظ وشحذ القريحة للنسج على المنوال يقبل على النظم، وبالإكثار منه تستحكم ملكته وترسخ، وربما يقال إنّ من شرطه نسيان ذلك المحفوظ، لتمحى رسومه الحرفية الظاهرة، إذ هي صادة عن استعمالها بعينها، فإذا نسيها وقد تكيفت النفس بها، انتقش الأسلوب فيها، كأنه منوال يأخذ بالنسج عليه بأمثالها من كلمات أخرى ضرورة"[١٣].

ولعل ذلك هو ما جعل كثيرًا من أصحاب الموهبة الشعرية يحرصون على تجويد إنتاجهم، من خلال العمل برواية أشعار الفحول، نتيجة لإعجابهم بطرائقهم الفنية في تناول المعاني، على النحو الذي يبدو في مقولة أبي الفرج الأصبهاني: "أخبرني محمد بن العباس اليزيدي قال أخبرني محمد بن الحسن الأحول عن رواية من الكوفيين قالوا كان جميل ابن معمر العذري راوية هدبة وكان هدبة راوية الحطيئة وكان الحطيئة راوية كعب بن زهير وأبيه"(١٤)، كما يبدو أيضًا من قول ابن قتيبة في أبي ذؤيب الهذلي الشاعر: "كان راوية لساعدة بن جؤية الهذلي"(١٥).

ولكم ألح النقد العربي القديم في التأكيد على أنّ الشعراء كانوا يستمدون معانيهم ممن سبقهم، لأنّ العبرة في نظر كثير منهم لم تكن في المعاني إذ هي بتعبير الجاحظ: "مطروحةٌ في الطريق يعرفها العجميُّ والعربيُّ والبدويُّ والقرَوي والمدنيّ وإنَّما الشأنُ في إقامةِ الوزن وتخيُّر اللفظ وسهولة المخرج وكثرة الماء، وفي صحَّة الطبع وجَودَة السَّبك"(١٦)، ومن ثم لا نعجب حين نقف على قول الآمدي: إنّ "أهل العلم بالشِّعر لم يكونوا يرون سرقات المعاني من كبير مساوي الشعراء وخاصة المتأخرين، إذ كان هذا بابًا ما تعرّى منه متقدم ولا متأخر"(١٧) وقول القلقشندي: "وهذا مما لا يستغني عنه ناظم ولا ناثر"(١٨).

نذكر هذه المقدمة تمهيدًا للوقوف على التراث الشعري الضخم الذي تمخّضت عنه معلّقة امرئ القيس في أفئدة الشعراء، وهذا التراث لم يكن على درجة واحدة من الجودة أو الاحتذاء، وإن كان على درجة متقاربة

في الإعجاب بالقصيدة، وهذا اللون من الإعجاب والاحتذاء يعدّ بابًا من أبـواب التـأثير والتـأثر في المعـاني والألفـاظ، يـتمّ بـه حفـظ الحيـاة للـشِّعر العربي، أو للفرائد منه على وجه الخصوص، إذ إنّ في استئناس اللاحق ببيت السابق حياة لهذا البيت وقصيدته وتخليد لذكرهما، ومحاولـة التأكيـد على استمرار القصيدة حية في الوعي الجمعي، بما يعـدّ إضـافة لفـنّ الـشِّعر وليس طرحًا منه على الإطلاق.

وقد اختلفت مشارب الشعراء في احتذاء معلّقة امرئ القيس، مع تبـاين واضح في الاهتمام بالشكل والموضوع، فمن الشعراء من حاول استلهامها عـن طريـق التـضمين أو التـشطير أو المطارحـة، مـن خـلال قـصائد أو مقطّعات(١٩) أو أبيات يبـدو فيهـا جليًّـا أثـر المعلّقـة، حتـى وإن اختلـف مـع موضوعها اختلافًا بيّنًا.

ويمكن تقسيم التراث الشعري القائم على الإعجاب والاحتذاء إلى قسمين رئيسين هما التضمين والمطارحات على النحو الذي يعكسه البيان التالي:

أ- التضمين:

والتضمين هـو أن يـضمن المتكلم -عامـدًا أو غـير عامـد- كلامـه شـيئًا مشهورًا مـن منثـور غـيره أو منظومـه، للتـدليل بهـا علـى المعنـى الـذي هـو بصدده، ومن ثم فهو يختلف عن المعارضة من حيـث إنّ "الـشاعر المضمن لا يتحتم عليـه الالتـزام بغـرض الـشاعر الآخـر ولا بمعانيـه، أمّـا المعارضـة فتعني التزام الشاعر بغرض الآخر الذي يعارضه ووزنه وقافيته دون لفظـه وعبارته"(٢٠).

"على أنّ التضمين قد يكون بقصد، وقد يكون بغير قصد، فالتضمين المقصود يقف الشاعر حياله قبل إنشاء النص جاهدًا في أن يوفق في السبك الدقيق بين فكره والفكر الذي يحمل القول المضمن به، ويتوفر هذا اللون من التضمين في المعارضات التي قامت على الإعجاب والاستعانة، فالتضمين له وجود في خيال ونية المضمن، أمّا معارضات التحدّي فلا مجال فيها للتضمين، والمعارضات التي قامت على التسلي غالبًا ما يكون التضمين فيها سرقة، ذلك أنّ الشاعر الذي يتسلّى ليس لديه من الوقت والقدرة ما يغنيه عن الاستعانة بفكر غيره، فيضمن أو قل فيسرق، حينئذ يكون التضمين غير مقصود لذاته"(٢١).

ويمكن أن نقف على تطور النظرة الشاعرة للنص الشعري التراثي، من خلال رصد مضمنات معلّقة امرئ القيس، وكيف أثّرت هذه المعلّقة في الوعي الجمعي لدى أدباء العرب المسلمين، على الرغم مما فيها من عبث ومجون، يقول أبو بكر الصولي: "حضرت باب علي بن عيسى الوزير، ومعنا جماعة من أجلاّء الكتّاب، فقدمت دواة وكتبت:

وقفت على باب ابن عيسى كأنني ... قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل
إذا جئت أشكو طول فقري وخلتي ... يقولون لا تهلك أسى وتجمل
ففاضت دموع العين من قبح ردهم ... على النحر حتى بل دمعي محملي
لقد طال ترددي وقصدي إليهم ... فهل عند رسم دارس من معول

فنُمّ الخبر إليه فاستدعاني، و قال: يا صولي، فهل عند رسم دارس من معول؟ فاستحييت، وقلت: أيّد الله الوزير، ما بقي شيء، و أنا كما ترى، فأمر لي بخمسة آلاف درهم فأخذتها، وانصرفت(٢٢).

والواضح أنّ الصولي لم يكن يقصد تشطير قصيدة امرئ القيس، لأنه لم يزد على هذه الأبيات، وإنما قفز الشطر الأول من المعلّقة إلى ذهنه عندما أراد أن يشبّه وقوفه بباب ابن عيسى بوقوف امرئ القيس على أطلال حبيبته دون جدوى، إلا ما يكون من ذكرى الحبيب ومنزل الحبيب، ثم خضع الشاعر لمغريات الصورة فمزج بين شِعره وشِعر امرئ القيس، لينتهي مع ما انتهى إليه الشاعر من أنّ الرسم الدارس ليس يرجى من ورائه الخير، وهذا الشطر بعينه هو الذي حرك الوزير لعطاء الرجل، في محاولة عملية منه لنفي زعمه.

ويبدو أنّ موقف الصولي قد أعجب أبا الطيب المصعبي محمد بن حاتم فاستدعاه وعارضه بطريقة جيدة حيث يقول(٢٣):

أَكتاب ديوانِ الرَّسائل مالكمْ   تحمَّلتُم بل مُتُّمُ بالتحمّلِ
وأَرزاقكُمْ لا تَستْبينُ رُسومها   لما نَسجَتها من جَنُوبِ وشمأَلِ
إذا ما شكا الإِفْلاسَ والضّرّ بعْضكم   تقولون لا تهْلِكْ أَسًى وتجمَّل
خُلِقْتُمْ على بابِ الأَميرِ كأَنَّكُمْ   قفا نَبْكِ من ذكرى حبيب ومنزلِ

ولم يقف الأمر عند هذا الحد، وإنما وجدنا من يضع نص امرئ القيس نصب عينيه وهو يحاول مدح الرسول ﷺ، على ما يبدو فيما نقله صاحب نفح الطِّيب من قول أبي جعفر الألبيري:

خليلـيّ هـذا قـبر أشـرف مرسـل "قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل"
رويدكما نبكي الذنوب التي خلت "بسقط اللوى بين الدخول فحومل"
منـازل كانـت للتـصابي فـأقفرت "لما نسجتها من جنوب وشمأل"

قال: ثم جرى على هذا النمط، واستخرج الدرر النفيسة من ذلك السّفط، وقال قبله: إنّه أخذ أعجاز هذه القصيدة من أولها إلى آخرها على التوالي، وصنع لها صدورًا، وصرفها إلى مدح النبي ﷺ، فجاء في ذلك بما لم يسبق إليه، ولم يقف أحد في تلك المعاني على ما وقف عليه"[٢٤].

والواضح أنّ أبا جعفر الألبيري هنا قد عمل على محاورة النص التراثي، عن طريق الابتعاد به عن أصل وضعه، إلى مدح النبي ﷺ، حيث عمد إلى تشطير قصيدة امرئ القيس، على عادة الأندلسيين حين يفتنون بشِعر المشارقة، ومن ثم ينهالون عليه معارضة وتضمينًا وتشطيرًا وتخميسًا.... الخ، وقد ساعده على ذلك طواعية معاني المعلّقة -كما أشرت سابقًا- لمعاني الحزن والبكاء شوقًا لزيارة الرسول ﷺ، وندمًا على الذنوب التي تورّط فيها المسلم، فالوصول إلى القبر استدعى الوقوف الباكي عند امرئ القيس، وتذكّر الذنوب من الشاعر استدعى أماكن حدوثها عند امرئ القيس، حيث يرمز (سقط اللوى) إلى مكان مغامراته العابثة، وتغيّر حال الأماكن بمرور الزمن يستدعي سبب تغيّر الديار عند امرئ القيس بفعل الرياح وهكذا.

وإذا كان التضمين في الأمثلة السابقة تضمينًا بسيطًا لا يتعدّى ثلاثة أشطر من المعلّقة، فإن هناك من النماذج ما كان التضمين فيها موسّعًا إلى أبعد غاية، ويتضح ذلك جيّدًا من قصيدة أبي الحسن حازم القرطاجني[٢٥]، الذي استطاع أن يمزج بين معاني المعلّقة ومعاني مدح المصطفى ﷺ بصورة جيّدة في قصيدة بلغت أبياتها سبعة وسبعين بيتًا، وفيها يقول[٢٦]:

لعينيك قُلْ إن زرْت أَفضلَ مرسل	قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل
وفي طيْبَة فانزل ولا تغش منزلاً	بسقط اللّوى بينَ الدُّخُولِ فحوملِ
وزر قد طالما طاب نشرها	لَمّا نسجتها من جنوب وشمأل
وأثوابك أخلع محرما ومصدقا	لدى الستر إلاّ لبسة المتفضل
لدى كعبة قد فاض دمعي لبعدها	على النحر حتى بل دمعي محملي
فيا حادي الآبال سربي ولا تقل	عقرت بعيري يا امرأ القيس فانزل
فقد حلفت نفسي بذاك وأقسمت	علـى وآلـت حلفـة لم تحلـل
فقلت لها لا شك أني طائع	وأنك مهما تأمري القلب يفعل
وكم حملت في أظهر العزم رحلها	فيا عجبا من كورها المتحمل
وعاتبت العجز الذي عاق	فقالت لك الويلات إنك مرجلي
نبيّ هُدًى قد قالَ للكُفْرِ نورُه	ألا أَيُّها اللَّيلُ الطَّويلُ ألا انْجَلي

فالبكاء لذكر الحبيب عند الوقوف على منزله هو الذي سوغ للشاعر أن يستلهم شطر امرئ القيس، وأن يمتزج هذا الشطر في البناء الفني

للقصيدة انسجامًا جعل الشاعر لا يغادر معانيها، طالما أنها قادرة على إسعافه ببغيته مع تحقيق الصدق الفني الذي ينبغي أن يكون متوفرًا في موقف كهذا، ولكن الأمر لم يسر في القصيدة على وتيرة واحدة، فقد أجاد الشاعر التضمين في مواضع وأخفق في أخرى، وكان مما أجاد فيه قوله:

وكم لنبيث للفؤاد منابثٍ	"نصيح على تعذاله غير مؤتل"
ينادي إلهي إنَّ ذنبي قد عدا	"على بأنواع الهموم ليبتلي"
فكن لي مجيرًا من شياطين شهوةٍ	"على حراص لو يسرون مقتلي"
وينشد دنياه إذا ما تدللت	"أفاطم مهلا بعض هذا التدلل"
فإنَّ تصلي حبلى بخير وصلته	"وإنَّ كنت قد أزمعت صرمي فأجملي"
وأحسن بقطع الحبل منك وبته	"فسلى ثيابي من ثيابك تنسل"
أيا سامعي مدح الرسول تنشقوا	"نسيم الصَّبا جاءت بريا القرنفل"
وروضة حمد للنبي محمّد	"غذاها نمير الماء غير المحلل"
ويا من أبي الإصغاء ما أنت مهتدٍ	"وما إنَّ أرى عنك العماية تنجلي"
فلو مُطفلا أنشدتها لفظها ارعوت	"فألهيتها عن ذي تمائم محول"

وتكمن الإجادة في انصهار شطرات امرئ القيس في نسيج النص الشعري للقصيدة، على نحو لا نشعر معه بأنّ هذه الأشطر شطرات مضمنة، فالذنب يحاصر الشاعر بأنواع الهموم كما حاصر الليل امرأ القيس، وشياطين الشهوة تريد الخلاص من الشاعر كما كان يريد الحراس الخلاص من امرئ القيس، ومن ثم يرجو الشاعر من الدنيا ألا تتدلل عليه كما كان امرؤ القيس يطلب من حبيبته وهكذا.

والأمر ذاته نجده في قول سيف الدين علي بن عمر بن قذل المشد لَمّا وقع بالمدينة الشريفة رعد وزلزلة ونيران، واستغاث الناس، وأقلعوا عن المعاصي[٢٧].

ألا سلما عني على خير مرسل ... ومن فضله كالسيل ينحط من عل
واشرف من شدت إليه رحالنا ... لتورد هيم الشوق أعذب منهل
تحملن منا كل أشعث أغبر ... فيا عجبا من رحلها المتحمل!
إلى سيد جاءت بعالي محله ... ومعجزه آي الكتاب المنزل
نبي هدانا للهدى بأدلة ... فهمنا معانيها بحسن التأول
محمد المبعوث والغي مظلم ... فأصبح وجه الرشد مثل السجنجل
وقولا له: إني إليك لشيق ... عسى الله يدني من محلك محملي
فتخمد أشواقي وتسكن لوعتي ... وأصبح عن كل الغرام بمعزل
ولما نفى عني الكرى خبر التي ... أضاءت بإذن ثم رضوى ويذبل
ولاح سناها من جبال قريظة ... لسكان تيما فاللوى فالعقنقل
... لها شرر كالبرق لكن شهيقها ... فكالرعد عند السامع المتأمل
وأصبح وجه الشمس كالليل كاسفًا ... وبدر الدجى في ظلمة ليس تنجلي
وغابت نجوم الجو قبل غروبها ... وكدرها دور الدخان المسلسل
وهبت سموم كالحميم فأذبلت ... من الباسقات الشم كل مذلل
وأبدت من الآيات كل عجيبة ... وزلزلت الأرضون أي تزلزل
وأيقن كل الناس أنّ عذابهم ... تعجل في الدنيا بغير تمهل

وأعولـت الأطفـال مـع أمهاتهـا فيا نفس جودي، يا مدامعي أهملي

وقد ذكر الشاعر ما حدث بالمدينة من أهوال، تمهيدًا لذِكر بركة الرسول ﷺ ووجوب الوقوف على قبره محرمًا ومُلبِّيًا حيث يقول:

جزعت فقام الناس حولي وأقبلوا يقولـون: لا تهلـك أسـى وتجمـل
لعـل إلـه الخلـق يـرحم ضـعفهم ومـا أظهـروه مـن عظيم التـذلل
وتـاب الـورى واستغفروا لـذنوبهم ولاذوا بمنـوال الكـريم المبجـل
شفعت لهم عنـد الإلـه فأصبحوا مـن النـار في أمـن وبـر معجـل
أغـاثهم الـرحمن منـك بنفحـة ألـذ وأشـهى مـن جنـى ومعـسل
طفى النار نور من ضريحك ساطع فعـادت سـلامًا لا تـضر بمصطلي
فيـا راحـلا عـن طيبـة إن طيبـة هي الغاية القـصوى لكـل مؤمـل
قفـا نبـك ذكراهـا فـإنّ الـذي بهـا أجـل حبيب وهـي أشـرف منـزل
دخلـــت إليهـــا محرمًـــا ومُلبِّيًـــا وأضربت عن سقط الدخول فحومل
مواقـف أمـا تربهـا فهـي عنـبر وأمـا كلاهـا فهـو نبـت القرنفـل
يفـوح شـذاها ثـم يعقـب نـشرها لمـا راوحتهـا مـن جنـوب وشمأل
فيـا خـير مبعـوث وأكـرم شـافع وأنجـح مـأمول وأفـضل موئـل
عليـك سـلام الله بعـد صلاتـه كمـا شـفع المسك العبيـق بمنـدل

والجديـد في هـذا الـنص هـو تحـرر الـشاعر مـن الوقـوع في أسـر أشـطر المعلّقـة، وإن ظـل شـكلها وألفاظهـا حاضـرين فيهـا بـصورة واضـحة أتـى تضمينه خلالها خافتًا وموحيًا في آن معًا، ناهيك عن المزج الجيّد بـين طيبـة

والحبيبة في نهاية النص، وإن كنّا نرى أنّ التضمين في قول الشاعر في مطلع قصيدته:

ألا سلِّما عنِّي على خير مرسل ومن فضله كالسيل ينحط من عل

غير واقع في موقعه، فقد كان تصويره فضل النبي ﷺ بالسيل تصويرًا غير جيّد، حتى بالنظر إلى فائدة السيل المرجوة بعد ذلك، لأن صورة الهلاك المصاحب للسيل تتنافى وصورة الهدى والرحمة المصاحبين فضل النبي ﷺ.

ولم يقف الأمر عند توظيف النص في مدح الرسول ﷺ، وإنما تعدّاه إلى مدح بعض الكتّاب والشعراء، مع حسن استغلال نص امرئ القيس، والبعد عن تشطيره تشطيرًا آليًّا متعمدًا، على ما يبدو فيما نقله المحِبِّي من قول رمضان بن موسى العطيفي(٢٨):

أتاني نظامٌ منك يُزري بحسنِه "قفا نبكِ من ذكرى حبيب ومنزل"
وأشْممني منه أريجًا كأنه نسيمُ الصَّبا جاءت بريَّا القرنفلِ
فيا واحدَ الدنيا وليس مُدافعٌ ويا من غدا مدحي له مع تغزُّلي
بعثتَ لنا عقدًا ثمينًا فلو رأى جواهره النَّظَّامُ ولَّى بمعزلِ
ولو أن رآه امرؤُ القيسِ لم يقُل ألا أيُّها الليلُ الطويلُ ألا انْجلِي
فمن يكُ نظَّامًا فمثلُك فليكُنْ فصاحة ألفاظٍ بمعنًى مكمَّلِ
رقيقٌ لطيفٌ رائقٌ متحبّبٌ إلى كلِّ نفسٍ وهو في العينِ كالحِلِي
يفوحُ عبير المسكِ من طيِّ نشرِه فكيف وقدْ ألْغزتهُ في القرَنْفلِ
فلا زِلت تَحبونا بكلِّ فضيلةٍ ولا زلتَ تُحيينا بعلمٍ مفضَّلِ

ولا زلـتَ للـدنيا إمامًـا وسيِّــدًا   وعلمكَ يُروى للحديثِ المسلسَلِ

كما يبدو المدح أيضًا في قصيدة ابن نباتة المصري التي يقول فيها(٢٩):

خليلـي والـشواق تـروي حـديثها   دموع الأسى من مرسلٍ ومسلسل
علـى نـازل بالقلـب مرتحـل بـه   قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل
وإلا انظـرا مـن خالـه فـوق خـدِّه   إلى خير نـارٍ عنـدها خير مـصطل
سـبكت بهـا ودي فـصح كأنـه   سـجايا بـني الـسبكي للمتأمـل
أولئـك سـاداتي الـذين هـمُ هـمُ   غيـاث المرجـى عـصمة المتوسـل
لقاضـي قـضاة المسلمين عليهـا   نـــدًى ويـــدٍ كالبـــارق المتهلـــل
إمـام لنــا مــن اسمـه وسماتـــه   سيول من الأرزاق تنحط من عـل

ومن الصور الساخرة التي وضعت معلقة امرئ القيس نصب عينيها ما صنعه فخر الدين بن مكانس في مداعبة رجل من أصحابه كان كبير الأنف(٣٠):

تأنف عن وصـفِ الغـزالِ تَغَزُّلـي   بلحية أَنـف ذي عِقَـاصٍ ومُرْسَـلِ
من البقِّ فيها جُمْلة قـد تعرضـت   تعـرض أثنـاء الوشـاح المفـصَّلِ
فيا قبْحَ شعر فـوقَ أنْفٍ معَرْقَفٍ   أثيـــث كقِنْـــوِ النخلَـــةِ المتعثكـــلِ
وقـالوا اختبـئ في شـعره فكأَنَّـه   كـــبير أنـــاسٍ في بجـــادٍ مزمّـــلِ
ترى القمل والصئبان في عَرَصاتها   وقيعانهـــا كأَنَّـــه حـــبُّ فلفـــلِ
...وكم قلتُ إذ أرخى ذوائِبَ أنفِهِ   علـــيَّ بـــأنواع الهُمـــومِ ليبتَلـــي
أَلا أَيُّهـا اللَّيـلُ الطَّويـلُ أَلا انجلـي   بصبحٍ وما الإصباحُ منكَ بأَمثـلِ

كأنَّ الفُسا إن قِيسَ معْ ريح أنفِهِ نسيم الصّبا جاءَت بريَّا القرنفلِ
ترى شعرات الأنفِ سدَّتْ خدودهُ لما نسجتها من جنوب وشمأَلِ
وقد دَرَست بالأَنفِ آثارُ وجهه فهل عند رسمٍ دارسٍ من معوّلِ
كأنّي لمولانا على وَصْفِ أَنفِهِ تولّى بأَعْجاز وناءَ بكلكلِ
وَجرد شَعْرَ الأَنفِ منا وجاءَنَا بمنجردٍ قيدِ الأَوَابدِ هيكلِ
مكرٌّ مفرٍّ مقبلٍ مُدبرٍ معًا كجلمودِ صخرٍ حطَّهُ السَّيل من عَلِ

وهي لوحة شعرية جيّدة تحمل صورة كاريكاتيرية ساخرة، تركز على وصف الشعر والأنف، وهي تعتمد على انتقاء جيد لمجموعة من أعجاز قصيدة امرئ القيس، ولعل هذه الجودة هي التي جعلت ابن حجة الحموي يقول: "والذي أقوله المهيع الذي اخترعه الصاحب فخر الدين بن مكانس ومشى عليه في تضمين هذه المعلّقة يعدّ من المعلّقات في بابه فإنه ضمنها في مداعبة رجل من أصحابه كان كبير الأنف وأتى بما لا اختلج في صدر متأدب ولا سمع بعده المرقص والمطرب"(٣١).

وعلى الرغم من التزام العجز من معلّقة امرئ القيس في بعض القصائد السابقة، فإنّ هذا النوع لا يسمّى تشطيرًا، وإنما هو انتقاء للأعجاز التي تتوافق ومراد الشاعر، مما يتيح لها قدرًا من التميّز وعدم افتعال المعاني، لأنّ التشطير هو "أن يعمد الشاعر إلى بيت أو أبيات لغيره، فيجعل الشطر الأول (الصدر) صدرًا له، ثم يكمل البيت بعجز من عنده، ويبدأ البيت الثاني بصدر من عنده، ثم يختمه بعجز البيت الأصلي، فيصبح البيت المأخوذ بيتين"(٣٢).

(للبحث صلة)

الهوامش:

* كلية العلوم والآداب بالرس- جامعة القصيم- المملكة العربية السعودية.

(١) ينظر: **تاريخ المعارضات في الشِّعر العربي**. د. محمد محمود قاسم نوفل، مؤسسة الرسالة الأولى، ١٩٨٣م، ص١٥٥.

(٢) ينظر: **المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر**، أبو الفتح ضياء الدين نصر الله بن محمد ابن محمد بن عبد الكريم المعروف بابن الأثير، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٩٥م ٢/٢١٨، و**خزانة الأدب وغاية الأرب**، ابن حجة الحموي، تحقيق: عصام شقيو، دار ومكتبة الهلال، بيروت، الأولى، ١٩٨٧م، ٢/١٠٧.

(٣) **ديوان ابن نباتة** ص١٥١٠.

(٤) **الكتيبة الكامنة في من لقيناه بالأندلس من شعراء المائة الثامنة**، لسان الدين بن الخطيب، إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، لبنان، الأولى، ١٩٦٣م، (١/٩٨).

(٥) نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، أحمد بن محمد المقري التلمساتي، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٦٨م، ٥/٥١٨، ٥١٩.

(٦) **المسند**، أحمد بن حنبل، شرح أحمد شاكر، دار الحديث الأولى ١٩٩٥م، ٦/٥٣٠، ٥٣١.

(٧) تنظر القصة في: **عيون الأخبار**، ابن قتيبة، دار الكتب المصرية، القاهرة، الأولى، ١٩٣٠م، ١/١٤٣، ١٤٤، و**الأغاني**، أبو الفرج الأصبهاني، تحقيق: علي مهنا وسمير جابر، دار الفكر للطباعة والنشر، لبنان، ٨/٢٠٨، و**لسان العرب**، محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري، دار صادر، الأولى، ٢/٣١٥، و**تاج العروس من جواهر القاموس**، محمد مرتضى الحسيني الزبيدي، تحقيق: مجموعة من المحققين، دار الهداية ٦/٨١، و**كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال**: علاء الدين علي المتقي ابن حسام الدين الهندي، تحقيق: محمود عمر الدمياطي، دار الكتب العلمية،

بيروت، الأولى، ١٩٩٨م، ١٧/١٤، وفيه: عن هشام بن محمد الكلبي عن فروة بن سعيد عن عفيف ابن معد يكرب عن أبيه عن جدّه قال قدم قوم من اليمن على رسول الله ﷺ فقالوا يا محمد أحيانا الله ببيتين من شِعر امرئ القيس بن حجر، قال وكيف ذلك؟ قالوا: أقبلنا نريدك فضللنا فبقينا ثلاثًا بغير ماء فاستظللنا بالطلح، فأقبل راكب ملتثّم بعمامة وتمثّل رجل منّا ببيتين:

ولَمّا رأت أنّ الشريعة همها وأنّ البياض من فرائصها دامي

تيممت العين التي عند ضارج يفيء عليها الطلح عرمضها طامي

فقال الراكب من يقول هذا الشِّعر؟ قال امرؤ القيس بن حجر. قال فلا والله ما كذب هذا ضارج عندكم، فجثونا على الراكب إلى ماء كما ذكر عليه العرمض يفيء عليه الطلح فشربنا ريّنا وحملنا ما بلغنا الطريق فقال النبي ﷺ: ذاك رجل مذكور -وفي لفظ مشهور- في الدنيا شريف فيها منسي في الآخرة خامل فيها يجيء يوم القيامة معه لواء الشعراء يقودهم إلى النار.

(٨) **معاهد التنصيص على شواهد التلخيص**: الشيخ عبد الرحيم بن أحمد العباسي، دار الطباعة المصرية، ١٢٧٤هـ، ص٥٧٧، ٥٧٨، والشاعر هو يحيى بن عبد العظيم بن يحيى ابن محمد بن علي أبو الحسين جمال الدين المصري المعروف بابن الجزار. ذكر أنّ مولده سنة إحدى وست مئة والله أعلم، وتوفي يوم الثلاثاء ثاني عشر شوال بمصر، ودفن بإحدى القرافتين رحمه الله تعالى. سمع أبا الفضل أحمد بن محمد بن الحباب، وروى عنه، وسمع من غيره أيضًا، كان إمامًا أديبًا فاضلاً، جيّد البديهة، حلو المجون، دمث الأخلاق، حسن المحاضرة، وله أشعار كثيرة مدح الملوك والأمراء والوزراء والأعيان وغيرهم، وكان من محاسن الديار المصرية، وله نوادر مستطرفة، ووقائع مستملحة، ومداعبات ظريفة، ومكاتبات إلى الأدباء وغيرهم.

(٩) **الوافي بالوفيات**: صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي، تحقيق: أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، دار إحياء التراث، بيروت، ٢٦٨/١٩.

(١٠) **المستقصى في أمثال العرب**: جارالله محمود بن عمر الزمخشري، دار الكتب العلمية، بيروت، الثانية، ١٩٨٧م، ٦٣/٢.

(١١) **ديوان ابن نباتة المصري** ١/٨٠٥.

(١٢) **الحيوان**: للجاحظ، تحقيق: عبد السلام هارون، مصطفي البابي الحلبي، الثانية، ١٩٦٥م، ١٣٢/٣.

(١٣) **مقدمة ابن خلدون**، عبد الرحمن بن خلدون، دار ابن خلدون بالإسكندرية، ص٤٢٢.

(١٤) ينظر: **الأغاني** ٢٧٦/١٠.

(١٥) **الشِّعر والشعراء** لابن قتيبة، تحقيق: أحمد شاكر، دار الحديث، الثالثة، ٢٠٠١م، ج٦٥٣/٢.

(١٦) **الحيوان** ١٣١/٣، ١٣٢.

(١٧) **الموازنة**: الحسن بن بشر بن يحيى الآمدي، تحقيق: السيد أحمد صقر، دار المعارف، الرابعة، ١٩٨٢م، ٣١١/١.

(١٨) **صبح الأعشى**: لأبي العباس أحمد القلقشندى، الهيئة العامة لقصور الثقافة، ٢٠٠٤م، (**الذخائر** ١٣١) ج ٢٨٨/٢، طبعة مصوّرة عن طبعة دار الكتب الخديوية).

(١٩) المقطّعات: جمع مقطّعة، وهي ما دون القصيدة يقول ابن منظور: "وقالوا شِعرًا قصّد إذا نقح وجوّد وهذب... وليست القطعة إلا ثلاثة أبيات أو عشرة أو خمسة عشر، فأمّا ما زاد على ذلك فإنما تسميه العرب قصيدة"، كما يقطع الفيروزآبادي بأنّ المقطّع إنما يطلق على كل قصير فيقول: "والمقطَّعة كمعظَّمة، والمقطّعات القصار من الثياب... ومن الشِّعر قصاره وأراجيزه... ويقال للقصير مقطّع مجذّر"؛ ينظر: **لسان العرب** (قطع) و**القاموس المحيط**: مجد الدين الفيروزآبادي، دار الحديث. (قطع).

(٢٠) **المعارضة في الأدب العربي**: د. إبراهيم عوضين، مطبعة السعادة، ط الأولى، ١٩٨٠م، ص٢٤.

(٢١) **من حديث المعارضات الأدبية**: د. عبد الوارث الحداد، مطبعة السعادة، الأولى، ١٩٨١م، ص٥٤.

(٢٢) **نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة**: القاضي أبو علي المحسن بن علي التنوخي، تحقيق: عبود الشالجي، دار صادر، بيروت، ١٩٧٣م، جـ٢٥٢/٧.

(٢٣) **يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر**: أبو منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل الثعالبي، تحقيق: د. مفيد محمد قمحية، دار الكتب العلمية، بيروت/لبنان، الأولى، ١٩٨٣م، ٨٨/٤؛ وأبو الطيب المصعبي محمد بن حاتم كان في جميع أدوات المعاشرة والمنادمة وآلات الرياسة والوزراة على ما هو معروف مشهور، وكانت يده في الكتاب ضرة البرق وقلمه فلكي الجري وخطه حديقة الحدق وبلاغته مستملاة من عطارد وشِعره باللسانين نتاج الفضل وثمار العقل، ولَمّا غلب على الأمير السعيد نصر بن أحمد بكثرة محاسنه ووفور مناقبه ووزر له مع اختصاصه بمنادمته لم تطل به الأيام حتى أصابته عين الكمال وأدركته آفة الوزارة فسقى الأرض من دمه ينظر: **يتيمة الدهر** ٩٠/٤، ونسبها العباسي لأبي منصور العبدوني. ينظر: **معاهد التنصيص**، ص٥٧٦.

(٢٤) **نفح الطيب** ٦٨٦/٢.

(٢٥) حازم بن محمد بن حسن، ابن حازم القرطاجني أبو الحسن، ٦٠٨-٦٨٤هـ/ ١٢١١-١٢٨٥م أديب من العلماء له شعر، من أهل قرطاجنة شرقي الأندلس، تعلّم بها وبمرسية وأخذ عن علماء غرناطة وإشبيلية وتتلمذ لأبي علي الشلوبين ثم هاجر إلى مراكش، ومنها إلى تونس، فاشتهر وعُمّر وتوفي بها. وله (ديوان شِعر- ط) صغير وهو صاحب المقصورة التي مطلعها:

لله ما قد هجت يا يوم الندى ... على فؤادي من تباريح الجوى

شرحها الشريف الغرناطي في كتاب سمّاه **رفع الحجب المنشورة على محاسن المقصورة**، من كتبه: **سراج البلغاء**، طبع طبعة أنيقة محققة باسم (**مناهج البلغاء وسراج الأدباء**).

(٢٦) **نفح الطّيب**: ٥٢٠/٥-٥٢٣، و**معاهد التنصيص**: ص٥٧٦، يقول العباسي: "الأحسن في هذا النوع صرفه عن معناه الأول، فمن ذلك قول أبي الحسن حازم في تضمين قصيدة امرئ القيس وقد صرف معانيها إلى مدح النبي ﷺ".

(٢٧) **حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة**: عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي، محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي وشركاه، الأولى، ١٣٨٧هـ/١٩٦٧م، ٢/ ٤٧، ٤٨.

(٢٨) **نفحة الريحانة ورشحة طلاء الحانة**: محمد بن فضل الله بن محب الدين بن محمد المحبي، تحقيق عبد الفتاح محمد الحلو، دار إحياء التراث العربي، الأولى، ١٩٦٧م، ج١/ ٥٧٣، ٥٧٤.

(٢٩) **ديوان ابن نباتة المصري** ١/ ١٥٨٠.

(٣٠) **معاهد التنصيص**: ص٥٧٧، و**خزانة الأدب وغاية الأرب**: ٢/ ٣٢٦، وما بعدها.

(٣١) **خزانة الأدب وغاية الأرب**: ٢/ ٣٢٨.

(٣٢) **المعارضة في الأدب العربي**: ص٣١.

كِتابُ "المِحَن" بَيْنَ تَحْقِيقَيْن

بقلم: د. عمر بن سليمان العقيلي ❖

تَعَرَّفْتُ على "**كتاب المِحَن**" لأَبي العَرَب محمد بن أحمد التميمي (ت ٣٣٣هـ/٩٤٤م) في صَيف عام ١٩٧٦م (١٣٩٦هـ) مِن خلال الدراسة الوَصفيَّة التي أَعَدَّها: م. ج. كِسْتَر[١] للنسخة المخطوطة، الوحيدة والفريدة لهذا الكتاب، التي تحتفظ بها مكتبة جامعة كَمْبرِدج في إنجلترا (برقم Qq٢٣٥). وكان كِسْتَر قد بَعَث بنسخة مِن تلك الدراسة[٢] إلى أُستاذي محمد عبد الحَي شَعبان[٣]. فذَهبْتُ إلى كمْبرِدج وقرَأْتُ الكتاب. ثمّ أَحضَرتُ نُسخةً مُصوَّرَةً وبدأْتُ في تحقيقها، وأنهَيتُ دراستي في صيف عام ١٤٠١هـ/١٩٨١م. وفي الرياض، توَلَّت دار العلوم للطباعة والنشر، مَشكورَة، نَشْر الكتاب في عام ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م. ولَمْ يُطبَع ثانية مِن أَيّ جهة.

وفي ذات الوقت، صدَر "**كتاب المحن**" بتحقيق يحيى وهيب الجبوري، عن دار الغرب الإسلامي في بيروت (١٤٠٣هـ/١٩٨٣م). ثم صَدَرَت طبعته الثانية عام ١٤٠٨هـ/١٩٨٧م. والطبعة الثالثة ١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م.

وأثناءَ مُطالَعَتي في الطبعة الثالثة، التي أَرادَها الجبوري أن تكون مُنَقَّحَة مَخدومَة (ص٦)؛ وذلك استجابة وتحيَّة منه لأُولئك الأساتذة والعلماء والأُدَباء الذين أثنوا على جهده وحُسْن اختياره لمثل هذا النوع مِن الكُتب

(ص٧). ولثقة الجبوري فيما تمَّ إنجازه؛ فقد ظَهَرت على غلاف الكتاب الخارجي عبارة مزيدَة ومُنقَّحَة. وكان مِمّا شَدَّ انتباهي لهذه الطبعة المزيدَة والمُنَقَّحة أنّ تلك الزيادة وذلك التنقيح الذي قام به الجبوري (سنة ١٤٢٧هـ) تتشابَه في مُعظَم معلوماتها مَع المعلومات التي كُنتُ قد أثبَتّها في تحقيقي لِنَفْسِ الكتاب، في تلك الطبعة الوَحيدَة التي ظَهَرَت في سنة ١٤٠٤هـ. ولاحَظْتُ أيضًا أنّ الجبوري قد تجاهل كل الجهود التي بَذَلْتُها في سبيل تيسير تلك المعلومات التي استَعان بها على تَنقيح تحقيقه. ولَعلَّ الفِكرة التي أُريد إيصالَها تتَّضِح للقارئ مِن خلال المُقارَنة التي سنعقدها بين المعلومات في كلا التَّحقيقَيْن، وهي كالآتي:

١- الكُتُب التي أُلِّفَت في موضوع المِحَن والمَقاتِل:

أَشار الجبوري (ص١٧) إلى كتاب "**مقاتل الطالِبيِّين**" الذي خصَّصه أبو الفَرَج الأصفهاني "للحديث عن الأعلام البارزين من آل أبي طالب الذين امتُحنوا بالقَتل دون مَن جُرح فلم يُقتَل، وقد بدأه بمقتل جعفر بن أبي طالب في غزوة مؤتة في السنة الأُولى من الهجرة [هنا يوجد خطأ في تاريخ وقعة مؤتة، والتوضيح في الفقرة التالية]، ويمضي يختار الشخصيّات المميّزة التي عرفت (بمحمود الطريقة وسديد المذهب)، ويذكر الحوادث حسب سنوات وقوعها، ينتهي بسنة ٣١٣هـ، وسمة الكتاب الاختصار، على ما يذكره أبو الفرج".

أَقول: إنّ هذه المعلومات عن كتاب "**مقاتل الطالبيِّين**" سَبَقَ أن أَورَدتها في تحقيقي لـ"**كتاب المحن**" (ص٣٦-٣٧) كالآتي: "لقد أَفرَدَ أبو الفَرَج

كتابه للحديث عن أفراد بيت آل أبي طالب الذين تعرَّضوا للمِحَن والمُطاردة والقَتل. فيَبدأ كتابه بالإشارة لمقتَل جعفر بن أبي طالب في معركة مُؤتة ضد الروم سنة ١هـ/٦٢٣م، [أَعتَرف أنني قد أخطأت في تاريخ هذه المعركة، فهي حصلت في السنة الثامنة للهجرة (٦٢٩م) وليس في السنة الأُولى. وللأسف الشديد فقد نَقَلَ الجبوري الخطأ على علاّته.!]، ويَستَمر في سَرد الروايات المتعلّقة بنهاية الطالِبيِّين حتى سنة ٣١٣هـ/٩٢٥م. وبالرغم مِن أنّ الكتاب يحتوي على مادَّة تاريخية قيِّمة تجعله في عداد المصادر الرئيسية إلا أنه لا يُقارن بـ"**كتاب المحَن**"؛ لأنّ أبا الفَرَج قَصَر كتابه على الشخصيات البارزة مِن آل أبي طالب، وهو يعترف بذلك قائلاً: "ومقتصرون في ذِكر أخبارهم على مَن كان محمود الطريقة، سديد المَذهب، لا مَن كان بخلاف ذلك أو عَدل عن سبيل أهْله، ومَذاهب أسلافه، أو كان خروجه على سبيل عبَث وإفساد...".

وأضَفْتُ: "ولعل أبا الفرج أراد أن يعتذر للقارئ عن هذا الاختصار فاستطرد يقول: "ولهؤلاء أخبار قد ذكرناها في الكتاب الكبير، لم يحتمل هذا الكتاب إعادتها لطولها ولأنّا شرَطنا ذِكر خبَر مَن قُتل دون مَن جُرح فلَم يُقتَل...".

وقُلْت: "وبمقارنة الأسلوب والطريقة التي اتّبعها كلّ مِن المؤلِّفَين نجد أنّ أبا الفرج قد رتَّب حوادثه حسب سنوات وقوعها وليس حسب أهمية الحادثة أو الشخصية المُشار إليها"(٤).

وأَشار الجبوري (ص١٧-١٨ مِن تحقيقه) إلى كتاب "**أسماء المُغتالِين**

مِن الأَشراف في الجاهلية والإسلام" لمحمد بن حبيب ، وأنّ مؤلِّفه "قد قسمه إلى ثلاثة أبواب :

١- أسماء المغتالين مِن الأشراف.

٢- أسماء من قتل حمية مِن الملوك.

٣- من قتل غيلة.

وقد بلَغ مَن ذَكرهم ابن حبيب ممَّن اغتيل مائة واثنين وستين شخصًا. والكثرة الكاثرة منهم من الجاهليين ، إذ بلغ عددهم سبعة وتسعين شخصًا ، وقلّتهم من الإسلاميين وعددهم خمسة وستون شخصًا".

(ولَم يَذكر الجبوري مَصدَر هذه المعلومات أو الطبعة التي رجَع إليها من كتاب ابن حبيب).

أقول : بمقارنة المعلومات التي أَورَدَها الجبوري بتلك التي أثبتّها عن هذا الكتاب ؛ يتضح أنّ الجبوري قد أَخَذ معلوماته عن "**كتاب المحن**" بتحقيقي ، دون أن يشير إلى ذلك!. فكان ممّا ذكرته في هذا الشأن ، ما يلي : "وقد أورَد ابن حبيب في كتابه(٥) أخبار اغتيال حوالي مائة واثنين وستين شخصًا مِن بينهم الملوك والنبلاء وأشراف الناس ، ممّا لا يدع مجالاً للشك في أنّ هدف ابن حبيب هو إبراز أخبار بعض المشاهير مِن شخصيات التاريخ. وقد قسم كتابه هذا إلى ثلاثة أبواب :

(أ)- أسماء المغتالين من الأشراف.

(ب)- أسماء من قتل حميّة مِن الملوك.

(ج)- وممّن قُتل غيلة.

ونرى أيضًا أنّ ابن حبيب كان يهتم كثيرًا بذِكْر رجال مِن العصر الجاهلي؛ فمِن بين ذلك العدد الكبير من الأسماء التي أورَدها نجد أنّ حوالي خمسة وستين شخصًا منهم فقط عاشوا بعد الإسلام. أمّا البقية فقد عاشوا في العصر السابق على الإسلام". (ص٣٥-٣٦ مِن "**كتاب المحن**" بتحقيقي).

وأشار الجبوري (ص١٨) إلى كتاب "**مناقب الإمام أحمد بن حنبل**" لابن الجوزي"، كأَحَد الكُتُب التي تناولَت محنة شخصية مشهورة في المجتمع. (ويُشير في الحاشية رقم ١، ص١٨: طُبع في بيروت بتحقيق عادل نويهض ١٩٧٣م).

وقُلْتُ (ص٣٨ وهوامشها) عن كتاب "**مناقب الإمام أحمد بن حنبل**" لابن الجوزي (تحقيق عادل نويهض، بيروت ١٩٧٣م): "ورغم أنّ كتاب ابن الجوزي يحتوي على معلومات أكثر ممّا يقدّمه أبو العرب عن محنة أحمد بن حنبل إلا أنه لا يقارَن بـ"**كتاب المحن**"؛ لأنه يتحدث عن شخصية واحدة فقط، ويشير أحيانًا باختصار إلى شخصيات أُخرى أثَّرَت وتأَثَّرَت بأحمد بن حنبل". (تابع النقاش في الفقرة اللاحقة).

وفي ختام حديثي عن المؤلَّفات التي تناولت موضوع المحن والمقاتل قَبل **كتاب المحن** وبَعده (ص٣٣)، قُلْتُ (ص٣٨ وهوامشها): "وبمقارنة **كتاب المحن** لأبي العَرب التميمي بالكُتُب الثلاثة التي مَرَّ ذِكرها نستنتج أن مُؤَلِّفي تلك الكُتب ركّزوا اهتمامهم على بعض الأُسَر المختارة (مِثل مقاتل الطالبِيِّين) أو الشخصيات البارزة (مِثل: أسماء المُغتالين من الفرسان) أو الأفراد

البارزين الذين أَثَّروا في مجتمعاتهم (مِثل الكُتُب التي أَلَّفَها أبو مخنَف: كتاب **مقتل عليّ**، كتاب "**مقتل الحسين بن عليّ**"، كتاب "**مقتل حجر بن عديّ**"). أمّا "**كتاب المحن**" فواضح أنه لم يعن بأُسْرَة أو شخص أو أشخاص مختارين".

هذه الفَقرة الختامية التي أثبتّها تجد لَها ما يُشابهها في الفقرة الافتتاحية عند الجبوري حَول الكُتُب التي أُلِّفَت في موضوع المِحَن والمَقاتل (ص١٧) فهو يقول: "لقد كانت الكُتب التي تناولت موضوع المحن أو المقاتل التي سبَقت كتاب أبي العرب أو التي تلَته مقصورة على فئة مميّزة أو على شخص بعينه، ولم تكن شاملة موضوع المحن أو ممتدة على مَرّ العصور، فهي: أ- إمّا أن تكون خاصة ببعض الأُسَر المتميّزة (مثل كتاب "**مقاتل الطالبيين**" لأبي الفَرَج الأصفهاني). ب- وإمّا أن تكون هذه الكتب مقصورة على فئات من الشخصيات المنتخبة المشهورة (مثل كتاب "**أسماء المغتالين من الأشراف في الجاهلية والإسلام**" لمحمد بن حبيب). ج- وإمّا أن تكون هذه الكُتُب التي تعرَّضت لموضوع المحن مخصصة لشخصية بارزة لها مكانتها الدينية والاجتماعية والسياسية، مثل الكتب المؤلَّفة عن مقتل: عليّ بن أبي طالب، وعمر بن الخطّاب، وعثمان بن عفّان، والحسين بن عليّ، وحجر بن عديّ، وزيد بن عليّ، وما إلى ذلك، أو الكُتب التي أُلِّفَت عن محنة أحمد بن حنبل، وأهمّ هذه الكتب التي تعرضت لمحنة ابن حنبل بتفصيل: كتاب **مناقب الإمام أحمد بن حنبل** لابن الجوزي.

٢- تصويبات بْراون وَ كسْتَر:

أَشار الجبوري (ص٢٥ هـ٢) أنّ إدوارد بْراون كان أوَّل مَن عَرَّف بهذا المخطوط وجعل اسم مُؤلِّفه الفروي. كما أشار أنّ كسْتَر قد نَبَّه في دراسته على أهمية موضوع هذا الكتاب؛ وأنه صحَّح اسم المؤلِّف إلى القروي وليس الفروي (كما عند براون) ورتّب بعض الاضطراب الحاصل في بعض الصفحات ولم ينتبه لبقية الصفحات.

أَقول: لقد أَشَرْت في مقدمة التحقيق (ص٣٠-٣١) إلى مَقال كسْتر وترتيبه لبعض أوراق (صفحات) المخطوط وتصويبه لاسم المؤلف مِن الفروي إلى القَروي التي تعني القيرواني (نسبة إلى مدينة القيروان). وأَشَرت كذلك إلى ترتيبي لباقي الأوراق التي لم ينتبه إليها بْراون وكستر.

٣- الكُتب التي أُلِّفَت في المحنَة أو حَمَلَت هذا الاسم وكُتُب المقاتل وما إليها:

ذَكَرَ الجبوري (ص١٨-٢٤) العديد من المؤلَّفات، وأشار في الحاشية إلى مصادر معلوماته عن البعض منها، مثل:

١- محنة أمير المؤمنين- ابن دأب: عيسى بن يزيد الليثي (ت١٧١هـ) (ومصدره **طبقات أعلام الشيعة**-أغا بزرك، ص٢٥).

وأقول: ابن دأْب عيسى بن يزيد اللَّيثي (١٧١هـ): محنة أمير المؤمنين. (وفي الحاشية رقم ٨، ص٣٣: الطاهراني، ص٢٥).

٢- كتاب **محن الرسول وذِكر إحن أعدائه**- الصفواني: محمد بن أحمد (ت٣٤٦هـ). ومصدره **الفهرست** ص٢٤٧؛ **الحلية** ٤٢/٢.

و**عندي** (ص٣٤، الحاشية ٦): محمد بن أحمد الصفواني (ت ٣٤٦/

٩٥٧): كتاب **محن الرسول وذكر إحن أعدائهم**. والمصدر: أبو نعيم، ج٢، ص٤٢: صحبة آل الرسول وذِكر إحن أعدائهم.

٣- كتاب **محنة الظراف في أخبار الشعراء**- النوقاني: محمد بن أحمد (ت ٣٨٢هـ). ومصدره **إرشاد الأريب** ١٧/٢٠٥ وما بعدها.

أقول (ص٣٤): محمد بن أحمد النوقاتي (ت ٣٨٢هـ/٩٩٢م): كتاب **محنة الظراف في أخبار الشعراء**. والمصدر (ص٣٤ الحاشية ٨): **إرشاد الأريب**، ج١٧، ص٢٠٥-٨.

٤- **محنة الإمام أحمد بن حنبل**- المقدسي: تقي الدين عبد الغني (ت٥٤١هـ). ومصدره: **تاريخ الأدب العربي**- بروكلمان١/٦٠٧ الأصل الألماني.

وأقول: تقي الدين عبد الغني المقدسي (ت٥٤١هـ/١١٤٦م): **محنة الإمام أحمد بن حنبل**. والمصدر (ص٣٤، الحاشية: ٩ Brockelman, vol.١, p.٦٠٧.

٥- كتاب **مقتل الحسين**- الواقدي: محمد بن عمر (ت ٢٠٧هـ). ومصدره **الفهرست** ص ١١١، **إرشاد الأريب** ١٨/٢٨١-٢٨٢.

أقول (٣٣): محمد بن عمر الواقدي (ت ٢٠٧هـ/٨٢٢هـ): **مقتل الحسين ابن عليّ**. والمصدر (ص٣٣، الحاشية ٩): ابن النديم ١٥٠؛ **إرشاد الأريب**، ج١٨، ص٢٨١-٢.

٦- كتاب **مقاتل الأشراف**- أبو عبيدة: معمر بن المثنى التيمي (ت٣١٠هـ). ومصدره: **الفهرست** ص٥٩؛ **إرشاد الأريب** ١٩/١٦٠-١٦١.

وأقول (ص٣٤): أبو عبيد معمر بن المثنى (٢٠٨-١١/٨٢٣-٦): **مقاتل الفرسان**. والمصدر (ص٣٤، الحاشية ١): ابن النديم ٨٥؛ **إرشاد الأريب**، ج١٩، ص١٦٠-١.

١- الكُتُب التي ذَكَرَت كتاب المِحَن:

يقول الجبوري (ص٢٤-٢٥): "لقد جاء ذِكر **كتاب المحن** لأبي العرب في الكتب المغربية خاصة وقد نقلت عنه بعض النصوص، وأشارت إليه كتُب أُخرى، والكُتُب التي وَقَفْنا عليها هي: **ترتيب المدارك** للقاضي عياض؛ و**معالم الإيمان** للدباغ؛ و**تذكرة الحفّاظ** للذهبي؛ و**الوافي بالوفيات** للصَّفَدي؛ و**الديباج المُذَهَّب** لابن فرحون؛ و**كشْف الظنون** لحاجي خليفة؛ و**فهرس المخطوطات الإسلامية في جامعة كمبردج** لإدوارد براون؛ و"**كتاب المِحَن**" م. ج. كستر، بحْث في **مجلة الدراسات الساميَّة**، ج٢٠، رقم٢ ، سنة ١٩٧٥م، ص٢١٠-٢١٨ ".

وأقول: لقد أَورَدْت هذه المعلومات كاملَة تحت عنوان: **أَصْل الكتاب المخطوط والمَصادر التي أشارت إليه.** (ص٣٠-٣١)، كالآتي: "لقد وَرَد **كتاب المحن** في مؤلَّفات كلٍّ مِن: عياض ٣٣٥/٣ والدباغ ٤٣/٣ و**تذكرة الحُفّاظ** ٨٩٠/٣ [**طبقات المحن**] والصفدي ٣٩/٢ وابن فرحون ٢٥٠-١ وحاجي خليفة ٣٢٩/١. أمّا عن نُسخة الكتاب المخطوط الذي بين أيدينا فقد كان إدوارد بْراون هو أوّل مَن أشار إلى مكان وجودها في مكتبة جامعة كمبردج البريطانية، وذلك في كتاب نشَرَه حول المخطوطات الإسلامية التي تزخر بها تلك المكتبة. ....وظلَّ الأمْر كذلك حتى اطَّلَع كِسْتَر على المخطوط

نفسه ونشَر عن أهميته مقالاً في **مجلة الدراسات السامية**....". [وقد أوضَحت في الصفحات ٤٩٦-٤٩٩ مِن **كتاب المحن**، المقصود بهذه الاختصارات].

فهذه التفصيلات هي بعَينها التي جاءَ بها الجبوري في الفقرة السابقة، وَلَم يبيِّن مصادر معلوماته!.

٢- الهَوامِش (الحَواشِي أو التَّعليقات) التي استَعان بها الجبوري مِن النسخة التي حَقَّقتُها: التوضيح والإثبات في الجَدول التالي:

كتاب المحن تحقيق العقيلي ط١	الصفحة/ والهامش	**كتاب المحن** تحقيق الجبوري ط٣	الصفحة/ الهامش
إرشاد الأريب ١٧/٢٠٥-٨.	٣٤/٨	**إرشاد الأريب** ١٧/٢٠٥ وما بعدها.	١٩/٨٠
Brockelman, vol. ١. p.٦٠٧	٣٤/٩	**تاريخ الأدب العربي**- بروكلمان ١/٦٠٧ الأصل الألماني.	١٩/١٠
ابن ماجة ٢/١٤٣٤	٥٦/٤	ابن ماجة: **فتن** ٢/١٤٣٤ **كنزل العمال** ٣٤٤٧٣، ٣٤٥٢٨	٥٨/٦
ناقصة في الأصل والتكملة من ابن حنبل ٣/٩٧؛ ابن ماجة ٢/١٣٣٤؛ الترمذي ٤/٦٠١.	٥٦/١	كلمات مطموسة في الأصل والتكملة من ابن حنبل ٣/٩٨؛ ابن ماجة ٢/١٣٣٤؛ الترمذي ٤/٦٠١.	٥٨/٢
ناقصة في الأصل والتكملة من ابن حنبل ٣/٩٧؛ ابن ماجة ٢/١٣٣٤؛ الترمذي ٤/٦٠١؛ بحشل، **تاريخ واسط**، ص٢٨٣؛ أبو نعيم ١/٣٦٨.	٥٦/١	كلمات مطموسة في الأصل والتكملة من ابن حنبل، ٣/٩٨؛ ابن ماجة، ٢/١٣٣٤؛ الترمذي ٤/٦٠١.	٥٨/٢

كتاب المحن تحقيق العقيلي ط١	الصفحة/ والهامش	كتاب المحن تحقيق الجبوري ط٣	الصفحة/ الهامش
ابن ماجة، ١٤٣٤/٢.	٤/٥٦	ابن ماجة، **فتن**، ١٤٣٤/٢؛ **كنز العمال**، ٣٤٤٧٣، ٣٤٥٢٨؛ [لاحظ أنه في هامش ٣ ص٥٧ يشير إلى الحديث نفسه تقريبًا عند ابن ماجة، فتن ٢٣].	٢/٥٨
من المخطوط: وخزية. وفي **لسان العرب**، ٤٢٨/٥ (... وفي الحديث: فإنه وَخز إخوانكم...).	١/٥٩	في الأصل: وخزية أعدائكم. وفي الحديث في **اللسان**: وخز.	٥/٦٠
المخطوط: أنس بن عبدالله. والتصويب والإضافة من ابن شبة، ٥٣/٢؛ **تجريد**، ص ص٩٠-٩١؛ السمهودي، ٨٢٩/٣. وانظر: أيضًا **الإصابة**، ٢١٤/١-٢١٥.	٢/٥٩	في الأصل: أنس بن عبدالله. والتصويب من السمهودي: **وفاء الوفا**، ٨٢٩/٣؛ **الإصابة**، ٢١٤/١-٢١٥.	١/٦١
وردت الرواية في المخطوط كالآتي: "إذا رأيت الشارق قد عريت..." ولكن الرواية على صورتها هذه تبدو غير كاملة. ولهذا فقد أثبتهما هنا (في الهامش) ووضعت مكانها رواية مشابهة لها تمامًا ومأخوذة عن نفس الرواة، أوردها أبو نعيم في **حلية الأولياء**، ٣٧٩/٥.	٥/٦٠	"إذا رأيت الشارق قد غربت...". وفي **حلية الأولياء**، ٣٧٩/٥ التقى ابن عباس..." "إذا رأيت السيوف قد عريت...".	١/٦٢

كتاب المحن تحقيق العقيلي ط١	الصفحة/ والهامش	كتاب المحن تحقيق الجبوري ط٣	الصفحة/ الهامش
الترمذي، ٤/٦٠٢؛ **المستدرك**، ١/٣٤٦.	١/٦١	راجع: الترمذي، ٤/٦٠٢؛ **مستدرك الحاكم**، ٤/٢٥٤؛ **تهذيب تاريخ ابن عساكر**، ٧/٩١، ٥/٩.	٤/٦٢
ثمُ أُتي (بنبيذ) انظر: البخاري ٥/٢٠؛ ابن سعد ٣/٢٤٤؛ **أسد الغابة** ٤/٣٥.	٦/٦٣	بياض الأصل، ولعل الكلمة (بماء) أو (بنبيذ) كما في البخاري ٥/٢٠؛ ابن سعد ٣/٢٤٤؛ **أسد الغابة** ٤/٥٧؟	٣/٦٤
في الطبري، ١/٢٧٧٩؛ **والكامل**، ٣/٦٧: على طريق الحق.	٤/٦٧	في الطبري، ١/٢٧٧٩؛ **والكامل**، ٣/٦٧: على طريق الحق.	١/٦٧
نسبت المصادر العربية هذه القصيدة إلى عدة شعراء.... ونسبها ابن سعد ٣/٢٤١، ٢٧١ إلى مزرد بن ضرار الغطفاني.	٦/٧٢	الأبيات غير الرابع في **طبقات ابن سعد** ٣/٣٣٣، ٣٧٤ وفي الرواية خلاف بسيط. وتنسب الأبيات لمزرد ابن ضرار الغطفاني.	١/٧١
في المخطوط: واني أن أعش فمتى قضى فيها بقضية وانظر: ابن حنبل ١/١٩٣؛ مسلم ٢/٨١؛ ابن سعد ٣/٢٤٣.	٤/٧٤	في الأصل: (أعيش فمتى قضى فيها)، والتصويب من مسلم ٢/٨١، و**تفسير الطبري** ٦/٤٠-٤٦.	٢/٧٢
في المخطوط: السيف. ولمزيد من التفاصيل عن هذه الرواية، انظر: مسلم ٢/٨١؛ الطبري، **تفسيره**	٢/٧٤	في الأصل: آية السيف	١/٧٢

كتاب المحن تحقيق العقيلي ط١	الصفحة/ والهامش	كتاب المحن تحقيق الجبوري ط٣	الصفحة/ الهامش
٦/٤٠-٤٦.			
[وَرْمَلة]. أُضيف الاسم؛ وذلك لتوضيح المعنى وإتمام السياق. انظر: ابن سعد ٣٧/٤؛ **أنساب** ١٠٦/٥؛ **الاستيعاب** ١٨٤٦/٤؛ **الإصابة** ٣٠٧/٤.	٦/٨٢	في الأصل بياض بقدر ثلاث كلمات. والإضافة من ابن سعد، ٣٧/٤.	٦/٨٠
ناقصة في المخطوط، انظر: **أنساب** ٩٣/٥؛ فهو خير [لك وخير لهم].	٢/٨٣	في **أنساب الأشراف** ٩٣/٥: خير لك وخير لهم.	
ترد هذه القصيدة بصورة مختلفة في المصادر. انظر: نصر بن مزاحم، **وقعة صفين** ٤٠٧؛ **أنساب** ٧٩/٥؛ الطبري ٣٠٠٢/١، ٣٠٠٥، ٣٠١٤.	٣/٨٨	... والأبيات في وقعة صفين ٤٠٧؛ والطبري ٣٠٠٢/١، ٣٠٠٥، ٣٠١٤؛ **وأنساب الأشراف** ٧٩/٥ مع خلاف في الرواية.	١/٨٤
عن زياد، عن (ابن) إسحاق قال: حدثني يعقوب بن (عتبة) [عن] عقبة بن الحارث في المخطوط أبي إسحاق... بن عطية... انظر: الطبري ٣٠٠٣/١.	/٨٩ ٤، ٥، ٦	في الأصل: يعقوب بن عطية بن عقبة والتصويب من الطبري ٣٠٠٣/١.	٢/٨٤
أنساب، ٤٩٥/٢؛ **مقاتل الطالبِّين**، ص ص٤٠-٤١؛ **الاستيعاب**، ١١٢٧/٣: يَرون أنّ الحسن بن علي هو المقصود في هذه الرواية وليس الحسين. ولقد تنبَّه الناسخ	٣/٩٦	كذا بالأصل. وفي المصادر الحسن بن علي. انظر: **مقاتل الطالبِّين**، ص ص٤٠-٤١؛ **أنساب الأشراف**، ٤٩٥/٢.	٣/٩٠

كتاب المحن تحقيق العقيلي ط١	الصفحة/ والهامش	كتاب المحن تحقيق الجبوري ط٣	الصفحة/ الهامش
نفسه إلى هذا فصحَّ الاسم في الروايات اللاحقة.			
[وصيّة علي لابنه الحسن رضي الله عنهما]. الطبري، ١/٣٤٦٤-٣؛ ابن أعثم، ٤/١٤٢-٤؛ **مقاتل الطالبِّيين**، ص ص٣٨-٤٠؛ ابن كثير، ٧/٣٢٨-٣٢٩.	١/١٠٠	راجع: الوصية في **تاريخ الطبري** حوادث سنة ٤٠هـ، وفيها خلاف يسير و**مقاتل الطالبِّيين**، ص ص٣٨-٤٠؛ وابن كثير، ٧/٣٢٨-٣٢٩ وقد ضمن الوصية آيات قرآنية.	٣/٩٢
الترمذي، ٤/٦٦٣.	٥/١٠٠	الترمذي، ٤/٦٦٣.	٣/٩٣
انظر: البخاري، ٨/١٢-١٣؛ ابن حنبل، ٩/٢٥٨-٩؛ ابن ماجة، ٢/١٢١١؛ الترمذي، ٤/٣٣٢؛ **مقاتل الطالبِّيين**، ص٣٩؛ **تجريد**، ص٣٦٩؛ **نهج**، ٢/٤٤.	٧/١٠٠	انظر: الحديث في البخاري، ٨/١٢؛ وابن ماجة، ٢/١٢١١؛ والترمذي، ٤/٣٣٢.	٥/٩٣
مقاتل الطالبيين ٤٣؛ **أسد الغابة** ٤/٣٩-٤٠. وينسبها كل من الطبري ١/٣٤٦٧؛ **مروج** ٤/٤٣٦؛ **الأغاني** ١١/١٢١-٢؛ **الاستيعاب** ٣/١١٣٢ إلى أبي الأسود الدؤلي، بينما ينسبها المقدسي ٥/٢٣٣ إلى أمّ الهيثم بنت أبي الأسود (ظالم) بن	/١٠٢ ٤/٣/٢	الشعر يُنسَب لأكثر من قائل. وهو ستة أبيات في **الكامل** ٣/١٥٧؛ لأبي الأسود الدؤلي. وكذا في **الأغاني** ٣٢٩؛ وانظر: **مقاتل الطالبيين** ٤٣؛ والطبري ١/٣٤٦٧؛ و**شذرات الذهب** ١/٥١؛ **أسد الغابة**	١/٩٤

الصفحة/ الهامش	كتاب المحن تحقيق الجبوري ط٣	الصفحة/ والهامش	كتاب المحن تحقيق العقيلي ط١
	٤٠/٤ ؛ **الاستيعاب**، ١١٣٢/٣ **مروج الذهب** ٤٣٦/٤ وفي الروايات خلاف.		عمرو الدؤلي.
٢،١/٩٧	في الأصل عمر بن رجاء، وفي المصادر: عمر وابن جأوان، انظر: **تاريخ خليفة ابن خياط** ١٦٥/١ ؛ **الإصابة** ٥٤٦/١ ؛ **تهذيب التهذيب** ٢١/٥.	٢،١/١٠٦	في المخطوط: عمر بن رجاء. والتصحيح من **تاريخ خليفة بن خياط** ١٦٥/١ ؛ **الاستيعاب** ٥١٦/٢ ؛ **الإصابة** ٥٤٦/١ ؛ **تهذيب التهذيب** ٢١/٥.
٤/١٠٠	الترمذي، ٦٤٤/٥ ؛ ابن ماجة، ٤٦/١ ؛ ابن سعد، ١٥٥/٣ ؛ **حلية الأولياء**، ٨٨/١.	٢/١١١	حديث: "طلحة شهيد يمشي على الأرض": ابن ماجة، ٤٦/١ ؛ الترمذي، ٦٤٤/٥ ؛ ابن سعد، ٣(١)/ ١٥٥ ؛ أبو نعيم، ٨٨/١ **الاستيعاب**، ٧٦٦/٢ ؛ **أسد الغابة**، ٦٠/٣.
٣/١٠١	...وانظر: **الأغاني**، ١٣١/١٦ ؛ **والاستيعاب**، ٥١٥/٢ ؛ **وشذرات الذهب**، ٤٣/١.	٤/١١٢	**أنساب**، ٢٥١/٢-٢ ؛ ابن أعثم، ٣١٠/٢ ؛ **الأغاني**، ١٣١/١٦ ؛ **الاستيعاب**، ٢١/٥ ؛ **شذرات الذهب**، ٤٣/١.
١/١٠٤	في الأصل: أبو عادية الحميني، وفي الطبري، ٢٣١٦/٣ ؛ المزني، وفي ابن سعد، ١٨٥/٣ : الجهني، وفي	٣/١١٥	[أبو العالية الجهني]: ابن سعد ٣(١)/١٨٥-٦ هذا أبو غادية الجهني ؛ **أنساب**، ١٧٢/١: أبو الغادية ؛ الطبري، ٢٣١٦/٣ ؛ أبو

كتاب المحن تحقيق العقيلي ط١	الصفحة/ والهامش	كتاب المحن تحقيق الجبوري ط٣	الصفحة/ الهامش
غادية المزني، وحول ترجمة حياته، راجع: **الاستيعاب**، ١٧٢٥/٤؛ **الإصابة**، ١٥٠/٤-١.		**الإصابة**، ١٢٣/٤؛ المزني.	
[حفص بن عمر الحوضي]: في المخطوط الخوطي. راجع: **طبقات خليفة بن خياط**، ص٢٢٨؛ **تهذيب التهذيب**، ٤٠٥/٢؛ **تذكرة الحفّاظ**، ٤٠٥/٢ حيث يشيرون أنه توفي ٢٢٥هـ/٨٣٩م.	٢/١١٨	[الخواطي] كذا بالأصل: الخوطي وفي المصادر: الحوضي. انظر: **طبقات خليفة بن خياط**، ص٢٢٨ **تهذيب التهذيب**، ٤٠٥/٢ **تذكرة الحفّاظ**، ٤٠٥/٢٠.	١/١٠٧
[تقتلك الفئة الباغية]: مسلم، ١٨٤/٨-١٨٥؛ الترمذي، ٦٦٩/٥؛ ابن سعد ٣(١)/١٨٠-١٨١؛ **العقد الفريد**، ٨٤/٥؛ **الاستيعاب**، ١١٤٠/٣؛ **أسد الغابة**، ٤٦/٤	١/١٢٠	مسلم، ١٨٤/٨-١٨٥؛ الترمذي، ٦٦٩/٥؛ ابن سعد ١٨٠/٣-١٨١.	٣/١٠٨
في المخطوط: الغزاوي (العقيلي صحَّحها منذ البداية: الفروي هي القروي والغزاوي هي القروي).	٢/١٢١	في الأصل: الغزاوي، وهي تصحيف لكلمة القروي. وهو نسب مؤلف الكتاب.	١/١١٠
[معبد بن زهير] في المخطوط معبد ابن أبي زهير بن أمية. وقد صحح الاسم كما ورد في **نسب قريش**، ص٣١٧؛ خليفة، ١٦٩/١؛ **الاستيعاب**، ١٤٢٦/٣؛ **الإصابة**، ٤٧٩/٣.	١/١٢٣	في **نسب قريش**، ص٣١٧: معبد بن زهير بن أبي أمية.	٢/١١١

كتاب المحن تحقيق العقيلي ط١	الصفحة/ والهامش	كتاب المحن تحقيق الجبوري ط٣	الصفحة/ الهامش
في المخطوط: تعيشون قريش، راجع: **نسب قريش**، ص١٩٣؛ **أنساب**، ٤ب/١٥٠.	٢/١٢٦	في الأصل: تعيشون قريش... وفي **نسب قريش**، ص١٩٣.	١/١١٣
[قصيدة المكعبر: وأشعث قوّام] وردت هذه القصيدة بألفاظ مختلفة في **نسب قريش**، ص٢٨١؛ **المعارف**، ص٢٣١؛ **الاشتقاق**، ص٩١؛ الطبري، ٣٢٠٨/١؛ **مروج**، ٣٢٤/٤؛ **الكامل**، ٢٥٠/٣؛ ابن كثير، ٢٤٤/٧؛ **الإصابة**، ٣٧٦/٣-٧؛ **فتح الباري**، ١٧٣/١٠-٤.	٣/١٢٧	الأبيات في **نسب قريش**، ص٢٨١؛ مع خلاف في اللفظ، وانظر: **كامل ابن الأثير**، ٢٥٠/٣؛ و**المعارف**، ص٢٣١.	٣/١١٣
ابن حنبل ٢٨/٣-٩، ٩٨؛ مسلم ١٦٨/٨-٩؛ ابن سعد ١٨١/٥؛ **أنساب** ٣٦٩/٢؛ الطبري ٣٣٧٣/١-٤.	٣/١٤٤	الحديث في **صحيح مسلم** ٢٢١٢/٤ وانظر: أحمد بن حنبل ٢٨/٣، ٢٩؛ ابن سعد ١٨١/٥.	٢/١٢٥
في المخطوط: الجاوي انظر: الطبري ٣٣٥٤/١.	٢/١٤٥	كذا بالأصل، وفي الطبري ٣٣٥٤/١؛ الحارثي.	٥/١٢٥
[فأَتَوا برأْسه]: ساقط من المخطوط والإضافة من **أسد الغابة** ١٠١/٤.	٤/١٤٦	[فأَتَوا برأْسه]: التكملة مِن **أسد الغابة** ١٠١/٤.	٤/١٢٦

كتاب المحن تحقيق العقيلي ط١	الصفحة/ والهامش	كتاب المحن تحقيق الجبوري ط٣	الصفحة/ الهامش
في المخطوط: الفروع. والتصويب من **أنساب** ٤ب/١٣؛ الطبري ٢/٢١٨-٢١٩ وعند ياقوت: الفُرع: قرية من نواحي المدينة على يسار السقيا، بينها وبين المدنية ثمانية بُرُد، على طريق مكة، ياقوت ٤/٤٥٢.	٣/١٤٨	في الصفحة ١٢٩ وأخذ طريق الفروع، وفي الهامش رقم٢ الفُرع: قرية من نواحي المدينة على يسار السقيا، بينها وبين المدينة ثمانية برد، على طريق مكة. (ياقوت: الفرع).	٢/١٢٩
في المخطوط: الشك، انظر: **العقد الفريد** ٥/١١٩.	٦/١٥٠	في الأصل: فإن الشك. والصواب: الصك. والتصويب من **العقد الفريد** ٥/١١٩.	١/١٣١
[هذا دم الحسين وأصحابه]: ابن حنبل، ٤/٢٦؛ **الاستيعاب**، ١/٣٩٥-٦؛ البغدادي، ١/١٤٢؛ **أسد الغابة**، ٢/٢٢؛ **الإصابة**، ١/٣٣٥؛ **تهذيب التهذيب**، ٢/٣٥٥ **تاريخ الخميس**، ٢/٣٠٠.	١/١٦١	ابن حنبل، ٤/٢٦، ١٩١.	٢/١٣٨
[رواية عن مقتل الحسين ﷺ]: "...حدثني عَميَّ أيوب بن حسين: أنّ حسين بن علي بن أبي طالب قتِل وعليه جبّة خزّ دكناء..." وفي الهامش: في المخطوط "وحسين عن حسين بن علي بن أبي طالب أنه قتل..." وقد صححت هنا، إذ	٤/١٦٣	...حدثني عميّ أيوب بن حسين: أنّ حسين بن علي ابن أبي طالب: أنه قُتل ...". وردت هكذا دون أن يشير عن كيفية التصويب. مع أنّ الرواية وردت في الطبعة الأولى من تحقيقه، ص١٤١؛	١٤٠

كتاب المحن تحقيق العقيلي ط١	الصفحة/ والهامش	كتاب المحن تحقيق الجبوري ط٣	الصفحة/ الهامش
إنه ليس من المعقول أن يتحدث الحسين عن كيفية مقتله. راجع: الطبري، ٣٦٥/٢.		هكذا: "حدثني عميّ أيوب ابن حسين عن حسين بن علي بن أبي طالب: أنه قتل وعليه جبة خز دكناء...".	
[الطَّف]: في المخطوط: الطلية. وقد صححت طبقاً لما ورد في **نسب قريش**، ص ص٤١-٥٠.	١/١٦٤	في الأصل: (الطلبة) بالعراق. وصواب الكلمة: (الطف) كما **نسب قريش**، ص٤١.	١/١٤٠
الحسن سمَّته امرأته [جَعدة] بنت الأشعث: ناقصة في المخطوط. انظر: **المعارف**، ص ص٢١١-٢١٢؛ **الاستيعاب**، ٣٨٩/١؛ **أسد الغابة**، ١٥/٢؛ **صفة الصفوة**، ٣٢١/١.	٣/١٦٥	هي جعدة... انظر: **المعارف**، ص ص٢١١-٢١٢؛ **صفة الصفوة**، ٣٢١/١.	٥/١٤١
"قول ثرملة: أَصَبَرُ مِن عَوْدٍ ..." الميداني، ٤٠٨/١-٩؛ ابن عساكر، ٤٢٤/٤؛ ابن قتيبة، **غريب الحديث**، ٦١٩/١.	٢/١٦٨	... والبيت في **مجمع الأمثال** للميداني، ٤٠٨/١-٩؛ وابن عساكر، ٤٢٤/٤؛ ابن قتيبة، **غريب الحديث**، ٦١٩/١.	١٢٧- ٤/١٢٨
"أيام الحَرَّة"، "ابن مينا [أقبل بشرح له]. بياض بالأصل، والإضافة من السمهودي (رواية عن الواقدي) ١٢٧/١: وفي **الإمامة والسياسة** ٣٢٥/١: بسراح له.	٢/١٧٢	في الأصل فراغ بمقدار كلمة. والتكملة من **الإمامة والسياسة**، ٣٢٥/١.	٣/١٤٣
"ولا أفلح من ندم". انظر: **أنساب**، ٤ب/٣٢؛ **العقد الفريد**، ١٢٩/٥.	٢/١٧٣	راجع كتاب **يزيد في العقد الفريد**، ١٢٩/٥.	١/١٤٤َ

كتاب المحن تحقيق العقيلي ط١	الصفحة/ والهامش	كتاب المحن تحقيق الجبوري ط٣	الصفحة/ الهامش
"ألا تلكم الأنصار تبكي سراتها ..." راجع: ابن سعد، ٤ (٢) /٢٣-٢٤؛ **أنساب**، ٤ب/٣٩ **الاستيعاب**، ١٤٣١/٣؛ **أسد الغابة** ٣٩٨/٤؛ **الإصابة**، ٤٤٦/٣؛ السمهودي، ١٣٢/١. وعن قَتْل معقل صبرًا، انظر: الطبري، ٤١٩/٢ **الكامل**، ١١٩/٤. (ص١٨٣هـ١] وهما المصدران اللذان استخدمهما الجبوري في الهامش المقابل.	٣/١٨٣	ابن سعد، ٢٣/٤-٢٤؛ الطبري، ٤١٩/٢؛ **الكامل**، ١١٩/٤ (ط. أوروبا)؛ **الإصابة**، ٤٤٦/٣.	١/١٥١
[الناس] ناقص في المخطوط، والإضافة من **العقد الفريد** ١٤٧/٥.	٥/٢٠٦	في الأصل فراغ بمقدار كلمتين، والتكملة من **العقد الفريد** ١٤٧/٥.	٢/١٦٥
في المخطوط: فقال لهم أحبس على ناس. راجع الطبري ٧٨٧/٢ **العقد الفريد** ١٤٧/٥.	٦/٢٠٦	في الأصل: فقال لهم: أحبس علي ناس، والتصويب من **العقد الفريد** ١٤٧/٥؛ والطبري ٧٨٧/٢.	٣/١٦٥
[نطيع ملوك الأرض ما أقسطوا لنا] **العقد الفريد** ١٤٩/٥. ولكن **مروج الذهب** ٢٤٩/٥؛ و**الكامل** ٣٢٨/٤ يوردانه على النحو التالي: نطيع الملوك الحق ما قسطوا لنا.	٣/٢٠٨	البيت في **العقد الفريد** ١٤٩/٥؛ و**مروج الذهب** ٢٤٩/٥؛ و**الكامل** ٣٢٨/٤، مع اختلاف في الرواية.	٥/١٦٧

كتاب المحن تحقيق العقيلي ط١	الصفحة/ والهامش	كتاب المحن تحقيق الجبوري ط٣	الصفحة/ الهامش
وقتل الحجَّاج [عمر بن موسى بن] عبيد الله والهلقام...، بياض في الأصل والإضافة من الطبري ١١٠٩/٢-١١١٠، ١١٢٠-١١٢٢ **الكامل** ٤/ ٤٨٧.	١/٢٢٤	في الأصل عبيد الله الهلقام، والتصويب من الطبري ١١٢٠/٢ وما بعدها.	٣/١٧٩
راجع ابن ماجة ١٤٣٤/٢.	٢/٢٢٤	ابن ماجة ٤/١٤٣٤.	١/١٨٠
لَم أَعثر على هذا الحديث في **المُعجم المفهرس**. راجع: الترمذي ٣١٨/٣.	١/٢٢٦	الترمذي ٣١٨/٣.	٢/١٨١
في المخطوط: بانجر. وبَلَنجَر: مدينة ببلاد الخزر خلف باب الأبواب (ياقوت ١/٤٨٩-٤٩٠).	١/٢٥١	في الأصل: بانجر، وبلنجر: مدينة ببلاد الخزر خلف باب الأبواب... (ياقوت: بلنجر).	١/ ٢٠٢
في المخطوط: "قال سالم الأفطس: حدثني ثقة يروي عنه سفيان... "وقد صحِّحت طبقًا لما ورد في ابن سعد ١٧٩/٧؛ **تهذيب التهذيب** ٤٤٢/٣.	٢/٢٥٢	في العبارة غموض، يريد أرسلوا إلى سالم الأفطس فأخرجوه من المسجد فقتلوه. والخبر في ابن سعد ١٧٩/٧. وفيه: أنّ سالم الأفطس لما ولي بنو العباس أرسلوا إليه فأخرجوه.	١/٣٠٣
ينسبها المبرّد ١٢٠٨/٤، ١٢-١٣ إلى الشاعر شبل بن عبدالله مولى بني هاشم. راجع: **الإمامة والسياسة** ١٢٢/٢؛ اليعقوبي ٢٣٢/٥؛ **العقد الفريد** ٢١٢/٥.	٧/٢٥٥	في كامل المبرد ١٢٢٨/٤ الشاعر شبل بن عبدالله مولى بني هاشم، وانظر: **الإمامة والسياسة** ١٢٢/٢؛ و**العقد الفريد** ٢١٢/٥.	٥/٢٠٤

كتاب المحن تحقيق العقيلي ط١	الصفحة/ والهامش	كتاب المحن تحقيق الجبوري ط٣	الصفحة/ الهامش
وحدثنا محمد بن عبيد قالا: حدثنا رغم أنّ الناسخ لم يترك فراغًا في المخطوط، إلا أنه واضحًا أنّ هناك اسمًا ناقصًا هنا.	١/٣١٥	في الأصل: قالا، ويبدو أنّ هناك اسمًا محذوفًا.	٢/٢٥٢
بياض بالأصل. والإضافة من اليعقوبي ٢/١٩٧؛ راجع: **أنساب** ٢/٤٥٠.	١/٣٢١	في الأصل: بياض بقدر كلمتين والتكملة من **تاريخ اليعقوبي** ٢/١٩٧.	٢/٢٥٦
عن حنظلة. في المخطوط بن	١/٣٢٨	عن حنظلة. في الأصل: بن	١/٢٦١
عن مالك [عن] ابن هرمز. في المخطوط: مالك بن هرمز. انظر: البخاري: **التاريخ الكبير**ع٢/٣٦٨.	١/٣٣٠	في الأصل: مالك بن هرمز.	١/٢٦٢
[ثم أمر بالباب ففتح...]. **تهذيب التهذيب** ٦/٢٨٦.	/٣٨٧ ٤/٣/٢	في **تهذيب التهذيب** ٦/٢٨٦ تكملة: ثم أمر بالباب ففتح.	٤/٣٠١
انظر المخطوط ص١٠٠ب. والملاحظة التي تخص هذه الرواية هناك.	٤١٨هـ/١	راجع الورقة ١٠١ب من المخطوط في ذِكر قتل عمران ابن عمّار الضبعي.	١/٣٢٢
حديث: "لا مدّ في الإسلام". لم أعثر عليه في **المعجم المفهرس** لألفاظ الحديث النبوي الشريف.	٢/٤٤٦	لم أجد هذا الحديث في كتب الحديث الصحيحة.	٣/٣٣٨
حديث: "إذا أحب الله عبدًا..." المالكي ١/٢٨٨؛ عياض ٢/٦١٢.	٣/٤٦٦	لم أجده في كتب الحديث. وهو في كتاب **رياض النفوس** لمحمد المالكي ١/٢٨٨؛ و**ترتيب المدارك** ٢/٦١٢.	١/٣٥٥

كتاب المحن تحقيق العقيلي ط١	الصفحة/ والهامش	كتاب المحن تحقيق الجبوري ط٣	الصفحة/ الهامش
مروان، في المخطوط: موسى. راجع: صفحة ١٣٥ب من المخطوط.	٦/٤٧٠	في الأصل: موسى، وصوابه: مروان. انظر: ص١٣٦أ من الأصل المخطوط.	٤/٣٥٨

وفي الخِتام: قَد يَتساءَل البَعض: كيفَ حَدَث هذا التشابه الغَريب العَجيب في المعلومات التي أَورَدَها الجبوري في الدراسة أو في الهَوامِش لهذه الطبعة المَزيدَة والمُنَقَّحَة؟!. ولماذا تجاهَل الجبوري الإشارة إلى جهود العقيلي الذي يَسَّر لَه تلك المعلومات التي زَيَّنَ بها تحقيقَه؟!.

لا أَحَد يستطيع الإجابة عن هذه التساؤلات غير يحيى وهيب الجبوري.

هذا ما أَرَدت تبيانه، والله مِن وَراء القصد.

الهوامش:

❖ قسم التاريخ – جامعة الملك سعود، الرياض.

(١) مئير يعقوب كِسْتَر (ت٢٠١٠م) M. J. Kister: أُستاذ الدراسات العربية وآدابها في الجامعة العِبريَّة في القدس. له العديد من الدراسات والتحقيقات حول تاريخ العرب في العصر الجاهلي وصَدر الإسلام. (راجع مَوقع: م. ج. كستر على شبكة المعلومات الدولية/ الانترنت).

(٢) راجع The "Kitab al-Mihan" a book on Muslim Martyrology, Journal of Semitic Studies, vol.٢٠(٢), Oxford ١٩٧٥, pp.٢١٠-٢١٨.

(٣) محمد عبدالحَي شعبان: مُؤَسِّس ومدير معهد الدراسات الإسلامية والعربية ورئيس مركز دراسات الخليج في جامعة إكستر في إنجلترا. مُتَخصِّص في تاريخ الدولة العباسية، ولَه فيها العديد من الدراسات. دَرَسَ في جامعة هارفَرْد بأمريكا ونال منها

شهادة الدكتوراه بإشراف المستَشرق البريطاني هامِلْتُون جبْ. وبَعد حياة حافلة بالعَمل والأمَل في الغرب، رَجَعَ شعبان إلى مصر حيث تُوفِّي في القاهرة (١٤١٢هـ/١٩٩٢م) ودُفِن في قريته نِكْلا العنَب (إحدى قُرى مركز إيتاي البارود) بمحافظة البحيرة في مصر. (نسأل الله تعالى له الرَّحمة والمَغفرة).

(٤) ورد في الحاشية رقم ٤، ص٣٦: قام بتحقيقه (أي كتاب **مقاتل الطالبيِّين**) أحمد صقر، القاهرة ١٩٤٩م، ثم نُشِر مرَّة ثانية في طهران سنة ١٩٧٠م وهي الطبعة التي اعتمدناها في دراستنا.

(٥) **أخبار المغتالين من الأشراف في الجاهلية والإسلام**، تحقيق عبد السلام هارون، منشور ضمن الجزء الثاني من كتاب **نَوادر المخطوطات**، القاهرة، ١٩٥٤م، ص١١٢-٢٧٥.

أفق التوقع في عمود الشِّعر لأبي علي المرزوقي

بقلم: أ. عبدالله بن عيني*

قامت نظرية التلقِّي بزعامة هانز روبرت ياوس[١] على عدة مرتكزات، لا يكاد يستغني واحد منها عن الآخر إلا أنّ النقّاد يرون أنّ أهم مرتكز تقوم عليه النظرية هو أفق التوقع، والذي يلعب "دورًا مركزيًّا في نظرية التلقي عند ياوس وهو يعدّ من منظور ياوس نفسه بمثابة الركيزة المنهجية لنظرية التلقي"[٢]، وهو عبارة عن جملة من الاستعدادات يتسلح بها المتلقِّي ليواجه بها نصًّا ما، أي أنّ المواجهة تتمّ وفق "المعايير الثقافية والطروحات والمقاييس التي تشكل الطريقة التي يفهم بها القرّاء ويحكمون من خلالها على عمل أدبي ما في زمن ما، يمكن أن يتشكل هذا الأفق من عوامل مثل الأعراف وتعريفات الفن(مثل الذوق)، أوالشفرات الأخلاقية السائدة"[٣].

هذا الأفق الذي يمتلكه المتلقِّي هو الوحيد الذي يكفل له تلقِّي النصوص وتأويلها وملء فراغاتها وما تركه الملقي من تيمات، فيتسنى له بذلك المساهمة في إكمال النصوص وصياغة المعاني واستكمالها، وفي هذا يقول الدكتور محمود عباس عبد الواحد: "عندما ينتقل القارئ من مهمته المباشرة

إلى المستوى الثاني للقراءة تبدو أمامه فراغات أو غموض أو بقع إبهام عليه أن يستكملها ليكون مشاركًا في صنع المعنى"(٤).

وقد طالب النقد العربي القديم طيلة سنوات التلقّي بمراعاة أفق الانتظار لدى المتلقي واكتملت هذه المطالبة على يد المرزوقي (ت٤٢١هـ)، باستنباطه عمود الشعر وفي هذا قال: "...فإذا كَانَ الأمْرُ علَى هذَا، فالوَاجِبُ أنْ يُتَبيَّنَ مَا هُو عمُودُ الشِّعرِ المعْرُوفُ عندَ العَربِ، ليتَمَيَّزَ تَلِيدُ الصّنعَةِ من الطَّريفِ، وقديم نِظَام القَريضِ من الحدِيثِ، ولتُعْرفَ مواطِئُ أقدَامِ المخْتَارينَ فيما اختَارُوهُ، ومراسِمُ إقدام المزيِّفين على ما زيَّفُوهُ، ويُعلم أيضًا فرق ما بين المصْنُوعِ والمطبُوعِ، وفَضيلةُ الأَتِيِّ السَّمْحِ على الأَبِيِّ الصَّعْبِ فنَقُولُ وباللهِ التَّوفيق: إنَّهم كانُوا يحاولُونَ شَرَفَ المَعنَى وَصحَّتَهُ، وَجزَالَة اللَّفظِ وَاستِقَامَتَهُ، والإِصَابَةَ في الوَصْفِ -ومِنْ اجْتِمَاعِ هذِهِ الأسبَابِ الثَّلاثةِ كَثُرَت سَوَائِرُ الأمْثَال، وَشوَارِدُ الأَبيَاتِ- وَالمُقَارَبَةَ فِي التَّشْبيهِ، والْتِحَامَ أَجْزَاء النَّظْمِ والْتِئَامَهَا على تَخَيُّر مِنْ لَذِيذِ الوَزْنِ، ومُنَاسَبَةَ المُسْتَعَارِ مِنْهُ لِلمُسْتَعَارِ لَه، وَمُشَاكَلَةَ اللَّفْظِ لِلمَعْنَى، وَشِدَّة اقْتِضَائِهِمَا لِلْقَافِيَة حَتَّى لاَ مُنَافَرَة بَينَهُما، فهذه سَبْعَةُ أبْوابٍ هي عمُودُ الشِّعرِ ولكُلِّ بابٍ منها مِعيَارٌ"(٥).

هذا العمود يقابل -بما لا يقبل الشك- أفق الانتظار الذي نادت به النظرية الألمانية، أفق انتظار يتسلح به الملقي والمتلقّي معًا، مع اختلاف بيّن بينها في طريقة الاستعمال، فالملقي يراعي أفق الانتظار؛ لأنه لا يملك "الحرية المطلقة في كتابة النص، فهو يرجع إلى عدد معيّن ومعروف من

سنن الكتابة، يشكّل الخروج عليها أو التغاضي عنها مساسًا بنظام الكتابة وأعرافها، هذه السنن هي خبرات قراء تجمعت على مدى العصور، وأصبحت دلائل وإمارات تسكن مخيلة الشاعر دون أن يستطيع إهمالها. فالوزن والقافية والشروط الصحيحة للاستخدام قواعد على الشاعر أن يلتزم بها، وهي واحدة من جملة مواضعات تضمن سلامة النص الأدبي"(٦)، وهذا من أجل إثارة المتلقِّي والسعي إلى مفاجأته وإحداث الشعور بالخيبة لديه، وذلك بخرق الأفق المألوف وخلق أفق جديد(٧).

أمّا المتلقِّي فيمتلك هذا الأفق حتى يؤول ويملأ الفراغات التي تُترك، وحتى يعرف نوعية الإبداع الملقى إليه أهو مألوف متوقع أم غريب مفاجئ ثار به الملقي على تلك الاستعدادات التي تشكل أفق التوقع؟ وهل كانت هناك متعة فنية(٨) في الحالتين؟ أم فيه إضافة وتوسع أفق توقع؟ وفي هذا يقول أحد النقاد: "إنّ أفق التوقعات الذي يأتي من خبرة قديمة عند القارئ بأعمال سابقة، يلتقي بالنص الجديد الذي يقرؤه، وحينئذ فتوقعاته تكون تنويعًا إلى ما سبق أو تصحيحًا له أو تبديلاً كاملاً أو مجرد توقعات قديمة تنبعث من جديد"(٩).

إذا أفق الانتظار في النقد العربي القديم يمثّله عمود الشِّعر بمقاييسه السبعة، على أنّ كل مقياس يمثل أفق انتظار خاص به، بمعنى أنّ العمود أفق انتظار كلّي، أمّا المقياس الواحد فأفق انتظار جزئي، ومن ثَم فأول أفق صغير متفرّع عن الأفق الكبير هو شرف المعنى وصحته، وفيه يقول المرزوقي: "فعيارُ المعْنَى أنْ يُعْرَضَ على العقْلِ الصَّحيحِ، والفهْمِ الثَّاقبِ،

فإذَا انعطَفَ عليهِ جَنْبَتَا القبُولِ والاصطِفَاءِ مُسْتأْنِسًا بِقَرَائِنِهِ خرَجَ وافيًا، وإلاَّ اِنْتَقَصَ بمقدَارِ شَوْبِهِ وَوَحْشَتِهِ..."[10].

إنّ المرزوقي يريد بهذا أنّ المعنى يجب أن يوسم بالسموّ، وذلك بالجنوح إلى الابتكار والجدة والاختلاف عن المعهود والمتداول، أي أنّ الملقي مجبر على خرق أفقِ توقعٍ يُعرف بشرف المعنى وصحته، وذلك بتجنب المبتذل المألوف الذي فهمه العقل ولا حاجة له لأنْ يُعرض عليه، لأنه سيكون ممجوجًا مرذولاً من قبل المتلقِّي، فما يعرض على هذا العقل وجب فيه شيء من الإغراب والإغراق والمخالفة للمعهود، وفي هذا يقول إدريس بلمليح: " ومعناه أنّ المجال الدلالي للشِّعر لا يمكن أن يكون ذا محتوى مبتذل، يلامس سمات الحياة اليومية ويهتم بجزئياتها الرتيبة، بل لا بد من أن يكون محتوى الرسالة الشعرية تركيبا لدلالات جزئية لا نعهدها في تواصلنا العادي، ولكنها بالرغم من ذلك دلالات صحيحة، يقبلها العقل والفهم وينعطفان عليها، ثم يجدان لها قرائن من جنسها"[11].

والأفق الثاني يتمثّل في جزالة اللفظ واستقامته وعياره "الطَّبعُ والرِّوايةُ والاسْتِعْمَالُ، فما سَلِمَ مِمَّا يُهَجِّنُهُ عند العرضِ عليها فهُو المختَارُ المستقِيمُ، وهذا في مفردَاتِهِ وجملتِهِ مُرَاعًى، لأنَّ اللَّفظَةَ تُسْتَكرَمُ بانفرادِهَا، فإذا ضَامَّهَا مَا لاَ يُوافِقُها عادَت الجملةُ هَجِينا"[12]، فالمتلقِّي ينتظر لفظًا فصيحًا متداولاً، لا هجنة فيه، على أن يكون في توافق مع نظيره من الألفاظ في التركيب فيُؤدِّي المعنى على أحسن وجه.

لأنّ هذا التوافق هو أفق توقع للمتلقِّي، أمّا اللفظة المفردة فالعربي قديمًا كان يملكها، وحتى المرزوقي أكد على أنّ اللفظة بانفرادها مستكرمة، ونبّه إلى أنّ التوافق هو ما يصبو إلى المتلقِّي كأفق توقع، وكلّما حرص الملقي عليه كانت الإثارة، وكان التعديل في أفق الانتظار، وإن لم يُراع هذا لن يفيد المعنى الجيّد في لفظ غير منسجم، كما أنّ "شرط الملاءمة أو مقياسها الطبع والرواية والاستعمال. أي أن تكون ملاءمة عفوية، غير منافرة لمعجم اللغة المتواترة واستعمالاتها العادية فيقتضي ذلك إخضاع هذه اللغة بوحداتها ونظامها التركيبي إخضاعًا تامًّا لنظام الشِّعر"(١٣).

أمّا ثالث أفق جزئي فهو الإصابة في الوصف وفيه قال المرزوقي: "وعيارُ الإصَابةِ في الوصْفِ الذَّكاءُ وحسْنُ التَّمييزِ فما وَجَدَاه صادقًا في العُلُوقِ، مُمَازِجًا في اللُّصُوق، يتعسَّرُ الخرُوجُ عنه، والتّبرُّؤُ منه، فذَاكَ سِيمَاءُ الإصَابَةِ فيه، ويُروى عنْ عمرَ ﷺ أنَّه قال في زُهيرٍ: كانَ لاَ يمدَحُ الرَّجلَ إلاَّ بما يكونُ للرِّجَالِ. فتأمَّلْ هذا الكَلامَ فإنَّ تفسِيرَهُ ما ذكرْنَاهُ"(١٤).

والمقصود بهذا تجنب الابتذال قدر الإمكان؛ لأنه أفق توقع معهود لا يثير المتلقِّي، أي أنّ الملقي مجبر على خرق المعهود دون أن يخرج عن سنّة العرب في الوصف؛ لأنّ هذا -كما قلنا- إخلال بالنظام كله من منطلق عمود الشِّعر، ومن ثَمّ فالملقي لن يتأتى له ذلك إلا بوصف "البديل التخيلي وصفًا مقنعًا إلى الحد الذي يعتقد معه المتلقي أنه واقع بالرغم من كونه في بعض الحالات -إن لم نقل في أكثرها- مستحيلاً"(١٥).

ويرى محمد المبارك أنّ مقياس الإصابة في الوصف أفق انتظار خاص بالملقي أكثر من المتلقِّي، إذ هو المطالب بالذكاء وسرعة لقف التصورات الذهنية الواردة عليه عند خوضه غمار العملية الإبداعية، كما أنه مجبر على حسن التمييز إلى جانب ذكائه وذلك في اختيار اللفظ المناسب، أي أنّ أفق الانتظار الخاص باللفظ بدوره تابع للملقي، أمّا عيار المعنى فالمبارك يرى أنه خاص بالمتلقِّي، فهو من يستخدم عقله الصحيح وفهمه الثاقب -أي ذوقه حسب المبارك- للتأمّل والفحص واستقبال المعنى ليعرض على أفق التوقع فيكون التأثر أو عدمه(١٦).

ثم كان الحديث عن مقاربة التشبيه وفيه قيل: "وعيارُ المقاربَةِ في التَّشبيهِ الفطنَةُ وحُسنُ التَّقدِيرِ، فأصدَقُهُ ما لا يَنتَقِضُ عند العكسِ، وأحسَنُه ما أُوقَعَ بينَ شيئَيْنِ اشتراكَهُمَا في الصِّفاتِ أكثَرَ من انفرادِهِمَا، ليَبِينَ وَجْهُ التَّشبيه بلا كُلْفَةٍ، إلاَّ أنْ يكُونَ المطلُوبُ من التَّشبِيهِ أشهَرَ صفاتِ المشَبَّهِ به وأملَكَها له، لأنَّه حينئذٍ يدلُّ على نفْسِهِ ويحمِيهِ من الغمُوضِ والالتباسِ"(١٧).

والمعروف عن العرب أنهم أكثروا من التشبيه وتفننوا فيه إلى أبعد الحدود، والمرزوقي يرى أنّ هذه المقاربة أفق انتظار يجب أن يراعى بدوره لتتكامل عناصر العمود، وتتمّ العملية الإبداعية، أو قل أفق الانتظار الكلِّي، ولن يتأتّى هذا إلا إذا وُفق التشبيهُ إلى تخيّل "علاقات لا وجود لها في الأصل والتحقق، وهي علاقات تحدّد أداة إدراكها والتفاعل معها في الفطنة وحسن التقدير لا في التصديق والتحقيق"(١٨).

ثم ينادي المرزوقي بحتمية توفير أفق انتظار مكمل لما سبق، حتى يحصل للمتلقي القبول واللذة، ويكون هذا -حسبه- بضرورة التحام الأجزاء، وقد قال فيه: "وعيارُ التحَامِ أجزَاءِ النَّظمِ والتئامِهِ على تخَيُّرٍ منْ لذِيذِ الوزْنِ، الطَّبعُ واللِّسانُ فما لم يتعثّرُ الطَّبعُ بأبنيتِهِ وعقودِهِ، ولم يتحبَّسْ اللِّسانُ في فصولِهِ ووصولِهِ، بل اسْتَمرّا فيه واستسْهَلاَهُ، بلا مَلاَلٍ ولا كلالٍ، فذاك يوشِكُ أن تكُونَ القصيدَةُ منه كالبيْتِ، والبيْتُ كالكلمَةِ تَسَالُمًا لأجزائِهِ وتَقَارُنًا"(١٩).

وهذا الطرح هو ما يعرف بالوحدة الفنية، والتي تتآلف فيها جميع عناصر القصيدة، حتى يكون الشعر سلسا على اللسان، ويبعث الأريحية والمتعة الفنية المرجوة من النظم، وهذا بدوره أفق ينتظره المتلقّي بمعنى "أن الوقع المتولد عن انعكاس مكونات الوزن في مكونات اللغة وقع إيقاعي يظهر في المستوى الصوتي والمستوى التركيبي، ويتجه اتجاهين اثنين، أفقي وعمودي، ولذلك فهو وقع نص إذا صح هذا التعبير"(٢٠).

والأفق السادس هو مُنَاسَبَة المُسْتَعَارِ مِنْهُ لِلمُسْتَعَارِ لَه وعيار هذه الاستعارة "الذهن والفطنة. وملاك الأمر تقريب التشبيه في الأصل حتى يتناسب المشبه والمشبه به، ثم يكتفى فيه بالاسم المستعار؛ لأنه المنقول عما كان له في الوضع إلى المستعار له"(٢١). في أفق الانتظار هذا يبدع الملقي تشبيهًا فيه التناسب والتقارب بين المشبه والمشبه به، وذلك بتأويله لمظاهر العالم من حوله، واضعًا في حسبانه "أنّ هذا التأويل تأويل تناسبي، ولذلك فإنّ وقعه لا بد من أن يكون هو أيضًا وقعًا تأويليًّا وتناسبيًّا، تنبثق عنه

ردود أفعال متعددة لا مجال فيها إلى العقل والمنطق والقياس"[٢٢]. فإن كان الأمر على هاته الحال فإنّ أفق التوقع قد تحقق، بل تحققه هذا فيه تعديل وخرق لما عهد المتلقِّي.

وآخر أفق جزئي هو مشاكلة اللفظ للمعنى وعن هذا قال المرزوقي: "وعيارُ مشاكلَةِ اللَّفظِ للمعنَى، وشِدَّةِ اقتضائِهِمَا للقافيةِ حتَّى لا مُنَافَرَةَ بينَهُمَا، طولُ الدُّربةِ ودوامُ المدارسَةِ، فإذا حكَمَا بِحُسنِ التِبَاسِ بعضِهِمَا ببعضٍ، لا جَفَاءَ في خلالِهَا ولاَ نُبُوَّ ولا زيادَةَ فيها ولا قصُورَ، وكان اللَّفظُ مَقسُومًا على رُتَبِ المعانِي، قد جعلَ الأَخَصُّ لِلأَخَصِّ، والأَخَسُّ لِلأَخَسِّ فهو البريءُ من العَيْبِ، وأمَّا القافيةُ فيجبُ أن تكونَ كالموعُودِ به المنتَظَر يتَشوَّفُها المعنى بِحقِّه، واللَّفظُ بِقِسْطِهِ، وإلا كانت قَلِقَةً في مَقَرِّهَا مُجْتَلَبَةً لِمُسْتَغْنٍ عنها"[٢٣].

ما ينتظره المتلقِّي في هذا الباب أن تكون المشاكلة بينهما تامة ولا تستغني عن تلاؤم مع القافية، ويتأتى هذا بالدربة والمدارسة والاطلاع على جل النصوص الشعرية، إذ بهذا لا بغيره يتمكن كل من الملقي والمتلقِّي من الانتقال من لغة التواصل اليومي إلى لغة التواصل الشعري، فالملقي مجبر عل توفير الانسجام بين مستوى المحتوى ومستوى العبارة حتى تكون الفعالية، ويتحقق أفق الانتظار الذي يرجوه المتلقِّي[٢٤].

وتجدر الإشارة إلى أنّ الآفاق الثلاثة الأولى (شَرَفَ المَعنَى وَصحَّتَهُ، وَجزَالَة اللَّفظِ وَاستِقَامَتَهُ، والإِصَابَةَ في الوَصْفِ) هي آفاق رئيسية؛ أمّا الآفاق المتبقية فثانوية؛ لهذا نجد المرزوقي يشير إلى أنّ العرب كدَّتْ وحاولتْ

جادة إلى تحقيق هذه الآفاق الثلاثة، كما أن لا أحد ينكر أنّ تحقيقها يؤدِّي بالضرورة إلى بناء الآفاق المتبقية وتحققها، فتكون المتعة الفنية، وذلك بالخروقات المتعددة للأفق الكلي.

بقي أن أقول: إنّ عمود الشِّعر هو بمثابة أفق انتظار في نظرية التلقِّي المعاصرة إلا أنه أفق انتظار ضيق إن صح التعبير؛ لأنّ فيه معيارية بحتة يقف عليها الملقي والمتلقِّي معًا، ومفهوم الأفق بهذا الطرح كان في السنوات الأولى للتلقِّي؛ فياوس عدّل مفهومَ التلقِّي فيما بعد ليتناسب مع ما كان يرمي إليه من ضرورة إعادة كتابة تاريخ الأدب وفق الآفاق المتعددة عبر الزمن وما صحب ذلك من خروقات وتعديلات غيّرت مِن الأجناس الأدبية عبر العصور.

أضف إلى هذا "أنّ خرق الأفق أي جدة العمل الأدبي واختلافه لم يكن هو المطلب الأساسي في كل أدب وفي كل عصر، بل إنّ بعض العصور والمجتمعات كانت جمالية الأدب تتحدد عندها بمقدار وفائها لقواعد النوع الأدبي ولأفق انتظار القرّاء"(٢٥). هذا ينطبق على العمود؛ لأنّ فيه دعوة لالتزام السنة العربية التي تمسك بها العرب قرونًا، والخارج عن هذه السنة هو بالضرورة مخالف لأفق التوقع جملة وتفصيلاً.

الهوامش:

❖ تلمسان، الجزائر.

(١) ينظر: **نظرية الاستقبال مقدمة نقدية**، روبرت سي هول، ترجمة: رعد عبد الجليل جواد، دار الحوار للنشر والتوزيع سورا، ط١، ١٩٩٢م، ص٧١، و**قراءة النص**

وجماليات التلقّي، محمود عباس عبد الواحد، دار الفكر العربي، مصر، ط١، ١٩٩٦م، ص٢٧.

(٢) **المقامات والتلقّي**، نادر كاظم، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط١، ٢٠٠٣م، ص٣٣.

(٣) **قراءة الآخر/ قراءة الأنا نظرية التلقّي وتطبيقاتها في النقد الأدبي العربي المعاصر**، حسن البنا، الأمل للطباعة والنشر، ط١، ٢٠٠٨م، ص٢٨، وينظر: **نظرية استقبال**، ص٧٧.

(٤) **قراءة النص وجماليات التلقّي**، ص٢٣.

(٥) **شرح ديوان الحماسة**، أبو علي المرزوقي، تح: أحمد أمين وعبد السّلام هارون، دار الجيل، بيروت، ط١، ١٩٩١م، ص٧٠.

(٦) **استقبال النص عند العرب**، محمد المبارك، المؤسسة العربية للدراسات والتوزيع، ط١، ١٩٩٩م، ص٢٠٠.

(٧) ينظر: **مجلة قراءات**، مقال بعنوان: أفق التوقع عند ياوس بين الجمالية والتاريخ، للدكتور خير الدين دعيش، العدد١، ٢٠٠٩م، ص٧٩.

(٨) ينظر: **قراءة النص وجماليات التلقي**، ص٢٦.

(٩) مجلة **علامات في النقد**، مقال بعنوان النظرية النقدية ومفهوم أفق التوقع: السيد إبراهيم، مج٨، ج٣٢، مايو ١٩٩٩م، النادي الثقافي، جدة، ص١٦٩.

(١٠) **شرح ديوان الحماسة**، ص٩.

(١١) **المختارات الشعرية وأجهزة تلقّيها عند العرب من خلال المفضليات وحماسة أبي تمام**: إدريس بلمليح، مطبعة النجاح الجديدة، الرباط، ط١، ١٩٩٥م، ص٤٤٦.

(١٢) **شرح الحماسة**، ص٩.

(١٣) **المختارات الشعرية وأجهزة تلقّيها عند العرب من خلال المفضليات وحماسة أبي تمّام**، ص٤٤٨.

(١٤) **شرح الحماسة**، ص٩.

(١٥) **المختارات الشعرية وأجهزة تلقّيها عند العرب من خلال المفضليات وحماسة أبي تمّام**، ص٤٥٠.

(١٦) ينظر: **استقبال النص عند العرب**، ص١٨٥، **المختارات الشعرية وأجهزة تلقّيها عند العرب من خلال المفضليات وحماسة أبي تمّام**، ص٤٥١.

(١٧) **شرح الحماسة**: ص٩.

(١٨) **المختارات الشعرية وأجهزة تلقّيها عند العرب من خلال المفضليات وحماسة أبي تمّام**، ص٤٥٣.

(١٩) **شرح الحماسة**: ص١٠.

(٢٠) **المختارات الشعرية وأجهزة تلقّيها عند العرب من خلال المفضليات وحماسة أبي تمّام**، ص٤٥٤.

(٢١) **شرح الحماسة**، ص١١ .

(٢٢) **المختارات الشعرية وأجهزة تلقّيها عند العرب من خلال المفضليات وحماسة أبي تمّام**، ص٤٥٦.

(٢٣) **شرح الحماسة**، ص١١.

(٢٤) **ينظر المختارات الشعرية وأجهزة تلقّيها عند العرب من خلال المفضليات وحماسة أبي تمّام**، ص٤٥٩.

(٢٥) **المقامات والتلقّي**، ص٣٦.

ورد إلى "العرب" من الدكتور/ محمذن بن أحمد بن المحبوبي* ما يأتي:

"مجلة العرب" ديوان التراث وعنوان الأدب

(وقفة مع عهود التألق والعطاء ولحظات التميّز والوفاء)

من المعلوم أنّ المجلات ذات أهمية بالغة لا في تثقيف الأمم والشعوب وحماية الآثار والمخطوطات فحسب بل وفي صيانة التراث من الإهمال والضياع، وفي المحافظة كذلك على ذاكرة الأمّة وهويتها من التلاشي والذوبان، فكأيّن من خصلة حميدة ومخطوطة نادرة وشخصية مرموقة لولا المجلات لضاعت وانمحت من ذاكرة التاريخ، فإلى المجلات يرجع الفضل في نشر الكثير من الكنوز العلمية النادرة، وفي التعريف ببعض أعلام الفكر والأدب، وفي التعرف على تاريخ الإسلام وأيام العرب.

ويزداد الأمر أهمية إذا ما كانت المجلة أدبية ثقافية «تعنى بتاريخ العرب وتراثهم الفكري»[1] وتحظى برعاية فريق جاد من البحثة والدارسين، وتنال ثقة لفيف من المهرة والخبراء المتخصصين.

وفي هذا السياق أردنا أن نتلبّث يسيرًا مع "**مجلة العرب**"، بوصفها نشرية من أهم النشريات الأدبية المعاصرة، فقد آلت على نفسها أن تجوس خلال

مدوّنات التراث ومخطوطاته، معتنية بما للعرب من الحِكم والأمثال، وما لديهم من الآراء والآثار، معبّرة كذلك عن ما يعيشون من الآمال والآلام، في منهاج معتدل يسعى جهده إلى تطوير آليات التناول والبحث، وإلى تحديث طرائق المثاقفة والدرس، غير مهملة لأساليب النظر والتفكير، ولا لقضايا التأمل والتنظير، وذلك من خلال سعي حثيث يبدّد التخوف مما خلف الأكمة ويجدد قطع غيار للغة، فجاءت بذلك لوحة فنية رائعة وسبيكة معرفية بديعة، ترعى من كل يانعة وتسقى بماءٍ غير آسنٍ، مزاوجة بين الدراسة والتحقيق ومؤالفة بين الإبداع والتوثيق، متبوِّئة أفياء عهود الشيخ حمد الجاسر رحمه الله ومتفيّئة من بعده ظلال جهود ابنه معن، حفظه الله، فجمعت بذلك عطف الأبوّة وشهد حنانها، إلى لطف البنوّة ورشد جنانها.

وقد استطاعت أن تزاوج بين الجودة والتميّز في ساحة الثقافة والأدب، وبين الرواج والتألق في سماء الطباعة والإخراج، فماذا عن هذه المجلة نشأة وتطورًا وعطاء وتميّزًا وتوعية وتثقيفًا، ونشرًا وتحقيقًا؟، وكيف كانت جهود الباحثين على أديم صفحاتها؟، وهل استطاعت أن تصمد أمام عوامل الزمن؟، وتحطم جدار الصمت الثقافي، ممتدة إلى المكتبات العالمية والمؤسسات الجامعية والمعاهد العلمية بمختلف أنحاء العالم العربي والإسلامي؟ أم أنها عرفت بعض فترات التعثر والفتور، ذلك ما نسعى إلى الإجابة عنه عبر ثلاثة محاور نكرس أولها لتحديد الموضوع وتأصيله،

ونمحّض ثانيها للتتبع مضامين المجلة ومحتوياتها، ونعرض في ثالثها لحضور هذه المجلة في الساحة العربية وتأثيراتها.

أولاً- الموضوع: أسس ومنطلقات

وضمن هذا المحور سنعرض لمسألتين أولهما تهتم باستنطاق العنوان ومناقشة دلالاته، وثانيتها تعنى بمقاربة الموضوع ومحاورة محمولاته:

١- العنوان مناقشة وتحليل:

يتألف عنوان هذا الجهد من جملة اسمية مؤلفة من ثلاثة تراكيب إضافية أولها "**مجلة العرب**" وقد شغل وظيفة المبتدأ وثانيها ديوان التراث، وقد أدى مهمة الخبر، وثالثها عنوان الأدب، وقد غطّى حيّز العطف، أمّا التركيب الإضافي الأول فهو مفتتح بكلمة "مجلة"، وهي لغة الصحيفة أو الكتاب، قال صاحب "**لسان العرب**" «المجلة صحيفة يكتب فيها، والمجلة الصحيفة فيها الحكمة، وكذلك روي بيت النابغة بالجيم:

مجلتهم ذات الإلـه ودينهم قويم فما يرجون غير العواقب

فـ"مجلتهم" في البيت يراد بها الصحيفة؛ لأنّ الممدوحين كانوا نصارى، فعنى الإنجيل، قال القتبي، تقديره كتابهم ككتاب الله، وكانوا نصارى وكتابهم الإنجيل، وهو كتاب الله ﷻ»[٢].

وقد روي "محلتهم" بالحاء بدل مجلتهم والمراد بها الأرض المقدسة، وناحية الشام" والبيت المقدس وهنالك كان بنو جفنة، قال الجوهري معناه أنهم يحجّون فيحلّون مواضع مقدسة. وقال أبو عبيدة: كل كتاب مقدّس عند العرب مجلة، وفي الحديث أنّ السويد بن الصامت قال للرسول الله ﷺ، لعل

الذي معك مثل الذي معي، قال ما الذي عندك؟ قال مجلة لقمان، كل كتاب عند العرب مجلة، يريد كتابًا فيه حكمة لقمان، ومنه حديث أنس ألقى إلينا مجالَّ، وهي جمع مجلة، يعني صحيفة. وقيل إنّ كلمة مجلة معربة من العبرانية، وقيل هي عربية، وذهب بعضهم إلى أنها مشتقّة من فعل جلَّ، فهي مَفْعَلَةٌ من الجلال، كالمذلة من الذل[٣].

وهذه المجلة مضافة إلى "العرب" وهم جيل من الناس معروف خلاف العجم، ويقال العرب والتسكين والعرب بالتحريك مثل العجم والعجم وهو مؤنث، وتصغيره بغير هاء نادر، وقال الجوهري العريب تصغير العرب، وقال أبو الهندي واسمه عبد المؤمن بن عبد القدوس:

فأمّا البَهَطُّ وحيتانكم | فما زلت فيها كثيرَ السقَمْ
وقد نلت منها كما نِلْتُمُ | فلم أر فيها كضب هَرِمْ
وما في البيوض كَبيضِ الدَّجاج | وبيض الجراد شفاءُ القَرَمْ
ومَكْنُ الضِّباب طعام العُريب | لا تشتهيه نفوس العجمْ[٤]

صغرهم تعظيمًا، والعربي بين العروبة، والعرب العاربة هم الخلّص منهم، أخذ من لفظة فأكد به كقولك ليل لائل ".. والعربي منسوب إلى العرب إن لم يكن بدويًّا، والأعرابي البدوي وهم الأعراب والأعاريب وإنما العرب اسم جنس" والعروبية وهما من المصادر التي لا أفعال لها. وحكى الأزهري: رجل عربي إذا كان نسبه في العرب ثابتًا، وإن لم يكن فصيحًا فجمعه العرب[٥].

ويواصل صاحب "**اللسان**" حديثه مع هذه الوحدة المعجمية مفصِّلاً القول في اشتقاقاتها، ومحمولاتها الدلالية، يقول: والعرب هذا الجيل، لا

واحد له من لفظه، والعرب أهل الأمصار، والأعراب منهم سكان البادية منهم خاصة. واختلف الناس في العرب لما سمُّوا عربًا، فقال بعضهم أول من أطلق الله لسانه بلغة العرب يعرب بن قحطان وهو أبو اليمن كلهم وهم العاربة، ونشأ فيهم إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام فتكلم بلسانهم، فهو وأولاده العرب المستعربة، وقيل إنّ أولاد إسماعيل نشأوا بالعربة وهي تهامة فنسبوا إلى بلدهم، وروي عن النبي ﷺ أنه قال خمسة أنبياء من العرب، هم محمد وإسماعيل وشعيب وصالح وهود، صلوات الله وسلامه عليهم، وهذا يدل على أنّ لسان العرب قديم وهؤلاء الأنبياء كلهم كانوا يسكنون بلاد العرب. قال الأزهري: إنهم سمّوا عربًا باسم بلدهم العربات، وتقول رجل عربي اللسان إذا كان فصيحًا، وقال الليث: يجوز أن يقال رجل عرباني اللسان(٦).

أمّا التركيب الإضافي الثاني فهو "ديوان التراث" ويتألف من كلمتين أولاهما الديوان، وهو الدفتر الكبير تكتب فيه أسماء الجند والعمال، فهو إذن سجلّ كبير جامع؛ ولذلك قال ابن عباس ﷺ: "الشِّعر ديوان العرب" إشارة إلى أنّ المدوّنات الشعرية جامعة للحياة العربية بكل تفاصيلها من لغة وفصاحة وبيان، ومن قيم وأخلاق وتشريعات وسلوك وغير ذلك، وثانية الكلمات هي "التراث" وهو مجموعة المعارف التي تكون رصيدًا معرفيًّا أصيلاً يصون لكل أمّة هويتها وثقافتها.

أمّا التركيب الإضافي الثالث فهو "عنوان الأدب" والعنوان هو ما يستدل به على الشيء ويتعرف به، والأدب هو جميل القول من الشِّعر والنثر، فيقصد

به مأثور الكلام الذي له طرافة ومتعة وتأثير على القلوب، والمقصود من العنوان جملة هو التأكيد على أنّ "**مجلة العرب**" تعدّ بحق موسوعة جامعة للعلوم والآداب، بل هي دائرة معارف تحفظ الهوية وتصون التراث وتحمي المدوّنات الأدبية والآثار التاريخية من الضياع والتلاشي، فهي ذاكرة الأمّة وحافظة العلم وحاضنة الثقافة، وإن شئت قلت إنها خزانة الأدب وكنانة الدفاع عن الذات وهداية للتائه والحيران، فهي إذن عنوان على إمتاع القارئ وإتحافه بالمتنوّع والمفيد، وهي في عصرنا هذا آية بيّنة على إمكانية صمود النشريات واستمرارها، وهي دليل ساطع على جهود أئمة القول وأرباب القلم".

٢- الموضوع مقاربة وتأصيل:

تجدر الإشارة هنا إلى أنّ ظهور المجلات ملمح من ملامح النهضة العربية الحديثة، فالمجلات ثمرة من ثمرات فنّ الصحافة، التي أسهمت في النهضة إسهامًا كبيرًا، ففي مطلع العصر الحديث تعدّدت النشريات وتنوّعت، ساعية إلى تهذيب اللغة وتقريبها من القراء، مطوّرة أساليبها حيث طفقت تلوذ بالسهل الميسّر من القول، نابذة وراء ظهرها أساليب الصنعة، والبديع التي كانت متداولة في عهود الانحطاط، وأكثر من ذلك عملت الصحافة على تثقيف القرّاء وتوسيع معارفهم عبر مختلف المجلات. ويعود ظهور المجلات في العالم العربي، إلى عهد الحملة الفرنسية على مصر عام (١٧٩٨م) فبعدها أخذ الكتاب والمثقّفون يؤسسون لأنفسهم مجلات خاصة، فظهرت "**العروة الوثقى**" في فرنسا على يد جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده، وإثر ذلك بدأت المجلات تشقّ طريقها نحو التعدد

والتنّوع، فأصبح من التقاليد العلمية الثابتة أن تختص كل جامعة بل كل كلية بمجلة تعرف بمناهجها وتقاليدها، كما أصبح من الراسخ في الحقل المعرفي كذلك أن تصدر كل جمعية ثقافية أو رابطة أدبية، مجلة تكون عنوانها وأساس مشاريعها، فتضاعف عدد المجلات بسبب ذلك، وانهمر غيث المجلات بعد أن بدأ قطرًا ليكتسح الساحة العربية والإسلامية اكتساحًا كبيرًا، غير أنّ كثيرًا منها لم يكتب له الرواج والانتشار بله الدوام والاستمرار.

وجاءت "**مجلة العرب**" لتكون امتدادًا لما سبقها من مجلات، إذ تعدّ زبدة لما تقدّمها، فقد رأت النور سنة ١٩٦٦م، ومنذ يومئذ وهي تواصل مسيرتها العلمية آخذة على نفسها العهد بإحياء التاريخ العربي ونشر التراث وتحقيقه، مما جعلها تتسور جدران الرتابة والجمود، فأصبحت المرآة الثقافية الكاشفة لآراء الأساتذة والباحثين بمختلف الجامعات ومراكز البحث المشهورة، فقد ظلت عاكفة على تثقيف الإنسان العربي وتبصيره بتراثه وتاريخه، ساعية جهدها إلى أن توصل للناس القول عبر نهج أكاديمي مرن يعتمد أساليب الموضوعية والبحث وينتهج طرائق المثاقفة والحوار.

وهي بذلك توفر لأصحاب الدواة والقلم منبرًا حرًّا يتنافس بصفحاته المتنافسون، وتتكشف عبر سطوره المواهب والعبقريات، من أجل ذلك كتب للبحث العلمي في رحابها أن يندفع إلى الأمام، مرتادًا مسارح جديدة، تغوص إلى أعماق التاريخ العربي وتجوس خلال المخطوطات الغميسة مقدمة رؤية واضحة، تقوم على الدقة في التناول، وعلى الموضوعية في التحليل، مسهمة بذلك في تكريس الأصالة والمعاصرة، عبر ثنائية مزدوجة

تجعل الإنسان العربي يستمسك بعرى الموروث الحضاري، ويستلهم في الوقت نفسه تجارب المعاصرة، كي يحمي بذلك نفسه من الذوبان في أتون الاستلاب الآسر، وينجو بنفسه من الترامي في أحضان التخلف الآسن.

وهكذا نجد أنّ "**مجلة العرب**" آلت على نفسها أن تواصل مسيرة الإمتاع والإفادة مخترقة جدران الصمت، وماخرة عباب الركود، فسدّت بذلك فراغًا أكاديميًّا كبيرًا في ساحة المجلات العربية، مشجعة أصحاب الفكر والإبداع مفتِّحةً أمامهم الأبواب، لِيطَّارحوا على أديم صفحاتها رفيع الآراء ومتنوع الإسهام على نحو يتناول الموضوعات بحس نقدي ووعي مرهف، وذوق سليم وروح أكاديمية، تدفع إلى التسابق والتنافس، إبرازًا لمعالم الكفاءة والتميّز وإبعادا لمظاهر الميول والتحيّز. لتصَّعد العبقريات في سلاليم البحث والتجديد وتشَّقّقُ الألفاظ والمعاني بأساليب المتعة والإفادة.

ثانيًا- المجلة مضامين ومحتويات:

وفي هذا المحور نودّ لو نعرض لجانب من اهتمامات هذه المجلة التي عولت في مختلف أعدادها على العناية الكاملة بالتاريخ الثقافي والآثار مستحضرة ما للعرب من تراث في هذا الحقل، ومركزة بشكل خاص على تراث الجزيرة العربية، فهي تحدثنا عن مختلف اللهجات العربية من قرشية وتميمية وهذلية وغيرها، عاملة على الحفر في الذاكرة العربية كي تستخرج للناس المعلومات النادرة من مخبآت التاريخ ومكنون المخطوطات، فعرّفت بكثير من الشعراء وحقّقت العديد من الدواوين، كما استعرضت المتنوّع من الدراسات، وسنتناول هذه المضامين في مستويين هما:

١- **العناية بالتاريخ والآثار:**

وفي هذا السياق نشير إلى أنّ المجلة تتبّعت بدقة تاريخ العرب وأيامهم وآدابهم ومالهم من تراث فكري فنشرت نصوصًا عديدة واستعرضت تحقيقات جادة وطريفة، مرسخة بمقالاتها الرصينة أبرز الأعراف الجامعية والتقاليد العلمية في جانب الدراسات والبحوث العربية والإسلامية، مجسدة بذلك رسالتها العلمية القائمة على المزاوجة بين إثراء تاريخ العرب وآدابهم، وبين إحياء تراثهم وآثارهم، وإبراز مواقفهم وأفكارهم دون أن تنسى تناول ما كتب عن الشِّعر والشعراء وعن الخلافة والخلفاء في أسلوب من المناقشة والتحليل يسعى إلى تقويم الأشياء ووضعها في الميزان مع اعتماد رؤية تحليلية فاحصة تنبه إلى مظاهر الإبداع في جهود العرب والمسلمين، كل أولئك مع السعي الحثيث إلى كشف النقاب عن الجوانب الغامضة في التراث العربي والتعريف بالمخطوطات النادرة والغميسة والتلبث غير يسير مع حضارة الجزيرة التي غطّت قرونًا عديدة، كما عملت المجلة كذلك على تطوير لغة الضاد وإيضاح مكانتها بين اللغات فحاربت اللحن والتصحيف والتحريف وكل المحاولات الساعية إلى النيل من قيمة الفصحى.

والمجلة بهذا الصنيع تسعى إلى تكوين جيل متميّز صالح ومصلح يكون قادرًا على المزاوجة بين مقتضيات الماضوية ولوازم العولمة في نموذج متكامل يغترف من نافع تقنيات العصر ولا ينسلخ من شروط الماضي،

ويعترف بينابيع ثمرات التراث ولا ينصرف عن الحاضر، محققة بذلك الوسطية في التعامل مع المتقدم والمتجدد في الوقت نفسه.

والمجلة تقترح للإنسان العربي المسلم تكوينًا تراثيًّا جديدًا يلزم عبره أن تتشكل شخصيته وسلوكه من متعدد المشارب ومتنوع التجارب، لذلك فإنّ المتصفح لمقالاتها يقرأ في شكلها ومضمونها صورًا من التراث، كما يلحظ ملامح من الحياة المعاصرة بعديد أطرافها وأطيافها حتى لكأنها سبيكة تراثية تجمع الجديد إلى الأصيل وتضم المعاصر إلى القديم في تشكيلة معرفية أشبه ما تكون بشمائل سعد بن الضباب، ممدوح امرئ القيس، الذي تواشجت في شخصه دماء الآباء والأخوال، فأخرجت مزيجًا رفيعًا من قيم السماحة والبرّ ومثل الكرم والوفاء، فأنت تقرأ في أسارير وجهه معالم النجابة والفضل، وملامح المساحة والنبل:

وتعرف فيه من أبيه شمائلا ومن خاله ومن يزيد ومن حجر
سماحة ذا وبرّ ذا ووفاء ذا ونائل ذا إذا صحا وإذا سكر

والمجلة قد جمعت في أعدادها البالغة قريبًا من ستة وسبعين ومائتين (٢٧٦) قرابة أربع مئة وألف بحث (١٤٠٠ بحث) مؤصل جاءت غذاءً روحيًّا متميّزًا، وشرابًا معرفيًّا مختلفًا ألوانه، فيه قوت للأفئدة وشفاء للناس، وبهذا الصنيع استطاعت أن توصل للناس القول، فغدت مألفًا للدراسات التراثية، ومجمعًا للبحوث العلمية، ومنتدى للتثاقف والحوار، ومرصدًا لاكتشاف النوادر والمخطوطات، فتلاقت فوق أديم صفحاتها أقلام أولي البسطة في العلم والفكر، وتداعت إلى مأدبتها العلمية يراعات

أهل المهارة والإبداع، فصارت منبرًا دوليًّا يجتذب العباقرة والمفكرين، ويستقطب النوابغ والمنظّرين من مختلف أصقاع العالم وبقاع الدنيا.

٢- الاهتمام بالتراث والآداب:

وبشكل خاص فإنها عوّلت كثيرًا على التراث الأدبي فعرفت بعدد من الشعراء المغبونين، ونشرت للناس نصوصهم ووضعتها في متناول الباحثين، فنشرت العديد من أشعار عوف بن عطية وأمثاله، ممن لا يعرف الناس عنهم إلّا النادر اليسير. وعرّفت كذلك بأنواع القبائل والسلالات ومختلف المناطق والأقاليم، ففي بعض أعدادها تتبّع دقيق لورود "سدير" في الشِّعر العربي، فقد انطلق صاحب هذا البحث من أنّ كلمة "سدير" تصغير سدر وهو الشجر المعروف (...) وذو سدير قرية لبني العنبر[٧]، وبعد ذلك يورد أبياتًا للقتال الكلابي، وهو شاعر مخضرم يقسم ضمنها جهد الأيمان أنه لمغرم بأرض محبوبته خرقاء، متحدثًا عن عفّتها وطهارتها وتمنّعها وصعوبة الالتقاء بها، دون أن ينسى الإشارة إلى خصب منطقة سدير، وكثرة أمطارها، يقول[٨]:

لعمرك إنني لأحب أرضًا ... بها خرقاء لو كانت تزار
كأنّ لثاتها علقت عليها ... فروع السدر عاطفة نوار
أطاع لها بمدفع ذي سدير ... فروع الضال والسلم القصار

كما عرفت بآداب بعض المناطق الواقعة في الأطراف، كبلاد شنقيط. وأكثر من ذلك استعرضت جوانب مهمة من الصلات الثقافية والمعرفية التي ربطت بين بلاد الحجاز وبين مختلف مناطق العالم الإسلامي الأخرى، خاصة بلاد شنقيط، فقد عنيت هذه المجلة كثيرًا بتراث الشناقطة

ونشرت العديد من نصوصه ، كما تناولت صلة الشناقطة الوثيقة بجزيرة العرب وأبنائها وما تم بين المنطقتين في القديم والحديث من تبادل للمعارف والمعلومات وتكامل في العلوم والخبرات.

فهذه المجلة تعدّ بحق عنوانًا للأدب الرفيع ، فكانت الجامع للتراث والحاضن للمعرفة والحافظ للتاريخ.

ثالثًا- المجلة ملامح ومميزات :

وفي هذا المحور سنركز بشكل خاص على ملمحين من أبرز ملامح هذه المجلة ، وهما ما امتازت به من الأصالة والصمود وما اختصت به من التنوّع والشمول :

١ - الأصالة والصمود

ما من شك في أنّ "**مجلة العرب**" تحرص بشكل واضح على نشر التراث وتحقيقه ، في نهج من الأصالة والصمود نادر ، ويكفي دليلاً على ذلك أنّ هذه المجلة بلغت العقد الخامس من عمرها وهو عمر نادر في أعمار المجلات والنشريات التي كثيرًا ما تظهر وتختفي عن الأنظار لمدة طويلة ثم تحاول العودة من جديد ، فهذه المجلة قد استطاعت أن تواصل مسيرتها العلمية دون انقطاع مع العلم أنها تُصدر في كل سنة ستة أعداد ، فهي الآن قد بلغت العدد السادس والسبعين بعد المئتين (٢٧٦) ، وبذلك نعلم أنها استطاعت أن تقاوم الزمان وتستمر رغم كل العقبات والصعاب التي كثيرًا ما تعترض هذا النوع من المجلات العلمية المحكّمة ، فهذا الصمود أمر ينـدر في النشريات بعالمنا العربي والإسلامي ؛ إذ الغالب عليها أن لا يتجاوز عمرها السنة أو السنوات اليسيرة ، والأمثلة على ذلك كثيرة ، فكم من مجلات انقطعت عن الحقل الثقافي وتوقفت

عن الصدور وتخلّفت عن الركب، فهذا الصمود والاستمرار أمر يسجل لمجلة العرب، إنه أمر يذكر فيشكر لها دون غيرها من المجلات، وما من شك في أنّ رعاية مؤسسها المرحوم حمد الجاسر وجهود ابنه معن من بعده وإنفاقهما السخي من أجل استمرارها ومواصلة مسيرتها يعدّان من الأسباب التي كتبت لها البقاء ومكنت لها في حقل الثقافة والعلم وجعلتها تواصل رحلتها المباركة متحدية كل الصعاب ومواجهة مختلف العراقيل.

ولا ننسى في هذا السياق جهود طاقمها الخيّر النيّر خاصة رئيس التحرير الأستاذ الدكتور أحمد بن محمد الضبيب وأعضاء هيئة التحرير الأستاذ الدكتور عبد العزيز بن ناصر المانع، والأستاذ الدكتور عبد العزيز بن صالح الهلابي، والأستاذ الدكتور عبد الله بن صالح العثيمين، فقد بذل كل هؤلاء جهودًا مشكورة وتضحيات جسامًا، فأنفقوا عليها من وقتهم الكثير، وتحمّلوا في سبيلها أثقالاً مع أثقالهم، فنسقوا بين مختلف الجهود واستقبلوا رنّات الهواتف في أوقات متعددة وفي ساعات من الليل قد تكون متأخرة، وبذلوا كل الوسائل من أجل إيصال المستحقات إلى أهلها، والأعداد إلى ذويها في الأوقات المناسبة.

فمن المعلوم أنّ تضافر هذه الجهود هو الذي هيّأ لهذه المجلة أسباب الاستمرار، ويسّر لها سبل الصمود والبقاء، فجزى الله الجميع خيرًا، ومدّ في عمر هذه النشرية المباركة وفي أعمار القائمين عليها.

٢- التنوع والشمول:

إنّ المتتبّع لأعداد هذه المجلة خلال مسيرتها الثقافية التي تقارب خمسة عقود من الزمان يعلم أنها ضربت مثلاً رائعًا في جانب التنوّع والتميّز

والشمول، حتى ليمكن القول إنها معرض مصغّر لمختلف العلوم العربية والإسلامية ومنبر حر لأقلام البحثة والمفكرين من مختلف أنحاء العالم؛ فهي الحاضن الأمين لتاريخ العرب والحافظ الوفيّ لتراثهم؛ فالقارئ لصفحاتها يطالع في أعدادها الكثير من المقالات المتنوعة، ولو أخذنا على سبيل المثال عدد شهري رجب وشعبان من عام ١٤٣١هـ الموافق لشهري يونيو ويوليو ٢٠١٠م لوجدناه يضمّ خمسة بحوث رصينة بالإضافة إلى بريد المجلة ومكتبتها، ليختتم بإهداء بعض الكتب إلى المجلة، وقد سطرت هذه البحوث من قبل خمسة باحثين من أقطار مختلفة فمن حديث عن سيرة الخليفة الأول أبي بكر الصديق ﷺ وجهوده في أنساب العرب مع باحث عراقي إلى تناول لمخطوط يحاور الدرس النحوي القديم ويستدرك على بعض السابقين، وهو بعنوان: "**شرح الصدور بشرح زوائد الشذور**" لشمس البرماوي ت٨٣١هـ" الذي تدارك بعضًا مما فات ابن هشام في كتاب "**شذور الذهب**" إلى استعراض لجانب من تاريخ الخلافة العباسية وتجلّيات أوجه الصراع فيها مع باحث من بلاد الشام إلى سعي جاد لتحقيق نسبة كتاب: "**مختصر أخبار الخلفاء**" لمؤلفه ابن الساعي إلى تلبث مع حركة التأليف في الشِّعر القديم لدى الشناقطة، وقد استعرض صاحبه جهود القوم في تذليل ألفاظ المدوّنات الشِّعرية القديمة وتقريبها إلى أذهان الطلاب، وشملت هذه الجهود الشروح والطرر والحواشي والتعليقات وذلك مع باحث من البلاد الموريتانية.

وقد توجت هذه البحوث ببريد "**مجلة العرب**" الذي عني بإطلاع الباحثين على نص مجهول لعلاّمة الجزيرة، ذي الجهود العلمية الغزيرة، نعني المرحوم حمد الجاسر، فقد أصدرت مكتبة الملك فهد الوطنية كتابًا عنوانه "**حمد الجاسر**" دراسة لحياته مع ببليوغرافية شاملة لأعماله المنشورة، وأحسنت بذلك صنعًا، ويزدان بريد مجلة العرب بـ"مكتبتها" التي ازّيّنتْ بالحديث عن كتاب "محمد بن عبد الوهاب الرجل وأعماله" وهو من تأليف الدكتور عبد الله الصالح العثيمين، ويسدل ستار المجلة على عنوان "إهداءات إلى مكتبة **العرب**" وتشمل الكتب والمجلات؛ فقد بلغ عدد الكتب المهداة في هذا العدد خمسة كما بلغت المجلات ستًّا.

وبذلك نعلم أنّ المجلة في هذا العدد وفي غيره عملت جاهدة على أن تمثّل مختلف الدول والقارات، مع الارتباط الوثيق بالتراث العربي الإسلامي، وتناول سير أعلام النبلاء، وجهود الأيمة الملاح وزعماء الإصلاح، فمثّلت بذلك آية التنوع والشمول مستجيبة لمختلف التوجهات والميول.

رابعًا- المجلة إشادات وشهادات:

ضمن هذا المحور سنعرض لخمسة نصوص شعرية شنقيطية سعى أصحابها جاهدين إلى التنويه بهذه المجلة وإبراز مكانتها العلمية وروعتها الأسلوبية، وعنون الأول منها بـ"**مجلة العرب** الأعالي" وعنون الثاني بـ" منارة نور العلم" كما عنون الثالث بـ"**مجلة العرب** إنارة للدروب" وعنون الرابع بـ "**مجلة العرب** نعمة من أنعم الله" وعنون الخامس بـ"**مجلة العرب** أشهى من الضرب" وسنعرض لهذه النصوص تباعًا في ما يأتي:

النص الأول: **مجلة العرب** الأعالي

وهو من إبداع الشيخ محمد يحيى بن سيد أحمد المجلسي[٩] فقد نوّه ضمنه بـ"**مجلة العرب**" قارئًا على فريقها التحية والسلام، مشيدًا بجهودهم في جانب الدرس والتحقيق والنشر والتحرير، مبرزًا المحطات الأساسية في مسيرة هذه النشرية، مصرّحًا أنها سطرت صفحات ذهبية من حياة أبناء الجزيرة العربية مستحضرة تاريخ العرب ومآثرهم ومعارفهم ومنابرهم، منوهة في الوقت نفسه بأيامهم وخيامهم، ومتحدثة كذلك عن أعلامهم وأقلامهم، فأصبحت بذلك منتهى المأمول والطلب، وخزانة التاريخ والأدب، وذاكرة الدول والشعوب، وحافظة التاريخ والعصور، فاستمتع القراء بما يلوح فوق أديم صفحاتها، مستنشقين عبير نفحاتها، فتسابق إلى مسطوراتها أولوا العزَمات والهمم، وتنافس في اعتمادها كبار الهامات والقمم وقد أكد الشيخ أنّ هذه المجلة انتشلت المخطوطات من الضياع وصانتها عن الانمحاء والاندثار، فكانت القيم على الثقافة والأدب والحاضن لتاريخ الإسلام وتراث العرب، وذلك بجهود مؤسسها الأستاذ الفاضل حمد الجاسر، الذي ارتقى بها إلى منازل الصافات من الصقور الكواسر، منتقيًا لها من الألفاظ الممتع والآسر، معززا بذلك بين أفراد هذه الأمّة الروابط والأواصر، إذ لبث العقود العديدة وهو عاكف على تطوير أساليب القول في نهج ينكب صراط الصنعة والتكلف ويرابط في ثغور الجهل والتخلف، مقدّمًا في سبيل ذلك العديد من التضحيات الجسام، وناصحًا للقوم في لباقة وأريحية وابتسام، يقول[١٠]:

عليك "**مجلة العرب**" الأعالي ومن قاموا بخدمتك السلام

غـدا تاريخنـا العربـي غـضًّـا	بـه لـك الاعتنـاء والاهتمـام
كمـا التـاريخ الإسـلامي أقيمـت	دعائمـه "ومـا بلـي الثمـام"
وأنـك للجزيـرة صـنت حقًّـا	تراثًـا لا يهـان ولا يـضام
مؤسـسك الأديـب أخـو المزايـا	إمـام عـيلم "حمـد" الهمـام
وفي "حَمَـدٍ" مقـام الحمـد بـادٍ	و"جاسـر" كاسمـه فيـه همـام
أقامـك في العـلا "حمـد" زمانًـا	عطـاؤك فيـه أعمـال جـسام
بـه قـد سـرت ثـم مـضى حميـدًا	تغمّـده برحمتـه الـسـلام
وقـام سليلـه مـن بعـدُ "معـنٌ"	مقامًـا لا يماثلـه مقـام
"وأحمـد الـضبيب" أبـو المعـالي	بتحريـر المجلـة لا يـلام
مـدى سـتين عامًـا حـزت صـيتًا	ونـت عنـه المجـلات العظـام
مجلتنـا اسـلمي وعليـك منّـا	ختامًـا مثـل مـا بـدئ الـسلام

النص الثاني: منارة نور العلم

وهو مما جمت به قريحة الشيخ عبد الله المختار بن عبد الكريم[11] وضمنه يسعى إلى أن يجعل من **مجلة العرب** سراجًا ينير الدياجي ونبراسًا يضيء الليالي، وقد حدد في مستهل أبياته جنسية هذه المجلة ومسقط رأسها الذي يشعّ منه ضياؤها معتمدًا في ذلك جناسًا اشتقاقيًّا يربط بين "السعودية" والسعد مصرحًا بروعة هذه المجلة وتميّزها، فهي في عالم النشريات عديمة الأمثال منقطعة النظائر والأشباه، لما تحوي من درر التاريخ، وتحف الأدب وغرر الآثار ونتف اللطائف، ونبذ التراجم،

وقمم العلم وهامات الثقافة، فقد سعت جهدها إلى إحياء التراث ونشر العلم عاملة على تحقيق المخطوط، واكتشاف المفقود وانتشال الضائع، وجمع المتفرق المتناثر، واستحضار المنسي المتقادم، وبذلك يمكن القول إنها اقتطفت من يانع أزهار "الرياض" وارتشفت من أثير تاريخ الجزيرة مستنشقة من عبير تراجم الرجال وسِيَر أعلام النبلاء مما حبّبها إلى القراء وصرف أبصارهم تلقاء صفحاتها ودفعهم إلى التعرض لنفحاتها، متنافسين في اقتناء أعدادها وانتقاد أندادها، ولعل ذلك راجع إلى امتياز هيئة تحريرها وانتقاء طاقمها وما لقيت من رعاية الشيخ "حمد" وعنايته، اللتين تعززتا بما له من سعي حثيث أعقب في نفوس البحثة والدارسين تهيئًا وانتعاشًا، وأورث في ابنه "معن" من بعده تحفزًا واستعدادًا، فشكّل الأب والابن ثنائيًّا متميزًا يجمع التضحية إلى العلم ويضم السخاء إلى الحلم، قائمًا بذلك مقام الأمّة والجمع ومنيرًا للغياهب إنارة المشعل والشمع. وختم الشيخ أبياته بتحية عطرة وسلام عبق يفوقان عبق العنبر وفوحَ المسك، ويزريان بعرف الطِّيب والرند، يقول(١٢):

منارة نور العلم ضاء بها المجد	مجلة هذي **العرب** فهي لنا ورد
سعودية والسعد قد حظيت به	فليس لها في النهج مثل ولا ندّ
مجلتنا الغرّاء خير مجلة	حوت درر التاريخ فهي بها تبدو
لنا جمعت ما ندّ من كل شارد	وما دفن التاريخ فهي به تشدو
قد اقتطفت أزهار نور رياضها	بها سعد التاريخ فهي له سعد
فإن شئت تاريخ الجزيرة تلفه	وأنباءها إن طال في ذلك العهد

وتقرأ في الإسلام ما شئت قارئًا فعيناك عن هذي المجلة لا تعدو
ترى الناس أفواجًا لنيل اقتنائها فذا وارد يشدو وذا صادر يحدو
فأسرتها أهل المعارف والتقى توارثها جد يورثه جد
عطاء له ستون عامًا مواصلاً بها "حمد" ساع ويا نعم ما القصد
تغمّده المولى برضوان رحمة وفي جنة الرضوان قرّ به الخلد
و "معن" له حسن الخلافة بعده فأحسن بما أبدوا وأكرم بما يُجدوا
لهم همم في الخير تسمو إلى العلا مغطية الآفاق ليس لها حد
يقوم مقام الجمع في الناس فردهم وجمع سواهم لا يسد به فرد
أكاد على عجزي عن الحج نحوهم أطير ويبقى الجهد في ذاك والجد
عليهم سلام فاق مسكًا وعنبرا ويشبهه في عرفه الند والرند

النص الثالث: **مجلة العرب** إنارة للدروب:

وهو من إنتاج الشاعر الفذّ والأديب الشاب التقي بن الشيخ(١٣)، وقد أكد خلاله أنّ **مجلة العرب** نبراس يضيء الدروب، ويسقي العلوم؛ فالقائمون عليها جعلوا همّهم الناصب ينحصر في وصل الحاضر العربي بالأمس المشرق، وفي رعاية التراث وحفظ الأنساب؛ فهذه المجلة تعدّ منبرًا حرًّا لتطارح الآراء وتحاور النخب، وبعد ذلك يترحم الشاعر على روح الفقيد الشيخ حمد الجاسر، متمنيًا له البلوغ إلى أعلى درجات الفردوس، منتهيًا إلى أنه كان القيِّم على هذا الجهد الفريد، فهو رُبّان سفينة المعرفة، وملاّح

طائرة العلوم، ولن ينسى التاريخ ما بذل من جهود مشكورة، مصرحًا أنّ ابنه معنًا يسير على خطاه ويتبع سبيله حذو النعل بالنعل.

ولا ينسى الشاعر هنا جهود رئيس التحرير أحمد الضبيب الذي لبث أعوامًا عديدة يرابط في سبيل إخراج هذه المجلة خدمة للعلم ونشرا للتراث، فجزى الله الجميع إذ صانوا للعرب مجدهم، وبيّنوا للناس رشدهم فأحيوا مباحث الأدب وهي رميم، فأصبحوا بذلك قبلة العرب، ومناط القصد، وكعبة العلم، يقول[١٤]:

مجلــتكمْ ذخــركمْ يــا عــربْ	على الدرب سارت بكمْ للأربْ
وصــلتم بحاضــركمْ أمــسكمْ	بهــا فحفظــتم ذِمــامَ النــسبْ
وكانــت فــضاءً لآرائكــمْ	تُــنير الــدروبَ بفكــر النّخــبْ
فـ"للجاسـرِ" الـشيخِ مـا يرتجـي	وبلّغــهُ الله أســنى الرُّتَــبْ
ومعنــاهُ في "مَعْنِــهِ" قــد ســرى	فللــه دَرُّهمــا ابنًــا وأبْ
وكـان "الـضُّبَيْبُ" الفتـى شُـعلةً	تُــنيرُ وتلــبَسُ ثــوبَ الــدَّأبْ
جميعًــا قــد أحيــوْا لنــا مجــدَنَا	وأبْقَــوْا لنــا العلــمَ بَلْــهَ الأدَبْ
رعــى الله ســعيَهُمُ المرتــضَى	فإنهــمْ قِبْلَــةٌ للعــربْ

النص الرابع: نعمة من أنعم الله

وهو من ترصيع محمد الأمين بن لكويري[١٥]: الذي يطل علينا بهائيته الرائعة، مصرحًا أنّ "**مجلة العرب**" نعمة من نعم الله التي امتنّ بها على المثقفين؛ فالعاقل من تعلّق منها بسبب، أو اتصل منها برباط أو نسب، سواء من خلال المراسلة أو الشراء أو المطالعة والاقتناء، فهو يدعو القارئ إلى أن ينافس بها النشريات باذلاً في سبيل اقتنائها كل غال ونفيس، فهي

متميّـزة المـضمون، رفيعـة الإخـراج، شـيّقة الأسـلوب، أنيقـة الـشكل والمظهر، وأكثر من ذلك فإنّ طاقم تحريرها رفيع المستوى، فغـدت بـذلك عديمة النظائر والأشباه، إذ تفصح عن المراد وتحزّ في المفصل مؤدية في التثاقف دور السفير والقنصل، وذلك بفضل الله ثم بجهود المرحوم "حمد" الذي أسسها على طيِّب القول ورفيع العمد، مضحّيًا في سبيلها تضحيات جسامًا. وقد تواصل هذا الجهد المبارك الميمون مع ما لـ"معن" من جهود جبّارة نوّعت الطرح ولَمّعت الصرح. وإثر ذلك يهنئ الشاعر القائمين على المجلة معدّدًا جملة من جهودهم العلمية حيث زاوجوا بين جمع التراث وتحقيقه، وبين نشره وتوثيقه في نهج من الرواج والانتشار، وجهد من التدارك والاستيعاب عز نظيره، فأتحفوا المكتبات العالمية ببدائع القول وروائع الحكمة. ويختم النص بالدعاء لمؤسس المجلة بالرحمة والرضوان ولطاقمها بعلوّ القدر وصلاح الأمر ونجاح السعي ودوام الأمن واليُمن مع طيب الحياة ورغد العيش ودعة البال في مسرّة وحبور. يقول[١٦]:

"مجلـة العُـرْب" إحـدى أنعُـمِ الله ... فراسِلَنْها اشْرِها اقْرَأها بها باهِي
وفي سـبيل اقتناهـا فاغـدوَنَّ ورُحْ ... وجِدّ واسْخَ ببذل المال والجاهِ
بها احتفظْ إن بها تظفر فما جمعت ... من المحاسن لم يجمعه إلا هِي
مـضمونُها رائـدٌ وخطهـا حـسنٌ ... أسـلوبها شـيّق وشـكلها زاهِ
وأهلـها عـدموا الأمثالَ فهـي لـذا ... غـدت عديمـةَ أمثـالٍ وأشـباهِ
قـد حـزّ في مفـصل أيـامَ أسّـسها ... بجِـدِّهِ "حَمَـدٌ" لا هـوَ بـاللاهِي
وبعـده كـان خـيرُ ابـن لخـيرِ أبٍ ... "مَعْنٌ" فلم يك منه العزمُ بالواهِي

يــا قــائمين علــى مجلــةٍ نَــشرت ... ما قد طوى الدهرُ من تاريخنا الزاهِي
لله درُّكُـــمُ مـــن طـــاقم نَـــدُسٍ ... مُثَقَّــفٍ بــتراث العُــرْب نَــوَّاهِ
أتحفتمونـا بمـا قـد كـان قـصَّرَ عـن ... شَـرْوَاهُ أصـحابُ أقـلامٍ وأفـواهِ
دامت على جَدَثٍ ضمّ الرضى "حَمَداً" ... دهراً تَـسُحُّ هـوامٍ مـن رضَـى الله
وعـشتمْ يـا كرامًـا كـاتبين مـصَا ... بيحًا تُضِي في دياجي ليلنَا الطاهي[١٧]
ودام مجـدكمُ يعلـوا الـسِّمَاكَ ولا ... دهـاكمُ الـدهرَ ممـا يُختـشى دَاهِ
وَوَفــق الله مــسعاكُمْ وعمّــركُمْ ... دهراً طـويلاً بعـيشٍ رافـهٍ رَاهِ[١٨]

النص الخامس: **مجلة العرب** أشهى من الضرب

وهو تجليات شِعرية رائقة، صادرة عن الشاعر الفذّ فاضل بن يحيى[١٩] الذي أنزل هذه المجلة منزلة عالية ناصحًا للقارئ بمطالعتها، مؤكدًا أنها لوحة فنية رائعة ومتعة ذهنية عالية، ينال فيها المطالع بغيته، إذ تجمع بين الأدب والفكر وتلائم بين الأصالة والمعاصرة. مقتطفة ثمار العلم من كل يانعة، وذلك ما هيأها للتقدم والصدارة وصرف إليها الأفئدة والأبصار، وأكسبها طعم العسل، ففعلت فعلها في العقول مثقّفة ومعلّمة فأوضحت الحق وأنارت الرأي، مستنقذة تراث العرب، حيث تداركت المنخرم وانتشلت الضائع وأكملت الناقص ورمّمت المنطمس، وإثر ذلك يبادر بالدعوة للقائمين عليها، متمنيًا لهم يمن المطلع ونجاح المطلب مركزًا بوجه خاص على مؤسسها حمد الجاسر، الذي ارتدى جلباب العزة والفضل واكتسى رداء التضحية والبذل، ففتح صفحات هذه المجلة أمام أقلام الأدباء والمثقفين ليطارحوا على أديمها رفيع الحكم والآداب، ومتعددة

الآثار والآراء، ليخلفه في هذا الجهد ابنه معن الذي أشبهه واتبع سبيله، وقد عمل الشاعر في هذا السياق على محاورة بعض النصوص الشعرية ذات النغم الفخري، فهو في البيت الثالث ينظر إلى قول القائل:

إنّ الفتى مَن يقول ها أنا ذا ... ليس الفتى مَن يقول كان أبي

وكما بدأ النص تنويهًا وإشادة بهذه المجلة يعود كذلك مؤكدًا أنها تعطّرت بها الأزمان وازينت بها المجالس، فحقيق على المثقف أن يركن إلى مطالعتها ويلازم تأمّل صفحاتها يقول(٢٠):

اقرأ وطالع أخي "**مجلةَ العَرَب**" ... تظفر بما شئت من فكر ومن أدب
واجْنِ الثمار ثمارَ العلم يانعةً ... من باسقاتِ العطا أشهى من الضَّرَبِ
وارتع بها إنها روضٌ لنا أُنُفٌ ... نرتاده بين أغنى الصحْفِ والكتُب
كم ثقّفت من عقول القارئينَ وكم ... أنارت الرأيَ بين العالم العربي
كم أنقذت من تراث العُرْبِ وانتشلتْ ... ورمَّمت واستعادت كل مُنتَهَبِ
لا خاب سعيُ الذي بالمجد شيَّدها ... حتى غدت قِبلة القرّاء من نُخَبِ
أعني الفتى "حمدَ الجاسرْ" من ازدحمت ... ببابه حَلَبات العزّ والحسب
واخضَلَّ دَوْحُ المعاني في مرابعه ... يفيءُ ظِلاًّ مدى الأزمان والحِقب
وبعدما شادَ هذا الصرحَ مكتملاً ... وظلَّ يخدمُه يرعاهُ عن كثبِ
قضى حميدًا جزاه الله أحسنَ ما ... يَجزي به كل سبّاق إلى القُرَبِ
وقام مِن بَعده "مَعْنٌ" فأشبهَهُ ... في كل مسعًى حميدٍ رائقٍ ذهبي
وسار نحوَ العُلا كَسَيْرِ والدِهِ ... مأوًى لذي أدبٍ جمٍّ وذي أرَبِ

نِعم الفتى "مَعْنُ" مهما قال "ها أنا ذا" مُصدّقًا وكذا إن قال: "كان أبي"

وحبّذا "أحمد الضُّبيبُ" منتخِبًا ما يُرتضى من مقالِ كل مُنْتَخَبِ

وذي مجلةٌ ازْدَانَ الزمان بها فاقرأ وطالع أخي "**مجلةَ العربِ**"

الخاتمة

وصفوة القول إنّ **مجلة العرب** رائعة من روائع الأدب في هذا العصر، وباقية من باقياته الصالحات، سعت إلى نشر المعارف والعلوم، في نهج غير مذمم ولا ملوم، فقد جمعت التاريخ إلى الأدب، وضمّت التراث إلى الآثار، فجاست خلال المخطوطات النادرة منتشلة الضائع، ومنقحة المختلط، ومحققة الملتبس، ومبيّنة المبهم والغامض، ومعرّفة بالمجاهل النكرات من الرجال والشعراء، وناشرة للدواوين، ومستعرضة لآراء النقدة والبلاغيين، وقارئة لمدوّنات الشِّعر فمثّلت بذلك أنموذجًا نادرًا في هذا العهد، إذ امتازت بروعة التعبير والأسلوب، لائذة بالأفئدة والقلوب، ومواجهة صعاب الخطوب وحادثات الليالي، في مصابرة لا تعرف الكلل ولا الفتور، وفي نهج بديع يعتمد التنوّع والشمول ويتميّز بالثبات والصمود، ويسعى إلى تحقيق الجِدَّة ونبذ الجمود.

الهوامش:

❖ رئيس شعبة اللغة العربية وآدابها، المعهد العالي للدراسات والبحوث الإسلامية، نواكشوط، موريتانيا.

(١) هذه الفقرة مقتبسة من العنوان الإضافي للمجلة، وتعدّ تكملة للعنوان وتحديدًا لأهداف، وتنبيهًا إلى توجهات المجلة، فهي جليّة بارزة في عناوين مختلف الأعداد.

(٢) **لسان العرب**: ابن منظور، دار صادر، بيروت، دون تاريخ، مادة جلل.

(٣) المرجع السابق والصفحة.

(٤) المكن والمكن بيض الضبة والجراد ونحوهما، واحدته مكْنَةٌ ومكِنَةٌ بكسر الكاف.

(٥) المرجع السابق والصفحة.

(٦) المرجع السابق.

(٧) **مجلة العرب**، عدد إبريل ومايو ٢٠١١م، ص٦٧٥.

(٨) المرجع السابق والصفحة.

(٩) هو الشيخ محمد يحيى بن سيد أحمد المجلسي الموريتاني، حفظه الله، عالم جليل وأستاذ معاصر وشاعر متمكن، أخذ عن محمد عالي بن النعمة المجلسي وعن التاه بن يحظيه بن عبد الودود وعن الشيخ بداه بن البوصيري وغيرهم، يعمل مستشارًا ومرشدًا علميًّا وموجهًا أكاديميًّا في المعهد الموريتاني للبحث العلمي، له عدة مؤلفات منها: الأزهار الشذية في الأعيان المجلسية، والإشعاع المحظري، ومجموعة من المقالات والتحقيقات بالإضافة إلى ديوان شعري.

(١٠) مخطوط بحوزتنا.

(١١) هو الشيخ عبد الله المختار بن عبدالكريم بن مياه الموريتاني، حفظه الله، عالم جليل وشيخ محظرة وإمام مسجد له مجموعة من المقالات الاجتماعية. وبعض المنظومات التوجيهية، بالإضافة إلى ديوان شِعري، يعدّ آية العصر في الحفظ والتمكن من ناصية اللغة والنصوص التراثية، فهو يحفظ مقامات الحريري ومقدمة القاموس. وغيرها من النصوص الشعرية والنثرية التي يصعب حفظها في هذا العصر.

(١٢) مخطوط بحوزتنا.

(١٣) هو التقي بن الشيخ حفظه الله، أديب متميز وأستاذ بارز، وشاعر معاصر، يجيد الإبداع الشعري باللسانين العامّي والفصيح، وهو ضليع في الثقافة والعلم، حاصل على شهادة الماستر في الدراسات اللغوية والأدبية، له كتاب: **أثر القرآن في الشِّعر العربي (الشعر الموريتاني نموذجًا)**، و**المسحة القرآنية في الشِّعر الموريتاني**، بالإضافة

إلى ديوان شِعري ومجموعة من المقالات والأطروحات الجامعية، يُعَدّ اليوم من أبرز الوجوه الثقافية والقمم الأدبية في البلاد الموريتانية.

(١٤) مخطوط بحوزتنا.

(١٥) هو محمد الأمين بن لكويري، حفظه الله، شاعر موريتاني معاصر صحفي بارز من مواليد ١٩٦٨ بتكنت، (الترارزه) ذو ثقافة تراثية عالية نشأ في بيت علم ومعرفة، وهو رئيس منتدى الآداب والمعارف الشعبية في اتحاد الأدباء والكتّاب الموريتانيين، له مجموعة من الكتب والمقالات منها: بلوغ الأماني من التقعيد في تأصيل الأدب الحساني، ويبن القافية و"التافلويت" والشعر الحساني ونظامه الموسيقي، دور الشعراء الموريتانيين في مقاومة المستعمر، الشاي في الأدب الحساني، هذا بالإضافتين إلى ديوانين شعريين، أحدهما فصيح والآخر شعبي، وهو في إبداعه الشعري أصيل يبدو متأثرًا بمدرسة المختار بن حامدن، القائمة على محاورة النصوص القديمة وإحياء التراث.

(١٦) مخطوط بحوزتنا.

(١٧) الطاهي: المظلم.

(١٨) الرافه الراهي: هو الممتع والرغد من العيش.

(١٩) هو فاضل بن يحيى (حفظه الله) أستاذ بارز وشاعر معاصر، نشأ في بيت علم وفضل وصلاح، وهو من مواليد ١٩٦٥م بمقاطعة الركيز بولاية الترارزة بالجنوب الغربي من موريتانيا، له بحوث عديدة من أبرزها مذكّرة تخرّج من المعهد العالي للدراسات والبحوث الإسلامية تحت عنوان سيد الفاللي بن محمودن: حياته وآثاره، وله كذلك تحقيق ديوان سيد الفاضلي المذكور، بالإضافة إلى بحث في علوم القرآن، وآخر في طرق تدريس اللغة العربية بمدارس تكوين المعلمين، وله ديوان شِعري فصيح.

(٢٠) مخطوط بحوزتنا.

مكتبة العرب:

دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب من الإحياء والإصلاح إلى الجهاد العالمي، تأليف: د.ناتانا دي لونج باس، ترجمة: د. عبد الله بن إبراهيم العسكر، الرياض: دارة الملك عبد العزيز، ١٤٣٣هـ، ٦٦٠ ص.

هو كتاب جديد من الكتب التي تتناول دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب السلفية، كان في الأصل أطروحة للدكتوراه أخذ الدكتور عبد الله ابن إبراهيم العسكر نفسه بترجمتها وهي بصورتها التي كانت عليها، ثم صدر الكتاب مطبوعًا مشتملاً على بعض التغييرات الطفيفة، كما يرى المترجم، فلم يشأ أن ينصرف إلى المطبوع، واستمر في ترجمة الرسالة، غير أنه مع ذلك أفاد من كل جديد طرأ على الكتاب المطبوع، وبهذه الصورة رأى أنه نقل إلى العربية عملاً يمثّل في أساسه عملين.

يسبق الكتاب بتقديم رسمي لدارة الملك عبد العزيز، ومقدمة للمترجم، ثم يبدأ بتوطئة للمؤلفة تتضمن الشكر لمن ساعدها أثناء عملها البحثي، ومقدمة لها تتحدث فيها عن مفهوم الوهابية كما بدا في الأدبيات الحديثة وبخاصة بعد الحادي عشر من سبتمبر ٢٠١١، ثم تتوزع مادة الكتاب على فصول ستة:

الأول: يتناول الوهابية في القرن الثامن عشر الميلادي.

والثاني بعنوان: الاتجاهات الثقافية في القرن الثامن عشر.

والثالث: يتناول الدين والرؤية العالمية عند محمد بن عبد الوهاب.

والرابع بعنوان: الشريعة الإسلامية: فصل الإلهي عن البشري.

والخامس بعنوان: الدعوة إلى الغلبة (الفتح) والدعوة مقابل الجهاد.

والسادس بعنوان: النساء والوهابيون.

وينتهي الكتاب بخاتمة وبكشاف عامّ مختصر في أربع صفحات، وقد خلا من ثبت للمصادر والمراجع كان مفيدًا للقارئ والباحث لو وجد.

لقد كتب الكتاب من وجهة نظر غربية، قد لا تكون مستوعبة أطراف المواضيع التي تطرقت الباحثة إليها، وهذا ما جعل المترجم يذيّل بعض الصفحات ببعض التعليقات، كما قامت دارة الملك عبد العزيز بالتعليق على بعض المواضع بمسمى (المراجع)، وهو شخص لم يكشف النقاب عن اسمه في الكتاب.

أ.م.ض.

إهداءات إلى مكتبة العرب

أولاً- الكتب:

- دراسة جيولوجية لمنطقة الرياض طبقات الأرض والمياه (تقرير)، ترجمة المنذر بن عبداللطيف سوقير، إصدارات دارة الملك عبدالعزيز (٢٧٦)، ١٤٣٣هـ.
- جهاد الرسول لليهود في تاريخ صدر الإسلام، د. محمد جاسم حمادي المشهداني، ط١، ١٤٣٢هـ/٢٠١١م، مطبعة أنوار دجلة.
- من الكويت إلى مكة المكرمة: الرحلة الميمونة إلى بيت الله الحرام، كتبها عام ١٩٣٢م مساعد يعقوب البدر، حررها وقدّم لها د. عبدالله يوسف الغنيم، مركز البحوث والدراسات الكويتية، ٢٠١١م.
- الكويت في مجلة أخبار لندن المصورة، إعداد وتقديم د. عبدالله يوسف الغنيم، مركز البحوث والدراسات الكويتية، ٢٠١٢م.
- أغنيات للوطن، حجاب بن يحيى الحازمي، ط١، ١٤٣٣هـ/١٠١٢م.
- طريق الأَخْرَجَة من فيد إلى المدينة المنورة، عبدالله بن محمد الشايع، إصدار دارة الملك عبدالعزيز (٢٧١)، ١٤٣٣هـ.
- العلاقة بين الملك عبدالعزيز والملك الحسين بن علي وضم الحجاز ١٣٢٨-١٣٤٤هـ/ ١٩١٠-١٩٢٥م، د. أحمد بن يحيى آل فائع، إصدار دارة الملك عبدالعزيز (٢٧٢)، ١٤٣٣هـ.
- أصول التوجيهين النحوي والصرفي في كتب الأمالي حتى القرن ٧هـ، د. سعدالدين المصطفى، المؤسسة الحديثة للكتاب، لبنان، ط١، ٢٠١٠م.
- بناء الجملة العربية في الحديث النبوي: دراسة تطبيقية (النَّسائي نموذجًا) د. سعدالدين المصطفى، بإشراف د. مصطفى صالح جطل، المؤسسة الحديثة للكتاب، لبنان، ٣١، ٢٠١١م.
- الوراقة في منطقة نجد، د. الوليد بن عبدالرحمن آل فريان، إصدار دارة الملك عبدالعزيز، (٢٦٥)، ١٤٣٣هـ.

ثانيًا- المجلات:

- جوانب من جهود الملك عبدالعزيز في تحقيق الوحدة الوطنية، حجاب بن يحيى الحازمي، ط١، ١٤٣٢هـ/١٠١١م.
- التواصل الثقافي بين السعودية واليمن، حجاب بن يحيى الحازمي، ط١، ١٤٣٣هـ/٢٠١٢م.
- دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب من الإحياء والإصلاح إلى الجهاد العالمي، تأليف: د. ناتانا دي لونج باس، ترجمة د. عبدالله بن إبراهيم العسكر، إصدار دارة الملك عبدالعزيز (٢٨١)، ١٤٣٣هـ.
- سُهيل فيما جاء في ذِكر الخيل، تأليف الشيخ عثمان بن عبدالله بن بِشر، تحقيق: د. عبدالله بن عبدالرحيم عسيلان، إصدار دارة الملك عبدالعزيز (٢٧٨)، ١٤٣٣هـ.
- إذاعة وتلفزيون الخليج، العدد ٧١، رمضان-شوال ١٤٢٨هـ/أكتوبر ٢٠٠٧م، السنة ٢٣، رئيس التحرير: د. عبدالله بن سعيد أبوراس.
- مجلة الحقيل، السنة الثالثة، العدد الرابع، غرة شوال ١٤٣١هـ، رئيس هيئة التحرير: د. أ. إبراهيم بن سعد.
- الضاد، العدد ٥، أيار ٢٠٠٧م، السنة ٧٧، رئيس التحرير: عبدالله رياض حلاق.
- الفرقان، العدد ٤١٧، ٢٣ شوال ١٤٢٧هـ/١٣ نوفمبر ٢٠٠٦م، رئيس التحرير: د. بسام خضر الشطي.
- دراسات مصطلحية، العدد ٥، ١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م، رئيس التحرير: د. عبدالرحيم الرحموني.
- البحرين الثقافية، العدد ٤٦، أكتوبر ٢٠٠٦م، رئيس التحرير: مي بنت محمد آل خليفة.
- المدير، العدد ٧١، نوفمبر ٢٠٠٦م، المجلد ٦، رئيس التحرير: د. إبراهيم عبدالله المنيف.
- الفرقان، العدد ٤١٨، ٢٩ شوال ١٤٢٧هـ/٢٠ نوفمبر ٢٠٠٦م، رئيس التحرير: د. بسام خضر الشطي.
- الضاد، العدد ٩، أيلول ٢٠٠٦م، السنة ٧٦، رئيس التحرير: عبدالله رياض حلاق.
- الفرقان، العدد ٤١٩، ٦ ذوالقعدة ١٤٢٧هـ/٢٧ نوفمبر ٢٠٠٦م، رئيس التحرير: د. بسام خضر الشطي.

– الفرقان، العدد ٤٢٠، ١٢ ذوالقعدة ١٤٢٧هـ/٤ ديسمبر ٢٠٠٦م، رئيس التحرير: د. بسام خضر الشطي.

– العالمية، العدد ٢٠٢، محرم ١٤٢٨هـ/فبراير ٢٠٠٧م، السنة ١٩، رئيس التحرير: يوسف محمد عبدالرحمن.

– المعرفة، العدد ١٣٤، جمادى الأولى ١٤٢٧هـ/يونية ٢٠٠٦م، رئيس التحرير: زياد ابن عبدالله الدريس.

– الفرقان، العدد ٤٢١، ٢٠ ذوالقعدة ١٤٢٧هـ/١١ ديسمبر ٢٠٠٦م، رئيس التحرير: د. بسام خضر الشطي.

– البحرين الثقافية، العدد ٤٨، أبريل ٢٠٠٧م، رئيس التحرير: مي بنت محمد آل خليفة.

– الفرقان، العدد ٤٢٥، ٢٥ ذوالحجة ١٤٢٧هـ/١٥ يناير ٢٠٠٧م، رئيس التحرير: د. بسام خضر الشطي.

– الضاد، العدد ١٢، كانون الأول ٢٠٠٦م، السنة ٧٦، رئيس التحرير: عبدالله رياض حلاق.

– الفرقان، العدد ٤٢٧، ١٠ محرم ١٤٢٨هـ/٢٩ يناير ٢٠٠٧م، رئيس التحرير: د. بسام خضر الشطي.

– الفرقان، العدد ٤٢٨، ١٧ محرم ١٤٢٨هـ/٥ فبراير ٢٠٠٧م، رئيس التحرير: د. بسام خضر الشطي.

– الفرقان، العدد ٤٣٦، ١٤ ربيع الأول ١٤٢٨هـ/٢ أبريل ٢٠٠٧م، رئيس التحرير: د. بسام خضر الشطي.

– الفرقان، العدد ٤٣٧، ٢١ ربيع الأول ١٤٢٨هـ/٩ أبريل ٢٠٠٧م، رئيس التحرير: د. بسام خضر الشطي.

– الفرقان، العدد ٤٣٨، ٢٨ ربيع الأول ١٤٢٨هـ/١٦ أبريل ٢٠٠٧م، رئيس التحرير: د. بسام خضر الشطي.

– الفرقان، العدد ٤٤٣، ٤ جمادى الآخرة ١٤٢٨هـ/٢١ يونيو ٢٠٠٧م، رئيس التحرير: د. بسام خضر الشطي.

تدريس النحو بين الجمود وعدم الرغبة في التطوير*

بقلم: د. سليمان بن إبراهيم العايد**

سؤال أستهلّ به كلمتي: أَإِتقان اللغة أو معرفتها يتمثَّل حين نتخاطب، بقولنا: يا أبا محمّد، يا أبا أسامة، يا أبا صالح، أم يتمثّل بشيءٍ آخر، هو أكبر من هذا؟ إذا كان الأمر كذلك فكلّنا متقنون للغة ونحوها، ولا عذرَ لواحدٍ منّا في عدم بلوغه هذه المرحلة، والتقصير في الوصول إليها؛ فوظيفة النحو ليست ضبط الكلم في الجملة، أو النص، بل وظيفته، الإبانة عن المعنى وتحديده، ومع هذه المكانة للنحو، فليس النحو إلا جزءًا من نظام لغوي يتناول الصوت، والمفردات والبنية، والبيان، ونصوصها المختلفة، متآزرة مع بعضها، يكمل بعضها بعضًا.

أنا لا أرى أن نتلهّى بجلد الذات، فليس الوقت وقته، وعلينا أن نفكّر فيما يجب عمله خدمة للغة، وتحقيقًا لأهداف طالبيها، وعلى الجهات المختصة مؤازرة هذا التوجه، وتكوين فرق عمل لإنجاز مشروع تعليم لغوي ينهض بحاجاتنا وتطلعات أبناء العربية.

مقدمات:

من طرائق تعليم العربية:

- التعليم بحفظ القواعد.
- التعليم بقراءة نص تراثيٍّ، تسطر فيه القواعد، وهذه الطريقة والتي قبلها شيء واحد.
- التعليم بالطريقة المباشرة (الخلطة، والإغماس).
- التعليم بالطريقة التكاملية بالمزج بين فروع العربية والانطلاق من النصٍّ.

من خلال اتصالي بأساتذة اللغة العربية، وأنا واحد منهم، ألمس تواطؤًا منهم، واتفاقًا على حصر عملهم في التدريس، وعلى توجيه جميع مناشطهم إليه، وعلى ضرورة أن تسخّر المناهج كلها لهذا النشاط فحسب. هذه هي حدود تفكيرهم في الغالب، كما تنطق بذلك الشواهد والأدلّة من الواقع.

وحتّى لا أكون متجنِّيًا فيما أقول، أرغب لمن لديه غير ما أعلم أن يفيدني بذلك، فلعلّ في الميدان ما لا أعلمه؛ إذ كلّ ما أقوله من تجربة وممارسة، وتصوّرات كوّنتها من خلال عملي، ومن خلال اطلاعي على الخطط الدراسية في أقسام اللغة العربية المختلفة، ومن خلال الخلطة بالطلاب والأساتذة.

وليس الأمر واقفًا عند هذا الحدِّ؛ فالنمط التعليمي في الغالب واحد، غير قابل للتنوّع والتعدّد بحسب الغاية والمقاصد والأهداف، ولا بحسب الفئات التي تقدّم لهم هذه البرامج، فالكل يدرس مقرّرًا واحدًا، ومنهجًا واحدًا، لتحقيق أهداف واحدة، وإن وجد اختلاف فالاختلاف في الكمية، والاختيار، وصنف لمتعلّم واحد، غير متنوِّع وغير متعدِّد، وليس لديهم اعتبار لمن يدرس اللغة لأغراضٍ خاصّة، وليس في حسابهم من يحتاج

إليها وسيلة اتصال مؤقّت، وليس لديهم من يقصد إلى مهاراتها، ولا يهمّه التزيّد من معارفها وقواعدها...إلخ.

بغضّ النظر عمّن يتكلّم اللغة، هناك فئاتٌ تستخدم اللغة كالباحثين، والمترجمين، والتربويين والإعلاميين، والمشتغلين بالحاسب الآلي وميكنة اللغة أو المعالجة الآلية للغة، والطلاب، ولها أهداف ومقاصد خاصة، ولا بدّ من مراعاتها والاستجابة لها، ولا يجوز لأهل اللغة أن يستمسكوا بطريقتهم الوحيدة في الدرس اللغوي، كما يجري عليه العمل في درس اللغة التقليدي؛ والتعليم الناجح هو الذي يراعي فئات المستفيدين، وتنوّع تلك الفئات، وأهدافها الخاصة.

غياب الهدف عن الأستاذ، وأول أسباب النجاح وضوح الأهداف، وواقعيّتها، وقابليّتها للقياس، ومن أول معايير الجودة وضوح الهدف. التفريق بين من يطلب المعرفة اللغوية، وبين من يطلب المهارات اللغوية، وتنوّع الدرس حسب الفئات؛ فالدرس عند معظم معلمي العربية وأساتذتها واحد، وفي الغالب يعتمد قراءة نصّ تراثيّ، أو إذا أحسنّا الظنّ شرح نصٍّ تراثيّ، وهذا على الرغم من جلالته وقيمته ليس بالضرورة صالحًا لجميع الفئات التي تدرس العربية.

أهداف التربية في العصر الحديث أربعة: «تعلّم لتعرف، تعلّم لتعمل، تعلّم لتكون، تعلّم لتشارك الآخرين». (**الثقافة العربية وعصر المعلومات** ص٣٠٧).

ومن مشاركة الآخرين تنمية مهارات الحوار مع الآخر (بالاهتمام بتنمية مهارات التواصل، والتفاوض الثقافي، وتنمية القدرة على الإقناع،

وهندسة الحوار، وإبرام الصفقات المتوازية) (**الثقافة العربية وعصر المعلومات** ص٣٢٠) (إذ يشكو معظم طلابنا من ضمور مهارات التواصل اللغويّ الأربع: القراءة، والكتابة، والمشافهة، والاستماع، نتيجة لآفة التلقّي السلبي التي تعاني منها أنظمة التعليم لدينا، ويحتاج هذا من التربويين ومعلمي العربية ومنظّميها تغييرًا جوهريًّا في تعليم العربية وأنماط تقديم المادة التعليمية، بحيث لا تقتصر على أسلوب المحاضرة بل تشمل أساليب جذّابة توظّف أساليب التعلّم المختلفة وتنوِّع بين الأساليب التقليدية والندوات وحلقات النقاش، وغيرها من مستنتجات العصر والتربية). (ينظر: **الثقافة العربية** ص٣٢١).

وكلية اللغة العربية تتفرّد بتدريس طلابها مقررات اللغة العربية، وتسهم بتقديم مقرر اللغة العربية لجميع الأقسام الجامعية، إلى جانب تقديم مقررات أخرى لبعض الأقسام التي لها مزيد عناية باللغة العربية نحوًا وبلاغة. ومن الطبيعي أن يختلف تقديم المقررات، حسب الأقسام والغاية من تدريس المقرر، غير أنّ هناك نوعين يمكن أن يشملا جميع الطلاب، وهما: من يدرس اللغة من أجل التكوين المهاري العامّ، ومن يدرس اللغة لأغراض معرفية، ومهارية خاصة، وعلى كلٍّ التفريق بينهما لازم، فتدريس اللغة العربية لغير المختصين تدريس مهارات ويجب أن يلتزم بهذه المهمّة، ولا يخرج عنها. ولا أكون مبالغًا إذا قلت: إنّ هذه الفئة يجب أن تكون فئاتٍ.

و«تشمل تربية اللغة الأمور المتعلقة بتعليمها وتعلّمها، سواء كلغة أولى للناطقين بها، أم لغة ثانية لغير الناطقين بها، وتغطّي تنمية مهارات التواصل اللغوي الأربع: القراءة، والكتابة، والتحدّث، والاستماع. ويحظى تعليم اللغة الأمّ بأهمية متزايدة هذه الأيام بعد أن ثبت للجميع خطورة الدور الذي تلعبه في تنمية فكر الفرد، وتوطيد عرى التماسك الاجتماعي، علاوة على كون تعلّم اللغة الأمّ بمنزلة (طبقة الأساس) التي يبنى فوقها تعلّم اللغات الأجنبية، وهو يحظى بأهمية متزايدة بفعل ظاهرة العولمة وما يصاحبها من عولمة سوق العمل {هناك ما يزيد على خمسين مليونَ صيني يتعلّمون الإنجليزية} يشهد على ذلك هذا العدد الكبير من مواقع الإنترنت لتعليم اللغات وتعلّمها ذاتيًّا، علاوة على توفير كمٍّ هائلٍ من برمجيّات تعليم اللغات والمناهج البرمجية، ونظم تأليف المنهج وما شابه» [**الثقافة العربية وعصر المعلومات** ص٢٦٨-٢٦٩].

❖❖❖❖❖❖

هل عندنا مشكلة في تعليم النحو، أو اللغة في الجامعة، وتلقينه طلابنا؟

لا أظنّ أنّ مخالفًا يخالف في أنّ لدينا غير مشكلة، غير أنّ الذي يهمّنا أن نورد مشيراتٍ قد تنتهي بنا إلى وصف وضع، وتقرير حالة، يتطلّب اقتراح بعض الحلول، وطرح رؤًى تخرج بنا من مأزق في تعليم النحو، ودرس العربية على العموم، ومن هذه المشيرات:

أ) فقدان أو ضعف أثر النحو فيما يقوله الطلاب أو يكتبونه. وهذا أمر من الوضوح بمكان لا يسيغ لنا شرحه، وتفصيله.

ب) ضعف الحصيلة المعرفية المستوعبة لدى طلابنا بقواعد النحو وكلّياته، فضلاً عن العجز عن مهاراتها، وتوظيفها واستعمالها أو الاسترشاد بها عند إنشاء الكلام، والكتابة، أو عدم الرغبة في هذا التوظيف، والزهد فيه.

ج) غياب الرغبة في الصحّة النحويّة، والسلامة اللغويّة فضلاً عن فقد التميّز أو الإبداع اللغويّ في الأداء لكونه قيمة يقدّرها المجتمع، ويتسامى إليها المتكلِّمون والمنشئون، والكتّاب.

د) برودة في علاقة الطلاب بالنحو وعلوم اللغة الأخرى، يتمثّل بالآتي:

- ❖ شكاوى الطلاب، وتذمّرهم من مقررات اللغة العربية، ومن معلِّميها، وضيق ذرعهم بها وبهم.
- ❖ شعور لدى الطلاب أنّ ما يدرسونه بعيدٌ عن مشاعرهم، وبمعزلٍ عن عواطفهم، وبغربته عنهم، وغربتهم عنه، وأنه شيء أو علم من كوكبٍ آخر.
- ❖ تلبّس الطلاب بالملل، وانتشار التثاؤب، وغيبوبة الطلاب عن الدرس إما بنوم أو بتكلّفه، وإمّا برحلة ذهنية بعيدًا عن الدرس والفصل.
- ❖ غياب أو ضعف التذوّق في دراسة النحو وتدريسه، وغياب أثر الذوق في التفريق بين المعاني، وطرائق أدائها، الأعاريب والأنواع، والأحكام، والوظائف النحوية، وعدم وضوح مدى تأثير الذوق في ذلك كلّه.

هـ) شعور الطلاب بصعوبة اللغة العربية، وتعقيد أفكارها، وكثرة تقسيماتها، وتداخلها في حسِّه، وأين يذهب بطالب محدود الإدراك، حين يجد مثلاً تقسيمات في بعض الأبواب، وحين يجد تلك التقسيمات العقلية وغير العقلية في علم يفترض أن يكون أبعد العلوم عن كدِّ العقل، وأقربها لتذوّق النصِّ، بل أين يذهب بطالب محدود التفكير والإدراك حين تفجؤه بمثل هذا؛ إنّ إدراك ترابط الكلام، أو تفكّكه، وترتيب بعض أجزائه على بعض، وتعيين العلاقة بين هذه الأجزاء، لا يحتاج منا أن نعقِّده بمسائل الوصل والفصل، وتنويع الكلام بين كمال الانقطاع، وكمال الاتصال، وشبه كمال الانقطاع، وشبه كمال الاتصال، والتوسط بين حالتي كمال الانقطاع، وكمال الاتصال.

النحو مفصول عن حياة الطالب وشعوره. وهل يسوغ أن يكون النحو بمعزلٍ عن معايشة الطالب له؟! يدرس الطالب وهو يحسُّ أنّه يتعلّم، أو يتلقّن قواعد وقوانين بعيدة عنه، وعن حياته، ولغته، ليس بينهما أدنى ارتباط، وأول مسؤوليات معلِّم اللغة رفع هذه الوحشة، وإيجاد ألفة بين الطالب من جهة، وبين النحو وممارسته ومهاراته من جهة أخرى، ويجب أن يستيقن الطالب أنّ النحو جزء من كلامه اليومي، وأنه النظام الذي يحكم كلامه، وأنّ المعاني التي يتكلّمها هي معاني النحو التي لا يمكن لمتكلِّم أن يستغنيَ عنها، وأن لا يعرفها عمليًّا، وإن خفيت عليه تنظيرًا، كما هو شأن كلِّ علم له جانبان: نظري، وتطبيقي، كعلم التجويد في جانبه التنظيري، قد يخفى على كثيرٍ من مجيدي القراءة، وإن كان تطبيقاً

طوع إرادتهم، وآلة قراءتهم، بل هو عادتهم، وسليقتهم التي تطبّعوا عليها.

التذوق أساس لدرس النحو، بل الذوق والتذوُّق أساس الإبداع في كل شيء، ومدخل الفهم والاستيعاب، ويهمنا التذوّق في دراسة العربية خاصّة نحوها، وكثير من معلّمي العربية وأساتذتها لا يلتفتون إلى هذا الأمر، بل كثير منهم يصعب إفهامه هذه الأهمية، فضلاً عن أن يسهم في إحياء ذوق الدارسين وإنمائه، وقد يسأل كثير فيقول: هل في اللغة والنحو ذوق وهو لا يعدو كونها قواعد ومطردات؟! ولعلّه غاب عن هؤلاء أنّ الذوق أساس فهم جميع العلوم دون استثناء، والنحو ليس بدْعًا بين العلوم، وقد جرى لي مع بعض الطلاب شيءٌ من هذا، حين شرحت لهم التفريق بين المنصوبات، وكيف يقال عن منصوب: إنّه مفعول، أو مفعول به، أو مفعول لأجله، أو مفعول معه، أو حال، أو تمييز، أو استثناء، والفرق بين هذه المفاعيل، خاصة إذا كان هناك احتمال تعدُّد الإعراب. وكذا التفريق بين الخبر والصفة والحال، وهي من باب واحد، ومجال توظيف الذوق في إدراك النحو وحبّه واستيعابه، وإقامة علاقة ودّ بين الطالب ودرس العربية.

وأذكر هنا قصة ابنتي طالبة الابتدائي التي ما كانت تحبّ درس القواعد، وتعدّ هذه المادّة ثقيلة، درّست لها معلّمة اللغة العربية في السنة السادسة من المرحلة بطريقة قلبت علاقتها بالمادّة، وغيّرت موقفها منها.

من أوجه القصور في تعليم اللغة العربية:

أ) «التركيز على الجوانب الصورية سواء في تعليم النحو أو الصرف، أو تنمية مهارات الخطابة والحوار. وقد طغت سطحية قراءة النصوص وضبط أواخر الكلمات على حساب عمق استيعابها، والربط بين جملها وفقراتها، وإدراك هيكلتها الشاملة» [**الثقافة** ص٢٦٩]؛ فقلّما يعنى معلِّم اللغة باستيعاب المقروء، وصناعة العناوين الرئيسية والفرعية، وتقسيم النص، وترقيمه، فضلاً عن محاكاته.

إهمال عنصر الدلالة {المعنى} إذ طغت الوظائف النحوية من فاعل، ومفعول، وتمييز، وحال، ومجرور، ومضاف... على المعاني النحوية، معاني التراكيب والأبنية والمفردات، فليس بمكنة كثير من الطلاب التفريق بين التراكيب المتقاربة التي تؤدِّي معنًى واحدًا، مثل: رأيته يخرج من الباب، ورأيته خارجًا من الباب، ورأيته وقد خرج من الباب، وهي تراكيب تؤدِّي معنًى نحويًّا واحدًا وهو تقييد الرؤية حال الخروج، وهو قيد للعامل، والاختلاف في تفصيلات وقيود المعنى، التي يمكن لغير دارس العربية، ولمن يلمّ ببسيط القواعد النحويّة أن يدركها. ولا يدرك كثير منهم الفرق بين "ضربه ضربًا" و"ضربه ضربة" ولا الفرق بين سامع وسميع، وغيرها من الأمثلة والأوزان الصرفية. ولا بين معاني صيغ الجموع، ولا بين معاني زوائد الأفعال، ولا بين الاستفهام بالهمزة و(هل).

غالب أساتذة ومعلِّمي النحو لا يعنون منه إلا بالجانب الشكلي المتعلق بالإعراب، وما يتصل به، في حين يهمل المعنى، وإدراك المعنى النحوي

هو الذي يشدّ الدارس ويجذبه، وقد لاحظنا هذا من خلال الممارسة، حتّى إنك لتجد الطالب يفغر فاه بما يسمع في درس النحو ممّا لم يتعوّد سماعه فيه.

وينأى معلِّمو اللغة العربية وأساتذتها عن توظيف الفطرة اللغوية في درس العربية، حيث يشعر الطالب من خلال الدرس أنّه يتعلّم شيئًا لا علاقة له به، بل هو شيء بعيد عن حياته؛ من المسلّم به أن أيّ لغة، بل أيّ مستوًى لا يخلو من نظام يدركه مستعمل اللغة بفطرته، وحسِّه، ليس بحاجة أن يتعلّمه من خلال دروسٍ يقدّمها ملقِّنون أو معلِّمون؛ ومن النحو الفطري ما يحسن أن يكون منطلقًا لدرس العربية، مثل تقرير المعاني النحوية العامة، التي هي معانٍ متغلغلة في الحياة اليومية، مثل تقرير معاني كالنداء، والتعجّب، والإخبار، والأمر، والنهي، والتمني، والدعاء، والتنبيه، والبيان، والتفصيل، وغير ذلك من المعاني التي بمكنة الشخص أن يعبّر عنها من غير حاجة إلى أن يتعلّمها من معلِّم. بل الفطرة اللغوية تتجاوز هذا القدر إلى إدراك ما بين الجمل والكلام من تمايز، يدركه من لا يعرف شيئًا من النحو، وعلوم العربية، كما قال عبد القاهر: «فإذا عرَفَ البدويُّ الفرْقَ بين أنْ يقولَ: "جاءني زيدٌ راكبًا"، وبين قولهِ: "جاءني زيدٌ الراكبُ"، لم يَضُرَّهُ أنْ لا يعرفَ أَنه إِذا قال: "راكبًا"، كانتْ عبارةُ النحويينَ فيهِ أن يقولوا في "راكب": إنَّه حالٌ، وإِذا قال: "الراكبُ"، إِنه صفةٌ جاريةٌ على (زيد) وإِذا عرَف في قوله: "زيدٌ منطلقٌ" أَنَّ (زيدًا) مُخْبَرٌ عنه، و(منطلق) خَبرٌ، لم يضره أن لا يعلم أن نسمّي (زيدًا) مبتدأ، وإذا

عرف في قولِنا: "ضربْتُه تأديبًا له"، أنَّ المعنى في التأديب أنه غرضه من الضرب، وأنه ضربه ليتأدَّبَ، لم يضرَّه أنْ لا يَعْلَم أن نسمّي (التأديب) مفعولاً له». [عبدالقاهر الجرجاني (ت٤٧١هـ)، **دلائل الإعجاز** ١/٤١٨، تحقيق محمود شاكر، ط الثالثة، ١٤١٣هـ/١٩٩٢م، دار المدني، القاهرة].

ويتعيّن ترك التركيز على الأخطاء المفردة في الأعاريب، والتراكيب، والأبنية، وتوجيه العناية بالكليّات التي تعود على المعنى بالإفادة، وصحّة المعنى، ووفائه بالغرض، حسب مقتضى الحال، وتعويد الطلبة على الانطلاق في الإبانة عمّا يريدونه بيانًا مناسبًا، مؤدِّيًا، وبلغة ذات مستوًى، جماليّ مقبول، إنّ علينا أن نعلِّم الناس كيف يتكلّمون، وكيف يوفّون أغراضهم من خلال كلامهم، وهذا يقتضي منّا أن نغيِّر استراتيجيات تعليم اللغة.

وقد «أغفلت معظم دراساتنا اللغوية استخدام اللغة وظيفيًّا، بمعنى استخدامها في مسار الحياة الواقعية، استخدامها في إبداء الآراء والدفاع عنها، وفي عمليات التبادل والتفاوض والتراسل والتهاتف، وهلمّ جرًّا. يتّضح ذلك بصورة سافرة في ضعف مهارات الاتّصال لدى الغالبية منّا: كتابة وقراءة وشفاهة واستماعًا، وليس هذا -حتمًا- نتيجة قصور في العربية فهي تملك العديد من الخصائص والأدوات التي تؤهِّلها لتكون لغة حوار فعّالة، إننا ما زلنا أسرى اللغة المكتوبة غير ملمِّين بالعلاقات اللغويّة والتداوليّة والمقامية التي تربط بين أدائنا الشفهي وأدائنا الكتابي، ويتجلّى ذلك بوضوح في أساليب حوارنا وتفاوضنا». [**الثقافة العربية وعصر المعلومات** ص٢٣٩].

ب) «إهمال الجانب الوظيفي لاستخدام اللغة، وعدم تنمية المهارات اللغوية المطلوبة في الحياة العملية؛ فنحن ننحاز إلى جانب الخطابة [أي اللغة الأدبية ولغة الشِّعر، واللغة التداولية] على حساب فاعلية التواصل» **الثقافة** ص٢٦٩.

ج) إهمال تنمية التذوّق للكلام ولمآثر اللغة العربية شعرًا ونثرًا. **الثقافة** ص٢٦٩.

د) نقص في برمجيات تعليم العربية وتعلّمها، وإهمال أو قلة العناية بتعلّم اللغة العربية ذاتيًّا حين لا يتوفّر تعليمها تلقينًا لأيّ سبب، أو يكون في تلقينها قصور، أو حين يكون هناك رغبة في الاستجابة لمتطلبات غايات التربية في العصر الحديث (تعلّم لتعرف) ولمبدأ التعلّم مدى الحياة. وهذا المشروع يمكن تنفيذه عن طريق الإنترنت أو البرمجيات التعليمية. ينظر: **الثقافة** ص٢٦٩-٢٧٠.

ه) لم يدّع النحويّون أنهم يقصدون إلى تعليم الناس كيف ينشئون الكلام، ولا كيف يكوّنونه، وإن زعموا أنهم يعلِّمونهم قوانين صحة الكلام، وملاءمته للموقف؛ إذ الكلام مغروس في طبائع البشر، وهم مفطورون عليه مجبولون، وإنما قصد النحاة إلى وضع ميزان يزنون به كلامهم، يمايزون به بين الصحة والخطأ، ووضع نموذج مستخلص من كلام العرب يكون نبراسًا لكل من أراد محاكاتهم فيما يقولون، وما ينتجون، ومن هنا جاء تكوين الكلمة واشتقاقها.

و) تدريس النحو مفصولاً عن علوم العربية ونصوصها الإبداعية، وتدريسه بدون الالتفات إلى المهارات والقدرات وتوظيفه في حياة المتعلِّم ولغته.

❖❖❖❖❖❖

وماذا بعد هذا؟

«اللسان في تصور اللغويين المحدثين جملة من الصيغ، أو ذخيرة كوّنتها الممارسات الكلامية، لدى المتكلمين باللغة، وهو نظام نحويّ، قائم في عقل كل متكلِّم لتلبية كل المقاصد والأغراض، واللغة الشرط اللازم لكي يكون الكلام مفهومًا» (ينظر **المرايا المقعّرة** ص٢٠٧-٢٠٨)؛ وبناء عليه لا بدَّ من الانطلاق من النحو الفطري الذي يمارسه الطالب وإن لم يعلم به. وضرورة ربط النحو بالبدهيات اللغوية الفطرية لدى الطالب؛ حيث إنّ النحو فطري يلتزمه كل متكلم في كل لغة. فكل متكلم يعرف كيف يستفهم وكيف ينادي وكيف يتعجّب؟ وهذا ما يعرف بالمعاني النحويّة، ولا يمكن له أن يخلط حين يقصد إلى معنى من هذه المعاني بينها فلا يستفهم وهو يريد التعجب، ولا ينادي وهو يريد الاستفهام، ولا يخبر وهو يريد الإنشاء، وهو قادر على إخراج كلامه على مقتضى الظاهر؛ فقد يستعمل الاستفهام للتعجّب والخبر للإنشاء، مثل «رحمه الله»، فكلٌّ كلام مهما كانت منزلة من ينشئه، ومن ربط النحو بالبدهيات اللغوية التفريق بين المنصوبات: حال تمييز، ظرف، مفعول به، مفعول مطلق، مفعول لأجله، مستثنى بشرح دلالتها شرحًا مبسّطًا بعيدًا عن التعقيد، والوعورة المصاحبة لها في كتب النحو، وإن كان أصله من كلام النحاة.

تبسيط المفاهيم النحوية وتقريبها، ومن الظاهر أنّ السائد هو صرف للطالب عنه، وتعقيد درس النحو من غير ضرورة، كتعقيد الطالب بالعمدة والفضلة، وتعليق الظرف والجار والمجرور... يأتي المدرس، ويظل يشحذ في ذهن الطالب من أجل ترسيخ مفهوم العمدة والفضلة. ويجب تبسيط مثل هذا المفاهيم لدى متعلّم العربية للأغراض المهارية بأن يقال: العمدة في النحو من وجهة نظري ما يبنى عليها المعنى، ويقصد إليه المتكلِّم، نحو: ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴾ [الأنبياء، ١٦] لا يمكن الاستغناء عن الحال (لاعبين). وإن كان النحاة يعدّون الحال فضلة، ولكن الفضلة التي يجب أن يستوعبها الطالب هي ما يمكن أن يستغنى عنه من الكلام من دون أن يفقد الكلام مدلوله، أو شيئًا ذا بال من مدلوله.

توظيف إبداع اللغة في ذاتها في درسها «ويقصد به ذلك الكامن في صلب منظومتها، والذي يمكن لكل ناطق بها أن يمارسه، إنّ للغة ابتكاريّتها الخاصة بها، ولا تتوقّف الجماعة الناطقة باللغة عن ابتكار العبارات المستجدّة، وإضافة المفردات الجديدة إلى معجم اللغة، وإضافة معانٍ جديدة إلى مفرداتها القائمة بالفعل، ويبدو إبداع اللغة نحويًّا في قدرتها على توليد عدد لا نهائيّ من تراكيب الجمل، وذلك بفضل ما سمِّي بالتداخل الحلقي [الذي تتضمّن فيه الجملة الفعلية شبه جملة اسمية، في حين يمكن لشبه الجملة الاسمية تضمّن جملة فعلية، أو أكثر، وهكذا، مثل: جاء الرجل الذي قابلنا أخاه يعمل في المؤسسة...]» (انظر: **الثقافة العربية** ص٢٥١).

أمّا إبداع المجاز فيكمن في قدرة صاحبه على هذا التنقّل الحرّ بين الحقول الدلالية المختلفة. ينتقل من حقل العواطف البشرية إلى حقل النيران؛ فيجعل من العواطف لهيبًا يحرق شغاف القلوب ويؤجّج المشاعر ويكتوي به قلب العاشق، وينتقل من حقل الوقت إلى حقل المال، فيجعل الوقت ذهبًا وموردًا يدخر، وينفق من ميزانيته، ويبدّد إسرافًا وتبذيرًا، وينتقل من حقل الشخصية الإنسانية إلى حقل البناء، فيجعل من الشخصية -مثلها مثل البناء- تتحطّم وتنهار ويعاد بناؤها وترميمها.

إنّ الإبداع الكامن في اللغة هو بمنزلة (دمقرطة) {إشاعة الملكية} لحق الإبداع، وهو أول قدرة إبداعية يتحلّى بها الطفل خلال عملية اكتسابه لغته الأمّ، وهل هناك إبداع أروع من أن يتعلّم الطفل لغته دون مدرس، فنراه يستنتج قواعدها بمنطقه الغريزي، من وسط تلك العينة العشوائية التي تتنامى إلى سمعه البكر من لغة الكبار. إنّ إبداع اللغة يوفّر جرعة الإبداع اليوميّة، التي تضمن لعقولنا الاحتفاظ بحيويّتها ويقظتها، ولكل مهارة لغوية إبداعها الخاص بها، فكما أنّ هناك إبداعًا للكتابة فهناك أيضًا قراءة مبدعة، تنفذ إلى قرار النصِّ، وتعيد تأليف مؤلِّفه. كما أنّ هناك إبداعًا في التحدث، فهناك أيضًا استماع مبدِع، يستوعب ليتفاعل ويقبل ويرفض، في صمتٍ، ويعلِّق الحكم مرجئًا إيّاه للبوح به في اللحظة المناسبة.

ولا شكّ في أنّ ثقافة عصرنا تتطلّب إبداعًا لغويًّا جديدًا، إبداعًا مغايرًا في فنِّ كتابة النصوص -حتّى تتألّف وتنصهر في «سبيكة الوسائط المتعدِّدة مع أنساق الرموز الأمور الأخرى، من صور وأصوات- وإبداعًا جديدًا

في فنٍّ قراءة غير الخطيّة، يلمّ شتات شظاياها، ويقتفي أثر تشعّبها الداخليّ، وتناصّها الخارجيّ مع غيرها من النصوص، وإبداعًا جديدًا في الحوار عن بعدٍ، تحدُّثًا واستماعًا، لا يرى الحوار نوعًا من عشوائيّة التفوُّه بالكلام بل بناء يخضع لهندسة الحوار، تتآلف فيه الآراء وتتباعد، وتخلص فيه النوايا وتتآمر، وتحيل الأسئلة وردودها إلى ما قبلها وتمهد الطريق إلى ما بعدها، وفقًا لغايات المتحدِّثين، وتكتيكات حوارهم» (**الثقافة العربية** ص٢٧٥ و٢٧٧).

توظيف الفوائض، والقرائن المتعدِّدة في صناعة كلام مفهوم، وفهمه كلامًا لا يستوفي شرائط النظام اللغويّ الصحيح؛ إذ «تعتمد اللغات الإنسانية دون استثناء على مفهوم الفائض أو الحشو، ويقصد بالفائض، اللغوي تلك العلاقات الصوتية والصرفية والنحوية والدلالية والمقامية التي تربط بين الحروف والكلمات والجمل والفقرات، والتي يمكن الترخّص فيها لكونها فائضًا مع احتفاظ التعبير اللغوي بقدرته على نقل المعنى، وإليك مثالا لتبسيط الفكرة الأساسية للفائض اللغويّ، لنفرض أنه بدلًا من أن نلتزم بالقواعد اللغويّة في قولنا: (اشترى أخوها تفاحتين من أحد الباعة) ترخصنا في علاقات الإعراب، فنصبنا الفاعل ورفعنا المفعول به، وأهملنا بعض النقاط، وأضفنا من لدينا همزة إلى ألف الوصل، وأغفلنا وجوب التذكير في (أحد) لتصبح الجملة (اشترى أخاها تفاحتان من إحدى الباعة) فعلى الرغم من مجموعة الأخطاء، تظلّ هذه الجملة الممسوخة أشدّ ما يكون عليه المسخ، مفهومة، يمكن لنا قراءتها، والفضل في ذلك يرجع إلى

الفائض اللغويّ، فائض العلاقات والقرائن التي يشتمل عليها التعبير اللغويّ، إنّ فائض اللغة أو حشوها الزائد ليس بعيب ينتقصها، بل هو سند لمرونتها ومصدر لقوّتها، فهو الذي يكسبها المناعة ضدّ التشويش والضوضاء، والخطأ واللبس والغموض، وهو يسهم أيضًا في قدرتها على قلب المعنى، جاعلة من الوعد وعيدًا، ومن المدح ذمًّا، لتظلّ قادرة على توصيل المعنى بين المتكلِّم والسامع». (**الثقافة العربية** ص٢١٣).

❖❖❖❖❖❖

ولعل لسلوك بعض أساتذة اللغة ما يجعلهم لا يفكِّرون بمثل هكذا عوامل، تصيب درسهم بالضعف؛ وممّا رصدته من هذه العوامل تهافت مدرِّسي اللغة العربية وأعضاء هيئة التدريس في أقسام اللغة العربية على المحاضرات الزائدة من أجل تحسين أوضاعهم المادية، وهذا عمل فيه من الجهد ما يشلّ عمل الفكر والنظر والمراجعة، والقراءة الحرّة ومتابعة ما يكتب في قضايا اللغة، فليس من المعقول أن يقوم الأستاذ بتدريس خمسٍ وعشرين محاضرة مثلاً، نحن نقول: إنّ أربع عشرة (١٤) محاضرة كثيرة، فكيف إذا تضاعفت؟! ويجب الحجر على من يتنافسون في المحاضرات الزائدة ومحاضرات خدمة المجتمع، والتعليم الموازي، ويحسن غرس قيم بحثية بها يقوّم الأستاذ وأداؤه، بل كيف لشخصٍ كلّ وقته من محاضرة إلى محاضرة، من غير أن يكون لديه فرصة للمراجعة والنظر والتأمّل، والتفكير الجادّ في جديد مادّته العلمية، وطرائق تقديمها، فكيف له؟ بل

أنّى له أن يفكِّر بالإبداع؟! وكلّ جهدِه منصرف إلى أداء الواجب، وعمل ما يلزمه، وهذا الإسراف في التدريس لا يصنع إبداعًا.

وما علينا الآن إلا أن نراجع منطلقات درسنا للغة، فندرسها بمفهوم اللغة لا بمفهوم النحو، وهو نظام من أنظمة اللغة، في حين أنّ اللغة مجموع الأنظمة اللغويّة، وأن ندرسها باعتبار أنها إبداع، واللغة من أظهر وأبرز مواطن ظهور الإبداع.

ولعلنا لو درسنا النحو أو اللغة على ثلاثة مستويات، كما سيأتي لكان أجدى:

أولها: المستوى التواصلي، ونقصد به ما يؤدِّي غرضًا آنيًّا محدودًا بالزمان والمكان وأطراف الخطاب، ولا يقبل التدوين لعدم الحاجة إلى تدوينه، وهو معظم كلام البشر، بحيث لو قلنا: إنّ ٩٩٪ من الكلام وما يدور من لغة وكلام وحديث وحوار هو من هذا المستوى، ولا يرقى إلى المستوى التداولي، وهو غير ملائم للكتابة، وهو بحكم آنيّته، يتطلّب شيئًا من اليسر والسهولة والاقتصاد، ولا يلتزم بقواعد اللغة بقدر ما يلتزمه من نجاح في الأداء والفائدة، وكل ما يجري على ألسنة الناس من حديث المجالس والفكاهة والطرفة، بل لغة المدرس في فصله داخل في هذا المستوى، وهو يمثِّل كلام الناس العفوي، وكلامهم الفطري على سجيّتهم دون تكلّف، فالمتكلِّم يهمه أن يتواصل مع الآخرين، وأن يفهم ما يريد، باقتصاد وجهدٍ قليل، وبأخصر طريق، وأيسر سبيل، هذا المستوى يراعي المقام، ولا يتكلف كالمستوى التداولي، وله مزايا، منها: التوسّع في الترخّصات،

ومشاركة اللغة المنطوقة للدلالات الأخرى، كالإشارة، وأنها لغة خاصة بمقامها الذي أنشئت من أجله، مثل كلام الفرّاء مع الخليفة، والحوار، ولغة المعلّم، بل أكثرية الكلام ينشأ من أجل التواصل. واللغة التواصلية لغة عفوية، لا تكلّف فيها، ولا مراجعة لها ولا تنقيح؛ فقد يوظِّف المتكلّم الإشارة باليد حين تقول: زيد، وأنت تشير إليه بيدِك، وفي النداء تشير بيدك، وتقول: تعالَ، أو العكس: تقول: محمّد، وتشير بيدك: أن تعالَ، أو تستغني بالإشارة عن اللفظين تعبيرًا عن المعنيين: النداء، والإشارة، تقول بيدك: أن يا محمّد أقبلْ أو تعالَ. كما يوظّف المكملات الصوتية الأخرى، من نبرٍ، وتنغيمٍ، وتزمين، وتلوين، للتعبير عمّا يريده من معنًى. وهذا مستوى يصلح أن يستعمل في المقامات الخاصة، ثم هو لا يصلح للتداول فيما بعد، وأكثر كلام البشر على هذا المستوى، وهو مستوًى يتميّز بالأخذ في الترخصات، وأنّ الكلام فيه تغلب عليه العفوية، وأنّ بعضه يؤدَّى بالصوت، وبعضه يؤدَّى بوسيلة دلالية أخرى غير لغويّة، مثل الإشارة وحركات العين، وهذا يمكن لنا أن نسمّيه مستوى المقام أو الموقف.

وثانيها: المستوى المعتاد الذي يعبّر عن المعنى بتحقيق الحدِّ الأدنى من الصحة، وسلامة النظام، بما يوصل الفكرة إلى المتلقّي، وهو صالح للتداول، ويمكن تداوله وتناقله في غير المقام الخاص الذي أنشئ من أجله. وهذا: المستوى مستوًى تداوليٌّ، لا يحتاج إلا أساسيات اللغة في مفرداتها التي توظّف في معانيها الوضعية غالبًا، كما لا يحتاج إلى كثير ممّا يرد في

كتب النحو من قواعد فرعية، وخلاف، ومعانٍ، كما أنّ من يكتب بهذا المستوى أو يتحدّث ليس بحاجة لأن يوظِّف إمكانات اللغة التي تخرج عن القياس والمطّرد، وما تدعو إليه ضرورة الإبداع. وطلاب هذا النوع لا بدَّ من تحديد حاجاتهم، ولا بدَّ من الرأفة بهم، وعدم تكليفهم ما لا يحتاجون، والاكتفاء بالحدِّ الأدنى من الكفايات اللغويّة، ذات الصبغة العملية، وبإمكانهم توظيفها في استعمالهم اللغويِّ. ومن هذه الفئة طلاب الأقسام في العلوم الطبيعية والطبية، والعلوم الأخرى، ويمكن أن يسمّى هذا المستوى بمستوى الموضوع.

وثالثها: المستوى الإبداعي: ويمثِّل اللغة العالية التي تجمع مزايا الكلام الجيِّد، في مضمونه، وصياغته، وهو مستوًى ذو قيمة فنية عالية، فيها مقوِّمات أعلى من مقوِّمات اللغة المعتادة، كالشِّعر، والنثر الفني، وبعض الأنماط الشعرية. وهذا المستوى يكون غالبًا في التعبير عمّا في النفس من مشاعر وأحاسيس ووجدان وهو مستوًى أدبي يوظّف اللغة توظيفًا خاصًّا، ويجنح إلى التسامي فوق اللغة العادية، في أنظمتها المختلفة من بنية وتركيب، ومن خروج في معانيها عن مقتضى الظاهر. ومن خروج دلالة ألفاظها من حقلٍ دلالي إلى حقل دلالي آخر، ويتمثّل هذا المستوى في الشِّعر والخطابة، والكتابات الأدبية، وكلّ ما يقصد إلى الجمع بين جودة المعنى، وجودة العبارة، ويوظف إمكانات اللغة والخيال، وقدرات أخرى. وهذا المستوى له طلابه، وهم من نوعٍ خاصٍّ، وليسوا كلّ الأنواع والفئات،

وهذا النوع أعلى المستويات وأرفعها، ولغة هذا المستوى قابلة للمراجعة والتصحيح والتنقيح، لتخرج بصورة تلائم مستواها التداولي.

وكان التواصل ينحصر في اللغة الشفويّة، والخطأ الشفهيّ والحوار. وقد كان هذا النوع يمثِّل نسبة تجاوز ٩٥٪ من اللغة المستعملة، والتي تصدر عن مستخدمي اللغة، أيّ لغة كانت، بل هناك لغات لا تعرف غير هذا النمط، ولا تعرف لغة مكتوبة، فضلاً عن لغة أدبية إبداعية عالية. ثمّ تغيّر التواصل في عصرنا، وظهرت أنماط صارت تضارع أو تقارب لغة المشافهة، فصار لدينا البريد الإليكتروني، والماسنجر، ولغات المحادثة والحوار والمخاطبة المكتوبة، كما يجري في غرف المحادثة من خلال الشبكة، من مثل ما يسمّونه (الشات)، ولغتها في الغالب لا تختلف عن لغة الخطاب والحوار الشفهي إلا في كتابته في وسيلة إليكترونية، وهذا يفرض على أهل العربية أن يقتحموه؛ ليكون لهم رأيٌ واجتهاد في صناعة لغة تواصل جديدة تتوزّع بين المشافهة والكتابة بالوسائل الإليكترونية، التي هي أشبه بالمشافهة.

وكما يغفل أهل اللغة عن هذا النمط من لغة التواصل يغفلون عن لغة البرامج الحوارية في الإذاعات، والقنوات التلفزيونية، وهي تتطلّب قدراتٍ تواصليّة مناسبة أكثر ممّا تطلبه من إتقانٍ للنظام اللغويِّ، وصحّةٍ في التركيب النحوي.

لا شكّ أنّ الحديث في هذه المقامات التواصلية، بهذه الوسائل ليس كحديث في مستوًى تداولي، سواء كان نصًّا ثريًّا، أي: أدبيًّا، أو كان نصًّا محدودًا في لغته، ومعانيه، وأساليبه، وتراكيبه، ومفرداته. ومن المعلوم أنّ

المستوى التداولي يشمل النوعين؛ إذ التواصلي ما لا يناسب غير المقام الذي ورد فيه. والتداولي ما يصلح لمقامه الذي أنشئ من أجله، وهو صالح لاجتياز الجغرافيا والتاريخ، وتناقله عبر الحدود، بحيث يصح ويسوغ استعماله في سياقات غير المقام أو الموقف الذي دعا إلى إنشائه.

إنّ أهمّ شيءٍ في لغة التواصل حنكة التعامل مع الغير، وما من شكٍّ في أهمّية التواصل مع الآخرين، ومن أهمّ الوسائل لإنجاح هذا التواصل أن يكون لدى الشخص قدرة على الإقناع والتأثير في الآخرين، وممّا يحسن توظيفه لهذه المهمّة اللغة ومهاراتها، والقدرة على توظيفها، كما ينبغي.

اللغة من مشتركات الحياة؛ إذ الناس بل مستعملوها فيها على درجة سواء من ناحية الإتاحة، ولكلٍّ منهم أن يتعلّم منها حسب حاجته، وأن يكتسب منها حسب طاقته، ولأهل اللغة -كما لطلابها- تلمّس الحاجة والطاقة. وفي اللغة ثلاثة مستويات، كما أسلفنا، وليس مستوًى واحدًا كما هو جارٍ في درس العربية:

المستوى الأوّل: مستوًى أدبيّ يوظّف اللغة توظيفًا خاصًّا، ويجنح إلى التسامي فوق اللغة العاديّة، في أنظمتها المختلفة من بنية وتركيب، ومن خروج في معانيها عن مقتضى الظاهر. ومن خروج دلالة ألفاظها من حقلٍ دلاليّ إلى حقل دلاليّ آخر، ويتمثّل هذا المستوى في الشِّعر والخطابة، والكتابات الأدبية، وكلّ ما يقصد إلى الجمع بين جودة المعنى، وجودة العبارة، ويوظف إمكانات اللغة والخيال، وقدرات أخرى. وهذا المستوى له طلابه، وهم من نوعٍ خاصٍّ، وليسوا كلّ الأنواع والفئات، وهذا النوع

أعلى المستويات وأرفعها، ولغة هذا المستوى قابلة للمراجعة والتصحيح والتنقيح، لتخرج بصورة تلائم مستواها التداولي.

المستوى الثاني: وهو مستوًى تداوليٌّ، لا يحتاج إلا أساسيات اللغة في مفرداتها التي توظّف في معانيها الوضعية غالبًا، كما لا يحتاج إلى كثير ممّا يرد في كتب النحو من قواعد فرعية، وخلاف، ومعانٍ، كما أنّ من يكتب بهذا المستوى أو يتحدّث ليس بحاجة لأن يوظِّف إمكانات اللغة التي تخرج عن القياس والمطّرد، وما تدعو إليه ضرورة الإبداع. وطلاب هذا النوع لا بدَّ من تحديد حاجاتهم، ولا بدَّ من الرأفة بهم، وعدم تكليفهم ما لا يحتاجون، والاكتفاء بالحدِّ الأدنى من الكفايات اللغويّة، ذات الصبغة العملية، وبإمكانهم توظيفها في استعمالهم اللغويِّ. ومن هذه الفئة طلاب الأقسام في العلوم الطبيعية والطبية، والعلوم الأخرى.

المستوى الثالث: المستوى التواصلي الذي يقال في مقام خاص، ويؤدِّي غرضًا آنيًّا محدودًا بالزمان والمكان وأطراف الخطاب، ولا يجري عليه التدوين في الغالب؛ لعدم الحاجة إلى تدوينه، ثم هو لا يصلح للتداول فيما بعد، وهو معظم كلام البشر وأكثره، ولو قيل ٩٩٪ من الكلام وما يدور من لغة وحديث وحوار هو من هذا المستوى، بل كلّ ما يجري على الألسنة من حديث المجالس والفكاهة والطرفة، بل لغة المدرِّس في فصله من هذا المستوى، ولا يرقى إلى المستوى التداولي، وهو بحكم آنيّته يتطلّب شيئًا من اليسر، والسهولة، والاقتصاد، ولا يلتزم بقواعد النحو القياسية بقدر ما يلتزمه من نجاح في الأداء والفائدة، ثم هو مستوًى يتميّز بالأخذ

في الترخصات، وأنّ الكلام فيه تغلب عليه العفوية، ثمّ هو يمثِّل كلام الناس العفويَّ، وكلامهم الفطريّ على سجيّتِهم، دون تكلُّف؛ فالمتكلّم يهمّه أن يتواصل مع الآخرين، وأن يفهم ما يريد، باقتصاد وجهدٍ قليلٍ، وبأخصر طريق، وأيسر سبيلٍ. وأنّ بعضه يؤدَّى بالصوت وبعضه يؤدَّى بوسيلة دلالية أخرى غير لغويّة، مثل الإشارة وحركات العين، وأخيرًا هو مستوًى يراعي المقام، ولا يتكلّف كالمستوى التداوليّ، وقد أسلفنا الحديث عنه.

توصيات ومقترحات:

١. مراجعة وتقويم فائدة المقررات، مثل الأصوات، وعلم اللغة، وبعض مداخل العلوم، والتخلّص من الموادِّ الفلسفية التي لا تسهم إسهامًا واضحًا في تكوين المهارات، وتوظيف اللغة.

٢. التركيز على الجوانب الوظيفية من النحو وغيره من علوم العربية.

٣. الخروج بالنحو عن النحو النصي إلى نحوٍ أشمل وأكمل وأكبر نفعًا وأثرًا، يصنع الفكر، ويسهم في تذوُّق الكلام وبنائه.

٤. ضرورة ربط النحو بالبدهيات لدى الطالب؛ حيث إنه فطريٌّ يلتزمه كل متكلم في كل لغة. فكل متكلّم يعرف كيف يستفهم وكيف ينادي وكيف يتعجّب؟ ولا يمكن له أن يخلط حين يقصد إلى معنى من هذه المعاني بينها فلا يستفهم وهو يريد التعجب، ولا ينادي وهو يريد التعجب، ولا يخبر وهو يريد الإنشاء. فكل كلام مهما كانت منزلة من ينشئه له معنًى نحويٌّ.

٥. ربط النحو بالبدهيات اللغوية مثل التفريق بين المنصوبات: حال، تمييز، ظرف، مفعول به، مفعول مطلق، مفعول لأجله، مستثنى، بشرح دلالتها شرحًا مبسّطًا بعيدًا عن التعقيد، والوعورة المصاحبة لها في كتب النحو.

٦. لا بدَّ أن نأخذ بأسباب تطوير الدرس اللغوي، ولا يمكن أن يتطوّر ما لم نأخذ بثلاث، وندع ثلاثًا، فالثلاث التي نأخذ بها، هي:

- أن ندرس النحو على أساس أنه مادّة فكر، يجب فهمه، واستيعابه، وليس محفوظات، يكفي فيها الحفظ والترديد.
- أن ندرسه على أساس من الذوق، الذي يصنع ألفة بينه وبين دارسه.
- أن ندرسه مصحوبًا بالممارسة الجيّدة، والتطبيق المؤازر للمادة النظرية.

والثلاث التي نجتنبها:

- التخلص من اللفظية، التي تعتمد حفظ القواعد دون فهم، وتكريرها؛ إذ يحفظ الطالب القاعدة، ومثالها أو أمثلتها، ويحصل على الدرجة الكاملة في الاختبار، وإذا ما قرأ وكتب وقع في لحنٍ مشين شنيع، ولو تغيَّر عليه المثال، الذي حفظه من المقرر، أو فقد من حافظته كلمة أو عبارة لم يهتد إلى إجابة صحيحة، وهو مع ذلك في عداد الممتازين المتفوِّقين؛ لأنّه استطاع أو قدر على استرجاع محفوظه، ولو بدون فهم، وما خطؤه إلا من الطريقة التي تعلّم عليها: الحفظ دون الفهم والاستيعاب لما حفظ.
- رفع الحجب التي تحول بين الدارس والنحو، من خلال ربطه بلغته المحكية المعتادة نظامًا ولفظًا وشكلاً، موافقة ومخالفة لمقتضى الظاهر.

■ أن نخلِّص الدراسة النحوية بل اللغويّة من كونها تنظيرًا محضًا لا صلة لها بالواقع، ولا بلغة الدارس، لنرتقي بها، لتكون مهارات، وممارسات -على الأقلِّ- يعيشها الدارس في حياته، ومن المعلوم أنّ ربط المعرفة بسلوك المتعلِّم يمرّ بأربع مراحل: المعاناة، فالممارسة، فالمهارة، فالعادة، فالسليقة. والمهارة لا تأتي إلا بتكرار الممارسة الواعية على شدّة المعاناة التي ستقع للممارس، والاعتياد على دقّة الأداء، والالتزام بالانضباط، وتكلّف التركيز والانتباه، واستحضار قواعد العلم النظريّة، وإذا كان هذا في المهارة فمتى تأتي أو تتكوّن العادة والسليقة؟!

عمل مقرر للجامعة جديد يشمل جميع مكوِّنات الدرس اللغوي، ولا يستأثر به فرع دون فرع، ويراعي الأهداف الخاصة للفئات المستهدفة، وكل ما من شأنه الإسهام في تطوير الدرس اللغويِّ. ومقرر اللغة وهذا المقرر الذي يقدّم يقدَّم لعموم الطلبة، يجب أن يعلّم اللغة، ويطلق الألسنة للإبانة عمّا لدى المتعلِّم من أفكار، وخواطر بخطاب يناسب المقام، وأن يكون خليطًا من المعارف اللغويّة البسيطة، والمهارات، والتدريبات، مع التركيز على جوانب الاتصال، والتواصل، وتعلّم الناس اللغة، وإطلاق ألسنتهم للإبانة عمّا لديهم من أفكار وخواطر، وكل من شأنه قضاء حاجات الحياة اليومية، والتواصل الإنساني المتكرر، والتواصل.

تمّت بحمد الله، والصلاة والسلام على رسوله الكريم.

* (محاضرة ألقيت في الموسم الثقافي لكلية اللغة العربية في ١٤٣٢/٦/٢٠هـ).

** كلية اللغة العربية- جامعة أمّ القرى- مكة المكرمة.

شِعر عليّ بن عرَّام الأُسوانيّ (ت٥٨٠ هـ)*
دراسة في جماليَّات الشَّكل وتنوُّع المضمون

بقلم: د. عبد الرَّازِق حويزي**

عليّ بن عرَّام أحد شعراء القرن السَّادس الهجريّ المشهورين، ينتمي إلى أسرة عريقة، لها القدح المعلَّى في الإبداع الأدبيّ، والنتاج الثَّقافيّ، لم يقتصر في عطائه على الإبداع الشّعريّ، فقد تخطَّى ذلك بفضل تنوُّع ثقافته إلى ممارسة التّأليف في بعض التّخصصات، فترك بعض المؤلَّفات، ولكن للأسف ذهبت أدارج الرِّياح، ولم يبقَ منها إلا نصوصٌ قليلةٌ متناثرةٌ في بعض مصادر التُّراث العربيّ.

تطرَّق بعض المؤرّخين للتَّرجمة له، ولكن مَا أُثرَ من معلوماتٍ حول حياته لا يَبُلُّ صدًى، ولا ينقَعُ غُلَّةً، ومهما يكن من أمر قلّة المأثور من أخبار حياته سيحاول البحثُ أن يلقيَ ضوءًا ما على شخصيَّته، وأدبه، ومن ثمَّ إظهاره من حيِّز المجهول إلى حيِّز المعلوم.

وتُعَدُّ ترجمة العِمَاد الأصفهانيّ (ت ٥٩٧هـ) له في كتاب "**خريدة القصر**" من أوفى التَّراجم المأثورة له، إذ احتوت على عددٍ غير قليل من الأبيات الشِّعريَّة، وقد حَدَت بي بعض قصائده ومقطّعاته ذات المضمون

السَّامي، القريب التَّناول من العامَّة والخَّاصَّة إلى الالتفات إلى جمع شِعره وتحقيقه وشرحه، بعد التَّأكُّد من ضياع مخطوطة ديوانه، والمجموع قيد النَّشر، وهناك بعض الدَّوافع الأخرى حدت بي لجمع شِعره، منها: ضياع غير قليل من دواوين شعراء العصر الأيُّوبيّ، ومنها: عدم جمعه حتَّى الآن ممَّا أدَّى إلى غياب الشَّاعر وشِعره عن أقلام الباحثين في الأوساط الأدبيَّة المختلفة، ورأيت أن أتناولَ شِعره هنا بالدِّراسة الموضوعيَّة والفنيَّة للكشف عن مضامينه وأبرز ظواهره الفنيّة وتشكيله الجماليّ.

وأحاول -قبل الدّراسة- التّعريف بهذا الشَّاعر في ضوء ما أسعفت به مصادر التُّراث العربي[1]؛ فهو: عليّ بن أحمد بن عرَّام بن أحمد الرَّبعيّ الأُسوانيّ، يكنى بـ"أبي الحسن"، وُلِد في أُسوان، ولم يحدِّد العلماء تاريخَ مولده، وأرجِّح أنَّه وُلِد في العِقد الأوَّل من القرن السَّادس الهجريّ، إذ يذكر الأدفويّ (ت ٧٤٨ هـ) أنّه أخذ العلم بمصر عام (٥١٧ هـ) عن ابن بركات، وذكر أيضًا أنّ أبا عبد الله الأنصاريّ روى عنه، ثم أثنى عليه، فقال: "لا يوجد في أرض مصر من يدانيه فضلاً، ولا يضاهيه نبلاً"، ويحدِّد السيوطيُّ (ت ٩١١ هـ)، وعمر رضا كَحّالة (ت ١٤٠٨هـ) وفاته بعام (٥٨٠هـ).

ينتمي ابن عرَّام إلى أسرة عريقة، لها جذور ثابتة في الثَّقافة العربية، وأثر ملموس في بعض تخصُّصاتها، إضافة إلى الدَّور البارز الذي نهض به رهطٌ من أفرادها في الحياة الاجتماعيّة والسِّياسيَّة، وقد أتى كلٌّ مِن العِمَاد الأصفهانيّ، والأدفويّ على ذِكر بعضهم، فمنهم: ابن عمِّ شاعرنا:

"هبة الله بن عليّ بن عرَّام الأُسوانيّ" (ت ٥٥٠ هـ)، كان شاعرًا مشهورًا[٢]، وعبد الله بن أبي بكر بن عرَّام، وهو عالم لغويٌّ معروف[٣]، وعيسى بن أحمد بن عرَّام الأُسوانيّ، وهو شاعر معروفٌ[٤]، وأحمد بن أبي بكر بن عرَّام الأُسوانيّ[٥]، وأبو بكر بن عرَّام الأُسوانيّ[٦]، وغيرهم.

ومن المؤكد أنّ هذه الكوكبة أثرت في ثقافته، وتوجيهه نحو الثَّقافة الإنسانيّة، فقد كان ابن عمه أبو محمَّد بن عرَّام قاضيًا معروفًا في أُسوان، وقد استثمر شاعرنا هذه الحركة العلميّة الملموسة في عائلته، فهُرع إلى العلوم يعبُّ منها عبًّا، وإلى التَّحصيل العلميّ، ينهمك فيه، إلى أن صار علَمًا من علماء القرن السّادس الهجريّ الذين يُشار إليهم بالبَنان، وقد أثمر هذا الاهتمامُ العميق بالتّحصيل العلميّ عن بعض المؤلفات[٧]، منها: كتاب "**سيرة بني الكنز**"[٨]، الذي سطَّر فيه تاريخ بني الكنز، وقد بحثتُ عن هذا الكتاب فلم أجده مخطوطًا أو مطبوعًا، وعثرتُ على بعض نصوصٍ منه مبثوثة في تضاعيف بعض المصادر، فنهضتُ بجمعها، ومن نتاجه الإبداعيّ ديوان شِعر، أتى كلٌّ مِن العِمَاد الأصفهانيّ، والأدفويّ على ذِكره أثناء ترجمتهما له.

هذا، وقد مكَّنته موهبتُه وسعة ثقافَته وشهرته من الاتِّصال ببعض وُجهاء عصره إمّا مادحًا[٩]، وإمّا راثيًا، ويُومئ في شِعره إلى أنه تعرَّض في أُسوان إلى الاضطهاد والتَّضييق عليه في أمور حياته حتَّى لفَّه اليأس، وشمله القنوط، فضجر من الإقامة بها، ويبدو أنّ هذا التضييق كان من قِبَل بعض وُلاة أمورها؛ ممَّا اضطره إلى صبِّ جامِ غضبه عليها وعلى

ساكنيها، ثم الرَّحيل منها إلى بعض البلاد الأخرى، منها: القاهرة، والشَّام، والعراق، واليمن، والجزيرة العربية[١٠]. ويبدُو أنه عاد إليها مَرَّة ثانية في نهاية حياته؛ إذ يذكرُ العِمَاد الأصفهانيّ أنَّه سأل عنه عام (٥٧٣ هـ) فأُجيبَ بأنَّه في أسوان[١١].

هذا ما أمدَّتنا به المصادر في سبيل ترجمته، أمّا بالنِّسبة لدراسة شِعره شكلاً ومضمونًا فسأتناولها من خلال عنصرين، أولهما: تنوُّع المضمون، وثانيهما: التَّشكيل الجماليّ.

أولاً- تنوُّع المضمون:

من المعروف أنّ الحصيلة الشِّعريَّة[١٢] التي تمكَّنتُ من جمعها من مصادر التُّراث العربيّ ليست هي كلُّ ما نظمه، فقد ضاع ديوان شِعره -كما سبق الإلماح إليه-، وانفرطتْ عقود قصائدِه، وتناثرتْ جواهرها في المصادِر التُّراثيَّة، ممَّا حدا إلى جمعها وتحقيقها وشرحها، وهي حصيلة -لاشكَّ- قليلة بالقياس إلى ضياع الشَّطر الأكبر من شِعره، وهناك دلائل على هذا الضَّياع، منها تصريح رُواة شِعره في بعض القصائد المتبقِّية باشتمالها على مديح، وبالبحث فيها لا يُلفى هذا المديح. ومهما يكن من أمرٍ فإنّ ما بقيَ من شِعره قمينٌ بأن يعطيَ تصوّرًا لمضامينه وأبرز ظواهره الفنيَّة.

إنّ أهمَّ ما يمكن تسجيله -على الرّغم من ضياع الشّطر الأكبر من شِعره- هو ذلك التنوُّع المضمونيّ من مديحٍ إلى غزل إلى هجاء إلى رثاء إلى شكوى إلى وصف إلى فخر إلى عتاب إلى زهد إلى حكمةٍ إلى شِعر اجتماعيّ، ومع هذا التَّنوُّع المضمونيّ في أغراض شِعره يُلحظ تنوُّعٌ آخر

في ممدوحيه، فقد اتَّصل ببعض وُجهاء عصره، وقال فيهم شعرًا، منهم: عزّ الدِّين موسك النصري[١٣]، وشمس الدّولة توران شاه بن أيُّوب[١٤]، والملك العادل سيف الدّين أبي بكر بن أيُّوب[١٥]، ومنهم: الأمير مبارك ابن منقذ[١٦]، ومالك بن محمّد بن شيبان الطوديّ[١٧]، وكنز الدولة بن متوّج[١٨]، ولا شكَّ أنّ تعدُّد ممدوحيه يدلُّ على أنّ المدح من الأغراضِ التي طغت على اهتمامه، واستقطعتْ حيِّزًا كبيرًا من شاعريَّته، ولا يختلف مديحه عن مديح كثيرٍ ممَّن سبقه، فهو يحذو حذوهم في المنهج، ويحلِّق في فلك معانيهم، أمّا من حيث المنهج فقد كان يفتتح بعض قصائد المدحيَّة[١٩] بالغزل والتَّشوُّق، أو بالشَّكوى من العذَّال، ثم يعرِّج بعد ذلك على وصف مشاقّ الرِّحلة، وعناء السَّفَر إلى الممدوح ليقرِّر لديه منحته، فهو القائل في مطلع قصيدته في مدح سلطان اليمن[٢٠]:

أرقتُ لبرقٍ في الدُّجُنَّةِ مشبوبِ ودمعِ سحابٍ ناشيءٍ منه مسكوبِ
فَمِنْ قلبِ صبٍ لَفْحُهُ وَخُفُوقُهُ كما غَيْثُهُ مِنْ مَدْمَعٍ منه مصبوبِ

ثم عرَّج من هذا الغزل والتَّشوُّق إلى وصف البيئة الشَّامية تلبية لإعجاب الممدوح، وليس تلبية لنداء شاعريَّته. ورفع عقيرته بالشكوى من العذَّال في مطلع مدحيّة أخرى فقال[٢١]:

أَطَلْتَ من اللَّوْمِ المُرَدَّدِ والعَذْلِ عليَّ وإِنِّي في الغرامِ لَفِي شُغْلِ
فما الحبُّ إلا النارُ والعَذْلُ عنده هواءٌ به يزدادُ في قُوَّةِ الفِعْلِ

ومن وصفه أهوال الرّحلة في سياق مدحه لـ"سعد الدّين" في قصيدة ثالثة[٢٢]:

وكـم جَـازَ القِفَـارَ إليـكَ عَبْـدٌ   يُؤَمِّـلُ أَنْ يكـونَ بـكَ انتيـاش

وأوْفَى من بـلادٍ شاسعـــــاتٍ   يـضيقُ بهـا لـساكنها الْمَعَـــاشُ

واعترف الشَّاعر نفسه بسيره على منهج أسلافه في افتتاح قصائد المديح بالغزل والتَّشبيب في قوله(٢٣) :

وإنـي وإن شَـبَّبْتُ لا عَـنْ شـبيبةٍ   فمَذْهَبُ قومٍ في القريضِ مَضَوْا قَبْلِي

وكذلك أصابه ما أصاب غيره من شعراء العربيّة ، من حيث اتِّخاذ المديح وسيلة للتَّكسب ، ولتحقيق هذه الغاية حاول أن يضمّن قصائده كلّ ما يعجب الممدوح من وصف ، أو غزل ، والأمر المثيرُ للعجب أن تراه مُلحفًا في السؤال ، مُحدِّدًا ما يريده من الممدوح في قوله يطلب فَرْوَة(٢٤) :

ولكنْ لِفَضْلِ البَرْدِ في الجسم سَوْرَةٌ   وليس يواقٍ من أذاه سوى الفَرْوِ

فجودُكَ يَكْسُوني ويُرْوِي من الظَّمَا   ومَدْحي لما أَوْلَيْتُ من حَسَنٍ يَرْوِي

أمّا المعاني الَّتِي أتى عليها في مدائحه فلا تختلف كثيرًا عمّا طرقه الشّعراء السَّابقون ، فهي تدور حول إسباغ الصِّفات الحميدة على الممدوح مع التركيز على ما يتناسب منها وشخصيَّته ، ومنزعه في الحياة ، فالممدوح الشَّاعر له معانٍ تختلف عن معاني الممدوح الأمير، وهَلُمَّ جَرًّا.

ومعانيه بصفة إجماليَّة تخلع على ممدوحيه الكرم ، والشَّجاعة ، والعفو ، وسموّ الخُلُق ، وجمال الخِلقة ، والتَّواضع ، والفروسيَّة ، والتَّدبير، واتِّباع الحقّ ، والحِلم ، وإنجاز الوعد ، وطيب الأصل ، وتحقيق المجد والتَّفرُّد به ، وكرم السَّجايا ، واجتناب الرَّذائل ، والورع ، والعلم ، وحسن الجوار ، ونشر النُّور ، والتَّغلب على الأعداء ، والذَّكاء ، والشَّهامة ، والمروءة.

ويُلحظ أنّ كلَّ هذه المعاني قديمة؛ ولكن يبقى له الفضل في توظيفها بأسلوبه الخاصِّ الذي يتَّسق وأسلوب عصره، وهي لا تخلو من بعض المبالغات كما في قوله يمدح سلطان اليمن شمس الدَّولة توران شاه بن أيُّوب[٢٥]:

أَيُوسفَ مصرٍ إنما أَنْتَ يوسُفٌ   فأَنْتَ ابنُ أيُّوب وذاكَ ابنُ يعقوب

وقوله يمدح الملك العادل، وهو أخو الملك الناصر صلاح الدين الأيُّوبي[٢٦]:

إني وظهر الأرضِ مع بطنِها   لناصرِ الإسلامِ في بطنِ راح

وفي مديحه ظاهرة حرية بالتسجيل، وهي تمثّل -إلى الآن- ظاهرة معروفة في صعيد مصر، تتمثَّل في شدَّة التَّرابط العائليّ والأُسَريّ، والمحافظة على النظام القَبَليّ، وعدم انسلاخ الفرد وخروجه عن هذا النِّظام وذاك التَّرابط بأيِّ حالٍ من الأحوال، فقد تجسَّدت هذه الظَّاهرة في مديح ابن عرَّام، إذ كان يركِّز فيه على العُنصر الذي ينتمي إليه الممدوح، والأصل الذي انحدر منه، بتعريجه على عائلته أو قبيلته بالمديح والإسهاب فيه، ولا يؤثر الممدوح بتعداد محاسنه وفضائله دونهما، من ذلك قوله في مدح عزِّ الدِّين موسك[٢٧]:

نزعت إلى جرثومة من خؤولة   نمتك وأعمام كرام المناصب
إذا وعدوا أوفوا وإن أوعدوا عفوا   وإن سُئلوا أعطوا جزيل المواهب
يُبيحون في سُبْلِ المكارمِ ما غَدَتْ   تُبيحُهُمُ في الرَّوْعِ بيضُ القَضائبِ
فآراؤهُمْ تكفي النصالَ نصالَهُمْ   كما كُتْبُهُمْ تُغْنِي غَنَاءَ الكتائب

ولم أجد له في الرِّثاء سوى قصيدة ومقطوعتين ؛ قال القصيدة في رثاء ابن عمِّه، فقيد الأدب والشِّعر: هبة الله، أبو محمّد، وبدا فيها متفجعًا حزينًا، صادق المشاعر والعاطفة والتعبير. قال فيها: إنّ المرثي كان مبرّزًا في الإبداع الشّعريّ، وذهب إلى أنّ القوافي لن تجد بعده مَن يحوكها، وأنّ الخطوبَ لن تجد من يجلِّيها، وأنّ الكرم دُفن مع دفنه، وأنّ ينبوع الخير نضب، ويعلن فيها عن خيبة ظنه، إذ كان يظنُّ أنه سيموت قبل ابن عمّه، ولكن أتت الرِّياح بما لا تشتهي السُّفن ؛ ومن ثَمَّ تمَنَّى موته إثر موت ابن عمِّه وفاءً له، قال ابن عرَّام[٢٨] :

مَنْ لسودِ الخطوب غَيْرُكَ يُجْلِيـ ـها وقد غابَ منك بَدْرٌ منيرُ
مَن يحوكُ القريضَ مِثْلكَ يُسْدِيـ ـه على خِبْرةٍ به وَيُنِيرُ
ليسَ في العيشِ بَعْدَ فقْدِك خَيْرٌ حَبَّذَا وافدُ الرَّدَى لو يَزُورُ

فيُلحظ أنه عدَّد محاسن الْمُتَوفَّى وركَّز على أبرز ما تفرَّد به ؛ وتتَّسم قصيدته بالصِّدق الوجداني والبُعد عن التَّكلف والتَّعقيد والتَّأنق الأسلوبيّ، وهذا في حدِّ ذاته يدلُّ على انشغال بتجربته الشِّعريّة، وانفعاله بالمصاب الجلل الذي حلَّ به، وقد ارتقى بتجربتِه توظيفُه للحكمة المناسبة في بداية القصيدة بقوله :

كلُّ حيٍّ إلى الفَناءِ يصير وبهذا قضى اللطيف الخبير
فاغتباط الفتى بدنياه نقص ومواعيدها غرور وزور

كما ارتقى بتجربته ختامه للقصيدة بالدُّعاء المتَّسق مع مضمونها في قوله :

فسقى قبرَه نداه فَفِيهِ لثراهُ غِنًى وَرِيٌّ غَزِيرُ

ويُعَدُّ غرض الفخر أحد الأغراض الشِّعريَّة التي شَكَّلت المضمون في ديوانه، وإن كانت حصيلته قليلة، أتى الشَّاعر فيه بالمعاني التي تفصح عن شجاعته، ونزاهته، وحِلمه، وعفوه، وإبائه، ورفضه للذل والهوان، والتزامه بالتَّقوى، وحبّه للخير، وإيثاره للقناعة، وطرحه للشَّر، على ما يتضح من قوله[٢٩]:

سأحلمُ عن خَصْمي بمجلسِ لَغْوِهِ ... ولستُ حليمًا عنه في حَوْمة الوَغَى

وأَستُرُ طولَ الدهر في الغيب عَيْبه ... حِفاظًا ولا أَبْغي رِضاهُ إذا بَغَى

ويحتلُّ شِعر الزُّهد حيِّزًا كبيرًا في ديوان ابن عرَّام الذي لم يُجِدْ في غرضٍ شعريٍّ كإجادته في هذا الغرض؛ ولاشكَّ أنّ إجادته تلك وإدراك العلماء لأثر قصيدته التي كانت تنشد على المقابر دفعا بعضهم إلى إزجاء بعض مقطّعاته التي تتَّسم بإصابة المعاني والعمق الوجداني لأنَّها مستوحاة من القرآن الكريم أولاً، ثم من معاناة الشَّاعر وخبرته في الحياة ثانيًا، وقد أتى فيها على بعض المعاني المتنوّعة التي تحمل المسيء على الإقلاع عن الإساءة، والمذنب على المبادرة إلى التَّوبة، والمقصّر على التَّفكير في عاقبة أمر تقصيره، ومن ثمّ يُعَدُّ شِعره الزّهديّ خطابًا دينيًّا مؤثرًا بتقليله من شأن الدّنيا، وتحقيره لمتاعها الزّائل، وتعظيمه لأمر الآخرة، ومتاعها الخالد.

إنّ تركيزه في هذا الغرض على ذِكر الموت، وقرب الأجل، وذهاب الشّباب، وحلول الشّيب يُعدّ أحد الوسائل التي كفلت له الإجادة فيه، وقد حاول من خلال معانيه المتنوّعة أن يرسم للإنسان صورًا لضعفه في الكِبَر، وذهاب بصره، وتثاقل خطوه، ونفور النّاس منه حينئذٍ، وغرور

الدّنيا، وسرعة زوالها، ومن ثمّ فلا يجب التَّكالب عليها؛ لأنَّها دار الفزع، أمّا الآخرة فدار الأمان لمن قدَّم لها، وهي دار القرار؛ كما مزج شِعره الزّهدي بشِعر النّصائح فحاول مِن خلاله دعوة الإنسان إلى النّفور من دنياه، والالتزام بالتّقوى والعمل الصّالح، ومراقبة الله ﷻ في السّر والعلن، والاستعداد ليوم الرَّحيل، والمبادرة إلى التَّوبة والعمل الصَّالح، وترك الظُّلم، وطرح الطَّمع، وحمل النَّفس على القناعة، فهذه أبرز المعاني التي أتى عليها في شِعر الزّهد، ومنه[٣٠]:

مَشِيبُك يقتضِي قُربَ الرّحيلِ فهلْ أعددتَ للسفرِ الطويلِ
وجسمُك قد تخلَّى عنك حتّى غَدا للنفس كالربعِ المحيلِ
فقدِّمْ صالحًا تقدمْ عليه فليسَ إلى خلودٍ مِن سبيلِ
من الأمواتِ محيانا وإنّا إلى الأَمواتِ نَرجعُ عَن قَليلِ

ومنه[٣١]:

لا يركننْ أحدٌ إلى الأطماعِ ولقد نصحتُ لكم سماعِ سماعِ
إنّ القناعةَ -فالذي أوتيتَ مِن رزقٍ- لوجه الحُرّ خيرُ قِناعِ
فاحذرْ مِن الدّنيا الدَّنِيَّة إنّها غَدّارةٌ غرارةٌ بخداعِ
ووفاؤُها ما لا يكونُ وإنّما كَرَمٌ لَمن غذيت بلؤم طباعِ
فانفضْ بنِيها من بَنانِكَ إنَّهم كَسَرابِ قَفرٍ مطمعٍ لماعِ
واستغن عنْهم فالرَّقاعةُ كلّها تقبيلُ أيديهم ورفعُ رقاعِ
ما نفعُ مالٍ ليس فيه مَطمع لمؤملٍ أو مطعم لجياعِ

قد كنتُ إذ أنا يافعٌ ومصاحبي طَلَــفٌ يبــوؤني أجــلّ يفــاعِ
أفحينَ شِبتُ يلوحُ غيمٌ كاذبٌ يقتــادُني بجــواذبِ الأطمــاعِ
فاعمل لِمَا بعد الممَاتِ فقَد دَنا ميقاتُه فاصحُ لـصَوتِ الدّاعِـي

ومنه[٣٢]:

حبــسي نفــسي عــن الــدّنايا والـشَّيب قـد جلّـل النواصــي
وتـــب وأضـــمر زهـــدًا وإلا فلـيس في الحـشر مـن صياصـي
أعرض عن الظلم -ويك- خوفًا مـن موقـف العـرض والقـصاص

ومنه قصيدته التي تنشد على المقابر، وهي[٣٣]:

الـــرَّدَى للأنـــامِ بالمرصـــادِ كــلُّ حــيٍ منــه علــى مِيعــادِ
كيـفَ يُرْجَـى ثبـاتُ أَمْـرِ زمـانٍ هـو جـارٍ طبعًـا علـى الأَضـدادِ
فـإذا سـرَّ سـاءَ حتمًـا وَيَقْـضِي بوُجـــودٍ إلى بِلـــىً ونَفَـــادِ
نحــنُ في هــذه الحيــاة كَــسَفْرٍ ربمــا أُعْجلــوا عـــن الإِرْوادِ
عَرَّسُـوا سـاعةً بهـا ثـم نـادى بالرحيــلِ المجــدِّ فــيهمْ مُنــادِ
كــم أَبٍ والِـــهٍ بثُكْــلِ بَنيـــهِ كــم يَتــيمٍ فينــا مــن الأوْلادِ
فعَــلامَ الـمُــشاجَرَاتُ وفــيم؟ ولمــــاذا تحاســــدُ الحُـــسَّادِ؟
يَـــدَّعي المــرءُ إرْثَ أَرْضٍ وَدارٍ سَـــفَهًا غــيرَ لائــقٍ بالــسَّدادِ
وهــو مَوْرُوثُهــا إذا كــان يَبْقــى وهــي تَبْقَـى علـى مـدى الآبـادِ
وقُــصَاراهُ أن يُــشَيَّعَ مَحْمُـــو لاً بأكْفانِـــه علــــى الأَعــــوادِ
وإذا الأَهْـلُ والأَقـارِبُ والأَحْـسَـ ـساب راحوا فأنـتَ في الإِثْرِ غـادِ

فـالقبورُ البيـوتُ مَـضْجَعُنا فيــ ـها وما إنْ سِوَى الثَّرى من وِسادِ
كـم أَحـالَ البِلَـى إليـه قـديمًا جَـسَدًا ناعمًـا مـن الأجْـسادِ
شـاهدُ المـوتِ لائـحٌ في جبين الـ ـحَيِّ منـا في سـاعةِ المـيلادِ

والحقيقة أنّ شِعره في الزُّهد يُعدُّ في قمَّة أغراضه الشّعريّة بما تحقّق له من صدق في الفكر، ووضوح في الرُّؤية، وسموّ في العاطفة.

وقد مثَّل شِعر الحكمة تنوّعًا في المضامين الشّعريّة في الديوان، بثّه الشَّاعر في تضاعيف قصائده في صورة أبيات مفردة أتى بها كنتيجة لموقف إنسانيّ معيّن، خبره، ومسَّه لهيبُه، وهذا لا يعني أنّ قارئ شِعره لا يقف على بعض النُّتف التي خصَّصها للحكمة، فديوانه فيه الأبيات والنُّتف الحِكَمِيّة، منها قوله(٣٤):

وما المرءُ إِلاَّ من وَقَى الذمَّ عِرْضهُ وعـزَّ فـلا ذامٌّ لديـه ولا غِـشُّ
وليس بمن يرضى الدناءَةَ والخَنا طِباعًا ولا مَنْ دأْبُهُ الهُجْرُ والفُحْشُ

وتكثر أبيات الحكمة في رثائه، وفي شِعره الزُّهديّ، حيث يُفضي به عمق الحزن على المُتَوَفَّى إلى استخلاص نتيجة، تمثّل خلاصة تجربته في الحياة ونظرته لها، ومن حِكَمِه قوله(٣٥):

إنمـا هـذه الحيـاةُ غُـرورٌ كـسرابٍ بـدا لنـا في فِجَـاجِ
تُتْبِعُ الحلوَ مَن جَنَى عَيْشِها الحُلْـ ـو بمُـرٍ مـن الرزايـا أُجَـاجِ
نحـنُ فيها كمثـلِ ركـبٍ أَناخـوا ساعـةً ثـم أُرْهِقـوا بانزعـاجِ

وله أرجوزة جيّدة في الحكمة، بثَّ فيها آراءه في شؤون الحياة ومعاملات النَّاس وأهوال الآخرة، ومزج الحكمة بالنّصائح الحانية والتّوجيهات

الرّشيدة، وهذا يُعَدُّ في حدّ ذاته من سمات شِعر الحكمة لديه، الذي يستمدُّه من وحي تجاربه في الحياة، ومن ثقافته الدّينيّة التي أسعفته في استلهام بعض صور القرآن الكريم، وألفاظه في هذا الغرض الشِّعريّ.

وفي ديوانه أبيات تدور في فلك الشَّكوى، ومعانيه فيها ليست من التَّنوُّع بمكان، إذ لا تتجاوز الشَّكوى من الحرمان، والشَّكوى من الظُّلم، وشكايته من الحرمان واردة ضمن غرض الغزل والتَّشوّق، وهي شكاية محدودة بالقياس إلى شكايته من الظُّلم الذي حلَّ به من قِبَل بعض وجهاء "أُسوان"، ممّا ضيَّق عليه في معاشه، وجعل الدّنيا مظلمة أمامه حتَّى اضطر -وهو ابن الصّعيد- إلى المفاضلة بينها وبين "قُوص"، و"إسنا"، و"القاهرة"، وتفضيل "القاهرة" عليها جميعًا؛ لذا بادر إلى الرَّحيل عنها غير آسف على ما يفهم من قوله(٣٦):

وما الحظُّ منقوصًا بقوصٍ وإنها ... أَجلُّ محطٍ للغريبِ وللسَّفْرِ
وأُسنى بلادِ اللّه إِسْنا لساكنٍ ... وخيرٌ من الكلِّ الرحيلُ إلى مصرِ
فلستُ على أُسوان أَسوان بعدها ... وما أنا مجرٍ ذِكْرَهَا لي على فِكْرِ
فلا بارك الرحمنُ فيمن أَزاحني ... عن الظلِّ والماءِ الزُّلالِ الذي يجرِي
مَقيلٌ ولكن أينَ مِنِّيَ ظِلُّهُ ... وسُقْيا ولكنِّي بعيدٌ عن القطرِ

ففي هذه الأبيات شكوى مُرَّة، صادرة عن نفس معذّبة، ذاقت علقم المعاناة في الوطن، بعد أن ضاع سعيها، وضاع عمرها دون طائل، ومن ثم اندفعت إلى هجاء هذا الوطن ومَن به، والدُّعاء بالهلاك على مَن ضيَّق عليها. ومن شكاياته الصَّادقة قوله(٣٧):

أقلّي ملامي واطراحي وجفوتي		همـا أوجبـا لـي أن أفـارق دارك
أأوطـان أهلينـا وأوطارنـا بهـا		قليتك حتى قد رفضت ادكارك
أقـولُ لنفـسي إذ تزايـدَ ظُلْمُهُـمْ		فِـرَارَكِ مـن دارِ الهُوينْـا فِـرَارَك
فَلَلْمَـوْتُ خـيرٌ مـن مُقـامٍ مُـذَمَّمٍ		تَـرَيْنَ بـه بَـيْنَ الليـالي احتقـارَك
وفي غـيرِ أُسـوان مَـرَادٌ ومَـذْهَبٌ		فـلا تَجْعَلـي شَـرَّ النـواحي قَـرَارَك
فخيرُ بلادِ اللّهِ ما صـانَ مِـن أَذًى		وأَضـحى مَحـلاً للأمـيرِ مُبـارك

وهكذا يصرِّح في هذه الأبيات بكُرْهِه الشَّديد لـ"أُسوان" مسقط رأسه، وبتأَفُّفه منها ومن أهلها بعدما ناله فيها من أذًى، ممَّا اضطره إلى الفِرار منها إلى غيرهـا مـن المـدن، حيـث الأمـن والعـزّ. ومـن هـذه الـشكايات أيـضًا قوله[٣٨]:

لا تُطِيلـي علـى الرحيـلِ مَلاَمِـي		فلأَمْـــرٍ إمْـــرٍ كَرِهْـــتُ مُقـــامِي
أيُّ خـيرٍ في بلـدةٍ يـستوي ذو الــ		ــنقصِ فيهـا بفاضـلِ الأَقـوامِ
ضـاعَ سَـعْيِي ومـا أَفَـدْتُ مـن الآ		دابِ فيمـا مَـضَى مـن الأعـوَامِ
كـم كتـابٍ مثـلِ الكتائـبِ أَغْنَـى		عـنهمُ في العِـدا غَنَـاءَ الحـسامِ
كـم بقَـوْلٍ أَقَلْـتُ مـن عَثَـراتٍ		كـم كِـلامٍ أَسَـوْتُها بكَـلاَمِ
وَعْـدُهُمْ وَهْـوَ رِفْـدُهُمْ كَـسَرَابٍ		أو خيـالٍ مـن كـاذبِ الأحـلامِ
وإذا نَكْبَـةٌ عَـرَتْهُمْ وحَلَّـتْ		بـذُرَاهُمْ مـن الخُطـوبِ الجِسَامِ
فَهْيَ فَوْقِي تَحْتِي يَميني يَسَاري		وَوَرائـي مـن هَوْلِهـا وأَمـامِي
وإذا الأَمْـنُ عَمَّهُـمْ واسـتَقَرُّوا		خِفْـتُ مـنهمْ بـوادِرَ الانتقـامِ

فأنـا الدهـرَ في عَـذَابٍ إذا مـــا سَـخَطوا أوْ رَضُـوا عـن الأيَّـامِ

فهـو يـشكو في هـذه القـصيدة ارتكـاس القِـيَم، وانقـلاب المقـاييس في أُسوان، ممَّا أدَّى إلى خيبة أمله، وتبدُّد آماله وأعماله على الرّغم من تفانيـه في خدمة أهلها، ومدح عِليَةِ القوم فيها، وإرفـاده إيّـاهم بآرائـه الرّشـيدة، وإقالته عثراتهم، وتحمّله أعباءهم، ثم جحودهم لكلٍّ هذا، ومقابلتهم له بالإساءة، ويهجو حكّام المدينة بالجَور واللُّؤم، والخِسة والدَّناءة، والطَّمع والبطش وغير مما أحالها إلى ظلام بعد ضياء.

ويبدو أنّ الظُّلم الـذي تعـرَّض لـه في وطنـه كـان شـديد القـسوة، فـترك آثارًا غائرة في أعماقه، حملته علـى التَّـصريح بحسرته علـى مـا مـضى مـن عمره فيه دون طائل؛ ومن ثـمَّ جـاءت تجربتـه الـشِّعريّة في هـذه الـشكايات عميقة، وصادقة في العاطفة والتّعبير.

وأمّا الغزل لديه فيأتي في مقدّمات قصائده، ويأتي في مقطّعات مفردة، ولم تُعرف للشاعر محبوبةٌ واحدة، أوقف حبَّه عليها، وإنما تتردَّد في شِعره أسمـاء بعـض النِّساء مثـل: "سُعدى"، و"رَيَّـا"، و"قمـر". ويبـدو في غزلـه متطلِّعًا إلى المحبوب، صابرًا على أذاه وهجـره، متهالكًـا في عـشقه وغرامـه الذي صرَّح به في بعض مواضع من شِعره، منها قوله[٣٩]:

وإلاَّ غرامــي فيهمــا وصَــبابتي وكثـرة تقبيلـي هُمَـا دائمًـا لِمَـا

وقوله[٤٠]:

وإذْ غَرِيمِي غَـرَامٌ لـستُ أَفتَـرُ مِـنْ أَوْصـابهِ وعَـذَابي فيـه يَعْـذُبُ لـي

وهو يمزج غزله بتشوُّقه ولهفته إلى وصال المحبوب، ونيلِ رضاه في قوله[٤١]:

أَلاَ مَـنْ مُبْلِـغٌ سُـعْدَى بـأَنِّي ظَمِئْـتُ إلى مراشـفها العِـذَابِ
فـإني والمهيمـنِ مُنْـذُ بانَـتْ رأيـتُ الـشَّوْقَ مـن أَلَـم العَـذَابِ

وقوله[42] :

حللـتَ قلـبي فعـيني عليـكَ تَحْـسُدُ قَلْبَـا
فمـا أرَى البُعْـدَ إلاَّ قـد زادنـي منـكَ قُرْبَـا

وقوله[43] :

لـو كنـتُ أَعْلَـمُ أنـني أَلقـى لبُعـدكِ مـا لقيـتُ
لأَقَمْـتُ عنـدكِ مـا بقيـتُ على الحيـاةِ ومـا بقيـتُ
فلـئن نَعِمْـتُ بقـرْبكمْ فبِنَـأْيكُمْ عَنِّـي شَـقِيتُ

وغزله عفيف في معظمه وإن طلَّت علينا من بعض أبياته معاني الغزل الصَّريح، أتى فيها على وصف مفاتن المحبوب وما ناله منه، كما في قصيدته التي مدح بها الملك العادل، قال فيها[44] :

كم ليلةٍ نِلْتُ من نَيْل المُنَى وَشَفَت بذلك الوَصْلِ ما بالصدر من غُلَلِ
عُلِّقْتُهـا غِـرَّةً غَـرَّاءَ غُرَّتُهـا كالبـدرِ حَـفَّ بليـلٍ فـاحمٍ رَجِـلِ
صَدَّتْ وكم قد تَصَدَّتْ للوصالِ وما يُرْجي انعطافٌ لمَنْ قد صَدَّ عن مَلَلِ

وما من شكٍّ في أنّ غزله في هذه القصيدة يبتعد عن أمارات الصدق، أتى به لنيل إعجاب الممدوح، وقد امتطى هذا المنهج في قصيدة أخرى قالها في "ابن متوج"، وينساب غزله فيها على هذه الشَّاكلة[45] :

أَطَلْتَ من اللَّوْمِ المُرَدَّدِ والعَذْلِ عليَّ وإنِّي في الغرامِ لَفِي شُغْلِ

فما الحبُّ إلا النارُ والعَذْلُ عنده   هــواءٌ بــه يـزدادُ في قُــوَّةِ الفِعْــلِ
رَضِيتُ بسُلطانِ الهوَى مُتَسَلِّطًا   عَلَى مُهْجَتي في الحكْمِ بالجَوْرِ لا العَدْلِ
بقَلْـبيَ سَـهْمٌ لا بِقَلْبِـكَ صـائبٌ   رُمِيْتُ به عن سِحْرِ أَعيُنِها النُّجْـلِ
تَنــامُ خلــيَّ الحــالِ ممــا يُحِـسُّهُ   شَجٍ كُحِلَت عيناهُ بالسُّهْدِ لا الكُحْلِ
وإنَّ غَــزَالاً كالغزالــةِ وَجْهُــهُ   ضعيفُ القوى يَسْطُو بليثٍ أَبي شِبْلِ
ومَنْ خَصْرُهُ المهضومُ كَيْفَ مع الضَّنا   ينـوءُ بِـرِدْفٍ بـاهظٍ حَمْلُـهُ عَبْـلِ
وفي خـــدِّهِ نـــارٌ وَمَـــاءُ شــبيبةٍ   وما اجتمع الضدانِ إلاَّ عَلَى قَتْلِي
ومـشمولةٍ سُـقِّيتُهَا مـن رُضَــابِهِ   وما لي سوى تقبيل خَدَّيْهِ من نُقْـلِ
فمـــن شــفتيه كأسُــها وحَبابُهــا   يَرى عِقْدَ ثَغْرٍ عِقْدُهُ غيرُ مُنْحَلِّ

وهذا الغزل بعيد عن الصِّدق أيضًا، لم يصدر فيه الشَّاعر عن تجربة حقيقية، ذاق علقمها، واكتوى بنارها، وإنَّما أتى به في مقدمة القصيدة تقليدًا لمنهج مَن سبقه من الشُّعراء، وقد صرَّح بهذا بعد الغزل، حيث قال:

وإنـي وإن شَـبَّبْتُ لا عَـنْ شـبيبةٍ   فمَذْهَبُ قومٍ في القريضِ مَضَوْا قَبْلِي

وهـو دائـم الـشَّكوى في غزلـه مـن كـلٍّ مِـن الفـراق، وصـدّ المحبـوب، والحرمان، وشِعره في غزله المقطعيّ يتَّسم بالصِّدق الوجدانيّ بعكس غزله الذي افتتح به بعض قصائده المدحيّة، فيبدو أنه ما أتى به إلى للاستحواذ على إعجاب الممدوح، وجذب قلبه وسمعه إليه، كما في غزله السَّابق، وغزله المدرج في القصيدة التي مدح بها "شمس الدَّولة بن توران شاه"، فقد ذكر في بدايتها مواضع كثيرة في الشَّام، وتَشَوَّق إلى هذه المواضع؛ لأنّ قلب الممدوح متعلِّقٌ بها، فقال(٤٦):

أرقتُ لبرقٍ في الدُّجُنَّةِ مشبوبِ ... ودمع سحابٍ ناشئٍ منه مسكوبِ
فَمِنْ قلبِ صبٍ لَفْحُهُ وَخُفُوقُهُ ... كما غَيْثُهُ مِنْ مَدْمَعٍ منه مصبوبِ
ولم أَرَ نارًا من مياهٍ وَقُودُهَا ... أَلا إنَّ هذا من فُنون الأعاجيبِ
وبي جِنَّةٌ من ذكرِ جَنَّات جِلَّقٍ ... وَحنَّةُ مُشْتَاقٍ وأَنَّةُ مَكْرُوبِ
وفي شرف الوادي وفي النيربِ اغتدتْ ... مآربُ للغرِّ الكرامِ الأَعاريبِ
فيا بَرَدى هل جُرْعَةٌ منك عَذْبَةٌ ... لتبريدِ حَرٍّ في الجوانحِ مشبوبِ
ويا نهرَ ثَوْرًا قد أَثَرْتَ صَبَابَةً ... لقلبٍ شجٍ من لوعةِ الحبِّ مَنْدُوبِ
وهل لسراةِ الناسِ عِلْمٌ بأنني ... ظمئتُ إلى ماءٍ ببانَاسَ مَشْروبِ
وها أنا مستسقٍ لِمَزَّةَ مُزْنَةً ... كَفَتْها عُيونٌ مَدُّها من أَهاضيبِ
ويا ذا الجلالِ احرس حَرَسْتَا فَحُسْنُها ... شفاءٌ لمهمومٍ وداءٌ لمطبوبِ
ودومةُ دامَ العيشُ حلوًا بربعها ... وواهًا له لو أنه غيرُ مسلوبِ
وفي برزةٍ مكحولةُ الطرفِ بَرْزَةٌ ... تُصَبِّرُني للوجد منها، وتُغْرى بي
ويا حسنَ ولدانٍ تَرَامُوْا بطابةٍ ... فمن غالبٍ عند النضالِ وَمَغْلُوبِ
وَددْتُ حُلولي في رياضكِ حَلَّةً ... وهيهاتَ أين الشامُ من بلدِ النُّوبِ
بنفسيَ من تَجْنِي وأَحْمِلُ عَتْبَها ... وَيَعْذُبُ عَيْشي في هواها بِتَعْذِيبي
كظبيٍ يصيدُ الليث قَمْرًا فيغتدي ... من الرُّعْبِ مأسورًا بفتكةِ رعبوبِ
لئن قَصَّرتْ بالقصرِ عما أَلِفْتُهُ ... وقد كنتُ عنها قَبْلَها غير محجوبِ
فقد جَسَرَتْ بالجسرِ وهي جَبَانةٌ ... وزارت بليلٍ أَسودِ اللونِ غِرْبيبِ
نَعِمْتُ بها في جَنَّةٍ عُجِّلَتْ لنا ... بِجِلَّقَ إِذْ لَهْوِي بها غيرُ مَقْضُوبِ

ولعلَّ أهمَّ ما يتَّسم به غرض الغزل في شِعره هو ذلك الأسلوب الذي اتسم بالسَّلاسة، والبعد عن الغرابة، بفضل اختياره للألفاظ السَّهلة التي تتناسب مع هذا الغرض الشِّعري، وقد اقتربت سهولة ألفاظه في هذا الموضوع بأسلوبه إلى استعمال اللغة الشَّعبيَّة أحيانًا في قوله(٤٧):

لو كنتُ أَعْلَمُ أَنَّني ... أَلقَى لِبُعدِكِ ما لَقِيتُ
لأَقَمْتُ عندكِ ما بَقِيـ ... ـتُ على الحياةِ وما بقيتُ
فلئن نَعِمْتُ بقُرْبِكمْ ... فبِنأْيِكُمْ عَنِّي شَقِيتُ

ومن الأغراض التي شكَّلت تَنَوُّع المضمون في شِعره غرض الوصف؛ والحقُّ أنّ الوصف الذي قصد إليه قصدًا قليل في الديوان، لم يفرد له قصائد أو مقطَّعات مستقلّة، وإنما أتى به في ثنايا قصائد المديح، ويدلُّ ما بقي من شِعره في الوصف على تمكُّنه وإجادته فيه، وقدرته على التَّصوير الفَنِّي الدَّقيق، حتى ليبدوَ وكأنه رسَّام من طراز فريد، بما أتى فيه من صور جزئيَّة داخل صور كلِّيَّة، مستوعبة لهيئات الموصوف وألوانه، ناطقة بأبعاده، وخيوطه الدَّقيقة، من ذلك قوله يصف البستان والبركة والسَّواقي(٤٨):

كأنّ خريرَ الماءِ في جَنَباتِه ... أَنينٌ لمهجورٍ يَحِنُّ إلى وَصْلِ
جَدَاوِلُهُ تَجْري عُيُونًا كأنّها ... نُصُولُ سيوفٍ لامعاتٌ من الصَّقْلِ
وفوقَ قوامِ الغُصْنِ طيرٌ لِهَزِّهِ ... على أَلِفٍ للقَطْعِ ثُبِّتَ لا الوَصْلِ
وقد غَرَّدَتْ أطيارُهُ فكأَنَّها ... قِيانٌ تَطارَحْنَ الغناءَ على مَهْلِ
تصبُّ على فسقية ذوب فضة ... تفيض كما فاضت يمينك بالبذلِ

بـــساحة بـــستانٍ أنيـــقٍ مجـــاوز مـدى الوصـف مخضر الجوانب مخضلِّ

بنفـــسجُه آثـــار قـــرصٍ بوجنـــةٍ كحـسناء تاهـت بالـدلال وبالـدلِّ

ونرجـــسُه المبثـــوثُ فيـــه كأنَّـــه عيـون عـذارى نـاظرات إلى خـلِّ

وفي خدِّ ذاكَ الوردِ حَصباءُ لؤلـؤ يروقـك أهدتـه إليـك يـد الطـلِّ

وطابقهـا الـدولابُ في حُـسْنِ زَمْـرِهِ مطابقـةَ الـشكلِ الملائـم للـشكلِ

وأظهـرتِ الأسـحارُ سـرَّ نـسيمها بوَسْوَسَـةٍ كـالخَطِّ يُعْـرَفُ بالـشكلِ

فلـــذَّ لنـــا ذاك النـــسيمُ كأنَّـــه سِـرَارٌ تَهـادَاهُ الأحِبَّـةُ بالرُّسُـلِ

رسم الشَّاعر في هذه الأبيات لوحة فنيَّة عالية الجودة للبستان، وحاول أن ينقل إلينا صورته تامة الأركان، تموج بالحركة، وتَعِجّ بالأصوات، وتفيض بالحيويّة، من خلال وصف جداوله، وأزهاره المتنوِّعة، وصوت مائه، وتغريد طيوره، وغصون أشجاره، وألوانها، وندى أزهاره.

ويظهر توظيفه للتَّشبيهات الدَّقيقة الرَّقيقة، والاستعارات القريبة التي بثَّت الحياة في هذه اللَّوحة التَّصويرية الرَّائعة، فخرير الماء مثل أنين الحبيب المهجور، ومياه الجداول تتلألأ مثل السُّيوف اللامعة، وتغريد الطُّيور مثل غناء القيان، والجداول تفيض بالماء مثل إفاضة يد الممدوح بالكرم، والنَّرجس يشبه عيون الفاتنات من الفتيات، والسَّاقية تعزف لحنًا تجيب به على تغريد الطُّيور، وكأنهما يشتركان في أداء سيمفونيّة عذبة، وسريان النّسيم كسريان أسرار المحبّين فيما بينهم. وكلّ هذه الصّور جزئيّة، وشَّى بها الشَّاعر لوحته الكُلّية، وزَركَشَ بها خيوطَها، ممَّا جعلها تسترعي الأبصار، وتخلب الألباب، ويعجبني من هذه الصُّور الآسرة تلك الصُّورة

التي جعل فيها الشَّاعر للورود خدودًا، وجعل للطَّلِّ يدًا، وشبَّه قطرات النَّدى بقِطَع اللُّؤلؤ، وجعل يدَ الطَّلِّ تُغدقُ سكب اللُّؤلؤ على خدودِ الورودِ. حقًّا إنَّها صورة فريدة، ولها نظائر كثيرة في ديوان هذا الشَّاعر، وهي تدلُّ على مكانته في دوحة الشِّعر العربيّ بصفة عامة، وإجادته لفنِّ الوصف بصفة خاصّة.

وثمَّة موضوعات شعريّة أخرى في ديوانه، ولكن ليس لها حضور الموضوعات السّابقة، منها: الشِّعر الاجتماعيّ، الذي قاله في بعض المناسبات بحكم علاقاته ببعض إخوانه وأصدقائه، من هذه الموضوعات التَّهنئة بمولود في قوله(٤٩):

قد أَطلعَ اللّهُ لنا كوكبًا ... أَضاءَ شرقَ الأرضِ والمغربَا
قادمُ سَعْدٍ يَقْتَضِي سَعْدُهُ ... سعادةَ الوالدِ إذْ أَنْجَبَا
والأَصْلُ إنْ طابَ ثَرَى غَرْسِهِ ... أَنْبَتَ فَرْعًا مُثْمِرًا طَيِّبَا
مَوْهِبَةٌ خصَّ بها اللّهُ مَنْ ... أَصْبَحَ للنعمةِ مُستَوْجِبَا
فَدُمْ قريرَ العينِ حَتَّى تَرَى ... خَلْفَكَ من إخوته مَوْكِبَا

ومنها عيادة المريض في قوله(٥٠):

قد قلتُ ليت الشَّكَاةَ قَدْ نَزَلَتْ ... بِمُهْجَتي لا بأَوْحَدِ العَرَبِ
ليستْ بِحُمَّى وإنما اشْتَعَلَتْ ... نيرانُ فرطِ الذكاء باللهبِ
قد خَلُصَ الجسمُ من أذاه كما ... تَنْقَى بِسبكٍ خُلاَصةُ الذَّهَبِ

ويُلحظ أنه صاغ شِعره في هذا الغرض على صورة مقطّعات بأسلوب سلسٍ، ولغة عذبة، ودلالات قريبة التناول.

ومن الأغراض التي كشفت عن تنوُّع المضمون في الدّيوان غرض الهجاء، ونماذجه فيه قليلة، لا تتجاوز أبياتها أصابع اليدين عدًّا، وهذا يدُلُّ على أنه لم يلجأ إليه إلا في أضيق نطاق، وتحت اضطرار منه، بدليل أنه اعتذر في مقطّعة من هجاء صدر عنه، ولكن الأمر الملحوظ في تناوله هذا الغرض أنَّه أتى به أيضًا في شكل نُتف، وهذا له دلالته التي أفصح عنها ابن الزِّبَعْرَى (ت ١٥هـ) وقد قِيل له: "إنَّك تقصر أشعارك! فقال: لأنّ القصار أولج في المسامع، وأجول في المحافل"[٥١].

وهجاء ابن عرَّام المتبقِّي قاسٍ أشدّ القسوة، مؤلم أشدّ الإيلام للمهجُوِّ بما وفَّر له من وسائل تحقِّق القسوة والإيلام، فقد وظّف فيه عنصرَيْ التّصوير والسُّخرية في قوله[٥٢]:

يا سائرًا في غير نَهْجِ التُّقَى   وسادرًا في غَيِّهِ خابِطَا
فَحْلٌ كما يَزْعُمُ لكِنّهُ   .... للمُرْدِ غدا لائِطَا

وقوله[٥٣]:

شاعرُنا ذو لحيةٍ   قد عَرَضَتْ وانفَسَحَتْ
لحيةُ تيسٍ صَلُحَتْ   .... قد سَلَحَتْ

فيُلحظ أنه طرق المعاني التي تدلُّ على فسق المهجوِّ، ومروقه من الدِّين، وقماءته، وغيرها ممَّا يسلب عنه كلَّ فضيلة.

وفي شِعر ابن عرَّام قصيدة قالها في الشَّكوى ومزجها بالهجاء، ولكنّ هجاءه فيها مختلف، ومناط الاختلاف أنَّه لم يسدِّده إلى شخص بعينه، إنما سدَّده إلى مدينة أُسوان، لذا فهذا الأنموذج يُضَمّ إلى هجاء المدن، هجا

فيها هذه المدينة بخرابها، وانعدام خيرها، واختلال مقاييسها، وضلال حكَّامها، وغدر أهلها، وبخلهم، ودناءتهم في قوله(٥٤):

أيُّ خيرٍ في بلدةٍ يستوي ذو الـ ـنقصِ فيها بفاضلِ الأَقوامِ
ليسَ دنياهمُ لغيرِ عبيدٍ أَدنياءِ النفوسِ من آلِ حامِ
حكَّمُوهُمْ فيها وفيهمْ فعادوا كلُّ رأسٍ منهم بغيرِ زِمامِ
وتولَّوْا تدبيرَها وهي كالشمـ ـسِ ضياءً فأصبَحَتْ كالظلامِ
فَدَعُونا لا تأخُذُوا ما بأيديـ ـنا وَرُوحُوا يا ويحكمْ بسلامِ

والمعاني التي طرقها في شتَّى أغراضه السَّابقة تَتَّسم بالوضوح وقرب التناول، وهي في مجملها صحيحة وظَّفها توظيفًا دقيقًا فجاءت متَّسقة مع ما سِيقت من أجله في إصابة الأغراض، وقد أضفى استلهامه لمعاني القرآن الكريم وصوره واقتباسه من ألفاظه عنصر الصِّدق والوضوح، ومن ثمَّ كان لها الوَقع الأكبر في النُّفوس، ومنها(٥٥):

أكثرُ العُمرِ قد مَضَى فَتَزَوَّدْ بالتُّقَى للرَّحِيلِ قبل المماتِ
وعلى السيِّئاتِ تقدم إن قد دمتها في غدٍ أو الحسناتِ

واضح أنه تأثَّر في مضمون هذين البيتين بقوله تبارك وتعالى: ﴿وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ﴾(٥٦)، وقوله تبارك وتعالى: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا﴾(٥٧). ومنها قوله(٥٨):

وجميع ما فوق البسيـ ـطة مستحيل الحال فانْ

كما تأثر في هذا البيت بقول الحقّ تبارك وتعالى : ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴾[٥٩]. ومنها قوله[٦٠]:

مَــوْرِدُ المــوتِ واضــحُ   ليس حيٌّ من الحِمَامِ بناجِ
وســـواءٌ لديـــه ثـــاوٍ   أوْ بقـصر مُشَيَّدِ الأَبــراجِ

وكذلك تأثّر في هذين البيتين بقول الحقِّ تبارك وتعالى : ﴿ أَيْنَمَا تَكُونُواْ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ﴾[٦١]. ومنها قوله[٦٢]:

وتـب وأضـمر زهـدًا وإلا   فليس في الحشر من صياصِي

فهو ينظر إلى اللَّفظ القرآني في سورة الأحزاب في الآية الكريمة : ﴿ وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ ﴾[٦٣].

وينظر الشَّاعر في بيته التَّالي[٦٤]:

وقد مَسَّني الضرُّ حتى لَجَأْتُ   إلى كَنَـفِ الفاضِــلِ الفاضِــلِ

إلى قول الله ﷻ : ﴿ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾[٦٥].

والأمر الملحوظ فيما تمَّ جمعه من شِعره اشتماله على بعض المعاني، كانت أثيرة لديه؛ لذا كان آثر تَكرارها في أماكن متفرّقة مِن شِعره، منها المعنى الذي يفصح عن تفريق الموت بينه وبين مَن يصرُّ على هجره أو كُرْهِ رُؤيته على ما يتَّضح من قوله[٦٦]:

إِنْ تَمَادَى الهِجْرَانُ منك اتِّصالا   صَـيَّرَ الحُـبَّ بيننـا ذا انفـصالِ
وصَـدودُ الـدَّلالِ إن زادَ أَفْـضَى   بـك عنـدي إلى صُـدودِ الْمَـلالِ
واعتقـادي أنْ لـوْ صَبَرْت قليلاً   فَرَّقَـتْ بيننـا صـروفُ الليـالِي

وهذا المعنى كرَّره في قوله(٦٧):

كَرِهتُمْ مُقامي فارتحلتُ ولم يكُنْ مَسِيريَ عنكم لا مَلالاً ولا بُغْضَا

ولو قد صَبَرْتم فرَّقَ الدهرُ بَيْنَنا بِموتٍ إلى أن لا يَرَى بعضُنا بَعضَا

والمعاني المطروقة في ديوانه في مجملها مألوفة وشائعة لدى كثير ممَّن سبقه من الشّعراء، باستثناء بعض المعاني الدّقيقة التي لم يشع تداولها بين كثير من الشعراء، منها تلألأ شاهد الموت في جبين المولود لحظة ولادته في قوله(٦٨):

شاهدُ الموتِ لائحٌ في جبين الـ ـحَيِّ منا في ساعةِ الميلادِ

ومنها: بثه الطُّمأنينة في نفس المريض بأنّ ارتفاع درجة حرارة جسده ليست من مرض الحمّى، وإنما من فرط الحصافة، واتِّقاد الذَّكاء، وذلك في قوله(٦٩):

ليستْ بِحُمَّى وإنما اشْتَعَلَتْ نيرانُ فرطِ الذكاء باللهَبِ

قد خَلُصَ الجسمُ مِن أذاه كما تَنْقَى بِسبكٍ خُلاَصةُ الذَّهَبِ

ومنها: حسد بعض أعضاء الجسم لبعضها لاستئثارها بالمتع في قوله(٧٠):

حللتَ قلبي فعيني عليكَ تَحْسُدُ قَلْبَا

فما أرَى البُعْدَ إلاّ قد زادني منكَ قُرْبَا

ومنها: تصوير الحبّ بالنّار، والعذل بالهواء واشتعال الحبّ بالعذل، كاشتعال النّار بالهواء، وذلك في قوله(٧١):

فما الحبُّ إلا النارُ والعَذْلُ عنده هواءٌ به يزدادُ في قُوَّةِ الفِعْلِ

(للبحث صلة)

الهوامش:

* **تنويه:**

بعد أن أرسلت هذا البحث إلى هذه المجلة الغراء، في شهر مارس ٢٠١٢م، وبعد عودتي في الإجازة الصيفية لهذا العام من السعودية إلى مصر، وقفت مصادفة بتاريخ ٢٠١٢/٨/١٢م على **حولية كلية اللغة العربية بالمنوفية** لعام ٢٠١١م، وبها بحث بعنوان: "شِعر عليّ بن عرّام (ت ٥٨٠ هـ)" للدكتور بديع عليوة، درس فيه شِعر ابن عرّام، ثم أردف الدراسة بثبت لأشعار الشاعر. وبعد النظر فيه، وعرضه على عملي المرسل إلى هذه المجلة رأيت أنّ دواعي نشر عملي الذي يضمّ الدراسة المرسلة إلى هذه المجلة، وتحقيق الشِّعر المرسل إلى **مجلة آفاق الثقافة والتراث** في الشهر نفسه لا تزال قائمة؛ لذا لم أسحب أيًّا منهما، وتركتهما على حال إرسالهما، واكتفيت بإرسال هذا التنويه إلى المجلتين لوضعه في نهاية عملي، ومن هذه الدواعي في تحقيق النص الشعري: الزيادة عندي في عدد النصوص والأبيات الشعرية التي تربو على (١٢٠) بيتًا، وتكثيف التخريج، وتثبيت الروايات، وضبط النصوص، والالتزام بالمنهج. ومن الدواعي في الدراسة: اختلاف اللغة والأسلوب، الموضوعات المدروسة، وتوظيف النصوص في الموضوعات، والإحصائيات الإيقاعية، والنماذج المطروحة في الدراسة. وكل هذا أفضى إلى الاختلاف في النتائج المستنبطة.

وللأخ الفاضل الدكتور "بديع" فضل السبق في الالتفات إلى شِعر هذا الشاعر، فاستحق هنا التنويه بريادته، والشكر على جهده، ولو كنت أعلم بجهده أثناء إعداده لتوقفت. هذا وبالله التوفيق، ومنه العون والسداد.

** أستاذ الدّراسات الأدبيّة والنقديّة بجامعتي الأزهر والطائف.

(١) مصادر ترجمته هي: **خريدة القصر وجريدة العصر**: للعماد الأصفهاني (ت ٥٩٧هـ) (قسم شعراء مصر)، تحقيق: إحسان عباس وآخرين، مطبعة درا الكتب المصرية، ٢٠٠٥م، ١٦٥/٢؛ و**الوافي بالوفيات:** للصفدي (ت ٧٦٤هـ)، تحقيق: نخبة من المحققين،

دار النشر: فرانز شتاينر، نشر على سنوات متعددة، ٣٦٥/٢٠، وما بعدها؛ و**الطالع السعيد الجامع أسماء نجباء الصعيد**: لجعفر بن ثعلب الأدفوي (ت ٧٤٨ هـ)، تحقيق سعد محمد حسن، الدار المصرية للتأليف والترجمة والنشر، ١٩٦٦م، ٣٧١، وما بعدها؛ و**حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة:** للسيوطي (ت ٩١١هـ)، تحقيق: محمد أبي الفضل إبراهيم، دار الفكر، القاهرة، ١٩٩٨م، ٥٦٥/١؛ و**الأعلام**: لخير الدين الزركلي (ت ١٣٩٥هـ)، دار العلم للملايين، ط٥، ١٩٨٠م، ٦١/٥؛ و**معجم المؤلفين**: لعمر رضا كحالة (ت ١٤٠٨ هـ)، مؤسسة الرسالة، بيروت، د.ت، ٢٠/٧.

(٢) تنظر ترجمته في: **خريدة القصر وجريدة العصر** (قسم شعراء مصر) ١٨٦/٢، و**معجم الأدباء**: لياقوت الحموي (ت٦٢٦هـ)، تحقيق: إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، ١٩٩٣م، ٢٧٧٦-٢٧٧٧ وما بهامشيهما من مصادر.

(٣) ينظر في ترجمته: **أعيان العصر وأعوان النصر**: للصفدي (ت٧٦٤هـ)، تحقيق: علي أبي زيد وآخرين، دار الفكر، دمشق، ١٩٩٨م، ٦٥٧/٢، وما بهامشه من مصادر.

(٤) تنظر ترجمته في **الطالع السعيد** ص٤٦٠.

(٥) تنظر ترجمته في **أعيان العصر في أعوان النصر** ١٨٦/١.

(٦) تنظر ترجمته في **الطالع السعيد** ص٧٣٦.

(٧) ينظر **الوافي بالوفيات** ٣٦٦/٢٠، حيث قال الصفدي: "وله تصانيف كثيرة في كل فن".

(٨) ينظر **الطالع السعيد** ١٣٠، وبنو الكنز بطن من ربيعة قدموا مصر حوالي عام (٢٤٠هـ)، ونزلت طائفة منهم في أعالي الصعيد. ينظر هامشه.

(٩) ينظر دراسة المديح والرثاء في السطور التالية للوقوف على من اتصل بهم.

(١٠) تنظر المقطّعات والقصائد ذوات الأرقام: (٣١) (٤٠)، (٦٦) ودراسة شِعر الشكوى في السطور التالية.

(١١) يذهب العِمَاد الأصفهاني في ترجمته للشاعر بأن لم يغادر وطنه، حيث: "وهجَر في لزوم وطنه الرحلَ والقَلُوص. وسألتُ عنه بمصر سنة ثلاث وسبعين فقيل: إنه حيٌّ

في أُسوان، وهو على حظه أَسوان". بيد أنني استنتجت رحيل ابن عرَّام عن أسوان من تصريحاته في شِعره، ومن المهام المسندة لممدوحيه في أماكن متعددة من الدولة العربية آنذاك.

(١٢) بلغت الحصيلة الشعرية المجموعة حوالي (٤٠٠) بيت موزعة على (٧٢) قصيدة ومقطوعة ونتفة.

(١٣) كان واليًا على قوص وأسوان. ينظر في أمره كتاب: **خريدة القصر** (قسم شعراء مصر) ١٦٧/٢.

(١٤) سلطان اليمن، أخو الملك الناصر صلاح الدين الأيُّوبي، وكانت بلاد الصعيد له من أخيه قبل اليمن. تنظر ترجمته في **خريدة القصر** ١٦٩/٢، و**الوافي بالوفيات** ٤٤١/١١، وما بهامشه من مصادر.

(١٥) محمد بن أيُّوب بن شادي، أبو بكر سيف الإسلام، أخو الملك الناصر صلاح الدين الأيُّوبي، ولد في دمشق أو في بعلبك عام ٥٣٨، أو عام ٥٤٠، وتوفي عام ٦١٥هـ، أحد سلاطين الدولة الأيُّوبية، تولى السلطنة بمصر، وحلب، والكرك، وأرمينية، واليمن. تنظر ترجمته في **الأعلام** للزركلي ٤٧/٦، وما به من مصادر.

(١٦) مجد الدين، أبو الميمون، سيف الدولة، المبارك بن كامل بن منقذ، ولد بقلعة شيزر عام (٥٢٦ هـ)، وتوفي عام (ت ٥٨٩ هـ)، صاحب الآراء الحصيفة، والهمّة العالية، والعقل الرشيد، من بيت فضل وكرم، أحد أمراء الدولة الصلاحية، ولي بمصر أمر الدواوين، ورتبه صلاح الدين نائب توران شاه لما توجّه إلى اليمن في زبيد. ينظر في ترجمته: **الوافي بالوفيات** ٨٨/٢٥-٨٩، وما بهامشه من مصادر.

(١٧) هو مالك بن محمد بن شيبان الطودي: أحد أعيان الصعيد وأمرائه في القرن السادس الهجري. ينظر هامش **خريدة القصر** ١٧٩/٢.

(١٨) كان مقيمًا في أسوان، وهو خارجي، تمرد على الدولة الصلاحية ونبذ الطاعة هناك، والتف حوله خلق عظيم من السودان والعبيد وغيرهم، وعاث في البلاد فسادًا، فجهز الملك العادل جيشًا جرارًا، وقمع التمرد، وقتله عام (٥٩٠ هـ). ينظر في أمره: كتاب **جمهرة الإسلام ذات النثر والنظام**: للشيزري (ت ٦٢٢هـ)،

تحقيق: محمد إبراهيم حور، المجمع الثقافي، أبو ظبي، ٢٠٠٥م، ١٩٩-٢٠٠.

والقصيدة التي صرح العِمَاد الأصفهاني بأنّ ابن عرَّام قالها فيه لا تشتمل لا على مديح، ولا على هجاء، وتشتمل على أبيات كثيرة في الغزل مما يرجح أنها في المديح، وربما يكون هذا المديح -إن صحّ هذا الحدس- ثم تأليف ابن عرَّام كتاب **تاريخ بني الكنز** من الأسباب التي جرّت عليه بعض المنغصات في أسوان بعدما قضى الملك العادل الأيُّوبي على فتنة "كنز الدولة بن متوج"، مما اضطر ابن عرَّام إلى الفرار من أُسوان، ومدح بعض أمراء الدولة الأيُّوبيّة.

(١٩) طرح الشَّاعر هذه المقدّمة في مدحه لعزّ الدّين موسك النّصري.

(٢٠) القصيدة رقم (١٢).

(٢١) القصيدة رقم (٥٩).

(٢٢) القصيدة رقم (٤٥).

(٢٣) القصيدة رقم (٥٩).

(٢٤) القصيدة رقم (٧١)، وتنظر مثلاً القصيدة رقم (٧).

(٢٥) القصيدة رقم (١٢).

(٢٦) النتفة رقم (٢٦).

(٢٧) القصيدة رقم (٧)، وتنظر القصيدة رقم (٩).

(٢٨) القصيدة رقم (٤١)، وينظر في الرثاء المقطّعة رقم (٢٠)، والمقطّعة رقم (٢٨)، وهي في رثاء أبي عبد الله الأُسواني، محمد بن رائق. ينظر **الطالع السعيد** ص٥٢٠.

(٢٩) نتفة (٥٣)، وتنظر القصيدة رقم (٥٣).

(٣٠) المقطّعة رقم (٦٠).

(٣١) القصيدة رقم (٥٩).

(٣٢) المقطّعة رقم (٤٣).

(٣٣) القصيدة رقم (٣٢).

(٣٤) النتفة رقم (٤٤).

(٣٥) المقطّعة رقم (٢٠).

(٣٦) المقطّعة رقم (٤٠).

(٣٧) القصيدة رقم (٥٥).

(٣٨) القصيدة رقم (٦٦).

(٣٩) النتفة رقم (٦٥).

(٤٠) القصيدة رقم (٥٧).

(٤١) نتفة رقم (٢).

(٤٢) النتفة رقم (٣).

(٤٣) المقطّعة رقم (١٣).
(٤٤) القصيدة رقم (٥٧)
(٤٥) القصيدة رقم (٥٩).
(٤٦) القصيدة رقم (١٢).
(٤٧) المقطّعة رقم (١٣).
(٤٨) القصيدة رقم (٥٩).
(٤٩) المقطّعة رقم (٦).
(٥٠) المقطّعة رقم (٨).
(٥١) **التمثيل والمحاضرة** لأبي منصور الثعالبيّ (ت٤٢٩هـ)، تحقيق: عبد الفتَّاح الحلو، الدار العربية للكتاب، ط٢، ١٩٨٣م، ١٨٦.
(٥٢) النتفة رقم (٤٩)، وضعت نقاطًا مكان كلمتين مكشوفتين في هذه النتفة والنتفة التالية.
(٥٣) النتفة رقم (١٥).
(٥٤) القصيدة رقم (٦٦).
(٥٥) المقطعة رقم (١٦).
(٥٦) سورة البقرة، الآية رقم (١٩٧).
(٥٧) سورة فصلت، الآية رقم (٤٦).
(٥٨) المقطّعة رقم (٦٨).
(٥٩) سورة الرحمن، الآيتان: (٢٦، ٢٧)
(٦٠) المقطّعة رقم (٢٠).
(٦١) سورة النساء، الآية رقم (٧٨).
(٦٢) المقطّعة رقم (٤٣).
(٦٣) سورة الأحزاب، الآية رقم (٢٦).
(٦٤) القصيدة رقم (٥٢).
(٦٥) سورة الأنبياء الآية رقم (٨٣).
(٦٦) المقطّعة رقم (٦١).
(٦٧) النتفة رقم (٤٧).
(٦٨) القصيدة رقم (٣٢).
(٦٩) المقطّعة رقم (٨).
(٧٠) النتفة رقم (٣).
(٧١) القصيدة رقم (٥٩).

وسائل المفارقة البديعية في شِعر أبي تمّام

بقلم: د. هاني علي سعيد*

توطئة:

الحمد لله الذي بنعمته تتمّ الصالحات، وبفضله ومنِّه تحصُل البركات، وأصلِّي وأسلّم على النبيّ الخاتم محمدٍ ﷺ أتمَّ وأفضلَ الصلوات، وبعد:

فما لي ألا أقولَ -مطابقًا مقتضى الحال-: إنّ أبا تمّام يُعدُّ أبرزَ مَنْ رفعوا لواءَ ((إسقاطَ نظام الشِّعر!)) وقد نجح في تحقيق ما دعا إليه، برغم كثرة الصدامات مع ممثلي السُّلطةِ اللغويةِ والنقديةِ في عصره وبعد عصره. وقد استطاع في هذه المجابهة مع عمود الشِّعر وأنصاره أن يبني للشِّعر العربي أبعادًا جديدة، أخرجه فيها من حيّز النمط أو النسق السائد، إلى منهجيةِ التثوير الدلاليّ والبديعيّ.

ومن هذا المنطلق يأتي وقوف البحث على لونين مهمَّين من فنون البديع في شِعره، "التهكم والسخرية"، "والهزل الذي يراد به الجِد"، اللذين عدّهما البحث وسائل لما يُعرف حديثًا بفن المفارقة، التي تعدّ من أَهَم ما يُميّز لغة الشِّعر عن لغة العِلْم، وذلك لقيامها على إبراز حِدّة التضاد أو

التناقض؛ وهو أبعد ما تكون لغة العلم عنه؛ لذا لم يكُن من المُبالَغ فيه أَنْ يقول أحَدُ الباحثين: إنّ «الشِّعر العربيّ قديمه وحديثه، اعتمد في بناء نسيجه على عنصر المفارقة. وأنّ أغلبَ القصائد الشهيرة في الشِّعر العربيّ تعتمد في شِعريتها وبنائها اللسانيّ على المفارقة وعمودها الفِقري التضاد»[1].

ومن تعريفات المفارقة التي تُظهر ما فيها من تناقض، تعريف "خوسيه ماريا" بقوله: «المفارقة La paradoja: وتتمثَّل في الجمع بين فكرتين متعارضتين، أو لا يُمكن الجمع بينهما. وغالبًا ما يكمُن خلف التناقض الظاهر معنى عميق يجمع بين الفكرتين»[2].

وشِعر أبي تمّام مليئ بالمفارقة في كل زاوية من زواياه، ومرجع ذلك يكمُن في رؤيته للواقع من حوله، فهي رؤية معقّدة مُركّبة، تقوم على فلسفة الموجودات، وإظهار التباين في التشابه، والنّفاذ إلى عمق الأشياء، وكشف التناقض فيما أَلِفَتْه الطبائع، وهو ما يحتاج إلى دراسةٍ جادة تكشف عن أبعاد هذا العنصر المهمّ في شِعره، ولعلنا ننجح في هذه الصفحات أن نكشف عن جمالية المفارقة في شِعره، وذلك من خلال وسائل تراثية بديعية، نعنى باثنين منها، وهما فن التهكم والسخرية، وفن الهزل الذي يراد به الجِدّ.

أوّلاً- التهكّم والسُّخرية:

وقد عبّر عنه ابن أبي الإصبع المصري (ت ٦٥٤هـ) بقوله: «وهو في الاستعمال عبارة عن الإتيان بلفظ البشارة في موضع الإنذار، والوعد في مكان الوعيد، والمدح في معرض الاستهزاء»[3]. ويكمن العدول في

أسلوب التهكم في أنّ البنية السطحية للصياغة لا تتوافق والمقامَ أو الحال الذي صيغت مِنْ أجله، ممّا يُعوّل على المتلقّي أن يربط بين الخيط الدلالي فيما بَيْنَ الصياغة وسياقها، ليكتشف سرَّ هذا التخالف، وذلك من خلال الوصول إلى دلالة التهكم والسخرية في البنية. وقد أشار بدر الدين بن مالك (ت ٦٨٦هـ) إلى هذه المخالفة في أسلوب التهكُّم، حين عرَّفه بقوله: «التهكم: إخراج الكلام على ضدّ مقتضى الحال، استهزاءً بالمخاطب وغيره، أو تعريضًا بقوة المحرّك للغضب»[٤]، كما أنّه بيَّنَ القاعدة العامَّة للتهكم، فقال: «ثم أُطْلِقَ التهكمُ على كل كلام أُخْرِجَ استهزاءً على ضدّ مقتضى الحال»[٥]، وحَوْل علاقة المفارقة بفنّ التهكّم والسخرية بيَّن الدكتور حسني عبد الجليل يوسف أنَّ «المفارقة أعمّ من التهكم والسخرية، وفي إطار المفهوم الأدبي للمفارقة نقول إنه ليس كل تهكّم وسخرية مفارقة، بِمَعْنى أَنَّ التهكم الذي لا يقوم على إبراز التناقض بين طرفين تهكّم لا يتصل بالمفارقة، وأنّ المفارقة التي لا تتصل بالسُّخرية -ظاهرة أو باطنة- ليس تهكمًا. لكننا رغم ذلك نستطيع أن نلمح في كثير من صور التهكم نوعًا خفيًّا من المفارقة، كما نستطيع أن نلمح في كثير من صور المفارقة نوعًا خفيًّا من التهكم»[٦].

ومما جاء فيه التهكم في شِعر أبي تمّام معتمدًا على مجيئ الهجاء في معرض المدح، قوله يهجو محمّد بن يزيد الأموي الشاعر[٧]: (الخفيف)

بَخْ بخٍ لَمْ يُدانِ جُودَكَ يا أز ... هرُ كَعْبٌ ولا مُبارِي الرِّياحِ
كِدْتَ تُدْعى لو أَنَّ خلفَكَ قُدَّا ... مَكَ في الحربِ يا حُدَيّا الرِّماحِ[٨]

يُتابِعُ المتلقِّي قراءة البيتين من خلال مَعْنى المدح والاستحسان، الَّلـذينِ تشي بهما الصّياغة مـن خـلال تعـبيره بـ(بـخ بـخٍ)[9]، و(يـا حُـدَيّا الرّمـاح) وهما في ظاهرهما للمدح، لكن بالارتداد إلى السّياق (كما يُظهره الغرض الـشعريّ) نجـد أنّ المعنـى لا يُمكـن صَـرْفه إلى المـدح، وإنّمـا إلى الـتهكم والـسخرية، ممَّـا ينـتج دلالـةً تتنـاقض مـع مـدلول البنيـة الـسطحية، فيظهـر مدلول آخر جديد هو (الذّم).

- البنية السَّطحية: ⟵ (المدح)   - البنية العميقة: ⟵ (الذّم)

ولم يكـن الـسِّياق الـدَّال علـى الهجـاء هـو الموجّـه الوحيـد الـذي وجّـه المتلقِّي إلى دلالة الـتهكُّم والـسخرية، بـل كَيَّـفَ الطائي صـياغته بمـا يُـدلّل على أنّه أراد التهكُّم، وذلك مِنْ مثل قولـه: (لـو أنّ خَلَفـك قُـدَّامك) فهـو يستشهد بالُمحـال علـى أَنْ يكـون المهجـو مـن المـبرَّزين في الحـرب، أو مِمَّـن يتحدّى الفرسان فيها، مما يَدُل على الاستهزاء والسخرية به.

وقد جاء الدّافع وراء تكييف الـصياغة بأسـلوب الـتهكم دافعًـا نفـسيًّا، يتمثَّل في (قوّة المحرّك للغضب) كما سمَّـاه بـدر الـدين بـن مالـك[10]، وقـد تمثَّل هذا المحرّك في الغضب الشديد الذي صبَّه أبـو تمّـام علـى المهجـوِّ، مـن خـلال مـا وسَـمَه بـه مـن أنـه ابـن سِـفاح، وغـير ذلـك مـن ألفـاظ الـسّباب والشَّتم[11].

وقـد يـأتي أسـلوب الـتهكُّم مـن خـلال اقتـسام الـصّياغة لألفـاظ المَدْح والـذّم، حتـى إنّ المتلقِّـي ليقـفُ حَيْـران إزاء نـسبة المعنـى إلى هـذا أو ذاك، وذلك لتوازن ألفاظ المدح والذم في الصياغة، غـير أنّ الـسّياق يكـون بمثابـة

المفتاح الذي يفتح مغاليق الصياغة، من خلال وصول المتلقِّي لمدلول التهكم والسخرية، ومن أمثلة ذلك قول أبي تمّام في بابك الخُرّميّ حين صُلِب: (الكامل)

لا كَعْبَ أَسْفلُ مَوْضِعًا مِنْ كَعْبِهِ مَعَ أَنَّهُ عَنْ كُلِّ كعْبٍ عَالِ

سَامٍ كأنّ العِزَّ يجذبُ ضَبْعَهُ وسُمُوُّهُ مِنْ ذِلّةٍ وسَفَالِ(١٢)

اقتسمت البنية السطحيّة معاني المدح والذم الموزّعة في أشطر البيتين، مِمَّا يحكم بتوتر الدلالة عند المتلقِّي، التي تظل في شدٍّ وجذبٍ إلى أن يقع على السياق، الذي يستبينُ من خلاله أنّ البيتين قد قالهما الطائي في (مصلوب)، هذا المصلوب بما ناله من الصَّلْبِ والتنكيل ليس أحدٌ أسفلَ منه، وبالنظر إلى المقصلة التي عُلّق عليها، فليس أحدٌ يطَولُ علوَّه، كما أنّه في علوِّه هذا قد سَمَا كما يسمو العزيز، لكنّ سموّه هذا إنما بلغه بسبب ذلّته وسفالته، وبهذه القراءة تغيب تمامًا أيّ إشارة إلى المدح، وتحضر دلالة التهكّم والسُّخرية متلَبّسةً بالمفارقة التي جاءَتْ «من أقوى الدلائل على حرية التصور. وقوة النّفاذ في الأشياء، بحيث تدرك في المألوف السَّائد معنى جديدًا لم تنتبه إليه الأذهان، وهذا المعنى الجديد نقيض لذلك السَّائد، ومن ثَمَّ تكون هذه "المُخَاتَلة" الفنّية سببًا للدهشة والإعجاب»(١٣).

ومن صور التهكّم -أيضًا- إظهار الصياغة في صورة الإجلال، والمرُاد التحقير، ومن ذلك قول الطائيّ في عَيّاش بن لهيعة بعد موته: (الكامل)

أَعْزِزْ بعيَّاش عليَّ مُغَيّبًا في غير حُفْرَتِه الحِجَى والخِيْرُ(١٤)

فلم يشفع موتُ عيَّاش عند أبي تمّام في أنْ يكفكف عنه هجاءَه، الذي ظلَّ في حياته وبَعْدَ مماته، ممّا يُدلل على أنَّ أبا تمّام كان حَنِقًا عليه أشدّ الحنق؛ لأنه بخل عليه بعطائه بعد أنْ مَدحه بقصائد حِسان.

والمتأمِّل في الصياغة يجدُ أَنَّ أبا تمّام افتتحها بما يوحي بتبجيله (عياش)، وذلك بقوله (أعزز بعياش)، لكنّ هذا التبجيل يرتدّ إلى تحقير، بالنظر إلى غرض الهجاء الذي كتبت فيه القصيدة، ومن خلال ما أثبتته الصياغة في قوله: (في غير حُفْرَتِه الحِجَى والخِيْرُ) أي قد غُيِّب في القبر مَنْ لا عقل له ولا كرم، وهو ذمٌّ لعياش يؤكّد دلالة التحقير والاستهزاء به.

ويستمر التهكُّم بعيّاش، ولكن في صورة أخرى، يأتي فيها لفظ الوعد والمراد الذم والوعيد. يقول: (الكامل)

عيّاش زُفَّ إليكَ جَهْدٌ جاهدُ ... واحْتَلَّ ساحتَكَ البَلاءُ الرَّاكِدُ

ما الُّلؤمُ لُؤمًا إنْ عَدَاكَ لُبَانُه ... وعَدَوْتَه ولَهيعَةٌ لك والدُ![١٥]

يقول ابن منظور في مَعْنَى (زَفَّ) «وزَفَّ العروسَ يَزُفُّها، بالضَّم، زَفًّا... إذا أَهْدَيْتَها إلى زوجها...»[١٦] وتحرُّك الذّهن من خلال هذه الدلالة للكلمة في بيت أبي تمّام يُنتج دلالة الوَعْد والبشارة، التي تُنبِئ عن أنّ بَعْد هذا الزِّفاف مبشّرات، لكنّ الذّهن يرتد مَرّة أخرى إلى الصياغة ليكتشف معنى البلاء والوعيد، حينما يُطالع التركيب فيما بعد كلمة (زفّ) في البيت، وقد عبّر فيه الشاعر عَنْ التهكم والسُّخرية، حين صوّر ما يُزَفّ إلى (عيّاش) بأنه جَهْد وبلاء يحتل داره. والانتقال من المعنى الأول (الوعد/البشارة) إلى دلالة الوعيد جاء خاطفًا؛ إذ لم يدَع للمتلقِّي فُسْحَةً لاستنباط دلالة

التهكم، وذلك لقُرب دوال (الوعيد) من دال (الوعد)، كما أَنَّ غرض الهجاء الذي قِيلَتْ تحته الأبيات أسهم في تحقق التهكم في إطار هجوميّ، خاصَّةً أَنَّ البيت الأَوَّل الذي ورد فيه التهكم، هو مطلع القصيدة، ممَّا يُضفي بُعْدًا دراميًّا يُتصوّر حين يقرأ (عياش) القصيدة؛ فإذا بمفتتحها يقول: (أزف إليك خراب بيتك!)؛ لينتج ما يسمِّيه "د. سي. ميوميك" بالألم والكوميديا في المفارقة، وقد عبّر عنها بقوله: «إنّ تضاد المفارقة لكي يكون كذلك يجب أن يكون مؤلمًا وكوميديًّا معًا»[١٧]. وهذا كله يدُل على مدى القوة الكبيرة المحرِّكة للغَضَب عند أبي تمّام، وقد تولّد عنها هذا التهكم الذي طال (عياش) في حياته وبعد مماته.

ومن أغرب صور التهكُّم في شِعره تلك التي تأتي متلبّسةً بفنٍّ آخر، كما في قوله يهجو عثمان بن إدريس الشاميّ: (البسيط)

وسَـايِحٍ هَطِـل التَّعْـدَاءِ هَتَّـانِ ... علـى الجِـرَاءِ أمـينٍ غَيْـرِ خـوّانِ

أظْمَى الفُصُوصِ ولم تَظْمَأ قوائِمُه ... فَخَـلِّ عَيْنَيْـكَ في ظَمْـآنَ رَيّـانِ

فلـو تـراه مُـشِيْحًا والحَـصَى فِلَـقٌ ... تحتَ السَّنابِكِ مِن مَثْنًى ووُحدانِ

حَلَفْـتَ إنْ لم تثبّـتْ أنَّ حـافِرَه ... مِنْ صَخْرِ تدمُرَ أوْ مِنْ وجه عُثْمانِ![١٨]

فقد تحقق التهكم هنا من خلال (الاستطراد)، الذي «يكون في شيء من الفنون، فتوهم استمرارك فيه، وتخرج منه إلى غيره»[١٩]، وقد أضفى الاستطراد عنصر المفاجأة على الصّياغة، وذلك من خلال الانتقال المفاجئ من وصف "الفَرَس" إلى هجاء "عُثمان"، ففي الوقت الذي ينتظر فيه المتلقِّي إتمامَ وصف الفرس، يُفَاجأ بانقطاع الخيط الدلالي، ودخول

غرض الهجاء الذي حقّق تَقاطعُه مع الوصف صدمةً للمتلقّي، هذه الصَّدمة أسهمَتْ في تثبيت دلالة (التهكم والسخرية) رغم أنها لم تحتل سوى نصف الشطر الأخير من أبيات القصيدة، مما يُقرر حسّ المفارقة التي «لا تقتصر على القدرة على رؤية الأضداد..، بل على القدرة على إعطائها شكلاً في الذهن كذلك»[٢٠]، ومن خلال هذا النموذج والنموذج السابق يتضح لنا أنَّ اختيار البُعد المكاني للتركيب الذي يرِد فيه أسلوب التهكم، له دور كبير في فاعليّة (الأثر التهكمي)، وتحقيق المفارقة بحيث تصير -كما في المثال السَّابق- آخر ما يعلق بالذّهن.

وقد يأتي أسلوب التهكم والسخرية ليُهَيْمن على النصِّ الشعريّ كُلّه، ومن ذلك قصيدة الطائي التي يهجو فيها عبد الله الكاتب: (الكامل)

ماذَا بدَا لكَ إذ نقضتَ هَوَاكا ... وحَلَفْتَ أنّي لا أَشُمُّ قَفَاكَا؟
تَرْضَى العجائبَ ثُمَّ تغضبُ أنَّني ... نَاظرتُ في بعضِ الأمورِ أخاكَا!!
مِثلَ التي ضَنَّتْ بَردِّ سَلامِها ... وأباحَتِ الأفخاذَ والأورَاكَا!
إنْ كانَ ذا مِنْ غِيرةٍ قد أضرمَتْ ... بالغيظِ قلبَكَ خاليًا وحَشَاكَا
فاحلِفْ بأنّ سِوَايَ لم يظفرْ بها ... وعليّ نذرٌ إنْ لقيتُ سِوَاكَا
فإذا أبيتَ فقد أبيتَ مُعَالِنًا ... فاعَلَمْ -فَدَيْتُكَ- أنّ ذَاكَ بذِاكَا[٢١]

المفارقةُ في هذه القصيدة تنعكسُ من خلال الخَلَل الناتج عن التضاد في بنية السلوك، وقد عبّر عنه الطائي من خلال ضرب المَثَل بفتاةٍ تبخَل بردِّ السَّلام، في حين تجودُ بعرضِها على النّاس! وكذا المهجوّ يرضى بالإهانة

من كل إنسانٍ، فلمَّا جاءَتْ مناظرة أبي تمّام لأخيه لم يرضَ له بذلك، وأقسَم أَلاَّ يُمكننَّ أبا تمّام من مقابلته.

وقد جاء التهكّم في القصيدة من خلال الاعتراض في قول الطائيّ:

- البنية السطحيّة: فاعلَمْ - *فديْتُكَ* - أنّ ذاكَ بذاكَا - ⟵ مدح وتبجيل.

- البنية العميقة: فاعلَمْ - عدِمتُكَ - أنّ ذاكَ بذاكَا - ⟵ ذمّ واستهزاء.

فالاعتراض بـ(*فديتك*) جاء على خلاف مقتضى الظاهر، كما كشفَتْ عن ذلك البنية العميقة، وذلك بتوجيهٍ من دلالة الهجاء والازدراء في النصّ.

وعليه فقد بان لنا أَنَّ لغة أبي تمّام الشعرية توّاقة إلى التضاد والتناقض والتقابل، الذي رافق صور التهكّم المختلفة في شِعره، وهي الصّور التي جاءت مُتَلبّسةً بعنصر المفارقة. وقد تركزتْ صور التهكم والسخرية في شِعر الهجاء عند أبي تمّام، وذلك لكون المُحرّك النفسيّ القابع وراء هذه الصور قويًّا، دالاًّ على حِدّة طبع الطائي؛ إذ ينهال على أعدائه وحُسَّاده بوابلٍ من التهكم والسخرية، يستحيل في كثيرٍ منهْ إلى سِبابٍ محض[22]. كما قد تميّزت صور التهكّم عنده بالوضوح، حيث يُدرك المتلقّي ما في المعنى الظاهريّ من عدول مع أوّل ارتدادٍ إلى السِّياق الخارجيّ أو اللغويّ، نضيف إلى ذلك أَنَّ رؤية أبي تمّام الشعرية استطاعَتْ في بعض صور التهكّم أن تنفَذَ إلى إدراك التباين في التشابه، كما ظهر ذلك في مشهد صَلْب بَابَك الخُرميّ.

ثانيًا- الهَزْلُ الذي يُرادُ به الجِدّ:

وبناء أسلوب "الهَزْل الذي يُراد به الجدّ" قائم على إشاعة جوّ الفكاهة في البنية السطحيّة، وإرادة معنى الجِدّ والالتزام في البنية العميقة[23].

ويكمن الفرق بين بنية التهكم وبنية الهزل المراد به الجِدّ في «أنّ التهكّم ظاهره جِدّ وباطنه هزل، وهو ضدّ الأوّل، لأنّ الهزل الذي يُراد به الجِدّ يكون ظاهره هزلاً وباطنه جِدًّا»[٢٤].

ويتميّز هذا الأسلوب عن أسلوب التهكُّم في كونه باعثًا على الضَّحِك والتندير؛ وخاصة في سياقات الهجاء والذمّ، حيث يصنع المبدع من (المتلقِّي الخاصّ) ما هو أشبه (بالشخصيَّة الكاريكاتوريّة)، وهو ما فعله أبو تمّام في (عيّاش بن لهيعة) والي شرطة مصر، حين هجاه بقوله:

(الكامل)

جَـرّدتُ في ذَمِّيكَ خَيْلَ قصائد ... حالَتْ بكَ الدُّنيا وأنتَ مُقيْمُ

ألحَقْنَ بالجُمّيزِ أصلَك صاغِرًا ... والشِّيحُ يضحكُ مِنْكَ والقَيْصُومُ

طبقاتُ شَحمِكَ ليس يَخْفَى أنَّها ... لمْ يَبْنِهـا آءٌ ولا تَنُّومُ

يا شارِبًا لبَنَ اللقاحِ تَعزِّيًا ... الصَّبرُ مَنْ يَقنِيه والحَالُومُ

والْمُدَّعي صُورَانَ منزلَ جَدّه ... قُل لي لِمَنْ أهْناسُ والفيُّومُ؟![٢٥]

يشيعُ معنى الهَزْل في البنية السطحيّة للصّياغة، مِمَّا قد يُتوهّمُ معه أنَّ الهَزْل مُرادٌ لذاته، لكنّ معاودة السِّياق تكشف عن العلاقة المضطربة فيما بين أبي تمّام، وعيّاش بن لهيعة، والي شرطة مصر، وهي علاقة ابتُدِئتْ بالمدح وانتهت بالهجاء والذّم[٢٦]؛ مِمّا يُعيد توجيه المتلقِّي إلى المعنى العميق المتمثّل في الذّم.

فقد أورد الطائيّ مجموعةً من المَعَاني الهزلية في النصّ، قامَتْ على سَلب (عيّاش) صفات العروبة، فـ(الشيح والقيصوم) يسخرانِ منه، وكذا

(الآءُ والتّوم) وكلها من خصائص البيئة العربيّة، ويظل في سَلْب هذه الخصائص واحدةً تلو الأخرى حَتَّى يُظهرَه مُدَّعيًا لعروبته، وذلك كله في أسلوب هزليّ. وقد أراد أبو تمّام الجِدّ في المستوى العميق، ويتمثّل هذا الجِدّ في إرادة الذّم والاستهزاء بعيّاش، فهو لم يسُق ما ساقه لمجرّد الفكاهة، وإنّما ليحقّره ويتندّر بذمّه.

وقد جاء السؤال في البيت الأخير، ليحقّق مفارقة بالإنكار، وهي تلك المفارقة التي «تتوسَّل السؤال لإظهار السخرية وتعميقها، وتحقيقها لمستوى معيّن من الإنكار ترغبُ الذات الشاعرة في إثارته وتثبيته»(٢٧). فقد جاء سؤال: (قل لي لَمَنْ أهناسُ والفيُّوم؟!) ليُقيم الشاعر من خلاله الدّليل على أنّ (عياش) دعيٌّ في عروبته ونسبه إلى البيئة العربيّة.

وقد يستثمر الطائيّ ما في أسلوب الهزل الذي يُراد به الجِدّ مِن مراوغة في التعبير عَنْ ضجره مِنْ تصرّفات بعض الممدوحين معه، ومن ذلك قولُه يمدح عبد الحميد بن غالب، ويسأله إتمامَ حاجةٍ ابتدأ بها: (الوافر)

أبا بشرٍ قَدِ استَفْتَحْتَ بابًا ... وقَدْ أَتْمَمْتَه إلا قَليلا

فأصبحَ وهْوَ جَبَّارٌ وعَهْدي ... بهِ مُذْ أشهُرٍ يُدْعى فسِيلا(٢٨)

إنّ الممدوح قد وعَدَ الشاعر بجائزة كبيرة، لكنّ وعده هذا ظل لأشهر كما هو، لَمْ يخرج إلى حيّز التنفيذ؛ فهذا الوعد وإن كان كبيرًا إلا أنه -لعدم وقوعه- ما زال (فسيلا) صغيرًا لدى الشاعر، والمعنى في هذا السياق يوحي (بالهَزْل) الذي يظهر على استحياء؛ لكونه في سياق المدح، وذلك على عكس ظهوره في الأبيات السَّابقة التي هجا فيها أبو تمّام عياش بن لهيعة،

والـتي كـانَ الغـرض منهـا الـذمّ والاسـتهزاء، أمّـا -هنـا- فالـشاعر مـا زال يحدوه أملٌ في أنْ يُتِمَّ الممدوح عليـه مـسألته، وهـو مـا جعـل دلالـة الـهَزْل خافِتة.

والمتلقّي يكتشف من خلال السّياق أَنَّ الشاعر في البنية العميقـة قـد أراد وجهًا آخر للدلالة، يتمثّل في الجدّ والالتزام، ليكون أسـلوب الهـزل المـراد به الجِدّ قد أسْهَمَ في حفظ (ماء وجه) أبي تمّام، وذلك من خـلال الهـروب من مباشرة طلب إتمام الممدوح لحاجته، التي كان قد وعده إياها، وهو ما يُطابق مقتضى الحال في الصّياغة.

وقد يوظفـّ الطائيّ أسلوب الهزل الذي يُراد به الجِدّ في النَّيل من خـصمه، وذلك بإظهار العيـوب الظـاهرة والباطنـة. ومِـنْ ذلـك قولـه يهجـو عبـد الله الكاتب: (المُنسرح)

فاذْهَـبْ إلى حيـثُ شِئـتَ مُنْطلقِـا ... ســالَ بِـكَ الـسَّيلُ حيثُمـا سَـلكَا

ومُـــتَّ حَيًّـــا بلحيـــةٍ طلعَـــتْ ... عليــكَ قَــدْ كُنْــتَ قبلَهــا ملَكَــا

إذَا رَأَيْــتَ الغُــلامَ قــد طلعَــتْ ... بخَــدِّه شَــعَرةٌ فقَــدْ هَلَكَــا!(٢٩)

تبدَأ الصّياغةُ من خلال الالتفات من الأمر (فاذهَبْ) إلى الماضي (مُتَّ) بما يوحي بدلالة الكراهية الشديدة الـتي يُكنّهـا أبـو تمّـام لهـذا الرجـل، وأَنَّ الأمر ليس على نحو ما وصفه الدكتور منير سـلطان بقولـه: «يبـدو أنـه [أي عبدالله بن زيد الكاتب] وعبدون كاتب دليل النصراني، ومُقران المباركي، وعبدالله بن الأعمش يُكوّنون مع أبـي تمّـام فريقًـا مـن الأصـدقاء. وقـد دار بين أبي تمّام وبينهُمْ جميعًا هجاء، لا عن غضب، بل عن صـخب وعَتْـبٍ

وفراغ»[٣٠]. فالالتفات إلى الماضي في (مُتَّ) يدل على غضب، وغضبٍ شديد حرّك أبو تمّام لهجاء عبد الله بن زيد، حتى إنه ليتمنّى موته، من خلال الفعل الماضي الذي يدُل على تمام الحدث وانقضائه.

وبالعودة إلى أسلوب الهزل المراد به الجِدّ، تُبدي البنية السَّطحية كثيرًا من الفكاهة حين يعمد أبو تمّام إلى رسم صورة هزليَّة للمظهر الخارجي لهذا المهجو، وقد تركَ خيال المتلقِّي يذهب فيه كل مذهب، وذلك حين بنى الصورة على تغييب الطرف المشوَّه (حيث كانَتْ لحية المهجو قد طلعَتْ)، وذِكْرِ ما كان عليه قبل طلوعها (تشبيهه بالمَلَك).

ويتخذ أبو تمّام هذه الصورة الهزليّة التي رسمها للمهجوِّ وسيلةً للنّفاذ إلى ما في باطنه، فلَمْ تكُن اللّحيةُ التي نبتَتْ في وجه عبد الله بن زيد الكاتب تشويهًا لمظهره/خِلْقَتِه فحسب، لا، بل كانت تشويهًا لباطنه كذلك، وقد عبّر أبو تمّام عن ذلك في بنية السَّطح بقوله: «إذا رأيتَ الغُلامَ قد طَلَعَتْ بخدّه شعرةٌ فقد هلكا»، وهو ما يوحي بمعنى الفكاهة والهزل، في حين يتوجه المعنى في البنية العميقة إلى الجِدّ، والالتزام المحض، فقد أراد الطائيّ أنْ يقول: إنّه مَتَى طلعَتْ شعرةٌ في لحية الفتى (الغُلام) تزببَ بها قبل أوانه، فاقتحم الأمور العِظام، ممّا هو دونها، فيُعقبه ذلك هلاكًا. ولا شك أنّ المقصود بهذا الذمِّ هو عبد الله بن زيد الكاتب، ممّا يطولُ ذمّه في الظاهر والباطن، بالإضافة إلى أنّ هذا الأسلوب يخرج من سياقه الخاص (هجاء عبد الله بن زيد) إلى سياق عامٍّ يمسّ فيه أفق التجربة الإنسانية العامة.

وقد يأتي توظيف أسلوب الهزل المراد به الجدّ في إطارٍ دراميٍّ، ومن ذلك ما وصف به (بَابَك) حين انهزم من جيش المُسْلمين: (البسيط)

ومَرَّ بَابَكُ مُرَّ العيش مُنْجَذِمًا مُحْلَوْليًا دَمُه المعسُولُ لو رُشِفَا

حَيْرانَ يحسَبُ سَجْفَ النَّقعِ مِنْ دَهَشٍ طَوْدًا يُحَاذِرُ أنْ ينقضَّ أو جُرُفَا[٣١]

فالصورة التي رسمها الطائيّ لبابك[٣٢]، جاءَتْ مُفْعَمَةً بالفكاهة والضحك من تلك التصرفات التي ظهرت عليه بعد هزيمته، فهو يظن أنّ كل سترٍ من الغبار طودٌ يريد أن يقع عليه، أو جُرُف هارٍ يريُد أنْ ينهار به، ومن الممكن للمتلقِّي في قراءته العَجْلى أنْ يكتفي بهذا المَعْنى، وهو أَنَّ أبا تمّام ما أراد إلا إضحاكَ الناس من سلوك هذا الرجل، لكنّ معاودة القراءة كفيلة بأن تحمل للمتلقِّي معنًى آخر عميقًا، هو ذلك المعنى الذي يلزم الجِدّ والالتزام، لا الفكاهة والهزل، فقد صار بَابك بعد هزيمته هكذا، يحسَبُ كل صيحةٍ عليه فِعلاً، وذلك جرّاء ما ناله من الفزع والرّعب في المعركة، وهذه الصورة التي رسمها له أبو تمّام تُسمَّى بالمفارقة الحركيّة، وهي: «رسم السلوك الحركيِّ الغريب في دوافعه ومسبباته، والذي ينطوي على مغالطةٍ شنيعة، رسمًا لغويًّا، حصيلته صورة تكني عن الدلالة الثانية، أو المعنى غير المباشر الذي يتضاد مع حقيقة الشيء وأصله، فينتج عن ذلك التضاد معنى الاستهزاء والسخرية»[٣٣]. وفي تصوير أبي تمّام (لبابك) يتضح البُعد الدراميُّ من خلال وقوع (بابك) ضحيّةً لعدسَة التصوير الشعريِّ، وكأنّ أبا تمّام يرنو إليه من بعيد، فيصوّره بما يعلمه المتلقِّي وتجهله الشخصيّة داخل النّص، مما أسْهَمَ في الكشف عن خبيئته

النفسيّة، وهو ما يؤول في النهاية إلى تثبيت مَعْنى (الفكاهة المأساوية/ الكوميديا السوداء) في الكشف عن الحال التي آل إليها بَابَك بعد هزيمته، ليكون الناتج الدلالي لقراءة البنية السطحيّة هو الهَزْل والفكاهة غير الموجّهة (المحضة)، في حين تنتج القراءة في البنية العميقة مَعْنَى الفكاهة المأساوية أو السخرية المُرَّة.

ومنه أيضًا قولُه في الشاعر دِعْبِل الخُزاعيّ(٣٤): (الوافر)

ومَحْدُودِ الذّريعةِ ساءَه ما ... تُرَشّحُ لي مِنَ السَّبَبِ الحَظِيّ
يَدِبُّ إليَّ في شخصٍ ضئيلٍ ... وينظُرُ مِنْ شفا طَرْفٍ خفِيّ
ويُتبِعُ نِعمتي بِكَ عَيْنَ ضِغْنٍ ... كما نَظَرَ اليتيمُ إلى الوَصِيّ
رَجَاءً أنّه يُوري بزَنْدي ... إليك وأنّه يَفْري فرِيِّي
وذاكَ له إذا العنقاءُ صارتْ ... مُرَبَّبَةً وشَبَّ ابنُ الخَصِيّ(٣٥)

فالظاهر في البنية السطحيّة أَنَّ الطائيّ ما أراد إلا الهزل، والباطن أنه أراد ذمَّ "دعبل" وهجاءَه على حسده إيّاه، وقَدْ حَوَتْ البنية السطحيّة تناقضًا واضحًا في قوله: (وذاك له إذا العنقاءُ(٣٦) صارَتْ مربّبة وشبَّ ابنُ الخصِيّ) وهذا التناقض يئول إلى توافق في العمق، ليكونَ المعنى: (أنَّ ذلك لن يكون له أبدًا)، وذلك لتعلقّ المعنى بما هو مُحال؛ إذ مُحَال أن تصير العنقاء -وهي طائر خُرافيٌّ أسطوريّ- في أيدي النّاس، كما أَنَّه مُحَالٌ أَنْ يشبّ ابن الخصيّ، وتلك مفارقة أخرى؛ إذ الأَوْلى أن يقول الطائيّ: (أنْ يُولدَ ابن الخصيّ)، لكنّه تخطّى ذلك، مما زاد من الإيهام بأنّ للخصيّ ابنًا

يُنتظر لـه أن يـشبّ ويكـبر، في حـين أنّـه مُحـالٌ أن يكـون ابـنٌ لـه أصـلاً ؛ لتعطّل آلة الإنجاب، ويُسمَّى هذا الأسلوب بـ(عكس الظاهر)[٣٧].

وبذلك يكون أبو تمّام قد عمل على توظيف فنَّيْ التهكّم، والهزل الذي يُراد به الجدِّ، توظيفًا جماليًّا في شِعره، من خلال بناء الأسلوب فيهما للدلالة على معنًى مُغَاير أو مُنَاقض للمعنى في المستوى السَّطحيّ، ممّا يحتاج إلى تفاعل المتلقّي مع السّياقات المختلفة، بُغْيَة الوصول إلى الدلالة التي وإن بَدت متناقضةً في الظاهر، إلا أَنَّ هذا التناقض يستحيل إلى توافق في المستوى العميق.

وممّا تجدر الإشارة إليه أنّ أبا تمّام كان يميل إلى توظيف ما يمكن تسميته (بتضافر الفنون البديعيّة) في الصّياغة الواحدة، حيث وظّف الالتفات إلى جانب فنون التهكم والسخرية، كما وظف الاستطراد وعكس الظاهر معها أيضًا، وهذا إنْ دَلّ فإنّما يَدُلّ على الوَعْي بمسألة الصَّنعة البديعيّة، كما يقول الدكتور محمد عبد المطّلب: «أمَّا أبو تمّام فكان واضحًا في مذهبه يلتزم به عن وعي، وذلك برغم أنَّ الوعي الجمالي لم يكن قد تهيَّأ تمامًا لاستيعاب صياغته البديعية التي كانت المفارقة والتقابل أهم لوازمها»[٣٨]. كما كان حضور المفارقة مع فنون التهكّم والسخرية دليلاً آخر على وعيه بتوظيفها توظيفًا دلاليًّا، يجمع فيه بين الأشتات، ويوفّق من خلاله بين المتناقضات.

الهوامش:

* مدرس البلاغة والنقد الأدبي بقسم اللغة العربية، كلية الآداب، جامعة الفيوم، ج.م.ع.

(١) د. قاسم البريسم: المفارقة في شِعر عدنان الصائغ: ديوان ((صراخ بحجم وطن)) نموذجًا: بحث منشور بموقع عدنان الصائغ الإلكتروني: http://www.adnanalsayegh.com

(٢) خوسيه ماريا بوثويلو إيفانكوس: **نظرية اللغة الأدبيَّة**، ترجمة: حامد أبو أحمد، ص٢١١. ومن الممكن مطالعة تعريفات أخرى عديدة للمفارقة لدى: د. سي. ميوميك: **موسوعة المصطلح النقدي**، ١٣ ؛ **المفارقة**، ترجمة: دكتور عبدالواحد لؤلؤة، دار الرشيد للنشر، العراق، ١٩٨٢م، ص٣٩-٤٥.

(٣) ابن أبي الإصبع المصري: **تحرير التحبير في صناعة الشِّعر والنثر وبيان إعجاز القرآن**، تحقيق: الدكتور حفني محمد شرف، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، مصر، ١٩٦٣م، ص٥٦٨.

(٤) بدر الدين بن مالك، الشهير بابن النَّاظم: **المصباح في المعاني والبيان والبديع**، حققه وشرحه ووضع فهارسه: دكتور حسني عبد الجليل يوسف، مكتبة الآداب، القاهرة، ط١، ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م، ص٢٤٣.

(٥) السابق: ص٢٤٣، ٢٤٤.

(٦) د. حسني عبد الجليل يوسف: **المفارقة في شِعر عديّ بن زيد العبادي- دراسة نظرية تطبيقية**، الدار الثقافية للنشر، القاهرة، ط١، ٢٠٠١م، ص١٤، ١٥.

(٧) هو محمد بن يزيد الأموي بن مسلمة بن عبد الملك بن مروان، شاعر محسن، اشتهر بهجائه لعبد الله بن طاهر ممدوح أبي تمّام. يراجع في ترجمته: ابن عساكر: **تاريخ دمشق**، دار الفكر، بيروت لبنان، ١٤١٥هـ/١٩٩٥م، ٢٨٣/٥٦.

(٨) **ديوان أبي تمّام بشرح الخطيب التبريزي**: تحقيق: محمد عبده عزام، دار المعارف بمصر، الطبعة الخامسة، د.ت، ٣٣٥/٤.

(٩) يقول ابن منظور: «بَخْ بَخْ وبَخٍ بخٍ، بالتنوين... كلمة تُقال عند تعظيم الإنسان وعند التعجب من الشيء، وعند المدح والرّضا بالشيء...» **لسان العرب**: دار الحديث، القاهرة، ٢٠٠٣م، مادة (بخخ)، ٣٤٠/١.

(١٠) ينظر: بدر الدين بن مالك: **المصباح في المعاني والبيان والبديع**، ص٢٤٣.

(١١) يراجع: القصيدة في **الديوان**: ٤/ ٣٣٥.

(١٢) **الديوان**: ٣/ ١٤٤.

(١٣) د. محمد حسن عبد الله، **الصورة الفنية في شِعر علي الجارم**، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، سلسلة كتابات نقدية (٩٣)، ١٩٩٩م، ص٧٠، ٧١. ولَعَلَّ هذين البيتين لأبي تمّام كان لهما أكبر الأثر في قصيدة أبي الحسن الأنباري محمد بن يعقوب (ت ٣٨٠هـ) في رثاء الوزير ابن مقلة (نصير الدولة) الذي مات مصلوبًا. ومطلعها:

عُلُوٌّ في الحياة وفي الممات ... لَحقًّا أنت إحدى المعجزاتِ

كأنَّ الناس حَوْلكَ حين قامُوا ... وفودَ نَداكَ أيّامَ الصِّلاتِ

يراجع: أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت بن أحمد بن مهدي الخطيب البغدادي (ت ٤٦٢هـ): **تاريخ بغداد**، تحقيق: د. بشّار عوّاد، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط١، ٢٠٠٢م، ٤/ ٥٦.

(١٤) **الديوان**: ٤/ ٣٥٨، و"الخِير" بكسر الخاء: الكرم.

(١٥) **الديوان**: ٤/ ٣٤٧.

(١٦) ابن منظور: **لسان العرب**، مادة (زَفَفَ)، ٤/ ٣٧٩.

(١٧) د. سي/ ميوميك: **موسوعة المصطلح النقدي**، ١٣؛ **المفارقة**، مرجع سابق، ص٥٤.

(١٨) الديوان: ٤/ ٤٣٤.

(١٩) بدر الدين بن مالك: **المصباح في المعاني والبيان والبديع**، ص٢٣٤.

(٢٠) د. سي. موميك: **موسوعة المصطلح النقدي**، ١٣؛ **المفارقة**، مرجع سابق، ص٧٥.

(٢١) الديوان: ٤/ ٤٠٩.

(٢٢) يُنظر للتمثيل لا الحصر: **الديوان**، ٤/ ٣٧٥، ٣٧٦، ٣٨٠، ٣٨٣، ٤٢٠.

(٢٣) يُراجع: **شروح التلخيص**: مجموعة من المؤلفين، دار البصائر، القاهرة، ١٤٢٩هـ/ ٢٠٠٨م، ٤/ ٤٠٢، ٤٠٣.

(٢٤) ابن أبي الإصبع: **تحرير التحبير**، مرجع سابق، ص٥٧٠.

(٢٥) **الديوان**: ٤/٤٢٦. و(الآء والتَّنُّوم) ضربانِ من النبت تأكلهما الأنعام. و(الصّبر والحالوم) طعامان مشهوران في مصر آنذاك. السابق: ٤/٤٢٧.

(٢٦) يُراجع: أبو بكر محمد بن يحيى الصولي (ت٣٣٥هـ): **أخبار أبي تمّام**، نشره وحقّقه وعلّق عليه: خليل محمود عساكر، ومحمد عبده عزام، ونظير الإسلام الهندي، الهيئة العامّة لقصور الثقافة، سلسلة الذخائر (١٧٠)، القاهرة، ٢٠٠٨م، ص١٢١.

(٢٧) د. لحلوحي صالح: الظواهر الأسلوبيّة في شعر نزار قباني، بحث منشور **بمجلة كلية الآداب واللغات**، جامعة محمد خيضر، بسكرة (الجزائر)، العدد (٨)، ٢٠١١م.

(٢٨) **الديوان**: ٣/٦٤.

(٢٩) **الديوان**: ٤/٤١٢.

(٣٠) د. منير سلطان: **بديع التراكيب في شِعر أبي تمّام**، ١- الكلمة والجملة، منشأة المعارف بالإسكندرية، الطبعة الثالثة، ١٩٩٧م، ص٨٦.

(٣١) الديوان: ٢/٣٦٩. والسَّجف: الستر. والنَّقع: الغبار. والطَّود: الجبل.

(٣٢) يقول الصفدي: "وبابك" كان من أولاد الزنا، ولد في قرية بأذربيجان، وكان يسكن الجبال مع (جاويدان) رئيس طائفة (الخرميّة) وعشق زوجته، فلمّا مات (جاويدان) أقنعت هذه المرأة أتباعه أن يترأسهم (بابك)، وقد كان، فعاث في الأرض الفساد، وأحلّ المحرمات. وهذه الحركة التي قادها بابك تسمّى (الخُرّمية) نسبة إلى قرية من قرى (الري) يُقال لها: خرم آباد وتعني مدينة اللّذة، وهي أخطر حركة دينية عنصرية في تاريخ الدولة العباسية، قام مذهبهم على هدم الدين الإسلامي من خلال اعتناقهم المذهب الباطني، وهدفوا إلى القضاء على السلطان العربي، وقد اشتد خطرهم حين تولّى بابك قيادتهم. يُراجع: الصفدي: **الوافي بالوَفَيَات**، تحقيق: أحمد الأرناؤوط، وتركي مصطفى، دار إحياء التراث، بيروت، ٢٠٠٠م، ١٠، ٣٨، ٣٩.

(٣٣) د. محمد العبد: **المفارقة القرآنية: دراسة في بنية الدلالة**، دار الفكر العربي، القاهرة، ط١، ١٩٩٤م، ص٢٠٢.

(٣٤) هو أبو علي دعبل بن علي بن رزين، ولد بالكوفة، كان معاصرًا لأبي تمّام. له شِعر أجاد فيه، غير أنه كان بذي اللسان، مولعًا بالهجو والحطّ من أقدار الناس، فلم يسلم من هجائه أحد حتى الخلفاء. يُراجع: أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد ابن أبي بكر بن خلكان: **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٩٠م، ٢/٢٦٦.

(٣٥) **الديوان**: ٣/٣٥٨.

(٣٦) العنقاء: طائر عظيم معروف الاسم مجهول الجسم، قال عنها الخليل: لم يبق من صفتها غير اسمها، وقد ارتبطت به العديد من الخرافات. ينظر: جلال الدين عبد الرحمن ابن أبي بكر السيوطي: **المُزهر في علوم اللغة وأنواعها**، تحقيق: فؤاد علي منصور، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٨م، ١/٣٩٤.

(٣٧) ويعدُّه ابن الأثير من أغرب ما توسَّعَتْ فيه اللُّغةُ العربيّةُ. وقد عرَّفَه بقوله: «وهو نَفْيُ الشيء بإثباته... وذاك أنّك تذكر كلامًا يدلُّ ظاهرُه أنّه نفي لصفة موصوف وهو نفي للموصوف أصلاً». يراجع: ضياء الدين بن الأثير: **المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر**، قدّمه وحققه وعلّق عليه: د. أحمد الحوفي، د. بدوي طبانة، دار نهضة مصر للطبع والنشر، القاهرة، ط٢، د.ت، ٢/٢٤٨.

(٣٨) د. محمّد عبد المطّلب: **بناء الأسلوب في شعر الحداثة**؛ التكوين البديعيّ، دار المعارف، القاهرة، ط٢، ١٩٩٥م، ص٩١.

المعتمد بن عبّاد شقيّ الغرباء

بقلم: د. آمنة بن منصور*

تمهيد:

لم تكن الأندلس الموطن الأصل للعرب، على غرار الجزيرة العربية، ولكنهم وفدوا إليها من أقاصي الأرض ودانيها، وقد كان الوافدون إليها يشعرون -لأمر ما- بالغربة والشوق إلى موطنهم الأصل، فمن غريب الصدف أن يكون أول شِعر أنشد في هذه الجزيرة أبيات في تصوير الغربة والحنين إلى المشرق تنسب لعبد الرحمن الداخل، يخاطب فيها نخلة منفردة فيربط بين الغربتين:

نَشَأتِ بِأرْضٍ أنْتِ فِيهَا غَرِيبَةٌ   فَمِثْلكِ فِي الإقْصَاءِ والمُنْتَأى مِثْلِي[1]

كان هذا في البداية، فما إن حلُّوا بها وتفيّأوا ظلالها وشربوا ماءها، حتى أصبحت أحب الأرض إليهم، يذودون عنها، ويبذلون في سبيل سلامتها الغالي والنفيس، لدرجة أصبح الخروج منها ضربًا من الشقاء والعذاب، بل إنّ هناك من الشعراء من كان يحنّ إلى مسقط رأسه وهو في وطنه الأندلس.

وشعراء الأندلس الذين عبّروا عن الغربة كثر، منهم: ابن زيدون[2] وابن دراج وابن خفاجة والأعمى التطيلي وابن الخطيب.. وغيرهم.

المعتمد شقيّ الغرباء:

عانى الكثير من الشعراء وطأة الغربة، وتجرّعوا كأس ويلاتها، ولكن الأمر يختلف عند المعتمد؛ لأنّ مأساته مضاعفة؛ فهو ليس رجلاً عاديًّا ولكن شاعر رقيق وفارس فذّ، وهو ليس من عامّة الناس ولكن ملك عربي صميم، فكيف يبعد عن وطنه؟ وكيف تكبّله القيود؟ وكيف يصرف الدهر عنه وجهه؟

فأيّ آلام هذه التي تنوء بحملها الجبال؟

وتجربة هذا الشاعر تجربة خاصة، لأنّ أغلب الشعراء الذين نظموا في هذا الباب عاشوا في كنفه، تقول الباحثة فاطمة طحطح: «لقد كان هذا الشاعر فريدًا في تجربته فهو يتميّز عن باقي شعراء الغربة والحنين بكونه كان»[٣] ملكًا، وكان راعي هؤلاء الشعراء، بل راعي شعراء الغرب الإسلامي كله.

غريب المغربين:

جاء في "**الحلة السيراء**" أنّ المعتمد رأى في منامه كأنّ رجلاً صعد منبر جامع قرطبة وأنشد الناس:

رُبَّ رَكْبٍ قَدْ أَنَاخُوا عِيسَهُمْ فِي ذرَى مَجْدِهِم حِينَ بَسَق[٤]
سَكَتَ الدَّهْرُ زمَانًا عَنْهُم ثمَّ أبْكَاهُمْ دَمًا حِينَ نَطَق

أدرك المعتمد أنّ هذا نعي لملكه فأنشد:

مَنْ عَزا المَجْدَ إلَيْنَا قدْ صَدَقْ لمْ يُلمْ مَنْ قالَ -مَهْمَا قالَ- حقْ[٥]
...أيُّهَا النّاعِي إليْنَا مَجْدَنَا هَلْ يَضُرُّ المَجْدَ أنّ خَطبًا طرَقْ

وتتكرر الوقائع والأحداث، ويكذب المنجِّمون في أخطر الأمور وأعظمها[٦]، وها هو المعتمد يبدي سخطه على منجِّمه الذي أطمعه بالنصر المبين، لكن ابن تاشفين كان له بالمرصاد:

أرْمَدْتَ أمْ بِنُجُومِكَ الرّمَد فَقدْ عَادَ ضِدًّا كُلُّ مَا تَعِد
هَلْ فِي حِسَابِكَ مَا تُؤمِّلُهُ أمْ تَصَرّمَ عِنْدَكَ الأمَد[٧]

اختلّت حسابات المنجِّم، وأظلم نجومه، وأبى القدر إلا أن يخالفه، ولاحت في الأفق جيوش المرابطين جحافل تسدّ البَرَّ والبحرَ، فكان الخضوع أمرًا لا بد منه، وتلك مشورة المقرَّبين إليه.

فهل كان ليعمل بها؟ وهل كان ليخضع بهذه السهولة؟

مطلقًا، فالمعتمد لا يزال يحمل بين جنبيه نفسًا قويّة وأبيّة، تؤثر السُّمَّ الناقع على الذلّ و المسكنة:

قالُوا: الخُضُوعُ سِيَاسَة فلْيَبْدُ مِنْكَ لَهُم خُضُوع[٨]
وألذّ مِنْ طعْم الخُضُوع عَلى فَمِي السُّمُّ النّقِيع

ويستمر في إنشاد أبيات كلها عِزّة وإباء: ضاع المُلْك ولكن لا يزال القلب يخفق بين الضلوع، و شرفه الرفيع -مهما حصل- سيظل رافعًا هامته:

إنْ يَسْلب القَوْمُ العِدَا مُلكِي وتُسْلِمُنِي الجُمُوع
فالقلْبُ بَيْنَ ضُلُوعِهِ لَمْ تُسْلِم القلْبَ الضّلُوع[٩]
لَمْ أسْتَلَبْ شَرَفَ الطبَا ع، أيُسْلبُ الشرَفُ الرّفِيع؟

والمعتمد إذا خرج إلى الوغى لم يرتد درعًا؛ لأنّ مثله لا يهاب الموت ولا يرجو الرجوع:

وبَــرَزتُ لـيْسَ سِـوَى القمِيـــــ ... صُ عَن الحَشَى شَـيْءٌ دَفُـوع[10]
مَــا سِـــرْتُ قَــطُّ إلى القِتَــــا ... لِ وكَـانَ مِـنْ أمَلِـي الرُّجُـــوع

وعلى الرغم من شجاعة المعتمد واستبساله في الدفاع عن مملكته، إلا أنّ السقوط كان مآله وأغمات سجنه، فلمّا تجلّى له جبل درن أنشد:

هَـــذِي جِبَـــالُ دَرَن ... قلْبِـــي بِهَــــا ذو دَرَنِ
يَــا ليْتنِـي لـــمْ أرَهَــا ... ولَيْتَهَـــا لمْ تَرَنِــــي[11]
كَأنّهَـــا تُخْبِـرُنِــــي ... بِأَنَّهَـــا تقبرُنِـــــــي

ويستمر في سرد المعاناة، وتصوير المأساة عند حلوله بأرض المرابطين التي وجد الناس فيها يستسقون، فأنشد:

خَرَجُـوا لِيَسْتَـسْقُـوا فَقلتُ لَهُـمْ ... دَمْعِي يَنُوبُ لَكُمْ عَـن الأنـوَاء[12]
قالُوا: حَقِيـق فِـي دَمْعِـكَ مَقنَعٌ ... لَكِنَّهَـــا مَمْـزُوجَـــة بِـدِمَـــــاء

أتراها الدماء التي تركتها المعركة، أم تراها دماء الفؤاد المكلوم والقلب الجريح؟

بلاط الشعراء:

لم ينس الشعراء مَلِكَهم الشاعر، بل لم يقتنعوا بعد أنّ المِلك الذي كانت تتوافد عليه جموع الشعراء ينشدونه أروع الأشعار، استحال إلى رجل فقير مأواه كوخ حقير، وشتّان بين إشبيلية وأغمات.

ومع ذلك، ظل الشعراء يفدون إليه من كل فجٍّ، بين من يرجو العطاء، وبين من يأمل اللقاء، ومن هؤلاء الذين أنشدوا المعتمد تكسُّبًا

الحصري الضرير، فما إن سمع أهل الكدية ذلك حتى هبُّوا إلى المعتمد زرافات يطمعون في العطاء، فردّ عليهم:

شُعَــرَاءُ طنْجَـة كُلُّهُـمْ والمَغْــرِب ... ذهَبُوا مِنَ الإغـرَابِ أبْعَـدَ مَـذهَب
سَألُوا العَسِيرَ مِنَ الأسِيرِ، وإنَّـهُ ... بسُؤالِهِمْ لأحَقُّ مِنْهُمْ فاعْجَب[١٣]
لــوْلا الحَيَــاءُ وعِــزة لَخْمِيَّــــة ... طيَّ الحَشَا، لحَاكَاهُمْ فِي المَطلَب

تعجّب المعتمد من فعل شعراء المغرب الذين سألوه العطاء، و هو أحوج إليه منهم، بل لربما كان هو سائلهم لولا نخوته وعِزَّة نفسه.

وإذا كانت هذه حال شعراء المغرب، فإنّ الأمر يختلف عند شاعر كابن حمديس الذي شدّ الرحال لزيارة المعتمد فمنعه الحراس، الأمر الذي حزّ في نفس الأسير، فكتب إليه يعتذر:

حجبت فلا و الله ما ذاك عن أمري ... فاصغ فدَتْكَ النفسُ سمعًا إلى عذري
فمَا صَارَ إخْلالٌ لِلمَكَارِمِ لِي هَوى ... وَلا دَارَ إخْجَالٌ لِمِثلِكَ فِي صَدْرِي[١٤]

انظر إليه وهو يقدّم الأعذار بين يدي ابن حمديس، ملتمسًا منه العفو؛ فالأمر لم يعد بيده، ولم يعد الآمر الناهي، ثم رأى أن يُطيِّب خاطره، فنوّه بشِعره الذي كان يسحر الألباب:

وأنْتَ ابْنُ حَمْدِيس الذِي كُنْتَ مُهْدِيًا[١٥]
لنَا السِّحْرَ إنْ لمْ نَأتِ فِي زَمَنِ السِّحْر

ويقصد شاعر آخر المعتمد، إنه ابن اللبانة الذي توطدت علاقته به، وتجاوزت طبيعة علاقة الشاعر بملِكٍ ممدوح إلى علاقة صداقة ومحبّة لا[١٦] تدنّسها شوائب المادة.

فلمّا عزم ابن اللبانة على الرحيل، أهداه المعتمد هدية ثم أنشد:

إلَيْـكَ النُّـزْرُ مِـنْ كَـفِّ الأسِـيرِ فإنْ تَقنَـعْ تَكُـنْ عَيْنَ الـشَّكُور[١٧]
وَلا تَعْجَـبْ لِخَطْـبٍ غَـضَّ مِنْـهُ ألَـيْسَ الخَـسْفُ مُلْتَـزِمَ البُـدُور؟

انظر إليه وهو يرجو من ابن اللبانة قبول الهديّة المتواضعة، فذلك أقصى ما يقدّمه أسير مثله كان بالأمس بدرًا منيرًا فأدركه الخسوف.

و لكن ابن اللبانة ردّ على المعتمد هديّته، وهو ما حزّ في نفسه فأنشد:

رَدَّ بِـرِّي بَغْيًـا عَلَـيَّ وَبِـرًّا[١٨] وجَفَـا فاسْـتَحَقَّ لَوْمًـا وشُـكْرًا

أدرك المعتمد أنّ الداني إنما ردّ عليه هديّته بِرًّا به وشفقة على حاله، فهو يستحق الشكر، ولكن فعله هذا مع المِلِك يعدّ بغيًا؛ لأنّ المعتمد لم يتعوّد أن تُردّ عطاياه.

وابن اللبانة حين عاد إلى وطنه ترك فؤاده مع المعتمد يواسيه ويربت عليه، فيردّ الأسير عليه بأشعار ذات شجون:

تَحَلَيْـتَ بالـدَّانِي وأنْـتَ مُبَاعِـدٌ فيَا طِيـبَ بَـدْءٍ لـوْ تَـلاهُ تَمَـام[١٩]
أضَـاءَ لنَـا أغْمَـاتَ قرْبُـكَ بُرْهَـة وعَـادَ بِهَـا حِـينَ ارْتَحَلـتَ ظَـلام

عاتب المعتمد صديقه معاتبة لطيفة، فخاطبه بأنّ اسمه الداني -أي القريب- ولكنه بخلاف اسمه بعيد، ثم هو يسبغ على ابن اللبانة صفة الضياء، إذ أضاءت أغمات به، فلمّا رحل أظلمت من جديد.

غربة المكان وقسوة الزمان:

المكان غير المكان:

تغيّر في حياة المعتمد كل شيء: اللقب والسكن والوطن والصحبة وأمور

كثيرة، هو الآن في أغمات "في سجنه يتفكر في تقلب الأقدار وتصريف الأمور، فيصوّر كل ما يدور حوله أو يخطر في خلده بأشعاره الرقيقة، وأسلوبه المؤثر[٢٠].

غَرِيبٌ بأَرْضِ المغْرِبِينَ أَسِير سَيَبْكِي عَلَيْهِ مِنبَرٌ وَسَرِير[٢١]❖

وأغمات لم تسلب المعتمد حريته وحسب، ولكنها سلبته سعة ذات اليد والبذل بلا حدٍّ:

إذا قِيلَ فِي أغمَاتَ قدْ مَاتَ جُودُهُ فمَا يُرْتجَى للجُودِ بَعْدُ نُشُور[٢٢]

ليس هذا فقط، فإنه لم يذل ولم يرق ماء وجهه إلا ها هنا، يقول منوِّهًا بشرفه وشرف أجداده:

أذلَّ بَنِي مَاء السَّمَاءِ زمَانُهُمْ وذلُّ بَنِي مَاءِ السَّمَاءِ كَبِير[٢٣]

والشعور بالذلّ سيظلّ يرافق المعتمد إلى أن يواريه التراب:

وأبْقى أسَامُ الذلَّ في أرْضِ غُرْبَةٍ ومَا كُنْتُ لوْلا الغدْر ذاكَ أسَام[٢٤]

وأغمات أيضًا سيمفونية حزينة، تورث النفس ثقلاً وكآبة:

غنَّتكَ أغمَاتِيَّة الألحَانِ ثقلتْ عَلى الأرْوَاح والأبْدَان[٢٥]

ومرّ عليه سرب من القطا يمرح في الجو لا تكبّله قيود ولا أغلال، فشعر بالضيق فأنشد:

بَكَيْتُ إلى سِرْبِ القطا إذ مَرَرْنَ بِي سَوَارِحَ لا سِجْنٌ يَعُوقُ ولا كِبْل[٢٦]

فهو مسلوب الحرية، وهي تطير في الهواء الطلق، ولكنه لا يتمنَّى بأيّ حال من الأحوال أن تقع وفراخها في الشَّرَك، كحاله وحال أبنائه الذين يشتاقون الماء والظل:

ألا عَـصَمَ الله القَطَـا فِـي فِرَاخِهَـا   فإنَّ فِرَاخِي خَانَهَا المَاءُ والظِّلّ[٢٧]

شكوى الزمن:

يقف المتتبّع لأسريات المعتمد على إكثاره من شكوى الزمن والبرم به، والسخط عليه:

قـــبِّحَ الـــدَّهْرُ فمَـــاذا صَـــنَعَا   كُلّمَـــا أعْطـــى نَفِيـــسًا نَزعَـــا[٢٨]

وهو يخاطبه حينًا آخر بحدّة أقلّ، فيعاتبه على شدّته عليه وعدم غفران ذنوبه:

أَبَى الدَّهْرُ أنْ يُقنِـي الحَيَـاءَ ويَنْدَمَـا   وأنْ يَمْحُو الذنبَ الذِي كَانَ قدَّمَا[٢٩]

و يتألم من غِيَر الأيام التي أحالته المأمور المنهي بعد أن كان الآمر الناهي:

قـدْ كَـانَ دَهْـرُكَ إنْ تَـأمُرْهُ مُمْتَثِلا   فـرَدَّكَ الـدَّهْرُ مَنْهِيًّـا ومًـأمُورا[٣٠]

تلك أعاجيب الدهر الذي سلب المعتمد الإرادة، فصيّره مَسُودًا بعد أن كان سيِّدًا، ولكنّ الحظّ قد يبتسم لبعضهم كما في قول البحتريُّ:

مَـذهَبٌ فِـي الـبَلاءِ بَـرَزْتَ فِيـهِ   قـدْ يُـسَادُ الـشَّرِيفُ ثـمَّ يَـسُود[٣١]

والدهر لا يؤمن غدره، والمعتمد يدرك ذلك:

مَتَى رَأيْت صُرُوفَ الدَّهْرِ تارِكَة   إذا انبَرَتْ لِذوِي الأخطارِ أرْمَاقا[٣٢]

وهو حنق عليه وعلى غيره من الأحرار:

حنـــق الـــدهر علينـــا فـــسطا   وكـذا الـدهر علـى الحـر حنـق[٣٣]

والشاعر يدرك أنّ كل ما أصابه هو من القدر:

مـاذا رمتـك بـه الأيـام يـا كبـدي   من نبلهن ولا رام سوى القـدر[٣٤]

ويعزِّي نفسه، فيقنعها بأنّ كل سلطان في الدنيا فوقه سلطان الدهر:

أما سمعت بسلطان شبيهك قد   بزته سود خطوب الدهر سلطانا[٣٥]

ثم إنّ الدهر متقلّب متلوِّن:

من بات بعدك في ملك يسرّ به   فإنما بات بالأحلام مغرورا[٣٦](*)

لا سبيل إلى الصبر:

يقف المعتمد أمام هذه النكبات والمصائب التي ألَمّتْ به، وأرزاء الدهر التي رماه بها حائرًا: أيصبر ويتجلّد؟ أم يطلق العنان لدموعه وأنّاته؟

الواقع أنّ أسريات المعتمد تتراوح بين هذين الاتجاهين؛ الصبر والتذمر، فالشاعر يتجمّل بالصبر أحيانًا، ويظهر القناعة والرضا، وأكثر ما يتجلّى هذا في تلك الحِكَم والزهديات -على قلّتها- التي نظمها في أغمات:

أرى الدنيا الدنيّة لا تواتي   فأجمل في التصرف والطلاب[٣٧]

فأولها رجاء من سراب   وآخرها رِداء من تراب

فهو يدرك تمامًا أنّ الدنيا لا تعطي بيد إلا لتصفع بالأخرى، وأنّ حياة الإنسان هي أشبه بالسراب وآخرها مواراة في التراب.

ويدعو في موضع مشابه إلى القناعة في هذه الدنيا، وتعزية النفس إذا فارقت الوطن؛ لأنّ في ذلك موتها الحقيقي:

اقنع بحظك في دنياك ما كانا   وعِزَّ نفسَك إن فارقت أوطانا[٣٨]

وقد يصل المعتمد، أحيانًا، إلى أعلى درجات الصبر والتجلّد، فيعاتب عينه التي لا تكفّ عن البكاء كلّما تذكرت الأيام الخوالي:

أكلّما سنحت ذكرى طربت لها   مجت دموعك في خديك طوفانا[٣٩]

وإذا كان المعتمد قد أظهر صبرًا في مناسبات عديدة، إلا أنّ نفسه كانت تخونه في أحايين كثيرة، فيفزع ويجزع ويبكي بحرارة وألم كبيرين:

أما لانسكاب الدمع في الخدِّ راحة لقد آن أن يفنى ويفنى به الخد[٤٠]

وإذا كان من طبيعة الإنسان أن يُسرّ بالدعاء بطول العمر، فإنّ الأمر يختلف عند المعتمد الذي بات يفضِّل الموت على الحياة لدرجة أصبحت فيها المنيّة أحب الأشياء إليه:

دعا لي بالبقاء وكيف يهوى أسير أن يطول به البقاء[٤١]

أليس الموت أروح من حياة يطول على الشقي بها الشقاء[٤٢]

فمن يك من هواه لقاء حب فإنّ هواي من حتفي اللقاء

بيد أنّ الذي قصم ظهر المعتمد أكثر من أيّ شيء آخر، هو فقدانه أولاده، فمهما يكن يظلّ الأسير متعلّقًا بشعاع أمل، فإذا المصائب تنزل عليه تباعًا، وأيّ مصيبة أكبر من فقدان الراضي والمأمون اللّذَين قتلتهما جيوش المرابطين؟ يقول متألمًا:

يقولون صبرًا لا سبيل إلى الصبر سأبكي وأبكي ما تطاول من عمري

مدى الدهر فليبك الغمام مصابه بصنويه يعذر في البكاء مدى الدهر[٤٣]

انظر إليه وهو يجزع هذا الجزع معلنًا أن لا صبر ولكن بكاء مدى الدهر، بكاء الخنساء على صخر، إذ قالت:

فلا والله لا أنساك حتى أفارق مهجتي ويشقّ رمسي[٤٤]

والشاعر لم يفقد ابنين عاديين ولكن كوكبين شامخين[*][٤٥]:

هوى الكوكبان الفتح ثم شقيقه يزيد فهل بعد الكواكب من صبر؟

وما يزيد الشاعر لوعة، أنّ ابنيه قضيا نحبهما في زهرة الشباب:

تولَّيتمـا والـسن بعـد صـغيرة ولم تلبث الأيام أن صغرت قدري[٤٦]

لكن الشيء الذي وجد فيه الشاعر عزاءه، هو وفاة ابنيه في ساحة القتال، إذ ماتا ميتة الأبطال، وذلك خير لهما من رؤيته أسيرًا مقيَّدًا:

تولَّيتما حين انتهت بكما العـلا إلى غاية كـل إلى غاية يجـري[٤٧]

فلو عدتما لاخترتما العَوْدَ في الثرى إذا أنتما أبصـرتماني فـي الأسـر

ويصوّر المعتمد حزن اعتماد، الذي لا يقلّ عن حزنه، فصدرها يتّقد نارًا ولكنها، أحيانًا، تظهر الصبر –على مضض– لنيل الأجر:

معي الأخوات الهالكات عليكما وأمّكما الثكلى المضرمة الصدر

تذلّلهـا الـذكرى فتفـزع للبكـا وتصبر في الأحيان شحًّا على الأجر[٤٨]

والمعتمد يأبى إلا أن يبكي الدهر، فإذا خانته دموعه عاتبها بشدة:

فما لي لا أبكي أم القلب صخرة وكم صخرة في الأرض يجري بها نهر[٤٩]

ويستمر في رثاء أبنائه الذين ترك فقدهم فراغًا كبيرًا في حياته، فجذوة القلب مشتعلة لا تنطفئ، بل هي بركان ثائر مدى الدهر:

ونـار برقـك تخبـو إثـر وقـدتها ونار قلبي تبقى الـدهر بركانـا[٥٠]

فشتّان بين نار البرق التي تنطفئ بعد ثوان، ونار المعتمد المشتعلة أبدًا.

ويتعجب الشاعر من قلبه الذي جمع بين الماء والنار، وهما ضدان لا يلتقيان، فالقلب من مضغة من ماء، والنار أوقدتها الأحزان، ولكن الدهر جمعهما وله في ذلك شؤون:

ضـدان ألّـف الـدهر بينهمـا لقـد تلـون في الـدهر ألوانـا[٥١]

الماضي والحاضر– المعادلة الصعبة:

إنّ استرجاع الذكريات السعيدة لا يغيّر من الحاضر شيئًا، بيد أنّ فيه نوعًا من التسلية والترويح عن النفس، وإلى هذا لجأ المعتمد «فأحسن الأشياء التي تعرف ويتأثر لها هي الأشياء التي فطرت النفوس على[٥٢] استلذاذها أو التألّم منها، كالذكريات للعهود الحميدة المنصرمة، الأمر الذي»[٥٣] يثمر الوهم والسرور و الفرحة، لكنه سرور ممتزج بالحسرة الدائمة.

ومأساة المعتمد تختلف عن مأساة الأسير العادي فألمه ألم نفسي وروحي «مبعثه التباين بين حياته الماضية، وحياته في المنفى، وأساسه[٥٤] الاختلاف الواضح بين الحضارة التي كان يعيش في ظلها، والبربرية التي وجد نفسه بين أنيابها في منفاه، ذلك الاختلاف البعيد بين قصور إشبيلية»[٥٥] وأكواخ المغرب.

تبدلت حال المعتمد من النقيض إلى النقيض، من العِزِّ إلى الذلِّ، حتى إنّ الحديد الذي كان سلاحه ذات يوم أصبح قيدًا له يعضّه عضّ الأُسُود:

تبدلت من عز ظل البنود ... بذل الحديد وثقل القيود
وكان حديدي سنانًا ذليقًا ... وعضبًا دقيقًا صقيل الحديد[٥٦]
فقد صار ذاك وذا أدهما ... يعض بساقي عض الأسود

كنت بالعيد مسرورًا:

أتى العيد ولكن طعمه مر كالعلقم، ذلك لأنّ عادة الناس في الأعياد إظهار الفرحة والتزيّن بأجمل الثياب، لكن الأمر يختلف عند المعتمد،

فعيده لم يأت بجديد ولكن قلب عليه أوجاعه، و زاده ألمًا على آلامه:

فيمــا مــضى كنــت بالأعيــاد فساءك العيد في أغمات مأسورا[٥٧]

وتزيد معاناة الشاعر حين يرى الأطفال مبتهجين بالعيد، بينما بناته جائعات يغزلن للناس، وفي العيد الماضي فقط كنّ أميرات حولهن الخدم والحشم، ثم يصوّر كيف جئن إليه يلقين تحية العيد منكسرات، لا يرفعن رؤوسهن:

ترى بناتك في الأطمار جائعة يغزلن للناس، ما يملكن قطميرا

برزن نحوك للتسليم خاشعة أبصارهن حسيرات مكاسيرا[٥٨]

ويتذكر يوم الطين، يوم مشت اعتماد وبناتها على المسك والكافور، فإذا بهن اليوم حافيات يمشين على طين أغمات:

يطأن في الطين والأقدام حافية كأنها لم تطأ مسكًا وكافورا[٥٩]

فكيف يرضى بالعيش، ويتمنَّى طولَ العمر، بعد هذا كله؟

أليرى بناته ذليلات يخدمن بنات من كان بالأمس خادمًا له، يحجب عنه الزوار ويركض ذات اليمين وذات الشمال لينظّم جيشًا، أو يقدّم خدمة؟

أأرغب أن أعيش أرى بناتي عواري قد أضرّ بها الجفاء

خوادم بنت من قد كان أعلى مراتبه -إذ أبدو- النداء

وطرد الناس بين يدي ممري وكفهم إذا غص الفناء[٦٠]

وركض عن يمين أو شمال لنظم الجيش إن رفع اللواء

هكذا مزج المعتمد الماضي بالحاضر، ليحقق الزمن المنتظر، زمن[٦١]

الصيرورة أو الزمن البديل، هذا الانتظار هو مصدر توتّر الشاعر، لأنه يدرك تمامًا أن لا طائل من ذلك، فرجوع الماضي مستحيل، والرضا بالحاضر صعب لكنه ممكن، وبين هذا وذاك ظل المعتمد حائرًا غير مصدق، حتى تقطّعت به الأسباب وواراه التراب.

قبر الغريب:

لقد شعر المعتمد بدنوّ أجله، فرثى نفسه لا على طريقة من يئسوا من حياتهم لمرض عضال أو أمل ضائع، و إنما كان يرثي مُلْكَه ويبكي دولته[٦٢].

قبر الغريب سقاك الرائح الغادي حقًّا ظفرت بأشلاء ابن عباد

ثم يهنئ قبره على هذا الدفين الذي طالما امتاز:

بالحلم، بالعلم بالنعمى إذا اتصلت بالخصب إن جدبوا بالري للصادي[٦٣]

ويختم أبياته برجاء لم يطلبه ولكنه تمناه[٦٤]:

ولا تزال صلوات الله دائمة على دفينك لا تحصى بتعداد

عاشت الأندلس منذ فتحها في فتن وحروب، كما شهدت سقوط ملوك وممالك لا تحصى، ولكن نكبة المعتمد كانت الأقوى تأثيرًا، يقول إحسان عباس: «قصة انهيار البطل الحامي للأدب والشِّعر، كانت أعمق أثرًا من سواها»[٦٥]، «فلم يكتب التاريخ في الأندلس العربي صفحة زاهية قاتمة، ومشرقة حزينة، فيها كل مقوّمات المجد والسؤدد والخلود، وكل مظاهر الحزن والذلّة والأسى كصفحة ابن عبّاد»[٦٦].

ولا عجب فالمعتمد كان نجمًا فغاب، وشمسًا فأفلت، بل لقد عقمت الأندلس فلم تنجب بعده رجلاً في مثل شجاعته وكرمه وشاعريته.

الهوامش:

❖ أستاذة الأدب الأندلسي والحضارة المتوسطية، جامعة تلمسان، الجزائر.

(١) **الغربة والحنين في الشِّعر الأندلسي**: فاطمة طحطح: جامعة محمد الخامس، ط١ المغرب، ١٩٩٣م، ٥٣.

(٢) يعدّ ابن سعيد أكثر الشعراء الذين عبّروا عن الغربة التي كادت أن تكون ديوانًا كاملاً من شِعره؛ ينظر: **دراسات في أدب المغرب والأندلس**: فوزي سعد عيسى، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ٢٠٠٠م، ٣٠.

(٣) **الغربة والحنين في الشِّعر الأندلسي**: ١٨٧.

(٤) **ديوان المعتمد بن عبّاد**، تح: رضا الحبيب السويسي، الدار التونسية للنشر، دط، ١٩٧٥، ١٤٧.

(٥) م. ن: ١٤٧.

(٦) إشارة إلى كذب المنجِّمين أيام المعتصم العباسي حول فتح عمورية.

(٧) الديوان: ١٤٨.

(٨) م ن: ١٥٠.

(٩) م ن: ١٥٠.

(١٠) الديوان: ١٥٠- ١٥١.

(١١) م. ن: ١٥١.

(١٢) م. ن: ١٥٦.

(١٣) الديوان: ١٥٤.

(١٤) الديوان: ١٧٢-١٧٣.

(١٥) م. ن: ١٧٣.

(١٦) ينظر: **شِعر ابن اللبانة الداني**: تح: محمد مجيد السعيد، الداني، منشورات جامعة البصرة، بغداد، ١٩٧٧م، ٦.

(١٧) الديوان: ١٧٤.

(١٨) الديوان: ١٧٥.

(١٩) م. ن: ١٧٧.

(٢٠) **انتصارات يوسف بن تاشفين**: حامد محمد الخليفة، مكتبة الصحابة، الإمارات، ط١، الشارقة، ٢٠٠٤م، ٢١٠.

(٢١) **ديوان المعتمد**: ١٧١.

❖ كتب المعتمد هذا البيت لابن حمديس فردّ عليه:

جرى بك جد بالكرام عثور   وجار زمان كنت فيه تجير

ديوان ابن حمديس، تح: إحسان عباس، دار صادر، بيروت: ٢٦٨.

(٢٢) م. ن: ١٧١.

(٢٣) م. ن: ١٧١.

(٢٤) الديوان: ١٧٧.

(٢٥) م. ن: ١٨٣.

(٢٦) م. ن: ١٨٧.

(٢٧) م. ن: ١٨.

(٢٨) الديوان: ١٥٤.

(٢٩) م. ن: ١٦٨.

(٣٠) م. ن: ١٦٩.

(٣١) **شرح ديوان البحتري**: إيليا حاوي، الشركة العالمية للكتاب، بيروت، ط١، ٤٢٠/٢.

(٣٢) ديوان المعتمد: ١٨١.

(٣٣) الديوان: ١٨٩.

(٣٤) م. ن: ١٨٩.

(٣٥) م. ن: ١٩٢.

(٣٦) ديوان المعتمد: ١٦٩.

❖- مثل هذا قول أبي البقاء الرندي:

لكل شيء إذا ما تم نقصان فلا يغر بطيب العيش إنسان

- **أزهار الرياض في أخبار عياض**: شهاب الدين أحمد بن محمد المقري التلمساني، اللجنة المشتركة لنشر التراث الإسلامي المغرب، الإمارات، ٢٨/١.

(٣٧) الديوان: ١٥٢.

(٣٨) م. ن: ١٩٢.

(٣٩) م. ن: ١٩٢.

(٤٠) الديوان: ١٨٥.

(٤١) يقصد: الوزير أبو العلاء زهر بن عبد الملك بن زهر.

(٤٢) م. ن: ١٧٦.

(٤٣) م. ن: ١٦٢.

(٤٤) ديوان الخنساء: ٨٥.

(٤٥) ديوان المعتمد: ١٦٣.

❖- الفتح هو الراضي، ويزيد هو المأمون.

(٤٦) م. ن: ١٦٣.

(٤٧) م. ن: ١٦٣.

(٤٨) الديوان: ١٦٣.

(٤٩) م. ن: ١٦٥.

(٥٠) م. ن: ١٦٦.

(٥١) م. ن: ١٦٦.

(٥٢) **منهاج البلغاء وسراج الأدباء**: أبو حازم القرطاجني، تح: محمد الحبيب بن الخوجة، دار الغرب الإسلامي، ط٢، بيروت، ١٩٨١: ٢١.

(٥٣) **دراسات في الأدب الأندلسي**: محمد سعيد محمد، منشورات جامعة سبها/ليبيا، ط١، ٢٠٠١م. ١٢٣.

(٥٤) البربرية مصطلح أطلقه الغربيون والمستشرقون على السكان الأصليين لشمال إفريقيا (الأمازيغ)، وتعني الحياة الموحشة البعيدة عن الحضارة .

(٥٥) **تاريخ الفكر الأندلسي**: آنجيل جنثالث بالنثيا، تر: حسين مؤنس، مكتبة النهضة الدينية، ط١، القاهرة، ١٩٥٥م، ١٠٢.

(٥٦) **ديوان المعتمد**: ١٧٠.

(٥٧) م. ن: ١٦٨.

(٥٨) م. ن: ١٦٩.

(٥٩) م. ن: ١٦٩.

(٦٠) م. ن: ١٧٦

(٦١) ينظر: **دراسات في الأدب الأندلسي**: ١٣١.

(٦٢) **ديوان المعتمد**: ١٩٣.

(٦٣) الديوان: ١٩٣.

(٦٤) م. ن: ١٩٤.

(٦٥) **تاريخ الأدب الأندلسي– عصر الطوائف و المرابطين**، إحسان عباس، دار الشروق، ط١، الأردن، ٢٠٠١م، ١٥١.

(٦٦) **القطوف اليانعة من ثمار جنة الأندلس الإسلامي اليانعة**: عبد الله أنيس الطباع، دار ابن زيدون، ط١، بيروت، ١٩٨٦، عبد الله أنيس الطباع، ١٩٣.

معلّقة امرئ القيس وأثرها في الشِّعر العربي
(٢)

بقلم: د. عبد الحميد محمد بدران*

ب- المطارحات:

وهي عبارة عن مساجلة إخوانية تحدث بين اثنين، سواء أكان مضمون القول للقائل أو لغيره[١]، وهذه المساجلات الأدبية كانت تتميز بالطرافة، لأنّ غايتها هي تحقيق المتعة الفنية وإثبات الذات في آن معًا.

وقد أحسن الشعراء استغلال معاني معلقة امرئ القيس وتوظيفها في صورة بعض المطارحات الأدبية الجيّدة، كالمطارحة التي حدثت بين محمد ابن محمد الطيب المالكي وبعض أحبابه، حيث أرسل إليه محمد تذييلاً على بيت امرئ القيس[٢]:

قِفَا نَبْكِ مِن ذِكرى حبيبٍ ومنزل ... بسقط اللوى بين الدخول فحومل

قفا بربوع العامرية إنني ... كلفت بها من حين عهد التحمل

ولوذا بها ثم انشقا طيب عرفها ... وقصا حديثًا للأسيف المعلل

فيا سائق الأظعان يطوي فدا فدا ... إلى دوحة الجرعا رويدك فانزل

بجيرة نجد سادة الحيّ كم روت ... ثقاة لهم طيب الحديث المسلسل

فـديتهم مـن جـيرة لا عـدمتهم حمـــاة زمــام للنزيــل الملـــل

لنـارهم تعـشو الـسرات وترتـوي بحوضهم الأصفى على كل منهل

سقتهم غـديقات التهـاني كرامـة وأخـصب واديهـم بنـد ومنـدل

ونادى بشوق مذ غدا الركب سـائلاً قِفَا نَبْكِ مِن ذِكرى حبيبٍ ومنـزل

فأجابه صاحبه بقوله :

لك اللّه يا حادي الركاب مغلسًا إلى الحرم القدسي رويـدك فـانزل

وروّى نفوسًــا بالمقــام ولا تقــل قِفَا نَبْك مِن ذِكرى حبيبٍ ومنـزل

ودعنا على بسط المسرّة والـصفا بسقط اللوى بين الدخول فحومـل

وروّح فــؤادي بالوصـــال هنيـــة بمـشهد مولانـا الوجيـه المكمـل

حديقـة فـضل بالمعـارف أثمـرت وشمـس جمـال بالمحاسـن تنجلـي

بـديع بيـان في احتكـام تـصرّف بإجمـال تفـصيل وتفـصيل مجمـل

قـضايا عـلاه بالكمـال تـسوّرت ببرهـان فـضل عـن قيـاس مخـصل

يحـــنّ اشـــتياقًا والهًـــا متولعًـــا إلى المربـع الـسامي بدومـة جنـدل

أراع فـــؤادي بـــالنوى وحديثـــه وسلسل دمعي بالحديث المسلسل

وأحـــرمني طيـــب المنـــام وإنـــه تـسلم قلـبي قبـل يـوم الترحـل

فيـا أيهـا المـولى الـذي حـاز سيرة ترفـــق بـــصب بالبعـــاد مبلبـــل

ولاطفـه إن حـان الـوداع تكرمًـا وروّق لـه كـأس الحـديث وعلـل

وإن فزت بالمسرى إلى الحي والحمى ونحـت بـه فـامنن بحسن الترسـل

وتبدو المطارحة هنا أحكم نسجًا وأقوم قيلاً من التضمين في حسن استغلالها لنسق معلّقة امرئ القيس، وعدم الارتباط باستدعاء بعض شطراتها إلا فيما يحتاجه النص، كما حدث في بعض القصائد التي قامت على تضمين أبيات المعلّقة، حيث صرف صاحب محمد بن محمد بن الطيب المالكي مطارحته من توجيه الرحلة إلى ديار الحبيبة، إلى توجيهها إلى الحرم المكي، ومن ثم كانت مطارحته أشبه بالنقيضة في نقضها معاني مطارحة المالكي على النحو الذي يبدو في مقارنة قول محمد بن محمد الطيب المالكي:

فيا سائق الأظعان يطوي فدا فدا ... إلى دوحة الجرعا رويدك فانزل
... ونادى بشوق مذ غدا الركب سائلاً ... قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل

بقول صاحبه:

لك اللّه يا حادي الركاب مغلسًا ... إلى الحرم القدسي رويدك فانزل
وروّى نفوسًا بالمقام ولا تقل ... قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل

وقد تنحو المطارحة نحو الالتزام باستدعاء العجز من معلّقة امرئ القيس، على النحو الذي تواتر عليه الشعراء في تضمين بعض أعجاز المعلّقة، على النحو الذي يبدو في المطارحة التي دارت بين قاضي القضاة صدر الدين علي بن الآدمي الحنفي وتقي الدين ابن حجة حيث كتب الأول مضمنًا لشِعر امرئ القيس[٣]:

أحن إلى تلك السجايا وإن نأت ... حنين أخي ذكرى حبيب ومنزل
وأذكر ليلات بكم قد تصرّمت ... بدار حبيب لا بدارة جلجل
شكوت إلى الصبر اشتياقي فقال لي ... ترفق ولا تهلك أسًى وتجمل

فقلـت لـه إنـي عليـك معـوّل وهل عند ربع دارس مـن معـوّل

فأجابه الشيخ تقي الدين بن حجة المذكور بقوله[٤]:

سـرت نـسمة مـنكم إلى كأنهـا بريح الـصَّبا جاءت بريا القرنفـل

فقلت لليلى مذ بدا صبح طرسها ألا أيهـا الليـل الطويـل ألا انجـل

ورقت فأشعار امرئ القيس عندها كجلمود صخر حطه السيل من عل

فقلت قفا نضحك لرقّتها علـى قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل

وقد تنتهج المطارحة نهجًا حسنًا، حـين يحـاول الـشاعر محـاذاة القـصيدة الأساس في قصيدة طويلة، على النحو الذي يبدو في تطارح الشيخ جمـال الـدين ابـن نباتـة والـشيخ صـلاح الـدين الـصفدي، حيـث كتـب الـشيخ الصفدي إلى الشيخ ابن نباتة في معنى العتب المفرط أبياتًا منها[٥]:

أفي كلِّ يومٍ منكَ عتْبٌ يَسُوؤني كجُلمود صَخْرٍ حَطَّهُ السَّيْلُ من عَلِ

وترْمي على طولِ المدى مُتَجَنِّيًا بـسهميْك في أَعـشارِ قلـبٍ مُقَتَّـلِ

فأُمْسي بليـلٍ طـالَ جُنْحُ ظلامـهِ علـيَّ بـأَنواعِ الهُمُـومِ ليَبْتَلِـي

وأَغدو كأَنَّ القلبَ من وقدَةِ الجوَى إذا جاشَ فيه حَمْيُهُ غَلْيُ مرجَلِ

تَطـيرُ شَـظاياهُ بـصدري كأَنَّهـا بأرجائهِ القصوى أنـابيشُ عُنْصُلِ

وسالتْ دُموعي من هُمومي ولوْعَتي على النَّحْرِ حتَّى بَلَّ دَمعي محملِي

إذا عاين الأخوان ما بي من الأسى يقولـون لا تهلـك أسـى وتجمـلِ

تَرَفَّقْ ولا تجزَعْ على فائـتِ الوَفَـا فما عنـدَ رسـمٍ دارسٍ مـن مُعـوَّلِ

ولي فيك ود طال ما قد شددته بـأمراس كتـان إلى صـم جنـدلِ

ولي خطرات فيك منها جوانحي صبحن سلافًا من رحيق مفلفلِ

فأجابه الشيخ جمال الدين ابن نباتة متهكمًا في المطلع والتهكم فيه غاية لا تكاد تخفى على حذاق الأدب بقوله:

فطمت ولائي ثمَّ أَقْبَلْتَ عاتبًا أفاطِمُ مَهْلاً بعض هذا التدلُّلِ
برُوحيَ ألفاظ تعرض عَتْبُها تعرُّض أَثناءَ الوشاح المفَصَّلِ
فأَحْيَيْتَ ودًّا كانَ كالرَّسمِ عافيًا بسقطِ اللّوى بين الدُّخولِ فحوملِ
تُعَفِّي رياحُ العذلِ منك رُقومَهُ لما نسَجَتْها من جَنوب وشمألِ
نعَمْ قوضَتْ منك المودَّة وانْقَضَتْ فيا عَجَبًا من رَحْلَها المتحمَّلِ
ونامت على الباكي ولم يدر جفنها دراه ولم ينضح بماء فيغسلِ
فداك سهادي في الدجى من مودة تؤم الضحى لم تنطبق عن تفصلِ
أَمولايَ لا تسْلُكْ من الظلم والجفا بنا بَطْنَ خَبْتٍ ذي قِفَاف عَقَنْقَلِ
ولا تنسَ منِّي صُحْبَةً تصدع الدُّجى بصبحٍ وما الإصباحُ منكَ بأَمثلِ
صحبتك لا ألوي على صاحب عطا يجيد معمٍّ في العشيرة مخوّلِ
وخافيت حتى من هوى أين مهجتي فألهيتها عن ذي تمائم محولِ
... ولما تجاذبنا العتاب موشعًا نزول اليماني بالعياب المجمَّلِ
بنينا الولا الواهي فلم يبق معهدًا ولا أطمًا إلا مشيدًا بجندلِ
وعدنا لود يملأ القلب عوده بشحمٍ كهدَّاب الدّمقس المفتلِ
أعدت صلاح الدين عهد مودة بكل مغار الفتل شدَّت بيذبلِ
فدونكَ عَتْبي اللَّفْظُ ليسَ بفاحشٍ إذا هي نَصَّتهُ ولا بمعَطَّلِ

وعاداتُ حبّ هنَّ أَشهر من فيك قِفَا نَبْكِ مِن ذِكرى حبيبٍ ومنزلِ

معلّقة امرئ القيس - الامتصاص والتحويل

اتسعت دائرة التأثير والتأثر في المعاني والألفاظ في العصر الحديث لدرجة جعل معها النقاد في هذا العصر يعدون النص الأدبي مجرد هضم جيد لنصوص سابقة عليه، سواء أكانت هذه النصوص إبداعية أم تاريخية أم ثقافية، على ما يبدو من حديث النقاد حول ما عرف باسم (التناص)، الذي يعني «وجود علاقة ما تربط بين نص شِعري وسواه من النصوص الشعرية، سواء كانت هذه العلاقة جزئية أم كلية، إيجابية أم سلبية»[٦]، أو هو «مجموعة النصوص التي نجد بينها وبين النص الذي نحن بصدد قراءته قرابة، وهو مجموع النصوص التي نستحضرها من ذاكرتنا عند قراءة مقطع معيّن»[٧].

ويلوح أنّ التناص -كما هو في النقد الأدبي الحديث- ظاهرة ليست غريبة علي الساحة العربية النقدية، وإن كانت لم تفرض حلولها المقنن على هذه الساحة في الوقت ذاته، مما يحرّض على قيام دراسة علمية جادة، تلمّ شتات هذه الظاهرة من أصولها القديمة كالاقتباس والاكتفاء والتضمين والمعارضة والإشارة، وغيرها من المفاهيم العربية الأصيلة[٨]، التي تؤكد احتواء النص على نصوص أخرى تلتقي معه في كثير من الجوانب التي تضيء التجربة الشعرية، وتكسبها مزيدًا من الأصالة والشمول في آن معًا؛ لأنّ «التناص في الواقع هو الصياغة ما بعد الحداثية

البراقة للسرقات الأدبية المقننة، والتي عرفها عبد القاهر الجرجاني بـ(الاحتذاء)... قضية السرقات الشعرية في البلاغة العربية انتهت إلى حتمية الاحتذاء في المعاني وفي الألفاظ، بل حتى في التراكيب والصور المجازية ذات الطبيعة المشتركة، والتناص هو الآخر يرى أنّ الاتفاق في المعاني تناص»[٩].

وإذا كانت جوليا كريستيفا قد عرّفت التناص بأنه (كلّ نص هو امتصاص وتحويل لكثير من نصوص أخرى)، فإنّ ذلك يعني أنّ «أيّ نصّ جديد تشكل من نصوص سابقة أو معاصرة وردت في الذاكرة الشعرية تشكيلاً وظيفيًّا، بحيث يغدو النص الحاضر خلاصة لعدد من النصوص التي امحت الحدود بينها، وكأنّها مصهور من المعادن المختلفة المتنوعة الأحجام والأشكال، فيُعاد تشكيلها وإنتاجها في أحجام وأشكال مختلفة، بحيث لا يبقى بين النّص الجديد وأشلاء النصوص السابقة سوى المادة وبعض البُقع التي تومئ وتشير إلى النّص الغائب»[١٠].

ومن ثم يصبح (كل نص) -في تعريف كريستيفا- مقصودًا به النص الحاضر، و(امتصاص أو تحويل) يقصد به عملية التناص ذاتها، و(نصوص أخرى) يقصد بها النصوص الغائبة، التي شكلت وعي النص الحديث، سواء أكانت تراثية أم معاصرة[١١].

ونحن لا ننكر إطلاقًا أن يكون النص الشعري صدى لثقافات أو تكوينات معرفية، بدليل اعتراف نقّادنا القدامى بعملية التأثر ذاتها كما سلفت الإشارة، وبدليل أننا لم ننكر على من عرف التناص بأنه «قراءة

لنصوص سابقة، وتأويل لهذه النصوص، وإعادة كتابتها ومحاورتها بطرائق عدّة، على أن يتضمن النص الجديد زيادة في المعنى على كل النصوص السابقة التي يتكوّن منها»(١٢)، لأنه يشترط الزيادة التي تحمل طبيعة الموهبة الشعرية في الشاعر، ولكن أن يكون النص بكامله مجرد صدًى لنصوص بعينها كما تقول كريستيفا فهذا ما لا نستسيغه، وخير تدليل على ذلك ما نلاحظه في تكوين الصورة الفنية، إذ إنها تشتمل على مشاهدات الشاعر وقراءاته وعاطفته، ففيها جانب الرؤية وجانب الحفظ، وجانب الانفعال الوجداني من الأديب، ومن ثم فثقافة الشاعر تمثّل ثلث العملية التصويرية التي تمثّل الدعامة الكبرى التي تقوم عليها العملية الشعرية، وهو ما يمكن أن نفهمه من قول الجاحظ عن الشعر إنه «صناعة وضرب من النسج وجنس من التصوير»(١٣).

ومن هذا المنطلق نستطيع أن نحصر التناص الفني في جملة النصوص الفنية الغائبة التي أسهمت في خروج النص الأدبي إلى حيز الوجود، ونعني بالنص الغائب (ذلك النص الفني الجيّد الذي أسهم في تشكيل نص آخر، بحيث يمكن اعتباره رافدًا رئيسًا من روافد التجربة الشعرية في النص الحاضر، سواء أبدا ذلك النص ظاهرًا أم خفيًّا في النص الشِّعري).

واشتراط الفنية في النص من شأنه أن يخرج كثيرًا من النصوص غير الفنية كالتاريخ أو المعلومات الثقافية أو الأساطير، كما أنّ اشتراط النص الواحد يخرج كثيرًا من العمليات التناصية التي تقوم على التعالق النصي مع كثير من النصوص والآثار والثقافات، مع يقيننا في ذات الوقت بأنّ

كثيرًا من نصوص الشِّعر الحديث كانت تتشكل في ذهن الشاعر من نص واحد أساس (النص الغائب) إضافة إلى عدد من الإشارات والتأثيرات التي تتولّد في ذهنه من نصوص أخرى دعت إليها الصورة أو الأسلوب أو الفكرة، وهو أمر ما تعرى منه متقدم ولا متأخر كما قال الآمدي.

وكل هذا يؤكد أنّ الشاعر الجيّد يكون مهمومًا بتجربته، وبما يوفر لها من أصالة الرؤية وجودة الأداة، ومن ثم يأتي اشتراط الإسهام الفاعل في التجربة ردّ فعل طبيعي لاختيار النص الفني الجيّد، الذي ينصهر في التجربة، بحيث يصبح غائبًا وحاضرًا في الوقت ذاته، بما أنه ركن في بناء القصيدة، وبما أنّ وعي الشاعر هو الذي اجتذبه وأتاح له فرصة المشاركة في بناء قصيدته.

ويعدّ (العمْدُ) فاصلاً من الفواصل الجوهرية بين منهج الإعجاب والاحتذاء ومنهج الامتصاص والتحويل؛ لأنّ مدار الأمر في التضمين والمطارحات والمعارضات مثلاً قائم على عمد الشاعر إلى الدخول في صراع القوى، بكل ما يعكسه العمد من شحذ للطاقات وإرغامها على خوض المعركة، أمّا مدار الأمر في الامتصاص فقائم على حوار النص الذي تستدعية التجربة؛ لأنّ ثقافة النقد قد تطورت مع تطور الشكل الشعري (شِعر التفعيلة)، إلى الحد الذي يصعب معه أن نصف تأثر القصيدة الحديثة بالقصيدة التراثية بأنه معارضة أو غير ذلك، لافتقاد القصيدة الحديثة كثيرًا من حدود المعارضة التي عرفها النقاد لها، فالشاعر

لا يتعمد اتباع معاني الآخر، ولا يتعمد نقضها، ولا يلتزم وزنها، وإنما هو يستضيء بتجربة الآخر ليعمق أبعاد تجربته.

ولا شك أنّ احتذاء معلّقة امرئ القيس وحضورها بهذه الكثرة في الوجدان العربي إنما يعكس إعجابًا بطرائق الفن في هذا النص الشعري الجيّد، الذي أخذ الألباب عن طريق إجادة الحكي وتتابع الأحداث كما سلفت الإشارة(١٤)، ولكن هذا الإعجاب كان يتعدّى حدود المعارضة والتضمين والتشطير والتخميس، إلى محاذاة النهج والطريقة، بما يمكن معه أن يصير نص امرئ القيس نصًّا غائبًا، تسرّب إلى ذهن الشاعر، ثم ظهر -من خلال الإشارة إليه- مع آخر شطرة في القصيدة، على النحو الذي يبدو في قول ابن الصيقل الجزري(١٥):

وبتنا نشاوَى من حديث كأنه ... جنى النحل مقطوبٍ بريح القرنفل
لطيفٍ أو الراح المشوبِ بعنبرٍ ... يخامره طعما شهاد وفلفل
وملنا إلى الأضواء نرتع في الدجى ... بروض سديفٍ كالقُطُنِّ المفتل
بكل صَبيح مع فصيح كأنه ... سَحوح سحابٍ مسبلٍ أي مسبل
تراه ربيعًا في الْمُحول وموئلاً ... مع الخوف حتى الدهرَ زادًا لِمُرمل
وكلِّ قؤولٍ للقريض مبرز ... على كل نظامٍ جميلٍ مجمل
ترى عنده قسَّ الفصاحةِ باقلاً ... وشمسًا كنبراس وليثًا كتتفُل
كذا عنده أوسُ بن سعدى وحاتمٌ ... وأهلُ الأيادي مادرٌ في التطّول
شديدٍ لدى شدّ الكماة مكرَّم ... كريم الْمُحيّا مُنزَل حَيز مُنزِل
يتيه على من تاه قِدمًا بقوله ... (قفا نبك من ذكرى وحبيب ومنزل)

فنص امرئ القيس ليس ماثلاً في الشطرة الأخيرة من قول الشاعر فقط، وإنما وجدناه يسري في شرايين القصيدة، ويظهر في مفرداتها (القرنفل–فلفل– المفتل...)، ناهيك عن تأثر التجربة هنا بتجربة امرئ القيس مع حبيبته، حيث أجاد الشاعر أيضًا في نقل القصيدة إلى جانب المدح، مع الاحتفاظ بالحس القصصي الذي يمثل أروع ما فيها، كما يبدو من قوله: (وبتنا نشاوى) (وملنا إلى الأضواء)، ومع الاحتفاظ بأساليب المقامة التي ملأت القصيدة بألوان البديع متمثلة في (الجناس) بأنواعه.

وتدليلاً على اصطحاب ملابسات الحدث كما كان الأمر عند امرئ القيس، رأينا ابن الصيقل الجزري يرسم صورة لإحدى الحفلات المبالغ في إعدادها بما يشبه رسم امرئ القيس لقصة عقر البعير وتجهيزه، على النحو الذي يبدو من قوله: «أشار إلى كل مشارف، بإحضار شارف، وإلى كل قريع، بنحر نحر قريع، وإلى الرعابيب بقضب الرعابيب، وإلى الطهاة بالإنضاج، وإلى السقاة بالإزعاج، فلمّا قدمت القدور، وبادرت إلى المعازف البدور، وتقدمت الخمور، وجعلت العبدان عندها تمور، أمر بقدوم إخوانه إلى خوانه، وحضور خزانه لا حضار خزانه، فظلنا بين شدو ونشيد، وشاعر مشيد، وداعر نجيب، وذاعر مجيب، تجانبنا جنائب المجانبات، وتحابينا حبائب المحابيات»(١٦).

فإذا قرأنا هذا النص وملابساته النثرية، ثم قارناه بقول امرئ القيس(١٧):

ويومٌ عقرت للعذارى مطيتي فيا عجبا من كورها المتحمل
فظَلّ العَذَارَى يَرتَمِينَ بلَحْمِهَا وشَحْمٍ كهُدَّابِ الدِّمَقْسِ الْمُفَتّلِ

أو قوله في القصيدة ذاتها:

فظَلَّ طُهَاةُ اللَّحْمِ ما بَيْنَ مُنْضِجٍ صَفِيفَ شِواءٍ أَوْ قَديرٍ مُعَجَّلِ
وَرُحْنا يَكاد الطَّرْفُ يَقْصرُ دُونهُ متى ما تَرَقَّ العَيْنُ فِيهِ تَسَفَّلِ

إذا قارنا بين النصين اتضح لنا إلى أيّ مدى يمكن أن نعتبر نص امرئ القيس نصًّا مستترًا خلف نص ابن الصيقل، يضيء له الطريق، ويمهّد له السبل، ويكسب تجربته عمقًا ماجنًا، يرفع التجربة الشعرية درجات ودرجات.

وعلى النحو ذاته نستطيع أن نقف مع قول صفي الدين الحلِّي(١٨):

قفا نبك في أطلال ليلى ونسأل دوارسها عن ركبها المتحمل
وننشد من أدراسها كل معلم محاه هبوب الرامسات ومجهل
ونأخذ عن أترابها من ترابها صحيح مقال كالجمان المفصل
معان هوى أقوى بها دأب بينهم كدأبي من تبريح قلب مفلفل
عفت غير سفع من رواكد جثم تحف بشفع من رواكض جفل
ووشم أو أرى سحيل مريرها ليلهى بقاه حول نؤيٍ معطل
فرفقًا بها رفقًا وإن هي لم تنج بلظ ولا تأوي لسائل منزل

حيث يبدو أثر معلّقة امرئ القيس جليًّا على مستوى النهج القصصي والمفردات اللغوية فـ(ركبها المتحمل، وقلب مفلفل، ونؤي معطل) كلها من مفردات امرئ القيس، والشاعر ذاته قد ضمن بعض أشطر المعلّقة في موضع آخر حيث يقول(١٩):

رأى فرسي اصطبل عيسى فقال لي قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل
بـه لم أذق طعـم الـشعير كـأنني بسقط اللوى بين الدخول فحومل
تقعقـع مـن بـرد الـشتاء أضـالعي لَمّا نسجتها مـن جنـوب وشمـال

أمّا في العـصر الحديث فيلـوح إصـرار الـشاعر علـى أن يـضيئ قـصيدته بالتراث، لما يملكه هذا التراث من قدرات مجازة، تتيح لـه سـرعة الوصـول والاستقرار في ذهن المتلقِّي، بما يساعد في تحقيق العمق للتجربة الـشعرية، وتحقيـق العمـق لا يتوقـف علـى مجـرد وجـود الـنص التراثـي في القـصيدة الحديثة، وإنما الأمر متوقف في المقام الأول على إجـادة الـشاعر في اختيـار وتوظيف النص هنا، بحيث يـصبح لبنة فاعلـة في القـصيدة، ولـيس عبئًـا يثقـل كاهلـها، فـالنص التراثـي نـص رسـخت معالمـه في الأذهـان، وهـذا الرسوخ يحتاج من الشاعر إلى مهارة في توظيفه.

والسؤال الآن هو: هل أفلح شعراء العـصر الحـديث في تـوفير توظيـف للمعلّقـة توظيفًـا يـشف عـن قـدرة الـشعراء علـى امتـصاص الـنص التراثـي وتحويله تحويلا فنّيًّا جيّدًا؟

نظـن أنّ توظيـف المعلّقـة في الـشعر الحـديث قـد تحقـق جزئيًّـا في بعـض القصائد التي ظلّت متفـردة بواحديـة الرؤيـة، حيـث تماسّـت مـع جـزء مـن أجـزاء المعلّقـة، ولم تـستطع أن تـستوعب أجزاءهـا، بمـا يجعلـها في النهايـة خلقًـا جديـدًا يـضاف إلى رصـيدها، علـى هـدى مـن رصـيد القـصيدة الأساس، على النحـو الـذي يبـدو في قـصيدة الـشاعر عبـد الحميـد بـدران (بكائيتان)، حيث ركز الشاعر في المقطع الأول منها علـى الانكسار الـذي

أعقب الهزيمة الحقيقية والمعنوية، متخذًا من صورة الجسد وقوفًا على أطلال جديدة، تبدّل فيها الشكل العربي، الذي أصبح عاجزًا عن خوض مغامرات الماضي التي كان فيها يفعل ما يشاء، تمامًا كما كان يفعل امرؤ القيس قبل مطالبته بثأر أبيه، حيث يقول[٢٠]:

قفا نبك مني فوات الفوات ... بسقط اللوى عند تلّ الرفات
وسفك دمي في ديار الخليـ ... ـل ووأد الأماني بنهر الفرات
وطيفي الذي بعثرته الريا ... ح ودوت به ثرثرات الممات
ووجهي الذي أنكرته الوجو ... ه وأضفت عليه أليم الصفات
ورأسي الذي طار منه الصمو ... د وغنى الجنون له أغنيات
وقوفا يهزّ الكيان الضريـ ... ـر ويعصف بالذل والمعضلات
ويحكي زمانا دخلنا الخدور ... لنلهي سلوى عن المخزيات
بدار المذلة يوم الهوا ... ن وشيخ المدينة يروي النكات
أنا الطائر العربي المريـ ... ـض المهيض الجناح الأسير
أناجي الخمول فأجني الخنوع ... وتسخرُ من صبري المشكلات
أنا صوت يونيو نعته الثكالى ... فمات الثكالى مع الذكريات
ومات الضمير وكم مات منا ... لموت الجماد ووأد النبات
أنا من أنا؟ ريشة أم سرا ... ب تلاشى لفقد الكرام الثقات؟
أنا لا أراني وإن كنت أُو ... قِن أنّ الضرير يُحسّ الهنات

ويبدو امتصاص المفردات اللغوية في قصيدة عبد الحميد بدران قادرًا على إقناعنا بتماس الشاعر مع معلقة امرئ القيس بمغامرات امرئ القيس وأماكن لهوه التي تبدو في قوله: (سقط اللوى، دخلنا الخدور)، كما جاء المطلع موائمًا لنزعة الانكسار التي غلّفت جوّ القصيدة، ولوحت بالمخزيات التي تحاصر الأمّة العربية من الفرات إلى النيل، مرورًا بفلسطين الحبيبة.

بينما ركزت الشاعرة فدوى طوقان في قصيدتها (لن أبكي) على جانب الوقوف على الأطلال وزوال أثر الديار التي تهدّمت بفعل الغادر الصهيوني حيث تقول[٢١]:

على أبواب يافا يا أحبّائي
وفي فوضى حطام الدور
بين الردم والشوك
وقفت وقلت للعينين: يا عينين
قِفا نبكِ
على أطلال من رحلوا وفاتوها
تنادي من بناها الدار
وتنعى من بناها الدار
وأنّ القلب منسحقًا
وقال القلب: ما فعلت؟
بك الأيام يا دار؟ وأين القاطنون هنا
وهل جاءتك بعد النأي، هل

جاءتك أخبار؟

هنا كانوا

هنا حلموا

هنا رسموا

مشاريع الغد الآتي وأين همو

وأين همو؟

ولم ينطق حطام الدار

ولم ينطق هناك سوى غيابهمو

وصمت الصّمت، والهجران

وكان هناك جمع البوم والأشباح

غريب الوجه واليد واللسان وكان

يحوّم في حواشيها

يمدّ أصولها فيها

وكان الآمر الناهي

وكان.. وكان..

وغصّ القلب بالأحزان

وعدم الاهتداء لمكان الديار هو الذي جعل حس الغربة يبدو واضحًا وتلقائيًّا في تناصها مع قول المتنبِّي:

ولكـــن الفتـــى العربـــي فيهـــا   غريـــب الوجـــه واليـــد واللـــسان

بينما ركزت قصيدة الشاعر قاسم حداد (سقوط البكائيات الواقفة) على محور البحث عن الذات في معلّقة امرئ القيس حيث يقول[٢٢]:

(قِفا نبكِ)

وهل ظلت دموع لم تصرع أشجار

وهل بقيت لنا وقفه

(قفا).. من قال؟

لا نقف

وإن وقفت سهام الليل عند الباب، إن وقفوا

إذن، فالنار تحت رماد قتلانا وما عرفوا

سنختصر الطريق إليك منذ الآن

نلف كتابنا لفه

ونركب أيّ مهر أو براق نحتمي بالنور،

فانتصبي

أيا أحزان هذا البحر

يا وردًا تفتح داخل الأحداق

يا أغنية، من قال؟

هل وقفت سجونهم

وهل تعطي السماء الخبز؟

لا نقف.

وحين تذيقنا الساعات كيف تصلبت في البرد أقدام

وكيف القوم حين توالد الخطر
غفوا في حانة بلهاء وانتحروا
وحين أتتهم الأخبار ما انتصروا
وقالوا (يومنا خمر وبعد اليوم نفتكر)
لقد هاموا.

وقد استقى الشاعر في رحلة البحث عن الذات جزءًا من تفاصيل حياة امرئ القيس بعد مقتل والده، مستندًا إلى بعض إشارات من خارج القصيدة مثل قوله: (يومنا خمر وبعد اليوم نفتكر)، ليصل إلى الثأر في قوله:

هل خبز يجيء إلى
الجياع غدا بغير دماء؟
إليك على براق الشوق
راحلة قوافل أهلي الفقراء عبر جزيرة العرب
لتبحث في حريق الليل عن لغة تحاور نفسها عن ثأر

كما تحقق توظيف المعلّقة في الشعر الحديث كليًّا في قصيدة (معلّقة جديدة لامرئ قيس جديد) للشاعر الدكتور محمد أحمد العزب[٢٣] التي يقول فيها[٢٤]:

قِفا نبكِ حتى نبلّ الثرى
ونرحل في ذكريات المكان
إلى اللامكان!!
بسقط الضياع

على الأرز
في الحد بين (خيام الخليل)
(وغرناطة الأمس والقدس)
لم يعف رسم الخيانات
في الزمن المستباح الرديء المدان!!
ترى بعر الجهل فوق الشفاه
وتحت الطيالس
حدا لعز الخيال وحدا لذل البيان!!
وقوفا عليّ صحابي بها
يقولون: (لا تبك فوق الطلول)
وقد عرفوا أنّ دمعي يصير
على جسد الأرض جرحا كبيرا
ويقلق في كل جرح محاذ
أمان الأمان!!

❖❖❖❖ ❖❖❖❖

كدأبك من أم صابر
يغفو على رئتيها العذاب
ويصحو على مقلتيها حنان الحنان
وجارتها (أمّ ياسين)
تأبى الأمومة للعار أو للهوان!!

إذا قامتا في الزمان الوراء
تضوّع ثارًا نبيلاً نبيلاً.. صهيل العنان!!
ففاضت دموع القصائد بحرا
يقفّيه بالغضب الشاطئان!!
ألا رب يوم بدارة يونيو
ولاسيما يوم موت اليمام
وعضّ البنان!!
لبست التخلي قميصا
وعاينت كيف يصير الرجال/النساء
وكيف تصير الحدود/الإماء
وكيف تصير الرؤوس/الدنان!!
ويوم عقرت التراب الحميم
وراوغت فيه اقتحام الطعان!!
فظل العذارى يدافعن
ورغم انكسار الخصور
رغم انكفاء السماء على الأرض
حتى استوى السهم والناهدان!!

❖❖❖❖ ❖❖❖❖

ويوم دخلت على الوطن الخدر
خدر النقائض

والغزل المحو في الضد
صرت رطان الرطان!!
ومال الغبيط بنا.. في الشروح/البغايا
وتهنا معًا
في حواشي متون الدخان!!
وقلت لكل المآسي
(ومثلك بلوى طرقت
فألهيتها عن حضانة غيري)
وناحت على طللي نجمتان!!

❖❖❖❖ ❖❖❖❖

ويومًا تجاوزت أحراسها
إليها بفاحش حُبّ عوان!!
وراقصت
واجتحت
واستسلمت خرائطها
لانفعال التنازل
وارتحت في الرقص والعنفوان!!
ونامت غدائر مستشزرات
(إلى الأرض) فوق ذراعي
وتحت سنابك خيلي

إلى اللا أوان!!
وقامرت حتى برمحي
فمات المقاتل فيّ
ومات المدى واستراح الحصان!!
وأيقظني العبد
كان المغول يعودون ملء الشوارع
ملء نزيف التقاسيم ملء اليباب
وكنت أنا قد خسرت الرهان!!

❖❖❖❖ ❖❖❖❖

وليل كموج الهزائم
أرخى عليّ سدولاً سدولاً
وراوغت الضفتان!!
فقلت ألا أيها الليل أنبىء بصبح
وما الصبح (عفوا) بأمثل منك
فأردف قنّا
وناء مهانا مهان!!
فيا لك من ليل فقد طويل
كأنّ النجوم بأمراس حزن
إلى صم يأس
تشير إلى القدس

والقدس تنحل في أورشليم

ويبكي الأذان، ويبكي الأذان، ويبكي الأذان!!

❖❖❖❖ ❖❖❖❖

وقد أغتدي والمغول يجوسون في رئتيّ

بقيد الأوابد وغد الجنان!!

مكر.. مفر

يكر.. أفر

ويقبل.. أدبر

يلتحم النسر والبطّ

وقتًا ركيكًا ويسترخيان!!

ويقرا توراة فتح جديد

ونقرا نحن

تواشيح محو كيان الكيان!!

لقد أعلن الشاعر منذ العنوان خلفية قصيدته التراثية متمثّلة في معلّقة امرئ القيس، وفي هذا التصريح إعلان من الشاعر بأنّ لديه من الأبعاد ما تستطيع معلّقة امرئ القيس أن تضيفه إلى رصيدها الفني، ومن ثم لم ينقل الشاعر النصّ التراثي نقلاً ساذجًا غفلاً، وإنّما عمدَ إلى تعديله وعقد حوار معه، وتغييره بحيثُ انتهى جزءًا من سياق القصيدة وأصلاً من أصولها الأولى؛ لأنّ به تتمّ المقارنة بين حال وحال، وزمن وزمن، ومغامرة ومغامرة.

إنّ الشاعر قد عمل على خداع المتلقِّي وقام باستدراجه، ليقع في أشد الموضوعات الحياتية حيوية وسخونة، من خلال مغامرة ظن فيها أنه سيعيش حالة من العبث الماجن لامرئ قيس داعر، ومن ثم كانت المفارقة التي أفاق معها القارئ على الواقع المريض، فرحلة الشاعر لم تكن للمغامرة، وإنما كانت رحلة في الضمير الإنساني الذي يلتقي هو والشاعر بـ(سقط الضياع)، ومفردات هذه الرحلة قد انتقلت من البداوة متمثلة في (بعر الآرام) إلى التحضر السطحي الذي يتفوّه معه الفرد بمفردات ساذجة، ففي الصورة الأولى كان البعر ميدانًا للسبح الخيالي من الشاعر، توحيه رائحة هذا البعر، وفي الثانية كان بعر الجهل ميدانًا للتفاخر بذلّ البيان.

وتبدو قصيدة الدكتور العزب أقدر القصائد على امتصاص معلّقة امرئ القيس، وتحويلها لمواءمة القضايا المعاصرة، كما أنها تعدّ أحكم القصائد في معالجة التجربة الشعرية بطريقة فنية جيّدة، يمكن الوقوف عليها من خلال وقوفنا على البناء الفكري والصياغة الفنية، والتصوير الفني والموسيقا الشعرية في القصيدة، وهو ما يتضح في البيان التالي:

أولاً- البناء الفكري:

يبدو ترابط البناء الفكري في القصيدة متحققًا بصورة جيّدة، حيث ساعد البناء القصصي في شدّ خيط الوحدة في القصيدة، فقد تعامل الشاعر مع تصوير الهزائم معاملة قصصية جيّدة، من خلال حوار تفجيري في مقاطع القصيدة، يقوم على نقض ما حاولت معلّقة امرئ القيس بناءه؛ ففي

الوقت الذي قامت فيه معلّقة امرئ القيس على التغنّي بمغامرات بطولية نسائية، قامت قصيدة الدكتور العزب على التغنّي بمغامرات بطولية إسلامية:

قِفَا نَبْكِ حتى نبلّ الثرى
ونرحل في ذكريات المكان
إلى اللامكان
بسقط الضياع
على الأرز
في الحد بين (خيام الخليل)
(وغرناطة الأمس والقدس)

وفي الوقت الذي احتلت فيه (أمّ صابر وأمّ الرباب) مساحة ماجنة في فكر الشاعر، كانت (صبرا) و(دير ياسين) يحتلان مساحة دامية في فكر العزب:

كدأبك من أمّ صابر
يغفو على رئتيها العذاب
ويصحو على مقلتيها حنان الحنان
وجارتها (أمّ ياسين)
تأبى الأمومة للعار أو للهوان!!

وبينما كان المكان في المعلّقة مكانًا لاهيًا متمثّلاً في (دارة جلجل) كان المكان في القصيدة مكانًا داميًا نزف فيه الجرح العربي دماء أبطاله على ترابه الطاهر:

ألا ربّ يوم بدارة يونيو
ولاسيما يوم موت اليمام
وعضّ البنان!!

وفي الوقت الذي عقر فيه امرؤ القيس مطيته كلون من ألوان إثبات البطولة والفحولة، فظل العذارى يترامين بلحمها كان العزب يقف مع صورة البطل الشهيد الذي عقر تراب وطنه، ومع العذارى الثائرات اللاتي أخذن يدافعن عن أرضهن وعذريتهن:

ويوم عقرت التراب الحميم
وراوغت فيه اقتحام الطعان!!
فظل العذارى يدافعن
ورغم انكسار الخصور
رغم انكفاء السماء على الأرض
حتى استوى السهم والناهدان!!

وفي الوقت الذي دخل فيه امرؤ القيس الخدر على المحبوبة غارقًا في لذة الفعل، كان العزب قد دخل خدر وطنه الأنثى ليكشف عن أسباب الهزيمة وأسباب التخنّث متمثّلة في المسكرات والبغايا:

ويوم دخلت على الوطن الخدر
خدر النقائض
والغزل المحو في الضد
صرت رطان الرطان!!

وفي الوقت الذي كان فيه امرؤ القيس يتغنّى بكرّه وفرّه كلون من ألوان إثبات البطولة. كان العزب قد أسند الكرّ للعدوّ الصهيوني الذي كسب المعركة، في حين ركز على إسناد الفرّ للعربي المنهزم ذي الصورة المخزية، وبينما كان العدوّ يقرأ توراة فتوحاته كان المنهزم يقرأ تواشيح محو كيانه:

وقد أغتدي والمغول يجوسون في رئتيّ

بقيد الأوابد وغد الجنان!!

مكر.. مفر

يكر.. أفر

ويقبل.. أدبر

يلتحم النسر والبط

وقتًا ركيكًا ويسترخيان!!

ويقرا توراة فتح جديد

ونقرا نحن

تواشيح محو كيان الكيان!!

ثانيًا- الصياغة الفنية:

كرّس الشاعر كثيرًا من الأساليب التعبيرية التي تساعد في إيصال الفكرة وإحكام ممارسة الخداع الفني على المتلقِّي، ومن هذه الأساليب الجيّدة استطاع الشاعر أن يريق أسلوب المفارقة في ثنايا النص من خلال التناص مع كثير من مفردات امرئ القيس، فقد أعلن الشاعر منذ العنوان حضور النص التراثي متمثّلاً في معلّقة امرئ القيس، وأقام عدة تناصات مع

التجربة الفنية في المعلّقة من أجل إيهام المتلقّي بأنه ماض معه في هذه السبيل، على النحو الذي يبدو مثلاً في قوله: (قفا نبك/وقوفًا على صحابي بها/كدأبك من أمّ صابر/ألا ربّ يوم/فظل العذارى/ومثلك بلوى طرقت فألهيتها عم حضانة غيري/وليل كموج الهزائم/فقلت ألا أيها الليل أنبئ بصبح/وقد أغتدي/ مكر.. مفر/ويقبل.. أدبر)، وكل هذه المفردات القصصية العابثة في نص امرئ القيس استطاع الشاعر مزجها بمفرداته المعاصرة، حتى بات الحاضر والغابر في القصيدة شيئًا واحدًا، إذا ما قورنت بأبيات امرئ القيس التي يقول فيها[٢٥]:

قفا نبك من ذكرى حبيبٍ ومنزل   بسقط اللوى بين الدخول فحوملِ
فتوضح فالمقراة لمن يعف رسمها   لما نسجتها من جنوبٍ وشمألِ
ترى بعر الأرآم في عرصاتها   وقيعانها كأنه حب فلفلِ
... ألا رب يوم لك منهن صالح   ولا سيما يوم بدارة جلجلِ
ويوم عقرت للعذارى مطيتي   فيا عجبًا من كورها المتحملِ
فظَلّ العَذَارَى يَرتَمِينَ بلَحْمِهَا   وشَحْمٍ كهُدَّابِ الدِّمَقْسِ الْمُفَتَّلِ
ويَومَ دَخَلتُ الخِدْرَ، خِدْرَ عُنَيزَةٍ   فقالتْ: لَكَ الوَيلاتُ إنَّكَ مُرْجِلي
تَقولُ وَقدْ مالَ الغَبِيْطُ بنا مَعا   عَقَرْتَ بَعيرِي يا امرأ القيسِ فانْزِلِ
فقُلتُ لها: سِيري وأَرْخي زِمامَهُ   ولا تُبعديني مِنْ جَنَأكِ الْمُعَلَّلِ
فمِثلِكِ حُبْلى قدْ طَرَقتُ ومُرْضِعٍ   فألهَيْتُها عنْ ذي تمائِمَ مُغْيَلِ
... ولَيلٍ كَمَوجِ البَحْرِ أَرْخَى سُدولَهُ   عَلَيّ بأَنْواعِ الهُمُومِ لِيَبتَلِي

فَقُلْتُ لَـهُ لَمّـا تَمَـطَّى بِـصلبهِ وَأَرْدَفَ أَعْجـازًا ونَـاءَ بكَلْكَـلِ
أَلا أَيُّها اللّيلُ الطّويلُ ألا انْجَلي بِصُبْحٍ وما الإصْباحُ مِنْكَ بِأَمْثَـلِ
فَيـا لَـكَ مِـنْ لَيْـلٍ كَـأَنَّ نُجُومَـهُ بِكُـلِّ مُغَـارِ الفَتْـلِ شُـدّتْ بِيَـذْبُلِ
كأنّ الثُّرَيّا عُلّقَـتْ فـي مَصابِها بـأمراسِ كَتّـانٍ إلى صُـمِّ جَنْـدَلِ

كما عمل الشاعر من خلال المفارقة على خداع المتلقِّي وقام باستدراجه ليقع في أشد الموضوعات الحياتية حيوية وسخونة، من خلال إدخاله في مغامرة ظنّ فيها أنه سيعيش حالة من العبث الماجن لامرئ قيس داعر، ومن ثم كانت المفارقة التي أفاق معها القارئ على الواقع المريض، إذ لم تكن رحلة الشاعر رحلة للمغامرة، وإنما كانت رحلة في الضمير الإنساني الذي يلتقي هو والشاعر بـ(سقط الضياع) على ما يبدو من قوله:

قِفا نبكِ حتى نبل الثرى
ونرحل في ذكريات المكان
إلى اللامكان
بسقط الضياع
على الأرز
في الحد بين خيام الخليل
وغرناطة الأمس والقدس

وقد تم تكريس مزيد من المفارقات مع نهاية القصيدة، فالكرّ القديم قابله الفرّ، والإقبال قابله الإدبار، ومن ثم صارت هناك حميمية بين

أشرس الطيور (النسر) وأودعها (البط)، وبينما كان المحتلّ اللعين يقرأ توراة فتوحاته وانتصاراته، كنّا نحن نقرأ تواشيح محو كيان الكيان، بكل ما تحمله كلمة (نحن) من خصوصيات تضع البطولات الإسلامية والعزة والأنفة في اعتبارها.

وقد أغتدي والمغول يجوسون في رئتيّ
بقيد الأوابد وغد الجنان!!
مكر.. مفر
يكر.. أفر
ويقبل.. أدبر
يلتحم النسر والبط
وقتًا ركيكًا ركيكًا ويسترخيان!!
ويقرأ توراة فتح جديد
ونقرأ نحن
تواشيح محو كيان الكيان!!

وقد لعب التكرار دورًا فعّالاً في الربط بين مغامرات الشاعر، إذ كان يستعين به في الانتقال من مغامرة إلى مغامرة جديدة، وغالبًا ما كان يدل على الزمن، على ما يبدو من تكرار اليوم في قول الشاعر:

- ألا ربّ يوم بدارة يونيو
- ويوم دخلت على الوطن الخدر
- ويومًا تجاوزت أحراسها

كما يستعين به في التدليل على الحركة المستمرة للشاعر، تلك الحركة الماجنة التي تمثّلها الأفعال: (تجاوزت وراقصت واجتحت واستسلمت وارتحت ونامت)، أو الحركة التخاذلية التي تعكسها الأفعال: (يكر.. أفر- ويقبل.. أدبر- يلتحم النسر والبط- ويقرأ توراة فتح جديد- ونقرأ نحن تواشيح محو كيان الكيان!!).

وقد وظّف الشاعر بعض التعبيرات بدقة في إحكام التخفّي، وذلك حين استغل دلالة كلمة (العبد) التي تتواءم وثراء امرئ القيس الذي يصحّ معه أن يمتلك عبدًا، لينتقل بها إلى ما جرّه (العبد) ويقصد به الرئيس (عبد الناصر) من ويلات الهزيمة:

وأيقظني العبد

كان المغول يعودون ملء الشوارع

كما استغل دلالة كلمة (الضفتان) التي تتواءم وبحر امرئ القيس الذي شبّه سدول الليل بأمواجه، لينتقل بهذه الدلالة إلى حركة الضفتين (الشرقية والغربية) في تتابع موجات الهزائم بفعل التخاذل العربي:

وليل كموج الهزائم

أرخى عليّ سدولاً سدولاَ

وراوغت الضفتان!!

ثالثًا- التصوير الفني:

تعتبر القصيدة صورة قصصية جيّدة اعتمد فيها الشاعر على أسلوب الحكاية في سرد مغامراته القصصية، وقد توفر في القصيدة إضافة إلى

السرد كثير من التقنيات[٢٦] القصصية كالمكان (بسقط الضياع) والزمان (لزمن المستبيح الجبان) والحركة التي تمثّلها الأفعال (تجاوزت وراقصت واجتحت واستسلمت وارتحت ونامت) في قول الشاعر :

ويومًا تجاوزت أحراسها
إليها بفاحش حُبّ عوان ! !
وراقصتُ
واجتحتُ
واستسلمت خرائطها
لانفعال التنازل
وارتحتُ في الرقص والعنفوان ! !
ونامت غدائر مستشزرات
(إلى الأرض) فوق ذراعي
وتحت سنابك خيلي
إلى اللا أوان ! !

وتتعانق الصور الجزئية من أجل حمل انفعالات الشاعر وتوظيفها في التجربة ، فقد اعتمد على الصورة البيانية حين استطاع بمهارة استغلال صورة الليل التي وقف أمامها امرؤ القيس ، فالليل عند الشاعر كموج الهزائم المتتالية التي أرخت على تفاؤله سدولاً لا تتناهى ؛ لأنّ الضفتين يراوغان ، ومن هذه المراوغة تتجدد الأمواج ، كما ترواغ الضفتان في القدس في مقاومة المستعمر فيتجدد النزال ، ومن ثم يطول الليل ؛ لأنّ

نجوم السماء كانت موثّقة بحبال من الحزن في جبال من اليأس، ولا تزال موثقة بينما القدس تنحل في أورشليم، على ما يبدو من قول الشاعر:

وليل كموج الهزائم
أرخى عليّ سدولاً سدولاً
وراوغت الضفتان!!
فقلت ألا أيها الليل أنبئ بصبح
وما الصبح (عفوًا) بأمثل منك
فأردف قنا
وناء مهانا مهان!!
فيا لك من ليل فقد طويل
كان النجوم بأمراس حزن
إلى صم يأس
تشير إلى القدس
والقدس تنحل في أورشليم
ويبكي الأذان، ويبكي الأذان، ويبكي الأذان!!

وقد حرص الشاعر على تعميق بعض صوره، بما أكسبها مزيدًا من الرسوخ، إذ إنه لما أكد في بداية القصيدة على أنّ دمعه دمع حقيقيّ في قوله (قفا نبك حتى نبل الثرى)، ولم يغفل عن تأكيد هذه الحقيقة، بل تمادى في إثباتها في قوله:

وقوفا علي صحابي بها

يقولون: (لا تبك فوق الطلول
وقد عرفوا أنّ دمعي يصير
على جسد الأرض جرحًا كبيرًا
ويقلق في كل جرح محاذ
أمان الأمان.

كما اعتمد الشاعر على الرمز الجزئي (المغول) في التنبيه على أصالة الخطر الذي يحيط بالأمّة متمثّلاً في الكيان الصهيوني، حيث إنه خطر داهم كالخطر المغولي تمامًا بتمام، مهما بدت شعارات التمسك بالأعراف والمواثيق برّاقة ومحكمة، ومهما أبدوا من الحميمية ما يصل إلى درجة الهواء الذي نتنفّسه، على ما يبدو في قول الشاعر: (وقد أغتدي والمغول يجوسون في رئتيّ).

رابعًا- الموسيقى:

لما كانت معلّقة امرئ القيس تقوم على تفعيلات بحر الطويل (فعولن/ مفاعيلن) بموسيقاها الرتيبة، ولما كان الشاعر محمد العزب مأخوذًا بالقصيدة منفعلاً بأحداث التخاذل لم يجد الشاعر بدًّا من بناء قصيدته على بحر المتقارب بتفعيلته (فعولن)، نتيجة لسرعة التفعيلة سرعة توائم اضطرابه وانفعاله، وبخاصة مع دخول القبض، حيث ظل تحت تأثير هذه التفعيلة، نتيجة لحميميتها لنظيرتها في بحر الطويل، وبخاصة أنّ التفعيلة (مفاعيلن) ذاتها يمكن أن تكون عبارة عن (فعولن / فع) بدخول البتر

وهو اجتماع القطع (حذف ساكن الوتد المجموع وإسكان ما قبله) والحذف (حذف السبب الخفيف من نهاية التفعيلة).

وقد استطاع الشاعر أن يربط بين أجزاء قصيدته بالقافية النونية الموحدة، التي وفّرها في كثير من الأسطر الشعرية على مستوى القصيدة.

وقد أتى الشاعر على كثير من الصور العروضية المتاحة في تفاعيل بحر المتقارب، فأتى بالتفعيلة صحيحة في قوله: (قفا نبك حتى) فعولن فعولن، وأتى بها محذوفة في قوله: (ثرى) فعل، وأتى بها مقصورة في نحو قوله: (ونرحل) كما أتى بها مقصورة في نحو قوله: (مكان) فعول، كما أتى بها مقبوضة في نحو قوله: (ضياع)، ودخول القبض قد أسهم في إحساسنا بالسرعة والانفعال الذي عبأ به الشاعر قصيدته.

كما دخل الحذف في تفعيلة القافية ليتيح للشاعر أن يطيل أنفاسه وهو ينطق الرويّ المردوف (النون) الذي يوحي بالحزن، ويقف معه وقفات للتدبر والتقاط الأنفاس.

وقد وقع الشاعر في بعض المزالق الموسيقية في قوله (خرائطها) من قوله:

وراقصت واجتحت واستسلمت خرائطها لانفعال التنازل

//٥/ ٥ - //٥ /٥ - //٥ /٥ - //٥ /٥- //٥ //٥- /٥ //٥ -/٥ //٥ -/٥ //٥ /

ويكمن المزلق في مجيئ قوله (واستسلمت خرائطها) في سطر واحد، مما جعلنا نقف مع تفعيلتين غريبتين على البحر الشعري هما (مفاعلن) و(متفاعل)، ويمكن الخروج من ذلك بالوقوف قوله (واستسلمت) وبدء السطر التالي بقول الشاعر (خرائطها).

كما وقع الشاعر في مزلق آخر قد تكون الطباعة سببًا فيه، وذلك حين أعطى للسطر الشِّعري حرف العطف (الواو) هو في غير حاجة إليه في قوله:

فظل العذارى يدافعن

ورغم انكسار الخصور

ورغم أنّ السطر الثاني منضبط موسيقيًّا، إلا أنّ حركة النون في البيت قبله في حاجة للانضمام إلى كلمة أخرى لتكوّن التفعيلة، عن طريق التدوير[٢٧] المتعارف عليه في الشِّعر الحر، ومن ثم لا يجوز الوقف عليها كما قلنا في المثال السابق، إذ إنّ تقطيعها يتمّ على هذا النحو:

فظـل العـذارى يـدافعن – ورغم انكســار الخصـور

// ٥/ ٥ – //٥ /٥ – //٥ /٥/ – ///٥ /٥ – //٥ /٥ – //٥ /٥ – //٥ /

الهوامش:

* كلية العلوم والآداب بالرس– جامعة القصيم– المملكة العربية السعودية.

(١) تنظر أمثلة للوني المطارحة في: **الأغاني**، ٢٣/١٠٠، ١٠١، وكتاب **الكامل** للمبرِّد، طبعة مصطفى البابي الحلبي سنة ١٣٥٥هـ ٢٨١، ٢٨٢.

(٢) **سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر**: محمد خليل بن علي المرادي، دار الكتاب الإسلامي، ٤/١٠٥، ١٠٦.

(٣) **النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة**: جمال الدين أبي المحاسن يوسف بن تغري بردي، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، مصر، ١٥/١٩١؛ و**خزانة الأدب وغاية الأرب** ٢/٣٢٣، وهي لبهاء الدين ابن الأرزني في **الوافي بالوفيات** ٣/٢٠٦؛ و**فوات الوفيات**، محمد بن شاكر بن أحمد الكتبي، تحقيق: علي محمد بن يعوض الله وعادل أحمد عبد الموجود، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ٢٠٠٠م، ٢/٣٧٠.

(٤) **النجوم الزاهرة** ١٥/١٩١.

(٥) **خزانة الأدب وغاية الأرب** ٢/٣٢٤-٣٢٦، و**معاهد التنصيص**، ص٥٧٦، ٥٧٧، وأبيات ابن نباتة المصري في ديوانه ١/١٥٠٧-١٥١٠.

(٦) **ظاهرة التعالق النصي في الشِّعر السعودي الحديث**: د. علوي الهاشمي، كتاب الرياض، مايو ١٩٩٨، ص٢١، وينظر: **المصطلحات الأدبية الحديثة** (المعجم)، د. محمد عناني، مكتبة لبنان، ط١، ١٩٩٦م، ص٤٦.

(٧) **تداخل النصوص في الرواية العربية**: حسن محمد حماد، الهيئة المصرية العامّة للكتاب، ١٩٩٧م، ص١٧.

(٨) تنظر هذه المفاهيم في (التناص وإشاريات العمل الأدبي) صبري حافظ، مقال **بمجلة ألِف**: العدد الرابع، ربيع ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م، ص٢٧-٣٠.

(٩) المرايا المقعرة: د. عبد العزيز حمودة سلسلة **عالم المعرفة**، أغسطس ٢٠٠١ م، ص٤٥٢.

(١٠) **قراءات في الشِّعر العربي الحديث والمعاصر**: د. خليل الموسى، منشورات اتحاد الكتّاب العرب، دمشق، ٢٠٠٠م، ص٥٢.

(١١) ينظر: المرجع السابق، ص٥٢.

(١٢) **قراءات في الأدب والنقد**: د. شجاع مسلم العاني، منشورات اتحاد الكتّاب العرب، دمشق، ١٩٩٩م، ص٦٢.

(١٣) **الحيوان** ٣/١٣٢.

(١٤) ينظر: **البعد الآخر في الإبداع الشِّعري**: د. محمد العزب، مطبعة رفاعي بالقاهرة، ١٩٨٤م، ص٢٨-٣٨.

(١٥) **المقامات الزينية**: ابن الصيقل الجزري (معد بن نصر الله بن رجب البغدادي)، تحقيق: د. عباس مصطفى الصالحي، دار المسيرة، الأولى، ١٩٨٠م، ص١٢٣، ١٢٤. والقطنّ: لغة في القطن، وتتفل: الثعلب، وأوس بن سعدى: هو أوس بن حارثة الطائي، كان يضرب به المثل في الجود.

(١٦) المرجع السابق، ص١٢٣، ومشارف: بالضم، مفاخر، وشارف: الدن المعتقة، وقريع الأولى: شجاع، وقريع الثانية: ناقة، والرعابيب الأولى جمع رعبوب وهي المرأة الحسنة، والثانية: ناقة خفيفة طياشة، وقضب: قطع، والإزعاج: الاستمرار

على السقي، وخوانه: سفرة طعامه، وخُزّانه: جمع خازن، وبالكسر: ذكر الأرنب، وذاعر: مدهوش.

(١٧) **ديوان امرئ القيس**: دار صادر، ص٣٣، ٥٨. (١٨) **الوافي بالوفيات** ١٨/٣٠١.

(١٩) **المستطرف في كل فن مستظرف**: شهاب الدين محمد بن أحمد أبي الفتح الأبشيهي، تحقيق: مفيد محمد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٢، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م، ٢/١٢.

(٢٠) **الأعمال الشِّعرية**: د. عبد الحميد محمد بدران، ط٢، ٢٠٠٩م، ص٤٨.

(٢١) موقع وصال العرب:

http://www.arabslink.net/vb/showthread.php?t = ٩١١٠

(٢٢) شبكة شِعر العرب: http://www.toarab.net/poem١٧٦٢٩.html

(٢٣) الشاعر محمد أحمد العزب، وُلد في قرية (ديمشلت)، التابعة لمركز (دكرنس) بمحافظة الدقهلية في مصر في ١٩٣٢/٣/١٢م، وتدرج في مراحل التعليم المختلفة حتى حاز درجة الليسانس من كلية اللغة العربية جامعة الأزهر عام ١٩٦٣م، ثم حصل من معهد الدراسات العربية على رسالة الماجستير وعنوانها **التراجم الغيرية في الأدب العربي الحديث**، ثم حصل على درجة الدكتوراة من كلية اللغة العربية بالقاهرة عام ١٩٧٧م عن رسالته **ظواهر التمرد في الشِّعر العربي المعاصر**، ثم تدرج في وظائف التدريس الجامعي حتى نال درجة الأستاذية، ١٩٨٥م، ولا يزال الشاعر الناقد -على الرغم من مرضه- يواصل إبداعه الشِّعري والنقدي، مدّ الله في عمره.

(٢٤) **الأعمال الشِّعرية الكاملة**: د. محمد أحمد العزب، ط١، ١٩٩٥م، ص٢٤١-٢٤٧.

(٢٥) **ديوان امرئ القيس** ص٢٩-٤٩.

(٢٦) التقنية: هي "جملة المبادئ أو الوسائل التي تعين على إنجاز شيء أو تحقيق غاية، وتقوم اليوم علي أسس علمية دقيقة" **المعجم الفلسفي**: مجمع اللغة العربية، ١٩٧٩م، ص٥٣. ويمكن استخدام كلمة: التقنية -المعرّبة حديثًا- بدلاً من الحرفية أو الصنعة. **معجم المصطلحات الدرامية والمسرحية**: د. إبراهيم حمادة، دار المعارف، ١٩٨٥م، ص١٠٠.

(٢٧) التدوير: اشتراك شطري البيت في كلمة واحدة، ينظر: **العمدة** لابن رشيق القيرواني تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الجيل، ط٥، ١٩٨١م، ١/١٧٧.

مكتبة العرب:

الكتاب: أسماء خيل العرب وفرسانها، المؤلف: أبو عبدالله محمد بن زياد الأعرابي، تحقيق ودراسة: الدكتور محمد عبدالقادر أحمد، الناشر: مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط١، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م، ٢٥٤ص.

بلغت الخيل مكانة عند العربي أنه جعلها واحدة من ثلاثة لا يأنف عظيم القوم من خدمتهم بنفسه: الوالد، والضيف، والخيل.

وقد قال بعض المتقدمين من أهل الأدب: إنّ الخيل لعبت في حياة العرب دورًا بارزًا، وتركت فيهم أبلغ الأثر، فنشطت أدبهم بعد أن هذبت طباعهم، ولم تكن أمّة على وجه الأرض أشد عجبًا بالخيل من أمّة العرب.

حتى إنه في زمننا الحاضر، إذا أراد الواحد في أية بقعة من العالم أن يبالغ في جودة فرس ما، قال إنه فرس عربي.

ولقد احتلت الخيل هذه المكانة لدى العربي القديم؛ لأنها كانت وسيلته في السفر، وعدته في الحرب، وموضع كبريائه في السباق، وزينته بين الأقران من الفرسان.

ولقد ذهب العربي في الاهتمام بفرسه شأوًا بعيدًا، حتى إنه كان إذا ما عزّ المال أشبع فرسه وبات هو طاويًا، بل إنّ منهم من كان يؤثر فرسه على أهله وولده أيضًا، فيسقيه لبن المحض، بينما يشربون جميعًا الماء القراح، ويجوع الجميع لكن لا تجوع الفرس.

كما أنّ الرسول العربي محمدًا ﷺ يكاد يكون الرسول الوحيد من بين الرسل الذي وردت عنه أحاديث بخصوص الأفراس، وأشهرها الذي قال فيه: الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة، وأهلها معانون عليها، والمنفق عليها كالباسط يده بالصدقة.

وقد ورد عنه أيضًا أنه قد نهى عن إيذائها بأيّ شكل من الأشكال، سواء بالإخصاء أو بقص الذيل أو الأذن؛ لأنّ الخيل تحب العجب بنفسها، ولها مشاعر كالإنسان، تحب وتكره وتشعر بالفخر، وتؤذيها الدنية.

بل جعل لها رسول الله ﷺ من المغانم سهمين، فيما جعل للفارس سهمًا واحدًا!

ولقد بلغ عزّها درجة أن أقسم الله بها في قرآنه، عندما قال: "والعاديات ضبحا".

لذلك لم يكن غريبًا أن ينظم فيها شعراء البوادي القصائد، ولا أن يسطر المؤلفون عشرات الكتب المخصوصة عنها.

ولقد ضاع أغلب هذه الكتب في حوادث الزمان، حرقًا أو غرقًا، عندما كان الغزاة يوجهون انتقامهم من المدن والممالك التي تفتح قسرًا بعد حرب، أو ما يوجهونه إلى المكتبات، فإمّا حرقوها، وإمّا ألقوا بها في مياه نهر أو بحر أو محيط.

لكن بقيت كتب قليلة في شأن الخيول، استطاعت أن توضح لنا إلى أيّ مدى اهتمت بها أمّتنا العربية.

ولقد ضمت مكتبة دير الاسكوريال في إسبانيا، التي زرتها بصحبة الدكتور صلاح فضل وأسرته في أخريات القرن الماضي، مخطوطتين لكتابين في شأن الخيل العربي في غاية الندرة والأهمية؛ الأول: كتاب "**نسب الخيل في الجاهلية والإسلام وأخبارها**"، وهو من تأليف المنذر هشام بن محمد بن السائب الكلبي. ويليه كتاب "**أسماء خيل العرب وفرسانها**"، وهو هذا الكتاب الذي بين أيدينا.

وقد قام المستشرق لوي دلا ويدا، أستاذ اللغات السامية في جامعة روما العظمى، بنشر الكتابين في مطبعة بريل في مدينة ليدن بهولندا سنة ١٩٢٨ ميلادية.

ثم جاء من بعده المرحوم أحمد زكي فحقق كتاب "**نسب الخيل...**"، وطبعه في دار الكتب المصرية سنة ١٩٤٦ ميلادية، ليبقى كتاب "**أسماء خيل العرب وفرسانها**" منذ صدوره سنة ١٩٢٨ حتى ١٩٤٨ بدون تحقيق إلى أن اضطلع الدكتور محمد عبد القادر أحمد بتحقيقه، وتدقيق أسماء الخيل وأسماء فرسان العرب والشِّعر الذي جاء في الكتاب، وقد استقصى في تحقيقه المواقع التي ورد فيها اسم الفرس واسم فارسه، والشِّعر الذي قيل فيها في المصادر التي عثر عليها أو وقعت بين يديه دون مبالغة أو إسراف في التخريج.

كان ابن الأعرابي، مؤلف هذا الكتاب، الذي عاش بين العامين الهجريين ١٥٠ و٢٣١، أديبًا، فضلاً عن كونه لغويًّا ونحويًّا ونسابًا، وكان حافظًا لأشعار العرب وأيامها، راوية لأشعار القبائل، بدأ طلب

العلم في واحد من كتاتيب الكوفة التي لا يكاد يخلو منها حيٌّ من أحيائها، حتى إذا استنفد ما يمكن تحصيله في الكتاب حمل أوراقه وأقلامه ودخل المسجد الجامع بالكوفة، ليتنقل بين حلقات العلماء، وكانت رغبته الشديدة في العلم والتحصيل تدفعه إلى المواظبة والاستمرار على ارتياد المسجد دون انقطاع، فيقضي معظم ساعات نهاره فيه، كلما انتهت حلقة وصلها بأخرى.

ولما طالت صحبته للمسجد الجامع في الكوفة واتسعت ثروته العلمية والأدبية أحس برغبة في ورود مناهل اللغة والأدب عن الأعراب أنفسهم، فجمع ألواحه مرة أخرى ومضى يتنقل في منازل القبائل المجاورة للكوفة يكتب ما عندهم من ألفاظ غريبة ولغات، ونوادر، وشِعر، كما غشى سوق الكناسة في ظاهر الكوفة بدفاتره وألواحه، وطاف بحلقات الشعراء الوافدين إلى السوق، يدوّن قصائدهم وأراجيزهم، ويخالط الرواة ويكتب ما يروونه من أخبار ونوادر وأمثال وحِكَم، وكان ماهرًا في تصيّد فصحاء العرب فيستوقفهم ويحادثهم ويأخذ ما عندهم، حتى إذا سبر غور هذا المجتمع العلمي والأدبي في الكوفة وظاهرها، وأراد الإحاطة والاستقصاء شدّ رحاله وتوغّل في البوادي الشاسعة يبحث فيها عن شيء جديد.

ومن هنا نستطيع أن نفهم كيف كتب ابن الأعرابي كتابه هذا، الذي صدر في القاهرة عن مكتبة النهضة المصرية، ومن أيّ المصادر استقى مادته الحيّة الغزيرة.

ابتدأ ابن الأعرابي في هذا الكتاب بذكر أسماء أفراس البيت الهاشمي، ورأسهم الرسول محمد ﷺ: "الظَرِب" و"لِزاز" و"السَّكْب" و"المُرتَجِز" و"اللُّحَيْف" و"ذو اللَّمَّة".

ثم فرس لجعفر بن أبي طالب شقراء تدعى "سَبْحَه"، استشهد عليها يوم مؤتة.

ولم يذكر ابن الأعرابي اسم فرس إلا وذكر اسم فارسها، فتكلم عن خيل قريش: "اليعسوب" وفارسها الزبير بن العوّام، الذي كان له فرسان أخريان "معروف" و"ذو الخِمار"، وقيل إنّ له فرسًا أخرى تدعى "ذات النعال" قُتل عليها يوم وادي السباع وهو عائد من موقعة الجمل.

وكان للمقداد بن عبد يغوث، وهو واحد من الذين استهزؤوا برسول الله ﷺ، فرس حارب به في بدر يقال له "ذو العنق"، وكان له فرس آخر اسمه "بعزجه".

وهكذا يمضي ابن الأعرابي في كتابه، فيذكر خيل الأنصار وفرسانها، وخيل بني أسد، وخيل بني ضبَّة، وخيل عمرو بن تميم، وخيل بني حنظلة، وخيل باهلة، وخيل غني بن أعصر، وخيل غطفان بن سعد، وخيل بني سليم، وخيل هوازن، وخيل ربيعة بن نزار، وخيل بنو ضبيعة ابن نزار، وخيل عنترة بن أسد، وخيل عبدالقيس بن أفصى، وخيل النمر بن قاسط، وخيل بني وائل، وخيل ذهل بن ثعلبة

كما ذكر خيلاً من بني شيبان، ومن بني قيس بن ثعلبة، وعجل بن لجيم، وحنيفة بن لجيم.

كما أتى على ذكر أسماء خيل من اليمن، ومن همدان.

والمتأمل لأسماء الأفراس سيلاحظ أنها أسماء تعكس صفاتٍ مميزةً للفرس.

فهناك "الأبجر" كبير البطن، وهناك "الأدهم" شديد السواد، وهناك "البشير" الذي يبدو أنه ما دخل حربًا إلا وحاز النصر.

كما أنّ هناك أفراسًا حملت أسماء ساخرة للغاية، مثل: "أعوج" و"الجرادة" و"جروة" و"خرقة" و"عرقوب" و"الكلب" و"الغراب" و"المعزة" و"المُكسَّر".

وأخرى حملت أسماء ترسخ لمدى قوتها وسرعتها، مثل : "الرحى" و"الضرس" و"الطائر" و"العضوض" و"العقاب" و"الهراوة" و"المنفجر" و"الفهدة" و"جناح".

لكن أفراسًا أخرى تمتعت بأسماء الجمال الفتانة، مثل: "هيفاء" و"ورد" و"الوجيه" و"الشقراء" و"الشموس" و"الصبوح" و"سمر" و"حلوة".

هذه هي الخيل العربية التي نباهي بها العالم، والتي لن يغني اقتناء أحدث موديلات السيارات الفارهة عن هذا الاحساس بالزهو الذي يتملكك وأنت تمتطي صهوتها.

م.ع.

إهداءات إلى مكتبة العرب

أولاً- الكتب:

- الذَّيل على كتابَيْ: ١- السحب الوابلة على ضرائح الحنابلة للشيخ محمد بن حميد (ت١٢٩٥هـ)؛ ٢- علماء نجد خلال ثمانية قرون للشيخ عبدالله البسام (ت١٤٢٣هـ)، ويليهما: مستدرك على السحب الوابلة على ضرائح الحنابلة للشيخ إبراهيم بن عيسى (ت١٣٤٣هـ)، تأليف: خالد بن علي بن محمد الحيّان، ط١، ١٤٣٤هـ/٢٠١٣م، دار ابن الأثير.
- رحلة إلى مدائن صالح (شوال ١٣٨٣هـ/فبراير ١٩٦٤م)، تأليف بيتر كرو، ترجمة: د. محمد زياد كبة، إصدار دارة الملك عبدالعزيز، (٢٩٣)، ١٤٣٤هـ.
- موقع العيينة الأثري: دراسة للعصر الحجري في شمال غرب المملكة العربية السعودية، خالد بن فايز الأسمري، إصدار دارة الملك عبدالعزيز، (٢٧٩)، ١٤٣٣هـ.

ثانيًا- المجلات:

- الفرقان، العدد ٤٤٤، ١١ جمادى الأولى ١٤٢٨هـ/٢٨ مايو ٢٠٠٧م، رئيس التحرير: د. بسام خضر الشطي.
- الفرقان، العدد ٤٤٥، ١٨ جمادى الأولى ١٤٢٨هـ/٤ يونيو ٢٠٠٧م، رئيس التحرير: د. بسام خضر الشطي.
- الفرقان، العدد ٤٤٦، ٢٥ جمادى الأولى ١٤٢٨هـ/١١ يونيو ٢٠٠٧م، رئيس التحرير: د. بسام خضر الشطي.
- التاريخية، العدد ٢٣، صفر ١٤٢٨هـ/مارس ٢٠٠٧م،
- الفرقان، العدد ٤٤٧، ٣ جمادى الآخرة ١٤٢٨هـ/١٨ يونيو ٢٠٠٧م، رئيس التحرير: د. بسام خضر الشطي.
- الضاد، العدد ٦، حزيران ٢٠٠٧م، السنة ٧٧، رئيس التحرير: عبدالله رياض حلاق.
- الفرقان، العدد ٤٤٨، ١٠ جمادى الآخرة ١٤٢٨هـ/٢٥ يونيو ٢٠٠٧م، رئيس التحرير: د. بسام خضر الشطي.

تنويه

يرجى من مشتركي مجلة "العرب" من لهم مشكلات مع توزيعها أن يكتبوا إلينا بذلك على عنواننا البريدي أو الإلكتروني :

arab@hamadaljasser.com

معاجم ألفاظ الحضارة في العربية المعاصرة
مناهجها، ووظائفها، وقيمتها

بقلم: د. خالد فهمي إبراهيم محمد*

(١) مدخل:

يوشك لفظ الحضارة أن يكون وصفًا جامعًا للمنجز الإنساني على الأرض، وهو لفظ يختزن دلالات الترقِّي والتقدم والإعجاز واغتيال التوحش، ويعني التربية وما يدور في فلكها من معاني التهذيب.

ومن ثم فإنّ ادعاء أنّ العربية تملك رصيدًا وافرًا من ألفاظ الحضارة يلزمه مقدمة صادقة أن العربية شاهدة على حضارة عريقة أنتجها أصحابها على امتداد التاريخ، ولا شك أنّ الإسلام العظيم كان المفجِّر الأول لصناعة هذه الحضارة في ميادين الحياة المختلفة والمتنوعة بما أنتجه الصانع العربي المسلم، وأنجزته معارف هذا العربي المسلم.

صحيح أنّ العرب منذ أن دانوا لله تعالى بالإسلام، وتابعوا رسول الإسلام محمدًا ﷺ قدّموا للإنسانية نتاجًا وافرًا من المستحدثات والأدوات، والآلات، والإبداعات، والفنون، وهو ما نجد أسماءه وافرة مبثوثة في المعجمات التي صنعها المعجميون العرب على امتداد هذا

التاريخ المعجمي العريق، ولاسيما ما كان من هذه الألفاظ في ما يعرف بمعجمات الموضوعات والمعاني.

ولكن العناية المعاصرة بألفاظ الحضارة في الثقافة العربية، سواء كانت بجهد فردي أو جماعي كانت لإثبات قدرة اللغة العربية على استيعاب منجز العصر، ومستحدثاته، ومخترعات الأمم المتقدمة، مما يقطع الطريق على كل الذين يحاربون التمكين للعربية، وهو ما نلمسه واضحًا في تقديم بدر الدين أبي غازي، مقرر لجنتي ألفاظ الحضارة، والفنون بين يدي (معجم ألفاظ الحضارة والفنون، طبعة المجمع اللغوي، بالقاهرة سنة ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م، ص: هـ) عندما قرر أنّ للغة قدرة ظاهرة على استيعاب مستحدثات العصر، وهو ما يبرهن على إمكان تطويع اللغة لمواجهة كل مستحدثات الحضارة الحديثة".

وهي غاية نبيلة تسهم في مقارنة بقايا الفكر الاستعماري الذي طالما دأب على تأخير رتبة اللسان القومي بين أبناء الوطن في حظر مناطق استعمالها في أروقة العلم، وأجهزة إدارة الدولة.

وهذا المقال يفتح هذا الملف ليعين على فهم واحد من أصول هويتنا في مرحلة دقيقة من عمر الدولة المصرية، وحياتها، وهي تستقبل مرحلة جديدة وخطيرة تستلزم التنبه إلى لسانها القومي، وأهمية العناية به، وتذليل العقبات في سبيل سيادته في العلم والإعلام والثقافة والحياة جميعًا.

(٢) العربية وألفاظ الحضارة: تاريخ عريق وتراث ممتد

إنّ فحص تراث العربية في مجال الدرس اللغوي تنظيرًا وتطبيقًا يجد تنبّها مبكرًا إلى أثر الإسلام العظيم في ترقي اللسان العربي في مجال الثروة اللفظية بما فتح هذا الدين العظيم من ميادين الحضارة علمًا وصناعة وفنًّا لدرجة أنّ بعضًا من أصحاب المعاجم العربية تنبهوا إلى هذا التأثير الإيجابي، يقول الثعالبي المتوفى سنة ٤٢٩هـ في كتابه "**فقه اللغة وسرّ العربية**" (٢/٥٢٤-٥٢٥ طبعة مكتبة الخانجي، بالقاهرة بتحقيق الدكتور خالد فهمي سنة ١٩٩٨م): "فصل... في أسماء عربية يتعذر وجود فارسية أكثرها"، وعدد منها ألفاظ: " الزكاة" و"الحج" و"المحراب" و"المنارة" وغيرها.

وهي -كما نرى- موزعة على مفاهيم جديدة أحدثها الإسلام في جملة ما أوجده من التشريعات، وموزعة على ما أنجزه الإنسان المسلم من حضارة بفعل ما فجّره الإسلام في النفوس التي آمنت، وترجمته في صورة منجز حضاري؛ في العمارة وغيرها.

وهذا الارتباط بين ثورة الحضارة المدوّنة بالعربية وبين الإسلام أمر مستقر في النظر العلمي شرقًا وغربًا، وهو مازال مستمرًا إلى اليوم، يقول آدم جيسك في مقدمة كتابه "**تقاليد المخطوط العربي**"، النسخة العربية، طبعة معهد المخطوطات العربية، بالقاهرة سنة ٢٠٠٨م (١/١٥): "الحضارة العربية الإسلامية حضارة كتاب، والكتاب فيها ذو قداسة خاصة، اكتسبها من الدين الإسلامي ذاته، وتحديدًا كتاب هذا الدين (القرآن الكريم) الذي لا ينافسه أيّ كتاب آخر لدى العرب والمسلمين.

"هذه المكانة العالية التي يشغلها الكتاب حفزت المجهود على إنتاجه مبكرًا حتى ليمكن القول إنه وهذه الحضارة قرينان بدآ معًا، فما كان القرن الهجري الأول (السابع الميلادي) ينتصف حتى جرى القلم بالمعرفة، ورأينا صحائف وكتبًا تتوالى".

على أنّ ما يهمنا التنبيه عليه أنّ هذه التراكمات المعرفية المدوّنة في صورة مادية هي الكتب يعني في أيسر صورها، وأوضحها، وأصرحها، سرعة هذه اللغة، ونشاطها، وقدرتها الظاهرة على تلبية احتياجات الهجوم الحضاري الذي صنعه الدين العظيم من أسماء، ومفردات للتعبير عن هذه المنجزات الحضارية.

وإذا كان تاريخ المعجمية العربية العامة موصوفًا بالازدهار والعراقة، بسبب من تقدّمها الزمني، وبسبب من تنوع مناهجها، فإنّ الحكم نفسه صالح لكي يطلق على تاريخ المعجمية العربية المختصة.

وهو ما يعني أنّ العربية استطاعت أن تلبِّي مسرعة حاجات الوضع الحضاري الذي أوجده وضع الأمّة العربية الجديد في ظلال القرآن الكريم، ذلك أنه منذ القرن الرابع الهجري بدأ تنامي ظهور معجمات لغوية مختصة اعتنت بجمع الألفاظ الحضارية الدالة على المستحدثات المعرفية والتطبيقية معًا.

وقد اتخذت هذه العناية بألفاظ الحضارة الصور الثلاث التالية:

أ - فصول وأبواب كاملة في المعجمات الموضوعية.

ب- فصول وأبواب كاملة في المعجمات الاصطلاحية المتعددة العلوم (معاجم المصطلحات).

جـ- معجمات كاملة أريدت لمعالجة طوائف من الألفاظ الحضارية، بحيث استقلت معجمات خاصة بالألفاظ فن بعينه.

(٣) ملامح العناية بألفاظ الحضارة في تاريخ المعجمية العربية قديمًا

وإذا كانت الحضارة في واحد من أشهر تعاريفها هي: كل مظاهر الرقي العلمي والفني والأدبي، فإنّ الحضارة العربية الإسلامية التي ازدهرت، وعبّر اللسان العربي عن هذا الازدهار في نطاقها الزمني القديم، وجدت -كما سبق أن قلنا- معجمات رصدت ألفاظ هذه المظاهر الحضارية.

وفيما يلي محاولة لرصد بعض علامات هذه العناية بألفاظ الحضارة:

أولاً- في المعجمات الموضوعية:

عرف تاريخ المعجمية العربية نمطًا من المعجمات جمع الألفاظ وصنّفها تحت موضوعات يجمع بينها رابط دلالي معيّن.

وقد كان هذا النمط أسبق من غيره من معجمات الألفاظ المرتبة صوتيًا أو ألفبائيًا أو وفق الأبنية في تاريخ التصنيف المعجمي عند العرب.

وفي معجم الغريب المصنف لأبي عبيد القاسم بن سلام الهروي المتوفى سنة ٢٢٤هـ أبواب كاملة تُظهر ما توصل إليه العرب، واستقر في نطاقهم الجغرافي الممتد من مظاهر الحضارة من مثل:

أ- كتاب اللباس، ويضم ستة عشر بابًا تحتوي أسماء الملابس وأنواعها، وطرق نسجها، ومعالجتها إلخ.

ب- كتاب الأطعمة، ويضم سبعة وعشرين بابًا تحتوي أسماء أنواع الطعام، وكيفيات طبخها، ومعالجتها إلخ. وربما أمكن أن نلحق به بابًا أورد فيه المعجم أسماء الخمور والأشربة.

ج- كتاب الدور والأرضين، وفيه أسماء الأبنية والمراكب التي هي المواصلات بلغة العصر الحديث وغير ذلك.

د- كتاب السلاح بأنواعه المختلفة.

وهذه الكتب أو الأقسام بما تحتويه داخلها من ألفاظ كثيرة موزعة على أبواب أو فصول صغرى متكررة في كثير من معجمات الموضوعات التي تلت معجم الغريب المصنف من مثل: مبادئ اللغة، للخطيب الإسكافي المتوفى سنة ٤٢١هـ، وفقه اللغة وسر العربية للثعالبي المتوفى سنة ٤٢٩هـ والمخصص، لابن سيده المتوفى سنة ٤٥٨هـ.

وإذا كان هذا المعجم الموضوعي الأخير (المخصص) هو أوسع معجمات الموضوعات مادة بإطلاق، فإنّ فقه اللغة وسرّ العربية للثعالبي يعدّ أصرح المعجمات الموضوعية عناية بألفاظ الحضارة في العربية.

وفيما يلي بيان علامات ذلك:

جمع الثعالبي في أكثر من باب ما يشعر بوعيه بطبيعة ما بين حقول ألفاظ الحضارة ولاسيما المادية من تقارب، فقد جمع ألفاظ اللباس وما يتصل به، والسلاح وما ينضاف إليه، وسائر الأدوات وما يأخذ مأخذها في حيز واحد هو الباب الثالث والعشرون (٤٠٨/٢-٤٤٩ من طبعة مكتبة الخانجي سنة ١٩٩٨م بتحقيقي) ويلمس قارئ هذا الباب بفصوله المختلفة

ما أنجزته الحضارة العربية من مظاهر الترقّي في وسائل العيش المتنوعة مما يتوزع على مجالات الملابس وما يدور في فلكها من أثاث وفرش وحلي وزينة، وعلى مجالات السلاح بأنواعه والأوعية وغيرها من أدوات.

ثم يفرد الثعالبي في الباب الرابع والعشرين للأطعمة والأشربة (٢/٤٥٠-٤٦٥).

وقراءة الثعالبي وفحصه تقدّم خدمة جليلة لتحليل الوضع الحضاري الذي وصلت إليه الأمّة العربية بعد انفتاحها المنظم على العالم حولها بفضل فتوحات الإسلام، ذلك أنه يمكن مقارنة مظاهر التحضر مثلاً في أبواب الأطعمة والملابس والزينة والأدوات والأواني والعطور وغير ذلك التي ابتكرها العرب، وتلك التي نقلوها عن غيرهم من الأمم المجاورة، ووضعت لها العربية أسماء وألفاظا بما كان قبل مجيئ الإسلام العظيم.

ففي الفصل الرابع من الباب التاسع والعشرين (٢/٥٢٦-٥٣٠) يرصد الثعالبي الألفاظ الحضارية التي عرفها الفُرس ونقلها العرب بعد أن وضعوا لها تسميات بلسانها.

وقد توزعت هذه الألفاظ الحضارية على القوائم التالية:

أ- ألفاظ الأواني: (الكوز/الإبريق/والطست/والخوان/والطبق/والسُّكّرجة).

ب- ألفاظ الملابس: (السّمور/ والسنجاب/ والقاقمُّ/ والديباج/ والسندس).

ج- ألفاظ الجواهر: (الياقوت/ والفَيروزج/ والبلور).

د- ألفاظ المخبوزات: (السميذ/ والدرمك/ والجردق/ والكعك).

هـ- ألفاظ الطبيخ: (السكباج/ والدوغباج/ والنارناج).

و- ألفاظ الحلاوات: (الفالوذج/ والجوزينج/ واللوزينج).

ز- ألفاظ الأشربة و(العصائر): (الجلاب/ والسكنجين/ والجلنجين).

ح- ألفاظ الأفاويه (التوابل): (الفلفل/ والكرويا/ والزنجبيل).

ط- ألفاظ الرياحين والزهور: (النرجس/ والمرزنجوش/ والياسمين/ والمسك/ والعنبر/ والكافور/ والصندل).

وقد قصدت قصدًا إلى ما يمكن أن يعدّ تطويلاً لأقرر أنّ العربية في تراثها المعجمي اعتنت بجمع ألفاظ مظاهر الحضارة في هذه العصور القديمة، وقد توقفت أمام مظاهر الحضارة التطبيقية المادية في تجليات ما يستعمله الإنسان على طريق تحقيق جودة الحياة في ميادينها المادية المختلفة، وهو ما ظهر في معجمات ألفاظ الحضارة الحديثة التي رأت أن مجاليها الكبرى، وانعكاساتها الظاهرة إنما تكمن في (الثياب وما يتعلق بها/ والمنزل والأدوات المنزلية/ والفنون التشكيلية والسينما) إلخ على ما فعله معجم ألفاظ الحضارة الحديثة للمجمع اللغوي بالقاهرة.

ثانيًا- في معاجم المصطلحات:

فيما مر ظهرت عناية أصحاب المعاجم الموضوعية بقطاع عريض من ألفاظ مظاهر الحضارة في تجلياتها التطبيقية والصناعية التي عرفها العرب، وجودوا بها مناطق حياتهم، واستوعبتها العربية، وعبرت عنها منذ ترقي العرب وتحضرهم قديمًا.

وفي الوقت نفسه أظهرت العربية قدرة فائقة في التعبير عن مظاهر الترقي الفني والأدبي والعلمي، واستوعبت المفاهيم الجديدة، ووضعت لها ألفاظًا جديدة مستعملة طرقًا متنوعة.

وقد تجلّت هذه القدرة اللغوية للعربية فيما حفظه لنا الزمان من قوائم مطوّلة لألفاظ مظاهر الترقي الحضاري في ميادين العلوم والآداب والفنون، وهو ما ظهر في قطاع عريض من الأعمال المعجمية التي كان شغلها الشاغل جمع هذه الألفاظ أو المصطلحات، وتعريفها.

وفي المعاجم التي جمعت مصطلحات العلوم والفنون والآداب تميّزت طائفة منها بترتيب ألفاظ العلوم هذه مجاليًا، بمعنى أنّ عددًا من هذه المعجمات جمع كل مجموعة من ألفاظ مجال بعينه، أو علم بعينه في حيّز خاص. ومن أشهر هذه المعجمات التي صنعت هذا (**مفاتيح العلوم**، للخوارزمي الكاتب المتوفى سنة ١٨٧هـ) و(**مقاليد العلوم في الحدود والرسوم**، المنسوب للسيوطي المتوفى سنة ٩١١هـ).

وفحص منهجية مفاتيح العلوم دالة على وعي مبكر جدًّا بدوائر المعرفة التي عرفتها الحضارة العربية الإسلامية، ذلك أنه قسم معجمه على قسمين هما:

أ - قسم جمع ألفاظ الشريعة والعلوم العربية، وقد ضم الفقه وعلم الكلام والنحو والعروض والشعر والأخبار والتاريخ.

ب- قسم جمع علوم العجم أو الحكمة أو العملية، وقد ضمّ الفلسفة والطب والمنطق والهندسة والموسيقى والحيل أو الميكانيكا والكيمياء.

وفي القسم الثاني تعيينًا دليل قاطع على قدرة العربية على استيعاب المنجز الحضاري الوافد بمظاهره المختلفة علميًّا وفنيًّا.

والأمر نفسه ظاهر في قائمة فصول معجم (مقاليد العلوم) التي جمعت قوائم الألفاظ موزعة على واحد وعشرين علمًا.

ثالثًا– في معجمات مختصة مستقلة:

ومن جهة أخرى عرفت المعجمية العربية قطاعات كثيرة متنوعة استقل كل قطاع بجمع ألفاظ كل علم على حدة في شكل من أشكال تطوير العمل المعجمي دال على ازدهار المنجز الحضاري للأمّة العربية المسلمة.

لقد عرفت المعجمية العربية المختصة معجمات لألفاظ الآداب والفنون والعلوم المختلفة، مما يغطي مساحات شاسعة لمظاهر الترقي العربي الإسلامي.

وثمة دراسات كاملة وقفت أمام عدد من قطاعات هذا العمل المعجمي من مثل الدراسات التي قامت لدرس معاجم الطب والصيدلة ومعاجم ألفاظ الفقه وأصول الفقه والتصوف وغيرها.

والتوقف أمام هذه الملامح الثلاثة السابقة يوضح لنا أنّ العربية والتاريخ الممتد من مجيئ الإسلام إلى ما قبل العصر الحديث لم تعجز عن التعبير عمّا جدّ من مستحدثات حضارية في المظاهر المتمدنة جميعًا سواء في تلك التي ابتكرها العقل العربي المسلم أو تلك التي نقلتها الحضارة العربية من غيرها من الحضارات من خلال الترجمات المختلفة عن اللغات.

وقد عكست هذه الملامح الثلاثة السابقة أنّ الروح العربية طامحة إلى تجديد الحياة وتجويدها وتطوير سبل العيش، وتنمية سلوك الحياة المادية في

البيت والمجتمع، وفي الطعام والشراب والملابس، وفي الزينات، وفي مواجهة المخاطر، وفي مواجهة العدوّ، وفي سبل المتعة والترفيه.

وهو وجه مهم يعكس طبيعة الفكرة الإسلامية المتوازنة التي تلبّي مطالب الجسد جميعًا وتلبّي رغبات الروح أيضًا.

وهو وجه مهم أيضًا يعكس طبيعة هذه الفكرة الإسلامية المنفتحة على الحياة، الحريصة على تجويدها وتحسينها وتيسيرها، وهو الوجه الذي حاولت طوائف كثيرة في مراحل التراجع الحضاري أن تطمس ملامحه التي كشفت ملامح العناية بألفاظ الحضارة في المعجمية التراثية وأظهرت وضاءتها وبريقها الذي كان ساطعًا.

(٤) امتداد العناية بألفاظ الحضارة في العربية في العصر الحديث:

ارتبطت النهضة الحديثة في البلدان العربية بإعادة إحياء اللسان وهو ما بدا طبيعيًّا من كل حركات التحرر الوطني التي أدركت في المشرق والمغرب العربيين جميعًا أنّ استعادة الذات العربية لوهجها الحضاري الذي كان انطمس بفضل عوامل كثيرة منها الاستعمار الغربي الذي كان من آلياته إضعاف اللغة الوطنية واغتيال قدراتها العلمية وتعيينها.

ومن عجب أن ترى مناقشة وإسهامًا لعدد من القضايا المتعلقة باللغة العربية في تراث رواد حركات التحرر الوطني في عموم الوطن العربي، ترى ذلك في الإنتاج الفكري للأفغاني ومحمد عبده ومحب الدين الخطيب وحسن البنا والعقّاد، وتراه في الإنتاج الفكري للبشير الإبراهيمي، ولابن عاشور، ولعبد الله كنون، ولمالك بن نبي، ولغيرهم من أعلام المجاهدين المعاصرين.

وقد واكب ذلك وبرهن عليه تنامي العناية بخدمة ألفاظ الحضارة الحديثة، وسوف تقف هذه الورقة أمام ملامح هذه العناية المعاصرة، مركّزة القول على شريحة من ألفاظ الحضارة الحديثة في العربية وهي تلك المتعلقة بالمجالات التطبيقية أو العملية في ميادين العلم والفن.

وسوف تختار الورقة عددًا من المعجمات المعاصرة التي تفرغت لجمع الألفاظ الحضارة الحديثة في اللسان العربي، مراعية جهود الأفراد، وجهد المؤسسات العلمية المعنية بخدمة ترقية اللغة العربية في الشرق والغرب العربيين جميعًا.

وفيما يلي رصد لبعض المحاولات المختارة مرتّبة زمنيًّا:

أولاً- عمل المؤسسات اللغوية في المشرق العربي:

أ- معجم ألفاظ الحضارة الحديثة ومصطلحات الفنون لمجمع اللغة العربية بالقاهرة ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م.

ب- معجم الموسيقى لمجمع اللغة العربية بالقاهرة ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠ م.

ج- معجم التربية الرياضية لمجمع اللغة العربية بالقاهرة ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م.

ثانيًا- عمل المؤسسات اللغوية في المغرب العربي:

أ- معجم الطحانة والخبازة والفرانة للمكتب الدائم لتنسيق التعريب في العالم العربي ومصلحة التعريب التابعة لمكتب التسويق والتصدير بالدار البيضاء.

ثالثًا- عمل الأفراد:

أ- معجـم الآلـة والأداة ومـا تتبعهـا مـن الملابـس والمرافـق والهنـات لمعروف الرصافي بغداد ١٩٨٠م.

ب- المعجم العربي لأسماء الملابس للدكتور رجب عبد الجواد إبراهيم دار الآفاق العربية بالقاهرة ١٤٢٣هـ/٢٠٠٣م.

وهذه القائمة النوعية من معجمات ألفاظ الحضارة الحديثة في اللغة العربية، مجرد عينة أريد من وراء اختيارها الدلالة على تنوّع العناية بهذه الطائفة من الألفاظ العربية الدائرة في حقول الحضارة الحديثة، والدلالة على استغراق هذه العناية لجغرافيا الوطن العربي شرقًا وغربًا، والدلالة على شمولها لجهاد الأفراد والمؤسسات معًا.

وتمثّل هذه القائمة دليلاً عمليًّا جديدًا على نجاح اللغة العربية في اختبار قبول التحديث، وهو النجاح المسبوق بنجاحات قديمة موثقة تاريخيًا، مسبوق بنجاح مبهر آخر لهذه اللغة فيما نقلته وترجمته من علوم وفنون وآداب وافدة من اللغات الإغريقية والسريانية والفارسية في القرون الهجرية الأولى.

ومن المهم جدًّا أن نقرر أنّ العمل في مجال خدمة ألفاظ الحضارة الحديثة معجميًّا ولغويًّا ينمو ويتطور مع الأيام، وهو ما يمكن التدليل عليه بعمل مجمع اللغة العربية بالقاهرة الذي أصدر سنة ١٩٨٠م معجمه لألفاظ الحضارة الحديثة ومصطلحات الفنون جامعًا بين دفتيه مجموعة من الألفاظ الموزعة على الحقول الحضارية التالية: الثياب وما يتعلق بها، المأكولات، المنزل والأدوات المنزلية، والأماكن وما يتعلق بها، والمكتب وأدواته،

والمركبات وما يتعلق بها، والحِرَف والصناعات والمواد المستعملة فيها، والتربية الرياضية وألفاظ من التصوير والنحت، والرسم، والخزف إلخ.

وأحد أشكال هذا النمو والتطور المرصود كان في تحويل بعض قوائم ألفاظ بعض حقول الحضارة الحديثة السابقة إلى معجمات كاملة مستقلة؛ فمثلاً يجد قارئ معجم ألفاظ الحضارة الحديثة عددًا من المداخل المتعلقة بالموسيقى، وهو الذي نما وتطور ليكون معجمًا كاملاً للموسيقى يتضمن الألفاظ المتعلقة بالآلات الموسيقية المختلفة، والأشكال الموسيقية المتنوعة.

وإذا كان معجم بألفاظ الحضارة الحديثة صنع حقلاً يضم ألفاظ التربية الرياضية جمع واحدًا وخمسين مدخلاً، فإنّ المجمع اللغوي نفسه طور هذا ليظهر معجمًا كاملاً مستقلاً لألفاظ التربية الرياضية الذي أصدرته لجنة ألفاظ الحضارة.

ففي هذين المثالين دليل ظاهر على وعي العربية المعاصرة ومتابعتها وتعاطيها مع التطور الذي يصيب الحياة في مجالات التحضر المتنوعة.

وهو ينعكس على تنامي ظهور الألفاظ العربية في هذه المجالات جميعًا.

(٥) منهجية ترتيب المداخل في معاجم:

ألفاظ الحضارة في العربية المعاصرة: (تنامي خطاب التعبير).

يكاد يسيطر على المعجمية المعاصرة الركون إلى استعمال منهجية ترتيب المداخل أو الألفاظ وفق النظام الألفبائي.

وهذه السيطرة مردّها إلى ارتباط تطبيقات هذا المنهج بمنظور مستقر في صناعة المعجم هو رعاية المستعمل الذي يوافقه هذا الترتيب ليسره وسهولته. وهو اليسر الذي يعنى تحقيق أمرين معًا هما :

توفير المجهود.

وتوفير الوقت.

والغالب على بناء معاجم ألفاظ الحضارة الحديثة هو اتباع المنهج الألفبائي، أي: ترتيب الكلمات حسب أوائلها ابتداء من الألِف وانتهاء بالياء، وفق الترتيب المشرقي لهذه الحروف.

وهو المنهج الذي تراه في ترتيب مداخل معجم ألفاظ الحضارة الحديثة ومعجم الطحانة والخبازة والفرانة، والمعجم العربي لألفاظ الملابس.

وإمعانًا في تطبيقات منهجية التيسير لجأت هذه المعجمات إلى ترتيب ألفاظها وفق منطوقها؛ أي من دون اللجوء إلى الترتيب وفق منهجية التجذير، أو مراعاة الجذور، وهو المنهج الذي يحقق ما يلي:

- التوسع في التيسير.

- والتخلص من المشكلات العلمية الناشئة عن منهجية الترتيب وفق الرد إلى الجذر، من مثل: التخلص من أحرف الزيادة، والتضعيف، ومعرفة أصل الألِف إن وجدت إلخ.

- والتخلص من المشكلات العلمية الناشئة عن الألفاظ المعرّبة عن اللغات الأخرى؛ وعدم وجود آلية لاستخراج جذر لها.

غير أنّ عددًا من معاجم ألفاظ الحضارة الحديثة لجأت إلى ترتيب ألفاظها وفق الألفبائية اللاتينية؛ أي أنّ المداخل وردت مرتبة وفق اللغة الإنجليزية مرتّبة وفق النظام الألفبائى الإنجليزي، بلا مسوّغ علمي، ولا يُعتذر في هذا المجال بأنّ جمهرة ألفاظ الحضارة في حقلَيْ الموسيقى والتربية الرياضية واردة من الحضارة الغربية، ومن لغات أجنبية؛ ذلك أنّ كثيرًا من الألفاظ الحضارية في هذين الحقلين ناشئ من المعجمية التراثية عن طريق إعادة إحياء مفردات قديمة حُمِّلت بدلالات معاصرة فنية أو حضارية.

وأصل رعاية منظور المستقبل، وهو المواطن العربي كان يقتضي ترتيب ألفاظ الحضارة في هذين المجالين، وفق الترتيب الألفبائي العربي.

(٦) معاجم ألفاظ الحضارة في العربية في العصر الحديث قيمتها ووظائفها

إنّ ثمة فوائد كثيرة لظهور معجمات ألفاظ الحضارة، ولاسيما في هذه المرحلة التي يعيد العالم العربي اكتشاف نفسه من جديد، وهو الاكتشاف الذي سيلزمه ولاشك إعادة تقييم ممتلكاته، ومواهبه، ومعارفه جميعًا.

ولا تقف الفوائد عند حدود الإفادة العملية مما ضمته هذه المعجمات من ألفاظ، ومصطلحات موزعة على مجالات الحضارة المختلفة، وهي في حد ذاتها قيمة مقدرة، ولكنها تتجاوز لتغطي مساحات أخرى من الوظائف والغايات.

وفيما يلي محاولة لرصد عدد من أظهر الوظائف التي يمكن أن تفي بها هذه المعجمات المعاصرة لألفاظ الحضارة الحديثة.

أولاً– الوظائف اللسانية / أو اللغوية:

والمقصود بهذه الوظيفة الدلالة على قدرة العربية –بما هي لغة عريقة– على استيعاب ما يجدّ من مستجدات الحضارة في ميادينها المختلفة.

وهو الأمر الذي نلحّ عليه في مواجهة حالة من التشكيك في قدرة اللسان العربي في ظل هجمة المعارف الحديثة من جانب، وفي ظل أصوات عالية تدعو إلى تعلم هذه المعارف باللغات الأجنبية، وهو الأمر الذي لا نجد له صدى في القوميات المختلفة؛ إذ تحرص كل قومية على توطين العلم والمعرفة الحديثة بلغاتها الوطنية.

ومجموع ما ورد في هذه المعجمات الخاصة بألفاظ الحضارة الحديثة، وقسم كبير منها بحكم الوضع الحضاري المتقدم للغرب وارد من هذه اللغات الغربية، استطاعت اللغة العربية أن تعبّر عنه، وتخلق الصيغ العربية المناسبة للدلالة على هذه المفاهيم بطرق متنوعة تقريبًا، أو إعادة إحياء لألفاظ قديمة بعد تحميلها بدلالات جديدة.

لقد برهنت هذه المعجمات بما ضمته من ألفاظ الحضارة الحديثة الوافدة على قدراتها الوافرة صوتيًّا وصرفيًّا ودلاليًّا على مواجهة تطور الحياة، وترقيها.

ثانيًا– الوظيفة الدينية والحضارية:

وقد دلت قراءة هذه المعجمات بما احتوته من ألفاظ متنوعة، موزعة على مجالات الحضارة المختلفة على مسألة مهمة جدًا نحب أن نلح عليها، ألا وهي تصور الفكرة الإسلامية للحياة والكون، ذلك أنّ فحص مفردات هذه المعجمات أنّ الإسلام يرعى قيم الترقّي والتمرّس للحياة

الإنسانية، ويتعاطف مع مظاهر التجويد والتحسين ترعى صناعة الجودة للحياة الإنسانية في بعديها المادي بما يؤازره من تطبيقات صناعية، والروحي بما يؤازره من فنون وآداب وألعاب وترفيه وتهذيب إلخ.

إنّ انفتاح المعجم الحضاري، وحفاوته بمظاهر الترقّي لجوانب الحياة المختلفة دالّ على شمول الفكرة الإسلامية التي تعبّر عنها اللغة العربية، وتعطي جهازها الصوتي والصرفي على الفصائل مع هذه النظرة الشاملة المستوعبة المتوازنة للحياة الإنسانية.

كما أنّ هذه المعجمات أشارت من طرف آخر إلى أنّ التصور الإسلامي يرحب بالمنجز الحضاري المتنوع من دون النظر إلى طبيعة صانعه، أو عرقه، أو دينه، أو لونه، وهو ما يعكس قبولاً واقعيًّا للآخر، والنقل عنه، والإفادة من منجزه، والاعتراف به، وتقديره.

ثالثًا– الوظيفة المعرفية والتاريخية:

في واحدة من زوايا النظر إلى المعجم المختص يدور أمره على كونه مخزنًا للمعرفة والعلم، ذلك أنّ المصطلحات وما تحتها من مفاهيم تمثّل تلخيصًا مكثفًا لما أنجزه الإنسان في رحلة الكشف العلمي، بحيث غدت هذه الألفاظ أو المصطلحات عناوين على مبتكرات العلماء على امتداد التاريخ.

ومن هنا فإنه بالإمكان أن يتعامل مع المعجمات الجامعة لألفاظ الحضارة سواء القديمة منها أو الحديثة باعتبارها مصادر مهمة لإعادة كتابة تاريخ العلم في مجالات مختلفة.

وهذا الملمح لم ينتبه إليه أحد -فيما يظهر- من علماء تاريخ العلوم، والحق أنّ هذا الجانب يسهم في حسم كثير من الدعاوى في هذا الميدان، وهو حاسم كذلك في إعادة الاعتبار للعلم العربي الذي تنكرت له الأدبيات الغربية في مجال تاريخ العلوم.

ثم إنّ هناك أمرًا آخر يتعلق بحلم إنجاز المعجم التاريخي للعربية، ذلك أنّ المصادر المعجمية القديمة والحديثة يمكن أن تعدّ مصادر لمتابعة العمل نحو إنجاز المعجم التاريخي للغة العربية.

معنى ذلك أنّ ملاحظة الألفاظ الدالة على المنجزات الحضارية على امتداد العصور التاريخية من خلال حضورها في المعاجم -عصرًا بعد عصر- سيسهم في تزويد مشروع والحضارية العربية على امتداد التاريخ.

رابعًا- الوظيفة الاجتماعية والنفسية:

لقد أدرك الدارسون والمؤرخون أنّ حركات الاحتلال الغربي تركت آثارًا مدمّرة على النفس العربية كان من نتائجها فقدان هذه النفس العربية وفي لغتها الوطنية.

وقد حاول زعماء التحرر الوطني أن يعيدوا إلى النفس العربية بعضًا من هذه الثقة المفقودة التي تعرضت لغير قليل من علامات الاغتيال.

ومن الممكن أن تسهم معاجم ألفاظ الحضارة الحديثة بما تضمنه من ألفاظ ومفاهيم كثير منها استوعبته اللغة العربية وعبّرت عنه بامتياز في استعادة الشخصية العربية لثقتها في نفسها، وإعادة تأسيس الإيمان

بقدراتها، ومعارفها، وقدرة لغتها على التعاطي مع مستجدات الحضارة الحديثة.

وفي ذلك إعانة ظاهرة على تقديم الدعم النفسي لهذه النفس العربية، ومحاصرة علامات فقدان الثقة.

وفي الوقت نفسه تستطيع هذه المعاجم أن تدعم الحراك الاجتماعي نحو توطين ثقافة الانتماء للسان القومي، وتوسيع شريحة المؤمنين بقدرة هذا اللسان على استيعاب العلوم الحديثة، مما يسهم في دعم دعوات التعلم والتعليم بها.

خامسًا- الوظيفة التربوية والإقناعية:

إنّ جزءًا من نجاح معاجم ألفاظ الحضارة الحديثة في الوفاء بوظائفها الاجتماعية والنفسية تعيين مرهون بما تسهم به في تحقيق الإقناع بقدرات اللغة العربية على التعامل مع المعاني الجديدة، والمفاهيم الحديثة والمبتكرات والمخترعات الوافدة.

وفحص المعاجم الحضارية الحديثة فحصًا دقيقًا متأنيًا ولاسيما على مستوى أشكال صناعة المصطلحات تعريبًا ونقلاً، أو اشتقاقًا ونحتًا قائد تحقيق الإقناع بجدوى تعريب العلوم الحديثة، لأنّ الجهاز الصرفي والمصطلحي للغة العربية قادر على النجاح في هذا السبيل؛ لاعتبارات واقعية وتاريخية معًا.

وإذا تحقق أمر هذا الإقناع أمكن بعده أن نحقق نجاحات على مستوى الوظيفية التعليمية والتربوية؛ لأنه سيهيئ الأجواء على قبول تعلّم العلوم

الحديثة الوافدة باللغة الوطنية القادرة ساعتئذ على التعبير عنها، والتعامل معًا.

إنّ جزءًا من الأزمة العربية المعاصرة ناتج عن خوف قديم من العجز الذي صوّره غير فريق على أنه من خصائص العقل العربي.

وهو الأمر الذي تحطّم على صخرة تاريخ المعجمية العربية قديمًا، وتحطّم على صخرة ما أنجزته المؤسسات العلمية والأفراد معًا من معاجم معاصرة لألفاظ الحضارة الحديثة.

* قسم اللغة العربية- كلية الآداب- جامعة المنوفية- مصر.

ابن هذيل التجيبي الغرناطي (ت٧٥٣هـ)
حياته وما تبقَّى من شِعره

بقلم: د. محمد عويد الساير*

تقديم:

وبه نستعين، إنه نعم المولى ونعم النصير، وبعد؛

فهذا جمع وصنعة ودراسة لشِعر ابن هذيل، أحد شعراء الأندلس وعلمائها في القرن الثامن الهجري، وهو أديبٌ، ومصنِّف، ومقرئ، وطبيب، وهو شيخ لسان الدين بن الخطيب (ت٧٧٦هـ) صاحب التصانيف الكثيرة، والمؤلفات المختلفة.

أتت عوادي الزمن على كتب ابن هذيل، كما أتت على شِعره، إذ أظن -والله اعلم- أنّ هذا ليس كل شِعر ابن هذيل، لما عُرف عنه من نظم كثير، وشِعر غزير.

وعلى كلٍّ فقد رتَّبت ما تبقَّى من شِعر ابن هذيل في هذا المجموع بحسب القوافي، وبحسب قوة حركة الرَّوِيِّ داخل القافية الواحدة، ورقَّمتُ الأبيات والوحدات الشعرية، وشرحتُ ما فيها بما يستحقُّ شرحه، وقدَّمت للشِّعر المجموع بدراسة موجزة عن حياة الشاعر، وشِعره، ومن الله التوفيق والسداد.

وبعد، فهذا جهد علمي جديد يضاف إلى الجهود المبذولة في صنعة الدواوين وتحقيقها في العراق، ومن الله السداد والإصابة.

ابن هذيل الرجل:

هو يحيى بن أحمد بن هذيل أبو زكريا[١] (وزكرياء كما جاء في "**السحر والشِّعر**")، أرجدوني[٢] الأصل، يُنسب إلى سلفه أملاك ومعاهد كولايج هذيل مما يدل على أصالة[٣].

قال عنه تلميذه ابن الخطيب (ت٧٧٦هـ): (كان آخر حَمَلَة الفنون العقلية بالأندلس، وخاتمة العلماء بها من طب، وهندسة، وهيئة، وحساب، وأصول، وأدب إلى إمتاع المحاضرة، وحُسن المجالسة، وعموم الفائدة، وحُسن العهد، وسلامة الصدر، وحفظ الغيب، والبراءة من التصنع، والسمت، مؤثرًا للخمول، غير مبال للناس، مشغولاً بخاصة نفسه)[٤].

وأثنى عليه كثيرًا في الكتيبة الكامنة[٥] وكذلك أثنى عليه ابن الأحمر (ت٨٠٧هـ)، ونعته بالفقيه[٦]. وقال عنه المِقَّري التلمساني (ت١٠٤١هـ): (الشيخ العلاّمة التعاليمي، الشاعر البليغ، أعجوبة زمانه في الاطلاع على علوم الأوائل)[٧].

وقد أورد من ترجم لابن هذيل، ومن تحدَّث عنه بعضًا من مؤلفاته التي لم تصل إلينا إلى كتابة هذه السطور، ومن هذه المؤلفات:

١- ديوان شِعره المسمَّى "**السليمانيات والعربيات وتنشيط الكسل**"[٨].

٢- كتاب "**الاختبار والاعتبار في الطب**"[٩].

٣- كتاب "**التذكرة في الطب**"[١٠].

٤- شرح كراسة الإمام فخر الدين الرازي في الطب[١١]، وهو غريب المأخذ جمع فيه بين طريقتي القدماء والمتأخرين من المنطقيين[١٢].

خدم ابن هذيل باب السلطان في آخر عمره، وقعد بالمدرسة بغرناطة يقرئ الأصول والفرائض والطب[١٣].

فُلج والتزم منزل لسان الدين بن الخطيب، وكانت زوجُه قد توفيت، فصحبه عليها وجدٌ شديد، وحزن ملازم، فلما قرُبت وفاته استدعى تلميذه ابن الخطيب، وأملى عليه بعض الأبيات[١٤]، إذ كان لسانه لا يُبين القول، ولا يُفصح عما يُريد.

وكانت وفاته في ليلة الخامس والعشرين لذي القعدة من عام ثلاثة وخمسين وسبعمائة، ودُفن بحذاء زوجه كما عهد رحمة الله تعالى عليه[١٥].

ابن هذيل الشاعر (دراسة عامة في الأغراض الموضوعية والخصائص الفنية):

شِعر ابن هذيل قليل، موازنة مع شعراء عصره، ولمن يريد أن يضع له دراسة شاملة مفصلة تتناول أدق الأغراض الموضوعية، وأبسط الخصائص الفنية أو الأسلوبية، ومع هذا فشِعره من الناحية الموضوعية يمثّل المديح ولاسيما قصيدته التي قالها في مدح السلطان أبي الوليد بن نصر[١٦] عند قدومه من فتح أشكر[١٧]، وتتميّز تلك القصيدة[١٨] بأنها حماسية مجلجلة تكشف عن إقدام الممدوح وبسالته، وعظمة المناسبة التي قيلت فيها القصيدة التي أعتقد أنها لم تصل إلينا كاملة، وإنّ أصحاب المختارات والتراجم قد اختاروا منها مختارات تناسب ذوقهم، وميولهم الأدبية والنقدية.

كذلك له في المديح مقطوعة أُخرى[١٩] لا تختلف عن النص السابق في بيان صفة الممدوح، وإسباغ بعض الصفات المدحية المهمة عليه، ويبدو أنّ هذه المقطوعة قيلت في الحرب أيضًا، إذ إنّ ألفاظها تبين بطولة الممدوح وقدرته على المنازلة إذا ضعف الأبطال وجبنوا... وإلى غير ذلك من الصفات التي جاءت في المقطوعة.

ولابن هذيل شِعر في *النسيب*[٢٠]؛ والذي يبدو لنا أنّ ديوانه المعروف بـ**(السليمانيات والعربيات)** كان في النسيب، أو أنّ معظمه في النسيب، وشِعر ابن هذيل في النسيب حلو رائق على عادة الشعراء في هذا الفن، وما عرفوا به في هذا الغرض، وشِعره في النسيب تميّز بالسهولة، وكثرة أوصاف الشخص الذي يريد التغزل به، ووصفه بالأوصاف الحسية المعروفة التي تدل على جماله إلا أنه يوغل أحيانًا في الحسية، كما أنّ بعض شِعره في النسيب قد يهتك العفاف، ويقع في المجون الفاحش الذي لا يوافق سيرته التي اشتهر بها، والتي تتسم بالخلق، والدين، والعفاف.

وأمّا عن *الوصف* فقد تناثر هنا وهناك بين نصوص ابن هذيل الشعرية، وكانت له نصوص مستقلة في هذا الغرض[٢١]، كقوله يصف الديك الذي أُهدي إليه، ويوغل في الحديث عن صفاته، وعن ميزات تلك الهدية بما يثير بعض التندر الذي يجلب الإمتاع والمؤانسة، وله أشعار في وصف آلة الحرب، كما يصف غزالة كانت تصبّ الماء على بركة عندما قال هذا النص بديهة وقد طلب منه ذلك، مما يكشف عن قدرة شعرية متمكنة، وقدرة على الوصف بمثل هذا التصوير الدقيق والأوصاف الرائعة التي

أودعها تلك الغزالة التي رآها وأُعجب بها، فوصفها كما رآها، وكما رآها من معه، ومن طلب منه أن يصفها أو يتحدث عنها.

وتتجسد في شِعر ابن هذيل التجيبي بعضٌ من سمات الحزن ومظاهر البكاء، ولاسيما تلك النصوص الشعرية التي قالها وهو في السجن[٢٢]، وهذا شيء بديهي ومتداول إذ يُثير هذا المكان المعادي صفات نفسية مهمة تجعل من يقع فيه منعزلاً، ووحيدًا، وحزينًا، وبعيدًا عن أعين الناس، وهي الصفات التي كانت لدى ابن هذيل، وهو يحدثنا عن اعتقاله وكيف بُعِدَ عن الناس، واعتزاله الجميع، ويبدو أنّ هذا الاعتقال كان في أُخريات أيَّامه، إذ يتحدَّث في النص عن الدهر، وكيف أنه سأمه، وملَّ من أُناسه الذين تغيَّرت طباعهم، وتغيَّر فيهم كل شيء.

وصفات الحزن هذه مستمرة في نصه الأخير[٢٣] الذي قاله بعد أن أوصى تلميذه ابن الخطيب أن يكتبه على قبره، وفيه من سمات الحزن الشيء الكثير كيف لا وهو في مرضه الذي أقعده عن العمل والناس، وبعد موت زوجه.

وأمّا عن خصائص شِعر ابن هذيل الفنية، فكانت وكما وردت في شِعره على النحو الآتي:

- نظم ابن هذيل في النتفة، والمقطوعة، والقصيدة. وفي كلٍّ اعتنى باستيفاء اللفظ، وسلامة العبارة، وجزالة الكلمات، فجاءت هذه الأنواع كلها في شِعره على نحو متميز، ونظم حسن خلا تلك القصائد التي نعتقد -والله اعلم- أنها اجتُزِئت، وقُطِعت، فهي ليست كاملة ولا تامة النظم والمعنى.

- ورد في شِعره بعض السرد القصصي، ولاسيما في نصوصه الشعرية ذات الموضوع الوصفي، أو الموضوع الغزلي، وهذان الموضوعان يسمحان للشاعر بهذا السرد، وهو سرد متخيل من أنواع الخيال التأليفي الذي يلجأ إليه الشاعر لنكبة أو لعبرة، ونظنُّ أنّ ابن هذيل كان مُجيدًا في هذا النوع من السرد في مثل هذين الغرضين كما أسلفنا القول.

- وردت الصورة الفنية في شِعره بأنواعها الكثيرة، ولاسيما الصورة التشبيهية، والصورة الاستعارية، وبعض الصور الكنائية، فضلاً عن الصورة بالألوان والحواس، والخيال.

وكانت مصادر صوره هي: المكان الحربي والمعادي (السجن)، والمتخيل. (في الغزل) فضلاً عن الحديث عن الديك، أو وصف الغزالة التي طُلب منه وصفها.

وابن هذيل متمكن جدًّا في رسم هذه الصور وكأنَّه رسَّام يستعمل فرشاته بمهارة عالية وهو يتفنّن في رسم لوحة فنية جميلة.

- كذلك جاءت في شِعره بعض *الإيقاعات الصوتية* المختلفة ولاسيما من *التصدير*، *والتضاد*، وبعض *الجناس الصوتي*، *والتكرار* الذي أبان عن ضربات موسيقية وافقت صور الشاعر من هذه الأغراض والفنون، إن خيرًا فخير، وإن غير ذلك فكانت على ما أراد ونظم.

وأمَّا الأوزان فكان *الطويل* في المقدمة من بين البحور الشعرية التي استعملها، ومما ينقص شعر ابن هذيل النفس الطويل في المديح، ووصف المعتقل، وبعض النسيب والزهد.

وقد تناول في شِعره البحور الشعرية الأخرى *كالكامل*، *والمنسرح*، *والرمل*، *والوافر*، وساعدت القافية المطلقة ببعض التنوع الموسيقي والطرب الرخيم الذي أحدثته مع البحر الشِّعري مع أنه استعمل القافية المقيّدة، والقافية المؤسسة، والقافية المطلقة.

كذلك نظم ابن هذيل شعره في حروف الروي المتنوعة فجاء في شعره الروي المشهور *كالراء*، *والسين*، *والدال*، وجاء الروي النادر *كالضاد*، والروي قليل الاستعمال *كالقاف*، وهذه قد تكون من الأمور التي تُحسب له ولشعره على قلّته وبساطته.

جهد المحقق وعمله في شعر ابن هذيل:

أُصدر هذا المجموع الشعري لابن هذيل التجيبي بعد إصدارات أُخرى لمجموعات شعرية في الأدب الأندلسي كانت في متناول الأيدي، وملك للجميع من باحثين ودارسين مختصين بالأدب الأندلسي فكان هذا الجهد مكملاً للجهود السابقة التي قمت بها وهي: شِعر ونثر ابن عسكر المالقي (ت٦٣٦هـ)[٢٤]، وشِعر ونثر وتوشيح أبي عثمان سعيد بن حكم (ت ٦٨٠هـ)[٢٥]، وشِعر ونثر ابن عاصم الغرناطي الأندلسي (ت ٨٥٧هـ)[٢٦]، وشِعر إدريس بن اليمان أليابسي (ت ٤٧٠هـ)[٢٧]، وهذا المجموع الشِّعري إضافة إلى ما سبق بفضل الله تعالى وتوفيقه ومنّته.

وكانت خطوات الباحث في هذا البحث كالآتي:

١- جمع شِعر ابن هذيل من المظان التي تُرجمتْ له، وأوردتُ شيئًا من شِعره.

٢- ترتيب الشِّعر بحسب القوافي الهجائية، وبحسب قوة الحركة داخل القافية الواحدة من الضم حتى السكون -إن وجدت- فالمطلقة بالألِف، والمطلقة بالهاء.

٣- ترقيم الوحدات الشعرية بتسلسل رقمي، والأبيات كذلك أيضًا، مع حقل خاص لاختلاف الروايات في كل بيت شِعري لابن هذيل، وكذلك حقل خاص للشروح لشرح الكلمات المستغلقة، والمعاني الصعبة، وبعض الأمور التي تحتاج للشرح والتفصيل التي جاءت في شِعر ابن هذيل ونظمه.

٤- اعتماد رواية المصدر الأقدم الذي روى أكثر كمية من شِعر ابن هذيل مع مقابلته بالتخريج، والشرح، والاختلاف مع رواية المصادر الأخرى وكمية شِعرها.

٥- تصدير المجموع الشِّعري بدراسة عن حياة الشاعر وشِعره من حيث الأغراض الموضوعية، والسمات الفنية بما يقتضي الدراسة، وما يستحق الشاعر، ومن الله الإصابة.

وأخيرًا أتمنى كلَّ التوفيق لهذا الجمع، لشاعر، ومقرئ، وفقيه، وبانتظار قابل الأيام لتضعنا على كثير من شِعره فيضمّها مستدرك جديد أو جمع آخر لشاعر استحق العناية والذكر من القدامى، ولعلَّه يستحق منَّا العناية نفسها والذكر ذاته، فلعلي وفَّيتُ حقَّه، وخرَّجتُ أدبه كما يُريد الآخرون، ويرتضونه لأنفسهم ولأعمالهم، والحمد لله أولاً وآخرًا.

ما تبقّى من شِعر ابن هذيل التجيبي الغرناطي

(الباء)

(١)

قال وهو معتقل: (الطويل)

١ - تباعـد عنِّـي منـزلٌ وحبيـبُ وهـاجَ اشـتياقِي والمـزارُ قريـبُ

٢ - وإني على قُرْب الحبيبِ مع النَّوَى يكـادُ إذا اشـتدَّ الأنِـينُ يُجِيـبُ

٣ - لقـد بَعُـدَتْ عنِّـي دِيـارٌ قرِيبـةٌ عَجِبْتُ لجارِ الجنبِ وهو غَرِيبُ

ومنها:

٤ - أُعاشِر قومًا ما تَقَرُّ نفوسُهم فللـهمِّ فيهـا عنـد ذاك ضُـروبُ

٥ - إذا شَعَروا مِن جارِهِم بِتَأوُّهٍ أجابتـه مـنهم زَفـرَةٌ وَنَحِيـبُ

٦ - فلا ذاك يَشْكُو هَمَّ هذا تَأَسُّفًا لِكُـلِّ امْـرِئٍ ممـا دَهـاهُ نَـصِيبُ

٧ - كأنِّي في غابِ اللُّيوثِ مُسَلِّمًا يَرَوِّعُنِـي منهـا الغَـدَاةَ وثُـوبُ

٨ - تحكَّمَ فِينَا الدّهرُ والعقلُ حاضِرٌ بِكُـلِّ قِيـاسٍ والأديـبُ أريـبُ

٩ - ولـو مَـالَ بالجُهَّـال مَيلتَـهُ بنـا لجـاءَ بِعـذرٍ، إنَّ ذا لعجيـبُ

١٠ - رفيقٌ بمن لا يَنْثَنِي عن جَرِيمَةٍ بَطـوشٌ بِمَـن مـا أَوْبَقَتْـهُ ذُنـوبُ

١١ - وتُطمعنـا منـه بـوارقُ خُلَّـبٌ تقـولُ: عـساهُ يَرْعَـوِي ويَتُـوبُ

١٢ - إذا مـا تـشبَّثنا بأذيـالِ بُـردهِ دَهَتْنـا إذا جـرَّ الـذُّيولَ خطـوبُ

١٣ - أدار علينـا صـولجانًا ولم يكـن سـوى أنـه بالحادثـاتِ لَعـوبُ

ومنها:

١٤- أيا دهرُ، إنِّي قد سئمتُ تهدُّفي | أجِرْنِـي فـإنَّ الـسهمَ مِنْـكَ مُـصِيبُ
١٥- إذا خَفَقَ البَرْقُ الطَّروقُ أجابه | فـؤادي ودمـعُ المقلـتينِ سَـكوبُ
١٦- وإن طلع الكفُّ الخضيبُ بسحْرِهِ | فَـدَمْعِي بحِنـاءِ الـدِّماءِ خَـضِيبُ
١٧- تـذكِّرُني الأسـحارُ دارًا أَلِفْتُها | فيـشتدُّ حُزْنِـي والحَمَـامُ طَـروبُ
١٨- إذا عَلِقَتْ نفسي بِلَيْتَ وربَّما | تكـادُ تَفِـيضُ أو تَكـادُ تَـذُوبُ
١٩- دعوتُكَ رَبِّي والدعاءُ ضَراعَةٌ | وأنـتَ تُنَـاجَى بِالـدَّعَا فَتُجِيـبُ
٢٠- لئن كان عُقبَى الصَّبْرِ فَوْزًا وغبطةً | فـإنِّي علـى الـصَّبرِ الجميـلِ دَرُوبُ

(١) التخريج: **الإحاطة في أخبار غرناطة**: ٤/٣٤٠-٣٤١، **نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب**: ٨/٣٧-٣٨.

اختلاف الروايات:

٤- في "**نفح الطيب**": أعاشرُ أقوامًا ما تقرُّ نفوسهم.

٧- في "**نفح الطيب**": كأني في غابِ الليوثِ مسالمٌ.

٨- في "**نفح الطيب**": تحكّم فيها .... والأديبُ أديبُ.

١١- في "**نفح الطيب**": .... نقول: عساه يرعوي فيؤوبُ.

١٢- في "**نفح الطيب**": .... دهتنا إذا جرَّ الخطوب خطوبُ

١٦- في "**نفح الطيب**": وإن طلع الكفُّ الخضيبُ سحيرةٌ

(الدال)

(٢)

وقال يمدح السلطان أمير المسلمين أبا الوليد بن نصر عند قدومه من فتح أشكر: (الطويل)

١ – بحيث البنودُ الحمرُ والأسَدُ الوَرْدُ كتائبُ سكانُ السماءِ لها جُندُ

٢ – حدتْ بهم خوصٌ عرابٌ ضوامرٌ وقد ضاقتِ الارجاءُ إذ عظُمَ الوجدُ

٣ – عساكرُ مَلْكٍ شرَّفَ اللهُ قدْرَهُ فسيان من إقدامها السهلُ والنَّجدُ

٤ – إذا رجَّعوا الذِّكْرَى حمامًا سواجعًا فأعطافهم في ميلها قُضُبٌ مُلْدُ

٥ – وإنْ حَلَّ صبرُ الصبرِ بين ضلوعهم فأفواههم مِن ذِكْرِ رَبِّهِمُ شُهْدُ

٦ – وتحسبُ نور الصدقِ والعزمِ دائمًا سراجًا من التقوى بآزرهم يبدُو

٧ – هم القوم رهبانٌ إذا لبسوا الدُّجى وإن لبسوا حرَّ الهياجِ فهم أسدُ

٨ – حَنَوْا حنو سلطانٍ على الشرعِ عاطفٍ رقيقٍ بهم حانٍ إذا عظُمَ الجَهْدُ

٩ – وتحتَ لواءِ الشرعِ مَلْكٌ هو الهوى تَضيقُ بهِ الدنيا إذا راحَ أو يغدُو

١٠ – فلو رام إدراكَ النجومِ لنالها ولو همَّ لانقادَتْ له السِّندُ والهندُ

١١ – تأمَّنَتِ الأرواح في ظلِّ بندهِ كأنَّ جناحَ الروحِ من فوقهِ بندُ

ومنها في الحضِّ والقتال ووصف آلة النفط :

١٢ – على أنها ضنَّتْ بعذبِ ورودِها غُديَّة راح الأُسْدُ والضُّمَّرُ الجُرْدُ

١٣ – فكان صباح القومِ قومًا بوصلها وقومًا بوصل الحورِ قد أنجزَ الوعدُ

١٤ – ولولا دفاعُ الخودِ عن عذبِ ريقِها لما لذَّتِ الشكوى ولا عذُبَ الورِدُ

١٥ – ومن عانقَ الأخطارَ حقَّ له العلا ومن نبذ الفاني يحقُّ له الخُلدُ

١٦ – وظنوا بأنَّ الرعدَ والصَّعقَ في السما فحاقَ بهم من دونها الصَّعقُ والرعدُ

١٧ – عجائبُ أشكالٍ سما هرمس بها مُهندَسةٌ تأتي الجبالَ فتنهدُّ

١٨ – ألا إنها الدنيا تُريك عجائبًا وما في القوي منها فلا بدَّ أن يبدُو

١٩- بعينيَّ بحرُ النقعِ فوقَ أسنَّةٍ تُنمنمــهُ وهنًـا كمـا نمـنم الـبردُ
٢٠- سماءُ عجاجٍ والقوانسُ شُهْبُها ووقـعُ القَنَـا رَعْـدٌ إذا بـرقَ الهنـدُ
٢١- وقد نُثِلَتْ فيها كنائنُ فارتمتْ سـقيط نثـارٍ مثلمـا قُـدِحَ الزنـدُ
٢٢- كأنَّ قلوبَ الرومِ أهدافها التي تَطِـيرُ بمحياهـا ومـا شَـعرَ الجلـدُ
٢٣- ومن دمهم زرقُ الأسنةِ لُفَّعتْ فتلـك إذا مـا شُـبِّهتْ أعـينٌ رُمْـدُ
٢٤- تسيلُ على الراياتِ منها مدامعٌ كخـدِّ محـبٍّ شـفَّهُ الـبينُ والوجـدُ
٢٥- أَلا شفَّع الرحمنُ غزوة أشكرٍ بها رضي الإسلام والأحدُ الفردُ
٢٦- ومن رغبة الاشياء في نيل فضلها إذا سُـلَّ سـيفٌ كـاد يحسدهُ الغِمْـدُ

(٢) التخريج: "**الكتيبة الكامنة في من لقيناه بالأندلس من شعراء المئة الثامنة**": ٧٧-٧٩، "**اللمحة البدرية في الدولة النصرية**": ٨٥، الأبيات: ١-١٦-١٧-١٨، "**الإحاطة في أخبار غرناطة**": ٤/٣٣٩-٣٤٠، ١-٩-١٠-١١-١٦-١٧-١٨-١٩-٢٠، "**نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب**": ٨/٣٦-٣٧، الأبيات: ١- ٩-١٠-١١-١٦-١٧-١٨-١٩-٢٠.

اختلاف الروايات:

٩- في "**الإحاطة والنفح**": وتحت لواء النصر ملك هو الهوى.

٢٠- في "**الإحاطة والنفح**": سماءُ عجاج والأسنةُ شهبها.

(٣)

وبُعثتْ إليه هدية من البادية، فقال يصف منها ديكًا، وكتب بذلك رحمة الله عليه: (المنسرح)

١ - أيـا صـديقًا جعلتـهُ سـندا ... فــراحَ فيمـا أحبَّـه وغـدا
٢ - طلبـتُ مـنكم صُـريدكًا خنثًـا ... وجَّهتمــوني مكانــه لُبــدا
٣ - صـيَّر مـني مؤرخًـا ولكـم ... ظللــتُ في علمــهِ مــن البُلــدا
٤ - قلـتُ لــه : آدمٌ أتعرفــهُ؟ ... قـال : حفيـدي بعـصرنا وُلِـدا
٥ - نـوحٌ وطوفانــهُ رأيتَهُمَــا؟ ... قــال : علونـا لفيـضه أُحـدا
٦ - فقلتُ : هل لي بجرهم خبرٌ؟ ... فقـال : قـومي وجيرتـي السُّعدا
٧ - فقلتُ : قحطانُ هل مررتَ به؟ ... قــال : نفثنـا بـبردهِ العُقــدا
٨ - فقلـتُ : صِـفْ سَبَا وسـاكِنَها ... فعنــد هــذا تــنفَّسَ الــصُّعدا
٩ - وقال : كم لي بدجنهم سَحَرًا ... مـن صـرخةٍ لـي وللنـؤومِ هـدا
١٠ - فقلتُ : هاروت هل سمعتَ به؟ ... فقـال : ريـشي لـسحرهِ نفـدا
١١ - فقلتُ : كسرى وآل شرعته؟ ... فقــال : كنـا بجيـشه وفـدا
١٢ - ولَّـوا وصـاروا وهـا أنـا لبدٌ ... فهـل رأيـتم مـن فـوقهم أحـدا؟
١٣ - ديـكٌ إذا مـا انثنـى لفكرتـه ... رأى وجــودًا طرائقًــا قِــدَدا
١٤ - يرفــلُ في طيلــسانه ولهًــا ... قـد صـيَّر الـدهرُ لونَـه كمـدا
١٥ - إذا دجى الليلُ غابَ هيكَلُه ... كـأنَّ حِـبرًا عليـه قـد جَمـدا
١٦ - كأنمــا جلَّنـــار لحيتـــهِ ... بُرجـانِ حـازا عـن الهـواء مـدا
١٧ - كـأنَّ حِـصنًا عـلا بهامَتِـهِ ... أعــدَّه للقتــالِ فيــه عــدا

١٨- يرنــو بيــاقوتَتَي لَوَاحِظِــه كأنمــا اللحــظ منــه قــد رَمِـدا
١٩- كــأنَّ منجــالتي ذؤابتــه قــوسُ سمــاءٍ مــن أجلــهِ بَعُـدا
٢٠- وعوســجٌ مــدَّ مــن مخالبــهِ طغــى بهــا في نقــاره وعــدا
٢١- فـذاك ديـكٌ جلَّـتْ محاسـنه لــه صــراخٌ بــين الــديوكِ غــدا
٢٢- يطلــبني بالــذي فعلــتُ بــه فكـــم فللنـــا بلبَّتيـــهِ مُـــدى
٢٣- وَجَّهتَـــه محنـــةٌ لآكلـــه والله مــا كــان ذاك منِّــي سُــدى

(٣) التخريج : "**الإحاطة**" : ٤/٣٤١-٣٤٢، **نفح الطيب** : ٨/٣٨-٣٩.

اختلاف الروايات :

٢- في **النفح** : سُريدكًا وجئتم لي مكانه لُبدا

٥- في **النفح** : .... بفيضهِ

٩- في **النفح** : فقال :

١٠- في **النفح** : .... بسهمِهِ نفدا

١٩- في **النفح** : ذوائبه

٢١- في **النفح** : .... بدا

٢٣- في **النفح** : .... منك سدا

الشروح :

٢-السُريدك : تصغير سردوك وهو الديك.

١٢- لبد : آخر نسور لقمان وهو مضرب المثل في التعمير وطول البقاء. ينظر : "**حياة الحيوان الكبرى**" : ٢/٣٥١.

١٣- القِدد: جمع قدة وهي الفرقة من الناس. ينظر: "**لسان العرب**" مادة (قدد): ج٣/٣٤٤.

(الراء)

(٤)

ومن السليمانيات، وفي غرض النسيب قوله: (الطويل)

١- أأرجو أمانًا منك واللحظُ غادرُ ويثبتُ قلبي فيك والطرفُ ساحرُ

٢- عجبتُ للحظٍ كلَّ قلبٍ يُطيعهُ ويرضى بما يقضي به وهو جائرُ

٣- ويترك وردَ الخدِّ نهب جفونها جريءٌ على دفع المعرةِ قاصرُ

٤- وأعجبُ من ذا كيف تنهبُ في الدجى لصوصُ الهوى نومي وطرفي ساهرُ

٥- ويسلمُ من بعد الذي سكن الحشا ويشكو من الهجرانِ والطيفُ زائرُ

٦- ولا نيلَ إلاَّ من طروقِ خياله فمن لي بوصلٍ منه واليومُ هاجرُ

٧- أعدَّ سليمانٌ أليمَ عذابِهِ لهدهدِ قلبي فهو للبينِ صابرُ

٨- أشاهدُ منه الحسنَ في كلِّ نظرةٍ وناظرُ أفكاري لمعناه ناظرُ

٩- دعتْ للهوى أنصارُ سحرِ جفونه فقلبي له عن طيبِ نفسٍ مهاجرُ

١٠- إذا شقَّ عن بدرِ الدجى أُفق زرِّهِ فإني بتمويهِ العواذلِ كافرُ

١١- وفي حرمِ السلوانِ طافت خواطرٌ وقلبي لما في وجنتيهِ مجاورُ

١٢- وقد يُنزعُ القلبُ الشجيُّ لسلوةٍ كما اهتزَّ من قطر الغمامةِ طائرُ

١٣- يقابل أغراضي بِضد مُرادِها ولم يدرِ أن الضدَّ للضدِّ قاهرُ

١٤- ونار اشتياقي صعَّدتْ مزنَ أدمعي فمضمرُ سرِّي فوق خدِّيَ ظاهرُ

١٥ – وقد كنتُ باكي العين والبينُ غائب فقل : كيف حالُ الدمع والبينُ حاضرُ

١٦ – وليسَ النوى بالطبعِ مُرًّا وإنما لكثـرةِ مـا شُـقَّتْ عليـه المرائـرُ

ومنها في وصف ليلة :

١٧ – وزنجيةٍ فات الكؤوسَ بسحرها قلائـدُ يـاقوتٍ عليهـا الجـواهرُ

١٨ – ولا عيبَ فيها غير أنَّ ذُبالها يُقطَّـبْ فتبـدو لِلكـؤوسِ سـرائرُ

١٩ – تجنَّبتُ فيها نيل كلّ صغيرة وقـد غُفِـرَتْ فيهـا لـديّ الكبـائرُ

(٤) التخريج : "**الكتيبة الكامنة**" : ٧٥-٧٦، القصيدة ما عدا الأبيات : ١٧-١٨-١٩، "**الإحاطة**" : ٣٣٨/٤، القصيدة ما عدا الأبيات : ٢-٣-٤-٥-٦، "**نفح الطِّيب**" ٣٥/٨ ، القصيدة ما عدا الأبيات : ٢-٣-٤-٥-٦-١٧-١٨-١٩.

اختلاف الروايات :

١- في "**الإحاطة** "و"**النفح**" : .... ويثبت عقلي

٧- في "**النفح**" : .... لطار قلبي

١١ – في "**النفح**" : .... طابت

١٢ – في "**الإحاطة**" و"**النفح**" : .... القلب المبلَّى

١٥ – في "**الإحاطة**" و"**النفح**" : .... فقل لي كيف الدمعُ

(٥)

وقول شيخنا ابن هذيل : (الطويل)

١ – وعاطيتهُ علمَ البديع وخدُّه يُعلّمـني تلوينـهُ علـمَ جـابرِ

٢ –وصفَّحتُ –من شوقي– مدوَّنةَ الرضا لثغـرٍ فأفتـاني بـنصِّ الجـواهرِ ❖

(٥) التخريج : "**السحر والشِّعر**" : (باب النسيب)، ١٠٠.

(السين)

(٦)

ومن الأمداح قوله من قصيدة : (الطويل)

١ - حريصٌ على جرِّ الذوائبِ والقنا إذا كَعَّتِ الأبطالُ والجوُّ عابسُ
٢ - وتعتنقُ الأبطالُ، لولا سقوطها لقلتُ لتوديعٍ أتتهُ الفوارسُ
٣- إذا اخْتَطَفَتْهم كفُّهُ فسروجهم مجالٌ، وهم في راحتيه فرائسُ

(٦) التخريج : "**الإحاطة**" : ٤/٣٣٩، "**السحر والشِّعر**" : (باب المديح) ٢٢١، والأبيات وردت بصورة مرتبكة وفيها تقديم العجز على الصدر ولا أدري كيف لم ينتبه لها المحققان الفاضلان، "**نفح الطِّيب**" : ٨/٣٦.

الشروح :

١ - كعت الأبطال : جبنت وضعفت. "**لسان العرب**" مادة (كعع) : ج٢/٧٨.

(٧)

ومن شِعره في غرض أبي نواس الحسن بن هانئ : (الطويل)

١ - طرقنا دُيُورَ القومِ وهنًا وتغليسا وقد شرَّفوا الناسوت إذ عبدوا عيسى
٢ - وقد رفعوا الإنجيلَ فوقَ رؤوسهم وقد قدَّسوا الروحَ المقدَّسَ تقديسا
٣- فما استيقظوا إلاَّ لصكَّةِ بابهم فأدهشَ رهبانًا وروَّعَ قسيسا
٤ - وقام بها البطريقُ يسعى مُلَبِّيًا وقد أصمتَ الناقوسَ رفقًا وتأنيسا
٥ - فقلنا له : أمنا فإنَّا عصابةٌ أتينا لتثليث وإن شئت تسديسا

٦- وما قصدُنا إلاَّ الكؤوسَ وإنما لحنَّـا لـه في القـولِ خُبثًـا وتدليـسا
٧- ففُتِّحتِ الأبوابُ بالرَّحبِ منهمُ وعـرَّسَ طُـلابُ المُدامـةِ تعريـسا
٨- فلمّا رأى زقِّي أمامي ومزهري دعـاني تأنيـسًا لحنـثٍ وتلبيـسا
٩- وقـام إلى دنٍ ففـضَّ ختامَـهُ فكـبَّسَ أجـرام الغياهـب تكبيـسا
١٠- وطاف بها رطبُ البنانِ مُزنَّرٌ فأبصرتُ عبدًا صيَّرَ الحُرَّ مرؤوسا
١١- سُلافًا حواها القارُ لبسًا فخلتُها مثالاً من الياقوتِ في الحبر مغموسا
١٢- إلى أن سطا بالقومِ سلطانُ نومهم ورأسُ فتيلِ الشمعِ نُكِّس تنكيسا
١٣- وثبتُ إليه بالعِناقِ فقال لي: بحقِّ الهوى هبْ لي من الضمِّ تنفيسا
١٤- كتبتُ بدمعِ العينِ صفحةَ خدِّهِ فطلَّس حبرَ الشِّعرِ كَتْبِيَ تطليسا
١٥- فبئسَ الذي احتلنا وكدنا عليهم وبئسَ الذي قد أضمروا قبل ذا بيسا
١٦- فبتنـا يرانـا الله شـرَّ عـصابةٍ تطيـعُ بعـصيان الـشريعةِ إبليـسا

(٦) التخـريج: "**الكتيبـة الكامنـة**": ٧٩-٨٠، "**الإحاطـة**": ٤/٣٤٢-٣٤٣، "**نفح الطِّيب**": ٨/٤٠-٤١.

اختلاف الروايات:

٤-في "**الإحاطة**": ..... وقد ليَّنَ الناقوس رفقًا، وفي **النفح**: ..... ليَّن... رفعًا

٩- في "**الإحاطة**" و"**النفح**": .... يفضّ ختامه

الشروح:

٥- التثليث: شرب ثلاث كؤوس، والتسديس: شرب ست كؤوس.

٦- يريد أنهم أوهموه بالتورية في التثليث، والقصد أنهم شربوا ثلاثًا أو ستًّا.

٧- التعريس: النزول آخر الليل. **لسان العرب** مادة (عرس): ج٦/١٣٦.

(الضاد)

(٨)

ومن السليمانيات من قصيدة: (الكامل)

١- يا بارقًا قادَ الخيال فأومضا   اقصد بطيفكَ مُدنفًا قد غمضا

٢- ذاك الذي قد كنتَ تعهدُ نائمًا   بالسُّهدِ من بعدِ الأحبَّة عوَّضا

٣- لا تحسبنِّي معرضًا عن طيفهِ   لكنْ منامي عن جفوني أعرضا

ومنها:

٤- عَجِبَ الوشاةُ لمهجتي أن لم تَذُبْ   يوم النوى وتَشَكَّكتْ فيما مضى

٥- خفيتْ لهم من سرِّ صبري آيةٌ   ما فهَّمت إلاَّ سليمانَ الرضا

٦- لله درُّك ناهجًا سُبُل الهوى   فلمثلهِ أمرُ الهوى قد فُوِّضا

٧- أَمَّنْتَ نملاً فوقَ خدك سارحًا   وسللتَ سيفًا من جفونك مُنتضى

(٨) التخريج: "**الإحاطة**"، ٤/٣٣٨، "**نفح الطِّيب**": ٨/٣٦.

(العين)

(٩)

ومن السليمانيات في النسيب قوله: (الطويل)

١- ألا استودَعَ الرحمنُ بدرًا مكمّلاً   بفاسٍ من الدربِ الطويل مطالعُهْ

٢- وفي فلكِ الأزرارِ مطلعُ سعدِهِ   وفي أُفقِ الأكباد تُلفَى مواقعُهْ

٣- يُصيِّرُ مرآه مُنجِّمُ مقلتي   فيصدقُ في قطعِ الرجاءِ قواطعُهْ

٤- تجسَّم من نـورِ الملاحـة خـدُّهُ ومـاءُ الحيـا فيـهِ ترجـرَجَ مائعُـهُ
٥- تلـوَّنَ كالحربـاءِ في خجلاتِـهِ فيحمـرُّ قانيـه ويبيـض ناصـعُهْ
٦- إذا اهتزَّ غنَّى حليُهُ فوق نحره كغصنِ النقا غنَّت عليه سواجعُهْ
٧- يؤكد حتفَ الصبِّ عاملُ قدِّهِ وتعطـفُ مـن واو العـذارِ توابعُـهْ
٨- أعدَّ الورى سيفًا كسيفِ لحاظه فهـذا هـو الماضـي وذاك مـضارعُهْ

(٩) التخريج: "**الكتيبة الكامنة**": ٧٧، "**الإحاطة**": ٣٣٥/٤، "**السحر والشِّعر**": (باب النسيب والغزل) ٢٧٣/، الأبيات السادس والسابع والثامن فقط، "**نفح الطِّيب**": ٣٢/٨-٣٣. اختلاف الروايات:

٢- في "**الإحاطة**" أو "**النفح**": .... يطلع سعده

٤- في "**النفح**": تجسَّم من ماء الملاحة.

٦- في "**السحر والشِّعر**": .... كغصن النقا هـــزَّتْ

٧- في "**الإحاطة**" و"**النفح**": يذكر............ وتقطف من واو العذار

٨- في "**الإحاطة**" و"**النفح**": ....يُضارعُهْ

(الفاء)

(١٠)

ومن مقطوعاته، رحمه الله تعالى قوله: (الوافر)

١- أتمْنَـعُ أن أُقبِّـلَ منـك كفًّـا وقـد حرَّمـتَ ثغـركَ بالعفـافِ
٢- وها أنا طائفٌ بكَ كلَّ حينٍ فحـيِّنْ لـي المقبَّـلَ بـالطوافِ

(١٠) التخريج: "**الكتيبة الكامنة**": ٨٠، "**السحر والشِّعر**": (باب النسيب) ١٠٧، "**نثير فرائد الجمان**": ١٤٧، وصدرهما بقوله: فأحسن.

اختلاف الروايات :

٢- في "**السحر والشِّعر**" : ....   فعيَّن لي المقبَّل للطوافِ

(القاف)

(١١)

(الطويل)

١- وصالُكَ هذا أم تحيَّةُ بارقٍ؟   وهجرُك أم ليلُ السليم لتائقِ

٢- أُناديكَ والأشواقُ تركضُ حُمْرُها   بصفحةِ خدِّي من دموعٍ سوابقِ

٣- أبارقَ ثغرٍ من عذيب رضابهِ   قضتْ مهجتي بينَ العُذَيبِ وبارقِ

ومنها* :

٤- فلا تتعبن ريحَ الصَّبا في رسالةٍ   ولا تُخجلِ الطيفَ الذي هو طارقِي

٥- متى طعمتْ عيني الكرى بعدبعدكم   فإني في دعوى الهوى غيرُ صادقِ

(١١) التخريج : "**الكتيبة الكامنة**" : ٧٧ ، "**الإحاطة**" : ٣٣٦/٤ ، "**السحر والشِّعر**" : (باب النسيب) ١٠٥/ ، البيت الثاني والبيت الثالث ، "**الدرر الكامنة**" : ١٨٧/٥ ، البيت الثاني والبيت الثالث ، "**نفح الطِّيب**" : ٣٣/٨.

* البيتان لم يردا في "**الكتيبة الكامنة**".

اختلاف الروايات :

٢- في "**الإحاطة**" و"**النفح**" : .... حجرها

٤- في "**النفح**" : .... الذي كان طارقي

٥- في "**الإحاطة**" : متى طعمت ....

(اللام)

(١٢)

ومن نظم ابن هذيل : (الوافر)

١ – وظبيٍ زارني والليلُ طِفلٌ إلى أن لاحَ لي منه اكتهالُ
٢ – وألغَى الشكَّ مِن وصلٍ فقلنا بليلِ الشكِّ يُرْتَقَبُ الهلالُ

(١٢) التخريج : "**نفح الطِّيب**" : ٨/ ٤١.

الشروح : ١ – الليل طفل : يريد أوله ، واكتهاله نهايته.

(الميم)

(١٣)

وقال : (الرمل)

١ – نام طفلُ النبتِ في حجرِ النعامى لاهتزازِ الظلِّ في مهدِ الخزامى
٢ – وسقى الوسميُّ أغصانَ النقا فهوتْ تلثمُ أفواه النَّدامى
٣ – كحَّل الفجرُ لهم جفنَ الدُّجَى وغدا في وجنةِ الصبحِ لثاما
٤ – تحسبُ البدرَ محيًّا ثملٍ قد سقَتْهُ راحةُ الصبحِ مُداما
٥ – حوله الشهب كؤوسٌ قد غدَتْ مسكةُ الليلِ عليهنَّ ختاما
٦ – يا عليلَ الروحِ رفقًا علّني أشفِ بالسقم الذي حُزتَ سقاما
٧ – وابلغن عني عُريبًا بالحمى هِمتُ في أرضٍ بها حلُّوا غراما
٨ – فرشوا فيها من الدرِّ حصًى ضربوا فيها من المسكِ خياما
٩ – كنتُ أشفي غُلَّةً من طيفكمْ لو أذنتم لِجُفوني أن تناما

١٠- واستفدت الروح من ريح الصَّبا لو أتت تحملُ من سلمى سلاما

ومن هذه بعد كثير:

١١- نشأتْ للصبِّ منها زفرةٌ تسكبُ الدمعَ على الربع سِجاما

١٢- طَرِبَ البرقُ مع القلب بها وبها الأنّاتُ طارحنَ الحماما

١٣- طللٌ لا تشتفي الأذنُ بهِ وهو للعينينِ قد ألقى كلاما

١٤- ترك الساكنُ لي من وصله ضمَّةَ الجدران لثمًا والتزاما

١٥- نزعاتٌ من سليمانَ بها فَهِمَ القلبُ معانيها فهاما

١٦- شادنٌ يرعى حُشاشاتِ الحشا حسب حظّي منه أن أرعى الذماما

(١٣) التخريج: "**الكتيبة الكامنة**": ٧٤-٧٥، "**الإحاطة**": ٤/ ٣٣٧، "**نثير فرائد الجمان**": ١٤٦-١٤٧، (إلى البيت الثالث عشر)، "**نفح الطّيب**": ٨/ ٣٤-٣٥.

اختلاف الروايات:

١- في "**الإحاطة**" و"**النفح**": .... لاهتزاز الطل

٥- في "**الإحاطة**" و"**النفح**": حوله الزُهرُ

٦- في "**الإحاطة**" و"**النفح**": يا عليلَ الريح

٧- في "**الإحاطة**": وأبلغن شوقي عُريبًا باللوى، وفي "**النفح**": أبلغن شوقي عيبًا باللوى.

١٠- في "**نثير فرائد الجمان**": واستعدت

١٣- في **الإحاطة**: طلل لا تستفي.......

الشروح:

عُريب: حي من اليمن، وهو عريب بن زيد بن كهلان بن عامر وهو سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان. ينظر: "**جمهرة أنساب العرب**": لأبي محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي القرطبي الظاهري (المتوفى: ٤٥٦هـ)، تحقيق: لجنة من العلماء، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م، ٣٣٠.

(١٤)

وقال لما قربت وفاته: (الطويل)

١- إذا مِتُّ فادفنِّي حِذاءَ حليلتي ... يخالطُ عظمي في التراب عِظامَها

٢- ولا تدفننِّي في البقيعِ فإنني ... أريدُ إلى يوم الحسابِ التزامَها

٣- ورتِّب ضريحي كيفما شاءه الهوى ... تكونُ أمامي أو أكون أمامَها

٤- لعلَّ إله العرشِ يجبرُ صدعتي ... فيُعلي مقامي عندَه ومقامَها

(١٤) التخريج: "**الإحاطة**": ٤/٣٤٤، "**نفح الطِّيب**": ٨/٤١.

(النون)

(١٥)

وقال بديهة في غزالةٍ من النحاس ترمي الماء ببركة وقد طُلب منه ذلك:

(الكامل)

١- عنَّتْ لنا من وحشِ وجرةَ ظبيةٌ ... جاءتْ لِوِرْدِ الماءِ ملءَ عنانها

٢- وأظنُّها إذْ حددتْ آذانها ... رِيعَتْ بنا فتوقفَتْ بمكانها

٣- حيَّتْ بقَرْنَيْ رأسها إذ لم تجدْ ... يومَ اللقاءِ تحيَّةً ببنانها

٤ – حنَّتْ على الندمانِ من إفلاسِهم   فَرَمَتْ قَضيبَ لُجينها لحنانِها

٥ – للهِ دَرُّ غزالةٍ أبدتْ لنا   دُرَّ الحبابِ تصوغُهُ بلسانِها

(١٥) التخريج: "**الإحاطة**": ٣٤٣/٤، "**نفح الطِّيب**": ٤١/٨.

اختلاف الروايات:

٣– في "**النفح**": .... إذ لم نجدْ   .... تحيفة ....

الهوامش:

❖ جامعة الأنبار، العراق.

(١) ينظر ترجمته في: **الكتيبة الكامنة في من لقيناه بالأندلس من شعراء المائة الثامنة**: ٧٣، ووردت الترجمة خطأً تحت اسم ابن شقرال في حين سقطت ترجمة ابن شقرال من المخطوط الذي اعتمده د. إحسان عباس في تحقيق الكتيبة، **الإحاطة في أخبار غرناطة**: ٣٣٤/٤، **السحر والشِّعر**: ١٠٥ و ١٠٧، **نثير فرائد الجمان في نظم فحول الزمان**: ١٤٤–١٤٥، **الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة**: ١٨٧/٥ رقم (٤٩٩٨)، **نفح الطِّيب من غصن الأندلس الرطيب**: ٣٢/٨، **معجم المؤلفين**: ١٨٢/١٣، **الأعلام**: ٣٦/٨، **معجم الشعراء من العصر الجاهلي حتى سنة ٢٠٠٢م**: ١٢٢/٦.

(٢) نسبة إلى أرجدونة أو أرشذونة، وهي مدينة بالأندلس معدودة في أعمال رية، قبلي قرطبة، بينها وبين قرطبة عشرون فرسخًا. ينظر: **معجم البلدان**: ١٥٢/١.

(٣) **الإحاطة**: ٣٣٤/٤.

(٤) نفسه.

(٥) **الكتيبة الكامنة**: ٧٣.

(٦) **نثير فرائد الجمان**: ١٤٤–١٤٥.

(٧) **نفح الطيب**: ٣٢/٨.

(٨) **الإحاطة**: ٣٣٤/٤، **نفح الطِّيب**: ٣٢/٨، **معجم المؤلفين**: ١٨٢/١٣، **الأعلام**: ٣٦/٨، **معجم الشعراء**: ١٢٢/٦.

(٩) **الإحاطة**: ٤/٣٣٤، **الدرر الكامنة**: ٥/١٨٧، وسمَّاه (**الإيجاز والاعتبار في الطب**)، وكذلك جاءت تسميته هكذا في **الأعلام**: ٨/٣٦.

(١٠) **الإحاطة**: ٤/٣٣٤.

(١١) **الإحاطة**: ٤/٣٣٤، **الدرر الكامنة**: ٥/١٨٧.

(١٢) **الإحاطة**: ٤/٣٣٤.

(١٣) **الإحاطة**: ٤/٣٣٤، **معجم المؤلفين**: ١٣/١٨٢، **الأعلام**: ٨/٣٦.

(١٤) **الإحاطة**: ٤/٣٣٤، **نفح الطِّيب**: ٨/٤١ .

(١٥) **الإحاطة**: ٤/٣٣٤، **الدرر الكامنة**: ٥/١٨٨، **نفح الطِّيب**: ٨/٤١، **الأعلام**: ٨/٣٦، **معجم الشعراء**: ٦/١٢٢، وأثبتها خطأً الدكتور محمد رضوان الداية حين علَّق على ترجمة ابن هذيل في نثير فرائد الجمان، إذ أثبتها سنة ٧٥٤هـ. يُنظر: **نثير فرائد الجمان**: ١٤٤، هامش المحقق.

(١٦) هو أبو الوليد بن نصر سلطان غرناطة، إسماعيل بن فرج بن إسماعيل بن يوسف الأنصاري الخزرجي، حكم من عام ٧١٣هـ إلى عام ٧٢٥هـ. ينظر: **اللمحة البدرية**: ٧٨-٨٩.

(١٧) اشكر: حصن تابع لمدينة بسطة. ينظر: **اللمحة البدرية**: ٨٥.

(١٨) ينظر النص الشعري رقم (٢) من هذا المجموع.

(١٩) ينظر النص الشعري رقم (٥) من هذا المجموع.

(٢٠) ينظر النص الشعري رقم (٤)، ورقم (٦)، ورقم (٧)، ورقم (٨)، ورقم (١٠)، ورقم (١٢).

(٢١) ينظر النصوص الشعرية ذوات الأرقام: ٢، ٣، ١٤ من هذا المجموع.

(٢٢) ينظر النص رقم (١) من هذا المجموع.

(٢٣) ينظر النص رقم (١٣) من هذا المجموع.

(٢٤) نُشر في **مجلة المورد** العراقية ببغداد، مج ٣٣، ع٤، سنة ٢٠٠٦م وأُعيد نشره في **مجلة آفاق الثقافة والتراث**، دبي، ع ٥٨، سنة ٢٠٠٧م، وكذلك في كتاب الباحث الذي ينتظر صدوره (**ثلاثة شعراء أندلسيون**).

(٢٥) نُشر في **مجلة جامعة الأنبار للعلوم الإنسانية**، مج٣، ع٩، سنة ٢٠٠٧م، وفي كتاب الباحث (**ثلاثة شعراء أندلسيون**).

(٢٦) نُشر بمشاركة د. محمد عبيد صالح في **مجلة جامعة الأنبار للغات والآداب**، ع٣، ٢٠١٠م، ودار رند تموز، دمشق، ط١، ٢٠١٢م. وفي كتاب الباحث الجديد (**ابن عاصم الغرناطي الأندلسي وبحوث أخرى**).

(٢٧) نُشر في كتاب مستقل عن البيت الثقافي في الحديثة عن دائرة العلاقات العامة في وزارة الثقافة العراقية سنة ٢٠١٠، وفي مجلة **المورد** العراقية ببغداد، مج٣٨، ع٢، سنة ٢٠١١م، وهو في كتاب الباحث (**ثلاثة شعراء أندلسيون**).

❖ **العرب**: بيت ٢، في أصل البحث "بنص الجوهري"، والتصحيح من "زهر الأكم" للبوس، ١٦٠/٢، ولم ينسبه.

أ.م.ض

الصحافة النسائية في جريدة اليمامة*

١٣٧٥-١٣٨٥هـ/١٩٥٦-١٩٦٦م

بقلم: أ. محمد عبدالرزاق القشعمي**

تمهيد:

بدأت الدعوة لتعليم المرأة في المملكة العربية السعودية بوقت مبكر، فمع إصدار محمد حسن عواد لكتابه "**خواطر مصرحة**" عام ١٣٤٥هـ، الموافق ١٩٢٦م، وتخصيصه فصلاً لها بعنوان: (كيف تكونين؟) والذي جرّ على صاحبه الكثير من المشاكل والمتاعب من تحقيق إلى فصل من عمله كمدرس بمدرسة الفلاح. تتالت بعد ذلك الدعوات لتعليم البنات.

ففي الصحافة بدأ رئيس تحرير "**أمّ القرى**" محمد سعيد عبدالمقصود خوجة مقالاته من العدد (٣٧٩) بتاريخ ١٠ ذي القعدة ١٣٥٠هـ سلسلة مقالات في (التربية والتعليم) موقَّعة باسمه المستعار: (الغربال)، ثم يأتي بعده وبقوة (محمد راسم) بالعدد (٦٣) من "**صوت الحجاز**" ليوم الثلاثاء ٢٦ صفر ١٣٥٢هـ ليكتب مقالاً بعنوان: (المرأة قوة يظهر فعلها في ولدها، فيقتحم الساحة الرائد أحمد السباعي بالكتابة الجريئة باسمه أحيانًا وبأسماء

نسائية في الغالب، يقول: «...وكنت متحمسًا لتعليم الفتاة بشكل حادٍّ فأنشأت أكتبُ في إسهاب محبِّذًا تعليمها بشكل أثار عليَّ حفيظةَ الكثير، وعرَّضني للنقد اللاذع، فرأيتُني أتحايل على الفكرة.

شرعت أكتب بتوقيع (فتاة) فصولاً متسلسلة جعلْتُ الفتاةَ فيها تصِفُ نشأتها التعليمية وما نالها من عناية أبيها وأخيها حتى تذوق معنى الحياة وبدأت تنمو بأفكارها إلى مستويات باتت محسودة عليها...»[(1)].

وكان رئيس تحرير "**صوت الحجاز**" وقتها محمد علي رضا عام ١٣٥٢هـ لا يحبِّذ فتح مدارس لتعليم البنات، وكان يرى أنّ المرأة لا ينبغي لها أن تتعلم، وأنّ بيتها أصون لها، وأن يُكتفَى بتعليمها الدين، وأنّ كتابة المرأة في الجرائد أمر غير مستساغ، فقد كان هناك رأي يقول إنّ كتابة المرأة يشجعها على مكاتبة الرجال برسائل الحب والغرام، فردّ عليه (السباعي) بالعدد نفسه (١١٥) قائلاً: «...تعليم المرأة لا يكون مدعاة لفسادها...» وبعدها يتلقّى الكاتب ردودًا باسم مستعار (متعلمة حجازية) عدد (١١٦) تشيد بتلك الردود، فتناصرها أخرى، وهكذا استمر السجال.

وقد اعترف لاحقًا أنه مَنْ كان يكتب هذه المقالات، ففي تسجيل صوتي معه، عند فوزه بجائزة الدولة التقديرية في الأدب عام ١٤٠٣هـ، الموافق ١٩٨٣م قال: «إنه كان يكتب باسم فتاتين متعلمتين تتحاوران فيما يفيد وينفع المجتمع، وذلك باسم مستعار، وكان وقتها قد تولى رئاسة تحرير الجريدة حدود عام ١٣٥٦هـ/١٩٣٧م فجاءه أحد وجهاء مكة عباس قطان -أمين العاصمة فيما بعد- وطلب منه أن يخبره بأسماء هاتين

الفتاتين فردّ عليه رافضًا بقوله: هذا سرّ الصنعة. فقال له: إنّ هدفي نبيل فأنا أرغب بالزواج من إحداهن، فردّ عليه السباعي: ما دام الأمر كذلك فأنا إحدى هاتين الفتاتين، فردّ عليه غاضبًا: اخس.. الله يقرفك، أمّا الثانية فهي فلانة بنت فلان.. وقد ذهب لوالدها فعلاً وتزوجا وقد أنجبا البنين والبنات..»[٢]. وتتالت بعد ذلك المقالات المطالبة بتعليم البنات.

أمّا بالنسبة لمن دعا لتعليمها في مؤلفاته، مثل محمد حسن عواد، فمنهم سموّ الأمير مساعد بن عبدالرحمن الذي ألّف كتابًا سمّاه: "**نصيحتي إلى إخواني في الدين والنسب.. الرسالة الثانية في التربية والتعليم**"، ونشر في مصر عام ١٣٦٠هـ، الموافق ١٩٤١م يطالب فيه بتدريس البنات وتعليمهن الرياضة وخاصة الفروسية. يأتي بعده عبدالله القصيمي في كتابه: "**هذه هي الأغلال**" في تخصيصه فصلاً بعنوان: (إنسانٌ هي أم سلعة؟).

استمرت الصحافة، في الحجاز بالذات، تتناول الموضوع بين فترة وأخرى، حتى ظهرت الصحافة في المنطقتين الوسطى والشرقية بين عام ٧٢-١٣٧٥هـ ولم يَبدأ طرح هذا الموضوع إلا في عام ١٣٧٥هـ وكأنهم متفقون؛ إذ بدأت "**أخبار الظهران**" بنشر موضوع: (نصفنا الآخر) بتوقيع (م. البصير) من حلقتين في عدد ٣٠ ربيع الأول و١٥ ربيع الآخر ١٣٧٥هـ، الموافق ١٩٥٥م. وبعده نجد **مجلة الإشعاع** من الْخُبَر تفتتح العدد السادس لشهر جمادى الآخر ١٣٧٥هـ، الموافق يناير ١٩٥٦م بموضوع (شبابنا في حيرة) بتوقيع "س. ب." سعد البواردي. يأتي بعدها

شيخنا حمد الجاسر -رحمه الله- ليفتتح العدد (٣٦) من **جريدة اليمامة** بعد تحوّلها من مجلة وبداية صدورها أسبوعيًّا. ففي تاريخ ٢٤ شوال ١٣٧٥هـ، الموافق ٣ يونية ١٩٥٦م (حديث الأسبوع: وبناتنا أما لهنّ حظٌّ من التعليم؟).

وهكذا استمرت الدعوة ولكن على استحياء، وبين مدٍّ وجزر، حتى صدرت **جريدة القصيم** عام ١٣٧٩هـ فبدأت من عددها الأول تلحّ على هذا المطلب.

الحديث يطول ويتشعب، ولنحصره في موضوعنا وهو (الصحافة النسائية في **جريدة اليمامة**) في عهدها الثاني، أي عند صدورها مع بداية تطبيق نظام (المؤسسات الصحفية) وإلغاء فترة صحافة الأفراد.

فقد دعي الشيخ حمد الجاسر من بيروت وطُلب منه تسمية أعضاء (مؤسسة اليمامة الصحفية) وصدرت الموافقة في الربع الأخير من سنة ١٣٨٣هـ، الموافق ١٩٦٣م وكان أن خَصَّص صفحةً للبنات بعنوان (الصفحة النسائية) تحررها السيدة شمس خزندار، وأعتقد أنها أول محررة سعودية تكتب اسمها صريحاً في **اليمامة**) [بعد الطالبة: فوزية أبو خالد]؛ عندما كانت تحرر الصفحة النسائية أو صفحة المرأة والطفل مَنْ كانت توقع بالأحرف الأولى من اسمها (أ. ج) ثم (أ. الجوهري) وأخيرًا (امتثال الجوهري)، وأعتقد أنها غير سعودية.

ورغم أنّ شمس خزندار قد ربطت اسمها باسم عائلة زوجها، مثلها مثل محررة الصفحة النسائية **بجريدة الجزيرة** التي صدرت بعد **اليمامة** بعدة

أشهر وبالتحديد في ٢٠ صفر ١٣٨٤هـ/١٩٦٤م باسم عائلة زوجها وهي (أوسيمة الشهيل) زوجة الأستاذ فيصل الشهيل، وكيل وزارة المواصلات وقتها، واسمها الحقيقي هو (أوسيمة درويش).

أمّا شمس خزندار فاسمها الحقيقي (شمس أحمد الحسيني)، ولما قدمته هذه السيدة للصفحة النسائية بـ**اليمامة** خلال عام كامل من العدد الثاني الصادر في ١٤ ذي القعدة ١٣٨٣هـ وحتى العدد (٤٦) الصادر في ١١/١٠/١٣٨٤هـ، الموافق ١٢ فبراير ١٩٦٥م، وحيث إنّ هذه السيدة الفاضلة قد انتقلت إلى رحمة الله يوم الأربعاء ٢٧ رمضان ١٤٣٣هـ، الموافق ١٤ أغسطس ٢٠١٢م فيحقّ لنا أن نذكرها ونشكرها ونترحّم عليها ونقدّم العزاء لذويها ونخصّ منهم زوجها الأستاذ الكبير عابد خزندار، وابنتيها منى، مديرة معهد العالم العربي بباريس، والدكتورة سارة، الأستاذة في كلية العمارة في جامعة السوربون بباريس.

وبهذه المناسبة لعلي ألقي الضوء، ولو باختصار، على الصفحة النسائية بـ**اليمامة** ثم نواصل حديثنا عن الراحلة.

فأقول وبالله التوفيق:

أولاً:

بعد تأسيس الشيخ حمد الجاسر مطابع الرياض، وتحوُّل طباعة **اليمامة** إليها منذ شهر رمضان ١٣٧٤هـ تحوّلت المجلة من شهرية إلى جريدة أسبوعية اعتبارًا من ١ صفر ١٣٧٥هـ الموافق ١٨ سبتمبر ١٩٥٥م بدءًا من العدد واحد.

نجد افتتاحية العدد (٣٦) الصادر يوم الأحد ٢٤ شوال ١٣٧٥هـ الموافق ٣ يونيو ١٩٥٦م مخصصة للبنات، وعنوان الموضوع: (حديث الأسبوع: وبناتنا أما لهن حظٌّ من التعليم؟) بدون توقيع، وهو بالغالب لرئيس التحرير الشيخ حمد الجاسر -رحمه الله- افتتحه بقوله: «لن تجد أحدًا ينكر أن عُمرانَ هذا الكون يقوم على أساس التعاون بين الرجل والمرأة (هو الذي خلقكم من نفس واحدة، وخلق منها زوجها ليسكن إليها). ولن تجد أحدًا ينكر أنه كلّما قصّر أحدُهما أو عجز عن أداء عمله أثّر ذلك في حياة الآخر. ولن تجد أحدًا ينكر أن الجهلَ هو أعظمُ أسبابِ عجْزِ أحدِهما أو تقصيرِهِ في القيام بعمله...»ا.هـ. وبعد أن عدّد الإيجابيات والسلبيات وفاضل بينهما أكد أنّ العلم يفتح للمرأة آفاقًا واسعة في هذه الحياة، وأنه ليس من الحق أن نتخذ من أحوالٍ شاذّةٍ نادرةٍ ما نبني عليه أحكامًا عامة. واختتم الافتتاحية بقوله: «.. إنّ بناتنا من فلذات أكبادنا، ونحن لا نريد لهن إلا الخير كل الخير.

نريدهن أن ينشأن نشأةً فاضلةً، قائمةً على أساس الفضيلة والصلاح، متحصناتٍ بدروعٍ واقيةٍ من الأخلاقِ الفاضلة، التي لا تُدْرَك إلا عن طريق العلم النافع، مدركاتٍ لواجباتهن أمام أزواجهن، قائماتٍ بهذه الواجبات وفق ما يأمر به الدينُ الإسلاميُّ الحنيف، مربِّياتٍ لأطفالهن تربيةً تجمع بين القوّتين: قوة الجسم، وقوة العقل، ولن يكون ذلك إلا بمعرفتهن لوسائل هذه التربية معرفةً تامة.

لا نريدهن جاهلاتٍ يقعن في الرذيلة من حيث لا يشعُرْن، وينجرفن في تيار الخلاعة الجارف تحت ستار الجهل والتقليد الأعمى.

إننا نريد لهن الخير، أيًّا كان نوعه، ومهما كانت طريقةُ الوصولِ إليه، ونأبى لهن الشرَّ، أيَّ شرٍ كان، فهل نلام على هذه الإرادة؟».

وفي العدد (٣٩) الصادر بتاريخ ١٦/١١/١٣٧٥هـ الموافق ٢٤/٦/١٩٥٦م يُنشر خبرٌ بارز في الصفحة الأولى: (١٤٦ مدرسة للبنات فُتِحَتْ في جنوب المملكة!!) وعدد المدارس في جازان ونواحيها (١٣٠) مدرسة، وأبها (٥) مدارس، وفي الطائف (٦) مدارس، وفي نجران مدرستان. وفي حدود المملكة المتاخمة لليمن (٣) مدارس.. ليس هذا الإحصاء وليد الخيال، ولا مبالغًا فيه، ولا مما يتطرق الشكُّ إليه، إننا حينما نذيعُه نُعوِّل في ذلك على أوثق المصادر: على محطة الإذاعة اللاسلكية، التي أذاعته منذ بضعة عشر يومًا، وعلى نشرة أخبار المملكة. وأعتقد أنّ هذه المدارس خاصة وعلى نحو الكتاتيب، أقامها أبناء المناطق. أمّا في جازان فقد كان لجهود الشيخ عبدالله القرعاوي رحمه الله دور واضح؛ حيث نذر نفسه لتعليم أبناء المنطقة ذكورًا وإناثًا، إذ إنّ إقرار التعليم رسميًّا لم يصدر قبل عام ١٣٧٩هـ/ ١٩٥٩م.

ونستمر مستعرضين ما كان يُنشر في **جريدة اليمامة** وما تيسّر الاطلاع عليه.

فنجد أستاذنا عبدالكريم الجهيمان العائد من المنطقة الشرقية بعد قفل جريدته **أخبار الظهران** وخروجه من السجن بسبب نشره مقالاً يطالب فيه بتعليم البنات بدعوى أنه لم يحن أوانه بعد[٣].

نجده يعاود الكَرَّة وبإصرار لينشر مقالاً له في العدد (١٢٥) من صحيفة **اليمامة** بتاريخ ١٣٧٧/١١/٢١هـ بعنوان (نصفُنا الآخر) افتتحه بقوله: «من المؤسف حقًّا أنه لا يزال يعيش بين صفوفنا من يجادل في بعض البديهيات ويقف في سبيل تنفيذها، ونحن لا نلوم هؤلاء، وإنما نعتب عليهم لأنهم يرون أنّ وضعهم الذي يعيشون فيه يتطلب منهم ذلك، وإنما نعتِب على أولئك الذين رأوا وسمعوا وقرؤوا واقتنعوا بضرورة هذه البديهيات، ثم مع ذلك نراهم يتوكؤون على اعتباراتٍ ليس لها في نظر الكثير من المواطنين ذلك الاعتبار...»، ثم تطرق إلى أهمية تعليم البنات وأنه يعرف بعض المواطنين الذين نزحوا بعوائلهم إلى بلادٍ أخرى؛ لقصد تعليم بناتهم. واختتم مقاله بقوله: «إنّ علينا أن نسرع وأن نسابق الزمن وأن نستدرك ما فات، قبل أن يأتي يومٌ تُحمِّلنا فيه الأجيالُ اللاحقةُ وزرَ هذا التقصير، وتسجِّل علينا في صحائفِ التاريخ ما تَرتَّبَ على هذا التقصير من نتائجَ بالغةِ الخطورة».

ثم نستمر مستعرضين ما نجده من أعداد **اليمامة**؛ ففي العدد (١٩٣) ليوم الأحد ٢٣ ربيع الثاني ١٣٧٩هـ ٢٥ أكتوبر ١٩٥٩م نجد مقالاً بعنوان (تعليم البنت) ص٤، بتوقيع محمد محمد الصاوي بوزارة المعارف. وأعتقد أنه غير سعودي، وخبرًا آخر بالصفحة (٦) نقلاً عن الإذاعة موقّع من

الملك سعود بفتح مدارس لتعليم البنات، وفي الصفحة (٨) نجد مقالاً آخر بعنوان (تعليم البنات) بقلم عبدالله الصالح الضلعان، وفي العدد (١٩٦) في ١٣٧٩/٥/١٤هـ نجد إعلانًا أو خبرًا على شكل إعلان من المدرسة السعودية للبنات بشارع آل سويلم بالرياض -أعتقد أنها مدرسة أهلية- يشكر مقام صاحب الجلالة بمناسبة صدور الأمر السامي بافتتاح مدارس للبنات، وفي العدد (١٩٨) في ١٣٧٩/٥/٢٨هـ ص(٦)، مقال بعنوان (مدارسُ البنات ضرورةٌ لإعداد الأمّ الصالحة)، لمحمد المحمود. وآخر في الصفحة نفسها بعنوان (الفتاةُ المعذَّبة) لعبدالعزيز بن محمد بن حمد.

ونجد في العدد (٢٠٥) في ١٣٧٩/٧/١٨هـ ص(٧) مقالاً بعنوان (النصف الآخر) بتوقيع "أبو علي"، وفي الصفحة (٩) من العدد نفسه مقال بعنوان (رسالةٌ من فتاةِ الصحراء) بتوقيع "فتاة الصحراء". وهي تناقش ظاهرة الزواج من الخارج وقسوة الزوج على زوجته السعودية. وأنه إذا سافر للخارج أحضر لها هديةً هي زوجة أخرى من خارج بلاده؛ ويفاجئها بعبارة: "ارجعي إلى بيت أهلك". ويتعلّل بغلاء المهور. وترجو من الجيل الحاضر ألا يسير على ما سار عليه سلفه.

وفي العدد التالي (٢٠٦) في ١٣٧٩/٧/٢٥هـ في الصفحة (٥) قصةٌ، بعنوان: (ما أحسنَ الفتياتِ في غُرُفَاتِها) بقلم الشيخ سليمان السكيت.

وفي العدد (٢٠٩) في ١٣٧٩/٨/١٧هـ مقالٌ بعنوان (حولَ تعليمِ الفتاة)، بقلم سعود بن سعد الدريب - حوطة بني تميم.

ونقرأ في العدد (٢١٠) في ١٣٧٩/٨/٢٤هـ ص(٦)، مقالاً (فتاةٌ تَتَّهِمُ الشبابَ وتتحدثُ عن الزواجِ من الخارج) بقلم حياة.ع.ح.- جدة الكندرة.

وفي العدد نفسه ص(٨) مقال (إلى فتاةِ الصحراء) بقلم جاسر عبدالله الحربش. وتمرّ الأعداد التالية خاليةً من أيِّ إشارة عن تعليم البنات، حتى يصدر العدد (٢١٩) الأحد ٢٢ شوال ١٣٧٩هـ ١٧ أبريل ١٩٦٠م فنجد مقالاً بالصفحة الأولى بعنوان (.. وبناتنا؟..) بقلم إبراهيم الحجي.

وفي العدد التالي (٢٢٠) ١٣٧٩/١٠/٢٩هـ نقرأ في الصفحة الرابعة وضمن صفحة (صحيفة الجيل الجديد) في عددها (٢٣) مقالاً بعنوان: (فتاة تقول: الزواج من الخارج يحلُّ مشكلةً ويوجِدُ مشكلاتٍ. علّمونا.. أولاً..) بقلم حياة.ع. وفي الصفحة (٨) من العدد نفسه نقرأ جزءًا من مقال للأستاذ علي المسلم بعنوان (حول تعليم البنات). وفي الصفحة (١٠) مقالاً لسعود أحمد الضويحي من قسم الصحافة بجامعة القاهرة يردُّ فيه على مقالٍ سبق نشره في **مجلة قريش** بقلم عبدالسلام هاشم حافظ، ويحمل عنوان (لتثقيف الفتاة دينيًّا أو لتبق في البيت) وكان مقال الضويحي بعنوان (لا نريدهن خطيباتِ مساجد، ولكنْ مربِّيات).

ونجد العدد (٢٤٦) ليوم الأحد ١٣٨٠/٥/١٠هـ، ١٣ أكتوبر ١٩٦٠م قد خَصَّص صفحةً كاملةً للمرأة، باسم (ركن الأمهات) تشرف عليها السيدة (أ.ج)، وقد تضمّن هذا الركن المقالاتِ التالية: حديث المرأة، شخصية المرأة العربية، بتوقيع (قارئة نجدية). ونجد وموضوعًا آخر بعنوان

(شكرًا... ورجاء) بقلم: سيدة (أ- الجوهري). وموضوعًا رابعًا (إلى الحوامل.؟) بقلم: (آنسة: ل. حسن) من الخبر، وموضوعًا ثالثًا بعنوان (أوقات أكل الرضع) بقلم: (سيدة. ع. ش)، وموضوعًا خامسًا (غضب طفلك) بتوقيع: (سيدة. أ. ج)، و(صحن اليوم)، و(فوائد منزلية).

وفي العدد (٢٤٧) نجد في الصفحة نفسها موضوع (مدارسُ البنات في عامِها الأول) يتضمن تقريرًا عما أنجزته الرئاسة العامة لتعليم البنات، بقلم الرئيس العام لمدارس البنات.

ونجد أنّ المسؤولة عن الصفحة في العدد (٢٥٨) تتجرأ وتكتب اسم عائلتها في زاوية الصفحة هكذا (أ- الجوهري)، بينما نجد في الصفحة نفسها (فوزية أبو خالد) تكتب ولأول مرة موضوع (وطنك)، وهو موضوع ألقته على زميلاتها في الفصل كخطاب تدريبي ووقّعته باسمها الصريح (الطالبة: فوزية أبو خالد، جمعية الخطابة بإشراف سلوى نجم).

وكذا نطالع في الصفحة نفسها مقالاتٍ أخرى بأسماءٍ صريحة، مثل (مدرسة بنات الأحساء) بقلم: بداية محمد عبدالرحمن العامر، وموضوعًا ثانيًا بعنوان (العلم) بقلم: سارة الشيخ محمد صالح، عضوة جمعية الخطابة، وموضوعًا ثالثًا بقلم: هيا عبدالعزيز الزلال، الطالبة بمدرسة دخنة للبنات، ورابعًا بعنوان (في الامتحان) بقلم: موضي سالم بمدرسة النهضة السعودية للبنات، وأخيرًا (خطبة الأسبوع) في مدرسة بنات الرياض بقلم: نورة محمد غنيم.

وفي العدد (٢٦٥) ليوم الأحد ٢٥ رمضان ١٣٨٠هـ الموافق ١٢ مارس سنة ١٩٦١م نقرأ موضوعًا بعنوان: (حيُّوا هذه السيدة تحيةَ إجلال وتقدير) بتوقيع: طالب بأمريكا، وقد وجّه التحية لرئيس تحرير "**اليمامة**" وبعث بنَبأٍ سارٍّ، يعتقد أنه يستحق التنويه عنه في جريدة "**اليمامة**"، قائلاً:

«وجَّهَ أحدُ المؤتمرات التعليمية السنويةِ، المنعقدُ بإحدى مدن ولاية جورجيا دعوةً رسميةً لإحدى السيدات السعوديات لحضور المؤتمر المشار إليه، مع إلقاءِ محاضرةٍ عن النهضةِ والنُظمِ التعليميةِ في المملكة. ولإعطاء المهتمين بشؤون التعليم بأمريكا فكرةً عن المملكة. وقد كانت السيدة الوحيدة من ضمن ثماني دول اشتركت في المؤتمر وهي المملكة العربية السعودية، أمريكا، إيران، البرتغال، الدنمارك، فرموزا، شيلي، فنزويلا.

وقد رفع العلم السعودي على صالة الاجتماع بجانب أعلام الدول الأخرى. وقد شاهد المؤتمر أكثر من ألفِ متفرّج، معظمهم من المهتمين بأمور التعليم وأولياء أمور الطلبة.

وقد لفتت السيدةُ المشارُ إليها الأنظارَ؛ لكونها أولَ سيدةٍ سعوديةٍ تحاضر في أمريكا باللغة الإنجليزية بطلاقة. وثانيًا: النقط التعليمية التي بحثتها. هذا وقد نشرت صحف الولاية صورتها مع ملخص للمحاضرة وقد علقت عليه بتشجيع فكرة المؤتمر. وهذه بعض النقط التي تحدثت عنها السيدة المشار إليها:

١- مركز المملكة الديني ولماذا يدرّس الدين كمادة أساسية.

٢- مجانية التعليم والإشراف الحكومي عليه، وعن عدد السكان والحجاج.

٣- التعليم المختلط، ولماذا هو غير مرغوب فيه في المدارس العالية.

٤- فكرة عن الجامعة وكلياتها والمواد التي تدرّس فيها ومدة الدراسة بمراحل التعليم الثلاث.

٥- النظم التعليمية، ورواتب الأساتذة، وكيف أنها تكفل عيشة رغدة للمعلمين.

كما تكلمت عن اللغات الأجنبية التي تدرَّس.

وبعد إلقائها المحاضرة وُجِّهَتْ إليها عدةُ أسئلة عن التعليم والمرأة السعودية.

هذا وقد وُجِّهَتْ إليها دعوةٌ أخرى لإلقاء محاضرة عن المرأة السعودية بإحدى الجمعيات في الشهر المقبل.

لقد كانت هذه السيدة خير دعاية لوطننا، وغيَّرت فكرةَ كثيرٍ من الأمريكان عن المملكة. نرجو أن تُحيُّوا معنا هذه السيدة تحيةَ تقديرٍ واحترام..».

ملحوظة: قد حُذِف اسم المرأة ولم تذكر في المقال؛ فهذا يستدعي التساؤل هل الكاتب؟ أم الجريدة؟ أم الرقابة هي المسؤولة؟.

وأظن أنّ هذا المقال وأمثاله قد دفعت أستاذنا الراحل عبدالكريم الجهيمان -رحمه الله- للكتابة ب**جريدة القصيم** في العدد (٤٢) وتاريخ ٦ ربيع الآخر ١٣٨٠هـ الموافق ٢٧ سبتمبر ١٩٦٠م، وأعاد نشره في كتابه "**آراء فرد من الشعب**" تحت عنوان: (الأسماء المحظور نشرها)، وذكر أنّ هناك منعًا من ذِكر أسماء النساء اللاتي يكتبن في الصحف. ووقَفَ كثيرًا،

إذ كيف يعرض القرآنُ ذِكْر أسماء نسائية، والحديثُ النبوي كذلك فيه ذِكْرُ أسماءٍ نسائية، والتاريخُ والسِيَر مليئة بأسماءِ النساء الفُضْليات قديمًا وحديثًا. وخَتَم مقاله بمطالبة مديرية الصحافة والإذاعة والنشر بإعادة النظر وإلغاء هذا المنع.

ونجد الصفحة تتغيّر من (ركن الأمهات) إلى (ركن المرأة) من العدد (٣١٩) ليوم الأحد ٢٦ شوال ١٣٨١هـ، ١ أبريل ١٩٦٢م، وهو العدد الذي تولى رئاسة تحريره زيد بن فياض بدلاً من رئيسها ومؤسسها حمد الجاسر. ونجد أنّ محررة الصفحة تفصح عن اسمها الصريح وتوقّع مقالاتها بـ(سيدة: امتثال الجوهري).

ثانيًا- *الصفحة النسائية بـ**اليمامة** ودور شمس خزندار في تحريرها:*

في منتصف عام ١٣٨٣هـ يُدعَى الشيخ حمد الجاسر ليتسلّم مسؤولية الإعداد والتحضير لإقامة مؤسسة اليمامة الصحفية، إذ صدر قبل شهر من ذلك التاريخ إعلانٌ من وزارة الإعلام بإلغاءِ نظام صحافة الأفراد واستبداله بنظام صحافة المؤسسات. وسريعًا ما رُفعت الأسماء المقترحة للمؤسسين لها إلى المقام السامي عن طريق وزارة الإعلام فصدرت الموافقة. وصدر العدد الأول من صحيفة **اليمامة** يوم الجمعة ٧ ذي القعدة ١٣٨٣هـ الموافق ٢٠ مارس ١٩٦٤م، وقد خصص للمرأة صفحة كاملة باسم (الصفحة النسائية) بدون اسم لمحررته. أمّا العدد الثاني فقد تولّت تحريره السيدة شمس خزندار لإعداد ونشر كل المواد المعنية بالصفحة، وكُتب عليها: (صفحة تُعنى بشؤون المرأة)، استقطَبَتْ الكثير من السيدات والآنسات ليشاركن في الكتابة.

ويحسُن بي أن ألقي نظرة سريعة على الأعداد الأولى من جريدة "**اليمامة**" عند صدورها في العهد الجديد، عهد المؤسسات الصحفية.

أولاً: لمرور خمسين عامًا على هذه الذكرى. وثانيًا: لنذكر ونشكر من وردت أسماؤهن صريحةً تحت مقالاتهن بكل جرأة، في وقتٍ كان الذي يجرُؤُ على إدخال بناته للمدرسة يُنْظَر إليه بدونية واستنقاص في بعض مناطق المملكة.

في العدد الأول ظهرت الصفحة النسائية على امتداد الصفحة الخامسة بافتتاحية مقتضبة بدون توقيع تحت عنوان: (نريد صحفًا) جاء فيها: «على صفحات هذه الجريدة [يقصد عندما كانت تصدر في السابق عهد صحافة الأفراد] قرأ الناس من أول ما قرأوا صفحةً مخصصةً للأمهات، وعرف القراءُ أولَ ما عرفوا في هذه المدينة أسماءَ عدد من فُضْليات الكاتبات الكريمات مثال: «أ. الجوهري، حياة ع، س. أبو حميد، أمّ مي، وغيرهن. برزت تلك الصفحة -أولَ ما برزت- وقارئاتُها لا يتجاوز عدد أصابع اليد، حيث لا توجد مدرسةٌ واحدةٌ للبنات في المنطقة كلّها، ولكن القراءة ليست وحدها وسيلة الاستفادة؛ ولهذا فقد كان في الحديث عن تلك الصفحة بين سيدات المجتمع وعن الآراء التي تنشر فيها بينهن ما حَمَلَ المشرفين على الصفحة على استمرارِ تحريرِها ومواصلةِ إبرازِها».

واختتم الكلمة بأنّ المدارس قد انتشرت والقارئات يتجاوزن الآلاف والكاتبات بالعشرات فإنّ الأمر يدعو إلى أن يوجد في البلاد صحف نسائية... إلخ».

وفي العدد الثاني الصادر بتاريخ ١٤/١١/١٣٨٣هـ نجد الصفحة وقد أشرفت عليها السيدة: شمس خزندار وحررت جميع مادتها بمقدمة قالت فيها: «تمرّ بلادنا في هذه الفترة بما يمكن أن يُسمّى بمرحلة انتقال، ومثل هذه المرحلة تتميّز بوجود التقاليد القديمة والجديدة جنبًا إلى جنب، وهو تواجد وتعايش غير سلمي، بمعنى أنّ ثَمَّةَ تناقضًا وتصارعًا بينهما. وهذا الوضع يتضح بصفة خاصة في حياة المرأة وتصرفاتها في المجتمع، فالمرأة كما قلنا في عدد سابق بدأت تحتل دورها الطبيعي في المجتمع وتساهم في بنائه، ولكنها مازالت بَعْدُ في منتصف الطريق، وتبعًا لذلك تجد نفسها في صراعٍ دائم بين التقاليد القديمة وبين التقاليد الجديدة. وهذه الأخيرة لم تتضح وتستقر تمامًا، بحيث تتغلب نهائيًّا على التقاليد القديمة، وهذه الصفحة -كما سبق أن أوضحنا- تعمل على التوفيق وحلّ التناقض بين القديم والجديد، ولذلك سنخصص جانبًا كبيرًا فيها لمناقشة الاتجاهات والتقاليد الجديدة وإظهارها. وهذه المناقشة بالطبع لن تكونَ فعالة، ما لم يسهم فيها أكبر عدد من القارئات وهي حقيقة تدفعنا إلى أن ندعوكن جميعًا إلى الكتابة بآرائكن في هذا الموضوع حتى نستطيع معًا التوصل إلى تقاليد ثابتة تجمع بين مزايا القديم وفي نفس الوقت تواكب وتتمشى مع التقدم الذي بدأنا نحققه في شتى المجالات».

ثم بدأت بموضوع آخر: (مذكرات زوجة سعودية) وأنهته في العدد السابع معتذرة بضعفها في مادة الإنشاء، وهو ما اضطرها في حياتها الدراسية إلى السطو أو على الأصح اقتباس الموضوعات والمقالات

الصحفية وادعائها لنفسها. وكانت مترددة في كتابتها لولا إصرار زوجها الأستاذ عابد خزندار -سامحه الله- أصرّ على أن أكتب هذه المذكرات لأسباب كثيرة أهمها في رأيه أنّ عندي مقدرة عجيبة على الكلام أو بمعنى آخر (رغاية)، وثانيًا أنّ المرأة كانت ومازالت من أبرع خلق الله في ميدان الحكايات والقصص الشخصية، ولعل شهرزاد صاحبة "**ألف ليلة وليلة**" أصدق مثل على ذلك... إلخ».

ونلاحظ وجود رسم كاريكاتوري في العدد (٣) يوضح انطلاقة المرأة السعودية بريشة الآنسة: جميلة مختار، يدٌ تحمل مشعلاً والأخرى تحمل حقيبة المدرسة، إلى جانب ترجمة لحياة رائدة الفضاء السوفيتية (فلنتينا) إلى جانب (طبق الأسبوع) و(نصائح للصيف) و(كلام في سرك).

ومن العدد السابع الصادر بتاريخ ١٣٨٣/١٢/٢٦هـ تطل علينا سارة سليمان بوحميد من بيروت لأول مرة باسمها الصريح وتكتب موضوعًا مطولاً على شكل قصة بعنوان: (أشواك في الطريق.. ومضى يبحث عن فريسة أخرى!؟) وتكون افتتاحية العدد عن أيهما أجدى للمرأة التعليم الجامعي أم التعليم المتوسط؟. وتشارك (سمراء الجزيرة) من جدّة بقصة (تضحية..أم).

وفي العدد التاسع يظهر اسمان جديدان هما: غادة الشدي وشيخة عبدالله الدغفق من الدمام. وفي العدد العاشر تكتب من بيروت أمل التركي.

وفي العدد الحادي عشر تكتب شمس افتتاحية العدد وتناقش فيه ما قدمته من مواضيع ومواد مختلفة، وتشكر من ساهم معها في الكتابة والإخراج وتخص بالذكر: «سارة بوحميد وأمل التركي وشيخة الدغفق، وآمل أن يواصلن هذا المجهود حتى نستطيع معًا أن نصل إلى هدفنا المشترك».

وفي العدد الرابع والعشرين الصادر بتاريخ ١٣٨٤/٤/٢٧هـ نجد اسم الطالبة منيرة الأحيدب تكتب موضوع (لا ترهقي والديك بمطالبكِ) وقصة (وغدًا تصبحين الوارثة الوحيدة!) بقلم نورة صالح الشملان من البصرة، وفوزية أخضر تكتب عن (الفتاة السعودية بين الأمس واليوم).

وبريد الصفحة يناقش موضوعات بعث بها كل من: الآنسة مي الجاسر، والأخت سارة بوحميد من بيروت، والأخت شيخة الدغفق من الدمام، والآنسة حصة التويجري، والأخت بهية الصويغ من الرياض، وهي زوجة الشاعر عبدالرحمن المنصور.

ومعذرةً إذْ لم أحصل على أعداد محددة من هذه الصفحة.

وقد اطلعت على العدد (٤٦) من "**اليمامة**" الصادر بتاريخ ١١ شوال ١٣٨٤هـ الموافق ١٢ فبراير ١٩٦٥م وهو كما أعلم آخر عدد أشرفت فيه السيدة شمس على الصفحة النسائية، وقد كتبت به إلى جانب حصة محمد التويجري، والآنسة خيرية السقاف موضوع (لمحات من الواقع).

وتستمر شمس أحمد الحسيني -رحمها الله- بالإشراف على الصفحة مدة عام كامل، لتنتقل بعد ذلك إلى القاهرة حيث أسرتها؛ بسبب تعرُّض

زوجها الأستاذ والكاتب عابد محمد علي خزندار للتوقيف لمدة سنتين مع الأستاذين الراحلين: عبدالكريم الجهيمان وعبدالرحمن المنصور.

وشمس أحمد الحسيني هي شمس خزندار. فهي تقول في مقابلة أجرتها معها **مجلة اليمامة** في العدد (١٧٣٣) الصادر يوم السبت ١٨ رمضان ١٤٢٣هـ، ٢٣ نوفمبر ٢٠٠٢م إنّ اسمها الفني شمس خزندار نسبة إلى اسم عائلة زوجها، أمّا اسمها الحقيقي فهو شمس أحمد الحسيني، ويعود أصلها إلى أشراف الحجاز النازحين إلى مصر. وذكرت أنها وُلدت في القاهرة عام ١٩٤٠هـ في حي العتبة، وحصلت على الثانوية، ثم تزوجت من الأستاذ عابد خزندار عند تخرجه بكلية الزراعة بجامعة القاهرة عام ١٩٥٧م، ١٣٧٧هـ، ثم سافرا إلى الولايات المتحدة الأمريكية لتدرس لمدة سنتين في جامعة ميرلاند. وقالت إنّ زوجها عابد لم يَنْبَتَّ عن جذوره العربية، وهو كان وما زال يعيش هموم الوطن. وحتى إنّ ابنتيها: الأستاذة منى، مديرة معهد العالم العربي بباريس، والدكتورة سارة، الأستاذة في كلية العمارة في جامعة السوربون بباريس، مع حياتهما الطويلة بباريس منذ عشرين عامًا لم يفقدا الهوية العربية والانتماء إلى المجتمع السعودي الذي ولدتا فيه. أمّا مشوارها مع الصحافة فتقول إنها بدأت الكتابة مع نشأة المؤسسات الصحفية، ومع صحيفة "**الرياض**" بالذات. [وقد وقعت في التباس إذ هي تقصد صحيفة "**اليمامة**" التي صدرت في ١٣٨٣/١١/٧هـ وليس **الرياض** التي صدر عددها الأول بتاريخ ١ محرم ١٣٨٥هـ]. وتقول: إنّ الذي دعاها للإشراف على الصفحة النسائية هو الشيخ حمد الجاسر، بتوصيةٍ من صديق

زوجها الأستاذ حامد دمنهوري، الذي كان يعمل وكيلاً لوزارة المعارف، وتقول: إنّ رئيس التحرير، كما تذكر، عمران العمران [وهذا التباس آخر، إذ كان رئيس التحرير حينها هو الشيخ حمد الجاسر]. وكان حلقة الوصل بينها وبين الصحيفة الأستاذ حمود البدر الذي كان محررًا بالصحيفة، وكانت شمس تذهب إلى بيته مع زوجها لتقدِّم له مواد الصفحة، وكانت زوجة البدر ثريا، وهي ابنة وزير التجارة في ذلك الوقت الأستاذ عابد شيخ، صديقةً لها. وقالت إنها كانت تتقاضى أربع مئة ريال شهريًّا، وهو راتب جيّد بمعيار ذلك الوقت. وقالت: إنّ هذه الفترة من أجمل فترات حياتها رغم أنها لم تستمر سوى عامين، حيث تعرّض زوجها للإيقاف عن عمله، مع أنه أول سعودي يحصل على درجة الماجستير في الكيمياء الزراعية. ومن هنا ذهبت للعيش مع عائلتها في القاهرة.

وقالت في إجابة أخرى: «...إنها لم تتعرض لأيّ هجوم أو انتقاد من الأسرة، ولكن الطريف أنّ الأستاذ إبراهيم الناصر الحميدان هاجم الصفحة النسائية واعتبرها عملاً لا جدوى منه بدعوى أنّ النساء في بلادنا أُمّيّات لا يقرأن الصفحة وبالتالي لا يستفدن منها، فردَّت عليه بأنّ الصفحة عن المرأة وليست موجَّهةً لها، وأنّ الرجل والمجتمع في بلادنا بحاجة ماسة إلى أن يتعرفا على قضايا المرأة ومشكلاتها، وأنّ هدف الصفحة هو عرض هذه القضايا بالقدر المتاح من الحرية في ذلك الوقت، وبالتالي الدعوة إلى حلّها، ومع الأسف، وبعد مرور ما يقارب أربعين عامًا على ذلك، نجد أنّ الكثير من قضايا المرأة لم تُحَلّ إلى الآن، الأمر

الذي نحتاج معه إلى صحافة نسائية قوية ليست متلونة، ومن النوع الذي يطغى على الساحة ويحتلها الآن، ولا أريد أن أسمي مجلة بعينها، إلا أنّ بعضها أصبح معروفًا ومتداولاً للأسف وتجد رواجًا كبيرًا».

وقالت عن الفرق بين صحافة الأمس وصحافة اليوم: «دعني أقولها بصراحة: صحافة الأمس أو صحافة الأفراد كانت صحافة مستوى ومضمون، أمّا صحافة اليوم فهي صحافة شكل، وحسْب».

وقالت عمَّن لفت انتباهها من الصحفيات السعوديات قديمًا وحديثًا: «الأخت الدكتورة خيرية السقاف، كانت بصفة مستمرة في الصفحة وكانت ملتزمة معي، وهي أصبحت بعد ذلك صحفية محترفة، ولكنها تركت الاحتراف ربما بسبب العمل الأكاديمي، وإن كانت ما تزال تواصل الكتابة».

وقالت إنّ الصفحة شاملة تُعنى بقضايا المرأة وتواكب ظروف تلك الفترة مثل ترشيد الإنفاق في مصروف البيت، وكل ما يتعلق بتعليم المرأة، والعناية بالطفل، والتعامل مع الزوج والأولاد، وجمال المرأة، والديكور، وثقافة المرأة... إلخ.

وقالت إنها تتابع ما تكتبه الكاتبات السعوديات وذكرت منهن: أشجان هندي، وعزيزة المانع، والجوهرة العنقري، وهتون الفاسي، وغادة الحوطي، وانتصار العقيل.

وقالت عن تجربتها الصحفية: «أضافت لي الكثير والكثير، ومن ذلك: الصبر، والتعوّد على العمل، والإطلالة في كل أسبوع بما يثير اهتمام المجتمع وقضايا المرأة وشؤونها».

وعن الأمّ المثالية في نظرها قالت: «هي الأمّ المخلصة الحنونة التي تستطيع بتعاونها وتفاهمها وانسجامها مع زوجها من بناء بيت سعيد يترعرع فيه الأولاد، ينشأون على الأخلاق الفاضلة والقيم التربوية السليمة».

وعن المبدأ الذي سارت عليه قالت: «التفاني في العمل، والصدق، والأمانة، والحرص على أن أنهي كل أمر أبدأ به بالشكل اللائق والمأمول منه».

وقالت إنها مازالت نادمةً على عدم متابعة دراستها بالولايات المتحدة الأمريكية.

واختتمت حديثها بقولها: «أحلم وأدعو الله دائمًا لوطني ولبلادي بدوام الاستقرار والرفعة والحبور والتقدم المطّرد في جميع المجالات».

هذا وقد نابت عن زوجها -لمرضه- في استلام جائزة تكريم الأديب الكبير الأستاذ عابد خزندار، المقدَّمة من نادي مكة الأدبي، والتي رعاها سموّ أمير منطقة مكة المكرمة خالد الفيصل بتاريخ ١٤ ذي القعدة ١٤٣١هـ الموافق ١٢ أكتوبر ٢٠١٠م.

وقد تعرضَتْ مؤخرًا لمشاكل صحية أُدخِلَتْ على إثرها المستشفى عدة مرات فلمّا تعذّر قبول دخولها المستشفى في جدة اضطُرّ زوجها إلى نقلها إلى المستشفى في باريس. ولكن بعد فوات الأوان. ففارقت الحياة يوم الأربعاء ٢٧ رمضان ١٤٣٣هـ الموافق ١٤ أغسطس ٢٠١٢م رحمها الله وتغمّدها بواسع

رحمته. وعزاؤُنا لزوجها الأستاذ الكبير عابد خزندار ولابنتيه منى وسارة فـ(إنّا لله وإنّا إليه راجعون).

الختام:

نشرت صحيفة "**اليمامة**" في عددها (٥٣)، الصادر بتاريخ ١١ ذي الحجة ١٣٨٤هـ، الموافق ١٢ أبريل ١٩٥٦م، ص١٣، ضمن أخبار الصفحة النسائية، التي تحررها الآنسة خيرية إبراهيم السقاف الخبر التالي: (اتحاد نسائي سعودي)، وفيه:

«انتُخبت السيدة سميرة الخاشقجي، رئيسة جمعية النهضة السعودية، ونادي فتيات الجزيرة الثقافي في الرياض، انتُخبت رئيسةً للاتحاد النسائي العربي السعودي.

وفور انتخابها بدأت سيادتُها في الاتصال بالجمعيات النسائية في المملكة لتكوين اتحاد نسائي عربي سعودي، يتعاون مع الاتحادات النسائية القريبة على تعريف الاتحادات النسائية الأخرى بالمرأة السعودية، ومظاهر نشاطها في المجالات الاجتماعية والثقافية والصحية».

معرض جمعية النهضة السعودية:

«في الرابعة -حسب التوقيت الغروبي- من صباح الخميس الأسبق افتُتِح المعرض الخيري لمؤسسات الجمعية، وسيظل مفتوحًا من الرابعة صباحًا حتى الثانية مساءً يوميًّا، والدعوة عامة لسيدات المجتمع في الرياض؛ لزيارة هذا المعرض الأول للجمعية. هذا وستُرْصَد إيراداتُ المعرض للأعمال الخيرية للجمعية».

الرياض: دعت السيدة سميرة الخاشقجي (مسز بيلا)، رئيس المكتب العالمي المختص للمرشدات ببريطانيا، وذلك للاطلاع على النشاط النسوي في بلادنا، ومن ثمة افتتاح قسم للمرشدات بالنادي الأهلي لفتيات الجزيرة، وستقدم إلى المملكة قريبًا. فمزيدًا من هذه الأفكار، وتحية لبنت الجزيرة العاملة.

الطائف: تبرعت مدرسة الثغر النموذجية بجدة بمبلغ ٤٠٠ ريال، والسيد وهيب بن زقر بمبلغ ١٠٠ ريال لجمعية اليقظة النسائية.

جدة: انتُخبت السيدة جيهان الأموي رئيسةً للجمعية النسائية الخيرية، ونحن -إذ نهنئها- نرجو لها مزيدًا من النجاح المطّرد.

مكة: تستعدُّ المدرسة الأولى بمكة لمعرضها السنوي لهذا العام، وقد ساهمت الأيدي الناعمة الوطنية في نتاجه القيِّم.

مكتبة نادي فتيات الجزيرة بالمربّع:

في هذا النادي الذي يعدّ أول ناد نسوي أُسِّس في هذه البلاد أُنشئت مكتبة للمساعدة على نشر الثقافة بين فتياتنا ونساء بلادنا. وقد علمنا بأنّ الآنسة مي، ابنة حمد الجاسر، أهدت مجموعة من الكتب لهذا النادي، سننشر أسمائها [كذا] في العدد التالي.

و"**اليمامة**" ترجو من قرّائها ومن كل مواطن غيور أن يسهم في هذا المشروع الثقافي بتقديم ما يستطيع تقديمه من كتب ومؤلفات، ونخص بالذِّكر أدباءَنا وشعراءَنا أصحابَ المؤلفات والدواوين».

هذا وقد اختفى اسم محررة الصفحة النسائية خيرية السقاف بعد هذا العدد، بل واختفت الصفحة كلها، وبعد عدة أعداد يظهر عمود صفية باسم المرأة تحرّره (حصة الفضل)، وتنتهي بذلك علاقة الشيخ حمد الجاسر بـ"**اليمامة**" ويعود إلى لبنان للتحضير لإصدار مجلته الشهيرة مجلة "**العرب**".

أكتفي بهذا القدر، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

الهوامش:

* محاضرة ألقيت في خميسية حمد الجاسر الثقافية بحي الورود بالرياض (دارة العرب) بتاريخ ١٤٣٣/١٠/١٩هـ الموافق ٢٠١٢/٩/٦م.

** مكتبة الملك فهد الوطنية- الرياض.

(١) **أيامي** – أحمد السباعي.

(٢) تسجيل صوتي مع السباعي – الإذاعة.

(٣) انظر: **مذكرات وذكريات من حياتي**، عبدالكريم الجهيمان.

المراجع:

❖ ***الكتب:***

- أحمد السباعي، أيامي، ط٢، جدة: تهامة، الكتاب العربي السعودي، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م.
- عبدالكريم الجهيمان، آراء فرد من الشعب، ط١، بيروت: دار الثقافة، ١٣٨١هـ/ ١٩٦١م.
- عبدالكريم الجهيمان، مذكرات وذكريات من حياتي، ط١، الرياض: ١٤١٥هـ/١٩٩٥م.
- عبدالله القصيمي، هذي هي الأغلال، ط١، القاهرة: ١٩٤٦م.

- مساعد بن عبدالرحمن، نصيحة لأخواني في الدين والنسب، ط١، القاهرة: ١٣٦٠هـ/١٩٤١م.
- محمد حسن عواد، خواطر مصرحة، ط١، القاهرة: ١٣٤٥هـ/١٩٢٦م.
- محمد القشعمي، بدايات تعليم المرأة في المملكة، كتاب المجلة العربية عدد ١٧٠، ٢٠١١م.

❖ ***أعداد مختلفة من الصحف والمجلات:***

- جريدة أخبار الظهران.
- جريدة أم القرى.
- مجلة الإشعاع.
- جريدة الجزيرة.
- جريدة صوت الحجاز.
- جريدة اليمامة.
- مجلة اليمامة العدد (١٧٣٣) وتاريخ ٢٣ نوفمبر ٢٠٠٢م.

أحساءُ هَجَر أم أحساء مؤتة؟!

بقلم: أ. عبدالله بن علي الرستم*

تمهيد:

تتشابه الأسماء بين المواضِعِ التاريخيَّة، وذلك لاعتباراتٍ كثيرةٍ فرضتها طبيعة الزمان أو المكان، إمّا لاتِّحَادِ الوصف فيما بينها، أو قد تكون جمعتها الصُدْفة في التسمية، أو لأيِّ سَبَبٍ كان، خصوصًا أنّ بعض المعاني اللُّغوية ينطبقُ وصف بعضها على مواضع كثيرة من بقاع الأرض، مما يجعل اللَّبس يأخذُ مجراهُ عند بعض القُرّاء، ولذا جاء البلدانيّون لتحديد المواضع مع ذِكر صفاتها؛ حتى لا يكون لَبْسٌ بين المواضع المتشابهة في المعنى والوصف، ومن تلك المواضع التي تشابهت معاني اللغة حولها (الأحساء) أو (الحَساء) وهذان الاسمان كلاهما يؤدي إلى معنًى واحدٍ، في حين أنّ هناك أكثر من موضع يُطلق عليه هذا الاسم.

وحول هذا التشابه بين المواضع في وجود أكثر من موضعٍ يُسمّى باسم (الحساء) أو (الأحساء) سواءً في جزيرة العرب أو غيرها، أتطرّقُ بشيءٍ من الإيجاز حول ما يرتبط بهذا المسمّى، وذلك لإزاحة شُبهةٍ وردت عند

أحد المؤرخين الذي سنتطرقُ إلى قوله بشيء من الإيضاحِ، كذلك فإنّ هناك من المهتمّين بالشأن الجغرافي والتاريخي ربّما لم يقرؤوا أنّ هناكَ مواضع أُخرى تتشابه في الأسماء، مما يوقعهم في لَبْسٍ يقودهم إلى نتائج عكسية، وبهذا أكون قد قدمتُ مادةً خفيفةً قد تُسهم في توضيح ما اشتبه عند بعض الباحثين المعاصرين، مع النظر إلى ما ورد في بعض الكتب المتقدمة.

موضع الشبهة:

قال ابن عبدالمنعم الحميري (ت٩٠٠هـ) في كتابه "**الروض المعطار في خبر الأقطار**"[١]: قيل الحساءُ موضعٌ في ديارِ بني أَسَدٍ، قال بِشْرُ بنُ أَبِي خَازِم:

عفـا مـنهنّ جـزع عريتنـات ... فـصارة فـالقوارع فالحـساءُ

والمشهور أنّ الحساء في طريق مؤتة، وهي المذكورة في شِعر عبدالله بن رواحة، إذ قال:

إذا أدّيْـتِني وحَمَلْـتِ رَحْلِـي ... مَـسِيرَةَ أربـعٍ بَعْـدَ الحَـسَاءِ

فـشأنكِ فـانعمي وخـلاكِ ذمٌّ ... ولا أرجـع إلى أهلـي ورائِـي

ذكر القصة ابن إسحاق[٢].

ومن أهل الحساء عثمان بن شطيبة العامري الحسائي، له:

تـسير وتـسري ليلـها ونهارهـا ... بغـادٍ إلى أفـق الجلالـة رائـح

وهـان عليهـا أو علـي جمـع مـا ... أُلاقي وتلقى إذ تلاقي ابن راجح

أقوال العلماء حول معنى (الأحساء):

ذكرنا سَلَفًا قول ابن عبدالمنعم الحميري، وقوله إنّ الأحساء الواقعة في طريق مؤتة هي المشهور، فإني أذهبُ إلى عكسِ ما ذهب إليه، وذلك بناءً على أقوال العلماء التالية أقوالهم، وهي:

١- قال ابن منظور (ت ٧١١هـ) في **لسان العَرَب**[٣] مادة (حسا):

(... وقال ابن الأعرابي: والحِسْي: الرمل المتراكم أَسفله جبل صَلْدٌ، فإِذا مُطِرَ الرمل نَشفَ ماءُ المطر، فإِذا انْتَهى إِلى الجبل الذي أَسْفلَه أَمْسَكَ الماءَ ومنع الرملُ حَرَّ الشمسِ أَن يُنَشِّفَ الماء، فإِذا اشتد الحرُّ نُبِثَ وجْهُ الرملِ عن ذلك الماء فنَبَع باردًا عذبًا؛ قال الأَزهري: وقد رأَيت بالبادية أَحْساءً كثيرة على هذه الصفة، منها أَحْساءُ بني سَعْدٍ بحذاء هَجَرَ وقُرَاها، قال: وهي اليومَ دارُ القَرامطة وبها منازلهم، ومنها أَحْساءُ خِرْشافٍ[٤]، وأَحْساءُ القَطِيف). اهـ.

٢- قال ياقوت الحموي (ت٦٢٢هـ) في "**معجم البلدان**"[٥]:

(والأحساءُ مدينةٌ بالبحرينِ معروفةٌ مشهورةٌ كانَ أوّل من عمّرها وحَصَّنها وجعلها قصبة هَجَر أبو طاهر سليمان بن أبي سعيد الجنابي القرمطي (ت٣٠١هـ) وهي إلى الآن مدينةٌ مشهورةٌ عامرةٌ، وأحساء بني وهب على خمسةِ أميالٍ من المرتمى بين القرعاء وواقصة على طريق الحاج فيه بِرْكَةٌ وتسعةُ آبارٍ كبار وصغار، والأحساء ماءٌ لغني، قال الحسين بن مطير الأسدي (ت ١٦٩هـ):

أيـن جيراننـا علـى الأحـساء ... أيـن جيراننـا علـى الأطـواء

فارقونــا والأرض ملبــسة نــو ر الأقاحـــي تجــاد بالأنـــواء
كـــل يـــوم بـــأقحوان ونـــور تضحك الأرض من بكاء السماء

الشواهد التاريخية حول (أحساء هَجَر):

بعد أن تطرّقنا إلى قولِ لُغويٍّ وقولِ بُلدانيٍّ، وأنّ المقصود بذلك هو أحساءُ هَجَر، نأتي على ذكر جملة من الشواهد التاريخية التي ذهبت إلى أنّ المقصود بالأحساء (أحساء هَجَر) لا غيرها رغم وجود مواضع أخرى توافقها في التسمية سنأتي على ذكرها لاحقًا، ومنها:

قول الهمداني في "**صفة جزيرة العرب**": .. إذا أجملنا أرض البحرين وهي أرضُ المُشَقَّر فهي هَجَرُ مدينتها العظمى والعقير والقطيف والأحساء ومحلّم نهرها[٦].

قال الحزازة العامري:

سُـقي الـشِّحْرُ فالمـزون فمـا حـا زت ذواتُ القطيفِ فالأحساء[٧]

وقال المتلمّس:

والغمـــــرُ ذوالأحـــــساء الْـــــ لـذاتِ مـن صـاعٍ وديـسقِ[٨]

من خلال ما تقدم، فإنه من الطبيعي أن يشتبه الأمرُ على ابن عبدالمنعم الحميري؛ لأنه من أهل الأندلس، ولعلَّ طريقه للحرمين الشريفين يمرُّ بمؤتة الواقعة في (الأردن)، ووجود موقع باسم (الحساء) في طريق مؤتة لا يعني المشهور!! مقارنةً بوجود موقعٍ آخر هو أحساءُ هَجَر المرتبط بأحداث تاريخية كثيرة، خصوصًا أَنَّ من سَبَقَهُ من البُلدانيين كياقوت الحموي صرّح بذلك وأسهب في وصف مياه ومواقع تلك البقعة المُسمّاة بـ(أحساء هَجَر).

ولعل من باب حُسن الظن أقول: إنّ ابن عبدالمنعم الحميري سمعَ عن الأماكن المسمّاة باسم (الحساء) أو (الأحساء)، بقرينة قوله: (والمشهور أنّ الحساء في طريق مؤتة)، وهذا ما جعله يُرجّحها على غيرها لورودها في شِعر عبدالله بن رواحة وغيره، في حين أنّ ورودها على ألسنة الشعراء لا يعني أن تكون الأشهر!! باعتبار أنّ الشِّعر وسيلة إعلامية يتخذها العرب لنشر ما يريدون فيه، وفي تصوّري لو اطّلع على شِعر الأحسائيين الهَجَريين لغيّر رأيه، وذلك كشِعر ابن المقرب العيوني (ت٦٢٩هـ) الذي كرر هذا الاسم في شِعره أكثر من مرّة سنأتي على ذِكرها.

الشواهد الشعرية حول (أحساء هَجَر):

قال علي بن المقرّب العيوني (ت ٦٢٩هـ):

أَضحَت بِكَ الأَحساءُ ساكِنَةً وَقَد ... رَجَفَت بِمَن فيها وَكادَت تُقلَبُ

وقال:

أَعطَتهُ مَملَكَةُ الأَحساءِ هِمَّتهُ ... وَعَزمُ مُستَبصِرٍ بِالرَأيِ غَيرُ عَمِ

وقال:

إِلَيكَ شَدًّا مِنَ الأَحساءِ أَنهَضَني ... عَزمُ الُملوكِ وَحَظٌّ غَيرُ ذِي كَشَمِ

وقال:

أَو هاجَروا في الأَرضِ فَهيَ عَريضَةٌ ... فَالتّيهُ خَيرٌ مِن حِمى الأَحساءِ

وقال:

رامَت ذَوُو أَمرِنا إِطفاءَ جَمرَتِنا ... فَبَعدَها أَلحق الأَحساءَ يَبرِينا

وقال:

فَخَيرٌ مِنَ الأَحساءِ إن دامَ عُتبُكُم		أُشَيٌّ وَوادِى مَلهَم وَنَعامُ

وقال:

فَسارَ مِنَ الأَحساءِ تَطوي بِهِ الفَلا		عِتاقُ المَذاكي وَالمَطِيُّ الذَوامِلُ

وقال:

وَما نَضا الدِّرعَ حَتّى حازَ حَوزَتَها		قَهرًا وَآخى بِها الأحساءَ مِن أَمَمِ

وغيره من الشعراء الذين قصدوا في أشعارهم أحساء هَجَر لا غيرها؛ فلو كان ابن عبدالمنعم على اطّلاعٍ تامٍّ لقال بأنّ أحساءَ هَجَر أشهر من الحساء الواقعة على طريق مؤتة، علمًا بأنه -أعني: ابن عبدالمنعم- ذكر أحساء هَجَر في كتابه وذلك حينما أتى على ذكر (بلاد البحرين) و(الأحساء) وعرّفهما ووصف الأحساء بأنها مدينة صغيرة.

قولٌ لأحد المتأخرين:

قال العلاّمة/ حمد الجاسر (رحمه الله) مشددًا بأنّ أحساء هَجَر هي المقصودة، فقد ذكر ذلك في **المعجم الجغرافي لشرق الجزيرة**[٩] بعد أن أورد سبعة شواهد شعرية لابن المقرّب ورد فيها ذِكر الأحساء، حيث قال:

وما دعا لإيراد هذه الشواهد الكثيرة إلا استنكار إطلاق هذا الاسم على تلك المنطقة من بعض الإخوة من أُدبائها. وهناك نصوصٌ لُغَويّةٌ وجغرافيّةٌ على صحّةِ ذلك لا نطيل بذكرها. ويُطلق الاسم على مواضع من أشهرها وأقدمها موضعٌ بالشام (شرق الأردن) على الخط الحديدي، وهو إحدى محطاته.

شواهد مشابهة:

أمّا حول ما اتفق وصفه من المواضع التي يُطلق عليها (الأحساء) فهي كثيرة، وهي بلا شك ليس المقصود منها (أحساءُ هَجَر)، بل المقصود منها مواضع أُخرى اتفقت في الوصف والمعنى الذي تطرّقنا إليه في قول ابن منظور، ولذا فقد وردت على ألسنةِ كثيرٍ من الشعراء، ومنهم قول سلمة ابن خالد بن كعب بن زهير المعروف بـ(السَّفَّاحُ التَّغْلِبِيّ):

صَدُّوا عَن الماءِ يَسقُونَ ذا كَلَم   وَنَحنُ نَسقي عَلى الأَحساءِ كَلمانا

وقول غياث بن غوث التغلبي (ت ٩٠هـ) المعروف بـ(الأخطل):

يَبحَثُ الأَحساءَ مِن ظَبيٍ وَقَد عَلِمَت   مِن حَيثُ يُفرِغُ فيهِ ماءَهُ الوَعِرُ

وكذا ابن خرداذبه في قوله:

فأمّا طريق الشاش والترك[١٠]: (... ثم إلى المنصف ستة فراسخ، ثم إلى الأحساء ثمانية فراسخ، ثم إلى بئر عثمان ثلاثة فراسخ). وقوله في مواقع مدن كرمان[١١]: (...والمفازة سبعون فرسخًا، ثم إلى الأحساء والآبار ثمانية فراسخ)، وقوله في وصف درب السلامة والطريق إلى خليج القسطنطينية[١٢]: (...ثم إلى عين بُرغُوث اثنا عشر ميلاً، ثم إلى نهر الأحساء ثمانية عشر ميلاً)، وغير ذلك مما ذكره في كتابه.

وقد ذكر ياقوت بعض المواضع التي ينطبق عليها المعنى اللغوي للأحساء[١٣]، منها ما هو المقصود بـ(أحساء هَجَر) ومنها غير ذلك، حيث قال:

(وقد رأيت في البادية أحساء كثيرة على هذه الصفة منها: أحساء بني سعد بحذاء هجر، والأحساء ماء لجديلة طئ بأجا، وأحساء خِرْشَاف، وقد ذكر خرشاف في موضعه وأحساء القطيف، وبحذاء الحاجر في طريق مكة أحساء في واد متطامن ذي رمل إذا رويت في الشتاء من السيول لم ينقطع ماء أحسائها في القيظ، وقال الغطريف لرجل كان لِصًّا ثم أصاب سلطانًا:

جرى لك بالأحساء بعد بؤوسها   غداة القشيريين بالملك تغلب
عليك بضرب الناس ما دمت واليا   كما كنت في دهر الملصة تضرب

والأحساء مدينة بالبحرين معروفة مشهورة كان أول من عَمَّرَها وحَصَّنَهَا وَجَعَلها قَصَبَةَ هَجَر أبو طاهر سليمان بن أبي سعيد الجناني القرمطي، وهي إلى الآن مدينةٌ مشهورةٌ عامرةٌ، وأحساء بني وهب على خمسة أميال من المرتمى بين القرعاء وواقصة على طريق الحاج فيه بركة وتسع آبار كبار وصغار). اهـ.

وقال أبو إسحاق الحربي(١٤):

ومن حسا بطن رمة قصرٌ ومنازل وسوق وآبار ماؤها غليظ، وفي غربيه بقدر ميلين ماءٌ عذبٌ في أحساء.

وقال: ومن حساء بطن الرمّة إلى الرَّقَم أربعة وثلاثون ميلاً.

وقال الحارثُ بن حِلِّزَة(١٥):

هــل علمــتم أيــام يُنْتَهــبُ النَّــا   سُ غِــوارًا لكــلِّ حــيٍّ عُــواءُ
إذ ركبنا الجِمالَ من سعف البحـ   ـريـن سـيرًا حتـى نهاهـا الحِسَاءُ

قال ابن بليهد النجدي: فأمّا الحِساءُ الذي ذكره الحارث فهو بكسر الحاء، وهو غير الحساء الواقع في نواحي هَجَر، وهذا الاسم إذا فُتحَ حاؤه يُطلق على جميع القرى الواقعة في بلاد عبدالقيس؛ لأنه في نفس البحرين، وأمّا الحِسَاء فإنه يطلق على موضعين: أحدهما في بلاد عبدالله بن غَطَفان، يصبُّ سيلهُ في وادي الرمّة، وهو معروف عند عامة أهل نجد باسم (حسى عليا) هلكتْ عنده امرأة يُقال له "علياء"، فقُبِرَت على هذا الماء، وهو الذي يقول فيه زهير:

عفـا مـن آل فاطمـة الجـواءُ　　　فَـيُمْنٌ فـالقوادمُ فالحِـسَاءُ

والثاني: واقع قرب المدينة، وهو الذي يقول فيه عبدالله بن رواحة ﵁ يخاطب راحلته.

إذا بلَّغـتِني وحملـتِ رحلـي　　　مـسافة أربـعٍ بعـد الحِـسَاءِ

وذكر الهمداني[١٦] أكثر من موضعٍ يُقال له الأحساء، ومن ذلك ما استشهد به من قولِ أبي قيس بن الأسلت يزجر غطفان عن مناجزة الخَزْرَج:

لأكناف الجريف فنعف سلمى　　　فأحساء الأساحل فالجنابُ

وكذلك قوله -الهمداني-: (...والعَمَايات مياه منها السَّكول وطُريف وأحساءُ الثمام، ثم ترد الأحساء أحساء مريفق[١٧]...)[١٨].

وقال كذلك: (وبظهر النِّير بينه وبين الجنوب بطن العُبرَى، وأحساءُ بني حَوَثَة وحلاقيم ماء)[١٩].

وقال كذلك: (ومن أملاح العبامة والثِّعْل والبَغْرَة وأحساءُ بني جُوَيَّة...)[٢٠].

ولم يقتصر ذِكر الأحساء على ما ذكره الهَمَدانيُّ في **صفة جزيرة العرب**!! بل ذكر ذلك غيره من البلدانيين، كالأصفهاني في كتابه "**بلاد العَرَب**"، حيث قال: (وهَضب الداهنة: هِضَابٌ حُمْرٌ في أرضٍ سهلة وهي التي يقال لها أعرافُ نخل، وفيها يقول عامر بن الطُّفيل:

ولّما أن بدت أعرافُ نخلٍ   وقالوا: إنَّ مورِدَها الحساءُ[21]

وذكر في موضعٍ آخر: (ثم فوق ذلك ماءٌ يُقال له: الحِساءُ حِسَاءُ رُبَبٍ)[22].

الخاتمة:

من خلال ما تطرّقنا له لاحظنا أنّ (أحساء هَجَر) تتفوق في الشُّهْرَةِ على غيرها من المواضع التي وافقتها في التسمية كأحساء بني وهب وأحساء خِرْشَاف وأحساء بني جوية ونحو ذلك؛ لأنّ أحساءَ هَجَر مأهولةٌ بالسُّكّانِ مُذ أن عُرفت، وكذلك لارتباطها بأحداث تاريخية منذ صدر الإسلام، إضافة إلى ذلك موقعها الجغرافي ومكانتها الاقتصادية. وفي تصوّري أنّ ابن عبدالمنعم الحميري الذي وصفها بأنّها مدينةٌ صغيرةٌ، لو زارها في زمانه لأعطاها وصفًا يختلف عمّا دوّنه في كتابه "**الروض المعطار**"!، ولذا لا مقارنة بينها وبين غيرها من المواقع التي وافقتها في الوصف والتسمية، وهذه الشبهة كما حصلت لابن عبدالمنعم الحميري، فإنها حصلت عند بعض المعاصرين باعتمادهم على مصادرَ معاصرة اشتبهت في ذلك، ومنها وجود بعض الخرائط التي تُطلق على بعض المواضع من شرق الجزيرة اسم (أحساء). ولعل هذه الخرائط قصدت الجزء الشرقي من شبه جزيرة العرب، ذلك أنّ شرق شبه الجزيرة العربية كان يُطلق عليه (الأحساء)، إلا أنّ

التقسيمات الإدارية في القرون المتأخرة، ومن خلال فرز المواضع، جعلت موضع الأحساء منحصرًا في الجزء الموجود حاليًّا، وهو ما يُسمّى بـ(**محافظة الأحساء**).

والله ولي التوفيق.

الهوامش:

❖ الأحساء- المملكة العربية السعودية.

(١) **الروض المعطار في خبر الأقطار**، محمد بن عبد المنعم الحِميري (ت ٩٠٠هـ)، تحقيق: إحسان عباس، مؤسسة ناصر للثقافة، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٨٠م، ١/٢٠٥.
علمًا أنّ ابن بليهد يذهب إلى أنّ (الحساء) الواردة في شِعر عبدالله بن رواحة، أنه موقع قرب المدينة.
راجع: **صحيح الأخبار عما في بلاد العرب من الآثار**، محمد بن عبدالله بن بليهد النجدي (ت ١٣٧٧هـ)، بيروت، الطبعة الثانية، ١٣٩٢هـ/١٩٧٢م، ٢/٢٣٨.

(٢) **السيرة النبوية**، عبدالملك بن هشام الحميري (ت٢١٣هـ)، تحقيق: مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبدالحفيظ شلبي، مؤسسة علوم القرآن، ٤/٣٧٦.

(٣) **لسان العرب**، ابن منظور، مادة (حسا).

(٤) خرشاف: بكسر أوله وتسكين ثانيه وشين معجمة وآخره فاء، موضعٌ بالبيضاء من بِلادِ بَنِي جُذَيْمَة بِسِيفِ البَحْرَيْنِ في رِمال وعثة تحتها أحساء عذبة الماء عليها نخل بعل. راجع: **معجم البلدان**، للحموي، ٢/٣٥٩ (باب: الخاء والراء).

(٥) **معجم البلدان**، ياقوت بن عبد الله الحموي أبو عبد الله، دار الفكر، بيروت، ١/١١٢. والجبال والأمكنة والمياه، محمود بن عمر الزمخشري (ت٥٨٣هـ)، تحقيق: د. إبراهيم السامرائي، ٧١ (ما في أوله الحاء).

(٦) **صفة جزيرة العرب**، أبو محمد الحسن بن أحمد بن يعقوب الهمداني (ت٣٣٤-٣٦٠هـ)، تحقيق: الشيخ محمد بن عبدالله بن بليهد، الطبعة الثالثة، ١٤١١هـ/١٩٩١م، دار الجوهرة، الرياض، ١٩٣.

(٧) **صفة جزيرة العرب**، (مصدر سابق)، ٢٤٠.

والشِّحْرُ: بكسر أوله وسكون ثانيه، قال: الشحرة الشط الضيق والشحر الشط، وهو صقع على ساحل بحر الهند من ناحية اليمن. قال الأصمعي: هو بين عدن وعُمان قد نسب إليه بعض الرواة، وإليه ينسب العنبر الشحري؛ لأنه يوجد في سواحله. وهناك عدة مدن يتناولها هذا الاسم. راجع: **معجم البلدان**، الحموي، ٣٢٧/٣ (باب: الشين والحاء).

والمزون: أرض عمان. راجع: **معجم البلدان**، الحموي، ١٢٢/٥ (باب: الميم والزاي).

(٨) **صفة جزيرة العرب**، (مصدر سابق)، ٢٥٧.

والمتلمس هو: جرير بن عبدالعزى، من بني ضبيعة من ربيعة، شاعر جاهلي من أهل البحرين، وهو خال طرفة بن العبد.

وقال ياقوت في **معجم البلدان** ٢٤/٣ (باب: الراء والباء): ربب: بباءين موحدتين وادٍ بنجد من ديار عمرو بن تميم وقيل من بلاد عذرة مما يلي الشام من وراء أيلة عن نصر.

(٩) **المعجم الجغرافي للبلاد العربية السعودية (المنطقة الشرقية "البحرين قديمًا")**، حمد الجاسر، منشورات دار اليمامة، الرياض، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠هـ، ٤٩٧/٢.

قول الجاسر: "من أشهرها وأقدمها" يُقصد منه أنّ الشهرة قُرنت بالأقدميّة، وإلا فهَجَر البحرين كان بها أحساءٌ كثيرة كما يذكر المؤرخون الذين أوردنا أقوالهم، ولولا إطلاق القرمطي عليها اسم الأحساء لبقيت تحت مسمّى هَجَر، وإلا فصفة الأحساء لازمةٌ لهَجَر؛ لتصبح فيما بعد (أحساءُ هَجَر).

ويبدو لي من عبارته: (من أشهرها وأقدمها موضع بالشام...الخ)، قصد بذلك من حيث الإطلاق وليس من حيث الدلالة، وإلا فإنه أوضح في بداية كلامه أنّ الشواهد تدلُّ على أحساء هَجَر.

(١٠) **المسالك والممالك**، أبو القاسم عبيدالله بن عبدالله (ابن خرداذبة) (ت ٣٠٠هـ)، تقديم د. محمد مخزوم، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م، ٣٦.

(١١) **المسالك والممالك**، ٥٢. (١٢) م. ن. ٩١.

(١٣) **معجم البلدان**، (مصدر سابق)، ١/١١٢ (باب الهمزة والحاء).

(١٤) كتاب **المناسك وأماكن طرق الحج ومعالم الجزيرة**، إبراهيم بن إسحاق الحربي (أبو إسحاق) (القرن الثالث)، تحقيق: حمد الجاسر، منشورات دار اليمامة، الرياض، الطبعة الثانية، ١٤٠١هـ/١٩٨١م، ٥١٨. وبطن الرمة: وادٍ بالحجاز. وقد ذكر الحربي أحساء هجَر في كتابه ص٦٢٠ حينما تحدّث عن (البحرين).

(١٥) **صحيح الأخبار عما في بلاد العرب من الآثار**، محمد بن عبدالله بن بليهد النجدي (ت ١٣٧٧هـ)، بيروت، الطبعة الثانية، ١٣٩٢هـ/١٩٧٢م، ٢/٢٣٨.

(١٦) **صفة جزيرة العرب**، (مصدر سابق)، ١٩٣.

(١٧) مريفق: اسم قرية في سواد باهِلَةَ من أرض اليمامة عن الحفصي وقد أنشد:

ألا يا حمام الشعب شعب مريفق سقتك الغوادي من حمام ومن شعب

سقتك الغوادي رب خود غريرة أصاخت لخفض من عنانك أو نصب

فإن يرتحل صحبي بجثمان أعظمي يقم قلبي المحزون في منزل الركب

وقال أبو زياد مريفق من مياه أبي بكر بن كلاب بشراين وشراين جَبَلان. اهـ.

راجع: **معجم البلدان**، الحموي، ٥/١١٨-١١٩ (باب: الميم والراء).

(١٨) **صفة جزيرة العرب**، ١٧٥. (١٩) م. ن. ١٧١. (٢٠) م. ن. ١٧٩.

والثعل: موضع بنجد. راجع: **الجبال والأمكنة والمياه**، محمود بن عمر الزمخشري (ت٥٨٣هـ)، تحقيق: د. إبراهيم السامرائي، ٤٩ (ما في أوله الثاء).

(٢١) **بلاد العَرَب**، الحسن بن عبدالله الأصفهاني، تحقيق: حمد الجاسر والدكتور/ صالح العلي، منشورات دار اليمامة، الرياض، ١٥٧.

(٢٢) **بلاد العرب**، (مصدر سابق)، ٦١.

شِعر عليّ بن عرَّام الأُسوانيّ (ت٥٨٠ هـ)
دراسة في جماليَّات الشَّكل وتنوُّع المضمون
(٢)

بقلم : د. عبد الرَّازِق حويزي *

التَّشكيل الجماليّ في شِعر ابن عرَّام :

يُومئ شِعر ابن عرَّام إلى تمتّعه بموهبة شعريّة سامقة ، متمكّنة من مؤهلات الشِّعر ، قادرة على توظيفها توظيفًا فنيًّا آسرًا ، يمنح تجاربها أمارات التّشكيل الفنِّيّ البديع الذي يستحوذ على الألباب ، وينال إعجاب النُّفوس ، ويؤتي ثماره من التّأثير لدى المتلقِّين.

ففي شِعره كثير من القيم الجماليّة التي تعاضدت مع تنوُّع مضامينه في إضفاء العمق والوضوح على تجاربه الشِّعرية ، وأولى هذه القيم تتمثّل في فنيّة استخدام المحسِّنات البديعيَّة بقسميها : المعنويّة واللفظيّة ، فمِن المحسِّنات المعنويّة : الطِّباق ، والمقابلة ، وحُسن التّعليل ، والمبالغة ، والاعتراض ، وحسن التّخلص ، ومن المحسِّنات اللفظية : الجناس ، والتَّصدير ، ويُعدّ الجِناس في مقدمة المحسِّنات البديعيَّة في الديوان ، وذلك من حيث النَّظر إلى كثرة نماذجه ، وقد استعان به الشَّاعر كثيرًا لزركشة

أسلوبه، وتزيين ألفاظه، وتقرير أغراضه، وإيضاح معانيه، وجلاء أفكاره، وصياغتها في قوالب لُغوية وإيقاعيَّة، تجعلها أقرب إلى القَبول، فاستعمله تامًّا، كما استعمله ناقصًا، ومن الجناس التَّام قوله[١]:

كريمٌ عليمٌ فهو يَلْقَى مديحه ومادِحَهُ في الناس بالنَّقْدِ والنَّقدِ

فالجناس هنا ظاهر في نهاية البيتين في قوله: (بالنَّقد، والنَّقد)، فالأولى بمعنى المال، والثانية بمعنى (التَّقويم)، فيلحظ اتِّحاد الحروف واختلاف المعنى، وهذا من الجناس التّام، ويُلحظ الجناس النّاقص في صدر البيت بين: "كريم، عليم"، وواضح تجاور كلمات الجناس في البيت، وهذا يسميه البلاغيون بالجناسِ المزْدَوج، وقد وَلَعَ به الشَّاعر ولعًا شديدًا، فأكثر من استعماله حتى شكَّل في ديوانه ظاهرة، لذا ستأتي أمثلتها، وقد أضاف الشَّاعر للأسلوب عنصرًا جماليًّا آخر، منح البيت جمالاً إيقاعيًّا، حيث أتي قبل كلمة القافية بكلمة أخرى على وزنها وقافيتها مما يُسمى لدى النُّقاد بالقوافي الدَّاخلية. "ومتى اقترن.... بالتَّجنيس نوع آخر ... فهو أحسن بعد أن يكون بعيدًا عن الاستكراه والتَّعقيد سليمًا من شنعة الصَّنعة السَّمحة، فكلَّما كان الكلام أجمع لأنواع البديع فهو أعلى درجة"[٢]. وهكذا يُلحظ أنّ الشَّاعر حرص على توظيف مفردات شِعره توظيفًا فنيًّا جيّدًا، فغدت وكأنَّها مثل قطع الفُسَيْفسَاء اللاَّمعة، وكلُّ هذا انعكس أثره على الأسلوب بالوضوح والجمال، وحلاوة الإيقاع. ومن الجناس التَّامّ قوله[٣]:

وقد مَسَّني الضرُّ حتى لَجَأْتُ إلى كَنَفِ الفاضِلِ الفاضِلِ

فالجناس في هذا البيت بين كلمتي (الفاضل) الأولى وهي اسم الممدوح أو لقبه، والثَّانية وهي بمعنى المتمتِّع بالأخلاق الحميدة. وفي هذا البيت محسِّن بديعي معنويّ، وهو الاقتباس، حيث اقتبس الشَّاعر قولَه: "مَسَّني الضُّر" من القرآن الكريم، وقد سبق تحديد الآية المقتَبَس منها[٤]، ومن الجناس التَّام قوله[٥]:

وفي بَرْزَةٍ مكحولةُ الطرفِ بَرْزَةٌ ... تُصَبِّرُني للوجد منها، وتُغْرى بي

فالجناس هنا بين كلمتي (برزة) في صدر البيت، فالأولى قرية من غوطة دمشق[٦]، والثانية بمعنى المرأة ذات المحاسن البارزة، الموثوق برأيها[٧]. وأضفى الجناس على هذا البيت وغيره قيمة جماليّة في جمع هذه الكلمات المتشابهة وتَكرارها فأكسبت الأسلوب تماثلاً صوتيًا، انعكس أثره على المعنى والإيقاع والأسلوب. ومن الجناس النَّاقص وقوله[٨]:

يَمُنُّ بلا مَنٍّ وَيُعْطِي تَعَمُّدًا ... إذا غَيْرُهُ أعطاكَ عن خَطأَ السَّهْوِ

فالجناس هنا بين الفعل (يَمُنّ) بمعنى يجزل العطاء، وبين الاسم (مَنٍّ) بمعنى تذكير الْمُعْطَى بالعطاء على سبيل إيلامه. وقوله[٩]:

فاحذر من الدّنيا الدّنية إنها ... غدّارة غرّارة بخداع

فالجناس هنا بين كلمتي: (غدّارة)، و (وغرّارة)، وليس ثَمَّة اختلاف في رسم حروفهما سوى حرف واحد، ومنه وقوله[١٠]:

وصاحَ فِصَاحٌ في الغُصُونِ فخلتها ... قيانًا تُغَنِّي لا حمامًا مُطَوَّقا

والجناس هنا بين الفعل (صاح)، والاسم (فصاح)، ويقصد به الحَمام المغرِّد، ومنه قوله[١١]:

ذو قلَـــمٍ يَـــرْقُمُ مـــا شـــاءَهُ   إنـــشاؤُهُ فهـــو كـــبرقٍ سَـــرَى

فكلمـة (شـاءه) بمعنـى أراده، وكلمـة (إنـشاؤه) بمعنـى مـا يكتبـه، وقوله[١٢]:

ودومـة دامَ العـيشُ حلـوًا بربعهـا   وواهًـا لـه لـو أنـه غـيرُ مـسلوبِ

وربما أتى الشَّاعر بأكثر من تجنيس في شطر واحد، كما في صدر البيت التَّالي[١٣]:

إذا وَعَدُوا أَوفُوا وإن أوعدوا عَفوا   وإن سُئِلوا أعطوا جزيلَ المواهـبِ

ويمثّل الجناس المقلوب نوعًا آخر من أنواع الجناس، يقف عليه القـارئ في قوله[١٤]:

كـأنّ هـديرَ المـاءِ عَوْلَـةُ لَوْعـةٍ   لـصبٍ مَـشُوقٍ لا يُطيـقُ التَّفَرُّقـا

فقد جانس بين (عولة) من العَويلِ وهو البكاء، و(لوعة) وهـي حُرقة يجدها الرّجل من الحُزْنِ والوَجْد[١٥].

ومن أنواع الجناس الأخرى في شِعره: الجنـاس المضارع، وهـو: "من محاسن الكلام البديع الذي هو في الدَّرجة العالية: المضارَعة، وهو ما تتَّفق حروفـه في الكتابـة والهيئـة، وتختلـف في النطـق والقـراءة بـاختلاف اللفظ"[١٦]، ومنه قوله[١٧]:

وَرِعٌ وَأَرْوَعُ باســـــلٌ   عِنْدَ الْمَحَارِبِ والمُحَاربْ

فيلحظ في هذين البيتين توافق بنية الكلمتين (المَحَارِبِ والْمُحَارِبْ)، مع اقتصار الاختلاف بينهما على الضبط من كلمة إلى أخرى، ومنه قوله[١٨]:

مليكٌ جميلُ الخُلْقِ والخَلْقِ لم يَزَلْ   يروعكَ في جِدٍّ، يَرُوقُكَ في لَهْوِ

فكلمة (الخلق) الأولى للأخلاق، والثانية للخلقة والهيئة، ومنه قوله[١٩]:

فمن كان في قولٍ مُجيدًا وقاصدًا   مَجِيدًا به فَلْيَحْذُ في نَظْمِهِ حَذْوِي

فكلمة "مجيدًا" الأولى بمعنى الإجادة في القول، والثّانية بمعنى عظيمًا، فنلحظ اتّفاق الحروف في الرسم، واختلافها في المعنى والضَّبط، ومن الجناس المضارع جناس القوافي قوله[٢٠]:

أَلا مَنْ مُبْلِغٌ سُعْدَى بأَنِّي   ظَمِئْتُ إلى مراشفها العِذَابِ

فإنِّي والمهيمنِ مُنْذُ بانَتْ   رأيتُ الشَّوْقَ من أَلَم العَذَابِ

فالجناس في هذه النُّتفة من الجناس التّام، وهو حادث في نهاية كلٍّ بيت في كلمة (العذاب)، فكلمة القافية في البيت الأول بمعنى السَّائغ من الشَّراب، وفي البيت الثَّاني بمعنى العقاب، ولا يُلحظ غموضٌ في معنى كلّ كلمة منهما، بل يُلحظ انسجام الكلمات مع بقيّة ألفاظ البيتين سّبكًا ومضمونًا، منحَهما قيمة جمالية تشكيليّة وإيقاعيّة. ولابدّ من الإشارة إلى ظاهرة بديعيّة في شِعره تتمثّل في كثرة استعماله للجناس المزدوج، وهو الذي "يتوالى فيه الجناسان مطلقًا من غير فصل بينهما إلا بحرف جرٍّ أو عطفٍ وما أشبهه، سُمِّيّ بذلك لازدواج اللفظين بتواليهما، ولما يظهر بين

الكلمـتين مـن الاسـتواء، لأنَّ الازدواج هـو الاسـتواء، ويـسمَّى المكـرَّر والمرَدَّد أيضًا"[٢١]، ولا شكّ في أنّ الـشَّاعر كـان يقـصد إليـه قـصدًا، حيـث يأتي بكلمتين متشابهتين لفظًا، مختلفتين معنًى، متجـاورتين محـلاًّ، وعلـى وزن واحد وقافية واحدة، ويـسمِّيه علمـاء اللغـة بالاتبـاع، وإذا جـاء هـذا النَّـوع مـن الجنـاس في نهايـة البيـت فهـو يحـدث إيقاعًـا داخليًّا يتعاضـد مـع الإيقاع الخارجيّ للقافية ليحدث تشكيلاً موسيقيًّا رائعًا، وهنا يـبرز عنـصر جماليّ آخر، وهو ما يسمّى بالقوافي الداخليّة التي سبق الإلماح إليها، فقد أتى الشَّاعر في نهاية البيت الأوَّل من البيتين التَّاليين بكلمتين تنتهيان بحـرف واحد، وهو الباء، وأتى في صدر البيت الثَّاني بكلمتين متشابهتين لفظًا لا معنًى، وتنتهيان بحرف الفـاء، وهـذا يـسبغ علـى شِعره سلاسـة في التَّعـبير والنُّطق، وعذوبة في الإيقاع، قال ابن عرَّام[٢٢]:

وَرِعٌ وَأَرْوَعُ بـاســــــلٌ عِنْدَ الْمَحَارِبِ والُمحَارِبْ
يَهَـوى المعـارِفَ لا المعـا زِفَ والمشاعِرَ لا المشارِبْ

ومن الجناس المزدَوج قوله[٢٣]:

قد طوىَ بعدَ أَرْضِكم سُوقَ شوقٍ ظـلَّ للقلــبِ مُزْعِجًـا مُـسْتَحِثًّا

وقوله[٢٤]:

كـريمٌ علـيمٌ فهـو يَلْقَـى مديحـه ومادِحَهُ في النـاس بالنَّقْـدِ والنقـدِ

وقوله[٢٥]:

فلستُ على أُسوانِ أَسوانِ بعدها وما أنا مجرٍ ذِكْرَهَا لـي علـى فِكْـرِ

وقوله[٢٦]:

فـــأيْنَ يَنْجُـــو هائـــبٌ هـــارِبٌ   مـن نكبـةٍ شـنعاءَ ذاتِ اجتيـاحْ

وتكمن القيمة الجماليّة للجناس في مشاكلة الحروف لبعضها، وتجانس الكلمات، والجمال اللّفظي الذي منح التّعبير الشّعريّ تشكيلاً إيقاعيًّا داخليًّا وخارجيًّا، وتماثلاً في النُّطق، وتشابهًا في الوحدات الصّوتية، وليس ذلك فحسب، فهناك قيمة جماليّة أخرى تحسب للشّاعر، تتمثّل في جمعه كلّ هذه القِيَم في لفظ بعيد عن الحوشية والغرابة والتّنافر والتّعقيد والتّصنيع، وذي معنى واضح قريب مألوف، وهذه قيمة تنسحب على معظم شِعره؛ فالجناس يؤدّي إلى "إثارة الدّهشة والمفاجأة التي يلجأ إليها المُجَنِّسُ حين يخدع الأذهان، ويبهر فكر المتلقّي بأن يريه أنّه سيعرض عليه معنى مكررًا، ولفظًا معادًا لم يتوقع منه سوى السّآمة والتّطويل ثم يراوغه، ويضعه أمام معنى طريف مستحدث يغاير ما سبقه فتأنس نفسه وتكتسب أريحيّة ونشاطًا عقليًّا، فكل جديد يستقطب النفس، ويحدث عندها نوعًا من البَهْر العقلي الذي تنفعل به"[٢٧]. ويقوم الجناس أيضًا بوظيفة تعبيرية، وأهمية أسلوبية كبيرة "بما يضيفه إلى النّسق اللُّغوي من انسجام وتناسب وتآلف في البناء الصّوتي، يُثري المعنى، ويغني الصِّياغة اللُّغوية، فليس الجناس تلاعبًا بالألفاظ أو مهارة في صناعة الجُمل، أو محسِّنًا خارجيًّا إضافيًّا، وإنَّما هو أسلوب فنِّيّ في التّعبير يضيف إلى الفكرة، ويزيد في جمال العبارة"[٢٨].

ومن المحسِّنات اللّفظية: رَدّ العجُز على الصّدر، ويأتي على "ضروب، منها: ما يتّفق معنى العجز والصّدر، ومنها: ما يختلف معناها، والثاني

أبدع وأحسن، ومنها: ما يتفق لفظه وبنيته، ومنها: ما يختلف ذلك فيه، ومنها ما يردّ العجُز على الصّدر بعينه، ومنها: ما يردّ على المذكور في أثناء النّظم والنّثر"(٢٩)، ومنه قول ابن عرَّام(٣٠):

لجأْتُ إِلى خير الأَنام ابنِ مُنْقِذِ ليصبحَ من أَسْرِ الحوادثِ مُنْقِذِي

وتكمن القيمة الجماليّة لردّ العجز على الصّدر أو التّصدير -على ما سمّاه بعض البلاغيّين- في أنّه يشتمل على التّشابه اللّفظي في آخر البيت ثمّ في وسطه أو في أوّله، وهذا التّشابه يمنح الشّعر إيقاعًا مُتناسقًا متَشابهًا، تتشوَّف إليه النَّفس من أوَّل البيت حتَّى تجده في آخره، ولا يخفى أنّ هذا التَّكرار ينعكس على المعنى بالإيضاح والتَّوكيد معًا، كما ينعكس على الأسلوب بشدّة الأسر.

أمّا المحسِّنات البديعيَّة المعنويّة التي ارتكز عليها ابن عرَّام، فأضفت تشكيلاً جماليًّا على أساليبه وأفكاره فهي كثيرة في شِعره، يأتي الطِّباق في مقدمتها، ومنه قوله(٣١):

فأنا الدهرَ في عَذَابٍ إذا ما سَخَطوا أوْ رَضُوا عن الأَيَّامِ

وقوله(٣٢):

وفي خدِّهِ نارٌ وَمَاءُ شبيبةٍ وما اجتمع الضدانِ إلاَّ عَلَى قَتْلي

وقوله(٣٣):

فما أَرَى البُعْدَ إلاَّ قد زادني منكَ قُرْبَا

إنّ توظيف الطِّباق بين الكلمات التي تحتها خطٌّ في كلّ بيت ساعد على إيضاح المعنى بجمع الأضداد إلى بعضها ممَّا أدَّى إلى ارتقاء الأسلوب

الشّعريّ، فزاده نصاعةً وإشراقًا، وجلَّى معانيه، ومنحها إيضاحًا، بفضل ما يقوم به الطِّباق من دور هامٍّ في جمع الأضدادِ إلى جوار بعضها، ومن ثمّ تقريبها إلى الذّهن عن طريق جذب الضِّدّ الانتباه إلى ضِدِّه، ومنها المقابلة الواردة في قوله(٣٤):

سأحلمُ عن خَصْمي بمجلسِ لَغْوِهِ ... ولستُ حليمًا عنه في حَوْمة الوَغَى

ومنها المبالغة الواردة في قوله(٣٥):

وكيف وعندي فَضْلَةٌ من جَلاَدَةٍ ... تُعَلِّمُ أَصْلاَدَ الصَّفَا كيفَ تَصْلُبُ

يذهب الشَّاعر في هذا البيت إلى أنّ صبره وقوّة تحمُّله تُعلِّم الصُّخور الصَّلابة، وهذا على سبيل المبالغة، ومنها وقوله(٣٦):

فأَيْنَ يَنْجُو هائبٌ هارِبٌ ... من نكبةٍ شنعاءَ ذاتِ اجتياحْ

أَنَّى وظهرُ الأرضِ مَعْ بطنها ... لناصرِ الإسلامِ في بَطْنِ راحْ

ويبالغ أيضًا في بيتيه السَّابقين، فيذهب إلى أنَّ الكرة الأرضية ظاهرها وباطنها مجموعة في قبضة الممدوح، لذا لا يمكن لهارب أن يهرب منه. ومن هذه المحسِّنات البديعيَّة المعنويَّة الاعتراض في قوله(٣٧):

أعرض عن الظلم -ويك- خوفًا ... من موقف العرض والقصاص

ومنه(٣٨):

إنّ القناعةَ -فالذي أوتيتَ مِن ... رزقٍ- لوجه الحُرّ خيرُ قِناعِ

ففي البيت الأول اعتراضٌ متمثِّل في قوله: "ويك"، وفي البيت الثَّاني اعتراضٌ في قوله: "فالذي أوتيتَ مِن رزق"، ولهذا الاعتراض قيمته الفنيّة التي تنعكس على المعنى الشِّعريّ بالوضوح، والاستقصاء مع محاولة

تحديد المهمّ ممَّا يلزم التَّركيز عليه، وتنحية ما هو أقلّ منه أهميّة، ولكن ينبغي للمتَلقِّي الوقوف عليه. ومن هذه المحسِّنات المعنويّة حسن التّعليل، ومنه قوله(٣٩):

وافى بياض الرأس بعد سواده ينهاك عن غي الشباب الفاضح

قد يعذر الساري إذا ما ضل في ليل ويعذل في الصباح الواضح

يلتمس الشَّاعر العذر لضلالات الإنسان في شبابه دون شيخوخته، ولكي يقرر وجهة نظره شبَّه مرحلة الشَّباب بظلام اللَّيل، وشبَّه شيب الإنسان بضوء الصَّباح، وهو تشبيه جيّد ربط فيه الشَّاعر سواد شعر الإنسان بالظَّلام، وبياضه بضوء النَّهار، ثمَّ عَلَّلَ الشَّاعر في بيته الثَّاني التماس العذر في مرحلة الشَّباب بأنَّها ظلام دامس، لذا يتخبَّط الإنسان فيها على غير هدي بعكس مَن يسير في ضَوء النَّهار.

ومن المحسِّنات المعنويّة الكامنة في شِعره حسن التَّخلص من غرض إلى غرض في قصائده الطَّويلة، فيلحظ القارئ أنه ينتقل من غرض الغزل أو الوصف إلى غرض المديح في سلاسة، ودون شعور بخلل أثناء الانتقال، إذ كان يمهِّد لهذا الانتقال تمهيدًا جيّدًا. ومعروف أنّ ديوانه قد ضاع؛ ومع ضياعه ضاعت معالم البناء الهيكليّ لكثير من قصائده، وما تبقّى منه لا يعدو قصائد قليلة ومقطَّعات ونُتَف كثيرة، أغلب الظَّن أنَّها بقايا قصائد طويلة؛ لذا كان الاكتفاء هنا بإلقاء الضَّوء على كيفيّة تخلُّصه من غرض إلى غرض في القصائد التي وردت شبه تامّة، فمِن تخلُّصه الحسن قوله(٤٠):

وقـد غَـرَّدَتْ أَطيارُهَـا فكأَنّهـا ... قِيـانٌ يُـرَجِّعْنَ اللحُـونَ بتطريـب
ريـاضٌ نـضيراتٌ تَـرِفُّ كأَنّهـا ... سَقَاها فَرَوَّاهـا بَنَـانُ ابـنِ أَيُّـوب

فقد تخلَّص في هذا البيت من الوصف إلى مدح ابن أيُّوب بلُطف، ومن تخلُّصاته الجيِّدة قوله(٤١):

وفي غـيرِ أُسـوان مَـرَادٌ ومَـذْهَبٌ ... فلا تَجْعَلي شَرَّ النواحي قَرَارَك
فخيرُ بلادِ اللّه ما صانَ مِن أَذًى ... وأَضـحى مَحـلاً للأمـيرِ مُبـارك

فيُلحظ أنَّه تخلَّص في هذا البيت من الشَّكوى إلى مدح الأمير مُبارك بن منقذ في سلاسة ودون قفز مفاجئ، ومن حُسن تخلُّصه قوله(٤٢):

كـأنّ هـديرَ المـاءِ عَوْلَـةُ لَوْعـةٍ ... لـصبٍ مَـشُوقٍ لا يُطيـقُ التَّفَرُّقـا
يَفيضُ على تلك الرياضِ انسكابُهُ ... كجـودِ ابـن شَـيْبانٍ إذا مـا تَـدَفَّقا

وقصارى القول في أمر المحسِّنات البديعيَّة في شِعره أنها منتشرة في كثير من أبياته، وقد وظَّفها توظيفًا فَنِّيًّا جيّدًا ابتعد عن آثار التَّكلف الأسلوبيّ، وحفظ لها حيويتها، فأضفت عليه جماليّات الأسلوب والإيقاع، فضلًا عن بعدها عن الغموض والاستكراه والتّعقيد.

واستند الشَّاعر على عنصر التَّصوير الفنِّيّ كقيمة جماليّة، ترتقي بفنّه الشّعريّ، وحاول بوساطته تقريب البعيد، وتوضيح الغامض، وبثّ الحياة في الجامد، وقد ارتكز في رسم صوره على نوعين من التّصوير، أحدهما: التّصوير الكلّيّ، الذي قام فيه مقام الْمُصَوِّر الحاذق، والرّسّام الماهر الذي يتأنّق في رسم الصّورة لينقلها كما هي عليه في الواقع بحيث لا يغادر صغيرة ولا كبيرة منها، ويجتهد في إضفاء الألوان الزَّاهية عليها

ليزيدها نصاعةً ووضوحًا، وهذا النَّوع من التَّصوير اهتمَّ به -وإن كان قليلاً في شِعره- في سياق غرض الوصف، وثانيهما: التَّصوير الجزئِيُّ الذي ينهض على أساس من التّشبيه أو الاستعارة أو الكناية، وهو عنصر بارز في شِعره، امتلك وسائله، فأتى به جيِّدًا مستوفيًا لأركانه، وهذا النَّوع من التَّصوير كامن في أكثر أغراضه الشّعرية، وقد استمدّ صوره الجزئيَّة من بيئته، ومن ثقافته الأدبيَّة والإسلاميَّة، ولا يُنكر أنّ أكثر صوره مألوفة معروفة، شائعة عند أكثر الشُّعراء من قبله، فمِن صوره التَّشبيهيَّة قوله(٤٣):

عُلِّقْتُها غِرَّةً غَرَّاءَ غُرَّتُها ... كالبدرِ حَفَّ بليلٍ فاحمٍ رَجِلِ

فهو يشبِّه جبين محبوبته وقد أحاط به شَعرها الأسود بالبدر في ظلام اللَّيل. ومنها قوله(٤٤):

كأنّ دخانَ النَّدِّ في جَنَباتِها ... ضَبَابٌ وماءُ الوردِ غَيْثٌ ترقرقا

وفي هذا البيت تشبيه شيئين بشيئين، شبه الشَّاعر الدُّخَانَ بالضَّباب، وشبَّه قطراتِ النَّدَى المتساقطة من الورد في الصَّباح بالغيث، ومن صوره الاستعاريّة قوله(٤٥):

وكم حصَّ الزمانُ جناحَ قَوْمٍ ... ولكنَّ الكرامَ رَعَوْا فَرَاشُوا

فقد صوَّر الشَّاعر القوم بالطَّائر ذي الجناح، وصوّر الزّمان بالإنسان الذي نَزَعَ الريشَ من هذا الجناح، وكلّ هذا على سبيل استعمال الألفاظ في غير ما وُضِعت له، ومنها قوله(٤٦):

خَلَعْتُ عِذَارِي وادَّرَعْتُ بحبها ... فَظَلْتُ أسيرًا في الحَبَالةِ مُطْلَقا...

تمايلــتِ الأشــجارُ فيهــا كأنَّمــا   سَـقَتْها يـدُ الأَنـواءِ خمـرًا مُعَتَّقـا

ففـي هـذين البيـتين بعـض الـصُّور الاسـتعاريّة والكنائيّـة، ففـي البيـت الأول صوّر الـشَّاعر نفسَه وهـو ينطلـق إثـرَ اللَّـذات بـصورة الفَـرَس الـذي خُلِعَ عنه خطامُه، ومِن ثـمَّ فهـو يجـري دون قيـود، ففـي قـول الـشَّاعر: "خلعتُ عِذاري" كنايةٌ عن انهماكه في اللَّهـو، وفي قولـه: "ادَّرَعـتُ بحبِّهـا" صـورة اسـتعاريّة، فالحـبّ لا يُلـبَس، وإنَّمـا الـتي تُلـبس هـي الـدُّروع والثِّياب، فقد صوَّر الـشَّاعر الحبّ في صـورة شـيءٍ يُلـبس، واسـتعمل لـه الفعل "ادَّرعتُ" بمعنى لبست، وفي البيت الثَّاني تـصوير استعاريٌّ أيـضًا حيث جعل الشَّاعر للسُّحب يدًا، وجعل هذه اليد تسقي الأشجار خمرًا، وكأنَّها تقوم مقام الـسَّاقي، ومـن المعروف أنّ الأشـجار لا تـسقى خمـرًا، ولكن آثر الشَّاعر هذا التَّعبير ليُصور الأشجار في صورة النَّـدامى، ويـصوِّر السَّحاب في صورة السَّاقي. ومنها قوله(٤٧):

أَظُنُّهُمـا قـد صـافَحَا وَرْدَ خَـدِّهِ   ومَرَّا على تلْك السوالفِ واللَّمَـى

من المعروف أنّ الأصل في المصافحة أن تكون باليـد لليـد، وقـد خـالف الشَّاعر هذا فجعلها بالعين لوجنة الحبيب، ومن هنا يكـون قـد صـوَّر كـلاًّ من العين والوجنة في صورة الأيدي التي تتصافح. والـصُّور الاستعاريّة في ديوانه بصفة عامة تتَّسم بالوضوح، والقرب في التَّناول، والدِّقة والإصابة. وفي شِعره صور جيِّدة، منها تـشبيه نحولـه ودقَّـة جسمه بِخَصْر محبوبتـه في قوله(٤٨):

أَنْحَلَــني بُعْــدِيَ عَنْهــا فَقَــدْ   صِــرْتُ كــأني دِقَّــةً خَــصْرُهَا

ومنهـا تـشبيهه سَـرَيان النَّـسيم بِبَـوْح المحـبِّين لبعـضهم بأسـرارهم في قوله[٤٩]:

فلــذَّ لنـــا ذاك النـــسيمُ كأنَّـــه سِـرَارٌ تَهــادَاهُ الأحِبَّــةُ بالرُّسُــلِ

وكان ابن عرَّام معجبًا ببعض الصُّور الشعريّة، فعمد إلى تَكرارها في أكثـر مـن موضـع في شِـعره، منهـا تـصوير الحيـاة بـالْمَحَطّ، ينـزل فيـه المسَافِرون بعض الوقت، ثم يرحلون عنه رحيلاً أبديًّا إلى الآخـرة، علـى ما يتَّضح من قوله[٥٠]:

نحـنُ فيهـا كمثـلِ ركـبٍ أَنـاخوا سـاعةً ثـم أُرْهِقـوا بانزعــاجِ

كرَّرَ هذه الصُّورة في قوله[٥١]:

نحـــنُ في هـــذه الحيـــاة كَـسَفْرٍ ربمـــا أُعْجلـــوا عـــن الإرْوادِ
عَرَّسُـوا سـاعةً بهـا ثـم نـادى بالرحيـــلِ المجـــدِّ فـــيهمْ مُنـــادِ

ومنها تصوير البَنَفْسَج وهو بجوار الوَرْد بآثار العَضِّ أو التَّقبيل في خَدِّ المحبوب، وتصوير النَّرجس بعيون الجميلات من الفتيات، وتـصوير تغريـد الأطيار بغناء القِيان في الأبيات التّالية[٥٢]:

بنفـسجَهَا غَـضٌّ يخـالِطُ زُرْقَـةً كآثارِ عضٍ قد عَلاَ خَدَّ مَحْبوبِ
ونَرْجِـسُها المبثـوثُ فيهـا كـأَعْينٍ بَدَتْ فاتراتٍ من خَصَاصةِ تَنْقيبِ
وقـد غَـرَّدَتْ أَطيارُهَـا فكأنّهـا قِيـانٌ يُـرَجِّعْنَ اللحُـونَ بتطريـبِ

كرَّر الشَّاعر هذه الصُّور في قوله[٥٣]:

وقـد غَـرَّدَتْ أطيـارُهُ فكأنَّهـا قيانٌ تَطارَحْنَ الغناءَ على مَهْلِ
بنفـسجه آثـار قـرص بوجنـة كحسناء تاهت بالـدلال وبالـدل

ونرجـــسه المبثــوث فيــه كأنــه عيـون عـذارى نـاظرات إلى خـل

وكرَّر الصُّورة الأولى في قوله(٥٤):

والخـــدُّ وَرْدٌ والبنفـــسجُ فَوْقَــهُ آثــارُ تقبيــلٍ بــبعضِ عِــضَاضِ

ومنها تصوير صوت الماء بأنين المحب المهجور في قوله(٥٥):

كــأنّ هــديرَ المــاءِ عَوْلَــةُ لَوْعــةٍ لــصبٍ مَــشُوقٍ لا يُطيـقُ التَّفَرُّقـا

وهذه الصُّورة مكررّة في في قوله:

كـــأنّ خريـــر المـــاءِ في جَنَباتِــه أَنــينٌ لمهجــورٍ يَحِــنُّ إلى وَصْــلِ

هـذا بالإضـافة إلى توظيـف الـشَّاعر لقيمـة فنيّـة طريفـة، شـاعت لـدى الشُّعراء الرُّومانسيّين في العصر الحديث، عند مدرسة الدّيوان، وجماعة أبولُّو، وهي ما عُرِفَ لديهم بتراسل الحواسّ، أي قيام إحدى الحواسّ الخمس مقام غيرها، ومن ذلك قوله(٥٦):

مدحتك فاسمعْ من مديحِيَ قَهْوةً تلـذُّ لـذي سمـعٍ وَنَـشْوَانَ شـاربِ

فـالقهوة تُشرب لا تـسمع، ولكـن استعمل الـشَّاعر لهـا -علـى سـبيل تراسـل الحَـوَاسّ- حاسّـة الـسّمع توسـلاً لتـشبيه مديحه بـالقهوة الـتي تَلَـذُّ للشَّارب، وهي في الوقت نفسِه تلذ للسَّامع.

ويُعـدُّ تنـوُّع التَّـشكيل الإيقـاعيّ في شِـعره أحـد القـيم الجماليّـة، الـتي أكسبته حلاوة وبهـاء، فقـد نـوَّع أوزانـه وقوافيـه في قـصائد الـدّيوان، هـذا بالإضـافة إلى نظمـه علـى مجزوءات بعـض البحـور إضـافة إلى نظمـه علـى تامّها ومشطورها. وهذه إحصائيّة بعـدد مـرّات البحـور الـشّعرية الـتي نظـم عليها:

البحر	الطويل	الكامل	الخفيف	السريع	الوافر	المتقارب	البسيط	المجتث	الرجز	المنسرح
العدد	٢١	١٠	١٠	٩	٤	٥	٤	٤	٣	٢

وكما نوّع في بحوره نوّع أيضًا في استخدامه حروف الرَّوِيّ، فنظم على معظم حروف الهجاء، وهذه إحصائية بعدد مرّات نظمه على كلّ حرف من حروف القافية:

الروي	ء	ب	ت	ث	ج	ح	د	ذ	ر	ش	ص	ض	ط	ظ	ع	غ	ق	ك	ل	م	ن	ه	و
العدد	١	١١	٥	٢	٢	٥	٩	١	٦	٢	١	٢	٢	١	٢	١	١	٢	٧	٣	٣	١	٢

وحاول أن يستجمع كلّ ما يُعلي من شأن الإيقاع في شِعره، فابتعد عن الضرورات الشِّعرية القبيحة، واهتمّ بالموسيقى الدّاخليّة التي تحقّقت في شعره بعدّة وسائل، منها: المحسِّنات البديعيَّة، والقوافي الداخليّة، وسَبَقَتْ نماذجُ لهما، ومنها: تَكرار حروف بعينِها تُسْهِم في تجلية غرضه، والارتقاء بإيقاعه، كما في تَكرَارِه حرف السِّين الدَّال على المعاني اللَّطيفة(٥٧)، المشعر بالفرح والسُّرور في قوله يهنئ بمولود(٥٨):

قادمُ سَعْدٍ يَقْتَضي سَعْدُهُ   سعادةَ الوالد إذْ أَنْجَبَا

وتَكرار حرف الحاء المشعر بقوَّة العاطفة وسعة مجالها، ودلالته على المعاني الشَّريفة(٥٩) في قوله(٦٠):

فجوارحي وجدًا عليه جَرِيحةٌ   وجوانحي شَوْقًا إليهِ جَوَانح

وتَكرار حرف الحاء في هذا البيت أربع مرّات، وحرف السِّين ثلاث مرَّات في البيت السَّابق عليه أدَّى بدوره إلى وجود تماثل حرفيّ ساعد على تجانس الكلمات وانسيابيّتها في النُّطق، وحلاوة في الوقع.

وقد استعان الشَّاعر بقيم جماليَّة أخرى أضفت على شِعره القَبول، والتَّأثير، وإصابة الأغراض بما تجسَّد فيه من طواعية الأسلوب، وتقرير الأفكار، مثل حسن توظيفه للتَّنَوُّع الأسلوبيّ بين الخبر والإنشاء مع براعة توظيف الأساليب الإنشائية عبر أفكاره، ودِقَّة استعمال الأساليب الخبريَّة واتساقها مع مراعاة حال المخاطب، وكذلك مُراعاة الدّقة والتَّنوُّع في اختيار التَّشكيل الإيقاعيّ المناسب، مع توظيف التّصريع في مقدّمات بعض قصائده، ولعلّ أهمَّ ما حَرَصَ على توظيفِه بوضوح، وظهر أثره في لغته يتمثَّل في الدّقة في اختيار ألفاظه لتكون معبِّرة بدقَّة وعمق عن أفكاره، وهذه الظَّاهرة بارزة في كلِّ أغراضه، فللغزل ألفاظُه التي يحسن توظيفُها فيه، وللشَّكوى ألفاظها المعبّرة، وللمديح ألفاظه التي تنسجم مع صفات الممدوح، وقد ظهر هذا من خلال النَّماذج الشِّعرية التي سِيقت آنفًا، وكلُّ هذا وغيره من محسِّنات بديعيّة، وصور بيانيّة، وأساليب ألاّقة، ومعان دقيقة يشوِّقُ القارئ إلى مطالعة شِعره لِمَا فيه من أَمَارات الفنّ، وآيات الجمال.

ويمكن لقارئ شِعره أن يأخذ عليه بعض المأخذ، وهي من القلَّة بمكان بحيث لا تقدح في شاعريَّته ألبتة، من ذلك استعماله بعض المفردات الغريبة، منها قوله[٦١]:

قد كنت إذ أنا يافع ومصاحبي طَلَفٌ يبوؤني أجل يفاع

فنلحظ غرابة لفظ (طلف) في البيت، وهي بمعنى فضلٌ، وعطاء وهبة[٦٢].

ومنها استعمال الفعل (يساهم) بمعني يساعد، والصَّواب (يساعد)، وبه لا يختلّ الوزن، لأنّ (ساهم) بمعنى (اقترع)، قال الله -سبحانه وتعالى-: ﴿فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ﴾[٦٣].

ومنها التواء الأسلوب في قوله[٦٤]:

لا بُدَّ مِنْ مَنْهَلِهِ أَنْ يَرِدَهْ

ومنها قوله[٦٥]:

وما بَرِحَتْ مصرٌ قديمًا حُمَاتُها ببعثٍ من القُطْرِ الشآميِّ مَجْلوبِ

فهذا القول مخالف للحقيقة، فمصر -كما هو معروف- كِنانة الله في أرضه[٦٦]، روي "عن عمر بن الخطاب ﷺ قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: إذا فتح الله عليكم مصر فاتَّخذوا فيها جندًا كثيرًا فذلك الجند خير أجناد الأرض، فقال له أبو بكر: ولم يا رسول الله؟ قال: لأنهم وأزواجهم في رباط إلى يوم القيامة"[٦٧]. وإذا كان الشَّاعر قد استعمل هذا على سبيل المبالغة فهي مبالغة تُدحضها الحقائق التَّاريخيَّة.

هذه هنات هيِّنات، لا تحطُّ أبدًا من منزلة الشَّاعر ولا تُقلِّل من قيمة شِعره التي حفظها لنفسه، فبادر إلى التَّصريح بأنّ شِعره إنَّما يصدر عن شاعر ذي ذوق رفيع، عالم بأسرار اللُّغة، خبير بدلالات ألفاظها، محيط بمعجمها اللغوي، بصير بقواعد الشِّعر ومؤهِّلاته، وذلك في قوله[٦٨]:

وقافيةٍ لَيْسَتْ تفارقُ مَرْكَزًا وتقطعُ آفاق البلادِ بلا عَدْوِ
لها رَوْنَقٌ من قبل تلحينِ وَزْنِهَا إذا كان بعضُ الشعرِ يَحْسُنُ بالحَدْوِ
أَمادِحَهُ استيقظْ فشِعرُكَ وافدٌ على لُغَوِيٍّ شاعرٍ ناقدٍ نَحْوِي

فمـــن كـــان في قـــولٍ مُجيـــدًا ... بـــه فَلْيَحْـــذُ في نَظْمِـــهِ حَـــذْوِي

ومن ثمَّ حفظ بعض النُّقاد له مكانته في موكب الشِّعر العربيّ، ووفروا عليه حظه في دوحته، منهم العِمَاد الأصفهانيّ (ت ٥٩٧ هـ) الذي قال في حقّه: "شيخٌ من أهل الأدب مقيم بأُسوان فوق قوص، ملك من الأدب الخلوص، ومن الشِّعر الخصوص، وعدم ظلُّ فَضْلِه القُلُوصَ، وهجَر في لزوم وطنه الرَّحلَ والقَلُوص. وسألتُ عنه بمصر سنة ثلاث وسبعين فقيل: إنه حيٌّ في أُسوان، وهو على حظِّه أَسوان، وطلبتُ شعرَه فأَحضَرَ لي بعضُ أصدِقائي من أهلِها ديوانَه، فوجدتُ عاليًا في سماء السّحر كيوانَه، وجمعتُ شاردَ حسنه وألزمته صِوانه، وغبطتُ عليه أُسوانَه، وجلوتُ بِكْر نظمه وعوانَه، ووضعتُ لمأدبة أهل الأدب إخوانِه خِوَانَه، وأحضرت عليه ألوانه، فاحمدْ إذا حققت برهانه أوَانه. وقد أوردتُ من جملة نظمه الفائق الرائق، ولفظه الرائع الشائق، ما إذا حُسِرَ سَحَر، وإذا أَصْحَر أحْصَرَ، وإذا أُنْشد نَشَدَ ضَالّةَ الأماني، وإذا أَقْمَرَ نَوَّرَ هالةَ المعاني، فلابن عرَّام في ميدان النظم عرَّام، وبابتكار المعاني الحسان غرام، ولرويته في إذكاء نارِ الذكاء ضرام، والملوك باصطناع أمثاله يقال لهم كرام..."[٦٩].

الهوامش:

❖ أستاذ الدّراسات الأدبيّة والنقديّة بجامعتي الأزهر والطائف.

(١) المقطّعة رقم (٣٠).

(٢) **المحاسن في النظم والنثر**: نصر بن الحسن المرغيناني، تحقيق: GEERT JAN VAN GELDER، استانبول، ١٩٨٧م، ص٧٠.

(٣) القصيدة رقم (٥٢).

(٤) وينظر في الاقتباس أيضًا البيت رقم (٣) من المقطّعة رقم (٦٠)، ففيه اقتباس من قوله تعالى: "فهل إلى خروج من سبيل". سورة غافر، الآية رقم (١١).

(٥) القصيدة رقم (١٢).

(٦) ينظر: **معجم البلدان**: لياقوت الحموي، دار صادر، بيروت، ١٣٩٨هـ/١٩٧٧م، ٣٨٢/١.

(٧) ينظر: **لسان العرب**، لابن منظور (ت ٧١١هـ)، تحقيق: عبد الله الكبير، دار المعارف، القاهرة، (برز) ص٢٥٦.

(٨) القصيدة رقم (٧١).

(٩) القصيدة رقم (٥١).

(١٠) القصيدة رقم (٥٤).

(١١) المقطّعة رقم (٣٩).

(١٢) القصيدة رقم (١٢).

(١٣) القصيدة رقم (٧).

(١٤) القصيدة رقم (٥٤).

(١٥) كتاب **العين**: للخليل بن أحمد الفراهيدي (ت ١٧٠هـ)، تحقيق: إبراهيم السامرائي وغيره، دار ومكتبة الهلال، بيروت، ٢٤٨/٢، ٢٥٠.

(١٦) **المحاسن في النظم والنثر** ٧٩.

(١٧) المقطّعة رقم (١٠).

(١٨) القصيدة رقم (٧١).

(١٩) القصيدة رقم (٧١).

(٢٠) النتفة رقم (٢).

(٢١) **فن الجناس**: لعلي الجندي، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٦٠.

(٢٢) المقطّعة رقم (١٠). (٢٣) النتفة رقم (١٨).

(٢٤) النتفة رقم (٣٠). (٢٥) المقطّعة رقم (٤٠).

(٢٦) النتفة رقم (٢٦)، وينظر في نماذج أخرى من هذا النوع من الجناس وغيره: القصيدة رقم (١٢) البيت رقم (٢٠)، والنتفة رقم (٣٣) البيت رقم (١)، والمقطّعة رقم (١) البيت رقم (١)، والقصيدة رقم (٥٧) البيت رقم (٢)، النتفة رقم (٦٩) البيت رقم (١)، والنتفة رقم (٥٣) البيت رقم (٢).

(٢٧) **دراسات في المعاني والبديع**: عبد الفتاح عثمان، مكتبة الشباب، ١٩٨٢م، ١٧٥-١٧٦.

(٢٨) **دراسات في المعاني والبديع** ١١٧.

(٢٩) **المحاسن في النظم والنثر** ٨١.

(٣٠) المقطّعة رقم (٣٦).

(٣١) القصيدة رقم (٦٦).

(٣٢) القصيدة رقم (٥٩).

(٣٣) النتفة رقم (٣). تنظر النتفة رقم (١٨)، والنتفة رقم (٣٣).

(٣٤) النتفة ٥٣، وتنظر القصيدة رقم (٥٣).

(٣٥) النتفة رقم (٤).

(٣٦) النتفة رقم (٢٦).

(٣٧) المقطّعة رقم (٤٣).

(٣٨) القصيدة رقم (٥٩).

(٣٩) النتفة رقم (٢٤).

(٤٠) القصيدة رقم (١٢).

(٤١) القصيدة رقم (٥٥).

(٤٢) القصيدة رقم (٥٤).

(٤٣) القصيدة رقم (٥٧).

(٤٤) القصيدة رقم (٥٤).

(٤٥) القصيدة رقم (٤٥).

(٤٦) القصيدة رقم (٥٤).

(٤٧) النتفة رقم (٦٥)، وتنظر القصيدة رقم (٥٩)، البيت رقم (٥).

(٤٨) البيت المدرج تحت رقم (٤٢).

(٤٩) القصيدة رقم (٥٩). (٥٠) المقطّعة رقم (٢٠).

(٥١) القصيدة رقم (٣٢). (٥٢) القصيدة رقم (١٢).

(٥٣) القصيدة رقم (٥٩)، وينظر التعرض لغرض الوصف فيما سبق.

(٥٤) المقطّعة رقم (٤٧). (٥٥) القصيدة رقم (٥٤).

(٥٦) المقطّعة رقم (٩).

(٥٧) ينظر **أشتات مجتمعات في اللغة والأدب**: لعباس محمود العقاد، دار المعارف، القاهرة، ط٦، ١٩٨٨م، ٤٦.

(٥٨) المقطّعة رقم (٦).

(٥٩) ينظر: **أشتات مجتمعات في اللغة والأدب** ٤٣، ٤٥.

(٦٠) المقطّعة رقم (٢٥). (٦١) القصيدة رقم (٥١).

(٦٢) ينظر: **تاج العروس**: للزبيدي (ت ١٢٠٥ هـ)، تحقيق: لفيف من المحققين، سلسة التراث العربي، الكويت، ٢٤/٩٨، ٩٧.

(٦٣) سورة الصافات، الآية رقم (١٤١).

(٦٤) الأرجوزة رقم (٣٥). (٦٥) القصيدة رقم (١٣).

(٦٦) **النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة**: لابن تغري بردي (ت ٨٧٤ هـ)، طبعة دار الكتب المصرية، ١٩٢٩م، ١/٣٤.

(٦٧) **كنز العمال**: للمتقي الهندي (ت٩٧٥هـ)، تحقيق وضبط وتفسير: الشيخ بكري حياني، تصحيح وفهرسة: الشيخ صفوة السقا، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ١٩٨٩م، حديث رقم ٣٨٢٦٢.

(٦٨) القصيدة رقم (٧١).

(٦٩) **خريدة القصر وجريدة العصر** ٢/٦٥، كَيْوان: نجم يُقالُ له: زُحَل؛ كتاب **العين** ٥/٤٢١، أصحَرَ القَومُ: أي بَرزُوا إلى الصَّحْراء. السابق ٣/١١٤، العوان: منتصف العمر. ينظر السابق ٢/٢٥٤.

ورد إلى "**العرب**" من الأستاذ صالح بن عبدالله السعيِّد، من مدينة المذنب، ما يلي:

الآبار الهلالية في محافظة المذنب بمنطقة القصيم

اشتهرت الأراضي الزراعية الواقعة شرق مدينة المذنب والتي تمتد من الجنوب إلى الشمال بمحاذاة جال خرطم بطول يزيد على عشرين كيلو مترًا، بخصوبتها وجودة إنتاج القمح فيها. وقد كانت تباع مخلفاته بسعر زهيد ويثبت ذلك المثل المشهور (أرخص من تبن المذنب).

وتتكون الأراضي الزراعية الخصبة من عدد من الروضات متقاربة فيما بينها وبعضها متصل ببعض، وينحدر من غرب المذنب باتجاه الروضات الزراعية عدد من الأودية والشعاب فتصب فيما يقابلها من روضات حتى تلتقي مياهها وتسير بمحاذاة جال خرطم متجهة نحو الشمال فتروي المزارع وتنقل معها التربة الطينية الخصبة. واشتهرت من بين تلك الروضات (روضة السفالة) بسبب وجود عدد من الآبار القديمة جدًّا ينسبها الأهالي لبني هلال، مثل سكان بلدان نجد حيث ينسبون ما لا يعرفون أصله لبني هلال وقد اشتهر عن الهلاليين أنهم لم يتركوا بلدًا إلا ولهم في أرضه أثر، وتناقل سكان نجد أجيالاً بعد أجيال قصص بني هلال وتغريبتهم وأشعارهم

وحروبهم وأبطالهم كأبي زيد الهلالي وحسن بن سرحان وذياب بن غانم وغيرهم، وقد حدثني بعض كبار السن ومنهم خالي (سليمان أبو عضيب) -أمدّ الله في عمره- حدثني أنّ بني هلال كانوا يزرعون الأراضي الخصبة (شرق المذنب) قمحًا ويبيعونه حتى يجمعوا أموالاً عظيمة أغلبها من الذهب، ومع انتشار الجهل بينهم دخل في عباداتهم كثير من البدع والضلالات وابتعدوا عن منهج الدين الصحيح فعاقبهم بأن منع الله عنهم المطر ثمان سنوات كاملة ولم يمطروا فنفقت خلالها مواشيهم وغارت آبارهم، وهذا العقاب شمل نجدًا كلها فقرروا الرحيل الجماعي ودفنوا ما لم يستطيعوا حمله من أموالهم بجانب آبارهم وقريب منها على أمل الرجوع إليها في يوم ما، ولا يزال الناس يتناقلون قول أحد بني هلال:

عن بَرْزَهْ أمام المصلّي خدفة العصا   من المال ما يغني جميع القبايل

ونحن بصدد بني هلال يجدر بنا أن نذكر شيئًا من أصلهم ومن أين جاءوا، فنقول: بنو هلال بطن من قبيلة هوازن العدنانية كانت منازلهم بالطائف -في الحجاز- منهم أمّ المؤمنين زينب بنت خزيمة رضي الله عنها، وكذلك أمّ المؤمنين ميمونة بنت الحارث، رضي الله عنها.

وقد اشترك بنو هلال في غزوة حنين وقاتلوا المسلمين في السنة الثامنة للهجرة ثم بعد ذلك بسنة دخلت قبيلتهم في الإسلام عام الوفود ٩هـ يتقدمهم زعيمهم هلال بن عامر، ثم كانت لهم مشاركات في الفتوحات الإسلامية في عهد الخلفاء الراشدين (رضي الله عنهم)، ولما عمرت الكوفة استوطنوها وكذلك الموصل وحلب، وأسهموا في الثورات على الدولة

العباسية، وفي القرن الخامس الهجري عام ٤٤٢هـ رحلوا من نجد إلى مصر ووافق ذلك إبعادهم من العراق والشام إلى مصر أثناء عهد الخليفة الفاطمي المستنصر -دام حكمه ٦٠ عامًا- ولكن أثاروا الفوضى في مصر وقطعوا الطرق ونهبوا أرزاق المصريين فكثرت الشكاوى منهم فقرر الخليفة المستنصر التخلص من بني هلال فأغراهم بالمال والأرزاق ودفعهم جميعهم إلى تونس لمحاربة المعز بن باديس الذي خلع طاعة الفاطميين فهزموه ونهبوا ما طالته أيديهم وخربوا مدينة القيروان عام ٤٤٧هـ التي بناها الفاتح عقبة بن نافع الفهري -رحمه الله- أيام الخلافة الأموية، ثم بسط بنو هلال نفوذهم على شمال إفريقيا وتغلبوا على قبائل البربر مثل زناته وصنهاجه وضمّوا الجزائر لسلطتهم ورويدًا انصهروا مع تلك القبائل خلال تسعة قرون مضت، والآن لا يوجد سلالة منهم ولا أثر، و إن ظهرت بعض الأسر في شمال إفريقيا تدّعي أنها من أصول هلالية كما سمعت في مقابلة مع أحد المسنين في إحدى القنوات الفضائية التونسية، ولكن ذلك يحتاج إلى دليل وإثبات قاطع يؤكد أنهم من أصول هلالية كما يزعمون.

انتهى الحديث عن بني هلال ولنرجع إلى الحديث عن الآبار الهلالية بالمذنب فأقول: قمت في ١٧ رجب عام ١٤٢٥هـ بجولة في تلك المواقع التي يرى المعمّرون من أهالي المذنب أنها كانت مساكن الهلاليين منذ قرون خلت وكان يرافقني في الجولة الشيخ (محمد صالح الشبل) أحد المعمّرين الذين تجاوزت أعمارهم المئة عام -رحمه الله- والشيخ (عبدالله بن إبراهيم الفوزان) صاحب متحف تراث خاص بالمذنب، وله مشاركات يعرض ما

لديه من تراث في مهرجان الجنادرية منذ سنوات عديدة وعنده إلمام جيّد بآثار الهلاليين والباهليين آل عامر والفضول وغيرهم ممن سكن واستوطن المذنب منذ قرون، وفي جولتنا مررنا على آبار روضة السفالة وهي روضة مشهورة جدًّا في الماضي حتى وصلنا (الجِرِيَّه) وهي منزلة مندثرة لقوم سكنوها منذ قرون ولم يبق من آثارهم إلا بعض أساسات بيوتهم ومقبرة بجانبها وتتناثر في المكان قطع الفخار والزجاج الملوّن التقطت بعضًا منها، وكان مرافقاي يذكران أسماء الآبار التي مررنا بها، وفي إيابنا واصلنا السير جنوبًا إلى (العَدَان) وهو أرض رملية منبسطة يجري فيها شعيب (نسر) ثم وقفنا في مكان قال الشيخ محمد صالح الشبل -رحمه الله- هنا بئر بَرْزَه الهلالية وقد انطمرت ولم يبق منها أيّ أثر، وقال أنا أعرف المكان جيّدًا فقد كنت أسني فيها منذ أكثر من ٨٥ عامًا مضت، وقد تطابقت معلوماتهما عن آبار بني هلال بالمذنب مع معلومات خالي (سليمان بو عضيب) فقد حدثني عنها قبلهما بزمن.

الآبار الهلالية بالمذنب حسب الترتيب من الجنوب إلى الشمال:

١- بَرْزَه في العَدَان وهي المقصودة في بيت الشِّعر السابق.

٢- آبار في روضة (السفالة) المشهورة وهي: أ- الوزريّة. ب- الفرّوخية. ج- الكليبية. د-سَبّاعِه. هـ- سَرًّا. و- نَفْجِه.

٣- آبار قديمة يظن المعمّرون أنها هلالية أو على الأقل بعضها هلالي، وهي: أ- العيلميّة. ب- السليميّة. ج- العليّانيّة. د- الجاديّة. هـ- الحتاتيّة.

و- الرميحيّة. ز- العميشيّة. ح- المشعبيّة. وهذه الآثار القديمة قريبة من الديرة القديمة.

٤- آبار في روضة (السفالة) يظن المعمّرون أنها هلالية أو على الأقل بعضها هلالي، وهي: أ- الهرَّاره. ب- أمّ الجماجم. ج- غصيبه. د- البديِّع. هـ- الفريريخه. و- قليِّب محمد. ز- البحيره. ح- الحفيره. ط- المكيظم.

٥- آبار في روضة (الروضة) وهي: أ- جعيله. ب- أمّ قرون. ج- العتيقيّه. د- مُرهش. هـ- قاع غيام. و- الجريّه. ح- مباركه.

٦- آبار في روضة العُمَر وهي: أ- الوسيطى. ب- قِليّب حسين.

٧- قليب البدِيع وقد دُفِنَتْ وبُني عليها مجمع مدارس بنات، وتقع في ناحية منه. انتهى.

وفي الختام أرجو أن أكون قد وُفِّقت في تقديم معلومات تراثية عن (آبار المذنب) تفيد الباحثين ويتمّ من خلالها تعريف الجيل الحاضر والأجيال القادمة بتاريخ المذنب وماضيه العريق.

مدينتا الجزيرة العربية المقدستان، تأليف: إلدون رُوتَّر، ترجمة: عبدالله ابن محمد نصيف، مركز تاريخ مكة المكرمة، مكة المكرمة، ١٤٣٣هـ، مجلدان، ٦٨٧ صفحة.

يمثّل هذا الكتاب وصفًا لمشاهدات الرحالة الإنجليزي إلدون رُوتَّر Eldon Rutter الذي زار بلاد الحجاز سنة ١٣٤٣هـ (١٩٢٥-١٩٢٦م) وأقام بها أكثر من سنة، وشهد موسم حج هذه السنة بصفته حاجًّا مسلمًا وقد سجّل مشاهداته وملاحظاته في مجلدين، الأول خصّصه لوصف مشاهداته منذ انطلاقه في سفره من السويس ثم إبحاره من بور توفيق حتى مغادرته مكة المكرمة. وبسبب الحرب القائمة بالحجاز بين الملك عبدالعزيز والشريف علي بن الحسين فإنّ السفن لا تبحر من مصر إلى الموانئ الحجازية، ومن ثم كان إبحار السفينة التي استقلّها إلى ميناء مصوع الإرِتيري. وبعد إقامة قصيرة أبحر إلى ميناء القَحْمة بساحل تهامة، التابع لمنطقة عسير، ثم سلك الطريق البرِّي مارًّا بالبِرْك فالقُنفذة فاللِّيث إلى مكة. كان قدومه إلى الحجاز في هذا الوقت يمثّل مخاطرة كبيرة، فالحرب قائمة بين الملك عبدالعزيز والشريف حسين بن علي ومن بعد ابنه الشريف علي بن الحسين، واستطاع الملك عبدالعزيز التغلب على قواتهم فدخل الطائف أولاً ثم مكة المكرمة بعد ذلك. والملك عبدالعزيز مقيم الآن في مكة وحضر إلدون رُوتَّر استقبال الملك عبدالعزيز لأهل مكة في قصر

السقاف وسلّم عليه وخصّه باهتمام خاص، كما تيسّر له مشاهدة بيعة أهل مكة للملك عبدالعزيز عند الحرم. وتعسكر قوات الملك عبدالعزيز في ذلك الوقت بالرَّغامة وتحاصر الشريف علي بن الحسين وقواته في جدة.

كان إلدون رُوتَّر يجيد اللغة العربية إجادة تامّة، كما أنه ثقّف نفسه تثقيفًا عاليًا بعلوم الدين الإسلامي وتظاهر بأنه مسلم واسمه أحمد، وأحمد صلاح الدين، وأنه مواطن سوري. يملك روتر أسلوبًا سلسًا شيّقًا يأسر قارئ كتابه بحيث إنه لا يرغب في التوقف عن قراءته. وصف الرحّالة رُوتَّر الناس والأماكن وصفًا دقيقًا وممتعًا من بداية رحلته، وبما أنّ تركيزه كان على المدينتين المقدستين فوصف في مكة البيت الحرام بدءًا من الكعبة المشرّفة من داخلها وخارجها وكل الأماكن الشريفة في الحرم تاريخها وواقعها وما يفعله الناس فيها، والمزارات في مكة والمشاعر في منى وعرفة، وخصّ المجتمع المكي بوصف جيّد، ونجح بالنفاذ إلى عمق المجتمع المكي فاختلط بالناس وأحبّهم وتعرّف على عاداتهم من خلال المعايشة، فكان من أكثر الرحّالين إيجابية في وصف المكيين وكان يكنّ لهم احترامًا وتفهّمًا كبيرين بخلاف الرحالين الآخرين الذي كثيرًا ما يصفون المكيين بأوصاف سلبية، والسبب في ذلك أنّ تعاملهم يكاد يكون مقصورًا على المطوّفين في موسم الحج الذين يحاولون الاستفادة من زبائنهم الحجّاج بقدر ما يستطيعون، فليس لديهم وسيلة رزق أخرى طوال السنة سوى أيام الموسم. وصف الإخوان الذين دخلوا مكة للتوّ قبل ومع وبعد الملك عبدالعزيز وممارساتهم ومشاعر الناس نحوهم.

وصف رُوتَّر شخص الملك عبدالعزيز بالتفصيل (سنة ١٩٢٥م)، وكان عمره إذاك ٤٥ سنة، وختم بوصف استقباله للناس: "إنّ أسد المعارك الصحراوية الكثيرة هذا، والسيد الحاكم لأكثر من نصف الجزيرة العربية ينهض ليستقبل زواره سواء أكان الزائر أميرًا أو درويشًا...". ويقول: " إنّ عبدالعزيز نفسه ليس متعصبًا دينيًّا ، ولكنه رجل دولة طموح... إنّ طموحه الشخصي لا حد له، لكنه ملطف بحكمة وحذر عظيمين. إنه خصم لا يلين ما دامت هنالك معارضة، ولكنه في ساعة النصر أحد أكثر العرب إنسانية في التاريخ". وختم وصفه له بالقول: "لعل ابن سعود أفضل حاكم عرفته الجزيرة العربية في حدودها المعروفة، فإن ظل متّزنًا على الرغم من النجاح فإنه سينفعها كثيرًا".

استضافه ذات مرة سادن الكعبة السيد الشيبي في منزله وأكرمه، ولم يصدقه أنه يحسن التكلم والكتابة بالإنجليزية، وعقد علاقة طيبة مع عبدالله الدملوجي، مستشار الملك عبدالعزيز للشئون الخارجية، كما زار الزعيم ورئيس الطائفة السنوسية أحمد السنوسي، الذي وصل إلى مكة قبل وصول رُوتَّر بقليل، في منزله في جبل أبي قبيس ووجده يدرّس أتباعه الحديث النبوي ووصفه وصفًا دقيقًا. وذكر أنّ أتباع الطريقة السنوسية بصفة رئيسة في شمال أفريقيا وفي مصر وغرب الجزيرة العربية. كما زار قرية الحسينية بدعوة من ملاكها الأشراف.

وفي المجلد الثاني سجّل الرحالة زيارته للطائف، فبعد إقامة ستة أشهر في مكة سافر إلى الطائف ووصف كل من وما شاهده في الطريق، وعند

دخوله الطائف وصف قصور الأشراف الخربة والعامرة التي رآها في طريقه ووصف مدينة الطائف أحياءها وحاراتها ونشاطات السكان والمساجد والدكاكين والحمامات وغيرها ثم عاد إلى مكة.

وخصص فصلاً للحديث عن آداب المكيين وعاداتهم، وفصلاً آخر عن النساء والجواري، ثم وصف الطريق من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة، ولم تنل المدينة المنورة من اهتمامه الشيء الكثير، فوصف الحرم المدني والمزارات قرب المدينة، وختم رحلته بوصف الطريق من المدينة إلى ينبع.

الكتاب ممتع حقًّا، وفيه معلومات قيّمة، ومن حسن الحظ أنّ المترجم الفاضل خدم الكتاب خدمة جُلَّى من حيث سلاسة لغته وأسلوبه بحيث إنك لا تشعر أنه كتاب مترجم، كما زوّده بتعليقات قيّمة إمّا لتصويب بعض المعلومات المغلوطة أو لتجلية بعض الغموض، أو لتدارك بعض تعميمات المؤلف أو مبالغته، فله كل التقدير والثناء.

ع. ص. هـ.

تنويه:

أشيرَ إلى اسم كاتب مادة "مكتبة العرب" في العدد الماضي: رمضان وشوال ١٤٣٥هـ/يولية-أغسطس٢٠١٤م بالرمز(م.ع)، جريًا على عادة المجلة بالرمز بالأحرف الأولى من أسماء أعضاء هيئة التحرير الذين يتناوبون الكتابة في هذا الباب، ونودّ أن نشير إلى أنّ كاتب تلك المادة هو الأستاذ مصطفى عبدالله الكاتب المعروف ورئيس تحرير مجلة "أخبار الأدب" المصرية سابقًا. فالشكر والاعتذار له.

إهداءات إلى مجلة العرب

أولاً- الكتب:

- دراسات ومقالات عن معالي الشيخ محمد بن ناصر العبودي، جمع وإعداد د. محمد ابن عبدالله بن إبراهيم المشوح، ط١، ١٤٣٤هـ/٢٠١٣م، دار الثلوثية للنشر والتوزيع.
- رؤى في تأهيل معلم القرن الجديد، عبدالرحمن بن صالح المشيقح، ط١، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠٢م.
- حياتنا.. وقوة التحول، عبدالرحمن بن صالح المشيقح، ط١، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م.
- المفاهيم ودلالاتها: أزمة ومعاناة، عبدالرحمن بن صالح المشيقح، ط١، ١٤٢٤هـ.
- اليابان وزمام الريادة الدولية، عبدالرحمن بن صالح المشيقح، ط١، ١٤٢٢هـ/٢٠٠٢م.
- التعليم في الوطن العربي: رؤية حول الواقع والمأمول، عبدالرحمن بن صالح المشيقح، ط٢، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م.
- إطلالة على دراسات المستقبل: العرب والمستقبل، عبدالرحمن بن صالح المشيقح، ط١، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م، مكتبة العبيكان.
- التفوق الياباني وملامح التجربة العربي، عبدالرحمن بن صالح المشيقح، ط٢، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م، مكتبة العبيكان.
- صورة المدرسة في المستقبل، عبدالرحمن بن صالح المشيقح، ط١، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م، شركة الرياض للنشر والتوزيع.
- أماكن قديمة العمارة في منطقة القصيم، محمد بن ناصر العبودي، ط١، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م.
- حِكَم العوامّ، محمد بن ناصر العبودي، ط١، ١٤٢١هـ.
- في غرب البرازيل، محمد بن ناصر العبودي، ط١، ١٤١٢هـ/١٩٩١م.
- على قمم جبال الإنديز (رحلة إلى بيرو والإيكوادور)، محمد بن ناصر العبودي، ط١، ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م.
- من روسيا البيضاء إلى روسيا الحمراء- مشاهدات وأحاديث عن المسلمين، محمد بن ناصر العبودي، ط١، ١٤٢٤هـ.

ثانيًا- المجلات:

- الوثيقة، العدد ٥٢، جمادى الثانية ١٤٢٨هـ/يوليو ٢٠٠٧م، السنة ٢٦، رئيس التحرير: الشيخ عبدالله بن خالد آل خليفة.
- الفرقان، العدد ٤٤٩، ١٧ جمادى الآخرة ١٤٢٨هـ/٢ يوليو ٢٠٠٧م، رئيس التحرير: د. بسام خضر الشطي.
- الضاد، العدد ٧، تموز ٢٠٠٧م، السنة ٧٧، رئيس التحرير: عبدالله رياض حلاق.
- الفرقان، العدد ٤٥٠، ٢٤ جمادى الآخرة ١٤٢٨هـ/٩ يوليو ٢٠٠٧م، رئيس التحرير: د. بسام خضر الشطي.
- الفرقان، العدد ٤٥١، ٢ رجب ١٤٢٨هـ/١٦ يوليو ٢٠٠٧م، رئيس التحرير: د. بسام خضر الشطي.
- الفرقان، العدد ٤٥٢، ٩ رجب ١٤٢٨هـ/٢٣ يوليو ٢٠٠٧م، رئيس التحرير: د. بسام خضر الشطي.
- العالمية، العدد ٢٠٦، جمادى الأولى ١٤٢٨هـ/يونيو ٢٠٠٧م، السنة ١٩، رئيس التحرير: يوسف محمد عبدالرحمن.
- الفرقان، العدد ٤٥٣، ١٦ رجب ١٤٢٨هـ/٣٠ يوليو ٢٠٠٧م، رئيس التحرير: د. بسام خضر الشطي.
- الضاد، العدد ٨، آب ٢٠٠٧م، السنة ٧٧، رئيس التحرير: عبدالله رياض حلاق.
- الفرقان، العدد ٤٥٤، ٢٣ ربيع الأول ١٤٢٨هـ/٦ أغسطس ٢٠٠٧م، رئيس التحرير: د. بسام خضر الشطي.
- الفيصل، العدد ٣٦٧، محرم ١٤٢٨هـ/يناير-فبراير ٢٠٠٧م، رئيس التحرير: يحيى محمود بن جنيد.
- الفرقان، العدد ٤٥٥، ٣٠ ربيع الآخر ١٤٢٨هـ/١٣ أغسطس ٢٠٠٧م، رئيس التحرير: د. بسام خضر الشطي.
- العالمية، العدد ٢٠٨، رجب ١٤٢٨هـ/أغسطس ٢٠٠٧م، السنة ١٩، رئيس التحرير: يوسف محمد عبدالرحمن.

- تجارة الرياض، العدد ٥٣٩، رجب ١٤٢٨هـ/أغسطس ٢٠٠٧م، رئيس التحرير: د. عبدالعزيز بن علي المقوشي.
- الخفجي، العدد ٨، رجب ١٤٢٨هـ/أغسطس ٢٠٠٧م، السنة ٣٧، رئيس التحرير: سليمان بن ناصر الرشيدي.
- الفيصل، العددان ٣٧٣-٣٧٤، رجب-شعبان ١٤٢٨هـ/يوليو-سبتمبر ٢٠٠٧م، رئيس التحرير: يحيى محمود بن جنيد.
- الفرقان، العدد ٤٥٦، ٧ شعبان ١٤٢٨هـ/٢٠ أغسطس ٢٠٠٧م، رئيس التحرير: د. بسام الشطي.
- تراثنا، العدد ٣٥، رجب-شعبان ١٤٢٨هـ/يوليو-أغسطس ٢٠٠٧م، رئيس التحرير: محمد بن إبراهيم الشيباني.
- المعرفة، العدد ١٤٨، رجب ١٤٢٨هـ/يولية ٢٠٠٧م، رئيس التحرير: د. عبدالعزيز بن جارالله الجارالله.
- العالمية، العدد ٢٠٩، شعبان ١٤٢٨هـ/سبتمبر ٢٠٠٧م، السنة ١٩، رئيس التحرير: يوسف محمد عبدالرحمن.
- الفرقان، العدد ٤٥٧، ١٤ شعبان ١٤٢٨هـ/٢٧ أغسطس ٢٠٠٧م، رئيس التحرير: د. بسام الشطي.
- الواحة، العدد ٤٦، الربع الثالث ٢٠٠٧م، السنة ١٣، رئيس التحرير: محمد النمر.
- الفرقان، العدد ٤٥٨، ٢١ شعبان ١٤٢٨هـ/٣ سبتمبر ٢٠٠٧م، رئيس التحرير: د. بسام الشطي.
- الفرقان، العدد ٤٥٩، ٢٨ شعبان ١٤٢٨هـ/١٠سبتمبر ٢٠٠٧م، رئيس التحرير: د. بسام الشطي.
- الفرقان، العدد ٤٦٠، ٥ رمضان ١٤٢٨هـ/١٧ سبتمبر ٢٠٠٧م، رئيس التحرير: د. بسام الشطي.
- الفرقان، العدد ٤٦١، ١٢ رمضان ١٤٢٨هـ/٢٤ سبتمبر ٢٠٠٧م، رئيس التحرير: د. بسام الشطي.

- تطوير، العدد ٤٨، ١٤٢٨هـ/٢٠٠٧م.
- الفرقان، العدد ٤٦٢، ١٩ رمضان ١٤٢٨هـ/١ أكتوبر ٢٠٠٧م، رئيس التحرير: د. بسام الشطي.
- البحرين الثقافية، العدد ٤٩، يوليو ٢٠٠٧م، رئيس التحرير: مي بنت محمد آل خليفة.
- الضاد، العدد ١١، تشرين الثاني ٢٠٠٧م، السنة ٧٧، رئيس التحرير: عبدالله رياض حلاق.
- المعرفة، العدد ١٤٩، شعبان ١٤٢٨هـ/أغسطس ٢٠٠٧م، رئيس التحرير: د. عبدالعزيز بن جارالله الجارالله.
- الفرقان، العدد ٤٦٣، ٢٦ رمضان ١٤٢٨هـ/٨ أكتوبر ٢٠٠٧م، رئيس التحرير: د. بسام الشطي.
- الفرقان، العدد ٤٦٤، ١٨ شوال ١٤٢٨هـ/٢٩ أكتوبر ٢٠٠٧م، رئيس التحرير: د. بسام الشطي.
- الفرقان، العدد ٤٦٥، ٢٥ شوال ١٤٢٨هـ/٥ نوفمبر ٢٠٠٧م، رئيس التحرير: د. بسام الشطي.
- الفرقان، العدد ٤٦٦، ٢ ذوالقعدة ١٤٢٨هـ/١٢ نوفمبر ٢٠٠٧م، رئيس التحرير: د. بسام الشطي.
- الفرقان، العدد ٤٦٧، ٩ ذوالقعدة ١٤٢٨هـ/١٩ نوفمبر ٢٠٠٧م، رئيس التحرير: د. بسام الشطي.
- الضاد، العدد ١٢، كانون الأول ٢٠٠٧م، السنة ٧٧، رئيس التحرير: عبدالله رياض حلاق.
- العيادة، العدد ٣١، جمادى الأولى ١٤٢٨هـ، رئيس التحرير: اللواء محمد بن عبدالعزيز الموسى.
- الفرقان، العدد ٤٦٨، ١٦ ذوالقعدة ١٤٢٨هـ/٢٦ نوفمبر ٢٠٠٧م، رئيس التحرير: د. بسام الشطي.
- البحرين الثقافية، العدد ٥٠، أكتوبر ٢٠٠٧م، رئيس التحرير: مي بنت محمد آل خليفة.
- تطوير، العدد ٤٩، ١٤٢٨هـ/٢٠٠٧م.

- الفرقان، العدد ٤٦٩، ٢٣ ذوالقعدة ١٤٢٨هـ/٣ ديسمبر ٢٠٠٧م، رئيس التحرير: د. بسام الشطي.
- العالمية، العدد ٢١٠، رمضان ١٤٢٨هـ/أكتوبر ٢٠٠٧م، السنة ١٩، رئيس التحرير: يوسف محمد عبدالرحمن.
- الخفجي، العدد ١٠، رمضان ١٤٢٨هـ/أكتوبر ٢٠٠٧م، السنة ٣٧، رئيس التحرير: سليمان بن ناصر الرشيدي.
- الأمن، العدد ٦٦، رمضان ١٤٢٨هـ/سبتمبر ٢٠٠٧م، رئيس التحرير: د. عبدالله بن ناصر الحمود.
- تجارة الرياض، العدد ٥٤١، رمضان ١٤٢٨هـ/أكتوبر ٢٠٠٧م، رئيس التحرير: د. عبدالعزيز ابن علي المقوشي.
- المعرفة، العدد ١٥١، شوال ١٤٢٨هـ/أكتوبر ٢٠٠٧م، رئيس التحرير: د. عبدالعزيز بن جارالله الجارالله.
- الفرقان، العدد ٤٧٠، ٣٠ ذوالقعدة ١٤٢٨هـ/١٠ ديسمبر ٢٠٠٧م، رئيس التحرير: د. بسام الشطي.
- البحرين الثقافية، العدد ٥٢، أبريل ٢٠٠٨م، رئيس التحرير: مي بنت محمد آل خليفة.
- تجارة الرياض، العدد ٥٤٣، ذوالقعدة ١٤٢٨هـ/ديسمبر ٢٠٠٧م، رئيس التحرير: د. عبدالعزيز بن علي المقوشي.
- العالمية، العدد ٢١٢، ذوالقعدة ١٤٢٨هـ/ديسمبر ٢٠٠٧م، السنة ١٩، رئيس التحرير: يوسف محمد عبدالرحمن.
- تجارة الرياض، العدد ٥٤٤، ذوالحجة ١٤٢٨هـ/يناير ٢٠٠٨م، رئيس التحرير: د. عبدالعزيز ابن علي المقوشي.
- الفرقان، العدد ٤٧٢، ٢١ ذوالحجة ١٤٢٨هـ/٣١ ديسمبر ٢٠٠٧م، رئيس التحرير: د. بسام الشطي.
- الخفجي، العدد ١١، شوال ١٤٢٨هـ/نوفمبر ٢٠٠٧م، السنة ٣٧، رئيس التحرير: سليمان ابن ناصر الرشيدي.

- الأمن، العدد ٦٧ ، ذوالحجة ١٤٢٨هـ/ديسمبر ٢٠٠٧م، رئيس التحرير: د. عبدالله بن ناصر الحمود.
- تراثنا، العدد ٣٦، ذوالحجة ١٤٢٨-محرم ١٤٢٩هـ/يناير-فبراير ٢٠٠٨م، رئيس التحرير: محمد بن إبراهيم الشيباني.
- الفرقان، العدد ٤٧٣ ، ٢٨ ذوالحجة ١٤٢٨هـ/٧ يناير ٢٠٠٨م، رئيس التحرير: د. بسام الشطي.
- الفرقان، العدد ٤٧٤ ، ٥ محرم ١٤٢٩هـ/١٤ يناير ٢٠٠٨م، رئيس التحرير: د. بسام الشطي.
- الخفجي، العدد ٢ ، محرم ١٤٢٩هـ/فبراير ٢٠٠٨م، السنة ٣٨، رئيس التحرير: نبيل عبدالله العلولا.
- المجلة العربية، العدد ٣٧٩، شوال ١٤٢٩هـ/أغسطس ٢٠٠٨م، السنة ٣٣، رئيس التحرير: د. عثمان بن محمود الصيني.
- الفرقان، العدد ٤٧٥ ، ١٢ محرم ١٤٢٩هـ/٢١ يناير ٢٠٠٨م، رئيس التحرير: د. بسام الشطي.
- تجارة الرياض، العدد ٥٤٥ ، محرم ١٤٢٩هـ/فبراير ٢٠٠٨م، رئيس التحرير: د. عبدالعزيز ابن علي المقوشي.
- تراثنا، العدد ٣٧، جمادى الآخرة-رجب ١٤٢٩هـ/يونيو-يوليو ٢٠٠٨م، رئيس التحرير: محمد بن إبراهيم الشيباني.
- تطوير، العدد ٥١ ، ١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م.
- الفرقان، العدد ٤٧٦ ، ١٩ محرم ١٤٢٩هـ/٢٨ يناير ٢٠٠٨م، رئيس التحرير: د. بسام الشطي.
- تطوير، العدد ٥١ ، ١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م.
- الفرقان، العدد ٤٧٦ ، ١٩ محرم ١٤٢٩هـ/٢٨ يناير ٢٠٠٨م، رئيس التحرير: د. بسام الشطي.
- الضاد، العدد ١ ، كانون الثاني ٢٠٠٨م، السنة ٧٨، رئيس التحرير: عبدالله رياض حلاق.
- الفرقان، العدد ٤٧٧ ، ٢٦ محرم ١٤٢٩هـ/٤ فبراير ٢٠٠٨م، رئيس التحرير: د. بسام الشطي.
- الفيصل، العدد ٣٧٩، المحرم ١٤٢٩هـ/فبراير ٢٠٠٨م، السنة ٣٢، رئيس التحرير: يحيى محمود بن جنيد.
- الضاد، العدد ٢ ، شباط ٢٠٠٨م، السنة ٧٨، رئيس التحرير: عبدالله رياض حلاق.

القاضي ابن قُرَيْعة والمأثور من أدبه

(٣٠٢-٣٦٧هـ)

بقلم: د. عبدالله بن سليم الرشيد*

يصطبغ بعض أدب المغمورين صبغاتٍ طريفة تخرج عن المعهود، إذْ إنها تخاتلُ ثقافة القارئ وما قرّ في ذهنه عن السمات العامة للأدب العربي فيكون انبساطُه إلى قراءته أكبر، والوَلوعُ به أشدّ، فيتحدّرُ إلى تقصّي أشباهه ونظائره. وهذا ما وقع لكثير ممن لفتهم هذا الأدب من قدماء المدوّنين ومعاصري الدارسين.

وإلى ذلك يقدّم بعض هذا الأدب صورًا كاشفة لواقع الأدب ومنشئيه في أزمان عدّة، ويُنير عتماتٍ تنزوي فيها فرائد وخرائد؛ وكل ذلك يصيِّر العناية به حقًّا واجبًا وأمرًا لازبًا؛ ولهذا ما صرفتُ همّتي إلى فلْيِ كثير من نتاج المغمورين وتأمّله وروزِه، واستنطاق خافيه. أتنزّى حولَه تنزّيَ ظبية، وقد أعسِل عَسَلانَ سِرحان، ولعلي أصلُ إلى بعض حاجي، وحاجةُ المولع بالأدب لا تنقضي.

وممن وقفت على أدبه وظرفه قاضٍ يُدعى ابنَ قُرَيْعة، تناثرت في كتب التراث بعض أخباره وقطعٌ من أدبه النثري بخاصّة. وقد رأيت أن أخصه

بهذه المقالة البحثية معرِّفًا به، معلّقًا على خطبته الطعاميّة، مثبتًا بعض ما وقفت عليه من تراثه، مضمرًا العودَ إلى كتابه في الردّ على (التعزية بثور) بتحليل مفرد.

نبذة من حياة ابن قُريعة:

هو أبو بكر محمد بن عبدالرحمن البغدادي المشهور بابن قُرَيْعة بالقاف كما ضبطه ابن ماكولا وابن خلكان[1]، وقُرَيْعة لقب جدّه. قاضٍ من أهل بغداد، تولى قضاء السِّنْدِية وغيرها[2]، ولاه إياها أبو السائب عتبة بن عبيدالله القاضي[3]، وتولى الحسبة أيضًا ببغداد[4]. وكان ملازمًا للوزير أبي محمد المهلبي، ومشاركًا له في مجالس اللهو، فكان يغري به الرؤساء فيباسطونه، وكان في جملة القضاة والفقهاء الذين يجتمعون عنده في الأسبوع ليلتين على اطّراح الحشمة والتبسّط في القصف والخلاعة، قال ابن خلكان: وما منهم إلا أبيض اللحية طويلها. ثم نقل وصفًا لما يقع في مجالسهم تلك، من تهتّك وسماعٍ وغمسٍ للّحى في الشراب، ورشّ بعضهم بعضًا بها، ورقصٍ وخفّة وطيش[5]، وكل ذلك بأسلوب أدبي يوحي بتدخّل الخيال في نقل ما كان يقع في تلك المجالس، وإن كانت غير منتفية الحدوث عقلاً.

ونادم عزَّ الدولة بن بويه، فكان لا يفارقه[6]، وهو الذي خطب خطبة العَقد للخليفة الطائع على ابنة معزِّ الدولة[7]، وهذا يكشف بعض ما وصل إليه من الحظوة.

قال ابن حمدون: كان ابن قُريعة من أهل الأدب والفضل والعلم، حلو المداعبة، وله نوادر مدوّنة[٨]. وقال: "وله نوادر كثيرة حقيقية أدبية هزْلية"[٩]. ونقل ابن خلكان أنّ مسائله وأجوبته دُوّنت في كتاب مشهور بأيدي الناس، وأنّ رؤساء ذلك العصر وفضلاءه يداعبونه ويكتبون إليه المسائل الغريبة المضحكة، فيكتب الجواب من غير توقّف ولا تلبّث مطابقًا لما سألوه عنه[١٠]؛ وقال عنه: "كان من إحدى عجائب الدنيا في سرعة البديهة عن كل ما يُسأل عنه في أفصح لفظ وأملح سجع"[١١]، ووُصف بأنه مزّاح خفيف الروح، أديب فاضل، ذكيّ[١٢]، وبلغ من استملاح أجوبته أن يغري به المهلبيُّ "جماعة يضعون الأسئلة الهزْلية على معان شتّى من النوادر الطَّنْزية؛ ليجيب عنها بتلك الأجوبة"[١٣].

ويُذكر أنّ سبب اتصاله بالوزير المهلبي ما رآه من دقّته في الحساب؛ لأنه كان قيّم رحى له، فاستدناه وقرّبه[١٤]. وأجزل له في العطاء حتى إنه سأله يومًا: كنت وعدتك أن أغنيَك، فهل استغنيت؟ فقال: قد أغناني جود الوزير وإنعامه، ورفع مجلسي بسطُه وإكرامُه، ولم يبق في قلبي حسرة إلا ضيعة تجاورني لأبي الحسين ابن أبي الطيب العلوي. فما كان من الوزير إلا أن سعى في اشترائها له دون أن يعلم، ثم أعطاه كتاب **ابتياع الضيعة** له، فأخذه القاضي وقرأه وبكى فرحًا، فقال الوزير: القاضي مثل الصبي إن مُنع بكى، وإن أعطي بكى. فقال له: الذي أبكاني فرط السرور، فإني رأيت لنفسي وللوزير ما كنتُ أسمعه لغيري عن أكارم الزمان فأقدّره كذبًا مجموعًا وحديثًا مصنوعًا[١٥].

ويُستدلّ بما ورد في أخباره القليلة على أنّ له في طلب الأدب وأخباره ونوادره باعًا، حتى إنّ شغفه بطلب الأدب الجيّد أوقعه في مكايد بعض الجلساء، كمكيدة أبي إسحاق الصابي (ت٣٨٤هـ) به في مجلس الوزير أبي محمد المهلبي(١٦)، وكان يحرص على مجالسة ذوي الظرف والفكاهة، كما يبين من خبر آخر مع شيخ يُعرف بابن سكران كان يكتب الكتب الظريفة المضحكة(١٧).

وعرف عن ابن قُريعة بديهته في حسن التخلّص، واهتبالُه المعرفة باللغة والأدب في الخروج من مضايق القول، حتى قال عضد الدولة (ت٣٧٢هـ) بعد أن سأله عن بعض المسائل: "القاضي مفتنٌّ، في كل باب أدخلناه أحسن الخروج منه"(١٨).

وهو إلى ذلك يروي النوادر المضحكة، وربما كانت من صناعته، كنادرة رفع صبي افتضّ صبية إلى الوالي، ونادرة الجارية التي تندب مولاها فتغلط، فيضحك الناس عليها(١٩). وهاتان مما يمكن نقلهما، غير أنّ له مرويات لا يقبل الذوق السليم روايتها؛ لما فيها من إسفاف ومجون يتجاوز القدر المقبول(٢٠)، وهي -مع ذلك- تفيد في استجلاء صورة ذلك العصر وسجايا أهله، وما طُبعوا عليه من التبذّل والتماجن المسرف، حتى في أوساط عِلية القوم وسرواتهم.

أخذ ابن قُريعة عن أبي بكر بن الأنباري (ت٣٢٨هـ)(٢١)، وأملى عنه بعض الأخبار(٢٢)، وممن لقيهم: القاضي أبو علي التنوخي (ت٣٨٤هـ)، الذي يروي عنه خبرًا فيه مذاكرة ببعض المنامات(٢٣).

ويبدو أنّ أبا حيّان التوحيدي (ت٤١٤هـ) لقيه وروى بعض نوادره، فقد قال بعد أن روى بضع نوادر: "هذه النوادر رواها لنا ابن قريعة، وكان كثير النوادر، غزير الحفظ، فصيح اللسان على تكلّف مع ذلك"[٢٤]. ثم نقل رأيًا لأحدهم فيه أنّ ابن قريعة ظاهره هزل وباطنه جدّ. وأردف معلّقًا: "أمّا جدّ ابن قريعة في باطنه فما أغناه عن هزله في ظاهره؛ لأنه وقّف المتعرضَ منه المتباعدَ عنه، وصار ناصرُه وعاذرُه لا يجدان في تهوين شأنه إلا تمليحه واستظرافه"[٢٥]. والتوحيدي -كما هو بادٍ- يميل إلى استهجان مذهب ابن قريعة في التبسّط وكثرة المزاح. وهو رأيٌ عُرِف به وإن أودع في بعض كتبه شيئًا من المجون.

وممن لقوا ابن قريعة الصاحب بن عبّاد (ت٣٨٥هـ) الذي حضر مجلس المهلبي، فرأى من ظرف ابن قريعة وسرعة أجوبته ما أعجبه، وكتب إلى ابن العميد (ت٣٦٦هـ) كتابًا يصف فيه مجلس المهلبي، وفيه: "وكان في المجلس شيخ خفيف الروح يعرف بالقاضي ابن قريعة، جاراني في مسائل خِسّتُها تمنع من ذِكرها..."[٢٦]. والخِسّة المرادة هنا هي بعض ما يجده القارئ في النوادر والأخبار التي بثثُها في ساقة هذه المقالة؛ إذْ هي خارجةٌ عن العادة، متفلّتةٌ عن الإلْف، وبعضُها جاء في سياق الجدّ كالفتاوى الفقهية. والعجيب أن يصفها ابن عبّاد بهذا وهو المشتهَر بشِعره الهجائي الماجن! ولكن يبدو أنّ لمقام القول -وهو يخاطب ابنَ العميد- أثرًا في تحفّظه واحتشامه.

ونسب الصفدي (ت٧٦٤هـ) ابنَ قُريعةَ إلى التشيّع[٢٧]، وعندي في ذلك شك، فإنّ الشيعة لا يتكنّون بـ(أبي بكر). وما نُسب إليه من الشِّعر في هذا

الشأن -إن صدقتْ نسبته- يُحمل على أنه قاله مجاملة لمن كان بحضرتهم من أمراء بني بويه. ثم إنّ الذي ولاه القضاء هو قاضي القضاة الشافعي المذهب عتبة بن عبيدالله أبو السائب الهمذاني (ت٣٥٠هـ) الذي وُصف بأنه صحب الأئمة وكتب الحديث وكان ديّنًا فاضلاً[٢٨]. وقد يكون مراد الصفديّ بالتشيّع الميل إلى تعظيم آل البيت دون التمذهب بمذاهب الغلاة الإمامية.

وينسب إلى ابن قُريعة شِعر، غير أنّ ما في بعض المصادر يشير إلى أنه يرويه ولا ينشئه[٢٩]، فمنه قوله بعد أن زحمه رجل راكب حمارًا:

يــا خــالقَ الليــل والنهــارِ   صــبرًا علــى الــذلّ والــصغارِ
كــم مــن جــواد بــلا جــواد   ومــن حمــار علــى حمــار[٣٠]

ولكنّ الخطيب البغدادي (ت٤٦٣هـ) يجعل ابن قُريعة راويًا للخبر، وفيه أنهما لأبي العيناء (٢٨٣هـ)[٣١].

وله قصيدة يُظهر فيها تشيّعه -على ما نقل الصفدي-، منها[٣٢]:

لــــولا اعتــــذارُ رعيّــــة   ألغــــى سياســــتَها الخليفــــهْ
وســــيوفُ أعــــداءٍ بهــــا   هاماتُنــــا أبــــدًا نَقِيفــــهْ
لكــــشفتُ مــــن أســــرارآ   لِ محمــــدٍ جمــــلا ظريفــــهْ

ومن شِعره[٣٣]:

إن كــــان عنــــدي درهــــمٌ   أو كــــان في بــــيتي دقيــــقْ
فبرئــــتُ مــــن أهــــل الكِــــسا   وكفــــرتُ بالبيــــت العتيــــقْ
وظلمــــتُ فاطمــــةَ البتــــو   لَ كمــــا تحيّفهــــا عتيــــقْ

ونُسب إليه البيتان:

لـــي حيلـــة فـــيمن ينـــمّ ولـــيس في الكـــذاب حيلـــهْ
مـــن كـــان يخلـــق مـــا يقـــو ل فحيلـــتي فيـــه قليلـــهْ[٣٤]

وهما من الشِّعر المتنازع النسبة[٣٥]، ورواية الخبر الذي وردا فيه يدلّ على أنه أنشدهما ولم ينشئهما[٣٦]، وهذا يؤكّد ما أومأت إليه سابقًا من كونه راوية للشِّعر.

وكانت وفاته لعشر بقين من جمادى الآخرة سنة سبع وستين وثلاث مئة ببغداد، وعمره خمس وستون سنة[٣٧].

المأثور من نثره:

من أهمّ ما بقي من نثر ابن قُريعة خطبته التي آثرتُ وسمَها بالطعامية، وسوف يستبين لك سبب ذلك، وهي خطبة غريبة المبنى والمنحى، فيها جراءة لغوية وظرف وحسن تأتٍّ إلى الفكَر، وسوف أخصّها ببعض التحليل في ساقة هذه المقالة.

وله كتاب تعزية بثور يكشف ما جُبل عليه من الظرف والميل إلى الإغراب في الإنشاء. أمّا سائر نثره فجاء في نوادرِ مخاطباتٍ ومجاوباتٍ وأقضيةٍ وفتاوى، وكلّ ذلك يُساقُ -بعون الله- منسوقًا بين يدي القارئ:

بعض المأثور من أدب ابن قريعة وأخباره ونوادره

١- فتاواه وأقضيته الطريفة:

- "كان ابن قريعة في مجلس المهلبي فوردت عليه رقعة فيها: ما يقول القاضي -أعزّه الله- في رجل دخل الحمّام وجلس في الأبزن، لعلّة كانت به، فخرجت منه ريح تحوّل بها الماء زيتًا، فخاصمه الحمّاميّ، فادّعى كل

واحد منهما أنه يستحقّ جميع الزيت لحقّه فيه؟ فكتب القاضي في الجواب: قرأت هذه الفتيا الطريفة في هذه القصة السخيفة، وأخلقْ بها أن تكون عبثًا باطلاً، وكذبًا ماحلاً، وإن كان ذلك كذلك فهو من أعاجيب الزمان، وبدائع الحدثان، والجواب -وبالله التوفيق- أنّ (للرجل) نصفَ الزيت بحقّ وَجْعائه، وللحمّاميّ نصف الزيت بقسط مائه، وعليهما أن يصدُقا المبتاع عن خبث أصله وقبح فصله، حتى يستعمله في مَسْرجته، ولا يدخله في أغذيته"(٣٨).

- كتب له بعضهم: "ما يقول القاضي في يهودي زنى بنصرانية، فولدت ابنًا جسمه للبشر، ووجهه للبقر؟ فأجاب: هذا من أعدل الشهود على الخبثاء اليهود، أُشرِبوا العجلَ في صدورهم حتى خرج من أيورهم، فليُنَطْ برأس اليهودي رأسُ العجل، ويصلبْ على عنق النصرانية الرأسُ والرجل، ويُسحبا على الأرض، ويُنادى عليهما: ظلماتٌ بعضها فوق بعض"(٣٩).

- رفع يهوديّ أكّار اسمه شعيب إلى ابن قريعة رقعة فيها ظُلامة قد أثّر الحبر فيها فلم يَبِنْ منها ما يُفهِم القاضيَ الشكوى -وكان مع اليهودي جماعة من الأكَرة- فقال لكاتبه: وقّع عليها: ﴿قَالُواْ يَـٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَـٰكَ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾ [سورة هود، الآية ٩١](٤٠).

- قيل له: ما يقول القاضي "في رجل باع حِجْرًا من رجل، فحين رفع ذنبها ليقلبه خرجت منها ريح مصوِّتة اتصلت بحصاة ففقأت عين المشتري؟

أفتِنا في الدية والردِّ يرحمْك الله. فأجاب: لم تجر العادة بمثل هذه البدائع، بين مشترٍ وبائع، فلذلك لم يثبت في كتب الفقهاء، ولم يستعمل في فتوى العلماء، لكن هذا وما شاكله يجري مجرى الفضول، المستخرج من أحكام العقول، والقول فيه -وبالله العصمة من الزلل والخطل- أنّ دية ما جنته الحِجْر ملغى في الهدْر، عملاً بقول النبي المختار، صلى الله عليه وعلى آله الأطهار "جُرح العَجْماء جُبار"، لا سيما والمشتري عند كشفه لعورتها، استثار كامن سَورتها، وعلى البائع لها ارتجاعها، وردّ ما قبض من ثمنها، لأنه دَلّس حِجْرًا مضيقها مِنجَنيقها. وإذا كانت السهام طائشة، فهي من العيوب الفاحشة، وكيف يمتنع ردّها وأغراضها نواظر الحَدَق؟ وقلّما يستظهر المقلِّبون الخيلَ بالدّرَق"(٤١).

- كتب إليه بعضهم -على سبيل الامتحان-: "ما يقول القاضي -أيّده الله تعالى- في رجُلٍ سمَّى ولده مدامًا، وكنّاه أبا الندامى، وسمَّى ابنته الراح، وكنّاها أمَّ الأفراح، وسمَّى عبده الشراب، وكنّاه أبا الأطراب، وسمَّى وليدته القهوة، وكنّاها أمَّ النشوة، أيُنهَى عن بطالته؟ أم يُؤَدَّب على خلاعته؟ فكتب ابن قريعة في جوابه: "لو نُعِت هذا لأبي حنيفة، لأقعده خليفة، وعقد له راية، وقاتل من تحتها من خالف رأيه، ولو علمنا مكانه؛ لقبّلنا أركانه. فإن أتبع هذه الأسماء أفعالاً، وهذه الكنى استعمالاً، علمنا أنه أحيا دولة المجون، وأقام لواء ابنة الزَّرَجُون، فبايعناه وشايعناه. وإن تكن أسماءً سمّاها ما له بها من سلطان، خلعنا طاعته، وفرّقنا جماعته، فنحن إلى إمام فعّال، أحوج منا إلى إمام قوّال"(٤٢).

٢- أجوبته وأسجاعه:

- جرى بين ابن قريعة وبين بعض القواد كلام في مجلس الحسن بن بويه، وكان ابن قريعة يقول مرة: يا إبراهيم، ومرة: يا أبا إسحاق، فغضب القائد من ذلك وقال: لم لا تقول كِياء؟ فقال: "إنما نُكَنِّي إذا أنصفتَنا، فأمّا إذا ظلمتَنا سحقناك وبرهمناك"(٤٣). وتُروى هذه النادرة هكذا: "كان ببغداد قائد يلقّب بإلِكْيا، كنيته أبو إسحاق، وكان يخاطب ابن قُريعة بالقاضي، فبدر منه يومًا في المخاطبة أن قال لابن قريعة: يا أبا بكر، فقال ابن قريعة: لبّيك يا أبا إسحاق، فقال القائد: ما هذا؟ قال: يا هذا، إنما نُكَوْكِيكَ إذا قضّيتَنا، فإذا بكّرتَنا تسَحّقناك، فقال القائد: واويلاه، هذا أفظع من الأول"(٤٤).

- سأل الزبيري ابن قريعة في مجلس المهلبي عن النرد، فقال: "ما أدري غير أني أرى لِبْدًا مخططًا، وخشبًا مخرّطًا، وعظمًا منقّطًا، وأيدي تضرب ميطًا، وكلٌّ يطلب بصاحبه شططًا"(٤٥).

- سأله عضد الدولة عن أولاده -وكانوا مع بختيار (ت٣٦٧هـ)- فقال: هم بني عقَقَة، وعن أمري مرَقَة، وهم بذلك فسَقَة"(٤٦).

- "كان يحب الفالَوْذَج السَّرَطْراط ويقول: (أريدها مستغيثة من الغرق، في ماء الورد الغَرِق)، ويسمّي القطائف لفائفَ النعيم، وطعامَ الصابرين، ويسمّي اللّوزينج مُغَرغِرَ الحلقوم"(٤٧).

- قال الصاحب ابن عبّاد: "استظرفتُ من كلامه -يعني ابن قُريعة- وقد سأله كهل يتطايب بحضرة الوزير أبي محمد عن حدّ القفا، فقال: "ما اشتمل عليه

جُرُبّانُك، ومازحك فيه إخوانك، وأدّبك فيه سلطانك، وباسطك فيه غلمانك، فهذه حدود أربعة"(٤٨). ورُويت هذه النادرة هكذا: سأله أبو الحسن الزهراني: ما حدود القفا؟ فقال: "ما داعبك فيه إخوانك، وشرطك فيه حجّامك، وأدّبك فيه سلطانك، واشتمل عليه جُرُبّانُك. فقال له: وما حدّ الصفع؟ قال: الرفع والوضع، للضُرّ والنفع"(٤٩).

- وسأله أبو الحسن الزهراني: ما حدود القفا؟ فقال: "إنّ لله صنعة منها معيشتك، وفيها مادّتك. تجهلها؟!"(٥٠).

- كان يقول للرجل من أصحابه إذا تماشيا: "إذا تقدمتُ بين يديك فإني حاجب، وإن تأخرتُ فواجب"(٥١)، ويُروى أنه قالها لابن معروف القاضي: "إن تقدمتُ فحاجب، وإن تأخرتُ فواجب"(٥٢).

- رفع ابن قريعة إلى الوزير المهلبي حسابًا فيه درهمان ودانقان وحبتان، فدعاه وأنكر عليه الإعراب في الحساب، فقال: أيها الوزير، صار لي طبعًا، فلست أستطيع له دفعًا. فقال: أنا أزيله عنك صفعًا(٥٣).

- دخل يومًا إلى عز الدولة وبين يديه طبق فيه موز، فأعرض عن استدعائه، فقال: ما بال مولانا لا يدعوني إلى الفوز بأكل الموز؟ فقال: صفه حتى أطعمك منه، فقال: ما أصف من جُرُب ديباجية، فيها سبائك ذهبية، كأنما حشيت زُبْدًا وعسلا، وخَبِيصًا مُرْمَلا، أطيب الثمر، كأنه مخّ الشجر، سهل المَقْشَر، لَيِّن المَكْسَر، عذب المطعم بين الطعوم، يتسلسل في الحلقوم. ثم مدّ يده فأخذ وأكل(٥٤).

- جرى في مجلس عضد الدولة ذكر عامل يُدعى (ابن النفّاط) فعجب من لقبه، فقال ابن قريعة: أطال الله بقاء مولانا، لقب تعريف. فقال عضد الدولة: يا قاضي، ما معنى لقب تعريف؟ فقال: "الألقاب -أدام الله نعمة مولانا- ثلاثة: لقب تعريف، ولقب تشريف، ولقب تسخيف؛ فأمّا لقب التشريف فعضد الدولة، وتاج الملة، ومعزّ الأمّة، وما أشبه ذلك، وأمّا لقب التعريف فابن النفّاط، وابن الخياط، وابن الخرّاط، وما أشبه ذلك، وأما لقب التسخيف فابن قطقط، وابن زرقط، وما أشبه ذلك"(٥٥).

- "كان في دار المهلّبيّ وقد نزع دِنِّيَّتَه(٥٦)، وتركها إلى جنبه، فجاء أبو إسحاق الصابي وجلس إلى جانبه وأخذ المروحة ليتروّح، وضرب الدِّنِّيَّة بالمروحة دفعات كأنه ينفضها من التراب، والقاضي في الصلاة، فخفّف ثم قال له: يا أبا إسحاق، أما إنها لو كانت في مقرّ عزّها لعزّ عليك ما هان من أمرها. ثم عاد إلى صلاته"(٥٧).

٣- من رسائله:

- جواب عن كتاب تعزية بثور:

كتب أبو إسحاق الصابي إلى القاضي ابن قريعة عن الوزير أبي طاهر ابن بقية يعزّيه عن ثور له(٥٨)، فكان جواب القاضي: "وصل توقيع سيدنا الوزير بالتعزية عن اللأَى(٥٩) الذي كان للحرث مثيرًا، وللدولاب مديرًا، وبالسبق إلى كثير من المنافع شهيرًا، وعلى شدائد الزمان مساعدًا وظهيرًا، ولعمري لقد كان بعمله ناهضًا، ولحماقات البقر رافضًا، وأنّى لنا بمثله وشرواه ولا شروى له، فإنه كان من أعيان البقر، وأنفع أجناسها للبشر،

مضاف إلى ذلك خلائق حميدة، وطرائق سديدة، ولولا خوفي تجديدَ الحزن عليه، وتهييج الجزع لفقده؛ لعددتُها فيه ليُعلَم أنّ الحزين عليه غيرُ ملوم، وكيف يُلام امرؤ فقد من ماله قطعة يجب في مثلها الزكاة؟ ومن خدم معيشته بهيمةً تعين على الصوم والصلاة؟. وفهمتُه فهمَ متأمّل لمراميه، وشاكر على النعمة فيه، فوجدتُه مسكِّنًا ما خاطر اللبَّ وخامر القلب، ففقْدُ هذا اللأى من شدّة الحُرَق، وتضاعُف القلق، وتزايُد اللوعة، وترادُف الارتماض بعظَم الروعة، فرجعت إلى أمر الله فيه من التسليم والرضا، والصبر على ما حكم وقضى، واحتذيتُ ما مثّله سيّدنا الوزير من جميل الاحتساب، والصبر على أليم المصاب، وإنا لله وإنا إليه راجعون، قولَ من علم أنه سبحانه أملك بنفسه وماله وولده وأهله منه، وأنه لا يملك شيئًا دونه، إذْ كان -جلَّ ثناؤه، وتقدّستْ أسماؤه- الملكَ الوهّاب، المُرجِع ما يعوّضُ عنه نفيسَ الثواب.

ووجدتُ -أيّد الله سيدنا الوزير- للبقر خاصة على سائر بهيمة الأنعام التي أكثر أقوات البشر بكدّها وعلى ظهرها وحِراثها إلا قليلا، قال الله سبحانه: ﴿ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴾ [سورة الواقعة، الآيتان ٦٣، ٦٤]. ولما رأى الحَجّاج الأسعار قد تضايقت، وقرى السواد قد خرِبت، حرّم لحومَ البقر؛ لعلمه وعلم جميع الناس بما في بقائها من المنافع والمصالح، ورأيت الله تعالى قد أمر في القتيل الذي وُجِد في بني إسرائيل أن يُضرَب بقطعة من بقرة بلغ ثمُنها ثلاث مئة ألف دينار، فلولا فضيلة البقر لما خُصّت من بني الأنعام بذلك، ووجدتُ بني إسرائيلَ بعدما

شاهدوه من قدرة الله جلّ علا في جفوف البحر وأمر الحيّة والعصا، فلمّا غاب عنهم موسى عليه السلام عبدوا عجلاً، ووُجدت الحكمة في أربعة من الأمم: الهند وفارس والروم والعرب. فأمّا الهند فإنها تعظّم البقر تعظيمًا مشهورًا، حتى إنها حرّمت لحمها وصارت ترى قتلَ من استحلّ ذبحَ شيء منها. ووجدنا الفرس تعظّمها وتتطهّر بأبوالها. ووجدنا الروم تعظّمها وقد جعلتْ لها عيدًا، وتمنع من أكل لحومها. ووجدنا العرب قد جعلتْها أجلَّ قرباناتها إلى الله في أعيادها، وعقيقتَها من أولادها، ويُروى عن النبي ﷺ أنه قال: إنّ ملكين من حملة العرش على صورة البقرة، يدعوان الله بأرزاق البهائم[٦٠]. فلولا ما فيها من التكريم والتعظيم والتقديم على سائر البهائم لما خُصّت بهذه المناقب العظام. ولولا إشفاقي من الخروج في الإطناب عن الغرض المطلوب، والمذهب المركوب، لزدتُّ في إيضاح مناقبها، والإفصاح بأوصافها التي تتميّز بها عن المخلوقات المركوبات، والمثيرات والحارثات، ولكن قد مضى ما فيه كفاية، وإن لم يكن بلغ النهاية"[٦١].

- "كانت الحسبة ببغداد إلى ابن قُريعة، فوافاه أبو عبدالله الزبيري الدعَّاءُ للسلطان في المواكب، فشكا إليه أنّ خيّاطًا دفع إليه جبّة خزّ ليفصّلها، فسرق منها خرقة كبيرة وتَرَها عليه، فكتب ابن قريعة إلى خليفته بباب الشام رقعة نسختها: بسم الله الرحمن الرحيم، أنا إليك مَشُوق، وإلى رؤيتك مَتُوق، وما بهذا وعدتني، ولا عليه وافقتني، ومما أخبرك أنّ أبا عبدالله الزبيري ابتاع جُبّة خزّ سوداء، ليجمّل بها الدين، ويخدم بها سلطان المسلمين،

ويجعلَ فاضلَها مِقْنَعَةً للموفّقة الصالحة زوجتِه، فسلّمها إلى خياط، أمره فيها بالاحتياط، ففعل بها ما لا يفعله الأعراب المغيرون، ولا الأكراد المُبيرون، ولا المقاولة، ولا الأزارقة، أن يأخذوا من ثوب خمسه، فيحصّل صاحبه مأثمه، وخيّاطه غرسه. إنّ هذا لأمر عظيم، وخطب في الإسلام جسيم، فإن رأيت أن تحضر هذا العاضّ، وتوعده بالإبراق والإغلاظ، وتُركِبه جملا عاليًا، بعد أن تضربه ضربًا عاتيًا، وتُطيف به في باب الشام، ليكون عبرة للأنام، فلعله يرتدع ويُقلِع ويرجع، والسلام"[٦٢].

– كتب ابن قُريعة إلى صاعد الأكّار في ضيعته لما سُرق من الدولاب طوقه وزُجّه: "بلغني يا صاعد حدّر الله بروحك إلى جهنم ولا أصعدها، وعن جميع الخيرات أبعدها، أنّ عاتيًا عتا على الدولاب، في غفلة الرقباء والأصحاب، فسلب منه طوقَه وزُجّه، من غير معرفة ولا حُجّة، فإنّا لله وإنا إليه راجعون، لقد هممتُ بالدعاء عليه، ثم عطفتُ بالحُنوّ إليه، وقلت: اللهم إن كان أخذه من حاجة فبارِك له، وأغنِه عن المعاودة إلى مثله، وإن كان أخذه إفسادًا وإضرارًا، فابتر عمره، واكفِ المسلمين شرَّه، يا أرحم الراحمين، فكتب إليه صاعد: قد عمّرت الدولاب من عندي، والسلام"[٦٣].

٤– من أخباره:

– ورد في خبر غامض مضطرب –كما نعته محقّقا **التذكرة**– أنّ المهلبي سأله عن مجلس مدام (كذا)، فقال: "كان مقابلاً لخادم آخر، وبين أيديهما دَسْتٌ كشرائح البدور، موزعةً جنسًا من الحبوب الرياحية على لونين مختلفين،

وفي أيديهما كُفّتان يصُكّان بهما الأرض صكًّا، فإذا انتصبا ماثلَيْن، وتخالفا في الحالَين، سُرَّ أحدهما واستبشر، واغتاظ الآخر واستشاط، وإذا اضطجعا في...غُمَّ صاحبُهما إياسًا، ونكّس رأسه، وهذى وسواسًا، ودعا عليهما، ولا ذنب لهما. فقال المهلبي: لو نُظِم هذا شِعرًا لَحَسُن"(٦٤).

- رفع إليه أصحابه -وكان يعمل في الحسبة- أمردَ مؤاجِرًا وهم يعتِلونه وهو يصيح ويستغيث، فقال: خلُّوا عنه واذكروا قصته وصورته حتى نسمع، فقالوا: هو مؤاجَر. فقال: وما عليكم أن يكون عند عمله؟ فقالوا: لا. وأعادوا اللفظ. فقال: لعلكم أردتم مؤاجِرًا -بكسر الجيم- وما عليكم أن آجر بهيمتَه لعمل، أو ضيعتَه لزراعة؟ فقالوا: لا، هو مؤاجِر، يأخذ الأجرة وينام ليُفجع. فصرف ابن قريعة وجهه عن ناحية القائل، وقال يخاطبه: لعنه الله إن كان فاعلاً، وقبّحك إن كنتَ كاذبًا. ويْحَكُم دعوه، لا تبدوا عورته ولا تكشفوا سوأته، فحسبه ما يقاسيه حين يواري سوأة أخيه(٦٥).

- "قال أبو إسحاق الصابئ: كنت يومًا جالسًا في دار المهلبي والقاضي أبو بكر بن قريعة على قُرْب مني يصلّي، فلمّا فرغ من صلاته نهض وبسط يديه يدعو، ورفعهما حتى كشف إبطيه، ثم سجد سجدة طويلة، وهو يشدّ بجبهته الأرض ويمحي [كذا!] وأنا أتأمّله، فلمّا فرغ من صلاته ودعائه قال لي: لمَ كنت تُحدّ النظر إليّ وتوفّر فكرك عليّ وأنا أصلّي؟ أصبوتَ يا شيخ الصابئة إلى شريعة الملّة الصافية؟ فقلت: لا، بعدُ، ولكن كنتُ أعجب من القاضي وهو يرفع يديه حتى يعلو رأسه، ثم يحطّ جبهته

الأرض[٦٦] حتى كأنه يحفر بها، فاستشعرتُ أنه بمثابة من يبتغي طِلبتَه من موضعين متنافيين، وكان عندي أني قد قطعتُه. فقال: وما ذاك يا شيخ الصابئة بعجيب، وإنّ له من الصواب لأوفرَ نصيب. فقلت: وكيف ذاك؟ فقال: لأنا نشير بأيدينا إلى مطالع رغبتنا رافعين، قال الله تعالى: ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ [سورة الذاريات، الآية ٢٢]، ونخفض جباهنا إلى مصارع أجسامنا خاضعين، قال الله وهو أصدق القائلين: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ [سورة طه، الآية ٥٥]، فنحن نستنزل بالأولى لطيف الأرزاق، ونستدفع بالأخرى عنيفَ الإرهاق، والله كريمٌ. ودمعت عيناه فأبكاني، وعظُم في عيني. فدخلت على الوزير وأعدتُ عليه ذلك، فعجب منه وقال: هو واحد زمانه"[٦٧].

- كان المهلبي قد تقدّم إلى ابن قريعة أن يشرف على البناء في داره، وأن لا يُطلَق شيء إلا بتوقيعه، فحضر يومًا بعضُ السوقة، فقال: أصلح الله القاضي، إنّ لي ثمن ثلاثين بيضة استعملها المزوّقون في البناء. فقال: بيّن عافاك الله، قال: أيها القاضي أعني بيض الدنيا، قال: فكأنا ادعينا أنّ في الآخرة بيضًا! ويحك، إنّ البيض منه الهندي والنبطي والبطيّ والحمَاميّ والعصافيري والدجاجي، فأيّ بيض بيضك؟ قال: بيض الدجاج النبطي، قال: فأعِدْ دعواك، قال: لي -أعزّ الله القاضي- ثمن ثلاثين بيضة من بيض الدجاج النبطيّ، فقال لكاتبه: ذكر أبو جعفر البيّاض خَبَطْ ونَبَطْ أنّ له ثمن ثلاثين بيضة دجاجيًّا، لا نبطيًّا ولا هنديًّا. ارجع -أعزّك الله- إلى دفتر حسابك وميزان عملك، فإن وجدته صادقًا، فقد وجب له ما يجب للصادقين

من البرّ والإكرام وإعطاء الثمن على الوفاء والتمام، وإن كان كاذبًا فعليه ما على الكاذبين من اللعن والرجم، ثم الحرمان والامتهان، وقل له: باعدك الله من حريمه، ما أقلّ وفاءك لشيبك!"(٦٨).

٥- بعض ما رَوَى من النوادر:

- قال ابن قريعة: "سمع أعرابي قارئًا يقرأ: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ﴾ [سورة الأنفال، الآية ٢]، فقال الأعرابي: اللهم لا تجعلني منهم. فقيل له: ويحك! لم قلتَ هذا؟ فقال: لولا أنهم قومُ سوء لم توْجلْ قلوبُهم"(٦٩).

- قال ابن قريعة: "وقف شاطر على قبر، فقال: رحمك الله أبا لاشيء، فقد كنت والله أحمر الإزار، حادَّ السكين، فارهَ الصديق، إن نَقَبتَ فجُرَذ، وإن تسلّقتَ فسِنَّوْرة، وإن استلبتَ فحِدَأة، وإن ضُرِبتَ فأرض، وإن شَرِبتَ فحُبّ، ولكنك اليوم قد وقعت في زاوية سوء"(٧٠).

وله روايات أخرى أضربت عن ذكرها صفحًا؛ لما فيها من المجون الصريح(٧١).

٦- الخطبة الطعاميّة:

خطب ابن قُريعة في دار أبي إسحاق الصابي فقال:

"الحمد لله الذي تيّن فوزّر، وعنّب فرزّق، ورطّب فسكّر، وخوّخ فشطّب، وكمثر فخثّر، ومشمش فصفّر، وبطّخ فعسّل، وتفّح فعطّر، وموّز فأنضج، ودقّق فجوّز، وجردق فسمّذ، وبورد فكثّر، وسكْرج فلوّز، وملّح فطيّب، وخلّل فسفتج، وخردل فحرّف، وبقّل فخضّر، وقثّأ فدقّق، وبورن فنعّم، ومصّص فحمّض، وطجّن فجفّف، وسنبس فثلّث، وسكبج

فزعفر، وهرّس فصولج، وبصّل فعقّد، وسبذج فصعّد، وسمّق فمزّز، وطبهج فحرّف، وبيّض فعجّج، وجدّى فرضّع، وبطّط فسمّن، ودجّج فصدّر، وفرّخ فشام، وحبّب فبزّر، وجوذب فخشخش، ورزّز فألبن، وخبّص فلوّز، وفلْذج فحمّر، وقطّف فعرّف، ولوزج فسكّر[٧٢].

أحمده على الضرس الطَّحون، والفم الجَروش، والحلق البَلوع، والمعدة الهَضوم، والسُّفْل النَّثور، والذكر القَؤُوم، والغداء والعشاء، والفطور والسحور، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، خالق السموات ومحلّل الطيّبات، وأشهد أنّ محمدًا عبده ورسوله، مبيح المحلّلات، وحاظر المحرمات، وإن أبا إسحاق بن إبراهيم بن هلال أرشده الله أطعمنا فصَدَرَنا، وماهَنا فأثلجَنا[٧٣]، وسقانا فروانا، ومدّ ستارته فأسمعنا وأطربنا، واستنشدناه فأنشدنا، واستحدثناه فحدّثنا، فارفعوا أيديكم إلى الله عباد الله، فالدعاء له بما يردّ ثواب فعله إليه، ويسهّل الدعوة الثانية عليه، إنه قريب مجيب، وأستغفر الله لي ولكم ولسائر المسلمين"[٧٤].

تعليق على الخطبة:

خصصتُ خطبته هذه ببعض النظر والتعليق؛ لأنها خرجت عن معهود الخُطَب، ولأنها احتجنت ملامح من شخصية ابن قُريعة السالكة مسالك الهزل المشوب بالجدّ، المنصرفة إلى الترويح بالأدب والتسلية به.

ويبدو أنه كان مشهورًا بالإحسان في وصف الطعام ومقاماته، كقوله في وصف الموز: "ما أصف من جُرُب ديباجية، فيها سبائك ذهبية، كأنما حُشِيت زُبْدًا وعسلا، وخَبِيصًا مُرْمَلا، أطيب الثمر، كأنه مخّ الشجر،

سهل المَقْشَر، لَيْن المَكْسَر، عذب المطعم بين الطعوم، يتسلسل في الحلقوم"[٧٥]، ونُقل أنه كان يحب الفالوذج السَّرَطْراط ويقول: أريدها مستغيثة من الغرق، في ماء الورد الغَرِق، ويسمِّي القطائف لفائفَ النعيم، وطعام الصابرين، ويسمّي اللّوزينج مُغَرغِرَ الحلقوم[٧٦].

لقد خطب ابن قُريعة خطبته هاته بعد الفراغ من الطعام، إذْ يُلاحظ أنه عبّر بصيغة المُضِيّ: "إنّ أبا إسحاق...أطعمنا...وسقانا"؛ وهذا ما يسّر بين يديه من مادّة القول ما يسعفُه في التصرّف والافتنان بعد أن طعم وشرب.

وهي خطبة تتضمن الإيحاء بامتلاك اللغة والقدرة على التحكّم فيها، وربما ذكّره امتلاكُ الطعام والتشبُّعُ منه امتلاكَ اللغة والتصرّفَ بها، ويبدو أنَّ لامتلاء البطن وسكوتِ مشاعر الجوع أثرًا في تنبّه بعض جوانب الإبداع، ولأوسّعْ الدائرة فأقلْ: إشباع الرغبات المادّية كلّها، ولهذا ما نرى الشعراء يفيضون ثناءً على الكرماء، بعد تحقيق آمالهم أكثر من فيضهم به قبله.

لقد انفصل ابن قُريعة -وهو يتصرّف باللغة- عن المواضعات اللغوية، فذهب يضربُ في ألفاظها ضرب العارف، مشتقًّا الأفعال التي لم يُسبق إليها -أو هو يقدّر هذا- من أسماء جامدة، بعضها مولّد أو معرّب، وهذا التحريك للجامدِ وخلخلته لاستنباط فعل منه: يوافق ما يقصد إليه المنشئ من الإثارة وتحريك العواطف واستفزازها.

ويعود في ختامها إلى هذا النمط فيقول: "أطعمنا فصَدَرنا، وما هنا فأثلجنا، وسقانا فروانا"، متلاعبًا تلاعب العارف الفطن بما يوافق المقام،

من خلال لعبته المفضّلة (الاشتقاق غير المعهود)، وحكمتُ بأنها كذلك ؛ لأنّ في بعض ما رُوي عنه ما يؤيّد وُلُوعَه بالاشتقاق، مثل قوله: "إنما نُكَوْكِيكَ إذا قضّيْتَنا، فإذا بكّرتَنا تسَحّقناك".

ثم إنها تمثّل خروجًا على النظام اللغوي، وكسرًا لآفاق التوقع التي تسيطر على المتلقِّين، فلم يُعهد أن جيء بهذه الأفعال المتوالية بهذا الكم، وعلى هذا النمط الغريب، والتركيب المتواتر (فعّل ففعّل)، وبخاصة في موقف دعاء وثناء على الداعي، غير أنّ موقف الملاطفة والمؤانسة الذي قيلت فيه استدعى مثل هذا التعبير الذي يلائم المزاح والتبسّط.

وهذا التشبع الأسلوبي الظاهر في تواتر الأفعال يمتزج بالشِّبَع الحسيّ الذي كان عليه الخطيب والمدعوُّون، وإنِ ادّعاءً. وكثرتُها توحي بأنّ الداعي قد أجزل لهم فيما قدّم من ضروب الطعام، أو أنّ ابن قُرَيْعة يغمز من جانب الصابي إذْ لم ييسّر لهم كلّ ما ذكر.

ويكسر ابن قريعة أفق التوقع مرة أخرى إذ يقول: "أحمده على..." ثم يجيء بتلك المحمودات (الضرس الطحون والفم الجروش...والذكر القؤوم...)، ومن فطنته الخطابية أنْ جعل هذه المحمودات مرتّبة حسب مرور الطعام بها: الضرس والفم والحلق والمعدة وما بعدها، ثم يضيف إليها ما يرى عليه للطعام أثرًا: (والذكر القؤوم). وإنما عددتُها فطنة لأنّ الخطيب البليغ يتدرّج في فِكَره ومعانيه تدرّجًا يأخذ بلبّ السامع، ويجعله يتشوّف لما يورده، وبخاصة في هذا المقام ومن خطيب عُهِد منه -على ما يظهر من

أخباره- المجيء بطرائف من القول تجعل في الإصغاء إليه وترقّب كلامه متعة وسلوة.

إنّ هذه الخطبة تتوجه إلى صنفين من المخاطبين: الأول: المدعوُّون، والثاني: الداعي، فأمّا الداعي ففي اختيار تلك الألفاظ المشتقّة من أنواع الفواكه وضروب الخُضَر وأفنان المآكل= حثٌّ له على تيسيرها للمدعوين في كلّ دعوة، وتقديمها لهم، وأمّا المدعوُّون فخاطبهم بتلك المشتقّات موحيًا بأحد أمرين: الأول أنّ الداعي قد قصّر في إكرامهم إن كان لم يضعها كلّها، وحينئذ يتخذون موقف اللائم العاذل، والثاني: أنه ذو كرم فائق إن كانت قد يُسّرت لهم، فيزداد شكرهم له وشغفهم بموائده.

ثم يخاطبهم جميعًا في قوله: "أحمده على الضرس الطحون، والفم الجروش، والحلق البلوع، والمعدة الهضوم..."، فأمّا الداعي فتنقطع حجّته في التخوّف من أثر تلك الطعوم عليهم، وأمّا المدعوّون فيبعث فيهم طمأنينة إلى ما ينعمون به من صحة وعافية تعينهم على الأكل والجرش والبلع والهضم، وما يلي ذلك من مُتع.

وفي وصفه لله تعالى بأنه محلِّل الطيّبات بعد قوله (خالق السموات)، ووصف نبيه ﷺ بأنه (مبيح المحلّلات) اختيار مناسب للمقام، فالخطبة في دعوة طعام، وهو بهذين التعبيرين يخاطب أيضًا الصنفين معًا؛ إذْ يقطع على الداعي سبيل العذر، فكلّ ما ذكره من قبلُ من ضروب الطعام حلال طيّب. ويحرّض المدعوّين على مدّ أيديهم إليها دونما حرج.

ويختم ابن قريعة بالدعاء للصابي، والدعاء في النثر القديم بعامة "من الأعمال القولية الإنشائية التي تبرز فيها آثار المقام، وتحدّد صلة المتكلم بالمخاطب اجتماعيًّا، وتعبِّر عن آداب التخاطب"(٧٧)، فيدعو له بأمرين: "بما يردّ ثواب فعله إليه، ويسهّل الدعوة الثانية عليه"، واستعمال (ثواب فعله) يتضمن أنّ ما فعله الصابي هو من (العمل الصالح)، ومن ذا يأبى أن يكون عمله صالحًا؟ ومن ذا الذي لا يرغب في استمرار العمل الصالح الذي تحتّمه الجملة الأخرى بإيحائها اللطيف الملزِم للمدعوّ له بأن يدعوهم مرة أخرى؟ وينبغي أن نلحظ العلاقة بين شخصيةِ المنشئ بوصفه قاضيًا والحكمِ على الدعوة بأنها (عمل صالح)، فثمّ اتكاءٌ على سلطة المنصب في هذا القول، يجعله مقبولاً غير مشكوك فيه ولا مردود.

وهو مفيدٌ من ذخيرته الأدبية في إنشاء خطبته، فقد روي عن أعرابي: "أحبّ أن أرزق ضرسًا طحونًا ومعدة هضومًا وسُرمًا منباقًا"(٧٨)، ولكنّ ابن قُريعة استطاع التناصّ معه والزيادة عليه؛ إذ بالغ في سرد المتعاطفات، وجنح إلى مزيد من الغرابة حين أورد (الذكَر القؤوم) الذي قد يبدو ذِكره في هذا المقام ناشزًا، غير أنه في حاقّ التواصل الذي طمح إليه، إذْ أشار بإيراده إلى أنّ للمائدة العامرة التي وافاهم بها الصابي وسوف يوافيهم بمثلها في (دعوته الثانية المرتقبة) أثرًا في استمرار اللذائذ وتحصّل الشهوات.

إنّ ابن قُريعة صرّح في خطبته وأضمر، والإضمار أوسع مجالاً وأرحب مدارًا، وبلاغة الخطيب فيما يُضمر أكبر دلالة على فطنته مما يصرِّح به. وخطبته هذه لا ترسم حدودًا بين الجِدّ والهزْل، فقد جاءا متداخلَيْن، لا يدري

المتلقِّي أين يبدأ كل منهما وأين ينتهي؟ وتعانُقُ الجدّ والهزْل في الأدب ظاهر في التراث العربي، وابن قُرَيْعة يسير على نهج لاحب شقّه من قبلُ رجال البيان، وسار عليه بعض أئمة الأدب.

بل هو في سائر ما نُقل عنه –وبخاصة بعض فتاويه– يمزج الجدّ بالهزل، وقد تكون الفتاوي التي خرج بها عن معهود الجدّ والتزمّت والتوقّر المشهور عن المفتين إعلانًا للتمرّد على المواضعة الاجتماعية التي تحبس القضاة عن الهزْل، وتأطِرهم على مظاهر الوقار.

الهوامش:

* أستاذ الأدب والنقد في كلية اللغة العربية، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض.

(١) ينظر: الذهبي، **سيَر أعلام النبلاء**، ٣٢٦/١٦، و**تاريخ الإسلام**، ٢٧٧/٨. و**العبر**، ٣٤٥/٢، وابن خلكان، **وفيات الأعيان**، ٣٨٤/٤. وابن ماكولا، **الإكمال** ١١٧/٧، وابن الجوزي، المنتظم ٢٥٨/١٤، والخطيب البغدادي، **تاريخ بغداد** ٥٥٠/٣، وابن كثير، **البداية والنهاية** ٣١١/١١، والصفدي، **الوافي بالوفيات** ١٨٨/٣، وابن العماد، **شذرات الذهب** ٣٦٠/٤،

(٢) السندية: قرية بين بغداد والأنبار. ياقوت الحموي، **معجم البلدان**، ٢٦٨/٣. وهي الآن تتبع محافظة ديالى في العراق.

(٣) ينظر: الخطيب البغدادي، **تاريخ بغداد**، ٥٥٠/٣، وابن الجوزي، **المنتظم**، ٢٥٨/١٤.

(٤) الخطيب البغدادي، **تاريخ بغداد**، ٥٥٢/٣.

(٥) ينظر: ابن خلكان، **وفيات الأعيان**، ٣٦٦/٣-٣٦٧.

(٦) ينظر: السابق، ٢٦٧/١، والصفدي، **الوافي بالوفيات**، ١٨٨/٣.

(٧) ينظر: ابن خلكان، **وفيات الأعيان**، ٢٦٧/١.

(٨) ينظر: ابن حمدون، **التذكرة الحمدونية**، ٣٧٦/٩. و ابن ماكولا، **الإكمال** ١١٧/٧.

(٩) ابن حمدون، **التذكرة الحمدونية**، ٣٩٥/٩.

(١٠) ينظر: ابن خلكان، **وفيات الأعيان**، ٣٨٣/٤، والذهبي، **سير أعلام النبلاء**، ٣٢٦/١٦، والزركلي، **الأعلام**، ١٩٠/٦.

(١١) ابن خلكان، **وفيات الأعيان**، ٣٨٢/٤-٣٨٣.

(١٢) يُنظر: ابن حمدون، **التذكرة الحمدونية**، ٣٧٦/٩، والذهبي، **سيَر أعلام النبلاء**، ٣٢٦/١٦، والزركلي، **الأعلام**، ١٩٠/٦.

(١٣) ابن خلكان، **وفيات الأعيان**، ٣٨٣/٤، وابن العماد، **شذرات الذهب**، ٣٦٠/٤.

(١٤) ينظر: ابن حمدون، **التذكرة الحمدونية**، ٣٩٥/٩.

(١٥) ينظر: السابق ٣٦٣/٢-٣٦٤.

(١٦) ينظر: السابق، ٣٥٤/٩-٣٥٥.

(١٧) ينظر: غرس النعمة الصابئ، **الهفوات النادرة**، ص٣٢٧.

(١٨) ابن حمدون، **التذكرة الحمدونية**، ٣٥٧/٩

(١٩) تنظر النادرتان في: التوحيدي، **البصائر والذخائر**، ٤٩/٢، ٥٠.

(٢٠) تنظر في: التوحيدي، **البصائر والذخائر**، ٥٥/٤، ٧٥، والآبي، **نثر الدر**، ٢٨٠/٥، ٢٩٤-٢٩٥، ٣٦١/٧.

(٢١) الذهبي، **سيَر أعلام النبلاء**، ٣٢٦/١٦، والصفدي، **الوافي بالوفيات**، ١٨٨/٣، وابن ماكولا، **الإكمال** ١١٧/٧.

(٢٢) ينظر: الخطيب البغدادي، **تاريخ بغداد**، ٥٥١/٣.

(٢٣) ينظر: التنوخي، **الفرج بعد الشدة**، ٢٨٥/٢.

(٢٤) التوحيدي، **البصائر والذخائر**، ١٠٠/٤.

(٢٥) السابق، ١٠١/٤. تمليحه: لعلها تملّحه.

(٢٦) غرس النعمة الصابئ، **الهفوات النادرة**، ص٣٢٤، والثعالبي، **يتيمة الدهر** ٢٠٥/٢، وابن خلكان، **وفيات الأعيان**، ٣٨٣/٤، و**شذرات الذهب**، ٣٦٠/٤. وفي بعض هذه المصادر: "خِفّتها" بدلاً من "خسّتها".

(٢٧) ينظر: الصفدي، **الوافي بالوفيات**، ١٨٨/٣.

(٢٨) ينظر: الخطيب البغدادي، **تاريخ بغداد**، ٢٧٢/١٤، والسبكي، **طبقات الشافعية**، ٣٤٣/٣-٣٤٤، والذهبي، **تاريخ الإسلام**، ٨٩٤/٧.

(٢٩) ينظر: الثعالبي، **يتيمة الدهر**، ١٩٧/٢-١٩٨.

(٣٠) الصفدي، **الوافي بالوفيات**، ١٨٨/٣، وابن الجوزي، **المنتظم**، ٢٥٨/١٤. على تحريف لحقهما في الثاني.

(٣١) الخطيب البغدادي، **تاريخ بغداد**، ٥٥١/٣.

(٣٢) الصفدي، **الوافي بالوفيات**، ١٨٩/٣.

(٣٣) السابق، ١٨٩/٣. وما في هذه الأبيات ادعاءات يلهج بها غلاة الشيعة الإمامية اتهامًا لأبي بكر الصدّيق وبعض الصحابة الآخرين رضي الله عنهم، (وتلك شكاة ظاهرٌ عنك عارها).

(٣٤) ينظر: ابن كثير، **البداية والنهاية**، ٣١١/١١، وتابعه الزركلي في نسبتهما إليه. ينظر: **الأعلام**، ١٩٠/٦.

(٣٥) يراجع: عبدالمحسن القحطاني، **منصور بن إسماعيل الفقيه حياته وشِعره**، ١٦٧. وفيه تخريج البيتين من مصادر كثيرة.

(٣٦) ينظر: الخطيب البغدادي، **تاريخ بغداد**، ٥٥٤/٣، وابن الجوزي، **المنتظم**، ٢٥٩/١٤.

(٣٧) ينظر: الخطيب البغدادي، **تاريخ بغداد**، ٥٥٥/٣، وابن خلكان، **وفيات الأعيان**، ٣٨٤/٤، والذهبي، **سِيَر أعلام النبلاء**، ٣٢٦/١٦، والصفدي، **الوافي بالوفيات**، ١٩٠/٣.

(٣٨) أبو حيان التوحيدي، **البصائر والذخائر**، ١٢٠/٦-١٢١، وابن حمدون، **التذكرة الحمدونية**، ٢٤٧/٧-٢٤٨، والآبي، **نثر الدر**، ٢٧٨/٤، والراغب الأصفهاني، **محاضرات الأدباء** ٢٧٩/١، والزمخشري، **ربيع الأبرار** ٣٤٢/١. وابن العماد، **شذرات الذهب**، ٣٦١/٤-٣٦٢. (بتصرف). والأَبْزَن: حوضٌ يُغتَسَل فيه. الزبيدي، **تاج العروس** (بزن).

(٣٩) الذهبي، **سيَر أعلام النبلاء**، ٣٢٦/١٦، وابن خلكان، **وفيات الأعيان**، ٣٨٣/٤، والصفدي، **الوافي بالوفيات**، ١٨٩/٣، وابن العماد، **شذرات الذهب**، ٣٦٠/٤، وابن حجة الحموي، **ثمرات الأوراق**، ٦٩-٧٠.

(٤٠) ابن حمدون، **التذكرة الحمدونية**، ٢٢٥/٣.

(٤١) النويري، **نهاية الأرب**، ٢٦/٤. والحِجْر: الفرس الأنثى، والدَّرَق: جمع درَقة، وهي تُرس من جلود، ابن منظور، **اللسان** (حجر)، والزبيدي، **تاج العروس** (حجف، درق).

(٤٢) ابن حجة الحموي، **ثمرات الأوراق**، ص٦٩. والزَّرَجُون: الكرْم، وأراد بها الخمر. ينظر: ابن منظور، **اللسان** (زرج).

(٤٣) الراغب الأصفهاني، **محاضرات الأدباء**، ٦٦٩/٣. وهي في: ابن الجوزي، **المنتظم**، ٢٥٨/١٤-٢٥٩ على تحريف لحقها. وكياء: البطل الشجاع (المعجم الذهبي. نقلا عن محقق **محاضرات الأدباء**)، وقيل: الكبير القدر المقدم بين الناس. (عن محقق تاريخ بغداد).

(٤٤) الخطيب البغدادي، **تاريخ بغداد**، ٥٥٤/٣.

(٤٥) الراغب الأصفهاني، **محاضرات الأدباء**، ٧٣٢/٢. واللِّبْد: البساط واللبَد: الصوف، والمُخرّط ما أزيل عنه الورق، والمَيْط بسكون الياء الميل والاختلاط، وسجعتُه تقتضي تحريك الياء. الزبيدي، **تاج العروس** (خرط، لبد، ميط).

(٤٦) الخطيب البغدادي، **تاريخ بغداد**، ٥٥٤/٣.

(٤٧) ابن حمدون، **التذكرة الحمدونية**، ١١٩/٩. ووُصِف الفالَوذَج بالسَّرَطراط، ويجوز فيه كسر السين والراء "تبليغًا في وصفه واستلذاذ آكله إياه إذا سرطه وأساغه في حلقه"، والفالوذج: ضرب من الحلواء. ابن منظور، **اللسان** (سرط). وما نقله ابن منظور جاء في مادة (لوز) وهو ينقل ما ورد عن اللوزِينَج.

(٤٨) ابن خلكان، **وفيات الأعيان**، ٣٨٣/٤، والثعالبي، **يتيمة الدهر**، ٢٠٥/٢، والصفدي، **الوافي بالوفيات**، ١٨٩/٣، وابن العماد، **شذرات الذهب**، ٣٦٠/٤.

وجُرُبّان الثوب كما شرحه ابن خلكان: الخرقة العريضة فوق القبّ، وهي التي تستر القفا، لفظ فارسي معرّب.

(٤٩) الخطيب البغدادي، **تاريخ بغداد**، ٥٥٥/٣.

(٥٠) السابق، ٥٥٥/٣.

(٥١) ابن كثير، **البداية والنهاية**، ٣١١/١١.

(٥٢) الخطيب البغدادي، **تاريخ بغداد**، ٥٥١/٣، وابن الجوزي، **المنتظم**، ٢٥٨/١٤.

(٥٣) ابن حمدون، **التذكرة الحمدونية**، ٣٩٥/٩، والآبي، **نثر الدر**، ٢٦٧/٥. ورُوي: (الإغراق في الحساب) أي التقصّي.

(٥٤) ابن حمدون، **التذكرة الحمدونية**، ١١٩/٩-١٢٠. والخبيص المُرمَل: هو ما عُصِد عصدًا شديدًا حتى صارت فيه طرائق موضونة، أي مُداخَلٌ بعضها في بعض. ينظر: ابن منظور، **اللسان** (رمل، وضن).

(٥٥) ابن حمدون، **التذكرة الحمدونية**، ٣٥٦/٩-٣٥٧

(٥٦) الدَّنِّيَّة: قلنسوة القاضي. نقلاً عن محققي **التذكرة**.

(٥٧) ابن حمدون، **التذكرة الحمدونية**، ٣٧٦/٩.

(٥٨) نص كتاب التعزية في: ابن حمدون، **التذكرة الحمدونية**، ٢٩٦/٤-٢٩٧.

(٥٩) اللأى: ثور الوحش، وأطلقه هنا على الثور الأهلي. ابن منظور، **اللسان** (لأي).

(٦٠) حديث منكر لا يصحّ.

(٦١) ابن حمدون، **التذكرة الحمدونية**، ٢٩٨/٤-٢٩٩. قال ابن حمدون في نهاية النص: "وبعده الدعاء".

(٦٢) الخطيب البغدادي، **تاريخ بغداد**، ٥٥٢/٣-٥٥٣. والمقاولة: الغوغاء. عن محقق تاريخ بغداد.

(٦٣) السابق، ٥٥٣/٣.

(٦٤) التوحيدي، **البصائر والذخائر**، ٣٥٤/٩. ولعلها (نكّس راسا) ليكتمل له السجع.

(٦٥) الصفدي، **الوافي بالوفيات**، ١٨٩/٣.

(٦٦) كذا بتعدية الفعل بنفسه.

(٦٧) ابن حمدون، **التذكرة الحمدونية**، ٩/٣٢٥.

(٦٨) التوحيدي، **البصائر والذخائر**، ٦/١٢١-١٢٢. والخطيب البغدادي، **تاريخ بغداد** ٣/٥٥١-٥٥٢.

(٦٩) التوحيدي، **البصائر والذخائر**، ٤/١٠٩، والآبي، **نثر الدر**، ٦/٤٧٤-٤٧٥.

(٧٠) التوحيدي، **البصائر والذخائر**، ٤/٥١-٥٢. والحُبّ: الجرّة الضخمة. ابن منظور، **اللسان** (حبب).

(٧١) ينظر: **البصائر والذخائر**، ٤/٥٥، ٧٥، **ونثر الدر**، ٥/٢٨٠، ٢٩٤-٢٩٥، ٧/٣٦١.

(٧٢) كل هاته الألفاظ مشتق من ضروب الفواكه والخضر وبعض المطعومات الأخَر، فوزّر: أي خلق التين الوزيري. ورزّق: خلق العنب الرازقي. (نقلاً عن محققَيْ **التذكرة**). ورطّب: خلق الرُّطَب، وسكّره: جعله حلوًا كالسكر، والجرْدقة: نوع من الرغفان، أو نوع من حلوى الفطائر، وسمّذ: من السميذ وهو لباب الدقيق، وبوْرد: قد تكون من البَرود والمبرود، وهو خبز يُبلّ بالماء، وسكرج: من السُّكُرُّجة، وهي إناء صغير يؤكل فيه الشيء القليل، وأكثر ما يوضع فيها الكوامخ، وخردَلَ: من الخردل وهو من البقول، وحرّف: خلقه حرِّيفًا أي لاذع الطعم حادّه، وقثّأ: خلق القِثّاء، ودقّقه جعله دقيقًا، ومصّص فحمّض: أوجد ما نمصّه حامضًا، وطجّن: أوجدَ ما طُبخ في الطاجن وهو آنية من الفخّار، وسنبس: أوجدَ السنبوسك أو السنبوسق، وهو الفطائر المعروفة، وثلّثها جعلها مثلثة، وسكبج: أوجدَ السِّكباج، وهو طعام يُعمل من اللحم والخلّ والبصل والكُرّاث والعسل مع الأفاويه والتوابل، وهرّس: أوجد الهريسة، وصعّد: قد تكون من التصعيد وهو التقطير أو الإشراب بالملح، وسمّق: من السمّاق وهو: نبات معروف حبّته شديدة الحُمرة، ومزّزه: جعله مُزًّا، أي جعل طعمه بين الحلاوة والحموضة، فيه لذع وشدّة، وطبْهج: من الطّباهَج وهو طعام من بيض وبصل ولحم، وفرّخ فشام: أي خلق الفرخ الشاميّ وهو نوع من الطير، وجوذب

فخشخش من جُوذاب الخشخاش: وهو صنف من الطعام يتخذ من الأرزّ ورقاق الخبز واللحم، يُنثر عليه بزر الخشخاش، وقيل غير ذلك، وخبّص: من الخبيص، وهو نوع من الحلوى تُخبص من التمر والسمن والسكر، وقد تكون من الخَبْصة: وهي فطيرة محشوّة لحمًا، ولوّز: جعل معه اللوز، وفلْذج: أوجد الفالوذج وهو من الحلواء، وحمّره جعله أحمر، وقطّف: أوجدَ القطائف، وعرّف: أرجّح أنه أرادها من العَرْف وهو طيب الرائحة، ولَوْزج: أوجَدَ اللُّوزِينَجَ وهو من الحلوى شبيه بالقطائف يؤدم بدهن اللوز، وسكّره جعله بالسكّر. ينظر: ابن منظور، **اللسان**، (جردق، حرف، سكرج، سمق، لوز، مزز)، والزبيدي، **تاج العروس** (جذب)، والجواليقي، **المعرّب**، ٢٤٥، ٢٩٥، وابن العديم، **الوصلة إلى الحبيب**، ٨٠٣، ٨٢٣-٨٢٤، ٨٢٨، ودوزي، **تكملة المعاجم العربية**، ١٨٣/٢، ٣٣٢، ١٩/٤، ١٠٠، ٦/ ٢٢٤، ٤٤٥، ٢٤/٧، ٢٥، ٢٨٧/٩، وتنظر: تعليقات سليم النعيمي وجمال الخياط على معجم دوزي في المواضع المشار إليها.

(٧٣) صدَرَنا: أطعمنا الصدور، وماهنا: سقانا الماء، وأثلجنا: جاء به مغطّسًا فيه الثلج.

(٧٤) ابن حمدون، **التذكرة الحمدونية**، ٣٠٨/٦-٣٠٩.

(٧٥) السابق، ١١٩/٩-١٢٠.

(٧٦) ينظر: السابق، ١١٩/٩.

(٧٧) صالح بن رمضان، **الرسائل الأدبية ودورها في تطوير النثر العربي القديم**، ص٥٢٩.

(٧٨) عبدالله الرشيد، **مقطّعات الأعراب النثرية**، ٣٩٥. والسُّرم: الدبر، والمنباق: المندفع. ابن منظور، **اللسان** (سرم، بيق).

المتنبِّي في مواجهاته الإبداعيّة
(نظرات في قصيدتَين)

بقلم: د. نادية غازي العزّاويّ*

- أ -

(ما لم يقله المعرِّي)

١ - بعد أن أنهى أبو العلاء المعرِّي (ت٤٤٩هـ) تعليقاته على لامية المتنبِّي (ت٣٥٤هـ) التي مطلعها:

إن يكن فضل ذي الرزيّة فضلا　　　تكـن الأفـضل الأعـزّ الأجـلاّ

عقّب باقتضاب: «لو لم يكن للمتنبِّي غير هذه القصيدة في سيف الدولة لكان كثيرًا، وأين منها قصيدة البحتري التي أولها: "إنّ سير الخليط لّما استقلاّ"»(١). تثير ملاحظته أسئلة مشروعة عن مسوّغات هذه الموازنة النقدية بين القصيدتين، هل يلمّح بوجود معارضة ما؟ ما أدلته السياقية والنصية؟ فباستثناء الوزن والقافية، لا تظهر -للوهلة الأولى- مشتركات كثيرة بينهما، فما الذي شجّع المعرِّي على هذه المفاضلة؟ وعناصر المعارضة المفترضة غير مستكملة هنا من ناحيتين -في الأقل-:

❖ اختلاف الغرض الشِّعري بينهما.

❖ غياب النية والقصد إلى المعارضة، فلا دليل يثبت أنّ قصيدة البحتريّ (ت٢٨٤هـ) كانت حاضرة في ذهن المتنبِّي لحظة انبثاق قصيدته هذه، أو أنه رام معارضتها بشكل من الأشكال. ولكنّنا -مع هذا- لا نستطيع تجاهل حكم المعرِّي وخبرته في استبطان أسرار شِعر البحتريّ والتي تمخّض عنها كتابه النقديّ الممتع "**عبث الوليد**"، فضلاً عن نظر ثاقب في تقنيات شِعر المتنبِّي الأسلوبية وإشكالاته، أثمر كتابَين مهمَّين في شرح ديوانه هما: "**معجز أحمد**" و"**اللامع العزيزيّ**".

فما منطلقاته وهو يوازن بين قصيدتين لم يسبقه أحد -على حدّ علمي المتواضع- إلى المفاضلة بينهما؟

٢- على مستوى الغرض: قصيدة البحتريّ في مدح الخليفة (المعتز بالله)، وقد صُدّرت في الديوان بعبارة تقديم دالّة على ذلك، وهو ما تؤيّده القراءة بوضوح، المشكلة في توجيه العبارة الاستهلالية التي صُدّرت بها قصيدة المتنبِّي في ديوانه: «وقال بحلب يعزّيه بأخته الصغرى ويسلّيه ببقاء الكبرى في شهر رمضان سنة ٣٤٤هـ»[٢]، فيتهيأ المتلقِّي ليجوس في تجربة رثائية منتظرًا لوازمها المتوقعة عادة: البكاء، التأبين... إلخ.

قراءة القصيدة تقودنا إلى نتيجة مخيّبة للتوقعات، فليس ثمة رثاء بل التفاف عليه، فقد تحايل أبو الطيِّب على واقعة الموت، وتجاهل المرأة الميّتة، بل اتخذهما معْبرًا إلى الهدف المركزيّ: ممدوحه الأثير (سيف الدولة)، فالقصيدة مديح خالص في مضمونها، وهو ما يعلّل عدم إفصاح

عبارة التصدير عن الغرض بوضوح على نحو ما هو موجود في تقديم مرثيته لخولة فنقرأ هناك: «وتوفيت أخت سيف الدولة بميافارقين وورد خبرها إلى الكوفة، فقال أبو الطيِّب يرثيها ويعزّيه بها، وكتب بها إليه من الكوفة سنة اثنتين وخمسين وثلاث مئة»[٣]. تفصح العبارة هنا عمّا طوي هناك، فمع تحديد الزمان والمكان فإنّها تنصّ بصراحة على الغرض (الرثاء)، لأنّ القصيدة رثاء فعلاً.

أمّا قصيدته اللامية هذه فنقض لآداب الرثاء وسننه المألوفة في مقاربة تجربة الموت، وهو ما لم يكن ليغيب عن المتنبِّي، بل تعمّده، جزءًا من مشاكساته الإبداعية -إذا صحّ الوصف-، وإلا فكيف استجاز في هذا الموقف مثل هذه المفاضلة الجائرة بين أختين: إحداهما طواها الموت، والأخرى ما زالت تتنعّم بمتع الحياة؟ فتعلن القصيدة انحيازها إلى الأخيرة بمقايسة منطقية غثّة ليس هنا موضعها الملائم وجدانيًّا ونفسيًّا في الأقلّ:

قاسمتك المنون شخصينِ جورًا (م) جعل القسمَ نفسه فيك عدلا
فإذا قستَ ما أخذن بما أغدرن (م) سرّى عن الفؤاد وسلّى
وتيقّنتَ أنّ حظك أوفى وتبيّنتَ أنّ جدكَ أعلى[٤]

وكيف استساغ في خطاب الرثاء الالتفات إلى وصف عنفوان الحياة وجمالياتها، التشبّث بملذاتها، من مثل قوله:

ولذيذ الحياة أنفس في النفس (م) وأشهى من أن يُملّ وأحلى
وإذا الشيخ قال: أفّ فما ملّ (م) حياة وإنما الضعف ملاّ[٥]

أين هذا من المعطيات المتوقعة في المراثي من الحزن والوجع؟ وأين هذا مّما نجده في مرثية خولة التي صرّح فيها في أربعة مواضع بحرقة البكاء في إثر رحيلها -وهي حالة متفرّدة في شِعره- في قوله:

لا ملك الطربُ المحزونُ منطقه ودمعَهُ وهما في قبضة الطرب

ثم قوله:

.... شرقتُ بالدمع حتى كاد يشرق بي

ثم قوله:

يظنّ أنّ فؤادي غير ملتهبِ وأنّ دمع جفوني غير منسكب

بلى وحرمة منْ كانت مراعيةً لحرمة المجد والقصّاد والأدبِ

ثم قوله:

ولا ذكرتُ جميلاً من صنائعها إلاّ بكيتُ ولا ودّ بلا سببِ(٦)

٣- ما يلفت النظر في قصيدتي البحتريّ والمتنبِّي وجود امرأة راحلة:

- (علوة) الحبيبة في مقدمة قصيدة البحتريّ، الماضي الجميل المتشبث به بتحدّ:

فأقلاّ في (علوة) اللوم إنّي زائد في الغرام إن لم تقلاّ

تلك أيامها الذواهب من أحسن عيش مضى ودهرٍ تولّى(٧)

مصرًّا على استدعاء طيفها لدرء سطوة الواقع (الرحيل المفروض عليه)، فهو الحبيب المتفاني الذي لا يجد حرجًا في إقرار التذلّل في العشق:

وخيال ألمّ منها على ساعة (م) هجر فقلتُ: أهلاً وسهلا

ما أُضيع الهوى ولا نُسي الخلّ (م) الذي ضيّع الهوى وتخلّى

حاطه الله حيث أضحى وأمسى وتــولّاه حيــث ســار وحــلاّ
ســكنٌ مغــرمٌ بهجــريَ يــزداد (م) صــدودًا إذا أنــا ازددتُ وصــلا
قد لبستُ الهوى وإن كان ضرًّا وتحمّلتـــهُ وإن كـــان ثقـــلا
وتـــذلّلتُ جاهـــدًا لمليكـــي وقليـل مـن عاشـق أن يـذلاّ[٨]

في قصيدة المتنبِّي نحن بإزاء موقف مختلف، إنّ قصيدته ستطوي تمامًا اسم المرأة الميّتة وستغيّب نعوتها، ولا نعثر حتى على الصيغة الصرفية لاسمها، على نحو ما فعل في رثاء الكبرى (خولة) (فعلة) كناية وتحشّمًا، إنّه إمعان في التجاهل، وسجّل ضمير المؤنث الغائب (الهاء) الذي يرمز لها تراجعًا ملحوظًا أمام ضمائر المخاطب المذكر (أنت والكاف والتاء)، المهيمنة على القصيدة كلها من مبتداها حتى منتهاها:

أنت يا فوق أنْ تعزّى عن الأحباب (م) فــوق الــذي يعزّيــك عقــلا
وبألفاظك اهتدى فإذا عزّاك (م) قــال الــذي لــه قلــتَ قــبلا
قد بلوتَ الخطوب مرًّا وحلوًا وسلكتَ الأيام حزنًا وسهلا[٩]

وستتمادى القصيدة أكثر في إفراغ المحتوى الرثائي، حين تقترح تبريرًا لموت هذه المرأة، فتحاصرها بما يشبه الانتحار الجبريّ، بقسوة صادمة غريبة عن روح الرثاء:

وإذا لم تجـدْ مـن النـاس كفئًـا ذاتُ خدرٍ أرادتِ الموت بعلا[١٠]

وتستمر في تغييب لوازم الموت، مستدعية لوازم الحياة، في صورة استعارية مركزيّة في شِعر المتنبِّي: الدنيا غانية غادرة، محققًا هدفًا مزدوجًا: ذمّ المرأة من خلال الدنيا، وذمّ الدنيا من خلال المرأة:

أبـدًا تـسترد مـا تهـب الـدنيا (م) فيـا ليـت جودهـا كـان بخـلا

فكفت كون فرحة تورث الغمّ (م) وخـلّ يغـادر الوجـد خـلاّ

وهي معشوقة على الغدر لا تحفظ (م) عهـدًا ولا تـتمّم وصـلا

كـلّ دمـع يـسيل منهـا عليهـا وبفـكّ اليـدين عنها تُخلّـى(١١)

٤- في القـصيدتين تـتحكّم قـوة قدريـة في مـسار التجربـة، في قـصيدة البحتري: حتمية الرحيل:

والنوى خطة من الدهر ما ينفكّ (م) يـشجى بهـا المحـبّ ويبلـى(١٢)

وفي قصيدة المتنبِّي: حتمية الموت:

خطبـة للحِمـام لـيس لهـا ردّ (م) وإن كانـت المـسمّاة ثكـلا(١٣)

والنتيجة في الحالين الفقد، ولكنه فقد مؤقت، لأنه سينفتح لاحقًا على وعد الممدوح الكفيل بالتعويض، وهو منظور انتهازي من صميم الفلسفة التكسبية عند المدّاح المحترفين، بعيد كل البعد عن قصائد الفجيعة في مراثي من يستقطرون مرارات أيامهم، ويودعونها في قصائدهم.

٥- في القصيدتين يبدو الشاعران في موقف الدفاع عن الممدوح ضد طرف ثالـث مناوئ: في قـصيدة البحتري منافسو الخليفـة، وفي قـصيدة المتنبِّـي أحـزان الممـدوح، ولـذلك يـستثير الـشاعران إمكاناتهمـا التعبيريـة لتعزيـز موقف الممدوح، وفي ضوء هذا يمكننا فهم سبب الحضور الأسلوبي البـارز لـصيغ التفـضيل: (٨) في قـصيدة البحتري، و(١٠) في قـصيدة المتنبِّـي، معطوفة على بعضها أو متتابعة داخل البيت الواحد أحيانًا وبما يمنحها قـوة تأثير أكبر. يقول أبو عبادة:

أنت أندى كفًّا وأشرف أخلاقًا (م) وأزكى قولاً وأكرم فعلا[١٤]

وفي موضع آخر:

ذاك فضلٌ أوتيته كنت من بين (م) البرايا به أحقّ وأولى[١٥]

وفي مطلع أبي الطيِّب: «تكن الأفضل الأعزّ الأجلاّ».

وبسبب من اندفاعهما في وصف سطوة الممدوح تورّطا بنعوت مستفزّة لمنظومة القيم الدينية والاعتبارية، يصرّح البحتريّ:

مَنْ أبى حبكم فليس من الله (م) ولو صام ألف عام وصلّى

لم يزل حقّك المقدّم يمحو باطل المستعار حتى اضمحلاّ[١٦]

ويحشد المتنبِّي النعوت المعجزة لممدوحه:

وقتلتَ الزمان علمًا فما (م) يغرب قولاً ولا يجدّد فعلا

أيها الباهر العقول فما تدرك (م) وصفًا أتعبتَ فكري فمهلا[١٧]

٦- بين القصيدتين تنهض قواسم أسلوبية مشتركة، مع اختلاف النسب العددية في كل قصيدة، من أبرزها أسلوب العطف، بصيغ مختلفة: عطف الأسماء على بعضها، وعطف الجمل، وربما امتدت مساحة العطف على البيت كاملاً بعطف شطر على شطر، وبما يستوفي الحالات المتناقضة والمتكاملة التي يراد التعبير عنها، وبالإمكان فرز الأمثلة الآتية:

في قصيدة البحتريّ: «عيش مضى ودهر تولّى»، «أهلاً وسهلاً»، «يزداد صدودًا وازددتُ وصلاً»، «بحر طما وبدر تجلّى»، «فرعًا وأصلاً»، ...إلخ.

وفي قصيدة المتنبِّي: يغطّي العطف أبياتًا بكاملها فضلاً عن عطف المفردات والجمل:

قد بلوتَ الخطوب مرًّا وحلوا وسلكتَ الأيام حزنًا وسهلا

وقوله:

وإذا اهتزّ للندى كان بحرًا وإذا اهتزّ للردى كان نصلا

وتقاربت الأبيات المدوّرة في القصيدتين، بواقع (١٩) بيتًا في قصيدة البحتريّ، و(٢١) بيتًا في قصيدة المتنبِّي، ومعلوم أنّ التدوير ظاهرة أسلوبية غالبة في قصائد (الخفيف)، فضلاً عن التقارب الواضح بين أفكار القصيدتين، وكما يلاحظ في أكثر من موضع.

قال البحتري:

قد طلبنا فلم نجد لك في السؤدد (م) والمجد والمكارم مثلا[١٨]

وهو عين ما قصده المتنبِّي في قوله:

من تعاطى تشبّهًا بك أعياه (م) ومن سار في طريقك ضلا[١٩]

وجاءت الخاتمة في الاثنتين دعائية:

في الأولى:

وعطاء من الإله فلا زلتَ (م) مهنّا ذاك العطاء مملّى[٢٠]

وفي الثانية:

فإذا ما اشتهى خلودك داعٍ قال: لا زلتَ أو ترى لك مثلا[٢١]

ويبقى السؤال المحوريّ قائمًا: ما الذي اجتذب أبا العلاء إلى قصيدة المتنبِّي ممّا عزّ وجوده في قصيدة الأول: موضوعة الموت الأثيرة لدى المعرِّي؟ ذمّ الدنيا والحطّ منها أو مقاومة الموت انتصارًا لقوة الحياة؟ تجاهل المرأة والرغبة العارمة في محوها؟

لم يحدّد سببًا معيَّنًا، وترك خيارات القراءة مفتوحة على الاحتمالات كلها.

- ب -

(الرسالة المبطّنة)

لا تزيد عبارة التصدير في الديوان عن القول: «وجاءه رسول سيف الدولة مستعجلاً ومعه رقعة فيها بيتان في كتمان السرّ يسأله إجازتهما وهما:

أمنّي تخاف انتشار الحديث وحظّيَ في ستره أوفر
ولو لم تكن ليَ بقيا عليك نظرتُ لنفسي كما تنظرُ

وهما للعباس بن الأحنف. فقال أبو الطيّب»(٢٢).

أمّا لماذا كان الرسول مستعجلاً؟ ولماذا هذان البيتان تحديدًا؟ وهل ثمة مقاصد خبيئة وراء الرسالة؟ فلا تجيب المصادر بشيء يشفي غليل الباحث. والبيتان من قصيدة في خمسة عشر بيتًا، محورها السرّ وموقف الحبيبة الحذر من إفشاء حبيبها له، بالرغم من تطمينات الأخير لها:

هبوني أغضّ إذا ما بدتْ وأملك طرفي فلا أنظر
فكيف استتاري إذا ما الدموع نطقن فبحن بما أضمر
فيا مَنْ سروري به شقوة ومن صفو عيشي به يكدر
لعلك جرّبتني بالصدود (م) عمدًا لتنظر هل أقصر
فلا تكذبنّ فإنّ السلوّ (م) للقلب موعده المحشر
وأشهد أنّك بي واثق وإن كنتَ تظهر ما تظهر

وأنّــــك تعـــــرفني بالوفـــــاء   وســـتر الحـــديث ولا تنكـــر
ولكـــنْ تجنّيــتَ لّمــا مللــتَ   فأنــشأتَ تــذكر مــا تــذكر
تعتّبــت تطلــب مــا أســتحقّ   بــه الهجــر منــك ولا تقــدر
ومــاذا يــضرّك مــن شــهرتي   إذا كـــان ســـرّك لا يـــشهر
أمنّــي تخــاف انتــشار الحــديث   وحظــيَ مــن صــونه أوفــر
ولــو لم يكــن فيّ بقيــا عليــك   نظــرتُ لنفــسي كمــا تنظــر
إذا كنــت تحــذرني في الرضــا   وتـــزعم أنّـــيَ لا أســـتر
فمالـــك تهجرنـــي ظالِمًـــا   وتغـــضبني ثـــم لا تحـــذر
ولــو أنــني كنــتُ مــن صــخرة   إذًا مــا صــبرتُ كمــا تــصبر(٢٣)

هل اختيار سيف الدولة لهذه القصيدة والبيتين منها عشوائيّ؟ وهل كان الرجل من فراغ البال ليبعث رسله لاستجازة الشعراء عبثًا ولهوًا وتزجية للوقت؟ ولماذا يوسّط طرفًا ثالثًا بينه وبين شاعره المقرّب الذي يدخل ويخرج عليه من غير منع وحجب ويرافقه في سلمه وحربه؟ هل الرسالة امتحان لمقدرة المتنبِّي الشعريّة؟ وهل يحتاج سيف الدولة إلى اختبار من أبدع فيه الروائع؟ أهي رسالة بريئة أم مبطّنة بمرامٍ لا يعرفها إلا الطرفان؟

أمّا المتنبِّي فالتقط الإشارة، وجعلها مادة لقصيدة في أحد عشر بيتًا، في تأكيد تكتّمه وتبرئة ساحته من الظنون المرتابة به، فقال:

رضــاك رضــائي الــذي أوثــر   وســـرّك ســـرّي فمـــا أظهـــرُ

كفتــك المــروءة مــا تتقــي وأمّنــك الــودّ مــا تحــذرُ
وســـركمُ في الحـــشا ميـــت إذا أُنــشِر الـــسرّ لا ينـــشَرُ
كـأني عـصتْ مقلـتي فـيكمُ وكاتمــتِ القلــبَ مــا تبــصرُ
وإفـــشاء مـــا أنـــا مـــستودع مــن الغــدر والحــرّ لا يغــدرُ
إذا مــا قــدرتُ علــى نُطقــةٍ فــإنّي علــى تركهــا أقــدرُ
أصــرّف نفــسي كمــا أشــتهي وأملكهـــا والقنـــا أحمـــرُ
دواليـــك يـــا ســـيفها دولـــةً وأمـــرك يـــا خـــير مـــن يـــأمرُ
أتـــاني رســـولك مـــستعجلاً فلبّــاه شِــعري الــذي أذخــرُ
ولــو كــان يــوم وغًــى قاتمًــا للبّـــاه ســـيفيَ والأشـــقرُ
فــلا غفــل الــدهرُ عــن أهلــه فإنّــك عــين بهــا ينظــرُ(٢٤)

وإذا كانت ثنائية التجريم والتبرئة مفهومة في قصيدة العباس ضمن إطار عوالم العشاق، وما يحيط بها من صرامة الرقابة والخوف من التبعات الاجتماعية المترتبة على هذه المغامرات العاطفيّة، فإنّ هواجس رسالة سيف الدولة تدفع باتجاه آخر للتحرّي عمّا عسى أن يكون قد عرفه المتنبِّي من سرّ أو أسرار أقلقت الأول فخشي عليها من التسرّب؟ وما الذي هزّ الثقة المتبادلة ما بينهما فوصلت إلى حالة الارتياب؟

هل يتعلّق الأمر بحادثة شخصية؟ بقضية عامة؟ هل وصل مسامع سيف الدولة أنّ شاعره تجرّأ على بثّ بعض ما اطلع عليه وعرفه، فأرسل إليه مستعجلاً ليسكت لسانه قبل فوات الأوان؟

قد يعطينا ترتيب القصيدة ضمن الديوان مؤشرات معينة، فالنصّ السابق واحد من أربعة نصوص طلب سيف الدولة من الشاعر إجازتها[٢٥]، ثلاثة منها كانت بعد قصيدته الإشكالية التي أحدثت ملابسات وردود أفعال عنيفة ومتباينة، أعني ميميّته الشهيرة:

وا حرّ قلباه ممّن قلبه شبِمٌ ومنْ بجسمي وحالي عنده سقمُ[٢٦]

فهل لهذا دلالة معيّنة؟

وتتأكد الظنون أكثر مع القصيدة التي ستتلو هذه الرسالة، أعني قصيدته الرائية في عتاب سف الدولة، التي صُدّرت في الديوان بالعبارة الآتية: «وقال وقد استبطأ سيف الدولة مدحه وتنكّر لذلك»[٢٧].

أرى ذلك القرب صار ازورارا وصار طويلَ السلام اختصارا
تركتنيَ اليومَ في خجلةٍ أموتُ مرارًا وأحيا مرارا
أسارقك اللحظ مستحييًا وأزجر في الخيلِ مهري سرارا
فلا تُلزمنّي ذنوب الزمانِ إليّ أساء وإيايَ ضارا
ولي فيك ما لم يقلْ قائلٌ وما لم يسرْ قمر حيث سارا[٢٨]

ما أسباب التباطؤ والاستبطاء من الطرفين؟ أظن أنّ بعض الأمر كامن في (القصيدة /الرسالة)، بما انطوت عليه من تذكير وتحذير وتخويف، فالأمر -في ظني- أكبر من مجرد إجازة شعرية عارضة، ولعلها تضمر سرًّا خطيرًا -لم تكشفه مراجع سيرته- جعل الشاعر يعلن منذ البيت الأول تماهي مصيره به:

وسركمُ في الحشا ميّتٌ إذا أُنشر السرّ لا يُنشَرُ

ويؤكّد الحرص نفسه وهو يشطر جسده إلى حيّزين مفصولين عن بعضهما: عين موقوفة عن النظر، وقلب موقوف عن البثّ:

كأنّي عصتْ مقلتي فيكمُ   وكاتمتِ القلب ما تبصر

مستحضرًا صورة دموية خاطفة ولكنها دالة جدًّا في قوله:

أصرّفُ نفسي كما أشتهي   وأملكها والقنا أحمر

وأحسّ بالحاجة إلى إعطاء المزيد من تأكيدات الولاء والإخلاص للآخر القلق:

ولو كان يوم وغًى قاتمًا   للبّاه سيفيَ والأشقر

ولئن دلّ المطلع على التسليم والقبول فإنّ الخاتمة تقطع بما هو أبعد من مجموع الفضائل التي جرى التنويه بها بوصفها صمام أمان: المروءة، الودّ، الوفاء، الإرادة، إنّ الخاتمة تطرح الخيار الأخير الذي لا محيد عنه: نفوذ السلطة الأمنية، فقد اختزل الشاعر ممدوحه إلى عين لا تكفّ عن المراقبة، موظفًا الفعل المباشر (ينظر) بصيغته المضارعة الدالة على استمرار الحالة:

دواليك يا سيفها دولةً   وأمركَ يا خير من يأمرُ

فلا غفل الدهرُ عن أهله   فإنّك عينٌ بها ينظرُ

ليظل القارئ مشدودًا إلى ما ستسفر عنه المواجهة المحتَملة، بين عين مسكونة بالهواجس تحاول أن تتعامى تحت وطأة ضرورة ملحّة، وبين أخرى محملقة متوفّزة بانتظار أية نأمة للانقضاض.

الهوامش:

* أستاذة الأدب القديم- قسم اللغة العربية- الجامعة المستنصريّة- بغداد- العراق.

(١) **اللامع العزيزيّ**، أبو العلاء المعرِّي، تحقيق: محمد سعيد المولوي، ط١، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، الرياض ١٤٣١هـ/٢٠١٠م: ٢/ ٩٦٧.

(٢) **شرح الواحديّ لديوان المتنبيّ**، ضبطه وشرحه وقدّم له د.ياسين الأيوبيّ ود. قصيّ الحسين، دار الرائد العربيّ، ط١، بيروت، ١٤١٩هـ/١٩٩٩م: ١٥٧٢/٣.

(٣) **العرف الطيّب في شرح ديوان أبي الطيّب**، الشيخ ناصيف اليازجيّ، ط٢، دار القلم، بيروت (د.ت): ص٤٦١.

(٤) **شرح الواحديّ**: ١٥٧٧/٣.

(٥) م. ن: ١٥٨٠/٣. (٦) م. ن: ١٦٤١/٣-١٦٥٥.

(٧) **ديوان البحتريّ**، تحقيق حسن كامل الصيرفيّ، دار المعارف، مصر: ١٦٥٥/٣.

(٨) م. ن: ١٦٥٦/٣. (٩) **شرح الواحدي**: ١٥٧٢/٣-١٥٧٣.

(١٠) أخلّت به رواية الواحدي وهو في (**العرف الطيّب**): ٤٣٠.

(١١) **شرح الواحدي**: ١٥٨١/٣. (١٢) **ديوان البحتري**: ١٦٥٥/٣.

(١٣) **شرح الواحدي**: ١٥٨٠. (١٤) **ديوان البحتري**: ١٦٥٧. (١٥) م.ن: ١٦٥٨.

(١٦) م.ن: ١٦٥٧. (١٧) **شرح الواحدي**: ١٥٧٣/٣، ١٥٨٣.

(١٨) **ديوان البحتري**: ١٦٥٧/٣. (١٩) **شرح الواحدي**: ١٥٨٣/٣.

(٢٠) **ديوان البحتري**: ١٦٥٨/٣. (٢١) **شرح الواحدي**: ١٥٨٣/٣.

(٢٢) م. ن: ١٤٠٤/٣.

(٢٣) **ديوان العباس بن الأحنف**، تحقبق عاتكة الخزرجيّ، دار الكتب المصرية، القاهرة ١٣٧٣هـ/١٩٥٤م: ١٤٥، ١٤٦.

(٢٤) **شرح الواحدي**: ١٤٠٤/٣-١٤٠٧.

(٢٥) ينظر: م. ن: ١٢٢٥/٣-١٢٢٦، ١٣٩٣-١٤٠٣، ١٤٨٥-١٤٨٦.

(٢٦) م. ن: ١٣٢٥/٣-١٣٣٩.

(٢٧) م. ن: ١٤٠٨/٣.

(٢٨) م. ن: ١٤٠٨-١٤١١هـ.

الباقلاني... ناقدًا

بقلم: د. أحمد إسماعيل النعيمي*

توطئة:

لقد تصدى باحثون أجلاء قلائل لسيرة أبي بكر محمد بن الطيب القاضي، المعروف بالباقلاني، أو ابن الباقلاني[1] ودراسة أحكامه في الإعجاز القرآني في البعدين الديني والأدبي على السواء، بعد انصراف جمهور النقاد المعاصرين عنه، وابتغائهم غيره من النقاد القدماء ليولوهم العناية والاهتمام، على الرغم من كونه أحد كبار علماء القرن الرابع للهجرة الذي شهد ولادته المجهولة سنتها في البصرة، وإقامته واستقراره في بغداد، وترامي شهرته فيها عالِمًا متصفًا بالورع والتقوى والزهد، ومشتغلاً بطريقة أبي الحسن الأشعري، ومتزعمًا مذهب الإمام مالك في عصره، ومحاججًا أهل الفرق والنحل، وضالعًا في علم الجدل والكلام، ومؤلفًا ما يزيد على خمسين مصنفًا، حتى وفاته عام (٤٠٣هـ) باتفاق كلمة المؤرخين[2].

فضلاً عن أسبقيته في وضع أسس نظرية (النظم) النقدية، المشتهر بها عبد القاهر الجرجاني (ت٤٧١هـ) الذي استأثر بفضلها بنصيب وافر من الدراسات والبحوث على سبيل المثال لا الحصر.

ولعل دواعي هذا الانصراف كامنة في أسباب عدة، أبرزها أنّ الباقلاني لم يعمد إلى تأليف مصنّف مستقلّ يعنى بصناعتي النظم والنثر، أو يرسي القواعد في الشِّعر ونقده، أو يهتم بسِيَر الشعراء والموازنة بينهم، أو يُعنى بالبيان والبلاغة ووجوه البديع، وما شاكل ذلك من المصنّفات التي كان لها الأثر في شهرة أصحابها، وكسبهم عددًا كبيرًا من الدارسين التواقين إلى الموضوعات الأدبية والنقدية والبلاغية الصرف، المفصحة عنها عنوانات تلك المصنفات سلفًا.

وثمة سبب آخر هو أنّ الباقلاني، على الرغم من تعرّضه لهذه الموضوعات ووضعه معايير الحكم عليها، إلا أنّ آراءه فيها لم يكتب لها الذيوع والانتشار بسبب ورودها مفرقة موزعة في كتابه الذائع الصيت "**إعجاز القرآن**" من جهة، واتخاذها وسيلة لغاية هي إظهار بديع نظم القرآن، وعجيب تآليفه، وتناهيه في البلاغة وسموّه على كل بيان من جهة أُخرى.

وكان ذلك أحد الأوجه الثلاثة التي يقع فيها الإعجاز القرآني، عند الباقلاني، إذ يكمن الوجهان الآخران في: تضمّن القرآن الإخبار عن الغيب، والآتيان بمجمل ما حدث من عظيمات الأمور، أو مهمات السير من بدء الخليقة حتى بعثة النبي ﷺ[٣].

الباقلاني.. ومعاييره النقدية:

لو أتيح لقارئ صبور أن يستقري سيرة الباقلاني، ويفتّش بتأنٍّ في تضاعيف كتابه "**إعجاز القرآن**" عن أحكامه وآرائه النقدية في الخطاب الشعري بخاصة، لظهر له أنّ هذا العالِم المتفقّه بالأمور الدينية يتمتّع بحسٍّ نقديٍّ، مستند إلى منهج بعينه في ملامحه واتجاهاته. ولاسيما أنه كان أشهر علماء عصره خاطرًا، وأجودهم لسانًا، وأوضحهم بيانًا، وأصحهم عبارة، فضلاً عن تمتّعه بقوة الحُجّة وسرعة البديهة، وكثرة الحفظ(٤). وإذ نطمئن إلى معطيات هذه العقلية الفذة، والمنزلة المرموقة التي تبوّأها في عصره، فإننا عازمون على استقراء اتجاهاته وأحكامه النقدية، من تضاعيف مؤلفه "**إعجاز القرآن**" الذي "جمع فيه -كما يقول الأستاذ محمود شاكر- خيرًا كثيرًا، واستفتح بسليم فطرته أبوابًا كانت قبله مغلقة، وكشف عن وجوه البلاغة حجابًا مستورًا(٥).

ولا نجانب الصواب إن قلنا إنّ الباقلاني كان أبرز من نقد القصيدة الشعرية الكاملة، مطبّقًا هذا المنهج -كما هو معروف- على معلّقة امرئ القيس الذائعة الصيت(٦) ولامية البحتري ومطلعها:

أهــلاً بــذلِكُمُ الخَيــالِ المُقْبِــلِ فَعَـلَ الـذي نَهْـواهُ أو لم يَفْعـلِ(٧)

بعد أن اعتاد أغلب النقّاد والبلاغيين -قبل القرن الرابع وخلاله- الوقوف عند أعتاب البيت الواحد، وعدم تجاوزه إلى المقطوعة أو القصيدة -في الأغلب الأعم-، وحتى في الموازنة بين الشعراء، كان البيت المفرد محور الدراسة والتحليل والنقد، على نحو ما صنع الآمدي (ت٣٧٠هـ) في

موازنته بين الطائيين، ويبدو أنّ أحد النقّاد المحدثين كان في عجالة من أمره عندما عدّ الآمدي هو أول من حاول أن يدرس القصيدة العربية كوحدة متكاملة فيحللها وبين مواطن الجمال فيها ثم يحكم عليها ككل في كتابه "**الموازنة**"(٨).

ومما له صلة بهذا الشأن، أنّ النقّاد القدماء دأبوا على إطلاق أحكامهم النقدية على الأبيات المفردة، من حيث قولهم: "هذا أمدح بيت، وذاك أغزل بيت... الخ"، أو التمثل بإعجازها والاستغناء بها عن صدورها(٩)، حتى إنّ ذلك كله أنساهم النظر في ظاهرة التفاوت في شعر الشاعر نفسه، باستثناء ابن قتيبة (ت٢٧٦هـ) الذي أولاها أهمية، وقد انطلق من الموضوعات الشعرية، لإبراز أمر التفاوت لدى هذا الشاعر أو ذاك، وذاك بيّن في حديثه عن بعض الشعراء ولاسيما قوله: "فهذا ذو الرمة أحسن الناس تشبيها ... فإذا صار إلى المديح والهجاء خانه الطبع... وكان الفرزدق زير نساء... وكان مع ذلك لا يجيد التشبيب... وكان جرير عفيفًا... وهو مع ذلك أحسن الناس تشبيهًا..."(١٠).

بيد أنّ الباقلاني قد طوّر كثيرًا هذا التوجه، من ناحيتين: أولاهما: إبراز التفاوت بين ما يعدّ بليغًا من كلام البشر (الأدباء والشعراء) وبين نظم القرآن، ويتخذ امرأ القيس، والبحتري، مثالاً تطبيقيًّا في هذا الاتجاه، بعد أن وجد في الأول اتفاق النقاد "على كبر محل (قصيدته) وصحة نظمها، وجودة بلاغتها، ورشاقة معانيها، وإجماعهم على إبداع

صاحبها فيها"[١١]. ورأى في الثاني "أنّ الكتاب يفضّلونه على أهل دهره، ويقدّمونه على من في عصره، ومنهم من يدعي له الإعجاز غلوًّا"[١٢].

وثانيتهما: أنّ الباقلاني لا يقرن التفاوت في شِعر الشاعر بغرض بعينه، إنما يعزوه إلى "حسب الأحوال التي يتصرف فيها، فيأتي بالغاية في البراعة في معنى، فإذا جاء إلى غيره قصر عنه، ووقف دونه، وبان الاختلاف على شِعره"[١٣]، أي أنه يعوّل على قوة التجربة الشعرية وتأثيرها في النص، لا على موضوعات الشِّعر.

فضلاً عن تطرقه إلى تفاوت الشعراء في القصيد والرجز، إذ وجد "من الشعراء من يجوّد في الرجز، ولا يمكنه نظم القصيد أصلاً، ومنهم من ينظم القصيد، ولكن يقصر تقصيرًا عجيبًا، ويقع ذلك من رجزه موقعًا بعيدًا، ومنهم من يبلغ في القصيدة الرتبة العالية، ولا ينظم الرجز، أو يقصر فيه مهما تكلفه أو تعمله"[١٤].

وما يسجل للباقلاني، أنه أرسى بعض القواعد المتعلقة بلفظ الكلام ومعناه، وطرائق نقده، ومعايير الحكم عليه، اعتمادًا على مدارسته الشِّعر، بخاصة ما جمعه (أبو تمّام) في "**الحماستين**"، فضلاً عن إشادة الباقلاني بمنهجه، وذلك في قوله: "الأعدل في الاختيار ما سلكه أبو تمّام من الجنس الذي جمعه في "**الحماسة**"، وما اختاره من "**الوحشيات**"، وذلك أنه تنكّب المستنكر الوحشي، والمبتذل العامّي، وأتي بالواسطة"[١٥].

حتى انتهى إلى أن يعرض أحكامه في هذا الميدان، ويغلق الباب أمام أهل اللغة والبلاغة والأشعار، الذين كانوا متفاوتين في اختيار هذا النوع

من الكلام أو ذاك وتفضيل هذا على غيره، قائلاً: "إنّ الكلام موضوع للإبانة عن الأغراض التي في النفوس، وإذا كان كذلك وجب أن يتخيّر من اللفظ ما كان أقرب إلى الدلالة على المراد، وأوضح في الإبانة عن المعنى المطلوب، ولم يكن مستكره المطلع على الأذن، ولا مستنكر المورد على النفس، حتى يتأبى بغرابته في اللفظ عن الأفهام، أو يمتنع بتعويض معناه عن الإبانة، ويجب أن يتنكب ما كان عامّي اللفظ، مبتذل العبارة، ركيك المعنى، سفافيّ الوضع، مجتلب التأسيس، على غير أصل ممهد، ولا طريق موطّد، وإنما فضلت العربية على غيرها لاعتدالها في الوضع"(١٦).

ويكفي الباقلاني فخرًا أنّ "هذه الأصول هي هي فيما وضعه المتأخرون من البلاغيين في مقدمات كتبهم... وحين يصح ذلك -كما يقول د. عبد الرؤوف مخلوف- فإنه يمكن القول بأنّ الباقلاني أصل فيما ذكره المتأخرون وكل من جاء بعده أخذ عنه على تفاوت في درجة الأخذ منه، والزيادة عليه"(١٧).

ولعل لشمولية هذه الأصول والأحكام واتساعها، أثرًا في طغيانها على آراء القاضي الجرجاني (ت ٣٩٢هـ)، الذي أطلق عليها تسمية "النمط الأوسط" بدلاً من "الاعتدال" الذي نادى به الباقلاني، وذلك ما نتأمله في "الوساطة بين المتنبِّي وخصومه"، إذ يقول: "أريد النمط الأوسط، وما ارتفع عن الساقط السُّوقي، وانحطّ عن البدوي الوحشي، وما جاوز سفسفة نصر ونظرائه، ولم يبلغ تعجرف هميان بن قُحافة وأضرابه"(١٨).

ومن أحكام الباقلاني النقدية ذات الملامح المتجددة تعليقه أهمية على (المبدع) الذي لا يراه إلا "مصورا" منفردًا عن غيره ممن أثروا الحديث عن الصورة الفنية في النص الأدبي، ولم يلتفتوا إلى المبدع -في الأغلب الأعم- على نحو ما نطالعه عند الجاحظ في قوله: "فإنما الشِّعر صناعة، وضرب من النسج، وجنس من التصوير"(١٩)، أي إنّ الجاحظ أولى أهمية لصورية الشِّعر، لا للمصور، وقد وضع الباقلاني معيارًا نقديًّا أوضح من خلاله من هو أحذق المصورين، وهو عنده: "مَن صوّر لك الباكي المتضاحك، والباكي الحزين، والضاحك المتباكي، والضاحك المستبشر"(٢٠) ثم يعرج على تحديد أدوات المصور، ويراها متمثّلة بـ"لطف في اللسان والطبع" مثلما يحتاج "الخط مع بيانه إلى رشاقة وصحة وملاحة ولطف"، حتى تتحقق غاية المصوّر وهي "تصوير ما في النفس للغير"(٢١).

ومن المبدع المصور ينتقل الباقلاني إلى النص الأدبي نفسه، عندما يراه يفضي إلى ثلاث حقائق، الأولى تتعلق بالنص "إذا عرف ما يجري إليه الكلام، وينهي إليه الخطاب، ويقف عليه الأسلوب، ويختص به القبيل، بان عند أهل الصنعة تميّز بابه"، والثانية بالبليغ عندما "لا يشك في انتمائه إلى الجهة التي ينتمي إليها"، والحقيقة الثالثة علاقتها بالأديب البارع من حيث عدم ارتيابه "في انتسابه إلى ما عرف من نهجه"(٢٢).

ويعنى الباقلاني بـ"الكلام المغلق" و"الإشارات" في النص الأدبي، ويقول "إذا بلغ الكلام من هذا القبيل مبلغًا زاد الإفهام به على الإيضاح، أو ساوى مواقع التفسير والشرح مع استيفائه شروطه كان النهاية في

معناه"[٢٣]. ويبدو أنّ هذا الضرب من المعاني في مثل هذا النوع من الكلام "كالجوهر في الصدف، لا يبرز لك إلا أن تشقّه عنه، وكالعزيز المتحجب لا يريك وجهه حتى تستأذن عليه"[٢٤] كما نعته عبد القاهر الجرجاني الذي يرى أيضًا أنّ هذا المعنى "إذا نيل بعد الطلب له، أو الاشتياق إليه، ومعاناة الحنين نحوه، كان نيله أحلى، وبالمزية أولى، فكان موقعه من النفس أجلّ وألطف، وكانت به أضن وأشغف"[٢٥]. وبذلك يكون الباقلاني قد التفت إلى ظواهر نقدية أتاحت للاحقين أن ينطلقوا منها، ويبنوا أحكامهم عليها.

وللباقلاني رأي في البلاغة ووجوهها وصلتها بالإعجاز، يقوم أساسًا على إنكاره "من يريد أن يأخذ إعجاز القرآن من وجوه البلاغة التي تسمى البديع... من غير أن يقارنه بما يتصل به من الكلام ويفضي إليه قائلاً: "إنّ ما اتسم به وحده بنفسه معجز، وإنّ التشبيه معجز..."[٢٦]. وذلك ما أفضى بالباقلاني إلى أن ينظر في النص الأدبي من هذا المنظور، أي من حيث إنّ الصور البديعية لا يستفاد من جهتها معنى الجمال في النص، وإنما ينبثق ذلك الجمال من العلاقات التي تقوم بين الجمل المتضمنة للصور البديعية، وذلك ما اصطلح النقّاد القدماء على تسميته بـ"النظم"[٢٧]، وهذا وحده كفيل بإقامة القناعة لدينا أنّ الباقلاني قبل عبد القاهر الجرجاني قد تناول فكرة النظم -كما يقول د. مخلوف مع تأييدنا له- بمعنى العلاقات بين مكوّنات النص، ويكون هو واضعها الأول بذلك التحديد الصريح في مجال فن القول أساسها المفاضلة، من حيث

العلاقات، وليس من حيث تحقق الصور الفنية في الجزئيات"[٢٨]. وقد أكد أكثر من ناقد معاصر تأثر عبد القاهر الجرجاني بالباقلاني، أو -في الأقل- "أنه استوعب كل الأفكار التي سبقته في هذا الموضوع"[٢٩].

والباقلاني استدرك ما يوجب الاستدراك بشأن فكرة النظم، من حيث "قد يتبرأ الكلام المتصل بعضه من بعض، ويظهر عليه التشبيج والتباين للخلل الواقع في النظم"[٣٠].

ولا جديد فيما طرحه الباقلاني حول موضوع الصنعة والطبع، فهو تكرار لما قاله المتقدمون، وذلك واضح في رأيه الذي يلخصه قوله: "والشيء إذا صدر من أهله، وبدا من أصله، وانتسب إلى ذويه، سلم في نفسه، وبانت فخامته، وشوهد أثر الاستحقاق فيه، وإذا صدر من متكلف، وبدا من متصنع، بان أثر الغربة عليه، وظهرت مخايل الاستيحاش فيه، وعرف شمائل التحير منه"[٣١].

وإذ ننتهي من منهج الباقلاني وأحكامه وآرائه النقدية، التي تراوحت -كما يخيّل إلينا- بين التأثر والتجديد، فحسبنا أن نشير إلى بواعث دخوله ميدان النقد الأدبي، وهو الإمام العلاّمة المتخصص في العلوم الدينية طوال حياته.

الباقلاني... وبواعث نقده للشِّعر:

يمكننا أن نحصر طبيعة البواعث التي ألجأت الباقلاني إلى اقتحام الساحة النقدية، وطرحه أحكامًا وآراء في هذه الظاهرة أو تلك بثلاثة محاور رئيسة، هي: دينية، وأدبية وبلاغية...

ويكمن المحور الأول فيما هاج الباقلاني من "خوض الملاحدة في أصول الدين"، واستبشاعه لما بلغه أنّ بعض جهّالهم أخذ يعدّل القرآن الكريم "ببعض الأشعار، ويوازن بينه وبين غيره من الكلام، ولا يرضى بذلك حتى يفضله عليه"!![32].

فانبرى الباقلاني يوازن بين القرآن، وما يعدّ من عيون شِعر العرب، وما لا يرتاب في براءته، وما لا يشك في فصاحته، لا ليسقط مزاعم "الملاحدة" فحسب -لأنّ ذلك أمر مفروغ منه عند القاصي والداني- بل ليثبت أنّ إدراك إعجاز القرآن لا يقوم على الإيمان المجرد، والتسليم من غير نظر فقط، وإنما يجب أن يكون إدراكه مبنيًّا على النظر والفقه والتذوق.

أمّا محور الأدب، فهو يتعلق بحرص الباقلاني -حسبما نظن- على إظهار ثقافته الأدبية، وتمتّعه بحس نقدي لا يقل شأنًا عن غيره، بعدما وقف على شغف البلغاء والنقاد والنحاة والرواة وجمهور الناس بالشِّعر الجاهلي -بخاصة- وعدهم هذا الشِّعر مثقف الألسنة والحجة على اللغة، والشاهد على النحو... وما إلى ذلك.

فعمد إلى دراسته ونقده وتحليله ليظهر أنه كلام من كلام البشر، لابد أن يكون "كثير التلوّن، دائم التغيّر والتنكير، ويقف بك على بديع مستحسن، ويعقّبه بقبيح مستهجن، ويأتيك باللفظة المستنكرة بين الكلمات التي هي كلآلئ"[33].

إذًا كانت غاية الباقلاني من دراسة بعض الأشعار ونقدها وتحليلها، إظهار ما لهذا الشِّعر وما عليه، ما بدا في الظاهر من موازنة القرآن بها، مستندين في هذا الحكم إلى الباقلاني نفسه الذي كشف عن حقيقة هذا الأمر في قوله: "أنّ الذي عارض القرآن بشِعر امرئ القيس لأضل من حمار باهلة، وأحمق من هنبقة"[٣٤].

أمّا المحور البلاغي فيكمن في أنّ الباقلاني أراد أن يفرض نفسه عالِمًا بأسرار البلاغة ووجوه البديع، وذلك في محاولته أن يضع المعايير والأحكام السليمة على صناعة الكلام (شِعره ونثره)، وأثر أقسام البلاغة العشرة عند الباقلاني في هذه الصناعة، ملتفتًا إلى شِعر ابن المعتز، وما يتضمنه من التشبيه البديع[٣٥] ليطبق أحكامه عليه، بعد أن فرغ من وجوه البلاغة وعلاقتها بالإعجاز القرآني الذي سبق أن شرحنا مضمون أفكاره في هذا المحور.

وإذ نخلص من تبيان أبرز البواعث أو الدوافع التي حدت بالباقلاني أن يدخل ميدان النقد الأدبي، ويظهر فيه ندًّا قويًّا لنظرائه النقّاد والبلاغيين، وإن لم يكن رائدًا في بعض أحكامه، فحريّ بنا أن نعرّج على اتجاهاته أو منطلقاته في نقد الخطاب الشعري، استكمالاً لرسم أبعاد خطابه النقدي، مستندين إلى معلّقة امرئ القيس، ولامية البحتري في استنباط تلك الاتجاهات.

اتجاهات الباقلاني.. في نقد الخطاب الشعري:

من الحقائق التي اتفقت كلمة الدارسين عليها أنّ النقد الأدبي في القرن الرابع للهجرة قد بلغ الذروة في سعته وشموله، أو في عمقه ودقته،

وذلك نتيجة ازدهار الحياة الثقافية والأدبية بمختلف فنونها، واحتدام المعارك الأدبية، وكثرة الشعراء والكتّاب والنقّاد، واطلاع هؤلاء على ثقافات الأمم الأخرى، فضلاً عن تمتع المشتغلين في مجال النقد الأدبي بقدر واسع من الثقافة، لتشكل اتجاهاتهم أو منطلقاتهم في معرض تناولهم النصوص الشعرية بالدراسة والتحليل والنقد، أو موازنتهم بين الشعراء، أو عنايتهم بموضوع السرقات الشعرية، وتأليفهم المصنّفات ذات الطابع النقدي الصرف(٣٦).

ولعل أبرز الاتجاهات التي انطلق منها نقّاد ذلك العصر -بخاصة- هي اللغوية والنحوية والأدبية والخُلُقية، مع تفاوت في مدى الالتزام ببعضها من ناقد إلى آخر بحسب مرجعيته العلمية أو الأدبية.

ويمكن القول إنّ الباقلاني واحد من أولئك الذين انطلقوا من هذه الاتجاهات عندما تصدّى لمعلّقة امرئ القيس ولامية البحتري، وأجرى عليهما نقدًا تطبيقيًّا، اعتمادًا على التحليل المتدرج لأبيات كلتا القصيدتين.

بكلمة أخرى إنّ الباقلاني لم يخرج عن حدود الاتجاهات التقليدية التي سار عليها السابقون عليه أو المعاصرون له، إلا أنّ ذلك لم يمنع من عدّه "الوحيد الذي استطاع أن يفيد إفادة تفصيلية من جهود النقّاد السابقين، وأن يطور في أثناء بحثه لقضية الإعجاز بعض النواحي النقدية"(٣٧).

وسنعمد إلى أفراد مبحث لاحق يعنى بـ"تقويم الباقلاني لمعلّقة امرئ القيس فحسب"، بعد اطلاعنا على رأي الدكتور زكي مبارك في نقد الباقلاني لقصيدة البحتري(٣٨) لتأكيد مضامين تلك الاتجاهات.

الاتجاهان اللغوي والنحوي:

يعنى هذا الاتجاه بجزئيات الألفاظ والمعاني، وإن كان يؤدي غرضه إلى سلامة بناء القصيدة، وإبراز ملامح الصورة الفنية؛ لأنه يقوم أساسًا على تطبيق مقاييس الخطأ والصواب في نقد المعاني ومفرداتها، كما ينظر إلى فصاحة اللفظة المفردة ورشاقتها، فضلاً عن عدّ الجانب النحوي مفتاح السر في جمال النص، إذ يجب أن يضع الناظم كلامه الوضع الذي يقتضيه علم النحو ومعانيه، متوافقًا مع قوانينه وأصوله، وخلاف ذلك يفضي إلى خلل في التركيب، أو إخلال في المعنى(٣٩).

الاتجاه البلاغي:

يتعلق هذا الاتجاه بأساليب البيان، وألوان البديع في النص، على أن لا يكون فيها إغراق أو صنعة، ويكثر فيه أمر الموازنة لإيضاح الرديء والمستحسن من النص، كما يلتمس هذا الاتجاه أيضًا من الألفاظ ما لم يكن وحشيًّا، أو ساقطًا سوقيًّا وما شاكل ذلك(٤٠).

الاتجاه الخلقي أو الأخلاقي:

كان لشخصية الباقلاني الدينية، واتصافها بالورع والزهد والتقوى أثر في منطلقاته النقدية، من حيث سعيه لخلق الأديب أو الشاعر الفاضل أو رغبته في أن يكون الأديب على شاكلته، ويحمل معتقداته نفسها، وإذا كان الواقع خلاف ما يؤمن به، فحريّ به أن يرفض ويستهجن أيّ نوع من أنواع (الأدب الصريح) أو ما لا يمتّ إلى الخلق الشريف بصلة، وذلك

أبرز ما يتضمنه الاتجاه الأخلاقي أو الخلقي في نقد الشِّعر، الذي نادى به ناقدون سبقوا الباقلاني[٤١].

الاتجاه الأدبي:

وهو اتجاه يقوم على جانب كبير منه على الذوق الفني المقترن بالمعرفة، وكثرة الحفظ التي تعين الناقد على استجلاء المعنى المبتكر من المقلد، وذلك بالموازنة بين نصوص الشعراء في هذا الجانب أو ذاك، على نحو ما كان يصنع الباقلاني في تحليله النصين اللذين نحن بشأنهما، كما أنّ هذا الاتجاه يلتمس من الشِّعر ما كان أرقّه طبعًا، وأحلاه لفظًا، وألطفه معاني، وأبعد عن التكلف[٤٢].

ويبدو أنّ الباقلاني قد التزم بهذا المنهج ليؤكد تذوقه للشِّعر قديمه ومحدثه، ويفصح عن معرفته الواسعة بهذا الجنس الأدبي، وأنه يستطعم حلوه ويمجّ مرّه.

وخلاصة ما يمكن قوله إنّ تلك الاتجاهات في نقد الباقلاني شاخصة معطياتها في القصيدتين، وإن كان ذا طابع تحليلي معلل، إلا أنه افتقر إلى الموضوعية، ولا أدل على ذلك من الحكم المسبق الذي أطلقه الباقلاني على معلّقة امرئ القيس قبل أن يبدأ بدراستها ونقدها وتحليلها، ولاسيما قوله: "فتأمل ما نقوله في هذا الفصل لامرئ القيس في أجود أشعاره، وما نبيّن لك من عواره"[٤٣]. ويبدو أنّ الباقلاني قد أدرك ابتعاده عن النقد الموضوعي، بعد انتهائه من تحليل المعلّقة، فعاد يقول "قد بيّنا لك أنّ هذه القصيدة ونظائرها تتفاوت في أبياتها تفاوتًا بيِّنًا في الجودة والرداءة،

والسلامة والانعقاد، والسلامة والانحلال، والتمكن والاستصعاب والتسهل والاسترسال، والتوحش والاستكراه، وله شركاء في نظائرها، ومنازعون في محاسنها، ومعارضون في بدائعها"[٤٤].

وهذا هو معيار النقد في تمييز الجيّد من الرديء، على الرغم من إعلان الباقلاني تمسكه بهذا المعيار، إلا أنّ واقع الأمر يشير إلى خلاف ذلك تمامًا، من حيث تحامل العالم (الناقد) على شاعر رأس الطبقة الأولى من فحول الجاهلية[٤٥]، فالعيوب التي طلبها أو نشدها في المعلّقة، كانت من الكثرة لا يصح أن تقارن بتلك الشذرات المسجلة للشاعر. ويقال الشيء نفسه في نقده التحليلي قصيدة البحتري اللامية، إذ قال في شأنها مسبقًا: "ونحن نعمد إلى بعض قصائد البحتري فنتكلم عليها، كما تكلمنا على قصيدة امرئ القيس، ليزداد الناظر في كتابنا بصيرة، ويستخلص من سر المعرفة سريرة، ويعلم كيف تكون الموازنة، وكيف تقع المشابهة والمقاربة"[٤٦].

والباقلاني في موقفه هذا معذور، وغير معذور، فهو معذور بسبب ما نعت به جاهل من جهال الملحدين، من الموازنة بين الكلاميين، وتفضيل شِعرهم على القرآن!، وغير معذور؛ لأنّ الموازنة لا عدل فيها، إذ كان "حسبه من الدليل أنّ أهل الجاهلية بتركهم معارضة القرآن بشِعرهم أو كلامهم، هو إقرار لا معقّب عليه بفضل هذا القرآن على شِعرهم وكلامهم، فلم تكن بالباقلاني حاجة إلى سلوك هذا الطريق الذي سلكه"[٤٧].

وحسبنا -إزاء ذلك- أن نعمد إلى نقد تطبيقي لأبيات المعلّقة من رؤية رصد مغايرة تمامًا، ولاسيما في استقلالها عن "نظم القرآن" بوصفه الحق الذي لا ينال منه الباطل.

آملين أن يقترب من الموضوعية التي افتقر إليها الباقلاني بسبب تحامله على الشاعر، واضعين نصب أعيننا، أننا لسنا أوصياء عليه في أن يقول كذا وكذا، مع رغبتنا في أن يضم الشِّعر الألفاظ والمعاني الشريفة والنبيلة، ويصل من خلالها إلى المستوى الفني الرفيع المنشود.

نقد معلّقة امرئ القيس... بين التحامل والموضوعية:

من خلال قراءتنا المتأنية لنقد الباقلاني التطبيقي والتحليلي لأبيات معلّقة امرئ القيس، تحديدًا يمكن القول إنّ الإمام العالم لم يكن موضوعيًّا في نقده لجملة أسباب أبرزها، أنّ الباقلاني قد طلب عيبًا في الشعر الجاهلي، من خلال شِعر امرئ القيس -فوجده- ليظهر مدى التفاوت بين ما يعدّ بليغًا من كلام البشر (الشعراء) ونظم القرآن، أو إثبات إعجازه بمعنى "أدق" وهو أمر محكوم للقرآن بلا جدال. فكان الأولى به أن يجعل لغة الشِّعر الجاهلي في خدمة القرآن الكريم لا العكس كما صنع (الخطابي)، إذ "اعتمد على تفاوت الشاعرين إذا هما تنازعا معنى واحدًا، وعلى تميّز كل شاعر في ناحية كالأعشى والأخطل في وصف الخمر، وذي الرمّة في صفة الأطلال والدمن، إلا أنه استغل هذه المسألة لدحض المعارضة للقرآن وبيان قصورها، ولم يستغلها على طريقة الباقلاني"[٤٨]. حتى وصف نقد الباقلاني بأنه "نقد لا غناء فيه ولا استقامة

لمقاييسه"، ثم إنّ اختياره للمعلّقة لم يكن صائبًا، لأنه يقرّ بأنها "قد ترددت بين أبيات سوقية مبتذلة، وأبيات متوسطة، وأبيات ضعيفة مرذولة..."(٤٩).

فمن الطبيعي إذا كان النص محتويًا على هذه المضامين، أو تلك الصفات أن يحصل التنافر المسبق بين الناقد الورع التقيّ الزاهد، والشاعر اللاهي الماجن!.

ومن هذا الباب أيضًا أننا لا نشاطر الباقلاني الرأي في الوقوف عند الألفاظ وقفة لا تخرج عن إطار المعنى الضيق الأفق، أو ما يعرف بالمعنى الظاهري، وهو "من جملة الرديء" إذ نسي أو تناسى دلالة اللفظة داخل السياق الشعري، وتعبيرها عن معنى أوسع مما طبقه في الإعجاز القرآني. أمّا رؤيته في تكرار الشاعر لبعض الألفاظ، لغرض إقامة الوزن والقافية فهي مردودة، لعلة بسيطة هي أنّ دواوين شعراء جاهليين وغير جاهليين تزخر بظاهرة توالي تكرار المقطع والألفاظ والحروف، بوصفه -أي التكرار بأنواعه- نغمًا يندرج تحت ما يسمى بـ"جرس الألفاظ، وهو لفظ واسع الدلالة ينضوي تحته كل ما يتعلق بدلالة الألفاظ في البيان الشعري، وهو الكفيل بأن يأخذ بألباب السامعين، فضلاً عن أثره في التعبير والتأثير(٥٠).

ويبدو لنا أنّ الباقلاني قد تجاوز مرتكزات عدة لدى تحليله هذا النص الشعري، منها الخصائص اللفظية والمعنوية التي تميّز بها الشعر الجاهلي من غيره، ثم ما ورثه هذا الشِّعر من معتقدات وأفكار وتقاليد فنية لها أثرها في بناء القصيدة الفكري والفني، كما أنه لم يأخذ سيرة الشاعر بالحسبان، ولم يلتفت إلى باعث نظم المعلّقة؛ لأنّ هناك نمطًا شعريًّا،

وليد بواعث موضوعية صرف يقوم بقيامها، وينتهي بانتهائها، وأنّ أيّ نمط شعري هو ملتقى آثار متفاوتة متمثلة بالموروث والواقع والتجربة، نقول إنّ الباقلاني قد تجاوز هذه المرتكزات؛ لأننا مقتنعون أنه عالم بأسرار الشعر الجاهلي من الوجوه كافة، وما إطلاقه على المعلّقات السبع تسمية "السبعيات"(٥١) إلا دليل على مدارسته واستيعابه لعيون هذا الشعر على أسس نقدية وفنية.

وتأسيسًا على ذلك سنعمد إلى إجراء نقد تحليلي تطبيقي معلل على أبيات المعلّقة، نأمل أن يكون تقويمًا لنقد الباقلاني في معطياته، معتمدين على تعاقب الأبيات التي تضمنها كتابه "**إعجاز القرآن**"(٥٢).

قال امرؤ القيس:

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل   بسقط اللوى بين الدخول فحومل

لا نجد أيّ خلل في ابتداء الشاعر وقوفه على أطلال بعثت فيه ذكرى ذلك الحبيب الذي التقاه يومًا ما، وفي دعوة رفاقه للوقوف إظهارًا للوعة الحب التي ربما لا تعطي مصداقيتها إلا بالمشاركة والتعاطف معه، ولا ضرر أن يقترن هذا الحب بالبكاء في مدلوله الحقيقي أو المجازي، أي الصوت والحزن، وقد استحسن القدماء هذا المطلع، وعدّوه من مبتكرات امرئ القيس، إذ وقف واستوقف، وأبكى من معه، أمّا الباقلاني فيراه "من السخف أن لا يغار على حبيبه، وأن يدعو غيره إلى التغازل عليه، أو التواجد معه فيه" (**إعجاز القرآن**: ٢٤٤).

أمّا عجز البيت فقد عدّه هو الآخر " ضربًا من العيّ (**إعجاز القرآن**: ٢٤٥). ويبدو أنه نسي أنّ الشاعر أراد من ذِكر المواقع وتعدادها إثبات حقيقة إقامته في تلك الديار، وتمتّعه في ظلال ربوعها زمنًا، أمّا قوله "سقط اللوى" فأراد الشاعر من هذا الموضع أن يؤكد أنّ الآثار لم تدرس، إذا أقيمت في صلابة من الأرض، وذلك ما يومئ إليه المعنى المعجمي للفظة. ودليل ذلك، قول الشاعر في البيت الثاني بعد تعداد أسماء المواضع التي تحيط بأطلال الديار:

فتوضح فالمقراة لم يعف رسمها   لما نسجتها من جنوب وشمال

فهو لا يكتفي بذلك إنما يضيف سببًا آخر لبقاء هذه الآثار شاخصة للعيان، وهو كامن في اختلاف مسار الريحين عليها، وهي صورة فنية تشبه (آلة النسيج) في عصرنا الحاضر فتعاقب حركة الآلة باتجاهين متباينين يولد ذلك النسيج! وهو أراد من الريحين أيضًا عطفهما على تلك الديار لما تحملهما من قدسية، فحسبنا أن نعرف أنّ الجنوب: الريح القبلية نسبة إلى القِبلة، والشمال الجوفية (نسبة إلى الجوف في شمال مكة).

ويخيّل إلينا أنّ رأي الباقلاني في قوله: "أي فائدة يعرفنا أنه لم يعف رسم منازل حبيبه (**إعجاز القرآن**: ٢٤٥) مردود؛ لأنّ الأثر هو باعث على الذكرى وليس العكس. ثم نسأل لماذا أغفل الباقلاني هذه الصورة الفنية في بيت امرئ القيس:

كأني غداةَ البينِ يومَ تحملوا   لدى سمرات الحي ناقف حنظل

فالشاعر رسم صورة لذلك الفراق في أروع ما تكون الصورة في تحشيدها ألفاظًا تتلاءم مع ألم الوداع والفراق ؛ وذلك أبرز ما في هذا البيت، فسمرات الحي أشجار شوكية لا تنبئ إلا بالعطش والجلد، وهو معنى يتجانس مع الوداع الذي يعطش المحب ويلزمه على الصبر، والحنظل نباتٌ مرّ المذاق، كمرارة ذلك الوداع الذي ذاق طعمه شاعرنا في معناه المجازي!، وعندما نأتي إلى قول امرئ القيس :

وقوفا بها صحبي عليّ مطيّهمْ　　يقولون لا تهلْكْ أسىً وتجمّل

وإنّ شِفائي عبرةٌ مهراقة　　فهل عند رسمٍ دارسٍ من معوّل

فالبيت الأول تأكيد قولنا بواعث المشاركة الوجدانية التي طلبها الشاعر من خلانه، بدعوتهم إلى البكاء أو الحزن معه، فبعد أن أحسّوا بفيض مشاعره طلبوا منه أن يكفّ عن بثّ همومه وأحزانه خوفًا عليه، وهي دعوة طالما يودّ سماعها المحب، إظهارًا لمحبّته، وإشفاقًا عليه، وتصديقًا لمن يحب!! أمّا تعقيب الباقلاني على البيت الآخر (وإن شفائي عبرة...) فهو قوله : "والبيت الثاني مختلّ من جهة أنه قد جعل الدمع في اعتقاده شافيًا كافيًا، فما حاجته بعد ذلك إلى طلب حيلة أخرى". (**إعجاز القرآن : ٢٤٨**). نقول إنّ البكاء أو الحزن تبديد للمعاناة ليس إلا ؛ لأنّ الشاعر كان يعرف جيّدًا أنّ ذلك البكاء أو الحزن عند ذلك الأثر غير مجدٍ مسبقًا، فهو يشعر المتلقّي أنه غير غافل عن ذلك التساؤل الموجّه إليه، مودعًا إياه في عجز البيت.

وعندما نمضي مع الشاعر وهو يقص علينا أسماء حبيباته ومغامراته، يذكر لنا أنه اتخذ عادة البكاء أو الحزن مع كل من يفارقها، إذ يتذكر أنه صنع ذلك مع "أمّ الحويرث" و"أمّ الرباب" في موضع "مأسل" إذ يقول:

كدأبِكَ من أمِ الحويرثِ قبلهَا   وجارتها أم الربابِ بمأسلِ

وهنا يكشف الشاعر لنا عن كونه "زير نساء" وبكاؤه هو بكاء فاقد اللذات؛ لأنه يبكي على ذكريات تلك اللقاءات الجميلة فحسب، لا يبكي حبًّا، بشخوصها، وذلك ضرب من التفاخر؛ لأنّ من يكسب "النساء ويحظى بحبهن حق له الافتخار، وإظهار ما يتمتع به من مكانة في نفوسهن".

وهذا يتعارض مع قول الباقلاني: "أنت لا تشك في أنّ البيت الأول قليل الفائدة، ليس له مع ذلك بهجة فقد يكون الكلام مصنوع اللفظ (**إعجاز القرآن**: ص٢٤٨). أمّا تعقيبه على قول امرئ القيس:

إذا قامتا تضوع المِسك منهما   نسيمَ الصبا جاءت بريّا القَرَنْفُلِ

فهو قوله: "لو أراد أن يجود أفاد أنّ بهما طيبًا على كل حال، فأمّا في حال القيام فقط فذلك التقصير (ص٢٤٨)، يبدو لنا أنّ الباقلاني لم يكن خبيرًا بالنساء كامرئ القيس أو علقمة الفحل -على سبيل المثال لا الحصر-. ولعل امرأ القيس أراد من حال القيام علّتين:

أولاهما: أنّ العطر يفوح برائحة أكثر شدة عند الحركة، ثانيتهما: أنّ قيام المرأتين كان كانتصاب القرنفل هبّ عليه النسيم وأتى برياه، وفي عجز البيت توضيح يجسّد طبيعة تلك الرائحة الطيّبة.

ويرى الباقلاني "أنّ الدمع يبعد أن يبل المحمل، وإنما يقطر من الواقف والقاعد على الأرض أو على الذيل، وأنّ بله فلقلته وأنه لا يقطر" (**إعجاز القرآن**: ص٢٥٠). وذلك نقده لهذا البيت:

ففاضت دموعُ العينِ مني صبابة   على النحر حتى بل دمعي محملي

أمّا تعقيبنا عليه فنلخصه بقولنا: إنّ الشاعر لم يرد غزارة الدموع التي فاضت بها العين حتى وصلت إلى محمله، بقدر ما أراد أن يومئ للمتلقّي أنه لا يبكي ضعفًا إنما يبكي وجدًا وعشقًا، وأنه لا يزال ذلك الفارس الذي لا يشقّ له غبار، بمعنى آخر أنه (أي الشاعر) كان عاشقًا ومتيَّمًا وفارسًا رقيق المشاعر، من منطلق أنّ المعنى اللغوي للفظة (المحمل) هو سير يحمل به السيف، والسيف كناية عن الشجاعة، بل يترادف معها. وفي بيت امرئ القيس:

ألا رب يوم لك منهن صالحٍ   ولا سيما يوم بدارة جلجل

يقول الباقلاني: "البيت خالٍ من المحاسن والبديع، خاوٍ من المعنى... (ص٢٥٠). أمّا رأينا في هذا البيت فهو يمثّل الباعث الحقيقي وراء نظم امرئ القيس لمعلّقته "لأنّ يوم الغدير وهو يوم دارة جلجل" قصة التقائه بابنة عمه -التي كان لها عاشقًا- وهي فاطمة أو الملقّبة بعنيزة، وأنه طلبها فلم يصل إليها، وأراد أن يتزوجها فلم يقض له، حتى إنّ مغامراته التي يسردها بعد هذا البيت كلها تدور في ذلك الموضع حول ابنة عمه ورفيقاتها... مع اعترافنا أنّ هذا البيت لا يرتقي من الناحية الفنية إلى مستوى أبيات المعلّقة الآخر، وذلك طبيعي عند كل الشعراء إذ تتفاوت

حظوظهم ليس من قصيدة إلى أخرى إنما من بيت إلى آخر، حتى إنه في بعض الأحايين يطغى بيت واحد على معلّقة أو قصيدة طويلة! أمّا قوله:

ويـومَ عَقَـرتُ للعَـذارى مطـيتي فيـا عَجبـا مـن رحلـها المتحمـلِ
فظـلّ العـذارى يـرتمين بلحمهـا وشـحمٍ كهُـدّاب الـدّمقسِ المفتّـلِ

فيرى الباقلاني أنه "بعيد، وهو منقطع عن الأول، وظاهره أنه يتعجب من تحمل العذارى رحله وليس في هذا تعجب كبير، ولا في نحر الناقة لهن تعجب" (ص٢٥١).

بيد أننا نخالف ما ذهب إليه الباقلاني جملة وتفصيلاً... فالتعجب كانت غاية امرئ القيس فيه وهو شد انتباه المتلقِّي على إبراز حظوته عند النسوة، عندما حكى لنا تسابقهن في حملهن عدة رحله، حتى إنّ بعض النقّاد فسّره بالقول "فيا قومي اعجبوا عجبًا"، مما يؤكد صحة ما ذهبنا إليه، أمّا أمر تبجّحه بما أطعم للأحباب "مذموم"، كما يقول الباقلاني (ص٢٥٢)، فإنه لا يدخل من هذا الباب، إنما أراد الشاعر أن يؤكد كرمه نحو النسوة اللائي قد يعشقن الرجل لكرمه وسخائه، كما أنه أراد تشبيه اللحم بالدمقس من حيث بياضه ولينه ونعومته، هادفًا من هذا التشبيه أنّ ناقته أصيلة نقيّة كأصالة صاحبها ونقائه من كل عيب يدنّسه، لا كما يقول الباقلاني "بشيء" واقع للعامّة ويجري على ألسنتهم" (ص٢٥٢). ثم يتعرض لبيتي امرئ القيس وهما:

ويوم دخلت الخدر خدر عنيزة فقالت لك الويلات إنك مرجلي
تقـول وقـد مـال الغبـيط بنـا معـا عقرت بعيري يا امرأ القيس فأنزل

قائلاً: "قوله": "دخلت الخدر خدر عنيزة، ذكره تكريرًا لإقامة الوزن، لا فائدة فيه غيره، ولا ملاحة له ولا رونق" (ص٢٥٣)... وعقب على عجز البيت الأول بأنه "كلام مؤنث من كلام النساء، نقله من جهته إلى شِعره وليس فيه غير هذا". (ص٢٥٣).

ورؤيتنا مغايرة تمامًا لما ذهب إليه الباقلاني، إذ يخيّل إلينا أنّ امرأ القيس أراد من التكرار أن يؤدّي إلى تقوية المعاني الصورية أو التفصيلية، وقد كان دقيقًا في سرده القصصي الذي تبدو أهميته في نقل المتلقّي إلى أجواء تلك المغامرة، وجعله يسترق السمع إلى تلك المساجلة التي كانت عنيزة أحد طرفيها في صورتها الرافضة لسلوك القانع بأدائه.

واعتراضه على البيت الآخر انصب على تكريره "فقالت" مرة، ومرة "تقول" وذلك "في النظم قبيح" (ص٢٥٣).

يبدو أنّ الباقلاني تناسى أنّ أحد أركان ملامح السرد القصصي في الشعر العربي قيامه على عنصر "الحوار" بوصفه الوسيلة التي يرتكز عليها الشاعر لإيضاح أفكاره، ورسم الشخصيات وعرض الفعل القصصي ومنح المتلقّي إحساسًا بالمشاركة الوجدانية.

أمّا أنّ امرأ القيس احتاج إلى ذكر البعير لإقامة الوزن فهو احتمال بعيد، لعلة بسيطة هي أنّ العرب يحملون النساء على ذكور الإبل لأنها أقوى.

أمّا أبيات امرئ القيس:

فقلت لها سيري وأرخي زِمامَه ... ولا تبعديني من جَناكِ المعلِّل

فمثلك ....

إذا ما بكى............................... ....

ويوماً على ظهر....................... ....

فهي على ما فيها من الفحش والتهتك والمجون ألجأت الباقلاني إلى أن يصبّ جام غضبه عليها. (ص٢٥٤-٢٥٦) في حين أنّ امرأ القيس أراد تعلّق عنيزة به، على الرغم من بغض النساء (المرضعات) للرجال، وهو بذلك يجاهر مفتخرًا أنّ المراضع والحبالى معجبات به، وخصّهن دون الأبكار، لأنّ البكر أشد محبة للرجال وأبعدهن عن الفرك. ثم يعقّب على بيتي امرئ القيس:

أفاطمَ مهلاً بعض هذا التدللِ وان كنتِ قد أزمعتِ صُرْمي فأجمِلي

أغرْكِ مني أنّ حبّكِ قاتلي وأنكِ مهما تأمري القلبَ يفْعل

في قوله "البيت الأول فيه ركاكة جدًّا، وتأنيث ورقة، ولكن فيها تخنيث" (ص٢٥٦). ونحن نسأل أين الركاكة؟ عندما يخاطب حبيبته واصفًا إياها بذلك التدلل الذي تتصف به النسوة عادة! والبيت الثاني: دخل في وجه آخر من المناقضة والإحالة في الكلام (ص٢٥٧)، وحسبنا أن يكون ردنا، أنّ هذا البيت تحديدًا، قد عدّه بعض النقاد "أغزل بيت قالته العرب". كما صرح بذلك الحاتمي في "**حليته**": [١/ص٣٧٠]. أمّا رأي الباقلاني في هذين البيتين:

فإنْ كنتِ قد ساءتْكِ مني خليقةٌ فَسُلّي ثيابي من ثِيابكِ تنْسُلِ

وما ذرفتْ عيناكِ إلا لِتضْربي بسهميك في أعشار قلبِ مقتّلِ

فهو قوله في البيت الأول "إنه قليل المعنى، ركيكه ووضيعه، وكل ما أضاف إلى نفسه ووصف به نفسه سقوط... ولكن يورده مورد أن ليست له خليقة توجب هجرانه والتفصِّي من وصله، وأنه مهذب الأخلاق، شريف الشمائل، فذلك يوجب أن لا ينفك من وصاله" (ص٢٥٨) كما يقول الباقلاني. ثم لا يخفي إعجابه بالبيت الثاني، لكنه يأبى الإقرار بالصورة الفنية الجميلة له، إذ يقول: "لو سلم له بيت من عشرين بيتًا، وكان بديعًا ولا عيب فيه فليس بعجيب، لأنه لا يدعّي مثله أنّ كلامه كله متناقض ونظمه كله متباين" (ص٢٦٠). أمّا قول امرئ القيس:

وبَيْضةِ خِدرٍ لا يرامُ خباؤها　　تمتّعتُ من لَهو بها غيرَ مُعْجَلِ
تجاوزتُ أحراسًا وأَهوالَ معشرٍ　　عليّ حِراصٍ لو يسرُّون مَقْتَلِي

فقد ذكر الباقلاني أن "ليس في البيت كبير فائدة... وهو مع ذلك بيت سليم اللفظ في المصراع الأول دون الثاني" (ص٢٦٢).

لو دقق الباقلاني النظر في البيت الأول "وبيضة خدر..." لوجد أنّ امرأ القيس خصَّ تلك المرأة بسمة العفّة ليمتدح نفسه من خلالها بتشبيهها بالخدر بوصفها مكنونة غير مبتذلة... بمعنى أنه يعشق النسوة اللواتي لم تمس من أحد دونه.

ثم يصف البيت الثاني بأنه "ضعيف" ولاسيما قوله "لو يسرّون مقتلي"، أراد أن يقول لو أسروا، فإذا نقله إلى هذا ضعف ووقع في مضمار الضرورة. والاختلال على نظمه بيّن، حتى إنّ المتأخر يحترز من مثله (ص٢٦٢).

يخيّل إلينا أنّ في هذا البيت تعظيمًا لشأن شاعرنا امرئ القيس... فهو لا يخشى أولئك الحراس، وتلك الصعوبات التي تحول دون وصوله، وهي صورة تفصح عن مدى شجاعته وخطورة مغامراته غير آبه بمشقّة ولا مدّخر لجهد في سبيل من يروم لقاءها، والصورة الأخرى دالة أيضًا على الشجاعة وهي أنّ أولئك القوم لو أمكنهم قتلي ظاهرًا لينزجر ويرتدع غيري عن مثل صنيعي! كما يقول الشاعر نفسه. ولا تعليق لنا على بيت امرئ القيس:

إذا ما الثّريا في السماء تعرّضتْ ... تعرّضَ أثناءِ الوِشاح المفصَّلِ

لأنّ الباقلاني يراه "من محاسن هذه القصيدة" حتى إنه أنكر من عابه عليه (ص٢٦٤)؛ وإذ يقول امرؤ القيس:

فجئتُ وقد نضَّتْ لنوم ثيابَهَا ... لدى الستر إلاّ لِبْسةَ المتفَضِّل

فقالت يمينَ اللهِ ما لكَ حِيلَةٌ ... وما إنَّ أرى عنكَ الغوايةَ تَنْجَلي

فخلاصة رأي الباقلاني في الأول أنه وجد فيه تناقضًا للأبيات التي سبقته معقّبًا على ذلك "فما كان من سبيله أن يقدّمه إنما ذكره مؤخرًا" (ص٢٦٧).

يبدو أنّ الباقلاني أغفل حقيقة أنّ امرأ القيس أراد أن يفاجئ المتلقّي عندما أعلمه بعد تلك الحكاية أنّ "عنيزة" كانت متلهّفة لرؤيته، إذ إنها قد خلعت ثيابها عند النوم غير ثوب واحد.. ووقفت عند الستر مترقّبة ومنتظرة إياه، مدّعية لأهلها أنها تريد النوم!

وأمّـا البيـت الثـاني، فيقـول عنـه البـاقلاني: "فيـه تعليـق واخـتلال... والكلام في المصراع الثاني منقطع عن الأول، ونظمه إليه فيه ضرب من التفـاوت" (ص٢٦٨)، لكننـا نـراه خـلاف ذلـك تمامًـا، فالـشاعر أراد أن يلفت نظر المتلقِّي إلى أنّ تلك المرأة تحبه حبًّا جمًّا، فهي تبحث معه عن دليل يشفع له في هذه الزيارة، أو أنها تسلّم بهواه وطيشه حبًّا به، حتى قال الشراح: هذا أغنج بيت في الشِّعر" [ينظر: **شرح المعلّقات السبع**، الزوزني، ص٢٤].

وبشأن نقد الباقلاني للألفاظ نطالعه في هذين البيتين:

فقمتُ بها أمشي تَجُرُّ وراءنَا ... على إثرِنا أذيالَ مِرْطٍ مُرَحَّلِ

فلمّا أجَزْنا ساحة الحَيِّ وانْتحَى ... بنا بطنُ خبتٍ ذي حِقافٍ عَقَنْقَلِ

إذ يقول فيهما: قال: "وراءنا على إثرنا" ولو قال على إثرنا كان كافيًا، والذيل إنما يجر وراء الماشي، فلا فائدة لذكره "وراءنا"، وتقدير القول فقمت أمشي بها، وهذا أيضًا ضرب من التكلّف... وقوله "أذيال مرط" كان من سبيله أن يقول "ذيل مرط" (ص٢٦٨).

لقد أوقع الباقلاني نفسه في مأزق في مثل هذا النقد، لأنّ امرأ القيس أراد أبعد من ذلك، فهو يريد أن يشعر المتلقِّي أنه لم يكن متهوّرًا في دخوله ذاك الخدر، بل هو حذر مدرك للعواقب، ومن الدلائل على ذلك ابتعاده عن بيوت القبيلة لئلا يراه الناس ويفضحوا أمره. كما أنّ الإزار أسهم في تعفية آثار أقدامهما في الطريق الذي سلكاه معًا... ثم انعطافه في تلك "الحقاف المنعقدة" وسيلة للانفراد بحبيبته من جهة، وعدم تعكير

صفوته وخلوته من جهة أخرى، فضلاً عن ذلك الاحتراس والدهاء اللذان يمتاز بهما. فكأنّ امرأ القيس يعطي دروسًا في الحب والغزل لمن يجهل قلوب النسوة، ولا يعلم ما يرغبن فيه، ويرغبن عنه!

هكذا نرى البيت صورة فنية متكاملة، لأنّ المناداة بتقديم هذه اللفظة على تلك تفقد قيمة السياق، وتجرّد الفنان عن الإبداع في الصياغة والأداء وتحصر الشِّعر في إطار قوالب جامدة لا حياة فيها. ثم يسترسل الباقلاني في نقد لفظة تلو الأخرى في قول امرئ القيس:

تَصدّ وتُبدي عن أسِيلٍ وتتّقي بناظرة من وحشِ وجرةَ مطْفِلِ
وَجيدٍ كجِيدِ الرِيْمِ ليس بفاحشٍ إذا هي نصّتْهُ ولا بِمُعَطَّلِ

وسبق القول إنّ التفسير المعجمي لألفاظ الأبيات لا يصح ولا يعطي معنى النص الشعري، لأنّ اللفظة كما ذكرنا لها معنيان معجمي ضيّق الأفق، ورمزي مكنون في الصورة الفنية هو أبلغ أثرًا في نفس المتلقّي.

فعندما نتأمل بعض آراء الباقلاني في هذين البيتين، يطالعنا ما نصه: "معنى قوله عن أسيل": أي بأسيل، وإنما يريد خدا ليس بكزّ، وقوله: "...تصدُّ وتبدي عن أسيل": متفاوت، لأنّ الكشف عن الوجه مع الوصل دون الصد... وأمّا البيت الثاني فمعنى قوله "ليس بفاحش: أي ليس بفاحش الطول". (ص٢٧١ و٢٧٢).

قد لا يختلف اثنان في كون هذا التفسير يزري بالشِّعر، ويجعله مجرّد مفردات يصح الاستشهاد بها أو لا يصح، ولكننا إذا نظرنا إلى النص

الشِّعري من ناحية الشمول والتكامل، ومن الوجهة الفنية بدا لنا خلاف ذلك.

فامرؤ القيس أراد أن يضفي على هذه المرأة شيئًا من سمات المرأة الناضجة المكتملة التي لا ترمي نفسها في أحضان الرجل من النظرة الأولى، أي أنها "تتمنّع وهي راغبة" وهذه خصلة جميلة في المرأة فضلاً عن إعجاب الرجل بها... أمّا حديثه عن عينيها فكناية عن بعد نظرها في اختيار الرجل المناسب لها، وهي نظرة تشبه "عيون ظباء وجرة أو مهاها اللواتي لهن أطفال" ليضفي على هذه المرأة مظاهر الحنين والشوق... أمّا الصورة الفنية في البيت الثاني فهي كناية عن جمال تلك المرأة، المتمثّل بذلك العنق الجميل الذي يشبه عنق الظبي الأبيض الخالص، مع خلوّه من الحلي من جهة، وحسن تدبيرها للقاء به بالنظر خلسة إلى الأعلى خشية العاذل الذي قد يعكّر صفو خلوتهما من جهة أخرى؛ لأنّ رفع الظبي لعنقه بمقدار مناسب يتيح له الاطمئنان إلى عدم وجود متربّص به.

أمّا ما عدّه الباقلاني من محاسن القصيدة، ولاسيما أبيات امرئ القيس في وصف الليل والفرس، فقد كفانا مشقّة نقدها مجددًا، ونحمد الله على إعجابه بتلك الأبيات.

تلك هي رؤيتنا للأبيات الشعرية المستشهد بها من معلّقة امرئ القيس، التي وردت في كتاب "**إعجاز القرآن**"، وهي رؤية مخالفة تمامًا لما ذهب إليه الإمام الباقلاني، ومع إقرارنا بغزارة علمه وفضله علينا، لكننا نخالفه بشأن دراسة الشِّعر الجاهلي ونقده، وتحليله على وفق منهج يستند في

معطياتـه إلى اتجـاه آحـادي الجانـب حسب، وهـو الاتجـاه الخُلقـي في نقـد الخطـاب الـشِّعري. ولاسـيما إذا كـان الـشاعر (الفنـان) بعيـدًا عـن التحلِّـي بالقِيَم الخلقية وإن كنّا ننشدها فيه!

الهوامش:

* كلية التربية للبنات- جامعة بغداد- بغداد- العراق.

(١) انظر: **الأنساب** للسمعاني، تصحيح الشيخ عبد الرحمن بن يحيى اليماني، حيدر أباد-الدكن/الهند: ٢/ ٥٢، و**الوافي بالوفيات**، الصفدي، باعتناء س. ديدرينغ، فيسبادن، ١٩٨١م، ٣/ ١٧٧، و**شذرات الذهب في أخبار من ذهب**، ابن العماد الحنبلي، القاهرة، ١٣٥٠هـ، ٣/ ١٦٩.

(٢) ينظر: **تاريخ بغداد**، الخطيب البغدادي، دار الكتاب العربي، بيروت، د.ت، م٥/ ٣٧٩، و**ترتيب المدارك وتقريب المسالك**، القاضي عياض بن موسى، تحقيق د. أحمد بكير محمود، بيروت، د.ت، ٣/ ٦٠١. ولم ينفرد سوى (خير الدين الزركلي) بتحديد تاريخ ولادته في سنة (٣٣٨هـ)، ينظر: **الأعلام**، القاهرة، ١٩٥٦م، ٧/ ٤٦.

(٣) **إعجاز القرآن**، الباقلاني، تحقيق أحمد صقر، دار المعارف بمصر، ١٩٦٣، مقدمة المحقق، ٢٢.

(٤) ينظر: **تاريخ بغداد**: م٥/ ٣٧٩، و**الأنساب**، ٢/ ٥٢.

(٥) **الظاهرة القرآنية**، مالك بن نبي، تقديم محمود محمد شاكر، ترجمة عبد الصبور شاهين، القاهرة، ١٩٥٨م، ٤٠.

(٦) وينظر النص الكامل لمعلّقة امرئ القيس في ديوانه، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف بمصر، ط٢، ١٩٦٤م، ٨ وما بعدها.

(٧) القصيدة كاملة في **ديوان البحتري**، تحقيق حسن كامل الصيرفي، دار المعارف بمصر ١٩٧٧م، ٣/ق٦٧٤/ ص١٧٣٧.

(٨) ينظر: **مكانة القصيدة العربية بين النقاد والرواة العرب**، د. عناد غزوان، العراق/النجف، ١٩٦٧: ١٢.

(٩) ينظر: **حلية المحاضرة**، للحاتمي، تحقيق جعفر الكناني، بغداد، ١٩٧٩م، ٢٥٦/١.

(١٠) **الشعر والشعراء**، ابن قتيبة، تحقيق أحمد محمد شاكر، دار المعارف بمصر ١٩٨٢م، ٩٤/١.

(١١) **إعجاز القرآن**: ٢٣٨.

(١٢) المصدر نفسه: ٣٧٣.

(١٣) المصدر نفسه: ٥٤-٥٥.

(١٤) المصدر نفسه: ٥٥.

(١٥) المصدر نفسه: ١٧٧.

(١٦) المصدر نفسه: ١٧٨.

(١٧) **الباقلاني وكتابه إعجاز القرآن**، د. عبد الرؤوف مخلوف، بيروت، ١٩٨٧م، ٣٦٩.

(١٨) **الوساطة بين المتنبِّي وخصومه**، القاضي الجرجاني، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، وعلي محمد البجاوي، القاهرة، ١٩٦٦م، ٢٤.

(١٩) **الحيوان**، الجاحظ، تحقيق عبد السلام هارون، مصر، ط١، ١٩٤٠م، ١٣٠/٢.

(٢٠) **إعجاز القرآن**: ١٨١.

(٢١) المصدر نفسه: ١٨١.

(٢٢) المصدر نفسه: ٣١٨.

(٢٣) المصدر نفسه: ٣١٩.

(٢٤) **أسرار البلاغة**، عبد القاهر الجرجاني، تحقيق هـ. ريتر، اسطنبول، ١٩٥٤م، ١٢٦.

(٢٥) المصدر نفسه: ١٢٦.

(٢٦) **إعجاز القرآن**: ٤١٦، ٤١٨.

(٢٧) **عبد القاهر الجرجاني وجهوده في البلاغة العربية**، د. أحمد أحمد بدوي، القاهرة، د.ت، ٤-٥.

(٢٨) **الباقلاني وكتابه إعجاز القرآن**: ٣٠٦.

(٢٩) **محاضرات في تاريخ النقد عند العرب**، د. ابتسام الصفار، د. ناصر حلاوي، بغداد، ١٩٩٠م، ٢٨٦.

(٣٠) **إعجاز القرآن**: ص٣٢٦.

(٣١) المصدر نفسه، ص٤١٥.

(٣٢) المصدر نفسه: ٤-٥.

(٣٣) المصدر نفسه: ٣١٤.

(٣٤) المصدر نفسه: ٢١١.

(٣٥) المصدر نفسه: ٢٧٦.

(٣٦) ينظر: **النظرية النقدية عند العرب**، د. هند حسين طه، عمان، الأردن، ١٩٨١م، ص٢٦ وما بعدها.

(٣٧) **تاريخ النقد الأدبي عند العرب**، د. إحسان عباس، بيروت، ط٢، ١٩٧٨م، ٣٤٥.

(٣٨) ينظر: **النثر الفني في القرن الرابع**، زكي مبارك، دار الجيل، بيروت، ١٩٧٥: ٧٤/٢ وما بعدها.

(٣٩) ينظر: **النقد اللغوي عند العرب حتى نهاية القرن السابع الهجري**، د. نعمة رحيم العزاوي: ١٥٣ وما بعدها.

(٤٠) **محاضرات في تاريخ النقد عند العرب**: ٤١.

(٤١) ينظر: -على سبيل المثال لا الحصر- **عيار الشّعر**، ابن طباطبا العلوي، تحقيق طه الحاجري، القاهرة، ١٩٥٦م، ٤٦.

(٤٢) **النظرية النقدية عند العرب**: ١٠١.

(٤٣) **إعجاز القرآن**: ٢٤٣.

(٤٤) المصدر نفسه: ٢٧٧.

(٤٥) **طبقات فحول الشعراء**، ابن سلام الجمحي، تحقيق محمود محمد شاكر، القاهرة، د.ت، ١/ ٣٦.

(٤٦) **إعجاز القرآن**: ٣٣٤.

(٤٧) **الظاهرة القرآنية**، مقدمة الأستاذ محمود محمد شاكر، ٤٣.

(٤٨) **تاريخ النقد الأدبي عند العرب**: ٣٤٤.

(٤٩) **النقد المنهجي عند العرب**، محمد مندور، القاهرة، د.ت، ٣٨٠.

(٥٠) **المرشد إلى فهم أشعار العرب**، عبدالله الطيب المجذوب، بيروت، ط٢، ١٩٧٢م، ٢/ ٢٥٩.

(٥١) **إعجاز القرآن**: ٢٦.

(٥٢) سنكتفي بالإشارة إلى أرقام صفحات كتاب **إعجاز القرآن** للباقلاني في تضاعيف المتن من جهة، ومستندين إلى نص أبيات المعلّقة في الكتاب نفسه من جهة أخرى.

موقف الباحثين
من
استشهاد عبد القاهر الجرجاني بالقرآن الكريم
في كتاب "دلائل الإعجاز"
دراسة وتحليل

بقلم: د. هارون مهدي ميقا*

المقدَّمة

يكاد ينطبق على شيخ البلاغة أبي بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجاني (٤٠٠-٤٧١هـ) ما قيل عن المتنبِّي -مع الفارق- إنّه شغل الناس؛ فبرغم جهد عبد القاهر في البلاغة، والنقد، واللغة، ودراسة إعجاز القرآن التي لم يُسبق فيها ولم يُلحق، وبرغم ظنّ بعض الدارسين أنه قد قُتِل بحثًا، فإنّه ما زال -في الحقيقة- هو وجهدَه مجالاً ثَرِيًّا، ومائدةً دسمة، يتجدَّد حوله البحث الجادّ والموضوعي، والصابر والمثابر؛ ليكشف عن خبايا أخرى لَمَّا يُكشَفْ عنها في علم هذا الرجل، ومنهجه.

لم يتَّحِدْ موقف الباحثين والدارسين على كلمة سواء في استشهاد شيخ البلاغة عبد القاهر الجرجاني بالقرآن الكريم في كتاب "**دلائل الإعجاز**". أمّا قديمًا فَلمْ أقف على موقف يَعيب عليه قِلّةَ الاستشهاد بالقرآن الكريم. وإنّما تجد ذلك في موقف عدد من الباحثين المُحْدثين، والدارسين المعاصرين، بل تجد منهم مَنْ يُبالِغ بأنّ في كتابه كلّ شيء إلا إعجاز القرآن الكريم، منطلقين من قلّة الشواهد القرآنية فيه رغم أنّه صلب الموضوع، والقضيّة الأساس[1] بدليل عنوان الكتاب.

ذلك ما تسعى هذه الدراسة العلميّة إلى الخوض فيه، وتَتَبُّعِ ما يتعلّق به بأسلوب الاستقراء، والدراسة والتحليل؛ لعلَّها تكشف بعض الحق في هذه القضيّة، وبعض الجهد المخبوء لهذه الشخصيّة الفذَّة التي عاش -ولا يزال يعيش- بعلمه وكتبه ومنهجه في غير عصره.

لم أقف على دراسات سابقة تناولت هذا الموضوع، لكنّ دراستي استفادت من كثير ممّا كُتِب حول عبد القاهر وبلاغته وجهده النقدي، واللغوي، وفي إعجاز القرآن. وقد تمَّ تناولُ العناصر الآتية:

١- تقسيم كتاب "**دلائل الإعجاز**".

٢- قلّة استشهاد عبد القاهر بالقرآن وما أثير حوله.

٣- مناقشة ذلك من خلال النقاط الآتية:

- تركيزه على الشِّعر في إثبات دلائل الإعجاز وأسبابه.
- ممّا ساعد على القول بقلّة الشواهد القرآنية في الكتاب.
- جدول بالشواهد القرآنية وفنونها البلاغيّة في الكتاب.

٤- وصف نظريّة النظم بأنّها بلاغة غير شعريّة، وبلاغة معادية للنصّ الشعريّ؛ انطلاقا من عنايتها بالإعجاز. وهو وصف مناقض للموقف السابق. وقد اعتمدت هذه الدراسة على نسخة الشيخ محمود شاكر[٢].

(١)

تقسيم الكتاب

قبل الحديث عن تقسيم عبد القاهر لكتاب "**دلائل الإعجاز**" ينبغي الإشارة إلى تأليف الكتاب والهدف منه.

يَعُدُّ كثير من الباحثين والدارسين كتاب "**دلائل الإعجاز**" أوّل كتب الجرجاني في البحث البلاغي والنقدي، وأهمُّ دليل لهم أنّ بعض الموضوعات التي تناولها في نهاية هذا الكتاب جاء الحديث عنها في بداية كتاب "**أسرار البلاغة**" كالجناس، والسجع[٣]. ويرى آخرون -وهم كُثْرٌ أيضًا، ورأيَهم أُرجِّح- أنّ "كتاب "**أسرار البلاغة**" أسبق[٤]؛ للأهميّة الخاصّة بموضوع كتاب "**دلائل الإعجاز**" للمؤلف؛ فهو كتاب عامّ في النظرية الأدبية واتصالها بإعجاز القرآن، و كتاب "**أسرار البلاغة**" كتاب خاص بأهمّ أبواب علم البيان: الاستعارة، والتمثيل والتشبيه، والكناية. وقد أشار في أكثر من موضع بكتاب "**دلائل الإعجاز**" إلى أنّ الأبواب البيانية التي يَنسب كثير من الناس المزيّة فيها إلى اللفظ مَحلُّ شبهة كبيرة عَرضَ لبعضها في مواضع أخرى، ومِن ثَمَّ حاول إحلال نظريّة النظم مَحلَّها[٥].

ولَّما كان مجال الصورة الفنيّة في تلك الأبواب لا يتوقف ولا ينكشف على أساس النظم وحده َبحثَه بحثًا آخر أكّد فيه الجانب النفساني من جماله، وهذا موضوع كتاب "**أسرار البلاغة**". كما أنّه عند تناوله لبعض المسائل والموضوعات في مواطن عدّة من كتاب "**دلائل الإعجاز**" يُحيل على كتاب "**أسرار البلاغة**"(٦). ورجَّح الشيخ محمود شاكر -رحمه الله- أن يكون عبد القاهر قد كتب كتاب "**دلائل الإعجاز**" في أواخر حياته(٧). ويقول د. محمد أبو موسى: «ويترجَّح أنّ هذا الكتاب [أسرار البلاغة] بمثابة المقدّمة لكتاب "**دلائل الإعجاز**" الذي عقده للبحث عن الشيء الذي تَجدَّد بالقرآن فبان به، وبهر، وقهر، وقطع الأطماع.... ولهذا قلتُ: إنّ كتاب أسرار البلاغة يأتي في النسق العلمي كمقدّمة لكتاب **دلائل الإعجاز**»(٨).

كلّ ذلك دليل قاطع على أنَّ نفي المزيّة عن اللفظ المفرد، وفساد القول برجوعها إليه، لم يولَدْ في كتاب "**دلائل الإعجاز**" بل كان أصلاً قديمًا في فكر عبد القاهر وفي نفسه، ثمّ وُلِد ولادة كاملة وهو يكتب الصفحات الأولى من كتابه الأوّل "**أسرار البلاغة**" الذي لم يتكلَّم فيه كلمةً واحدة عن الإعجاز، وإنّما هو كتاب مُنصرِفٌ كلُّه لوضع الأصول التي يهتدي بها قارئ الشِّعر وناقده إلى درجة الصواب، ويتقرَّر عنده كيف يحكم في تفاضل الأقوال، وفي الكتابين كليهما استقراءٌ ذَوْقِي شامل، وتَحليلٌ علمي دقيق(٩).

هدف الشيخ من كتاب "**دلائل الإعجاز**" إلى دراسة المحور الأساس للبلاغة وهو النظم الذي إليه يرجع الفضل والمزية في كلّ كلام؛ للوصول إلى بيان الدلائل على إعجاز القرآن الكريم وبلاغته، ووسائل كشف أسرار نظمه[١٠]. يقول د. محمد أبو موسى: «وكتاب "**دلائل الإعجاز**" خطاب لأهل الإسلام، وهم مُقِرّون بالإعجاز، والكتابُ يُبيِّن الوجه الذي كان به مُعجزًا، وأنّ هذا الوجه هو مزايا ظهرت لهم في نظمه، وخصائص صادفوها في سياق لفظه إلى آخره»[١١].

يمكن تقسيم كتاب "**دلائل الإعجاز**" إلى مدخل، وباب تمهيدي، وصلب الكتاب، وخاتمة، ثم زيادات وتعليقات.

أ- المدخل: جاء مستقلاً في (١١) صفحة، بدأ الشيخ شاكر بعدها ترقيم الكتاب من رقم (١).

في هذا المدخل ترغيبٌ في الاطلاع على كتابه، وتعريفٌ للنظم، وشرحٌ واستشهادٌ لوجوه تعلّق أنواع الكلِم الثلاثة، والفروق، وما يمكن فيه ذلك وما لا يمكن فيه (الحرف والفعل، والحرف والاسم)، ولا تجد كلامًا من جزء واحد -فقط- من هذه الثلاثة[١٢].

ب- الباب التمهيدي[١٣]، وهو تنظيريّ أكثر منه تطبيقيًّا، يتكوَّن من أربعة أقسام، تناول في القسم الأوّل منه فضل العلم وما لَحِق بعلم البيان من ضَيْم، ومناقشةُ مَنْ ذمَّ الشِّعر وعِلْمَ الإعراب، ثم بيان منزلتهما مِن إعجاز القرآن. وتحدَّث عن الاستدلال بذمِّ الرسول ﷺ للشِّعر، وإغفال المستدلين بذلك عن مدحه للشِّعر، وأمرِه بقوله، وسماعِه له، واستنشادِه

الشِّعر. وقد فصَّل عبد القاهر القول في ذلك كلّه، وأتبعه بتفصيل الكلام في النحو ومناقشة الزاهدين والمُزَهِّدين فيه، وبيان النتائج السيّئة التي سيقع فيها مَنْ أخذ بأيّها[١٤]. وفي موضع آخر لَخَّص علاقة هذا العلم بالنحو فقال: «وإنّه -على الجملة- بحث ينتقي لك من علم الإعراب خالصَه ولُبَّه، ويأخذ لك منه أنسيَّ العيون، وحبَّات القلوب، وما لا يدفع الفضل فيه دافع، ولا يُنكِر رُجحانه في موازين العقول مُنكر»[١٥].

وفي القسم الثاني تحدَّث عن عدّة قضايا، منها: سببُ تأليف الكتاب، والإشكالات الواردة على بعض المصطلحات كالفصاحة والبلاغة والبيان والبراعة، والنظم والترتيب، والتأليف والتركيب، والصياغة والتصوير، والنسج والتحبير. ومنها: إعجاز القرآن وبيان كيف يكون استحسان الكلام. وضرورة التمييز بين ثلاث درجات من الاستحسان: معرفة الخطأ من الصواب، الفصل بين الإساءة والإحسان، المفاضلة بين الإحسان والإحسان ومعرفة طبقات المحسنين. ثم أخذ -وِفقَ القسم الأوّل من الكتاب- في تحقيق القول في البلاغة والفصاحة، والتفريق بين حروف منظومة وكَلِم منظومة، مع بيان معنى النظم والردّ على بعض الشُّبَه في شأنه[١٦].

وفي القسم الثالث عرج عبد القاهر على الكناية، والاستعارة، والتمثيل وبيان تفاوتها[١٧].

أمّا في القسم الأخير من هذا الباب التمهيدي فقد ركَّز القول في النظم وشرح مدلوله، وبيان مراتبه[١٨].

ولَمَّا كان كلُّ ما سبق تمهيدًا للكتاب ولدلائل إعجاز القرآن الكريم قَلَّ عنده الاستشهاد بالآيات؛ فأكثر من الأشعار التي وصل عددها في الباب التمهيدي (١٢٦) بيتًا، بعضها مكرَّر، وبعضها يُذكَر مع بيت الشاهد، بالإضافة إلى النماذج النثريّة الكثيرة جدًّا في الكتاب كلّه.

مِمَّا يؤيِّد كون ما جاء في هذا تمهيدًا أنّ عبد القاهر يعود إلى كثير منها بتفصيل أكثر، وبتنظير وتطبيق أوسع.

ج- صلب الكتاب[١٩] حيث تجد التطبيق والدراسة لأبواب البلاغة، ومنها مناقشة قضيّة اللفظ والمعنى بالتفصيل والتحليل. وصل عدد الأبيات فيه حوالي (٢٦٤) بيتًا، كثيرٌ منها مكرَّر عدّة مرّات.

د- خاتمة الكتاب[٢٠]. هـ رسائل وتعليقات[٢١].

وقد رجَّح د. محمد أبو موسى انتهاء كتاب "**دلائل الإعجاز**" بانتهاء الفصل والوصل (ص٢٤٨)، وأنّ الرسائل والتعليقات التي ذكرها الشيخ محمود شاكر تحت عنوان: «فصول شتى في أمر اللفظ والنظم فيها فضلُ شَحْذٍ للبصيرة وزيادةُ كشفٍ عمّا في السريرة» زائدة على الكتاب[٢٢].

ويبدو لي انتهاء الكتاب في (ص٤٧٨) حيث تبدأ الرسائل والتعليقات من (ص٤٨٠-٥٥٧)؛ لأنّ ما ورد قبل هذا العنوان له علاقة مباشرة بقضية المصطلحات الغامضة: الفصاحة والبلاغة، وهل هما وصف للمعاني أو الألفاظ، وتعلق إعجاز القرآن باللفظ. وتلك أساس الكتاب. ثم يكون ما في الرسائل والتعليقات استدراكات أو تأكيدات، وموازنة،

وقد ذكرها الشيخ محمود شاكر تحت عنوان: "فصول شتى في أمر اللفظ والنظم فيها فضل شحذ للبصيرة وزيادة كشف عمّا في السريرة".

منهجه:

سلك الجرجاني في كتابه منهجًا علميًّا دقيقًا؛ لتقعيد نظرية النظم، ولبيان دلائل الإعجاز ووسائله، من أهمّ معالم هذا المنهج:

١- افتتاح الكتاب بالدفاع عن الشِّعر، والردّ على شبهات مَن ذمّه؛ «ذلك أنّ الشِّعر في تقدير الشيخ هو أرضُ البلاغة والنظم الخَصِبةُ في كلام القوم، وأعلاه مرتبة؛ فإذا نفينا عن الرسول ﷺ فهمه وتذوّقه للشِّعر أصبحنا كمن يرميه بانتقاص بلاغة العرب وذوقهم، وهذا مما يُضعِف من حجّة تحدّيهم بنظم القرآن وبلاغته»[٢٣].

٢- الدفاع عن النحوِ الرّكيزةِ الأساس للنظم، وقد جعل مَن يصدّ عنه أو يُزهِّد فيه بمنزلة مَن يصدّ عن كتاب الله وعن حسن فهمه[٢٤]. وكان عبد القاهر كثير الاستشهاد بشواهد الكتاب لسيبويه.

٣- بيان أسباب تأليفه لكتابه دلائل الإعجاز، ومن أهمّها: أنّ طول تأمُّله فيما قاله العلماء قبله في بعض المصطلحات كالفصاحة، والبلاغة، والبيان، والبراعة، وصل به إلى أنّ وراء هذه المصطلحات وغيرها (النظم والترتيب، والتأليف والتركيب، والصياغة والتصوير، والنسج والتحبير) وراءها خفايا ومزايا لم يقفوا عندها، وهي زائدة على معانيها الحقيقيّة وإن انطلقت منها[٢٥].

٤- أشار إلى الجهود التي سيبذلها في كشف الغطاء عن تلك المصطلحات وفي بيان نظريّة النظم ومزايا الكلام وعللها(٢٦).

٥- بيَّن هدفه من نظريّة النظم وأهميَّته. أمّا الهدف فتنمية حسن التذوُّق للكلام الجميل ثمَّ التمكين لاكتساب القدرة الفائقة على إدراك إعجاز القرآن، وحسن تذوُّق مواطنه، ودلائله ووسائله. وأمَّا الأهميّة فدينيّة وعلميّة. دينيّة؛ لأنّ نظرية النظم «باب من العلم إذا أنت فتحتَه اطَّلعتَ منه على فوائد جليلة، ومعانٍ شريفة، ورأيتَ له أثرًا في الدين عظيمًا، وفائدة جسيمة، ووجدته سببا إلى حسم كثير من الفساد فيما يعود إلى التنزيل وإصلاح أنواع من الخَلَل فيما يتعلق بالتأويل»(٢٧). وعلميّة؛ لأنّها باب من العلم «يُؤْمِنك من أن تغالط في دعواك، وتدافع عن مغزاك، ويربأ بك عن أن تستبين هُدى ثم لا تهدي إليه، وتُدِلّ بعرفان ثم لا تستطيع أن تَدُلَّ عليه، وأن تكون عالمًا في ظاهر مُقلِّد، ومستبينًا في صورة شاكٍّ، وأن يسألك السائل عن حُجّة يلقى بها الخصم في آية من كتاب الله تعالى أو غير ذلك، فلا ينصرف عنك بمَقْنَع»(٢٨). وبذلك كله أكسب نظريّته أهميّة وحصانة دينيّتين وعلميَّتين.

٦- ثمَّ شرع في الدرس والاستشهاد، والتحليل، والتعليل، والمناقشة والردود على الشبه والاعتراضات. وقد يترك بعض الشواهد من غير تحليل ولا تعليل؛ ركونًا إلى ذوق القارىء وحسِّه، وذكائه وقدرته على التأمُّل؛ وترغيبًا له في تكوين نفسه، وتنمية مهاراته التذوقيّة والنقدية بعد أن قدَّم له نماذج ووسائل.

٧- وإذا كان قد بيَّن أنّ استيعاب جهده في الكتاب لا يتمّ إلا بالوصول في قراءته إلى آخر ما جمعه فيه فإنه يترك باب الابتكار والتجديد، والتذوّق والاستنباط، مفتوحًا أمام القارئ الباحث، بل يدعوه إليه ويرغِّبه في الدخول، ويعيبه لو اكتفى بالوقوف عند الباب[٢٩]. والشواهد على هذا أكثر من أن تُحصى[٣٠].

٨- بَنَى التمهيد والصلب على فصول مرتَّبة ترتيبًا علميًّا، نوى تحرير الكتاب عليها وإن لم يسمِّها، يقول: «وليس يتأتَّى لي أن أعلمك من أوّل الأمر في ذلك آخِرَه، حتى تكون على علم بها قبل موردها عليك، فاعملْ على أنّ ههنا فصولاً يجيء بعضها في إثر بعض، وهذا أوَّلها»[٣١]؛ فكانت أربعة وأربعين (٤٤) فصلاً[٣٢]، وهي متفاوتة في الطول والقِصر، وبعضُها تفصيل لما تقدَّم في بعض الفصول، يأتي بعده الخاتمة، ثم الرسائل والتعليقات، وفصول إضافية أخرى[٣٣].

إنّ منهج عبد القاهر التحليلي في حقيقته ليس لبيان الصحيح في أساليب التعبير مِن الفاسد، ولا القويّ والضعيف -فحسب- وإنَّما هو لَهُما ولِبيان الأحسن من الحسن وأسبابه؛ ولذلك فإنّما هو دراسة نقديّة عمليّة لأساليب التعبير، وجهات المزيّة وأسبابها، ولوسائل التذوُّق، أكثر منها دراسة نظريّة قاعديّة بلاغيّة.

لا شكّ في أنّ هذا ممَّا ساعد على تنوُّع الدراسات الكثيرة التي قامت حول جهده، ومنهجه، ونظريّته، ما بين دراساتٍ بلاغيّة، ونقديّة،

وأدبيّة، ونحويّة، ولغويّة، ودراساتٍ في إعجاز القرآن وبلاغة نظمه، ودراسات لتنمية وتربية مهارات التذوُّق الموضوعي[٣٤].

ذلك المنهج فرض عليه وعلى البلاغيين مسألة الجزئية في الاستشهاد، والدراسةُ العلمية تفرض احتياجاتها المنهجية جزئيًّا أو كليًّا، «والدارس -أيّ دارس- في ممارسته العمليّة لمفهوماته التنظيرية يلجأ -بالضرورة- إلى اختبار مفاهيمه من خلال اجتزاء الشاهد. وهذا أمر مسلَّم به على مستوى الخطاب البلاغي القديم والخطاب البلاغي الجديد. فبرغم كثرة ما تُرجِم عن الأسلوبيات والبنيويات، لم نصادف منها ما يتعامل مع النصوص الكاملة تحليلاً وتفسيرًا، وإنّما كان الاجتزاء سمةً تميِّز هذه الدراسات؛ فهي ضرورة يُحتِّمها المنهج، اللهم إلاّ إذا كان الدارس مَعْنيا بدراسة تطبيقية خالصة، وحتى في هذه الدراسات لم نجد مؤلفًا قد استوعب إنتاجًا كاملاً؛ إذ يتكئ الباحث على نصّ بعينه أو مجموعة نصوص لها نوع توافق»[٣٥].

(٢)

قِلَّةُ الشواهد القرآنية عند عبد القاهر

من المسلَّم به أهميّة الشاهد في العلوم العربية والإسلامية وغيرها، سواء عند التنظير أم عند التطبيق، وقد استشهد عبد القاهر الجرجاني في كتابه "**دلائل الإعجاز**" بشواهد كثيرة شعرية وقرآنية.

لكن يرى كثير من الباحثين أنّ الجرجاني أَقَلَّ في الاستشهاد بالقرآن الكريم وأكْثَر من الشواهد الشعريّة؛ فعابوه بذلك؛ بحجة أنّه إنّما يكتب

كتابًا في إعجاز القرآن والدلائل؛ فكان أليق به أن تكون أمثلته أو معظمها من القرآن الكريم. كما جاء ما كتبه في النظم غير متصل اتصالاً مباشرًا بالإعجاز القرآني، ولا يبيِّن تفوُّقَ العبارة القرآنية على غيرها، ولا يمسُّ فكرة الإعجاز إلا لِمامًا(٣٦). وقيل: إنّ عدد الآيات (١٥١) آية، مقابل (٤٩١) بيتًا شعريًّا على الرغم من أنَّ الهدف للكتاب هو بيان دلائل إعجاز القرآن(٣٧).

ويذكر د. عويض العطوي -تارة- أنّ عدد الآيات تقلُّ عن المئتين قليلاً، -وتارة- يذكر أنها تزيد عن مئتين وستين آية. وقد اعتذر عمَّا عِيب على عبد القاهر من قلّة الاستشهاد بالقرآن، بأنّ ما يزيد على (٢٦٠) آية غير قليلة في الاستشهاد للإعجاز؛ لأنّ عبد القاهر لم يؤلِّف كتابًا في إعجاز القرآن وإنّما في الدلائل التي نتوصَّل بها إلى الإعجاز، ومَردُّها لغة العرب ومعرفة أساليبها، والشِّعر خير ما يُمثِّل ذلك(٣٨).

إنّ هذه التهمة (قِلّة الاستشهاد بالقرآن) ليست مسلَّمة ويمكن ردُّها بما يأتي:

تركيز عبد القاهر على الشِّعر وأسبابه:

يبدو من النظرة العجلى تركيز الجرجاني على الشِّعر في الاستدلال على إعجاز القرآن، لكنّ لذلك أسبابًا موضوعيّة، وعلميّة، منها:

أ- التمهيد لبيان إعجازه تطبيقًا بما يمكن تسميته بابًا تمهيديًّا، تناول فيه ما تقدَّم بيانه عند الحديث عن تقسيمه للكتاب وفي منهجه. ولله درّ الدكتورة نجاح الظهار التي كانت بين كثيرين عابوا الجرجاني بالاتّكاء في

نظريّـة الـنظم ودلائـل الإعجـاز علـى الـشواهد الـشعرية دون الـشواهد القرآنيّة، ثُمَّ رجعتْ، ودافعتْ، تقول: «وكنتُ ممن عابه بداية، وها أنا أتراجع عن رأيي بعد الدراسة؛ إذ تبيَّن لي أنه كان مُحقًّا في مسلكه هذا، فهو يُنبِئ عن خبرة أصيلة في تدريب الذوق. فالمتدرِّب عليه أن يبدأ -أوّلاً- بالتدرُّب على الشِّعر، حتى إذا تمرَّس كان له أن يدرس البلاغة القرآنية بروح المتمكِّن. أمّا البدء بدراسة الآيات القرآنية والتدرُّب عليها قبل أن تكتمل للمتذوِّق الأدوات النقدية فإنّ ذلك قد يُجرِّئ الجاهل على الخوض في آيات الله بغير علم؛ فيعبث بمعانيها، ويخطئ في تحليلها»[٣٩]، بل قامت بإجراء دراسة علمية تجريبية هدفت إلى بيان: أثر استخدام نظرية النظم عند الشيخ عبد القاهر الجرجاني في تنمية التذوُّق البلاغي، وانتهتْ بتأكيد فعاليّة استخدام طريقة الشيخ عبد القاهر التحليلية في تنمية التذوُّق البلاغي للطالبات التي أجرت عليهنّ الدراسة[٤٠].

ب- لم يرتضِ الجرجاني آراء السابقين عليه في وجه الإعجاز لأسباب منها تخلُّفها في ناحية من القرآن وصدقها في أخرى، وبخاصّة عند اقتطاع النكت عن السياق الذي وردت فيه، وجَعْلِ الإعجاز -مثلاً- في التشبيه المحض أو الإيجاز، أو الاستعارة، أو التمثيل.....إلخ. أي في بلاغة العبارة[٤١]. فأراد عبد القاهر تقديم رأي في الإعجاز يشمل القرآن كلَّه بسوره الطوال والقصار؛ فكان النظم الذي قدّمه وسيلة -من لغة العرب- إلى إدراك الإعجاز القرآني ودليلاً عليه، أمّا الغاية فهي فهم القرآن الكريم ومراد الله تعالى، «ولكنّه لم يطبقه على القرآن كلّه. وكان

جُلُّ همِّه أن يُقدِّم وسيلة إلى ذلك النظم المعجز -فحسب-.... وهنا واجه الشيخ مشكلة المتكلم المنشئ في القرآن الكريم، ومن ثمَّ عطف وسيلة الكشف عن بلاغة النظم القرآني من المتكلم إلى السامع أو المتلقِّي، أي على سامع الإعجاز أو متلقِّيه. وهذا يعني أنّا إذا أردنا التماس وجه الإعجاز فعلينا أن نقيسه بعقولنا على وفق [النظم]... وهو معنى أنّه قدّم وسيلة إلى إدراك الإعجاز القرآني المتمثل في نظمه. فلم يكن النظم -وهو وجه الإعجاز عند عبد القاهر- غاية في أصله، وإنّما وسيلة لغاية، الوسيلة من لغة العرب ومن طرائقهم، وما تعارفوا عليه من أساليب وتراكيب. والغاية هي فهم القرآن الكريم»[٤٢]. وعبد القاهر في دلائله درس المحور الأساس -عنده- للبلاغة وهو النظم للوصول إلى توضيح وبيان الدلائل على إعجاز القرآن[٤٣].

ولا أدلّ على هذا من أمرين: أحدهما: إحالاته في إدراك البلاغة على الذوق والإحساس النفسي في مواطن مختلفة[٤٤]. والآخَر: ما ذهب إليه من صعوبة بيان الجهات التي منها تَعرِض المزيّة حتى في كلام البشر الذي وُصِف الجيّدُ منه بأنّ لفظه "مُتمكِّن"، وغير الجيّد الذي وُسِم لفظه بأنه "قَلِقٌ نابٍ"[٤٥]. ولا شكَّ في أنَّ بيانَ جهات المزيّة في القرآن أصعب ما يكون. يقول الجرجاني -بعد الحديث عن جنس المزيّة وأنّها من حَيِّز المعاني- يقول: «وينبغي أن نأخذ -الآن- في تفصيل أمر المزيّة»[٤٦].

ت- يبدو جليًّا لمن أنعم النظر في كتاب **الدلائل** أنّ من أكبر أهداف عبد القاهر فيه تربيةَ الذوق البلاغي والنقدي لإدراك جمال النصوص

ودقة بلاغتها، وحسن نظمها، من كلام العرب شِعره ونثره بعامّة، ثمّ من القرآن الكريم بخاصّة، يقول د.محمد أبو موسى: «وقضيّة الإعجاز مُنبَثِقة من قلب ما نسمّيه النقد الأدبي؛ لأنّها -من رأسها إلى قدمها- نقدٌ وخبرة بضروب الكلام وتذوُّق أصنافه، وطعومه، وأن لا فرق بين علم البلاغة وعلم نقد الأدب، وأنّ القول بأنّ البلاغة تأتي قبل النص؛ لأنّها تشريع له، وتقول للأديب إذا أردت كذا فقل كذا، وأنّ النقد يأتي بعد النصّ يدرسه ويحلّله ويحكم عليه، كلّ هذا كلام لا يلتئم مع الذي نقرؤه في كتب العلم. ومثلها القول بأنّ اشتغال البلاغة بالنصّ الديني -يعني القرآن الكريم- جمّدها وقيّد حركتها»[٤٧].

فلمّا كان فهم الكلام شِعره ونثره تمهيدًا وتدرُّبًا، ومقياسًا يقاس عليه، ودليلاً ووسيلة إلى فهم إعجاز القرآن لا جرم إن أكثر عبد القاهر من شواهد الشِّعر. وقد راعى فيها أن تمثِّل عصورًا عدّة، ومشارب متنوِّعة[٤٨]، وأذواقًا مختلفة، ومذاهب شتَّى.

يؤيّد هذا أمرٌ جِدُّ مهمّ، أشار إليه الشيخ محمود شاكر -رحمه الله- وهو أنّ الله في كلّ أطوار التحدّي لم يَنصِبْ للمُتحدَّيْنَ -قديمًا وحديثًا- حَكَمًا يحكم بين ما يأتون به وبين القرآن، وإنّما فوَّض الأمر إليهم، فليس ذلك إلاّ دليلاً على قدرة فائقة على التمييز، وعلى شموليّة هذه القدرة فيهم، ثم على أمانتهم -مع كفر أكثرهم- في البيان وفي القبول به[٤٩]. وعلى ضرورة العناية بتنمية هذه الأمور في القارىء حتى يكون مُؤهَّلاً كما كان أولئك.

ث- أنّ الجهة التي قام بها الإعجاز هي حدّ الفصاحة ومنتهى البلاغة، اللذان تقصر عنهما قوى البشر، ولا يطمح إليهما الفكر، ومُحالٌ معرفةُ بلوغ هذا الحدّ والمنتهى من الإعجاز إلا لمن يعرف الشِّعر الذي هو ديوانُ العرب، وعنوانُ الأدب، وميدانُ مبارزاتهم في الفصاحة والبيان؛ لإحراز قصب الرهان فيهما[٥٠].

فإدراك إعجاز القرآن، وبيان وجهه، ثم الاستشهاد عليه بآياته، غاياتٌ تسبقها معرفةُ وسائلَ ودلائلَ، ومزايا وخصائصَ. تلك الوسائل، والمزايا، والخصائص، هي التي سمّاها "دلائل".

والجرجاني -إذن- يريد الوقوف على تلك الوسائل وبيانها، «وكتاب **دلائل الإعجاز** خطاب لأهل الإسلام، وهم مُقرُّون بالإعجاز، والكتاب يبيِّن الوجه الذي كان به معجزًا، وأنّ هذا الوجه هو مزايا ظهرت لهم في نظمه، وخصائص صادفوها في سياق لفظه»[٥١].

والأدلة على أنّ عبد القاهر إنّما هدف إلى ذكر الوسائل والطرق المعينة على معرفة الإعجاز أمور، منها:

- نصَّ بكثرة على مصطلح (دليل الإعجاز، ودلائل الإعجاز)[٥٢]، (شاهده ودليله)[٥٣]، (الطريق إلى البيان والكشف عن الحجة والبرهان)[٥٤].

- الإرشاد إلى أنّ سلوك هذا الطريق هو آمَنُ لك من الشكّ، وأبعدُ من الرَّيب، وأصحُّ لليقين، وأحرى بأن يبلغك قاصية التبيين في معرفة حجّة الله[٥٥].

– تركيزه على بيان أهميّة البلاغة (البيان)، ويتمثّل بعض جوانب هذه الأهميّة في التعبير عن الأفكار والمشاعر، وما في البيان من فوائدَ لا يدركها الإحصاء، ومحاسنَ لا يحصرها الاستقصاء، وأنه لو لا عناية علم البيان بشرح العلوم وتصويرها لبقيتْ كامنةً مستورة لا يُدرَك حقيقَتُها(٥٦).

– لا يدخل الجهل بهذه الأهمية على الإنسان إلا مِنْ جهة نقصه في علم اللغة؛ إذ سيجهل دقائق وأسرارًا طريقُ العلم بها الرويَّة والفكرُ، ولطائفَ تُستقى من العقل، وخصائصَ معانٍ يُدركها قومٌ دون قوم؛ لأنّ تلك الدقائق والأسرار، وهذه اللطائف والخصائص، هي السبب في تفضيل بعض الكلام على بعض، وفي تفاوته من الكلام العاديّ إلى المعجز، يقول: «إنّها السبب في أَنْ عرضت المزيّة في الكلام، ووجب أن يفضل بعضه بعضًا، وأن يبعد الشأو في ذلك، وتمتدّ الغاية، ويعلو المرتقى، ويعزّ المطلب، حتى ينتهي الأمر إلى الإعجاز، وإلى أن يخرج من طوق البشر»(٥٧). وقد فرَّق بين التقليد الذي يحفظ متن الدليل والتنقيب عن مزايا الدليل وخصائصه. وبيَّن أنّ الثاني أشبه بالفتى في عقله ودينه، وأزيَدُ له في علمه ويقينه(٥٨).

– حديثه المفصَّل عن أهميّة معرفة الشِّعر والنحو وفهمهما في السعي لإدراك تلك الدقائق والخواص واللطائف، وفي إدراك إعجاز القرآن.

إنّ بيان الجرجاني لأهميّة الشِّعر والنحو وذمّ المتهاونين في شأنهما، المرغِّبين عنهما، ما هو إلا طريق ووسيلة لبيان كيفيّة كونهما من الوسائل الأساس؛ لإدراك الإعجاز، ومن ثَمَّ فإنَّما يغفل عنهما طائفــةٌ لا تعرف

أهميَّة الدقائق واللطائف، فوضعت حاجزًا بينها وبين العلم بها حين أساءت الاعتقاد في الشِّعر الذي هو معدنها، وعليه المعوَّل فيها، وفي علم النحو الذي ينسبها إلى أصولها، ويبيِّن فاضلها من مفضولها «فجعلت تُظهر الزهد في كلّ واحد من النوعين، وتطرَح كُلاًّ من الصنفين، وترى التشاغُل عنهما أولى من الاشتغال بهما، والإعراض عن تدبُّرهما أصوبَ من الإقبال على تعلُّمهما»، وتصفهما بأوصاف سوء(٥٩).

وعبد القاهر يُشبِّه حال مَن حَجَزَك عنهما بحال مَنْ حرمك الدليلَ أو كيفيّة الدلالة، وبحال مَن منعك الدواء الذي فيه شفاؤك أو معرفة أنّ فيه شفاءك، والوجه حال الحرمان من نافع أو من معرفة نفعه في كلٍّ. ثمَّ يردّ على مَن يزعم أنّ بالإمكان معرفةَ إعجاز القرآن بطريق ووسيلة غير الطرق والوسائل السابقة كمجرّد العلم بعجز العرب، وتركهم معارضته بالعجز عنه مع تكرار التحدِّي عليهم وطول التقريع لهم. وممّا ردّ به على الشبهة أنّ الوصف الذي له كان القرآن معجزًا إنّما هو وصف قائم فيه كلِّه أبدًا، وبأنّ الطريق إلى العلم به موجود، والوصول إلى هذا العلم ممكن، ولا شكّ في أنّ تلك الطريق غير مجرّد معرفة عجز الناس، وإنّما بيان كيفيّته، ومعرفة طرقه ووسائله(٦٠).

تنقسم هذه الطرق والوسائل إلى قسمين، هما:

١- **دلائل ووسائل من خارج القرآن**، تتمثَّل -عنده- في معرفة ديوان العرب واستقراء كلامهم وتتبّع أشعارهم والنظر فيها، ومعرفة أساليبهم في الأدب والبلاغة؛ فتلك الجهة التي منها تقف على إعجازه، والسبب

الـذي بـه يُعـرف. والـشِّعر عنـد الجرجـاني «هـو الـدائرة الأوسـع الـتي إذا حفظناها نكون قد أقمنا حول كتاب الله ثوابت من المعـارف المؤسَّسة علـى أصول مـن المنهج الـصحيح تظـل بـين يـدي الـذكر الحكـيم تهيِّـئْ لـسماعه وفهمه، وتذوُّق بلاغته وأسرار بيانه»[٦١]، وفي معرفة أسـاليب الاسـتدلال العقلي. ولا يلزم -إذن- تتبّع نماذج لكـلّ هـذه الأسـاليب في القـرآن؛ لأنّ الهدف منهـا التقعيـد[٦٢]؛ ولـشموليتها للقـرآن كلّـه. وقـد يكتفـي بالآيـات فقط.

أمّـا الـذين يـواجههم عبـد القـاهر بهـذه الـدلائل فهـم ثـلاث فئـات: الأولى: يُقْنِعُهـا الأسـلوب والـدليل الأدبـي الرفيـع شِـعرًا كـان أم غـيره. والثانية: يُقنِعُها الأسلوب والاستدلال العقلـي. والأخـرى: تجمـع بينهمـا. ومـن ثَـمَّ كـان عليـه إيجـاد زادٍ لكـلّ منهـا في دلائلـه علـى إعجـاز القـرآن ووسائل كشفه «فكلمة الـدلائل لا تعنـي التفـسير القرآنـي وإنّمـا تـوحي أن يقدّم عبد القاهر الوسائل والطرق والمعالم التي تعـين علـى توضـيح البيـان القرآني»[٦٣].

هـذا القـسم مـن الـدلائل والوسـائل مـن خـارج القـرآن هـي الـتي أكثـرَ الجرجاني من شواهده، وإنّها لَجديرة بالإكثار والتحليـل، كمـا سـبق. بـل عنَّف القول لمن يُهمل هـذا القـسم مـن الـدلائل والوسـائل وهـو يبحـث في إعجاز القرآن أو يعلِّمه، يقول: «وجملةُ الأمر أنّه إن قيـل: إنّـه لـيس في الدنيا علمٌ قد عَرَض للناس فيه من فحش الغلَـط، ومـن قبـيح التـورُّط، ومـن الـذهاب مـع الظنـون الفاسـدة، مثـل مـا عَـرَض لهـم في هـذا الـشأن.

ظننتُ أن لا يُخشى على من يقوله الكذِبُ، وهل عَجبٌ أعجبُ من قوم عقلاء يتلون قول الله تعالى: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ [الإسراء ٨٨]، ويؤمنون به، ويدينون بأنّ القرآن معجِزٌ، ثمَّ يصدُّون بأوجههم عن بُرهان الإعجاز ودليله، ويسلكون غير سبيله؟!!! ولقد جَنَوْا -لو دَرَوْا ذاك- عظيمًا»[٦٤]. وما أوسع الفرق بين معرفة الدلائل على الشيء والوسيلة إلى فهمه وبين إدراك الشيء نفسه!! وبخاصة أنّ هذه الدلائل والوسائل تجمع بين العقليّ والذوقيّ، وبلاغةُ القرآن ودقّة نظمه تُخاطب العقل والعاطفة معًا.

٢- **دلائل ووسائل من داخل القرآن**، وهذه التي يُمكن أن يقال إنّ عبد القاهر لم يُكثِر من شواهدها القرآنيّة. ولعلّ السبب أنّه خصَّها بـ"الرسالة الشافية". ومع ذلك فإنَّ قلَّةَ هذه ليست على الإطلاق وإنّما بالنظر المقارن إلى شواهد الدلائل الخارجية؛ وفي ذلك شيء من الحيف. ثمَّ إنّه -لِفهمِ هذه- لابدّ من معرفة السابقة؛ فكأنّ الحاجة إليها قائمة مرّتين لذاتها وللتي من داخل القرآن!!!

من أجل ذلك كله فقد غلب جهدَه الوسائلُ الأولى (الخارجية)، والاستشهاد لها بنصوص كلام العرب الفصحاء شِعره ونثره، ومحاجّة المتكلِّمين وبخاصة المعتزلة[٦٥] بدلائل من جنس دلائلهم العقليّة، وأساليبهم الفنيّة؛ فكان الاستشهاد بقليل من الآيات القرآنية أمرًا اقتضاه

مقام الاستدلال والمحاجّة، والحاجة، وأيّ من القرآن شاهد عليه ودليل له؛ بنظمه الدقيق، وتركيبه البديع، وبلاغته المعجزة.

شواهد هذا القسم هي الشواهد القرآنية التي ورد أغلبها في القسم الثاني من الكتاب حسب التقسيم السابق، وبعضها في مدخل الكتاب، ومنها ما تكرر الاستشهاد به في عدّة مواضع، سيأتي البيان -إن شاء الله-.

ولا يُستَبعَدُ أن يكون عبد القاهر قد رأى فيما ذكر من الشواهد القرآنية غُنْيَةً في الدلالة على إعجازه وتوضيحه، يضاف إليه استحالة حصر إعجازه أو دلائله مهما بُذل.

(للبحث صلة)

الهوامش:

* جامعة باماكو، مالي.

(١) ممن قال به أحد أساتذتي الأفاضل في حوار معه عام ٢٠٠٢م حول كتاب **دلائل الإعجاز**، وذلك في قسم البلاغة والنقد ومنهج الأدب الإسلامي، بكلية اللغة العربية، بالرياض. وقد كانت هذه الكلمة من الدوافع القوية لي إلى مزيد من البحث والتدقيق اللذين أثمرا هذا الجهد المتواضع.

(٢) كتاب "**دلائل الإعجاز**" عبد القاهر الجرجاني، تحقيق محمود شاكر، مكتبة الخانجي بمصر، ط٢، عام ١٤١٠هـ/١٩٨٩م.

(٣) يقول د. شوقي ضيف عن **أسرار البلاغة**: «وتدلّ مباحثه فيهما [الجناس والسجع] وفي الصور البيانية جميعًا أنَّه صنَّف هذا الكتاب بعد الدلائل؛ لما يجري في كلامه من دقة واستيعاب وضبط وإحكام؛ ولما ينشر فيه من آراء نفسيّة لا عهد لنا بها في الدلائل وكأنَّما تكاملت له أداته في تصوير دقائق التراكيب البلاغية وأثرها في

النفوس» البلاغة تطور وتاريخ/١٩٠-١٩١، دار المعارف، مصر، ط ٨ عام ١٩٩٢م.

(٤) انظر: كتاب **أسرار البلاغة**، عبد القاهر الجرجاني، تحقيق محمود شاكر/١٦-١٧، دار المدني بجدّة، ط١ عام ١٤٢١هـ/١٩٩١م، والشواهد الشعرية في كتاب **دلائل الإعجاز** للشيخ عبد القاهر الجرجاني، توثيق وتحليل ونقد، د. نجاح الظهار ١/٣٦-٤٠، ط١ عام ١٤١٦هـ/١٩٩٦م، بدون.

(٥) انظر: **دلائل الإعجاز**/٦٦-٦٧.

(٦) انظر: من أثر عبد القاهر الجرجاني في الدراسات البلاغية، د. محمود عبد العظيم صفا/٩-١٠، دار الكتاب الجامعة التوفيقية، عام ١٤١٤هـ/١٩٩٣م، بدون ط. وعبد القاهر بلاغته ونقده، د. أحمد مطلوب، ١١٢، ١١٣ وكالة المطبوعات، الكويت، ط١ عام ١٣٩٣هـ/١٩٧٣م. ومن الوجهة النفسية في دراسة الأدب ونقده، محمد خلف الله أحمد، ٧٣، دار العلوم، الرياض، السعودية، ط٣، عام ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م. ونظرية عبد القاهر الجرجاني في أسرار البلاغة، د. محمد خلف الله أحمد/١٥، **مجلة كلية الآداب**، جامعة فاروق الأول، مجلد ٢ عام ١٩٤٤م. والصورة الأدبية، د. مصطفى ناصف/١٩٠، ١٩١، دار الأندلس، بيروت، بدون. و**الصبغ البديعي في اللغة العربية**، د. أحمد موسى/٢٧، دار الكتاب العربي بالقاهرة، عام ١٣٨٨هـ/١٩٦٩م، و**بديع القرآن** لابن أبي الأصبع المصري، تحقيق د. حفني شرف (مقدّمة المحقق)/٢٣.

(٧) انظر: **دلائل الإعجاز** (مقدمة المحقق) صفحة هـ.

(٨) **مدخل إلى كتابي عبد القاهر الجرجاني**، د. محمد أبو موسى /٥٦، وانظر: ٦٤، ٣٨٤، مكتبة وهبة، القاهرة، ط١ عام ١٤١٨هـ ١٩٩٨م.

(٩) انظر: **مراجعات في أصول الدرس البلاغي**، د.محمد أبو موسى/١٣٩، ١٤٠ بتصرُّف، مكتبة وهبة، القاهرة، ط١ عام ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م.

(١٠) **من أثر عبد القاهر الجرجاني في الدراسات البلاغية**، د. محمود عبد العظيم صفا/٩.

(١١) **مراجعات في أصول الدرس البلاغي**، د. محمد أبو موسى/١٤٤.

(١٢) انظر: كتاب **دلائل الإعجاز** (المدخل)/١-١١.

(١٣) انظر: المصدر السابق/٣-١٠٥.

(١٤) انظر: كتاب **دلائل الإعجاز** /٣-٣٤.

(١٥) المصدر السابق/٤٢.

(١٦) انظر: المصدر السابق/٣٤-٦٥.

(١٧) انظر: المصدر نفسه/٦٦-٧٩.

(١٨) انظر: المصدر نفسه/٨٠-١٠٥.

(١٩) انظر: المصدر نفسه/١٠٦-٤٧٨، ومقدمة المحقق صفحة ي.

(٢٠) المصدر نفسه/٤٧٧-٤٧٨.

(٢١) كتاب **دلائل الإعجاز**/٤٧٩-٥٥٧.

(٢٢) انظر: **مدخل إلى كتابي عبد القاهر الجرجاني**، د.محمد محمد أبو موسى/٩٦-٩٨، ١٠٣.

(٢٣) **نظرية النظم عند الشيخ عبد القاهر الجرجاني**، دراسة، تطبيق، تحليل: د. نجاح الظهار/٣٠، مكتبة الرشد، ناشرون، الرياض، السعودية، ط١، عام ١٤٢٦هـ.

(٢٤) انظر: كتاب **دلائل الإعجاز**/٨، و**نظرية النظم عند الشيخ عبد القاهر**/٣٠.

(٢٥) انظر: المصدر السابق/٣٤-٣٦، و**نظرية النظم عند الشيخ عبد القاهر**/٣١.

(٢٦) انظر: المصدر السابق/٣٦-٣٧، و**نظرية النظم عند الشيخ عبد القاهر**/٣١

(٢٧) كتاب **دلائل الإعجاز**/٤١. (٢٨) المصدر السابق/٤١-٤٢.

(٢٩) انظر: الصبغة الأدبية لبلاغة عبد القاهر/٥٤٦-٥٤٧، **مجلة أضواء الشريعة**، كلية الشريعة بالرياض، العدد٧، جمادى الآخرة ١٣٩٦هـ.

(٣٠) انظر: كتاب **دلائل الإعجاز**/٣٦-٣٧.

(٣١) المصدر السابق/٤٢.

(٣٢) انظر: المصدر السابق/٤٣-٤٧٢.

(٣٣) انظر: المصدر السابق/٤٧٧-٥٦٩.

(٣٤) انظر: **نظريّة النظم عند الشيخ عبد القاهر**/ ٦١-٦٢.

(٣٥) **البلاغة العربية، قراءة أخرى**، د.محمد عبد المطلب/٢٦، مكتبة لبنان ناشرون/الشركة المصرية العالمية للنشر- لونجمان، ط١ عام ١٩٩٧م.

(٣٦) انظر: **الأسلوب في الإعجاز البلاغي للقرآن الكريم**، د.محمد الكوّاز/٢٦١-٢٦٢، جمعية الدعوة الإسلامية العالمية، ليبيا، ط١ بدون. و**فكرة النظم بين وجوه الإعجاز**، فتحي عامر/٨٣-٨٤، منشأة المعارف الإسكندرية، ١٩٩١م. بدون. و**الإعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الأزرق**، دراسة تحليلية قرآنية، لغوية وبيانية، د. عائشة بنت عبد الرحمن/١٠٨-١٠٩، دار المعارف بمصر، ط٢ عام ١٩٨٧م. و**نظرية المعنى في النقد العربي**، د.مصطفى ناصف/٣٠، دار القلم، القاهرة، عام ١٩٦٥م. و**تاريخ النقد الأدبي عند العرب، نقد الشعر في القرن الثاني حتى القرن الثامن الهجري**، د. إحسان عبّاس/٢٦، ٤٢١، دار الشروق، عمّان، الأردن، ط٢ عام ١٩٩٢م، و**عبد القاهر الجرجاني وجهوده في البلاغة العربية**، د.أحمد بدوي/٥٣-٥٧، ٦٢، ١٢٤، مكتبة مصر، القاهرة، بدون. و**عبد القاهر الجرجاني بلاغته ونقده**/٢٦٧-٢٦٨، و**الشواهد الشعرية في كتاب دلائل الإعجاز**، د. نجاح الظهار ١٢٧٣/٣، ١٢٧٦-١٢٧٧، و**نظرية النظم عند الشيخ عبد القاهر**/٧.

(٣٧) انظر: **الشواهد الشعرية في كتاب دلائل الإعجاز ١٢٧٦/٣**.

(٣٨) انظر: منهج التعامل مع الشاهد البلاغي بين عبد القاهر وكل من السكاكي والخطيب القزويني، د.عويض العطوي، **مجلة جامعة أم القرى لعلوم الشريعة واللغة العربية وآدابها**، ج١٨، عدد ٣٠، جمادى الأولى ١٤٢٥هـ، ص٥٠٣، ٥٠٥.

(٣٩) **نظرية النظم عند الشيخ عبد القاهر الجرجاني**/٧، وانظر مذهبها الأوّل في: **الشواهد الشعرية**، ١٢٧٦/٣-١٢٧٧.

(٤٠) انظر: المرجع نفسه والصفحة.

(٤١) انظر: **الأسلوب في الإعجاز البلاغي للقرآن**، د. محمد الكوّاز/٢٦٣.

(٤٢) المرجع السابق والصفحة نفسها.

(٤٣) انظر: **من أثر عبد القاهر الجرجاني في الدراسات البلاغية**/٩.

(٤٤) انظر على سبيل المثال: كتاب **دلائل الإعجاز**/٥٤٦، و**الأسلوب في الإعجاز البلاغي**/١١١.

(٤٥) انظر: كتاب **دلائل الإعجاز**/٦٤.

(٤٦) المصدر السابق /٦٤-٦٥.

(٤٧) **مدخل إلى كتابي عبد القاهر الجرجاني**/٥٦-٥٧.

(٤٨) انظر: **منهج التعامل مع الشاهد البلاغي**/٥٠٤.

(٤٩) انظر: **قضية الشعر الجاهلي في كتاب ابن سلام**، محمود شاكر/٩٤- ٩٥، مطبعة المدني، ط١ عام ١٤١٨هـ/١٩٩٧م، و**مراجعات في أصول الدرس البلاغي**، د.محمد أبو موسى/٢٠٧.

(٥٠) انظر: كتاب **دلائل الإعجاز**/٨-٩

(٥١) **مراجعات في أصول الدرس البلاغي**/١٤٤

(٥٢) كتاب **دلائل الإعجاز**/٣٨.

(٥٣) المصدر السابق/٤٠

(٥٤) المصدر السابق/٩.

(٥٥) المصدر السابق/٣٧-٣٨ بتصرف.

(٥٦) انظر: المصدر السابق/٥-٦.

(٥٧) المصدر السابق/٧.

(٥٨) انظر: المصدر السابق/٤٠.

(٥٩) كتاب دلائل الإعجاز/٧-٨.

(٦٠) انظر: المصدر نفسه/٩-١٠.

(٦١) **خصائص التراكيب، دراسة تحليلية لمسائل علم المعاني**، د.محمد أبو موسى/٧، مكتبة وهبة، القاهرة، ط٤، عام ١٤٢٦هـ/ ١٩٩٦م.

(٦٢) انظر: كتاب **دلائل الإعجاز**/٣١٩-٣٢٢

(٦٣) **الأسلوب في الإعجاز البلاغي**/٢٦٤، وانظر: **معالم المنهج البلاغي عند عبد القاهر الجرجاني**، د.محمد بركات حمدي/٢٤، دار الفكر، عمّان، الأردن.

(٦٤) كتاب **دلائل الإعجاز**/٣٦٩، وانظر: ٣٨٥-٣٨٦.

(٦٥) انظر: المصدر السابق/٦٣.

حلف الفضول ومبادئ الإسلام

بقلم: د. جاسم محمد عيسى الجبوري❖

المقدمة:

العدل والأمان هما من أبرز الأهداف التي سعى إليها الإنسان منذ أقدم العصور، ومع تقدّم الحياة البشرية على الأرض تكاثر البشر فنشأت المجتمعات السكانية وكانت تلك البذرة الأولى لظهور العلاقات الاجتماعية وتطوّرها ومنها الجوار فما دامت المجتمعات تتكاثر وتتعقّد ستتجاور بحكم طبيعة الإنسان والأرض التي يحيى عليها، ولأنّ الأرض ليست كلها غنيّة بالماء والكلأ الضرورين لحياة البشر الذين يحملون مع أجسادهم طبائع مختلفة، وكان أن ظهر الوئام والصدام والتكامل والتناحر، ومع سعي الإنسان للتقدّم والرقيّ كان يبحث دومًا عن أطر لتقنين مكتسباته وقيمه التي وجد فيها الحياة الخيّرة.

وكان للعرب نصيب وافر من الإسهام في تقنين العلاقات الإنسانية والدفاع عن حقوق الإنسان. وقد أشار العديد من المفسرين للقرآن الكريم إلى بعض من هذه الإسهامات التي أكد جلّ وعلا عليها من المبادئ السامية والأخلاق الراقية التي تمتّع بها العرب وقت وقبل نزول القرآن.

وإذا كـان فـضل القـرآن العظـيم معروفًـا فثمّـة آثـار في تاريخنـا العربـي صفحات نيّرة عن حقوق الإنسان لم يكتب لها كثير من الظهـور ألا وهـو (حلف الفضول) الذي يصح عدّه أول جمعية وأشرف حلف للـدفاع عـن حقوق الإنسان في العالم، ومن هنـا أتـت أهمية هـذا الحلـف وإن ظهـر في عصر الجاهلية وقبيل ظهـور الإسـلام، إلا أنّ الرسـول محمـد ﷺ اتخذ منه موقفًا إيجابيًّا وقال ﷺ عنه: «لقـد شـهدت مـع أعمـامي في دار عبـد الله بـن جدعان حلفًا لو أنني دعيت إلى مثله في الإسلام لأجبت».

وإنّ التعريف بهذا الحلف لإبراز مـا لـهذه الأمّـة مـن تـراث جـمّ لا يقـلّ أهميـة عـن التعريـف بـالمواثيق والعهـود الـتي تنـادي بالـدفاع عـن حقـوق الإنسان، ولأنه يوضّح قدم الاهتمام بحماية الإنسان وإنصاف المظلومين.

وقد قمت بتبويب البحث الموسوم (حلـف الفـضول ومبـادئ الإسـلام) على الشكل الآتي:

ابتـدأ التعـرف علـى البـدايات الأولى لظهـور الحلـف ومـن ثـم التعريـف بمفهـوم الحلـف وأبـرزتُ الأسـباب الأساسـية لظهـوره ومـن أيـن جـاءت تسميته، وعلاقة عبد الله بن جدعان بهـذا الحلـف لكـبره وشـرفه وكرمـه، وبيّنتُ موقف الإسلام منه، وكيف أنّ الرسـول ﷺ امتدحـه وألغـى جميـع أحلاف الجاهلية ما عدا هذا الحلف، وتناولت آثار هـذا الحلـف في العـصر الأمـوي، وكيـف تم ردّ حقـوق الحـسين بـن علـي ﷺ مـن الأمـير الأمـوي عندما اغتصب بستانه، وناقشت ضرورة إظهار أهمية الحلـف لبيـان تـراث الأمّة العربية الإسلامية، ومـن ثـم بيّنـت اتفـاق مبـادئ الحلـف مـع حقـوق

الإنسان والدفاع عنه، وختمت البحث بأهم الاستنتاجات لإبراز أهمية البحث، والله المعين ومنه التوفيق.

البدايات الأولى لحلف الفضول:

كان سكان مكة وأطرافها يؤكدون على الأحلاف والعهود والمواثيق فيما بينهم، توكيدًا شديدًا، وذلك بأن يكتبوا ما اتفقوا وتعاهدوا عليه في صحيفة يشهد عليها رؤساؤهم وسادتهم من الطرفين ومن أناس آخرين محايدين يكتبها لهم كاتب يشهد على ذلك، ثم يعلّقون الصحيفة في الكعبة توكيدًا لهم وتشديدًا للميثاق كالذي كان من تآمر قريش على مقاطعة بني هاشم مقاطعة تامة فلا يتزوّجون منهم ولا يزوّجون أحدًا منهم من قريش ولا يبيعونهم ولا يبتاعون منهم شيئًا[(١)].

وكان حلف الفضول قبل المبعث بعشرين سنة في شهر ذي القعدة، وكان بعد حرب الفجار بأربعة أشهر، وذلك لأنّ الفجار كان في شعبان في هذه السنة، وكان حلف الفضول أكرم حلف سمع به وأشرفه في العرب، وكان أول من تكلم به ودعا إليه الزبير بن عبد المطلب[(٢)]، ويذكر أنّ حلف الفضول نشأ أواخر القرن السادس الميلادي عام /٥٩٠/ أو /٥٩٥م[(٣)]، فقد كان فقدان النظام الذي ينظم اتخاذ القرارات بموجب رأي الأغلبية وعدم وجود رئيس معترف له بالرئاسة من قِبَل الجميع بعد وفاة قصيّ بن كلاب من العوامل التي أضعفت دولة المدينة في مكة، وكانت مثارًا للأزمات التي وصل بعضها إلى حد تهديد بعض العشائر المكية باستخدام السلاح ضدّ العشائر الأخرى، كما حصل قبل حلف

المطيبين[٤]، وحصل بعده حلف الفضول[٥]. وبالنظر إلى شعور رجال الملأ المكي في عصر النبوّة بأنهم متساوون في الشرف والمكانة فإنهم لم يسمحوا لأحدهم بأن يكون سيِّدًا أو ملكًا عليهم، وقد فضّلوا أن يكون الحكم (شورى) بينهم إذا اتفقوا على رأي التزموا جميعًا تنفيذه، وحمل كل سيّد عشيرة أو أسرة قومه على العمل بما اجتمع أمرهم عليه، أمّا إذا اختلفوا في أمر من الأمور، فإنهم يستمرون بالمشاورة والمناقشة والضغط على الأقلية من أجل حملها على موافقة الأغلبية، فإن عجزوا في خاتمة المطاف عن الوصول إلى الإجماع، وهذا لا يكون إلا في الحالات الصعبة جدًّا، فإنّ ذلك يؤذن بالانقسام والحرب بين الإخوة أو أبناء الأعمام من القبيلة الواحدة، وهذا لم يحصل في تاريخ قبيلة قريش إلا عند ظهور الإسلام، وأذن بانهيار المجتمع الجاهلي القديم تمهيدًا لظهور المجتمع (الإسلامي) الجديد. أمّا أهم الأزمات التي سبقت ظهور الإسلام، كأزمة تقاسم وظائف مكة بين أبناء عبد مناف، والأزمة التي أدّت إلى حلف الفضول، فقد تم التغلب عليها وتجاوزها بسبب ما اشتهر به زعماء مكة من براعة في المفاوضة والمشاورة والمساومة وفن الحوار في الإقناع[٦]، فكانت من الدعاوي الموجودة لظهور هذا الحلف ليكون بديلاً لحفظ الأمن واستقرار النظام في مدينة مكة وهي ملتقى التجار والشعراء والأدباء، فلها الجانب الدعائي فضلاً عن السمعة الحسنة لأهل مكة.

مفهوم حلف الفضول:

وهو أشرف حلف عقدته العرب فيما بينها، والحلف في الأصل اليمين والعهد. وسمِّي العهدُ حلفًا لأنهم يحلفون عند عقده، وكان عند منصرف قريش في حرب الفجار[٧]، وتحالفوا على: «أن يردّوا الفضول على أهلها ولا يقرّ ظالم على مظلوم»، أي أنّ المراد بالفضول ما يؤخذ ظلمًا، وقيل إنّ هذا أي رد الفضول مدرج من بعض الرواة، وزاد بعضهم: «على ما بل بحر صوفه وما رسا حراء وثبير مكانهما»[٨].

وقيل سمِّي بالفضول لأنه يشبه حلفًا وقع لثلاثة من جرهم كل واحد يقال له الفضل، وعبارة بعضهم لأنّ الداعي إليه كان ثلاثة من أشرفهم اسم كل واحد منهم وهم:

الفضل بن فضالة، والفضل بن وداعة، والفضل بن الحارث، والضمير في أشرفهم يتبادر رجوعه إلى قريش، وهؤلاء الثلاثة ألفوا على نصرة المظلوم على ظالمه.

فالفضول جمع الفضل، وقيل: إنّ هؤلاء الذين تحالفوا كانوا أخرجوا فضول أموالهم للأضياف، وقيل لأنّ قريشًا قالوا عن هؤلاء الذين تحالفوا: لقد دخل هؤلاء في فضول من الأمر[٩]. فكان هؤلاء الفضلاء من رجال قريش نذروا أنفسهم للدفاع عن من سلب حقه في مكة من أهلها أو من سائر العرب. فإنّ هذه الصفة النبيلة من مكارم الخير ظلت مشتعلة ولم تنطفئ فامتدحها رسولنا الكريم وقال: «لو دعيت إلى هذا الحلف لأجبت» لتطابق مبادئه مع مبادئ الإسلام.

وظلت جذوة الخير إلى العهد الأموي في إرجاع حق من انتزع منه بتنادي أبناء وأحفاد مؤسسي حلف الفضول إلى إرجاع الحق المغتصب إلى أهله المستضعفين.

أسباب ظهور حلف الفضول وتسميته:

وكان سبب حلف الفضول أنّ قريشًا تحالفت أحلافًا كثيرة على الحمية والمنعة فتحالف المطيبون، وهم بنو عبد مناف، وبنو أسد وبنو زهرة وبنو تَيْم وبنو الحارث بن فهر: «على أن لا يسلموا الكعبة ما أقام حراء وثبير وما بل بحر صوفه». وصنعت عاتكة بنت عبد المطلب طيبًا فغمسوا أيديهم فيه، وقيل إنّ الطيب كان لأمّ حكيم البيضاء بنت عبد المطلب، وهي توأم عبد الله، أبي رسول الله ﷺ.

وتحالفت على نصرة المظلوم وهم بنو عبد الدار وبنو مخزوم وبنو جمح وبنو سهم وبنو عدي: «على أن يمنع بعضهم بعضًا ويعقل بعضهم عن بعض»، وذبحوا بقرة فغمسوا أيديهم في دمها.

فكانت قريش يظلم في الحرم الغريب ومن لا عشيرة له حتى أتى رجل من بني أسد بن خزيمة بتجارة فاشتراها رجل من بني سهم، فأخذها السهمي وأبى أن يعطيه الثمن فكلّم قريشًا واستجار بها وسألها إعانته على أخذ حقه فلم يأخذ له أحد بحقه فصعد الأسدي جبل أبا قبيس فنادى بأعلى صوته:

يا أهل فهر لمظلوم بضاعته ... ببطن مكة نائي الأهل والنفر
إنّ الحرام لمن تمت حرامته ... ولا حرام لثوبي لابس الغدر

والحرام بمعنى الاحترام، فقام في ذلك الزبير بن عبد المطلب مع عبد الله ابن جدعان، وتعاقدوا وتعاهدوا ليكونن يدًا واحدة مع المظلوم على الظالم حتى يؤدي إليه حقه شريفًا ووضيعًا[١٠]. وقد ذكر المؤرخون أسبابًا عدة في ظهور هذا الحلف:

١. فقيل لم يكن الرجل من بني أسد ولكنه قيس بن شيبة السلمي باع متاعًا من أُبَيّ بن خلف الجمحي وذهب بحقه، فقال هذا الشِّعر:

يا آل قصي كيف هذا في الحرم   وحرمة البيت وأخلاق الكرام

أظلم لا يمنع مني من ظلم

فتزاحمت قريش فقاموا فتحالفوا: «ألا يظلم غريب ولا غيره وأن يؤخذ للمظلوم من الظالم، واجتمعوا في دار عبد الله بن جدعان التيمي، وكانت الأحلاف هاشم وأسد وزهرة وتيم والحارث بن فهر، فقالت قريش: هذا فضول من الحلف، فسمِّي حلف الفضول»[١١].

٢. ويذكرون في سبب هذا الحلف بهذا الاسم، أنّ جرهمًا -في الزمن الأول- قد سبقت قريشًا إلى مثل هذا الحلف، فتحالف منهم ثلاثة هم ومن اتبعهم، أحدهم: الفضل بن فضالة، والثاني الفضل بن وداعة والثالث الفضل بن الحارث.

٣. وقيل: بل هم: الفضل بن شراعة، والفضل بن وداعة، والفضل بن قضاعة، فلمّا أشبه حلف قريش هذا حلف هؤلاء الجرهمين سمّي حلف الفضول[١٢].

٤. وذكر أنّ سببه قدوم رجل من زبيد إلى مكة ببضاعة، فاشتراها العاصي ابن وائل، وكان ذا قدر بمكة وشرف، فحبس عنه حقه، فاستدعى عليه الزبيدي الأحلاف عبد الدار، ومخزومًا، وجمح وسهمًا، وعدي بن كعب، فأبوا أن يعينوه على العاصي، وزبروه (انتهروه)، فلمّا رأى الزبيدي الشر، أوفى على أبي قبيس عند طلوع الشمس وقريش في أنديتهم حول الكعبة، فصاح بأعلى صوته:

يا أهل فهر لمظلوم بضاعته ... ببطن مكة نائي الأهل والنفر
ومحرم أشعث لم يقضِ عمرته ... يا للرجال وبين الحجر والحجر
إن الحرام لمن تمت كرامته ... ولا حرام لثوب الفاجر الغدر

فمشت قريش بعضها إلى بعض، وكان أول من سعى في ذلك الزبير بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف، واجتمعت قبائل قريش في دار الندوة وكانت للحل والعقد، وكان ممن اجتمع بها من قريش بنو هاشم بن عبد مناف، وبنو المطلب بن عبد مناف، وزهرة بن كلاب وتيم بن مرة وبنو الحارث بن فهر، فاتفقوا: «على أنهم ينصفون المظلوم من الظالم»، فساروا إلى دار عبد الله بن جدعان، فتحالفوا على أخذ حق الزبيدي من العاصي(١٣).

ففي ذلك يقول الزبير بن عبد المطلب:

حلفت لنعقدن حلفًا عليهم ... وإن كنا جميعًا أهل دار
تسمية الفضول إذا عقدنا ... يعزيه الغريب لدار الجوار
ويعلم من حوالي البيت إنا ... أباة الضيم نهجر كل عار(١٤)

٥. وقال ابن إسحاق: وكان من جرهم وقطوراء يقال لهم: الفضل بن الحارث الجرهمي، والفضل بن وداعة القطوري، والمفضّل بن فضالة الجرهمي، اجتمعوا فتحالفوا أن لا يقرّوا ببطن مكة ظالِمًا، وقالوا: لا ينبغي إلا ذلك لما عظم الله من حقها.

فقال عمرو بن عوف الجرهمي:

إنّ الفضول تحالفوا وتعاقدوا ألا يقر ببطن مكة ظالم
أمر عليه تعاهدوا وتواثقوا فالجار والمعتر(١٥) فيهم سالم

ثم درس ذلك فلم يبق إلا ذكره في قريش(١٦).

٦. وهنالك سبب ليس له علاقة بالتجارة أو الأمور الاقتصادية أنّ رجلاً من خثعم قدم مكة حاجًّا أو معتمرًا ومعه ابنة له يقال لها (القتول) من أوضأ نساء العالمين، فاغتصبها منه نبيه بن الحجاج وغيّبها عنه، فقال الخثعمي: من يعديني على هذا الرجل؟ فقيل له: عليك بحلف الفضول، فوقف عند الكعبة ونادى: يا آل حلف الفضول! فإذا هم يعنقون إليه من كل جانب، وقد انتضوا أسيافهم يقولون: جاءك الغوث، فما لك؟ فقال لهم: إنّ نبيهًا ظلمني في بنتي وانتزعها منّي قسرًا، فساروا معه حتى وقفوا على باب داره فخرج إليهم فقالوا له: أخرج الجارية، ويحك! فقد علمت مَن نحن وما تعاقدنا عليه، فقال أفعل، ولكن متّعوني بها الليلة، فقالوا: لا والله ولا شخب لقحة(١٧)، فأخرجها إليهم وهو يقول:

راح صحبي ولم أحيي القتولا لم أودعهم وداعًا جميلا
إذ أجَدّ الفضول أن يمنعوها قد أراني ولا أخاف الفضولا

لا تخالي إني عشية راح الركب هنـــتم علـــى أن لا يـــزولا[١٨]

ويرى الباحث أنّ السبب المباشر لانعقاد حلف الفضول وظهوره هو الجانب التجاري، وهذه حقيقة العلاقات التجارية بين مكة واليمن منذ القدم، وليس من المستبعد أن يظلم العاصي بن وائل، وهو من المتنفذين في مكة، حق التاجر اليمني في بضاعته، فانبرى له خيّرون من أهل مكة لأخذ حقه من الظالم وإن تعددت الروايات، لكن يعدّ هذا السبب الرئيسي.

عبد الله بن جدعان وعلاقته بحلف الفضول:

كان عبد الله بن جدعان في ابتداء أمره وعهد شبابه صعلوكًا، وكان مع ذلك شريرًا فتاكًا لا يزال يجبي الجنايات فيعقل عنه أبوه وقومه حتى أبغضته عشيرته وطرده أبوه وحلف لا يؤويه أبدًا، فخرج هائمًا على وجه في شعاب وجبال مكة يتمنى الموت، فرأى شقًّا في جبل فدخل فإذا ثعبان عظيم له عينان تتقدان كالسراج، فلمّا اقترب منه حمل عليه الثعبان، ولما تأخر، انساب: أي رجع عنه، فلا زال كذلك حتى غلب على ظنه أنّ هذا مصنوع فقرب منه ومسّه بيده فإذا هو من ذهب وعيناه ياقوتتان فكسره ثم دخل المحل الذي كان هذا الثعبان على بابه فوجد فيه رجالاً من الملوك مصنوعة من الذهب ووجد في ذلك المحل أموالاً كثيرة من الذهب والفضة وجواهر كثيرة من الياقوت واللؤلؤ والزبرجد فأخذ منه ما أخذ، ثم علم ذلك الشق بعلامة وصار ينقل منه كل ما يحتاج شيئًا فشيئًا، ووجد في ذلك الكنز لوحات من رخام مكتوب فيه: أنا نفيلة بن جرهم بن

قحطان بن هود، نبي الله، عشت خمس مئة عام، وقطعت غور الأرض وباطنها وظاهرها في طلب الثروة والمجد والملك، فلم يكن ذلك ينجي من الموت. ثم بعث عبد الله بن جدعان إلى أبيه بالمال الذي دفعه في جناياته ووصل عشيرته كلهم، فسادهم وجعل ينفق من ذلك الكنز ويطعم الناس ويفعل المعروف(١٩)، وأصبح ذا شرف ومكانة في قومه يأمر فيطاع، وذا عقل راجح، وأنه من جملة من حرّم الخمر على نفسه في الجاهلية، بعد أن كان بها مغرمًا، وسبب ذلك أنه سكر ليلة فصار يمدّ يده ويقبض على ضوء القمر ليمسكه، فضحك منه جلساؤه ثم أخبروه بذلك حين صحا فحلف أن لا يشربها أبدًا. فصنع لهم عبد الله طعامًا وتعاهدوا بالله ليكوننّ مع المظلوم حتى يؤدّي إليه حقه ما بل بحر صوفه، أي إلى الأبد، فاجتمع إليه بنو هاشم وبنو زهرة وبنو أسد بن عبد العزّى في دار عبد الله بن جدعان التيمي، وكان بنو تيم في حياته كأهل بيت واحد بقوتهم، وكان يذبح في داره كل يوم جزورًا وينادي مناديه: من أراد الشحم واللحم فعليه بدار ابن جدعان. وكان يطبخ عنده الفلوذج، وهي نوع من حلويات فارس، فيطعمه قريشًا.

ويذكر أنه كان أولاً يطعم التمر والسويق ويسقي اللبن، فاتفق أنّ الشاعر أميّة بن أبي الصلت مرّ على بني عبد المدان فرأى طعامهم لباب البر والشهد فقال أمية:

ولقد رأيت الفاعلين وفعلهم ... فرأيت أكرمهم بني المدان

البر يلبك بالشهاد طعامهم ... لا ما يعللنا بنو جدعان

فبلغ شِعره عبد الله بن جدعان فأرسل إلى بصرى الشام يحمل البُرَّ والشهدَ والسمنَ، وجعل ينادي منادٍ: ألا هلمّوا إلى جفنة عبد الله بن جدعان. ومن مدح أمية بن الصلت في ابن جدعان قوله:

أأذكر حاجتي أم قد كفاني ... حياؤك إن شيمتك الحياءُ
إذا أثنى عليك المرء يومًا ... كفاه من تعرضك الثناءُ
كريمٌ لا يغيِّره صباحٌ ... عن الخلق الجميل ولا مساءُ
يباري الريح مكرمة وجودا ... إذا ما الضبُّ أحجره الشتاءُ[٢٠]

ويذكر عن عائشة زوج رسول الله ﷺ، أنها قالت لرسول الله ﷺ أنّ ابن جدعان كان يطعم الطعام ويقري الضيف ويفعل المعروف فهل ينفعه ذلك يوم القيامة، فقال: لا، لأنه لم يقل يومًا، وفي رواية لأنه لم يقل ساعة من ليل أو نهار: رب اغفر لي خطيئتي يوم الدين، أي لم يكن مسلمًا، لأنّ القول المذكور لا يصدر إلا عن مسلم، وكان كافرًا، لأنه أدرك البعثة ولم يؤمن، وكان يكنى أبا زهير، وقد قال رسول الله ﷺ في أسرى بدر: «لو كان أبو زهير أو مطعم بن عدي حيًّا فاستوهبهم لوهبتهم له». وهم يفتشون عن القتلى ويتأكدون من موت أبي جهل في المعركة، فذكر الرسول ﷺ أنّ في ركبته أثرًا لأنه ازدحم مع أبي جهل حين كانا غلامين على مائدة عبد الله بن جدعان، وأنه ﷺ دفع أبا جهل -لعنه الله تعالى- فوقع على ركبته فجرحت جرحًا أثّر فيها، وقد جاء أنه ﷺ قال: «كنت أستظل بجفنة عبد الله بن جدعان في مكة»[٢١].

ربع بني تَيْم (موضع دار حلف الفضول):

ولهم دار عبد الله بن جدعان كانت شارعة على الوادي على فوعتي سكنى أجيادين، أجياد الكبير وأجياد الصغير، وهي الدار التي قال النبي ﷺ: «لقد حضرت في دار ابن جدعان حلفًا لو دعيت إليه الآن لأجبت. وهو حلف الفضول، كان في دار ابن جدعان، وقد دخلت هذه الدار في وادي مكة حين وسّع الخليفة العباسي المهدي المسجد الحرام، ودخل الوادي القديم في المسجد وحول الوادي في موضعه الذي هو فيه اليوم، وكان في موضعه دور من دور الناس، إلا قطعة فضلت من دار ابن جدعان، وهي دار ابن عزارة، دار المكيين التي عند الغزالين إلى جنب دار العباس بن محمد التي على الصيارفة»[٢٢].

موقف الرسول محمد ﷺ من حلف الفضول:

عندما كان عمر الرسول محمد ﷺ خمس عشرة سنة حضر حرب الفجار[٢٣]، كانت بين قريش وكنانة وقيس، وكان قائد قريش كلها حرب بن أمية، لمكانته فيهم سنًّا وشرفًا وكان رئيس بني عبد المطلب، وحضر هذه الحرب سيدنا محمد بن عبد الله، وكان ينبل على عمومته، أي يجهز لهم النبل للرمي، وقد حدث بعد ذلك تداعى قريش لحلف الفضول والمتحالفون هم بنو هاشم، وبنو المطلب وبنو أسد بن عبد العزَّى وبنو تَيْم بن مرة تحالفوا وتعاقدوا: «أن لا يجدوا بمكة مظلومًا من أهلها أو من غيرهم من سائر الناس إلا قاموا معه وكانوا على من ظلمه حتى تردّ إليه مظلمته». وتم ذلك الحلف في دار عبد الله بن جدعان التيمي وشهده سيدنا

محمد بن عبد الله وقال فيه بعد الرسالة: «لقد شهدت مع عمومتي حلفًا في دار عبد الله بن جدعان ما أحب أنّ لي به حمر النعم، ولو دعيت به في الإسلام لأجبت»، وكان عمره ﷺ خمسة وعشرين عامًا[٢٤].

حلف الفضول وآثاره في العهد الأموي:

من الآثار الباقية لسنة حلف الفضول التي استمرت أكثر من قرن إلى العهد الأموي حينما تنازع الحسين بن علي والوليد بن عتبة في حقه وهدّد بالدعوة إلى حلف الفضول.

قال ابن إسحاق: حدثني يزيد بن عبد الله بن أسامة بن الهادي الليثي أنّ محمد بن إبراهيم بن الحارث التميمي حدّثه:

إنه كان بين الحسين بن علي بن أبي طالب ﵁ وبين الوليد بن عتبة بن أبي سفيان﵁، والوليد يومئذ أمير على المدينة أمره عليها عمه معاوية بن أبي سفيان ﵁ فنازعه في مال كان بذي المروة وهي قرية بوادي القرى، فكان الوليد تحامل على الحسين ﵁ في حقّه لسلطانه، فقال له الحسين: احلف بالله لتنصفني من حقّي أو لآخذنّ سيفي ثم لأقومنّ في مسجد رسول الله ﷺ ثم لأدعونّ بحلف الفضول. فقال عبد الله بن الزبير وهو عند الوليد حين قال الحسين ﵁ ما قال: وأنا أحلف بالله لئن دعا به لآخذنّ سيفي، ثم لأقومنّ معه حتى ينصف من حقّه أو نموت جميعًا: قال: فبلغت المسور بن مخرمة بن نوفل الزهري، فقال مثل ذلك، وبلغت عبد الرحمن بن عثمان بن عبد الله التيمي فقال مثل ذلك. فلمّا بلغ الوليد بن عتبة أنصف الحسين من حقّه حتى رضيه[٢٥].

قال ابن إسحاق: «قدم محمد بن جبير بن مطعم بن عديّ بن نوفل بن عبد مناف، وكان محمد بن جبير أعلم قريش، على عبد الملك بن مروان ابن الحكم حين قتل ابن الزبير واجتمع الناس على عبد الملك، فلمّا دخل عليه قال: يا أبا سعيد، ألم نكن نحن وأنتم، يعني بني عبد شمس بن عبد مناف وبني نوفل بن عبد مناف في حلف الفضول؟ قال: أنت أعلم. قال عبد الملك: لتخبرني يا أبا سعيد بالحق من ذلك، فقال: لا والله، لقد خرجنا نحن وأنتم منه، قال: صدقت، ثم خبر حلف الفضول»(٢٦).

الاستنتاج:

١. يعدّ حلف الفضول أشرف حلف عقدته العرب فيما بينها للدفاع عن الحق وأن لا ينصر ظالم على مظلوم في مكة المكرمة.
٢. إنّ قريشًا عقدت أحلافًا كثيرة في الجاهلية على الحمية والمنعة لكن الذي بقي واستمر بعد الإسلام هو حلف الفضول.
٣. شهد الرسول الكريم محمد ﷺ حلف الفضول وكان عمره خمسة وعشرين عامًا، وقال بعد ما بعثه الله تعالى لنشر الدعوة للإسلام في امتداحه لو أمرت به لأجبت في الدعوة له وتطبيق مبادئه فقال ﷺ: «لقد شهدت في دار عبد الله بن جدعان حلفًا ما أحب أن لي به حمر النعم، ولو أدعى به في الإسلام لأجبت»، وقد ألغى كل أحلاف الجاهلية ما عداه.

٤. من أهداف حلف الفضول شمولية الإنسانية فقد تعاقدوا فضلاء من أهل مكة أن لا يجدوا بمكة مظلومًا من أهلها أو من غيرهم من سائر الناس إلا قاموا معه للدفاع عنه، فلم يحدد بأهل مكة فقط.

٥. إنّ حلف الفضول استمر ذا هيبة أخلاقية وتنظيمية حتى النصف الثاني من القرن السابع الميلادي، وذلك عندما هدد الحسين بن علي والي بني أمية في المدينة الوليد بن عتبة باللجوء إلى أبناء عاقدي الحلف لأخذ حقه، فخاف الوالي وأقر بحق الحسين ﵁.

٦. يعدّ حلف الفضول أول جمعية للدفاع عن حقوق الإنسان ربما في العالم كله، أواخر القرن السابع الميلادي في مكة المكرمة.

الهوامش:

* أستاذ مساعد في التاريخ العربي الإسلامي- معهد إعداد المعلمين- الموصل- العراق.

(١) ابن الأثير، عز الدين أبي الحسن علي ابن أكرم الشيباني، **الكامل في التاريخ**، ج٢/٢٥. ينظر: جواد، د. علي، **تاريخ العرب قبل الإسلام**، ج٦، ٣٢٣-٣٢٤.

(٢) ابن كثير، عماد الدين أبي الفداء إسماعيل، **البداية والنهاية**، ج٢/٢٤٥. ابن هشام، **السيرة النبوية**، ج١/١٣٣.

(٣) جبور، د. جورج وآخرون، **حلف الفضول**، ص١٢.

(٤) هاشم الملاح، **مكة المكرمة**، ص٨٥، ينظر: ابن هشام، **السيرة النبوية**، ج١/٩٠.

(٥) هاشم الملاح، **مكة المكرمة**، ص٨٥، ينظر: ابن هشام، **السيرة**، ١/٩٠-٩١.

(٦) الملاح، **تاريخ مكة المكرمة**، ص٢٥٩، ينظر: ابن هشام، **السيرة النبوية**، ق١/١٢٣-١٤٣.

(٧) الحلبي، العلاّمة علي بن برهان الدين الشافعي، **من إنسان العيون في سيرة المأمون** المعروف **بالسيرة الحلبية**، ج١، ص١٣٩.

(٨) المصدر نفسه، ج١، ص١٤١.

(٩) المصدر نفسه، ج١، ص١٤٣.

(١٠) اليعقوبي، أحمد بن إسحاق بن جعفر بن وهب، **تاريخ اليعقوبي**، ج٢/١١-١٢.
ينظر: الحلبي، **من إنسان العيون**، ج١/١٤٣. ابن هشام، **السيرة النبوية**، ج١/١٣٣. المسعودي، **مروج الذهب**، ج٢/٢٣٧.

(١١) اليعقوبي، **تاريخ اليعقوبي**، ج٢/١٢.

(١٢) ابن هشام، **السيرة النبوية**، ج١/١٣٣. ينظر: المسعودي، **مروج الذهب**، ج٢/٢٣٧. ابن كثير، البداية والنهاية، ج٢/٢٤٥-٢٤٦.

(١٣) المصدر نفسه، ينظر: الجميلي، د. رشيد، **تاريخ العرب في الجاهلية وعصر الدعوة الإسلامية**، ص٧٠. عزام، عبد الرحمن، **بطل الأبطال**، ص١٢.

(١٤) المسعودي، **مروج الذهب**، ج١/٢٣٨. ابن كثير، **البداية والنهاية**، ج٢/٢٤٦.

(١٥) المعتر: (المتعرض للمعروف من غير أن يسأل).

(١٦) ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، ج١/٤١.

(١٧) شخب: هو مقدار الوقت في خروج الحليب من ضرع الناقة.

(١٨) ابن كثير، **البداية والنهاية**، ج٢/٢٤٦.

(١٩) الحلبي، **من إنسان العيون في سيرة المأمون** المعروف **بالسيرة الحلبية**، ج١/١٤١.

(٢٠) الحلبي، **من إنسان العيون**، ج١/١٤٠. (٢١) المصدر نفسه.

(٢٢) الأزرقي، أبي الوليد محمد بن عبد الله أحمد، **أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار**، ج٢/٢٠٧-٢٠٨.

(٢٣) سميت هذه الحرب بالفجار؛ لأنها كانت في الأشهر الحرم، ومن قاتل في الأشهر الحرم قيل إنه قد فجر. ينظر: اليعقوبي، **تاريخ اليعقوبي**، ج٢/١١.

(٢٤) الخضري، بك، الشيخ محمد، **محاضرات في تاريخ الأمم الإسلامية**، ينظر: ابن هشام **السيرة النبوية**، ج١/١٥٩، اليعقوبي، **تاريخ اليعقوبي**، ج٢/١١.

(٢٥) ابن هشام، **السيرة النبوية**، ج١/١٣٤-١٣٥. ينظر: ابن كثير، **البداية والنهاية**، ج٢/٢٤٧. ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، ج٢/٤٢، البلاذري، **أنساب الأشراف**، ج١/٢٨٦.

(٢٦) ابن هشام، **السيرة النبوية**، ج١/١٣٥.

بريد العرب:

ورد إلى "**العـرب**" مـن الـدكتور سـعود بـن سـليمان اليوسـف، مـن الرياض، ما يلي:

بسم الله الرحمن الرحيم

طالعـت في الجـزأين (١١ و١٢) بحثًـا للـدكتور عبـدالرازق حـويزي عنوانـه: شِـعر سـعد الـدين بـن عربـي (ت ٦٥٦هـ) وعـز الـدين الموصـلي (ت٧٨٩هـ) في **مخطوط الحواضر ونزهة الخواطر**. وهي خطوة مشكورة في تحقيـق الـتراث، وجمـع مـا تفـرّق منـه في بطـون الكتـب، والاسـتدراك علـى بعض الدواوين.

وفي هـذا البحـث -علـى قيمتـه- وجـدت مـا يمكـن أن يكـون موضـعًا للنقاش، ولا يغضّ من قيمة البحث، وهي ملحوظات يسيرة تتلخص في النقاط الآتية:

١- في (ص٧٧٤-٧٧٥) ورد هذان البيتان لابن عربي:

عفى الله عن عينيك كم سفكت دمًا ... وكم **فوّقتِ** نحـو الجـوانح أسـهما

أمـا القـد مـن مـاء الـشبيبة مرتـوٍ ... فيا **خصرُه المشوقُ** كم تشتكي الظما

أمّا عفى فصوابها: عفا؛ لأنّ أصل الألِف واوٌ (عفـا يعفـو)، وأمّـا تـاء فوقـت فهـي سـاكنة، ولـيس بعـدها حـرف سـاكن فيـضطر الـشاعر إلى تحريكها.

وقـد رُفعَـت كلمـة "خـصره" ووصـفها "المـشوق"، والـصواب أنهـا منصوبة؛ لأنها منادى مضاف.

٢- جاء في (ص٧٧٥) هذان البيتان:

كـلُّ يـوم يزيـد وجهُـك حـسنًا ... وفـؤادي يـزداد وجـدًا وحزنـا

يتمنـــى **كـــلَّ** منـــاه وقلـــبي ... غـير هـذا الجمـال مـا يتمنـى

والذي بدا لي أنّ "كل" في البيت الأول ظرف زمان، ونصبها ظرفَ زمان أوجَهُ من رفعها مبتدأً، أمّا "كل" في البيت الثاني فهي فاعل مرفوع، وليست مفعولاً به منصوبًا، كما أنها بهذا الضبط تخلّ بوزن البيت، وعليه يصبح صواب البيت: يتمنى كلُّ مناه وقلبي...

٣- في (ص ٧٧٧) ورد هذا البيت:

أمـا **ومبـسمُك المفـترُّ** عـن بـرَد ... **وما بثغرك من خمر ومـن شـهد**

فالذي أراه أنّ الواو للقسم، وعليه فحق "مبسمك" ووصفه "المفتر" أن يُجرّا.

وقد شرح الباحث معنى المفتر بأنه: الذي إذا شُرب أحمى الجسد، وصار فيه فتور، وهو ضعف وانكسار. يقال: أفْتَر الرجل فهو مُفتر: إذا ضعُفَت جفونه وانكسر طرفه، ... إلخ.

ولعل ما جعل الباحثَ يفسّر "فتر" هذا التفسير أنه بحث عن معناها في مادة (ف ت ر)، ومعناها موجود في مادة (ف ر ر)، وجاء فيها: "افْتَرَّ الإِنسان: ضحك ضَحِكًا حسنًا وافْتَرَّ فلان ضاحكًا، أَي أَبدى أَسنانه. وافْتَرَّ عن ثَغْره إِذا كَشَرَ ضاحكاً"(١).

٤- في (ص٧٨١) ورد هذا البيت:

ليت شِعري بما أقابل ذا **الفضـ** **ـلِ** وكل الإفضال من فضلاتك

وقد جرَّ "الفضل" على أنه مضاف إليه، ويظهر أنه بدل لاسم الإشارة "ذا"، وحقه النصب؛ لأنّ اسم الإشارة مفعول به منصوب.

٥- في البيتين الواردين في آخر (ص٧٨٢) كُتبت كلمة "سيء"، والصواب أن تكتب "سيئ"؛ لأنّ الياء مشدّدة مكسورة، فتكتب الهمزة على كرسي، وليست الياء ساكنة فتكتب الهمزة على السطر.

٦- في (ص٧٨٣) جاء هذا البيت:

إذا رمانا بسهم لحظ قلنا له: **داومِ** النفوذِ

ورواية البيت هذه تجعله يحمل خطأً نحويًّا؛ لأنّ الصواب: داوم النفوذا، وبهذا تتضمن القافية عيب الإقواء، وهو اختلاف حركة الرويّ، أمّا صواب البيت كما جاء في "**نفح الطّيب**" فهو هكذا:

إذا رمانا بسهم لحظ قلنا له: **دائمُ** النفوذِ(٢)

٧- جاء في (ص٧٨٧) هذا البيت:

يا من يسمّى بشاهين **وسمّيْتُه** **صيدَ** النفوس وبالألحاظ يسبينا

ويُلحظ أنّ كلمة "سمّيته" كسرت الوزن، ولعل صوابها "سيمته"، وإذا كان صوابها هو ما ذكرته، فستصبح كلمة "صيد" مرفوعةً؛ لأنها خبر.

٨- ورد في (ص٧٨٩) هذا البيت:

مدحت أحبتي أبغي دواءً لما قد حلَّ بي من **عِظَمِ** دائي

ولا شك أنّ تحريك ظاء "عظم" أخلّ بالوزن.

٩- في (ص٧٩٠) ورد بيتان نسبَهما الباحث إلى المنسرح، وهما:

يـــا مقلـــة الحـــب مهـــلا فقـــــد أخـــــذتِ بثــــــارك
وأنـــــتِ يـــــا وجنتيـــــه لا تحـــــــرقيني بنـــــــارك

والصواب أنهما من المجتث: مستفعلن فاعلاتن

١٠- جاء في (ص٧٩١) هذا البيت:

لحديثِ **نبتُ** العارضين حلاوة وطلاوة هامت بها العشاق

ولا وجه لرفع كلمة "نبت"؛ لأنها مضاف إليه، حقّه الجر.

وأرجو أن تكون هذه الملحوظات إضافة للبحث.

الهوامش:

(١) **لسان العرب**، ابن منظور (ت٧١١هـ)، دار صادر، بيروت، ط٣، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م، مادة (ف ر ر).

(٢) **نفح الطّيب من غصن الأندلس الرطيب**، المقّري، تحقيق: د. إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ط٦، ١٤٣٣/٢٠١٢، ١٧١/٢.

مكتبة العربـ

قياس العكس في الجدل النحوي، تأليف الدكتور محمد بن علي العمري، ١٤٣٥هـ/٢٠١٤م، كرسي الدكتور عبدالعزيز المانع لدراسات اللغة العربية وآدابها بجامعة الملك سعود، ٢ج، ١٣٠٠ صفحة.

الكتاب دراسة أصولية في كتب الفقهاء والأصوليين والمناطقة، كما أنه دراسة إجرائية على مسائل الخلاف النحوي عند أبي البركات الأنباري.

يحاول المؤلف في كتابه، كما يقول، تقويم العلاقة بين أصول الفقه وأصول النحو ووضع منهج واضح لبناء تصور كامل لأصول التفكير النحوي، ويناقش أدلته الإجمالية، ويعرّف القياس ويتتبع فروعه وتفصيلاته محاولاً ضبطه في تقسيمات حاصرة جامعة تعيد نظم صوره في قسمين لا غير: طرد وعكس، ثم يوجه الضوء إلى الجانب الغالب من القياس عن دراساتنا وتدريسنا: "قياس العكس" إلى الحاضر الطاغي في الفعل التحليلي في تراث العرب النحوي الجدلي الكبير، مقدمًا نماذج لأقيسة بصرية وكوفية منتقاة تتجلى في دراستها أهمية فهم باطن الأدلة النحوية في مسار الخلاف النحوي وثمراته ونتائجه، مستعينًا في كل ذلك بما كتبه الأصوليون والمناطقة والمفكرون العرب في فلسفة الأدلة ومنازعها العقلية.

وأبواب الكتاب تتوزع كالتالي:

المدخل: الحجج العقلية في الجدل النحوي عند الأنباري، وفيه ستة مباحث:

١. الجدل النحوي وتعريفه.

٢. أدلة النحو كما يراها أبو البركات.

٣. أثر أصول الفقه الشافعي في رؤيته.

٤. كتب أصول الفقه وخطورة الانقياد الأعمى.

٥. النظرة الكلية أولاً.

٦. قياس الطرد في كتاب **الإنصاف**.

الفصل الأول: قياس العكس دراسة أصولية، وفيه مبحثان:

١. قياس العكس كما يبدو في أصول الفقه.

٢. قياس العكس كما ينبغي أن يكون.

الفصل الثاني: أقيسة العكس في الجدل النحوي عند الأنباري، وفيه مبحثان:

١. قياس الفرق في الجدل النحوي عند الأنباري: جمعًا وتوثيقًا.

٢. قياس السبر في الجدل النحوي: جمعًا وتوثيقًا.

الفصل الثالث: دراسة جدلية لأهم أقيسة العكس الكوفية في كتاب **الإنصاف**.

إنها دراسة معمّقة بذل فيها المؤلف جهدًا عظيمًا يستحق عليه كل الشكر والتقدير.

ع. ن. م

جهود منسيّة:

تعليقات الشيخ كمال الدين الأدهميّ

(١٢٩٦هـ/١٨٧٨م–١٣٧٢هـ/١٩٥٢م)

بقلم: د. نادية غازي العزّاويّ*

كانت التفاتة علميّة نبيلة من العلاّمة المرحوم محمود الطناحيّ (ت ١٩٩٩م) أن يستهلّ كتابه النفيس "**مدخل إلى تاريخ نشر التراث العربيّ**" بوقفة طيّبة على دور المصححين والمعلّقين من مشايخ الأزهر وسواهم، المشرفين على طباعة نفائس الموسوعات والكتب والدواوين في مصر، في نهاية القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين الميلاديين، فذكر فيمن ذكر منهم: نصر الهوريني، قطة العدويّ، محمد الزهريّ الغمراويّ، بدر الدين النعسانيّ... إلخ[1] وبقيت أسماء أخرى كثيرة. وهي جهود جديرة بالتنويه والتقدير، لأناس عشقوا العربية وبذلوا ما استطاعوا في سبيل نشر تراثها بين يدي الأجيال الجديدة، بإخلاص وترفّع عن الادعاء والتنطّع والتهالك على الكسب الماديّ، فكانت صفحة مضيئة من صفحات سفر العربية الخالد.

من هؤلاء العلماء العاملين الأجلاّء الشيخ أبو عبد الرحيم محمد كمال الدين بن محمد بن عبد القادر بن علي الحسينيّ الأدهميّ، الذي أمضى حياة حافلة بالعطاء في مجالات متنوعة: نظم الشِّعر، التأليف، التعليق على الكتب المنشورة، وتنقّل شرقًا وغربًا بين مسقط رأسه طرابلس الشام و بين البصرة ومكة واستانبول ومدن تركية أخرى «حفظ القرآن الكريم على يد والده، ودخل مدارس الدولة العثمانية، فأجاد اللغة التركية ثم تلقّى العلوم الشرعية على بعض متخرجي الأزهر من علماء طرابلس، عمل مدرِّسًا بمدارس الحكومة العثمانية... كما عمل خطيبًا بجامع السلطان محمد الفاتح باستنبول، وكان عضوًا بعدة لجان في وزارة المعارف، هاجر إلى مصر عام ١٩٢٥ بعد انقلاب أتاتورك والاستغناء عن خدماته، وبعد حصوله على الجنسية المصريّة عيّن موظفًا بقسم المحفوظات التاريخيّة بالديوان الملكيّ في عصر فاروق»[٢].

وتذكر بعض المراجع أنّ كتبه بلغت خمسين كتابًا، وممّا ذُكر من نتاجه المطبوع والمخطوط:

١- **ديوان عنوان الفضل وترجمان لسان الأدب والنبل.**

٢- **منحة الوصول في مدحة الرسول.**

٣- **القصيدة الأدهمية في الدين والوطنية.**

٤- **تخميس لامية ابن الورديّ.**

٥- أرجوزة بعنوان (**جامعة اللطائف في تالد الآداب والطرائف**).

٦- **الإسفار عن مجريات الأسفار.**

٧- **تعليقات على ديوان البهاء زهير** المطبوع بالمطبعة المحموديّة بالأزهر.

٨- **النفح الورديّ في شرح لامية ابن الورديّ.**

٩- **الجمع الوافي للقوافي.**

١٠- **صرف اللسان إلى نحو بديع المعاني والبيان.** وأحال عليه في بعض هوامشه مع اختلاف طفيف في العنوان، قائلاً: "في كتابي المسمّى **صرف اللسان إلى نحو علم المعاني والبيان**، وهو كتاب تكلم على الصرف والنحو واللغة والمعاني والبيان والبديع بأسلوب أدبيّ غير ما هو متّبع في التأليف بهذه العلوم"[٣].

١١- **مرآة النساء فيما حسن منهنّ وساء.**

١٢- **لوامع الإسعاد في جوامع الأعداد.**

١٣- مخطوطة ترجم فيها لعشرين عالِمًا عاصرهم وتلقّى عنهم العلم[٤].

١٤- تعليقاته على كتاب "**مفاتيح العلوم**"، وهو محور هذا البحث.

كتاب "مفاتيح العلوم":

على النسخة التي حقّقها المستشرق ج. فان فلوتن (١٨٦٦-١٩٠٣م) من كتاب "**مفاتيح العلوم**" لأبي عبد الله محمد بن أحمد الخوارزمي (ت٣٨٧هـ)، المطبوعة في مطبعة بريل في ليدن عام ١٨٩٥م، التي أعيد نشرها في مصر عام ١٩٣٠م -بتصحيح عثمان خليل وترقيمه- وضع الأدهميّ تعليقاته.

ولم تكن مهمته يسيرة لسببين: الأول: طبيعة مادة الكتاب، فقد تعددت وتنوعت المسائل والمباحث التي وقف عليها هذا الكتاب الجامع لاصطلاحات العلوم والمعارف المتنوعة. والسبب الآخر: طبيعة أسلوب المعالجة ، فقد حتّمت مادة الكتاب على المؤلف الاختصار والإيجاز، بأداء لغويّ يقرب أحيانًا من أسلوب البرقية، فكان لابدّ أن ينهض بمهمة التعليق عالم ملمّ بمجالات مختلفة، يتولى التفسير والشرح وإزالة الغموض واللبس وإتمام النقص وفك التداخل، إلى غير ذلك من المهام التي أدّتها هوامش الأدهميّ على خير وجه -كما سيتضح لاحقًا-.

ويمكننا رصد خصائص عامة غلبت على تعليقاته هنا، منها:

١- إنّها تفاوتت اختصارًا وإسهابًا بحسب الموضع الذي اقتضى التعليق، أحيانًا يطيل وأحيانًا يكتفي بكلمتين أو ثلاث.

٢- تفاوتت في توزيعها على مباحث الكتاب، فمع غنى ملاحظاته وغزارتها في المسائل المتعلّقة بعلوم العربية وبالفقه والمعتقدات وعلم الكلام فإنها نزرت جدًّا في مباحث الموسيقى والكيمياء والرياضيات والطب... إلخ، فكانت تمرّ صفحات متتالية من غير هامش أو ملاحظة(٥)، وهي ظاهرة نعزوها إلى طبيعة ثقافة هذا الشيخ ومرجعياته ،ولعل الكتاب مثّل في بعض جوانبه تحديًا مضمرًا لهذه المرجعيّات العلميّة،على نحو ما أوضح في خاتمة الكتاب: «وبالحقيقة أنّه لا يقدر شخص واحد على توفية هذا الكتاب حقّه من الشرح والتعليق لتنوّع علومه وتعدّد فنونه، إذ ليس في وسع كل شخص أن

يحيط بكل ما اشتمل عليه، ومع ذلك أحمد الله تعالى على ما ألهمنيه»[٦]. كان إقدامه على التعليق على هذا الكتاب مغامرة علميّة تستحق الإعجاب والثناء معًا.

٣- كان لذائقته الشخصية وميوله الفنية أثر ملحوظ في قسمٍ من تعليقاته اختيارًا وتوجيهًا وردًّا وتعقيبًا، الأمر الذي منحها طراوة الأسلوب وطرافته.

٤- لم يوفّق في قسم منها، إذ وقع في الوهم، أو تورّط بمعلومات غير دقيقة، وهي مواضع قليلة، والحق يقال.

وتحليل هذه التعليقات يقودنا إلى تمييز عدد من المحاور الموضوعية دارت عليها هي:

١- تعليقات لغويّة: وهي كثيرة إن لم نقل الغالبة، إذ يعنى بتفسير معاني المفردات، وضبط الحركة الصرفية للكلمة، وبيان موقعها الإعرابي أحيانًا، ولا بأس بشاهد لتعزيز الرأي إذا اقتضى المقام ذلك.

- على سبيل المثال: قال في تفسير معنى (ماء الخلاف): «ماء الخلاف: صنف من شجر الصفصاف له زهر وليس له ثمر، وفي المثل: خلافهم كالخلاف، أي له منظر وليس له ثمر»[٧].

وعقّب على الجملة الدعائية المعتادة: "أطال الله بقاءه" قائلاً: "أي بقاء ذِكره"[٨]، فقد خصّص البقاء ولم يطلقه، لأنّ البقاء الجسديّ للبشر محال، وإنما هو البقاء الاعتباريّ المعنويّ المتحقق بالذِّكْر الطيِّب وحسن الأحدوثة، فالباقي في هذا الكون «ضربان: باق بنفسه لا إلى مدة، وهو

الباري تعالى، ولا يصحّ عليه الفناء، وباقٍ بغيره وهو ما عداه ويصحّ عليه الفناء.

والباقي بالله ضربان: باقٍ بشخصه وجزئه إلى أن يشاء الله أن يفنيه كبقاء الأجرام السماوية، وباق بنوعه وجنسه دون شخصه وجزئه كالإنسان والحيوانات»[٩]. على الرغم من أنّ المادة المعجمية نفسها تبيح له وجهًا آخر للبقاء ،يبدو أنه لم يرق له فأهمله، ففي المعجم: بقي الرجل "زمانًا طويلاً أي عاش"[١٠].

- ومن جهوده اللغوية ضبط الحركة الصرفيّة للكلمات وبيان صيغها، قال عن لفظة (الخوارزميّ): "نسبة لخوارزم، بفتح الخاء والراء بينهما واو لا تُقرأ ثم زاي ساكنة"[١١]، وفي كلامه تصحيح للوجه الشائع المغلوط في نطقنا للكلمة اليوم بإظهار الواو، على أنّه لم يُفد من ضبط ياقوت الحمويّ (ت ٦٢٦هـ) الدقيق لها -وكان حريًّا به أن يفعل-، قال الحمويّ: «خوارزم، أوله بين الضمة والفتحة والألف مسترقة مختلسة ليست بألف صحيحة ،هكذا يتلفّظون به»[١٢].
- وقد يربط في تضاعيف ملاحظاته بين شؤون الماضي والحاضر، لتقريب المعلومة أكثر وضمان تقبّل المتلقّي لها. قال بعد تفسير معنى مصطلح (البريد) قديمًا: "هو اليوم مصلحة أخذ الخطابات وإيصالها إلى المحلات المرسلة إليها بأصول معلومة"[١٣].

ومثل هذه الملاحظات مفيدة جدًّا في رصد التطور الدلاليّ للكلمات، واختلاف الاستعمال الاصطلاحيّ أيضًا بين العصور، قال معلّقًا على ما

ذكره الخوارزمي عن (ديوان الماء): "وهو المسمّى اليوم مصلحة الريّ، أي النظر في المياه الجارية ومعرفة زيادتها ونقصها وكيفية توزيعها على الأراضي المزروعة"(١٤).

- وتنمّ تعليقاته عن معرفة بالفارسية والتركية فضلاً عن لغته الأم العربية، وهو أمر كان شائعًا في العصر العثمانيّ.

قال موضّحًا معنى كلمة (المرزبان): "بان صفة مشبهة بالفارسية، معناها الحافظ والحامي، مشتقة من مصدر (بايندن) ومعناها الحفظ والحماية، فمرزبان معناها: حامي الحدود ومحافظ البلاد في الجهة الفاصلة بينها وبين غيرها من بلاد حكومة أخرى. وكلمة بان مستعملة أيضًا في العربية، ومثالها (ديده بان) ومعناها الملاحظ والناطور، و(كستبان) وهو القمع الذي يضعه الخياط في إصبعه الوسطى وقت الخياطة، وأصلها (انكست بان)، أي واقي الإصبع وحافظه؛ لأنّ (انكست) الإصبع بالفارسية"(١٥). وقد يورد الشواهد الشعرية الفارسية أو التركية إذا ما احتاج الموضع إلى البيان والتعزيز(١٦).

- والعناية بالمصطلح وتحديد دلالته أو بيان مقابله في اللغة الأجنبية مما يمكن ملاحظته في بعض هوامشه، على سبيل المثال ذكر الخوارزميّ (العلم الإلهي الأعلى) فما كان من الأدهميّ إلا أن علّق: "واسمه في اصطلاح الفنون لات أولوجي"(١٧). وحين ذُكر مصطلح (الإكسير) في كتاب

الخوارزمي بيّن الأدهمي معناه قائلاً: "هو الجوهر الذي إذا وضع منه على النحاس صيّره ذهبًا في صناعة الكيمياء"(١٨).

ومثلها وقفاته التعريفيّة على مصطلحات أُخر، منها: (الجوهر)، (العَرَض)، (الرجعة)، (المعتزلة)، (السامريّة)، (الدهريّة)...إلخ(١٩).

● ومن تمام التوضيح بيان عمر المصطلح وعمر تداوله قدمًا أو حداثةً، مع الاستعانة بالشواهد للتدليل، فقد علّق على مصطلح (الدرياق) -مثلاً- قائلاً: "رومي معرّب وتكلموا به قديمًا، قال ابن الوكيل الشاعر:

إنّ الذي جعل الهموم عقاربًا   جعل المدام حقيقة ترياقها"(٢٠)

أغفل الشيخ هنا المادة اللغويّة والطبيّة الجيّدة التي وفّرها المعجم العربيّ القديم لتركيبة الدرياق، وصيغ نطقه في أصل لغته وعند التعريب، فضلاً عن قدم تداوله في كلام العرب، وبما هو أقدم بكثير من ابن الوكيل الشاعر (ت ٧١٦هـ)(٢١)، فاستعماله ورد في كلام رجال من عصور الفصاحة والاحتجاج، جاء في "**تاج العروس**": «الترياق بالكسر: دواء مركّب من أجزاء كثيرة، ويطلق على ما له زَهرية ونفع عظيم سريع، وهو الآن يُطلق على العادي الذي اخترعه ماغنيس الحكيم وتمّمه أندرو ماخس القديم بعد ألف ومائة وخمسين سنة بزيادة لحوم الأفاعي فيه وبها كمل الغرض، وهو مسمّيه بهذا الاسم؛ لأنّه نافع من لدغ الهوام السبعيّة، وهي باليونانية ترياء بالكسر، ونافع أيضًا من الأدوية المشروبة السميّة، وهي باليونانية (قاآ) ممدودة، ثم خفّف وعرّب، ويقال بالدال أيضًا بدل التاء... وقال الحكيم داود: وممن زاد فيه من الحكماء: أقليدس وفلاغورس

وفرافيلس وساغورس ومارينوس حتى جاء جالينوس فغيّر فيه أوزانًا وخالف أوضاعًا، وكان الشيخ الرئيس يقول: إنّ جالينوس أفسده. أمّا عدد مفرداته فنهايتها تسعون وأقلّها أربع وستون»[٢٢]. ومن النصوص القديمة التي استعمل فيها هذا المصطلح ما جاء في قول ابن عمر: «ما أبالي ما أتيت إنْ شربتُ ترياقًا»، وعلّق الزبيدي (ت ١٢٠٥هـ): «إنما كرهه من أجل ما يقع فيه من لحوم الأفاعي والخمر وهي حرام نجسة»[٢٣]. ووردت الكلمة أيضًا في رجز لرؤبة بن العجّاج (ت١٥٤هـ):

«ريقي ودرياقي شفاء السُمّ»[٢٤]، ويروى لابن مقبل (ت بعد ٣٤هـ) هذا البيت:

سقتني بصهباء درياقةٍ متى ما تليّن عظامي تلنْ[٢٥]

● وحازت الملاحظ النحويّة على مساحة جيّدة من تعليقاته اللغوية، وهو فيها لا يكتفي بالتوجيه الإعرابيّ للكلمة أو الجملة، فكثيرًا ما استدرك على المؤلف أو صوّب رأيه، مستعينًا بالحجاج والقياس والاستشهاد.

ذكر الخوارزمي في باب (النعت): «النعت كقولك: زيد الطويل، فالطويل هو النعت ويسمّى صفة»[٢٦].

أوضح الأدهمي في تعليقه الفارق الدلاليّ الدقيق بين مصطلحي (الصفة) و(النعت) قائلاً: "مفهوم كلامه أنّ النعت هو الصفة، وليس الأمر كذلك، بل النعت عبارة عن الحلية الظاهرة الداخلة ماهية الشيء وما شاكلها كالأنف والأصابع والطول والقصر ونحو ذلك، والصفة

عبارة عن العوارض كالقيام والقعود ونحو ذلك ، والله تعالى يوصف ولا يُنعت"[٢٧].

• واستدراكاته النحوية على المؤلف كثيرًا ما تسدّ نقصًا في عبارة الخوارزمي أو تستكملها بالاستشهاد، بسبب ميل الخوارزمي إلى الاختصار كما ذكرنا قبلاً. قال المؤلف في مبحث الأسماء المبهمة : «مثل : هذا وذاك وهذه وتلك»[٢٨]. رأى الأدهمي العبارة قاصرة عن استيفاء جوانب الموضوع، فثمّة قسم آخر لم يتطرق إليه، مّما استدعى منه توضيحًا : "الأسماء المبهمة هي نوعان: اسم الإشارة كما مثّل، واسم الموصول ولم يذكره، وهو: الذي والتي ومن وما"[٢٩]. ومثّل الخوارزميّ للأسماء المضمرة بأنها: «مثل: أنت وهو وهي»[٣٠]، فانبرى الأدهميّ مستدركًا : "لم يمثّل لضمير المتكلم بل أتى بمثالين بضمير الغائب أحدهما للمذكر والثاني للمؤنث، وكان الأولى أن يكتفي بواحد ويذكر ضمير المتكلم"[٣١].

والملاحظة منهجية سليمة لأنّ التمثيل لضمير المخاطب كان بواحد، مما يوجب اطّراد الأمر مع ضمير الغائب أيضًا، أي بمثال واحد، لكنّ الخوارزميّ خرج عن النهج الأول فأورد مثالين ونسي القسم الثالث من الموضوع كما نسي التمثيل له أيضًا.

وتكرر الأمر في المبحث الخاص بمرفوعات الأسماء، إذ نصّ الخوارزميّ على أنها سبعة، فما كان من الشيخ إلاّ أنْ صحّح: «لا بل ثمانية»[٣٢]. والاختلاف هنا ليس في تحديد الرقم فحسب بل في الحصر والتمثيل، فالخوارزمي ذكر من المرفوعات: المبتدأ والخبر والفاعل ونائب

الفاعل، فوجد الأدهمي أنّ التقسيم مختزل، ورأى أنّ تنبيه القارئ من مسؤوليته، قال: "ولم يذكر تمام السبعة ونحن نكملها فنقول: والخامس خبر باب (إنّ وأخواتها)، والسادس: اسم باب (كان وأخواتها)، والسابع خبر (ما) و(لا) المشبّهتين بـ(ليس)، والثامن خبر (لا) التي هي لنفي الجنس"[٣٣].

وأرى أنّ الخوارزميّ لم يغفل عن المواضع الأربعة التي استدركها عليه الشيخ؛ لأنّ الخوارزمي إنما ذكر العمد في باب الرفع، أمّا ما ورد في بابَي الأحرف المشبّهة بالفعل والأفعال الناقصة -و(لا) و(ما) المشبهتان بليس ملحقة بباب الأفعال الناقصة- فإنما هي فروع على تلك الأصول، إذ هي مبتدآت وأخبار في أوضاع مخصوصة، وكذا الحال في خبر (لا) النافية للجنس، فهي عاملة عمل الأحرف المشبّهة بالفعل، ملحقة بها.

إنّ الاختلاف بين الرجلين في مثل هذه المواضع مردّه إلى اختلاف أسلوبيهما في المعالجة والأداء: الإجمال عند المؤلف، والتفصيل عند المعلّق، فالخوارزمي لم يخطئ كما ظنّ الأدهميّ، وإنما طوى التفصيلات تحت المفاصل الرئيسة، فضلاً عن أنّ بعض آراء الخوارزميّ لها وجوه من التوجيه والتأويل، لا أدري كيف غابت عن الشيخ الجليل؟

- ومن المسائل التي اشتبك فيها مع المؤلف أيضًا تقسيم الفعل بحسب زمنه، ذهب الخوارزميّ إلى أنّ «الأفعال أربعة أجناس: فعل قد مضى... وفعل مستقبل... وفعل ما أنت فيه ولفظه ولفظ المستقبل واحد ويسمّيان معًا الفعل المضارع... وفعل مبنيّ للأمر»[٣٤]. علّق الأدهمي على هذا

بالقول: "المعروف أنّ الأفعال ثلاثة: ماضٍ ومضارع وأمر، والمضارع يشمل الحال والاستقبال فلا حاجة إلى عدّها أربعة"(٣٥).

وأجد تقسيم الخوارزميّ أدقّ وأقرب إلى عبارة سيبويه في تمييز أزمنة الفعل حين قال: «وأمّا الفعل فأمثلة أخذت من لفظ أحداث الأسماء، وبنيت لما مضى، وما يكون ولم يقع، وما هو كائن لا ينقطع»، وهو ما أوضحه أبو سعيد السيرافيّ قائلاً: «إنّ الماضي هو الذي أتى عليه زمنان: أحدهما: الزمان الذي قد وجد فيه، وزمان ثانٍ يُخبر أنه قد وجد وحدث وكان ونحو ذلك، فالزمان الذي يقال: وجد الفعل فيه وحدث غير زمان وجوده، ... والفعل المستقبل هو الذي يُحدّث عن وجوده في زمان لم يكن فيه ولا قبله... وبقي قسم ثالث وهو الفعل الذي يكون زمان الإخبار عن وجوده هو زمان وجوده وهو الذي قال سيبويه: وما هو كائن لم ينقطع»(٣٦). وكانت للعلاّمة محمود محمد شاكر وقفة مهمة في تحليل أبعاد عبارة سيبويه وشمولها، وقصور العبارة النحوية التقليدية التي تقسم الفعل على: ماضٍ ومضارع وأمر -كما ارتأى الأدهميّ-، فالأمر لا يتعلّق بصيغة الفعل فحسب بل بسياق الجملة الكامل، قال شاكر: «فالزمن الأول هو المقترن بالفعل الماضي الذي يدلّ على فعل وقع قبل زمن الإخبار به كقولك: (ذهب الرجل)... وأمّا الزمن الثاني فهو... حين تقول آمرًا: (اخرج)، فهو مقترن بزمن مبهم مطلق معلّق لا يدلّ على حاضر ولا مستقبل؛ لأنّه لم يقع بعدُ خروج ،ولكنّه كائن عند نفاذ الخروج من المأمور به، ومثله النهي حين تقول ناهيًا: (لا تخرجْ)، فهو

أيضًا في زمن مبهم مطلق معلّق، وإنْ كان على مثال الفعل المضارع، فقد سُلب الدلالة على الحاضر والمستقبل؛ لأنّه لم يقعْ... وأمّا الزمن الثالث... فإنّه خبر عن حدث كائن حين تخبر به... ويُلحق بهذا الزمن الثالث أيضًا مثال الفعل الماضي كقوله تعالى: "وكان الله غفورًا رحيمًا"، فهو خبر عن مغفرة كانت ولا أوّل لها، وهي كائنة أبدًا لا انقطاع لها، لأنّها من صفات الله سبحانه»[٣٧].

• ومن المواضع التي اختلف فيها الأدهمي مع المؤلف أيضًا ما جاء في مبحث جزم الفعل المضارع؛ إذ نصّ الخوارزمي على العنوان الآتي: «الحروف التي تجزم الأفعال المضارعة»[٣٨]. فنوّه الشيخ: "جعله إياها حروفًا كلها ليس على إطلاقه، بل منها ما هو أحرف وهي: لم ولّما ولام الأمر ولا في النهي وإنْ الشرطية وما عداها أسماء"[٣٩]، ولا أظنّ فحوى كلام الأدهمي خافية على المؤلف، ولعل مظنة الوهم عائدة إلى استعمال كلمة (الحروف) استعمالاً لغويًّا عامًّا عند المؤلف، وليس اصطلاحيًّا كما ظنّ المعلّق، فـ(الحرف) من معانيه في كلام العرب (الكلمة) مطلقًا: اسمًا أو فعلاً أو حرفًا، وليس بالدلالة النحوية الدقيقة للحرف، أي «ما دلّ على معنًى في غيره... وليس له علامة يتميّز بها كما للاسم والفعل»[٤٠].

٢- تعليقات عروضيّة: وهي تنمّ عن روح شاعر يحسّ بإيقاع الكلمة والصورة، ولديه انطباعات عميقة عن خصائص البحور، مستعينًا أحيانًا بالموازنات والمفاضلات النقديّة، كقوله:

● "البسيط يقرب من الطويل ولكنه لا يتسع مثله لاستيعاب المعاني، ولا يلين لينه للتصرّف بالتراكيب والألفاظ، مع تساوي أجزاء البحرين، وهو من وجه آخر يفوقه رقة وجزالة ولهذا قلّ في شِعر الجاهلية وكثر في شِعر المولدين"[٤١]، وتبدو بالملاحظة الأخيرة حاجة إلى التوثيق والتعزيز الإحصائي، ولعله لم يكن متاحًا للشيخ آنذاك، ولكن ملاحظته جديرة بالنظر والتدقيق.

● كما تدلّ ملاحظاته في هذا الجانب على ميله إلى ربط البحور بالأغراض الشعرية، وهي مسألة إشكالية أثارت جدلاً وآراء متباينة بين الدارسين قديمًا وحديثًا، قال عن (الوافر) –مثلاً–: «ألين البحور يشتدّ إذا شددته، ويرقّ إذا رققته وأكثر ما يجود به النظم في الفخر والمراثي»[٤٢]، وكأنه يتابع حازمًا القرطاجنيّ (ت ٦٨٤هـ) في ما ذهب إليه من وجود علاقات وثيقة بين الخصائص الموسيقية للبحور –المتحصّلة من اختلاف نسبة المتحركات إلى السواكن في كلٍ منها، فضلاً عن اختلاف ترتيبها داخل كل بحر– وبين طبيعة الأغراض الموظفة فيها في القصائد، إذ لكل بحر «ميزة في السمع وصفة أو صفات تخصه من جهة ما يوجد له رصانة في السمع أو طيش، ومن جهة ما يوجد له سباطة وسهولة، أو يوجد له جعودة وتوعّر، ومن جهة ما يوجد باهيًا أو حقيرًا وغير ذلك... ولّما كانت أغراض الشعر شتى، وكان منها ما يقصد به الجدّ والرصانة، وما يقصد به الهزل والرشاقة، ومنها ما يقصد به البهاء والتفخيم، وما يقصد

به الصغار والتحقير، وجب أن تحاكى تلك المقاصد بما يناسبها من الأوزان ويخيّلها للنفوس»[٤٣].

● ولم يغفل أثر الزحافات والعلل في التوجيه الإيقاعي للبحر، وصلتها بالجانب النفسيّ للشاعر، مستعينًا أحيانًا بنفثاته الشخصية، قال -مثلاً- عن (الكامل): «أتمّ البحور لأنّه يصلح لكل نوع من أنواع الشِّعر، ولهذا كان كثيرًا في كلام المتقدمين ،وهو أجود في الخبر منه في الإنشاء، وأقرب إلى الشدة منه إلى الرقة، وإذا دخله الحذذ، أي حذف الوتد المجموع من آخره، أي حذف (علن) من (متفاعلن) وجاد نظمه كان مطربًا مرقصًا، وكانت به نبرة تهيج العواطف النفسية كقول القائل:

يا دميةً نُصبتْ لمعتكف   بل ظبية أوفتْ على شرف
بل وردة زهراء ما سكنتْ   بحرًا ولا اكتنفتْ ورا صدف

وهو كذلك إذا اجتمع فيه الحذذ والإضمار، أي تسكين الحرف الثاني من متفاعلن في آخر البيت، كقول كاتب هذه السطور:

إنّي لأعجبُ كيف أُرزق في   هذي الحياة وليس لي حظ
لم يُجدني علمي ولا أدبي   جدوى بها لرفاهتي لحظُ»[٤٤]

● ومن تعليقاته الطريفة قوله عن (المنسرح): «هو مثل المديد من حيث الخاصة والطبع، وإذا أجيد نظمه خفف ثقله على الأسماع وإلاّ كان كجلمود صخر حطّه السيل من عل»[٤٥].

● ومن آرائه الانفعالية التي يتضح فيها أثر الذائقة الفنية والتجربة الخاصة ما ذكره عن (الخفيف) مستعينًا غير مرة بصيغ التفضيل: «الخفيف: أخفّ

البحور على الطباع وأحلاها للسمع، يشبه الوافر لينًا ولكنه أكثر سهولة وأقرب انسجامًا، وإذا جاد نظمه كان سهلاً ممتنعًا لقرب المنظوم فيه من المنثور، وليس في جميع بحور الشِّعر بحر مثله، يصحّ للتصرّف بجميع المعاني من مدح ورثاء وفخر وغزل وما أشبه ذلك»[٤٦].

وهذه الآراء على وجاهتها من الناحية الفنية، فإنّها قابلة للردّ والدحض، وعلى نحو ما تؤكّد الوقائع والشواهد المستمدّة من تاريخ الشِّعر العربيّ قديمه وحديثه.

٣- ونهلت تعليقاته أيضًا من معين الجغرافية والبلدانيات والتاريخ، قسم منها معلومات قديمة مذكورة في مراجعنا الموروثة، والقسم الآخر ممّا عاصره المعلّق أو شاهده، ممّا يكسبها قيمة مضافة.

ورد في كلام الخوارزمي ذكْر (واسط)، فعلّق الأدهميّ: «واسط: بلدة بالعراق بين بغداد والبصرة، اختطها الحجاج بن يوسف الثقفيّ المتوفى سنة ٩٥هـ في سنتين»[٤٧].

على أنّه لم يوفقّ في بعض آرائه في هذا الجانب، بل جاءت أحيانًا معلومات الخوارزمي ابن القرن الرابع الهجريّ أصحّ وأقرب إلى الدقة من ملاحظات ابن النصف الأول من القرن العشرين الميلاديّ، وهذه مفارقة.

قال الخوارزميّ عن (الأهرام): «ويزعم الناس أنها بنيت قبل الطوفان، وأنّ فيها خبايا وبعضهم يزعم أنّ فيها قبورًا للملوك القبط الذين كانوا يُسمّون الفراعنة»[٤٨]. فعلّق الأدهميّ بكلام جانبه فيه الصواب، مع أنّ البعثات التنقيبية في تلك السنين كانت قد قطعت شوطًا في مجال

الكشف عن الآثار المصرية، فأين كان الشيخ عنها؟ وإلا كيف نقبل منه كلامًا كقوله: «وقال في **القاموس**: الهرمان بناءان أزليان بمصر بناهما إدريس عليه السلام لحفظ العلوم فيهما عن الطوفان، أو بناء سنان بن المشلشل أو بناء الأوائل لّما علموا بالطوفان من جهة النجوم وفيهما كلّ طبّ وسحر وطلسم». اهـ

والصحيح أنّها أبنية خالية من كلّ ما قيل عنها «وإنما بُنيت لتدفع عن مصر الريح التي كانت تهبّ من جهتها فتضرّ بالساكنين قريبًا منها»!![٤٩].

● ويبدو في بعض تعليقاته التاريخية موفّقًا أكثر وهو يوثّق الخبر بالشهر والسنة أحيانًا، وقد يسوق الواقعة المشابهة -على سبيل الاستطراد- أحيانًا أخرى، مزاوجًا بين ما جريات الأمس واليوم، على نحوٍ قد يكشف من خلاله عن طبيعة ميوله السياسيّة والدينيّة. فمثلاً حين ورد اسم الخليفة العباسيّ المستعصم بالله عقّب قائلاً: «الخليفة السابع والثلاثون... كما أنّ آخر سلاطين بني عثمان السلطان وحيد الدين خان بن السلطان عبد المجيد خان المتوفى سنة ١٣٤٤، وهو أيضًا السلطان السابع والثلاثون، وبه انتهى حكم سلاطين بني عثمان في يومنا هذا، وليس بعزيز على الله تعالى أن يوصل حبل سلطتهم نظرًا لما ذكره الصالحون من أنّ دولة بني عثمان تبقى إلى يوم القيامة ويكون الخليفة الذي يصادف زمانه زمان المهدي عون <كذا> له، ولا عبرة بهذه الفترة الحاصلة اليوم منذ ثماني سنوات، فقد سبق مثلها بين السلطان بيلدرم بايزيد خان رابع سلاطين بني عثمان المتوفى سنة خمس وثمانمائة وبين سلطنة ابنه السلطان محمد الأول حيث

حصل خلاف بين أولاد بيلدرم بايزيد أدّى إلى فراغ الملك من غير سلطان مقدار تسع سنوات إلى أن أذن الله فوفّق محمد الأول هذا إلى تبوّئ عرش السلطنة العثمانية سنة ٨١٦ ومنه اتصل حبل السلاطين إلى أن كان خاتمتهم السلطان وحيد الدين»[٥٠].

● وعلى خلاف هذا التسليم الذي في موقفه هنا نجده يسوق الخبر أحيانًا مشفوعًا بالنقد والتصحيح والتنبيه، كقوله في معرض كلامه على قصة (سيف بن ذي يزن): " لسيف بن ذي يزن قصة طويلة في أكثر من سبعة عشر جزءًا، خمسة أعشارها كذب وتلفيق، ولكنّ لها رواجًا وسوقًا عند العوام لما اشتملت عليه من الكذب الخلّاب الذي تميل إليه النفس وتألفه"[٥١].

● وفي تضاعيف استطراداته التاريخية كان يمرّر رسائل معينة مما عاشه هو في تلك المرحلة الانتقالية العصيبة بين انهيار الدولة العثمانية وتأسيس الممالك والجمهوريات العربيّة، وكانت له معاناته الشخصية في هذا الجانب: فقد «دخل سلك التعليم في الدولة العثمانية وكان مدرّسًا في المدارس السلطانية، وانتدب عضوًا في عدة لجان بوزارة المعارف، وعندما تبدّل شكل الحكومة العثمانية وجاء كمال أتاتورك جرّدوه من مناصبه وأداروا له ظهر المجنّ وأخرجوه من الأراضي التركية تعصبًا لانتمائه العربي فهضموه حقوقه وضيّعوا عليه خدمة خمس عشرة سنة»[٥٢]. فكان يتحيّن بعض التعليقات للتنفيس عن آلامه الداخليّة، من ذلك ما كان من حديث الخوارزميّ عن بردة الرسول ﷺ التي خلعها على كعب

ابـن زهـير وشـراء الخليفـة معاويـة بـن أبـي سـفيان لهـا وتـوارث الخلفـاء العباسـيين لهـا مـن بعـده، فوجـدها الـشيخ أبـو عبـد الـرحيم فرصـة ليقـول كلمته في الموضوع: "وعند ملوك الدولة العثمانيـة الـبردة المـذكورة محفوظـة بصندوق مـن ذهـب، وفي نـصف شـهر رمـضان مـن كـلّ سـنة كـان يـذهب الملك ورجال الدولة إلى محلها المحفوظة فيه ويتبركون بها من خارج الوعـاء التي هي فيه من غير أن تلمسها الأيدي، وقد جـاء مـصطفى كمـال فأبطـل هـذه العـادة، وقـد روت الجرائـد مـن عهـد قريـب أنهـا سُـرقت مـن محلـها وبيعـت إلى محـبي الآثـار القديمـة مـن الأمريكـان، وأنّ الحكومـة الكماليـة تبحث عنها، كما أنّ يد السرقة امتدت أيضًا إلى غيرها من النفائس"(٥٣).

ومن الطريف أنّ تعليق الشيخ هذا أثار حفيظة المصحّح السيد عثمـان خليل فردّ عليه قائلاً في الـصفحة نفسها -وهـي مـن المواضـع القليلـة الـتي تدخل فيها المصحح واشتبك مع المعلّق، وبمـا يظهـر حالـة الانقسام والجـوّ المحتدم في تلك الحقبـة الملتهبـة مـن التحـوّلات الـسياسية-، قـال المصحح: «أرى أنّ هذه إشاعة باطلة في أصلها، ساق إليها التعصّب علـى الكمـاليين أه مصححه».

٤- تعليقـات في العلـوم الدينيّـة: الفقـه وعلـم الحـديث والمـسائل الكلاميّة، وهو الميدان الذي برز فيه واستوفاه بالشرح والتفصيل.

- قال -مثلاً- عن (خبر الواحـد): «هـو ثلاثـة أقسام: صـحيح وحـسن وضعيف، والأول والثاني يفيدان الظن دون القطع، وهما مع المتواتر.

يعتمد عليها في إثبات الأحكام الشرعية، والضعيف يفيد ترجيح جانب الاحتمال بصحته على جانب الظن، ويعمل به في فضائل الأعمال بشرط أن يكون له أصل في الشريعة ولم يشتدّ ضعفه»[٥٤].

● ولا تخلو تعليقاته في هذا المجال من ذكر الآراء الخلافيّة للإحاطة بالوجوه المختلفة من المسألة، قال عن (الحديث المرسل): «ضعيف لا يُحتجّ به مطلقًا عند الإمام الشافعي وعليه الجمهور، واحتجّ أبو حنيفة ومالك وأحمد بن حنبل بمراسيل سعيد بن المسيّب المتوفى سنة ٩٤هـ فقط؛ لأنّها مسانيد حميّه أبي هريرة لا بمراسيل غيره للجهل بالساقط في إسناده»[٥٥].

● وفيما يتعلّق بأحكام المواريث كانت للخوارزميّ وقفات سريعة عليها بعبارات مقتضبة وغامضة أحيانًا، فانبرى الأدهميّ موضّحًا ومفصّلاً. قال المؤلف في بعض المواضع: «الأكدرية: مسألة في الفريضة هي امرأة ماتت وتركت زوجًا وأمًّا وأختًا وجدًّا»[٥٦]. وهذا كلام غامض يكاد لا يخرج القارئ منه بمحصول مفهوم، فتصدى الشيخ للمهمة مفصّلاً القول في المسألة: "لُقّبت بالأكدرية لأنّ الخليفة عبد الملك بن مروان الأمويّ المتوفى سنة ٨٦هـ سأل عنها رجلاً يُقال له أكدر فلم يعرف كيف يقسم الميراث عليهم، وهي امرأة ماتت عن زوج لها وأمها وجدها وأخت شقيقة، للزوج النصف لعدم وجود ولد لها، وللأمّ الثلث لعدم وجود أخوة لها، وللجد ما بقي وهو السدس بالتعصّب، ولاشيء للأخت عند الإمام الأعظم أبي حنيفة وهو مذهب سيدنا أبي بكر الصدِّيق، وقال الأئمّة

الثلاثة: يُقسم السدس بين الأخت والجدّ، للذكر مثل حظ الأنثيين، وهو مذهب زيد بن ثابت رضي الله تعالى عنه"(٥٧).

٥- تعليقات عامة: في موضوعات متنوّعة، ومكمن طرافتها أنها تجمع بين الأشباه والنظائر التي باعدتْ بينها الأزمنة والأمكنة، بنفَس تعليميّ يتحرّى وسائل التوضيح والتقريب حينًا، وبروح الطرفة والنادرة وخفّة الظلّ حينًا آخر.

- قال في الفصل الخاص بـ(البيع والشركة) معلّقًا على ضروب الشركات التي أوردها الخوارزميّ: «شركة عنان: هي في شيء واحد يعنّ أي يعرض، شركة مفاوضة: هي في كل شيء يشتريانه ويبيعانه»(٥٨).

فما كان من الأدهميّ إلاّ أن وضّح الأمر أكثر بأمثلة من عصره: «شركة عنان: يقابلها في هذا الوقت شركة أنونيم، شركة مفاوضة: يقابلها في هذا الوقت شركة فوللكتيف، وثمة شركة ثالثة وهي: شركة تقبّل وتقابلها اليوم شركة ليمتد»(٥٩).

- وفي الفصل الخاص بـ(البروج الاثني عشر) ذكر المؤلف طائفة من أسمائها، منها: (والأسد الليث، والسنبلة العذراء، والجدي التيس). فروى الأدهميّ حكاية طريفة لعلها من رصيد صلاته ببعض الشعراء العراقيين أيام إقامته في البصرة في العراق، إذ قال: «من لطيف نكت الشاعر البارع عبد الباقي العمريّ البغداديّ المتوفى سنة ١٢٧٨م أنّه كان له معاش شهريّ يتقاضاه من مديرية الأوقاف ببغداد، وكان كلمّا استحقّ

له المعاش وجاء ليطالب المدير به يقول له المدير: ما في الخزانة دراهم، فقال هذه الأبيات تسليةً لنفسه وتنفيسًا لكربه:

قد أوقف الأرضين السبع واقفها   وقفًا صحيحًا على ثورٍ إلى الأبد
وصيّر الجدْي في الأفلاك فهو لها   قطبٌ تدورُ عليه محكم الوتد
فهل يؤمّل إنسانٌ وظيفته   وصاحبُ الوقف ثورٌ والمدير جدي"[٦٠]

● ومن أثر العراق أيضًا ما جاء في تضاعيف قوله عن «المغاث: ... عرق الرمان البرّيّ»، إذ يذكر الشيخ: «هو شيء كالعظم صلب يُدقّ ويغلي كالقهوة وتسقى منه النفساء يشدّ عصبها ويقوّيها، ويقال له في مصر مغات بوزن غراب، وبالتاء في آخره بدل الثاء، والجيّد منه يوجد في بغداد»[٦١].

جهود الشيخ الأدهميّ وأضرابه صفحات مطويّة جديرة بالتنقيب والكشف، إنصافًا واعترافًا بالفضل والجميل.

الهوامش:

* أستاذة الأدب القديم- قسم اللغة العربية- الجامعة المستنصرية- بغداد- العراق.

(١) ينظر: **مدخل إلى تاريخ نشر التراث العربيّ**، د. محمود محمد الطناحيّ، ط١، مكتبة الخانجي، مطبعة المدنيّ، القاهرة، ١٤٠٥هـ/١٩٨٤م، ٣٧-٦١.

(٢) موقع معجم البابطين لشعراء العربية في القرنين التاسع عشر والعشرين: ترجمة الشيخ كمال الدين الأدهميّ.

(٣) **مفاتيح العلوم**، الخوارزميّ، مصر، ١٩٣٠م، ١١٤، هامش (٣).

(٤) ينظر: **الأعلام**، خير الدين الزركليّ، دار العلم للملايين، ط١٦، بيروت، ٢٠٠٥م ٨١/٧، ٨٢، موقع معجم البابطين على شبكة الإنترنيت، موقع ذاكرة طرابلس على شبكة الإنترنيت: مقال بعنوان **علماء وشخصيات من طرابلس**، معتز مطرجي.

(٥) ينظر: **مفاتيح العلوم**: ١٠٦، ١٠٧، ١١١، ١١٢، ١١٣، ١١٧، ١١٨، ١١٩، ١٢٠، ١٢١ وصفحات أخرى كثيرة.

(٦) م. ن: ١٥٠.

(٧) م. ن: ٨، هامش (١). وفي **تاج العروس من جواهر القاموس**، محمد مرتضى الزبيديّ، طبعة الكويت، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م: ٢٣/٢٦٩: (خلف): «والخلاف ككتاب... كما في العباب: صنف من الصفصاف وليس به، وهو بأرض العرب كثير ويسمّى السوجر، وأصنافه كثيرة، وكلها خوار ضعيف... وزعموا أنه سمّي خلافًا لأنّ السيل يجيء به سبيًا فينبت من خلاف أصله، قاله أبو حنيفة، وهذا ليس بقويّ».

(٨) م. ن: ٢، هامش (٥).

(٩) **تاج العروس**، طبعة الكويت ١٤٢٢هـ، ٢٠٠١م: ٣٧/١٩١، (بقي).

(١٠) م. ن: مادة بقي.

(١١) **مفاتيح العلوم**: ٢، هامش (١).

(١٢) **معجم البلدان**، ياقوت الحمويّ، دار إحياء التراث العربي، بيروت: مج٢/٢٥٢.

(١٣) **مفاتيح العلوم**: ٤١، هامش (١).

(١٤) م. ن: ٤٣، هامش (١).

(١٥) م. ن: ٧٢، هامش (٢).

(١٦) ينظر: م. ن: ١٣٧، هامش (١)، (٢).

(١٧) م. ن: ٨٥، هامش (١).

(١٨) م. ن: ١٠٤، هامش (١).

(١٩) ينظر: م. ن: ١٧– ٢٥.

(٢٠) م. ن: ١٠٥، هامش (١).

(٢١) ابن الوكيل هو: محمد بن عمر بن مكي أبو عبد الله صدر الدين (ابن المرحل)، شاعر وفقيه، ولد بدمياط، وانتقل إلى دمشق ونشأ فيها، وأقام مدة في حلب وتوفي بالقاهرة، من نتاجه (الأشباه والنظائر) في فقه الشافعية، وديوان شِعر بعنوان (طراز الدار). ينظر: **الأعلام**: ٦/٣١٤. والبيت من قصيدة خمرية في ملحق ديوانه المجموع: ٢٣٥، جمعه عمر علي عيسى ضمن رسالة ماجستير مقدمة إلى جامعة الخليل في فلسطين، ٢٠١٢م.

(٢٢) **تاج العروس**: ٢٥/١١٣–١١٤، مادة (ترق).

(٢٣) م. ن: الموضع نفسه.

(٢٤) **ديوان رؤبة بن العجاج**، تصحيح وترتيب وليم بن الورد البروسيّ، مطبوع بالأوفسيت مكتبة المثنى، بغداد: ١٤٢.

(٢٥) **ديوان ابن مقبل**، تحقيق د.عزة حسن، دار الشرق العربي، بيروت وحلب، ١٤١٦هـ، ١٩٩٥م: ٢١٢.

(٢٦) **مفاتيح العلوم**: ٢٩. (٢٧) م. ن: ٢٩ هامش (١). (٢٨) م. ن: ٣١.

(٢٩) م. ن: ٣١ هامش (١). (٣٠) م. ن: ٣١. (٣١) م. ن: ٣١ هامش (٢).

(٣٢) م. ن: ٣١ هامش (٣). (٣٣) م. ن: ٣١ هامش (٤). (٣٤) م. ن: ٣٤.

(٣٥) م. ن : ٣٤ هامش (١).

(٣٦) شرح كتاب سيبويه، لأبي سعيد السيرافيّ، تحقيق رمضان عبد التواب وآخرين، دار الكتب والوثائق القومية، ط٢، القاهرة ١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م، ج١/٥٧ .

(٣٧) **المتنبي**، محمود محمد شاكر، دار المدني ومكتبة الخانجي، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م، ١٠-١٣.

(٣٨) مفاتيح العلوم: ٣٥ . (٣٩) م. ن: ص.ن هامش (١).

(٤٠) **جامع الدروس العربية**، الشيخ مصطفى الغلايينيّ، ط١٥، المكتبة العصرية، بيروت، ١٤٠١هـ/١٩٨١م، ج١/٩، وينظر: **تاج العروس**: ٢٣/(حرف).

(٤١) **مفاتيح العلوم**: ٥٠ هامش (٢). (٤٢) م. ن: ٥١ هامش (١).

(٤٣) **منهاج البلغاء وسراج الأدباء**، حازم القرطاجنيّ، تحقيق محمد الحبيب بن الخوجة، ط٤، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ٢٠٠٧م، ص٢٦٦.

(٤٤) **مفاتيح العلوم**: ٥١ هامش (٢). (٤٥) م. ن: ٥٣ هامش (٢).

(٤٦) م. ن: ص. ن هامش (٣). (٤٧) م. ن: ١١ هامش (١). (٤٨) م. ن: ٧٩.

(٤٩) م. ن: ص.ن هامش (١). (٥٠) م. ن: ٦٨ هامش (١).

(٥١) م. ن: ٦٩ هامش (١). (٥٢) موقع ذاكرة طرابلس على شبكة الإنترنيت.

(٥٣) **مفاتيح العلوم**: ٧٦ هامش (٣). (٥٤) م. ن: ٦ هامش (٢).

(٥٥) م. ن: ٦ هامش (٣). (٥٦) م. ن: ١٥، ١٦.

(٥٧) م. ن: ص. ن هامش (٣). (٥٨) م. ن: ١٣.

(٥٩) م. ن: ص. ن الهامشان (١)، (٢). (٦٠) م. ن: ١٢٤ هامش (٢).

(٦١) م. ن: ١٠٢ هامش (٥).

إجَــازةُ
العلاّمةِ محمَّد بن عَبْدِ الرَّازِقِ الحُسَينيِّ الحَنفِيِّ
الشَّهِيرِ بالمُرْتَضَى (ت١٢٠٥هـ)
صَاحِب "تَـاجِ العَروسِ مِنْ جَواهِرِ القَامُوسِ"
للسُّلطَانِ أبي الفَتْحِ عَبدِ الحَمِيدِ خَانِ الأوَّلِ (ت١٢٠٣هـ)
سُلْـطَانِ الـدَّولَةِ الـعُثْـمانـيَّةِ

تَحْقِيق ودِرَاسَة :

د. محمَّد فَتْحِي عَبْد الفَتَّاحِ عبد المعطي الأعْصَر*

أهمية هذا النَّص المخطوط

يُعدُّ فنُّ الإجَازةِ وثيقةً أدبيةً وتاريخيةً مُهمةً لا يُمكـنُ إنكارُها أو إجحَادُ دَورِها ، رغمَ قِلَّة العناية والاهتمام بها ؛ فهـي وسيلةٌ أدبيـةٌ مهمـةٌ لما تُثريـهِ -بدَوْرِها- في الحياةِ الأدبيَّةِ من حَراكٍ أدبي ، وبما تتضمَّنه مـن قطـعٍ أدبيـةٍ تُـبرزُ خـصائصَ العـصرِ وثقافته ، وتُوقِـفُ القـارِئَ علـى اللُّغـةِ المـستخدمةِ آنذاك ، وطبيعةِ الحياة الاجتماعيَّةِ السَّائدةِ.

وقيمة هذه الإجازة تتمثل في أنها للزَّبيدي المجيز، وأنّ المجاز هو السُّلطان عبد الحميد الأول (ت ١٢٠٣هـ)، وهو ما يوقفنا على جانب حضاري تاريخي في حياة السلاطين، ولاسيما من هم من أهل العلم منهم كعبد الملك بن مروان والمأمون وابن المعتز، وغيرهم.

وقيمته كذلك تتمثل في بيان ما أُجيز به الزبيدي نفسه من مشايخه من أحاديث وكتب، وما أجاز به السلطان عبد الحميد الأول من كُتب. وهو جانب آخر من جوانب التأليف الذي تزخر به الحركة العلمية في الحضارة الإسلامية. كما أنَّ الإجازة تعدّ نوعًا من طرق نقل العلم ووثاقته.

ويؤكِّد د. أحمد قدري على تلك الأهميَّة قائلاً: فـ«هي التي أثبتَتْ مبلغَ ما وصلتْ إليه الحضارة الإسلامية، وخاصةً في مصر طوال العصورِ الوسطى وحتى أوائل العصْر الحديث... من تقدّم في جميع مجالاتِ العُلومِ، والفُنونِ العقليَّةِ والنَّقليةِ على حَدٍّ سواء»[1]، وغير ذلك من خَصائص يمكنُ أن نقفَ عليها من خِلال بحْثِنا ودراستِنا لهذا النَّص بما يكشفُ لنا عن حجم الافتراءاتِ التي وُجِّهت لحقبة الحكم العثماني، تلك الحِقبة التي تحتاج منَّا توجيه مزيدٍ من الدِّراسات والبَحْثِ والتَّحقيقِ للكشف عن إيجابيات ذلك العصر، ودفع الافتراءات التي وجِّهت لهذا العصر وهذه الدَّولة.

وفي النهاية أرْجُو أنْ يكونَ عَملِي هذا خُطوةً على الطَّريقِ في إبانة كنُوز التُّراث العَربي المخْطُوط في العصْر العُثْماني.

محمد مرتضى الزَّبيدي، المتوفَّى سنة ١٢٠٥هـ
(حياته ونشأته)

اسْمهُ:

يعدُّ العَلاّمة اللغوي والأديب الشَّهير السَّيد محمَّد بن محمَّد بن محمَّد بن عَبْد الرَّزاق الحسيني الحنفي، الشَّهير بالمرتضى[٢]، والمعروف بالزَّبيدي، الذي يتَّصل نسبه بالإمام الحسين بن علي رضي الله عنهم أجمعين، إمام أهل اللّغة قاطبة في العصر العثماني، ومن أدبائها العظام رغم قلة ما وصلنا من أشعاره.

فلم يكن هناك أعظم منه اطِّلاعًا ورواية وشهرةً، نعته تلميذه الجبرتي بكثير من الخصال؛ فهو العلَم الموصوف، العمدة الفهَّامة، الرُّحلة النَّسابة، الفقيه المحدث اللّغوي النَّحوي الأصولي النَّاظم النَّاثر[٣] خاتمة الحفَّاظ.

مولده:

ولدَ الزَّبيدي سنة خمس وأربعين ومئة وألف من الهجرة النبويَّة ١١٤٥هـ، كما أورد ذلك الجبرتي في تاريخه. ولم يحدّثنا الزَّبيدي عن البلد التي ولد بها، إلاَّ أن أصله من واسطَ؛ بلدة من أعمال العراق. وكان مولده بالهند في بلدة بلجرام -وهي إحدى ولايات الهند التي لعبت دورًا مهمًّا في تاريخ الثَّقافة الإسلامية- ونشأ باليمن.

رحلاته العِلْميَّة:

القارئ في المصادر التي ترجمت الزَّبيدي يجدُ أنَّها أبْرزَت رِحلاته في طَلبِ العِلم، والتَّلمذة على يدِ كِبَار شُيوخ عَصْره في أنْحَاء العَالم الإسلامي

كافة، فقد ذكر المؤرخون أنَّه اشتغل على المحدِّث محمد فاخر بن يحيى الإلهابادي، والشاه ولي الله الدّهلوي، فسمع عليه الحديث وأجازه. ثم ارتحل لطلب العلم فدخل زَبيد، وأقام بها مدة طويلة حتى قيل له الزَّبيدي.

وبعد ذلك ارتحل الزَّبيدي إلى مصر وغيرها من البلدان طالبًا العلم، ومحصلا له على يد شيوخ عصره، وفي ذلك يقول تلميذه الجبرتي: «ارتحل في طلب العلم وحجَّ مرارًا، واجتمع بالشيخ عبد الله السِّنْدي، والشيخ عمر بن أحمد بن عَقيل المكي، وعبد الله السَّقاف، والمسنِد محمد ابن علاء الدين المزجاجي، وسليمان بن يحيى، وابن الطيب.

واجتمع بالسيد عبد الرحمن العَيْدَروس بمكة، وبالشيخ عبد الله ميرغني الطائفي في سنة ثلاث وستين. ونزل بالطائف بعد ذهابه إلى اليمن ورجوعه في سنة ست وستين؛ فقرأ على الشَّيخ عبد الله في الفقه، وكثيرًا من مؤلفاته وأجازه.

وقرأ على الشَّيخ عبد الرحمن العَيْدَروس مختصر السَّعد، ولازَمه ملازمة كلية، وألبسه الخِرْقة وأجازه بمرويَّاته ومسموعاته. قال: وهو الذي شوَّقني إلى دخول مصر بما وصفه لي من علمائها وأمرائها وأدبائها، وما فيها مِنَ المشاهد الكرام؛ فاشتاقت نفسي لرؤياها وحضرت مع الرَّكب وكان الذي كان، وقرأ عليه طرفًا من الإحياء وأجازه بمرويَّاته.

ثم ورد إلى مصر في تاسع صفر سنة سبع وستين ومئةٍ وألفٍ، وسكن بخان الصَّاغة، وأول من عاشره، وأخذ عنه السيد علي المقدسي الحنفي من علماء مصر، وحضر دروس أشياخ الوقت كالشيخ أحمد الملَّوي

والجـوهري والحفـني والبُلَيْـدي والـصَّعيدي والمـدابغي وغيرهـم، وتلقَّـى عنهم، وأجازوه وشهدوا بعلمه وفضله وجودة حفظه.

ولم يكتفِ الزَّبيدي بما حصَّله من علمٍ؛ فجاب البلاد طالبًا المزيدَ، وسافر إلى الصعيد ثلاث مرات، واجتمع بأكابره وأعيانه وعلمائه، وأكرمه شيخُ العرب همامُ وإسماعيلُ أبو عبد الله وأبو علي وأولاده نصير وأولاد وافي وهادوه وبَرُّوه. وكذلك ارتحل إلى الجهات البحرية مثل دمياط ورشيد والمنصورة، وباقي البنادر العظيمة مرارًا حين كانت مزيَّنة بأهلها عامرة بأكابرها، وأكرمه الجميع، واجتمع بأكابر النَّواحي. وأرباب العلم والسُّلوك وتلقَّى عنهم وأجازوه وأجازهم.

الزَّبيدي مُعلِّمًا:

طارت شُهرة الزَّبيدي في الآفاق، وأقبلَ عليه الخاصّ والعامّ مِن كلِّ حدبٍ وصوبٍ، وذلك بعدما شرع في إملاء الحديث على طريق السَّلف في ذِكر الأسانيد والرُّواة المخرِّجين من حفظه على طرق مختلفة. وكل من قدم عليه يملي عليه الحديث المسلسل بالأولية، وهو حديث الرحمة برُواتِه ومخرِّجيه، ويكتب له سندًا بذلك وإجازة وسماع الحاضرين، فيعجبون من ذلك.

ووصلَت درجة شُهرته إلى أنَّ مُعظَم عُلماء الأزهر الشريف آنذاك سَعوا إلى حُضورِ دروسه والاسْتِماع إليه والإجازة منه. وزادَ من شُهرة الزَّبيدي أن تناقلَ في النَّاس سعي مشايخهم من عُلماء الأزهر مثل: الشَّيخ أحمد السُّجاعي، والشَّيخ مُصْطفى الطَّائي، والشَّيخ سُليمان الأكراشي

وغيرهم، للأخذ عنه. فازداد شأنه وعظم قدره، واجتمع عليه العامة والأكابر والأعيان.

وفاة الزَّبيدي:

ذكر تلميذه الجبرتي في تاريخه: أنَّ مرض الطَّاعون قد زاد وانتشر انتشارًا فاحشًا في عام ١٢٠٥هجرية، ونال من العامّ والخاصّ؛ فأصيب الزَّبيدي به (أي بالطاعون) في شهر شعبان. وذلك بعد صلاة الجمعة في مسجد الكردي المواجه لداره، ودخل بيته واعتُقل لسانُه.

وبعدَ حياة حافلة بالجدِّ في تحصيل العلم والتدريس توفِّي يوم الأحد من ذلك الشهر، ومن تلك السَّنة، أي يوم الأحد من شهر شعبان سنة ١٢٠٥ هجرية.

وكان قد تزوّج من امرأة أخرى غير زوجته الأولى زُبيدة -التي ماتت في حياته- لعله يرزق بالولد منها؛ ليرث ثروته وكتبه التي بلغت من كثرتها الشيء الكثير. فأخفت زوجته وأقاربها نبأ موته، وانشغلوا بنقل الأشياء النَّفيسة والمال والذَّخائر والأمتعة والكُتب المكلفة، ثم أشاعوا موته يوم الاثنين. فشُيِّعت جنازته وصلَّوا عليه ودفن بقبر أعدّه لنفسه بجانب زوجته الأولى زُبيدة -التي رثاها رثاءً بليغًا ينبض بإحساس مرهف، يدلُّ على قوة شاعريته- بالمشهد المعروف بالسيدة رُقَيَّةَ. ولم يعلم بموته أهل الأزهر؛ وذلك لاشتغالهم بأمر الطاعون. ولهذا السبب لم يَرْثِه أحد من شعراء عصره أو تلاميذه.

تـرك لنـا مرتـضى الزَّبيـدي الكـثير مـن المؤلفـات الـتي تخلِّـد ذِكـره في الآفاق، وفي مقدمتها معجمه "**تاج العروس من جواهر القاموس**"، الـذي يُعدُّ علامةً بارزةً في تاريخ التراث العربي والإسلامي علـى وجـه العمـوم، وتاريخ التراث في العصر العثماني على وجه الخصوص. ويـردّ علـى كـثير من الادعاءات الـتي تقـول بـأنّ العـصر العثمـاني عقِـم عـن إنجـاب العلمـاء والموسوعيين، أسوة ببقية العصور المنصرمة[٤].

مؤلفات الزَّبيدي[٥]:

ترك لنا مرتضى الزَّبيدي مؤلفات عدة، منها ما يلي:

١- "**إتحاف السَّادة المتقين في شرح إحياء علوم الدين**". مطبوع.

٢- "**إجازة السلطان عبد الحميد الأول** (ت١٢٠٣هـ)". وهي موضوعنا.

٣- "**أسـانيد مرتـضى الزبيـدي في روايـة الكتـب الـستة الـصحاح**". مخطوط بمعهد المخطوطات العربية بالقـاهرة رقـم (٤٦) ومـصوّر عـن نـسختي دار الكتب المصرية ٢٤ مصطلح؛ ورقم (٤٧) عن دار الكتب المصرية ١٩٢ مصطلح.

٤- "**أمـالي الزبيـدي**" في الأدب. مخطـوط بمكتبـة برنـستون، بالولايـات المتحدة الأمريكية، رقم (٣٧٦١).

٥- "**بُلْغة الأريب في مصطلح آثار الحبيب**". مطبوع.

٦- "**تاج العروس من جواهر القاموس**". مطبوع.

٧- "**تحقيق الوسائل لمعرفة المكاتبات والرسائل**". وهو عبارة عن مراسلاته وإنشاءاته كما هو واضح من عنوانه.

٨- "**ترويح القلوب بذكر ملوك بني أيوب**". مطبوع.

٩- "**التعريف بضروري قواعد التصريف**" في الصرف. مخطوط بمركز البحث العلمي وإحياء التُّراث الإسلامي بمكة المكرمة، رقم (٤٨) نسخة مصورة عن دار الكتب المصرية، رقم (٨ صرف تيمور).

١٠- "**حكمة الإشراق إلى كُتَّاب الآفاق**". مطبوع.

١١- "**رفع نقاب الخفا عمن انتمى إلى وفا وأبي الوفا**". مخطوط بالمكتبة الظاهرية بدمشق، رقم (٩٠٥٧).

١٢- "**العرائس المجلوة في ذكر أولياء فوه**". مخطوط بمكتبة المصغرات الفيلمية بقسم المخطوطات بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة. رقم (١/٦٤٨٩).

١٣- "**العقد المكلَّل بالجوهر الثَّمين في طرق الإلباس والذكر والتَّلْقين**".

١٤- "**العقد المنْظَم في أمهات النبي**". مخطوط بمكتبة المخطوطات العربية بالقاهرة، رقم (١١٤٠) مصورة عن نسخة مكتبة الجامع الأحمدي بطنطا، رقم(٥ سير وتراجم)، ونسخة أخرى بمكتبة برنستون، رقم(٤٥٦٧).

١٥- "**عقود الجواهر المنيفة في أدلة مذهب أبي حنيفة**". مخطوط بالمكتبة الأزهرية بالقاهرة، رقم [٢٣٠] أباظة ٦٤٢٤، ونسخة بمكتبة الملك عبد العزيز بالمدينة المنوّرة، بمجموعة حكمت رقم: ٤٥٢ (١٠٣/ ٢٣٢)، ٤٥٣ (١٠٤/ ٢٣٢)، المحمودية رقم: ٤٣٩.

١٦- "**القماعيل في مدح شيخ العرب إسماعيل**". قمتُ بتحقيقها ونشرها في "**مجلة آفاق الثقافة والتراث**" بمركز جمعه الماجد، بدبي، عدد ٧٩، سبتمبر ٢٠١٢م.

١٧- "**لقط اللآلئ المتناثرة في الأحاديث المتواترة**". مخطوط بمركز المخطوطات والتراث والوثائق بالكويت، رقم(١١٠-٦٤)؛ ونسخة بدار الكتب المصرية، رقم (١/١٤٢)؛ ونسخة بمكتبة برنستون، رقم (٤١٨٠).

١٨- "**المقاعد العندية في المشاهد النقشبندية**". مخطوط بالمكتبة الظاهرية بدمشق، رقم(٤٩٥٨).

١٩- "**المعجم المختص**". طبع بمركز الملك فيصل للدراسات والبحوث الإسلامية، وسنقوم بدراسته في مكانه من البحث.

٢٠- "**هدية الإخوان في شجرة الدخان**". مخطوط بالمكتبة الأزهرية، رقم [٧٥٥] أباظة ٦٣٤٩.

نُبذةٌ مِن حَياةِ السُّلطان أبي الفتْحِ عبدِ الحمِيدِ خَان الأوَّل(٦)

السُّلطان عبد الحميد الأوَّل أحد سلاطين الدَّولةِ العثمانية، وابن السلطان أحمد الثالث. كان مولده سنة ١١٣٧هـ/١٧٢٤م.

تولّى الحكم عام ١١٨٧هـ/١٧٧٣م، بعدما قضى مدة حكم أخيه مصطفى الثالث محجوزًا في سرايته كما جرت به العادة، وفي اليوم الثالث من توليته توجه في موكبٍ حافل إلى جامع أبي أيوب لتقلُّد سيف السُّلطان عثمان مؤسس الدولة العثمانيَّة، ولم يوزع على الجنود الإنعامات المعتادة

لنضوب خزائن الدولة التي استنزفتها الحرب الأخيرة، ثم أقر الصدر الأعظم محسن زاده وأغلب كبار الموظفين والقواد البرية والبحرية في مناصبهم، لعدم وقوع الخلل في الأعمال.

وفي تلك الآونة استطاعت روسيا أن تحقق نصرًا على العثمانيين في مدينة فارنا في بلغاريا على البحر الأسود، وطلب الصدر الأعظم الصلح والمفاوضة، وتم ذلك في مدينة قينارجة في بلغاريا عام ١١٨٧هـ/١٧٧٤م، وأهم ما جاء فيها:

- إزالة العداوة بين الدولة العثمانية وروسيا وحلول الصلح، وصيانة الاتفاقات من التغيير والعفو عن الجرائم التي اقترفها رعايا الطرفين.
- عدم حماية الرعايا الملتجئين أو الفارين أو الخونة ضمن شروط.
- اعتراف الطرفين بحرية بلاد القرم بلا استثناء واستقلالها، ولهم الحرية التامة بانتخاب خان لهم دون تدخل ولا يؤدّون ضريبة. وباعتبارهم مسلمين؛ فإنّ أمورهم المذهبية تنظم من قبل السلطان بمقتضى الشريعة الإسلامية.
- سحب القوات العثمانية من القرم، وتسليم القلاع، وعدم إرسال جنود أو محافظ عسكري.
- حرية كل دولة في بناء القلاع والأبنية والتحصينات، وإصلاح ما يلزم منها.
- تعيين سفير روسي في الآستانة من الدرجة الثانية، والاعتذار له رسميًّا عما يحدث من خلل.

- تعهـد الدولـة العثمانيـة بـصيانة الحقـوق، والكنـائس النـصرانية في أراضيها، ومنح الرخصة من الخلل.

- حرية زيارة رهبان روسيا للقدس، والأماكن الأخرى التي تستحق الزيارة مرخص بها دون دفع جزية أو خراج، ويعطون التسهيلات والحماية أثناء ذلك.

- حرية الملاحة للروس في كافة الموانئ العثمانية في البحرين الأبيض المتوسط والأسود مضمونة. وكذلك حرية اتجار الرعايا الروس في البلاد العثمانية برًّا وبحرًا مكفولة، وللتجار الروس حرية الاستيراد منها والتصدير إليها والإقامة فيها. ويحق لروسيا تعيين القناصل في كافة المواقع التي تراها مناسبة.

- يجب على الدولة العثمانية التعهد ببذل جهدها في كفالة حكومات الولايات الأفريقية إذا ما رغب الروس بعقد معاهدات تجارية فيها....الخ.

يتضح لنا من خلال التمعّن في تلك الشروط، ما يلي:

- إنهاء السيطرة العثمانية على البحر الأسود وتهيئة الأسس الدبلوماسية المقبلة للتدخل الروسي في القضايا العثمانية الداخلية .

- أصبحت بلاد القرم مستقلة ورعاياها لا يلحقون الدولة العثمانية إلا دينيًّا فقط.

- أصبح لروسيا حق بناء قناصل في أيّ مكان في الدولة العثمانية والملاحة الحرة في مياهها.

- ولم يكتف الروس بذلك، بل واصلوا تآمرهم ، وفاجئوا الدولة العثمانية بدخول قواتهم بلاد القرم -وهي جزء من ولايات الدولة العثمانية- غير مبالين بالمعاهدات التي تمّت بينهما.

وفاةُ السُّلطان عبد الحَميد الأوَّل:

بعد صراع طويل في إخماد الفتن ورد كيد الأعداء عن العالم العربي والإسلامي، تُوفّي السُّلطان عبد الحميد الأوَّل في وقتٍ كانت الحاجة إليه ماسّة، نتيجة للتهديد الروسي، والتهديد النمساوي الذي يريد السيطرة على العالم الإسلامي؛ فكانت وفاته في ١٢ رجب سنة **١٢٠٣هـ/** الموافق ٨ أبريل سنة ١٧٨٩م، وله من العمر ستة وستون عامًا، وكانت مدة حكمه خمس عشرة سنة وثمانية أشهر.

❖ ❖ ❖

والنظرة العامة لتلك الأحداث والحالة التي صارت إليها الدولة العثمانية تشعر بالضعف الذي أصاب الدولة العثمانيَّة، والوهن الذي أصاب مؤسساتها، وسرى بين ولاياتها.

فالذل والخضوع الذي منيت به الدولة العثمانية نتيجة لضعف سلاطينها من جهة، ومن جهة أخرى انتشار الفساد في مناحي الحياة والتخلف الذي أصاب الشعوب العربية والإسلامية، كلُّ هذا أدّى -بلا شك- إلى ضعف سيطرتها على ممتلكاتها، وانهيار الولايات التابعة لها نتيجةً لحالة التردِّي والاضمحلال الذي أصاب تلك الولايات في أواخر ذلك العصر، ورغم كل ذلك يكفي الدولة العثمانية -دولة الخلافة

الإسلامية- شرفًا أنها ظلت لأكثر من ثلاثة قرون تدافع عن الإسلام والمسلمين شرقًا وغربًا ووصلت فتوحاتها إلى أقصى أرجاء المعمورة، وكانت هي الملاذ الآمن والدرع الواقي للمسلمين والشعوب التي تخضع تحت سيطرتها ضد أيّ تهديد خارجي.

الإجازة وتطورها التاريخي والأدبي

فنّ الإجازة فنٌّ قديم جدًّا في التُّراث العربي؛ فتاريخ كتابة الإجازة يرجع إلى سنة ٢٧٦هـ، وهي أقدم إجازة وصلتْ إلينا كتبها ابن أبي خيثمة الحافظ المؤرخ، يجيز بها تلميذه أبا زكريا يحيى بن مَسْلَمةَ.

إذًا فتاريخ كتابة الإجازة العلمية ليس وليد العصر العثماني أو ما سبقه من عصور فإنه يرجع إلى القرن الثالث الهجري، ولكنَّه تطور وأخذ في الرواج حتى صار فنًّا من فنون الرسائل الفنية.

والإجازة هي شهادة يعطيها أو يمنحها كبار شيوخ العلم ومَن في منزلتهم من الأدباء والعلماء، لمن يطلبها من تلاميذهم، أو من يتقدم إليه بطلبها.

ويقول محمد عبد الغني حسن عن أهميتها بالنسبة للتلاميذ: «وقد كان الشيوخ يكتبون لتلاميذهم ما يفيد بأنهم -أي التلاميذ- أتموا قراءة الكتاب عليهم، وبهذا يجيزونهم للتدريس والرواية عنهم»(٧).

وتعدّ الإجازات من الأهمية بمكان في حياة الطالب، «فهي تجيز له التصدُّر للفتوى، والتصدر للتدريس، أو إملاء الحديث، وروايته لطلابه أو رواية المؤلَّفات الأدبية التي ألَّفها المجيز. وتُسوِّغُ له التوظُّف في إحدى وظائف

العلم. ومنها يسلك طرقه إلى أعلى المناصب في القضاء ونيابة الحكم والإمامة، فهي -على هذا- تفتح له باب العمل والكسب والجاه»[٨].

وفي بعض الأحيان يسبق هذه الإجازة استدعاء أي استجازة من طالب الإجازة، والمقصود بالاستدعاء أو الاستجازة، «أن يسعى أديب إلى أديب آخر، يكون -غالبًا- أنضج منه أدبًا، وأرحب أفقًا، وأبعد شُهرةً، فيكتب إليه رسالة يضمنها طلبه منه أن يمنحه إجازة برواية آثاره الأدبية، ومصنفاته ومروياته، سواء أكانت شعرًا أم نثرًا»[٩].

وكانت تلك الرسائل تكتب بأسلوب فني في غاية البراعة والقوة يستوحي فيها الخيال وروعة الأداء والبراعة في التَّصوير، متضمنة ميزات المجيز وخصاله وكثرة مؤلفاته وإجادته للعلوم، محاولاً في كل ذلك إضفاء نوعٍ من التَّعظيم لشخص المجيز وتمكُّنه من العلوم وتبحُّره فيه.

ويعرّف د. محمود رزق سليم الإجازة قائلاً: «هي رسالة يرد بها المجيز «أو المستجاز والمستدعى» على طالب الإجازة «المستدعي» يجيب فيها طَلِبتَه ويحققُ رغبته، ويضفي عليه فيها آيات من الثناء، وبينات من الإطراء»[١٠]، فهي بذلك تعد مظهرًا من مظاهر النثر الفني في الأدب العربي.

وكانت الإجازات تمنح في العصور السَّابقة على العصر العثماني بشيء من الصعوبة بعد تدقيق وإمعان ونظر وكثرة مجالَسة الطالب وملازمته لأستاذه المجيز حتى يحفظ ما سمعه.

وعندما نصل إلى العصر العثماني نجدُ تساهلاً بصورةٍ كبيرةٍ في منح الإجازات العلمية، يقول محمد سيد كيلاني: « أمّا في العصر الذي ندرسه

[أي العصر العثماني] فكانت تعطى جزافًا، إذ كان يكفي أن يقرأ الطالب أوائل كتاب أو كتابين مما يدرسه الأستاذ حتى ينال إجازة بجميع مروياته. وكثيرًا ما أعطيت لمن طلبوها من أهل البلاد القاصية عن طريق المراسلة -فكان العالم في القاهرة يبعث إلى طالبٍ في مكة بالإجازة دون أن يراه أو يختبره- فيبدو أنَّها اعتبروها فخرية»[11].

ويسيطر على رسائل الاستدعاء والإجازة في ذلك العصر المغالاة في الوصف وإبراز ميزات وفضائل المجيز أو المستدعي بنوع يخرج عن المألوف إلى المغالاة الممقوتة والمدح المرذول.

وإجازة مرتضى الزَّبيدي تعدّ من الإجازات الفخرية التي ترسل للملوك والسلاطين في الغالب، كما يحدث في أيامنا هذه، ويمكن القول إنها من الأهمية بما حوته من اقتباس للقرآن الكريم، والاستشهاد بالأحاديث النبوية، والتضمين لشِعر من عيون الأدب العربي، كما أنها حفلت باستدعاء لأعلام التراث العربي، ممّن تركوا بصمات واضحة في حقول التراث العربي، وإلى جانب ذلك تمتعت بقوة أسلوبها وجزالة ألفاظها، وما تضمنته من صور فنية وبيانية غاية في الروعة والجمال.

وقد أجاز مرتضى الزَّبيدي السُّلطان عبد الحميد خان بحديث الرحمة، والكُتب السِّتة الصِّحَاح، وفي ذلك يقول: «وقدْ أجزتُ مَولانا السُّلطانَ المشارَ إليه -نظَرَ اللهُ بعينِ عِنايتِهِ إليهِ، وخلَّدَ جَزيلَ نِعَمهِ عليهِ- أنْ يَروي عنِّي هذا الحدِيثَ المسلسَلَ بالأوَّليةِ، وسَائرَ ما يجوزُ لي، وعنِّي روايتُه أو تصحُّ دِرايتُه. ومن جُملةِ ذلك الكُتبُ: السِّتةُ الصِّحاحُ التي هي صَحِيحُ البُخَارِي، ومُسلِم،

وسُنن أبي دَاود، والتِّرمذِي، والنَّسَائي، وابن ماجه بشَرطِه المعتَبرِ عنْد أهلِ الأثرِ، مُلتمسًا منْهُ الدُّعاء بظَهرِ الغَيبِ والابتِهالَ بهِ إلى عَالمِ الغَيبِ».

وتضمنَّت تلك الإجازة المبالغة في وصف السلطان، بصفات تكاد ترفعه فوق مرتبة البشر، وتوجب له الخضوع والعبودية، حتى غدت تلك المبالغة في الوصف سُنَّة مشروعة لا بد من اتّباعها والسّير في ركابها. ومن تلك الصفات -التي حازها السُّلطان، وصار الالتزام بها ضرورة عند ذوي السُّلطان- في إجازة الزَّبيدي للسُّلطان أبي الفتح عبد الحميد الأوَّل: ملك العالم وسلطانه، حامي حِمَى الإسلام، ماحي عبدة الأصنام، سلطان العالم وأمير المؤمنين، نظام الدنيا والدين، سيّد سلاطين العرب والعجم، أعظم سلاطين الزمان، عالم السَّلاطين، وسلطان العلماء.

ولهذا عجَّت تلك الرسالة بكلمات الثَّناء والمدح المبالغِ فيه، الذي كان عادة المترسِّلين فيما يبدو ولاسيما وإن كان الممدوح من ذَوي السُّلطان.

إلا أنَّ الدكتور قصي الحسين يعدّ تلك الظَّاهرة المشاعة عند أدباء ذلك العصر نوعًا من التزلّف والتملّق للتقرب من ذوي السلطان، وفي ذلك يقول: «وقد رأى أولئك الأدباء أنَّ الاستباق إلى كلمات التَّزلف والتَّملق أجدى عند ذوي السُّلطان، وأدعى إلى النَّفع، ثمَّ أضحت زيًّا من أزياء هذا العصر الاجتماعية. فهم يتوددون بهذه المجاملات التي أوغلوا فيها إيغال زلفى ومنفعة»[١٢].

إلا أنَّ الباحث يختلف مع الدكتور قصي في قوله السَّابق، فالزَّبيدي مثلاً -وهو أحد أدباء ذلك العصر- ينأى بنفسه أن يكون واحدًا من

أولئك الذين يتملّقون السَّلاطين، فهو شريف النَّسب من جهة، ومن جهة أخرى عِلمُه وشُهرته يكفيانه، وربما كانت هذه رؤيته في حضرة السُّلطان عبدالحميد، أمّا المبالغة في حدِّ ذاتها فقد كانت طبيعة العصر في الشِّعر والنَّثر.

ومما يؤكد ما ذهبنا إليه: ما رواه عبد الحي الكتَّاني في «فهرسه» عن اعتذار الزَّبيدي، وامتناعه للذِّهاب إلى الأستانة، حيث مقرّ السُّلطان والخلافة العثمانية، يقول: «ولعظم شهرة الزَّبيدي كاتَبه ملوك النواحي من التُّرك والحجاز والهند واليمن والمغرب والسودان وفزَّان والجزائر، واستجازوه، وممن أخذ عنه من ملوك الأرض خليفة الإسلام في وقته السلطان عبد الحميد الأول، ووزيره الأكبر محمد باشا بالمكاتبَة، واستدعي للأستانة للحضور فاعتذر».

النُّسخة المَخْطُوطة التي اعتمدتُ عليها

تحتفظُ مكتبةُ مرْكَز جمعة الماجَدِ بدولةِ الإمارات العربية المتَّحدة بنسخةٍ واحدة من تلك الإجازة، وتقع تحت رقم ٣٧٥٤٧٨.

وهذه النسخة مصورة عن النسخة المحفوظة بمكتبة ندوة العلماء بالهند تحت رقم ٤٥٧. وهي النُّسخة التي اعتمدتُ عليها في إخراجِ هذه النشرة.

وتقع في ٣ ورقات، وخطها فارسي، وبها نظام التَّعقيبة. وهي نسخة مكتوبة بخط غير واضح إلى حدٍّ ما، وغير مشكولة.

وجاء على لوحة الغلاف: «صورة إجازة مرسلة إلى سلطان الزمان أبي الفتح عبد الحميد خان، نصره تعالى، للسيد محمد مرتضى الزَّبيدي، رحمه الله تعالى».

أوَّلها: «بسم الله الرحمن الرحيم، وبِهِ ثِقَتِي، الحَمْدُ لله الذِي رَفعَ مَقام أهْلِ الْحَدِيث مَكانًا عليًّا، وأظْهرَ مَحَاسِنَ أحَاديثهِم الصَّحيحةِ، فلم يكنْ شَيءٌ مِنهَا عَنْ بُلوغِ شَأوِ الكَمَالِ إلا حُسْنًا بهِيًّا...».

وآخرها: «قَالَهُ (بفمِه) الفقِيرُ إلى مَولاه، الشَّاكرُ على ما أولاه، أبو الفَيضِ مُحمَّد مُرتضَى الحُسَينيّ الحَنَفيّ، خَادِمِ عِلمِ الحَدِيثِ بمصْر، غَفرَ اللُه زلَلَه، وأصْلحَ خَللَهُ، وتَقبَّلَ عَملَه، وبلغَه أهلَه في عَاشِرِ شوَّالَ سنة ١١٩٣هـ».

منهجي في التحقيق

١- ضبط النَّص ضبطًا صحيحًا.

٢- كتابة النَّص بالرسم الإملائي الحديث للكتابة العربية.

٣- عزو الأبيات الشعرية إلى قائليها، وتوثيق الأشعار من الدواوين وكتب الأدب.

٤- تخريج الآيات القرآنية من المصحف الشريف.

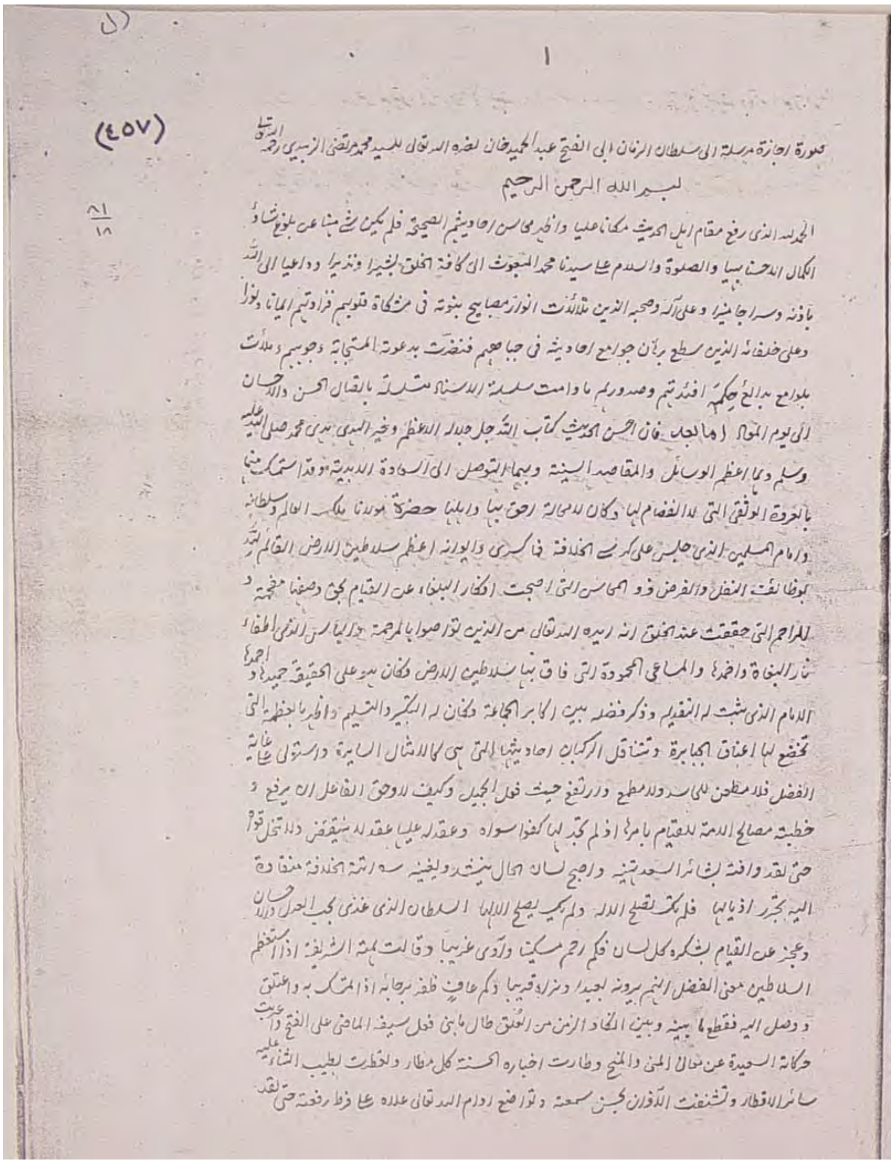
٤- تخريج الأحاديث النبوية من دواوين السنة.

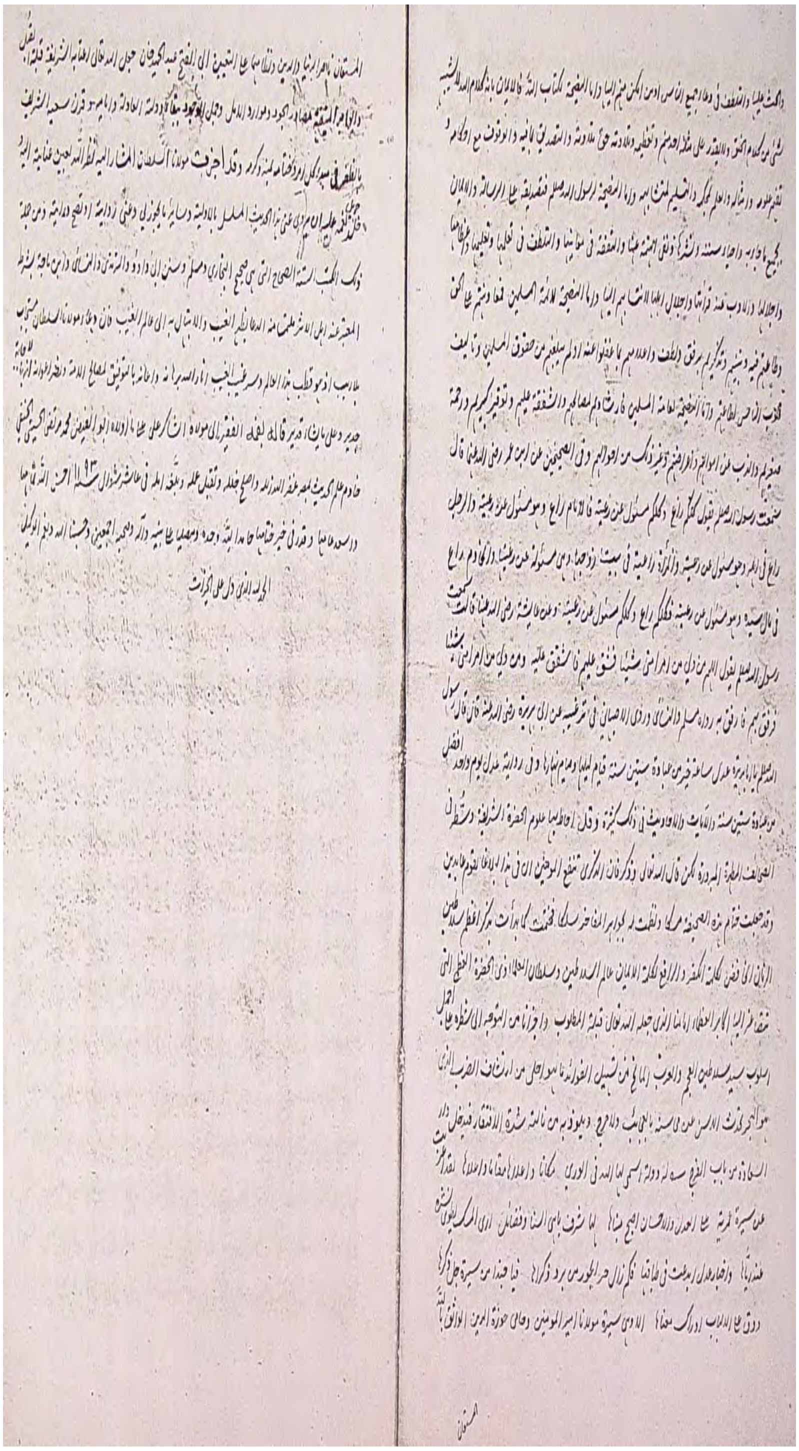
٥- التعريف بمعظم الأعلام.

٦- صنع ثبت بالمصادر والمراجع التي اعتمدتها في تحقيقي للنَّص، وفهرس لمحتويات البحث.

نماذج اللوحات

الورقة الأولى من إجازة مرتضى الزَّبيدي للسلطان أبي الفتح عبد الحميد خان





الورقة الأخيرة من مخطوط الإجازة

النَّصُّ مُحقَّقًا

صُورةُ إجازةٍ مُرسلةٍ إلى سُلطَانِ الزَّمانِ أبي الفتْحِ عَبْد الحَميدِ خَان، نصَره الله تعالى

للسيِّد محمَّد مرتضى الزَّبيدي، رحمه الله تعالى.

بسم الله الرَّحمن الرَّحيم

/ظ١/ الحَمْدُ لله الذِي رَفعَ مَقام أهْلِ الحَدِيث مَكانًا عليًّا، وأظْهرَ مَحَاسِنَ أحَاديثهِم الصَّحيحةِ، فلم يكنْ شَيءٌ مِنهَا عَنْ بُلوغِ شَأوِ الكَمَالِ إلا حَسَنًا بهِيًّا.

والصَّلاة والسَّلام على سيدِنا مُحمَّدٍ المبعُوثِ إلى كَافة الخَلْقِ بشيرًا ونَذيرًا، ودَاعيًا إلى اللهِ بإذنِه وسِراجًا منيرًا، وعلى آلهِ وصَحْبِهِ الذينَ تَلألأتْ أنْوارُ مَصَابيحِ نُبوتِه في مِشْكَاة قُلْوبهم فَزادتْهُم إيمانًا ونُورًا، وعلى خُلفائه الذينَ سَطَعَ بُرهَانُ جَوامعِ أحادِيثهِ فِي جِباهِهِم فنُضّرتْ بدعوتِهِ المُسْتَجَابةِ وجُوهُهم ومُلئتْ بِلوامِعِ بَدائعِ حِكَمَتِه أفْئدَتُهم وصُدورُهم مَا دامَتْ سِلْسلةُ الإسْنادِ مُتسلسلةً باتِّصَالِ الحُسْنِ والإحْسَانِ إلى يوم المَعَاد.

أمَّا بَعْدُ، فإنَّ أحْسَنَ الْحَديثِ كِتَابُ اللهِ جَلَّ جَلالُه الأعْظَمُ، وخَيرَ الهَدي هَدْيُ مُحَمَّدٍ ﷺ، وهُمَا أعظَمُ الوسَائلِ والمَقَاصِدِ السَّنِيَّة، وبهما التَّوصُّلُ إلى السَّعادةِ الأبديَّةِ، وقَد استَمْسَكَ مِنْهُما بالعُروة الوثْقَى التِي لا انفِصَامَ لها.

وكـانَ -لا مَحالـةَ- أحـقَّ بِهـا وأهْلَهـا حَـضْرةُ مَولانـا مَلـكَ العَـالَم وسُلطانهُ، وإمامُ المُسْلمين، الذي جَلسَ على كُرسِيّ الخِلافَةِ فما كِسرى، وإيوانُه أعظمُ سَلاطين الأرضِ، القائِمُ للهِ بوظائف النَّفلِ والْفَرضِ.

ذو المَحَاسنِ التي أصبَحتْ أفكارُ البُلغاءِ عَن القِيامِ بِحقِّ وصْفِها مُفحِمَةً، والمَرَاحِمُ الـتي حقَّقتْ عندَ الخَلقِ أنَّه أيَّده الله تَعالى من الـذين (تَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ)[١٣] والبَأسِ الذي أطْفَأ نَارَ البُغَاةِ وأخْمَدها، والمَسَاعي المحْمُودةِ التي فاقَ بها سَلاطينَ الأرضِ فكانَ هو على الحَقيقَةِ حَمِيدَها وأحْمَدَها.

الإمامُ الذي ثبتَ لهُ التَّقديمُ، وذُكِرَ فَضْلُه بينَ أكَابرِ الجَمَاعةِ، فكَانَ لَـهُ التَّكـبيرُ والتَّسليم، وأظْهَـر بِالعَظمـةِ الـتي تَخْـضَعُ لهـا أعْنَـاقُ الجَبَـابرةِ، وتتنَاقلُ الرُّكبانُ أحاديثَها التي هي كالأمثَالِ السَّائرةِ، واسْتولَى علَى غَايـةِ الفَـضْلِ، فـلا مَطْعـن للحَاسِدِ ولا مَطْمَـعَ، وارتَفـعَ حيـثُ فَعـلَ الجَمِيـلَ، وكيفَ لا وحقُّ الفاعلِ أنْ يُرفعَ، وخُطْبته مَصَالح الأمّة للقيامِ بأمْرها إذْ لم تَجِدْ لها كُفوًا سِواه.

وعُقِدَ له علَيْها عقْدٌ لا ينتقِضُ، ولا تنْحلُّ قواه، حتَّى لقَدْ وافتْه بـشَائِرُ السَّعد تُهنِّيه، وأصبَحَ لسانُ الحَالِ ينشِدُ ويغنِّيه: [بحر المتقارب]

أتَتـــهُ الخِلافـــةُ منقـــادَةً ... إليـــهِ تُجـــرِّر أذيالَهـــا[١٤]

وَلَـم تَـكُ تَـصْلُحُ إلا لَـهُ ... ولَـمْ يَـكُ يَـصْلُحُ إلا لَهَـا

السُّلطانُ الذي غُذِّي بحُبِّ العدلِ والإحسْانِ، وعجَزَ عن القِيامِ بشكْرِه كُـلُّ لـسَان، فكَـم رحِـمَ مـسْكينًا وآوى غَرِيبًـا. وقَالـتْ همَّتـهُ الـشَّريفةُ إذا استَعظَم السَّلاطين مَعْنَى الفَضْل: (إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا وَنَرَاهُ قَرِيبًا)[١٥].

وكَمْ عَافٍ ظَفِرَ برجائِهِ إذا تَمسَّك بهِ، واعْتَلقَ ووصَلَ إليهِ، فقَطَعَ مَا بَينَهُ وبين أنْكَادِ الزمن(١٦) من العُلقِ، طالَ ما بنَى فِعْلَ سَيْفِه الَماضِي على الفَتْحِ، وأعْرَبَتْ حَركاتُه السَّعيدةُ عَن معَاني الُمنَى والِمنَح، وطَارتْ أخْباره الحَسنة كُلَّ مَطَارٍ، وتعطَّرتْ بطِيبِ الثَّناءِ عليْه سَائرُ الأقْطَارِ، وتَشَنَّفتِ الآذان بحُسْن سُمْعتِه، وتواضَعَ -أدَام الله تَعَالى عُلاه- على فَرْطِ رفْعَتِه حتَّى لَقَدْ/١و/تَحيَّرتْ، أهو في الأرضِ بدليل أنَّ الْبَحرَ في يمينِه أم في السَّماءِ بدَلِيلِ أنَّ القَمرَ في جَبِينِه، وقَامَ بِأمُورٍ مدائحها عَلَى الْخَلْقِ مُتعيِّنَةً. وقَالَ الُمدَّعِي: لتَقدُّمِه على سَلاطين العَصْرِ: هذه دعْواي ومَحاسِنهُ هِي البيِّنةُ:

[بحر البسيط]

هــذا ثنَــائي وهَــاتيكُم مناقِبُــه   يا أيُّها النَّاس ما أبعدتُ إشْهَادي(١٧)

فهو حَامِي حِمَى الإسْلام، ومَاحِي عَبَدة الأصْنَام، سُلْطَان العَالم وأميرُ المؤمنين، نَاصِرُ الِملّةِ والحَقِّ والشَّرع والدِّين، ومجدِّد معَالم السُّنَّة بعد دُروسِها، ومُحْيي شَعَائِرها، ومُقيمُ درُوْسِها، الواثِقُ بالله الُمسْتَعان، نِظَامُ الدُّنيا والدِّين: أبو الفَتْح عَبْد الحَمِيد خَان، أدَام الله تعالى سُلْطَانه، وأعَانَ أنْصَارَه ونَصرَ أعْوانهُ، وخلَّد دَولَتَهُ، وأعْلَى عَلَى مَمَرِّ الزَّمَان كَلِمتَه. فلقَدْ أنَامَ الأنَامَ فِي مَهَاوِ الخِصْبِ والأمَانِ، وأقَامَ رعَاياه فِي مُقَام السَّعادة آمنين، في زمَانة الزَّمَان، ولاحَ كالشَّمسِ فِي أُفِق هذه الممْلكةِ العَالية، فذَهَبتْ نُفوسُ الأعْداءِ فِي الحَسَرات تَجولُ، وعُمِّرتْ به أرْجاؤها الحسنة، حتَّى لقَدْ قَالَ القَائِلُ: [بحر الرجز]

مــا النَّــاسُ إلا هــو   وما الدُّنيا إلا إسطنبول(١٨)

وأنَا والله عَاجزٌ عَنْ شُكْر مَرَاحِمِه الشَّريفةِ، مُعْتَرِفٌ بجزيلِ فَواضِله التي تَفَيَّأتُ ظِلالها الورِيفةَ. وكيفَ لا وقَدْ سَبَقَ آمالي بِجِيادِ مَكَارِمه التي لا تُلْحقُ؟! وواليتُ حضْرتَه الشَّريفة حيث أعتقني من رق الإعْسَار، «وإنَّما الْوَلاء لِمَنْ أَعْتَقَ»[١٩].

وعمَّرَ خَواطِري بمَحبَّتِه، فَلمْ يَبْقَ لَها إلى غَيرِه التِفَاتٌ، وأمطَرها سَحائبُ كرمِه، فأخْرجَتْ رِياضَ المدَائحِ مُزهرة بأحسنِ نباتٍ، وأثْقَلَ عُنقِي بِمنَنٍ ليس لي بشكْرها من قِبَلْ، وبلغَنِي ما أتمَنَّاه حتى صِرْتُ أصْحَبُ الدُّنيا بلا أمَلْ: [بحر البسيط]

وكُلّ نَفْسٍ عَنِ الأيَّامِ راضِيَةٌ به فلا عَرفت بعد الرِّضا سَخَطَا

وهذه صَحِيفةٌ لَطيفَةٌ، ومجَلةٌ حَسَنَةٌ شَريفةٌ، هِي عُنْوانُ شَرفٍ وحُكْمٌ وعِلْمٌ، وتُرجُمانُ صِدْقٍ وإناءةٍ وحِلْم، يعْربُ حقّ اليقين بلِسَانٍ عَربِيٍّ مُبِينٍ[٢٠]، على مَا يُروِّعُ منْ عَظِيم المهابَةِ والإجلال، عَلى ما يروقُ من الْعَواطفِ، والمراحِمِ التي هي مَنْشَأُ الآمَالِ، فحَقٌّ حقِيقٌ أن ينشر على بِسَاطِ إنعَامهِ، ولُطْفه وحَنَانِه جواهِر شُكْرِه على تَوالي فَضْله وإحْسَانه وامْتِنَانِه: [الكامل]

كالبحرِ يُمطِره السَّحابُ ولا لَهُ يمنٌ عليه لأنَّه مِن مائِه[٢١]

ولا بِدْعَ أنْ يُروى عند جَنابه إلاَّ على بعضِ مَرْوياتهِ ويُهدى لحضْرتِه ثَمرةً فذَّةً من زاهِرِ هباته، وحسَناتِه، اقتداءً بأئمَّةِ الحدِيثِ في القَديم والحَديثِ رجَاءَ الانتظامِ في فَرائِدِ عُقودِهم البَاهِرةِ الفَاخرةِ في الحياةِ الدُّنيا، وفي الآخِرةِ، ﴿مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّـٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُو۟لَـٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴾[٢٢]، مَنَّ الله تَعَالى بذلك، وحقَّقَه تَحقيقًا، آمين.

وهذا أوانُ الشُّروعِ في المقصُودِ والإتْيانِ بالفَرضِ الموعُود؛ فأقولُ وباللهِ أسْتعينُ، وإيَّاه أسْألُ أنْ يُوفِّقَنا أجْمعِين:

حدَّثني جَمْعٌ مِن الأئمَّةِ الأعْلام بوَّأهم اللهُ دارَ السَّلام، وأعْلاهُم سَنَدًا وأكثَرهُم عَددًا. شَيَخُنا الإمِامُ المحدِّثُ المسْنِدُ الجَليلُ السَّيدُ عُمَر بن أحمد ابن عَقِيل الحُسَيني المَكّي(٢٣)، وهو أوَّلُ حديثٍ سَمعْتُه من حفْظِه ولفْظِه بالمدينة المنوَّرة، قُربَ بَاب الرَّحمةِ في شُهورِ سَنةِ ١١٦٤هـ.

قَالَ: حدَّثنا الإمامُ المحدِّثُ المقرئُ شِهابُ الدِّينِ أحمَدُ بن محمَّد بن عبْد الغَنِي الدِّمياطِي(٢٤)، وهو أوَّلُ حديثٍ سَمعتُهُ مِنهُ.

قَالَ: حدَّثنا المُسْنِدُ المُعمَّرُ شَمْسُ الدِّينِ محمَّدُ بن عَبدِ العَزيزِ المنوفي، وهُو أوَّلُ حَدِيثٍ سَمِعْتُه منْه.

قَالَ: حَدَّثَنا الشَّيْخ المعَمَّر أبُو الخَير عَمر بن عَمُوس /٢ظ/ الرَّشِيدِي، وهو أوَّل حَدِيثٍ سَمِعْتُه مِنه.

قَالَ: حدَّثَنا شَيخُ الإسْلامِ زَكَريا بنُ محمَّدٍ الأنصَارِيّ(٢٥)، وهو أوَّل حَديثٍ سَمِعْتُهُ منه.

قَالَ: حدَّثنا الإمامُ الحافظُ شِهَابُ الدِّينِ أبُو الفَضْلِ أحمَدُ بنُ عَليٍّ القَسْطلاَّنيُّ(٢٦)، وهو أوَّلُ حَدِيثٍ سَمِعْتُهُ مِنْه.

قَالَ: حَدَّثنا حَافِظُ الوقْتِ زَينُ الدِّينِ أبُو الفَضْلِ عَبْد الرَّحِيم بنُ الحُسَين العِرَاقِيّ(٢٧)، وهو أوَّلُ حَدِيثٍ سَمِعْتُه مِنْه.

قَالَ: حَدَّثَنا الإمَامُ المُسْنِدُ صَدْرُ الدِّينِ أبُو الفَتْحِ مُحمَّد بنُ مُحمَّدٍ المَيْدُومِيّ(٢٨)، وهو أوَّل حديث سمعته منه.

قَالَ: حَدَّثَنا الإِمَامُ «المسْنِدُ» نَجِيبُ الدِّينِ أبو الفَرج عَبدُ اللطِيف بن عَبد المنعم الحَرَّاني[٢٩]، وهو أوَّلُ حَدِيثٍ سَمِعْتُه مِنْه.

قَالَ: حدَّثنا الإمامُ الحَافِظُ زَينُ الدِّين أَبُو الفَرجِ عَبدُ الرَّحمَن بنُ عَليّ البَغْدِادي[٣٠]، وهو أوَّل حَدِيثٍ سَمِعْتُه مِنْه.

قَالَ: حَدَّثنا الإمَامُ أبُو سَعْدٍ إسْمَاعِيلُ بنُ أحمَد النَّيسَابوريّ[٣١]، وهو أوَّلُ حَديثٍ سَمِعْتُه مِنْه.

قَالَ: حَدَّثَنا والدِي الإِمَامُ أبُو صَالحٍ أحمَدُ بن عَبدِ الملِكِ النَّيسَابُوري[٣٢]، وهُو أوَّلُ حَدِيثٍ سَمِعْتُه مِنْه.

قَالَ: حَدَّثنا الإمَامُ أبُو طَاهِرٍ مُحمَّد بن محمَّد بن مُحَمَّش الزِّيادِي[٣٣]، وهو أوَّلُ حَديثٍ سَمِعْتُه مِنْه.

قَالَ: حَدَّثنا الإمَامُ أبو حَامدٍ أحمَدُ بنُ محمَّد بن يحيى بن بِلالٍ[٣٤]، وهو أوَّلُ حَدِيثٍ سَمِعْتُه مِنْه.

قَالَ حدَّثنا عبدُ الرَّحمنِ بن بشرِ بن الحكم العبديُّ[٣٥]، وهو أوَّل حَديثٍ سَمِعْتُه مِنْه.

قَالَ: حَدَّثَنَا سُفْيَانُ بن عيينة[٣٦] -وهو أوَّلُ حَديثٍ سَمِعْتُه مِنْه- عَنْ عَمْرِو بْنِ دِينَارٍ، عَنْ أَبِى قَابُوسَ عَنْ عَبْدِ الله بنِ عَمْرو بن العَاص، رضِي الله عنهُما، قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمُ الرَّحْمَنُ تَبَارك وتَعَالى، ارْحَمُوا مَنْ فِي الأَرْضِ يَرْحَمْكُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ»[٣٧].

هذا أوَّلُ حَدِيثٍ رُوِي مُسَلْسلاً، وقَدْ رَواهُ الإمِامُ أحْمَدُ، وعَبْدُ بن حُميد، ومُسَدَّد، وأبُو بَكْر بنُ أبي شَيبَة فِي مَسَانِيدِهم، وأبُو داود والتِّرمِذي في

«سُننهما»، والحَاكمُ والبَيهَقِيّ في «شُعَبِ الإيمَانِ»، وهُو حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ عَالي الإسْنادِ بَينَنَا، وبَينَ النَّبِيّ ﷺ تِسْعَةَ عَشَرَ رجال[٣٨].

ومَعْنَاهُ: ارْحَموا من تَسْتَطِيعون أنْ تَرْحَمُوه بِرَحْمَتِكُم المتَجَرّدة الحَادِثَة المخْلُوقَة لله تَعَالى بمَحضِ فَضْلِه عَلَيكُم مِن شَفَقةٍ وإحْسَانٍ ومُواسَاةٍ وشَفَاعَةٍ، ودُعَاءٍ وتَوجُّه إلى اللهِ تَعَالى، على حَسَبِ ما يقْتَضِيه الحَالُ باتِّباع الكِتَابِ والسُّنَّةِ بقَدرِ الاسْتطَاعةِ والإمكَانِ، فإنَّ لِكُلّ مَقَامٍ مَقَالاً.

وقدْ كَانَ النَّبيُّ ﷺ أرْحَمَ الخَلقِ، فما ضَربَ خَادمًا ولا مملوكًا، ولا انتَقَمَ لنَفْسهِ قَطّ، وكَانَ يَضْربُ بسَيفِه أعْداءَ الله. قَالَ تعَالى في حقّ الصَّحَابةِ، رضِي اللهُ عَنْهُم: (أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ)[٣٩].

هذا وقَد رَوينَا بالأسَانيدِ العاليةِ الصَّحِيحَةِ الثَّابتَةِ المتَّصِلةِ إلى الإمَامِ أبي الحَجَّاج مُسْلِم بن الحَجَّاج القُشَيريّ، رحِمه الله تعَالى، في «**صَحِيحِه**» بسَندِه إلى الإمَامِ أبي رُقيَّة تِميم بن أوسٍ الدَّارِيّ ﷺ أنَّ النَّبيَّ ﷺ قَالَ: «الدِّينُ النَّصِيحَةُ» قُلْنَا: لِمَنْ؟ قَالَ: «لِله ولِكِتَابِهِ وَلِرَسُولِهِ وَلأَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ وعَامَّتِهمْ»[٤٠]، هذا حديثٌ عَظِيمُ الشَّأنِ عليه مَدارُ الإسْلامِ.

أمَّا (النَّصيحةُ للهِ): فمَعْناهُ منْصرِفٌ إلى الإيمانِ بهِ، ونفْيِ الشَّريكِ عنْه، وتركِ الإلحادِ في صِفَاتِه ووصْفِه بصِفَاتِ الكَمَالِ والجَلال كُلِّها. وتَنْزيهه سُبحَانه عن جَميعِ أنْواعِ النَّقَائصِ، والقِيامِ بطَاعتِهِ واجْتِنَابِ مَعْصِيته، وموالاةِ من أطَاعَه، ومُعَادَاة مَن عَادَاه وعَصَاه وجِهَادِ من كفَرَ به، والاعترافِ بنعْمتِه وشُكْرِه عَلَيها، والإخْلاصِ في جميعِ الأمورِ والدُّعَاءِ

إلى جميعِ الأوصافِ المذْكُورة/٢و/والحثِّ عليها والتَّلطُّفِ في دُعاءِ جميعِ النَّاسِ، أوْ مَن أمكَن منهُم إليهَا.

وأمَّا (النَّصيحةُ لكتِاب الله): فالإيمان بأنَّه كَلام اللهِ لا يشْبِهُه شَيءٌ مِن كَلام الخَلقِ، ولا يقدرُ على مثْلِه أحدٌ منهُم، وتعظِيمُه وتلاوتُه حقَّ تلاوتِه، والتَّصْديق بما فيه، والوقُوفُ مع أحكْامِه وتَفَهُّم عُلومِه وأمثْالِه، والعِلْمُ بمحكمِه والتَّسلِيمُ لمتشَابهِه.

وأمَّا (النَّصيحةُ لرسُولِ اللهِ ﷺ): فتصْديقُه على الرسَالةِ، والإيمانُ بجميعِ ما جَاءَ به وإحياءُ سُننِه ونشْرها ونفْي التُّهمةِ عنْها، والتَّفقُّهُ في مَعَانيها، والتَّلطُّف في تَعلّمِها وتعليمِها، وإعظَامُها وإجْلالها، والأدبُ «عندَ قِراءتِها»، وإجلالُ أهلِها لانتسَابهم إليها.

وأمَّا (النَّصيحةُ لأئِمَّةِ المُسْلِمين): فمعَاونتُهم على الحقِّ وطَاعتُهم فيه، وتَنبيههم وتذكِيرهُم برفْقٍ ولطْفٍ وإعْلامُهم بما غفلوا عنْه، أو لم يَبْلُغْهم من حقُوقِ المسْلِمين، وتأليفُ قُلوبِ النَّاسِ لطَاعتِهم.

وأمّا (النَّصيحةُ لعَامَّةِ المسْلِمين): فإرشَادهُم لمصالحِهم والشَّفقةُ عليهِم، وتوقيرُ كبيرهِم ورحمةُ صغِيرهِم، والذَّبُّ عن أموالهم وأعْراضِهم، وغير ذلك من أحْوالهم.

وفي «**الصَّحيحَين**» عن ابن عُمرَ، رضِي الله عنهُما، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: «كُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْؤُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، فالإِمَامُ رَاعٍ ومَسْؤُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، والرَّجُلُ رَاعٍ في أَهْلِهِ، وهوَ مَسْؤُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، والْمَرأَةُ رَاعِيَةٌ

فِي بَيْتِ زَوْجِهَا، فهِي مَسْئُولَة عَنْ رَعِيَّتِهَا، وَالْخَادِمُ رَاعٍ فِي مَالِ سَيِّدِهِ، وهو مَسْؤُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، فكُلُّكُمْ رَاعٍ، وكُلُّكُم مَسْؤُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ»(٤١).

وعن عائشة رضِي اللهُ عنها، قَالتْ: سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: «اللَّهُمَّ مَنْ وَلِيَ مِنْ أَمْرِ أُمَّتِي شَيْئًا فَشَقَّ عَلَيْهِمْ، فَاشْقُقْ عَلَيْهِ ومَنْ وَلِيَ مِنْ أَمْرِ أُمَّتِي شَيْئًا فَرَفَقَ بِهِمْ فَارْفُقْ بِهِ»(٤٢)، رواهُ مُسْلِم والنّسَائِي.

وروَى الأَصْبَهَانِيّ في «**تَرْغِيبه**»(٤٣) عَن أبي هُريرةَ ﷺ قَالَ: قالَ رسُولُ اللهِ ﷺ: «يا أبا هُريرةَ: عَدلُ سَاعةٍ خَيرٌ مِن عِبادةِ سِتِّينَ سَنَةً، قِيام لَيلِها وصِيام نهارِهَا»، وفي رواية: «عَدلُ يومٍ واحِدٍ أفضَلُ مِن عِبادةِ سِتينَ سَنَةً»، والآيات والأحاديث في ذلك كثيرة.

وقدْ أحَاطَ بها عُلومُ الحضْرةِ الشَّريفةِ، وسُطِّرَ في الصَّحائفِ المطهَّرةِ المبرورَةِ، لكنْ قَالَ الله تعالى: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾(٤٤). ﴿إِنَّ فِى هَٰذَا لَبَلَٰغًا لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ﴾(٤٥).

وقَد جَعلْتُ خِتامَ هذِه الصَّحيفةِ مِسْكًا، ونظَمتُ لهُ بجواهِرِ المفَاخرِ سلكًا؛ فختمتُ كما بدأتُ بذكرِ أعظمِ سَلاطين الزَّمانِ الخَافِضِ لكلمةِ الكُفْرِ، والرَّافعِ لكلمةِ الإيمانِ، عالمِ السَّلاطين، وسُلطانِ العُلماءِ، ذي الحضْرةِ العُظْمى التي تتصاغر إليه أكَابِرُ العظَماءِ، إمَامُنا الذي جعَله الله تعَالى قِبلة المطْلوبِ.

وأجزأنا من التَّوجه إلى شطْرِه على أجمَلِ أُسْلوب، سيدُ سَلاطين العَجَمِ والعَربِ، المانحُ من تسْهيلِ الفَوائدِ مَا هو أحْلَى من ارتِشَافِ الضَّربِ الذي هو البَحْرُ تحدّثُ الألسُنُ عن محاسِنه بالعجَائبِ، ولا حَرجَ، ويلُوذُ بهِ من نَالتْه شِدَّة الافتقَارِ؛ فيدخلُ دارَ السَّعادةِ من بَابِ الفَرجِ:

[بحر الطَّويل]

لَهُ دَولةٌ أسْمَى لهَا اللهُ في الـورَى مَكانًـا وأعْلاهَـا مقَامًـا وأعْلاهَـا
لقـدْ أعْربَـتْ عـن سِـيرةٍ عُمَريَّـةٍ عَلى العَدْلِ والإحْسَانِ أصْبحَ مَبْنَاهَا
لهَا شَرفٌ بَاهِي السَّنا وفضَائِلٌ أرَى المِسْكَ يُطْوى نَشْرُه عِنْد ريَّاها
وأخْبارُ عَدْلٍ أبْدَعَتْ في طِبَاقِها فَكَم زَالَ حَرُّ الجَورِ مِن بَرْدِ ذِكْرَاهَا
فيـا حبَّـذا مـن سِيرةٍ جَـلَّ ذكْرُهـا ودقَّ علـى الألْبَـابِ إدراكُ مَعْناهـا

ألا وهِـي سِـيرةُ مَولانـا أمِـيرِ المـؤمِنين، وحَـامِي حَـوزة الـدِّين، الواثـقِ بِالله/٣ظ/ المُسْتَعانِ، نَاصِرِ الـدُّنيا والـدِّين، ونظَامِهمـا علـى التَّعـيينِ: أبـي الفَتْحِ عَبدِ الحمِيدِ خَان – جَعلَ الله تعالى أعتَابَهُ الشَّريفةَ قِبْلَةَ القبَلِ وإنعامه المُنيفة مَصَادِر الجودِ ومَواردَ الأمَلِ، وجمَّلَ الوجُودَ ببقَاءِ دَولته العَادِلة وأيَّامِه، وقَرنَ سَعْيه الشَّريفَ بِالظَّفرِ في مبدإ كُلِّ أمْرٍ وخِتَامِه، بمَنِّه وكَرَمِه.

وقـدْ أجـزتُ مَولانـا الـسُّلطانَ المشارَ إليـه –نظَـرَ اللهُ بعـينِ عِنايتـهِ إليـهِ، وخلَّدَ جَزيلَ نِعَمهِ عليهِ– أنْ يَرْوي عنِّـي هـذا الحـدِيثَ المسلسَلَ بالأوليّـةِ، وسَائرَ ما يجوزُ لي، وعنِّي روايتُه أو تصحُّ دِرايتُه.

ومن جُملةِ ذلك: الكُتبُ السِّتةُ الصِّحاحُ التي هي: **صَحِيحُ البُخَارِي**، **ومُسلِم**، وسُنن **أبي دَاود**، **والتِّرمذِي**، **والنَّسَائي**، **وابن ماجه** بشَرطِه المعتَبرِ عند أهلِ الأثرِ، مُلتمسًا منْهُ الدُّعاء بظَهـرِ الغَيـبِ والابتِهالَ بـهِ إلى عَالمِ الغَيبِ؛ فإنَّ دعاءَ مَولانا السُّلطان مُسْتجابٌ بلا ريـبٍ، إذْ هـو قُطْبُ هذا العَالمِ، وسِرُّ غَيبِ الغَيبِ، أنـار اللهُ برهانَـه، وأعَانَـهُ بـالتَّوفيقِ لمصَالحِ الأمَّةِ، ونصَرَ أعْوانَه، إنَّهُ بالإجَابةِ جَديرٌ، وعلى ما يشَاءُ قَدِيرٌ.

قَالَهُ بفمِه الفقِيرُ إلى مَولاه، الشَّاكرُ على ما أولاه، أبو الفَيضِ مُحمَّد مُرتضَى الحُسَينيّ الحنَفيّ، خَادِمُ عِلْمِ الحَدِيثِ بمِصْر، غَفرَ اللهُ زَلَلَه وأصْلحَ خَلَلَهُ، وتَقَبَّلَ عَملَه، وبلغَه أهلَه، في عَاشِرِ شوَّالٍ سنة ١١٩٣هـ، أحْسنَ اللهُ تمامَها وأسْعدَ عَامَها، وقَدَّرَ في خَير خِتَامِها، حَامدًا للهِ، وحْدَه ومُصَلِّيًا على نَبيِّه، وآلِهِ، وصَحْبِهِ أجْمَعين، وحسْبُنا الله ونعْمَ الوكِيل، والحمدُ لله الذي دلَّ على الخيرات.

الهوامش:

* الباحث بمركز تحقيق التراث- جامعة الأزهر الشَّريف- جمهورية مصر العربية.

(١) **الإجازات والتوقيعات المخطوطة في العلوم النقلية والعقلية من القرن ٤هـ/١٠م إلى ١٠هـ/١٦م:** نشر وتحقيق: د. أحمد رمضان أحمد، تقديم د. أحمد قدري، المجلس الأعلى للآثار، سلسلة الثقافة الأثرية والتاريخية - مشروع المئة كتاب، القاهرة، سنة ١٩٨٦م، المقدمة.

(٢) انظر في ترجمته في **عجائب الآثار**: الجبرتي، تحقيق: عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم، دار الكتب المصرية، القاهرة، سنة ١٩٩٨م، ٢: ٣٠٣-٣٣١؛ **حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر**: عبد الرازق البيطار، تحقيق: محمد بهجت البيطار، دار صادر، بيروت، ط٢، ١٩٩٣م، ٣: ١٤٩٣-١٥١٦؛ **تاج العروس**: الزَّبيدي، وزارة الإرشاد والأنباء، الكويت، سنة ١٩٦٥م، (مقدمة التحقيق للدكتور عبد الستار فراج، التي استفدت منها كثيرًا)؛ **أبجد العلوم**: القنوجي، دار الكتب العلمية بيروت، د.ت، ٣: ١٢-٢٨؛ **الخطط التوفيقية**: علي مبارك طبعة بولاق، مصر، ١٣٠٥هـ، ٣: ٩٤-٩٦؛ **تاريخ آداب اللغة العربية**: جورجي زيدان، مراجعة وتعليق: شوقي ضيف، دار الهلال، مصر، د.ت، ٣: ٣١٠-٣١١؛ **فهرس الفهارس**: عبد الحي الكتاني، باعتناء: إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط٢،

١٩٨٢م، ١ : ٥٢٦-٥٤٣ ؛ **تاريخ الأدب العربي**: بروكلمان، ترجمة: عمر صابر عبد الجليل، الهيئة المصرية العامة للكتاب، سنة ١٩٩٥م، ٨ : ٦٢-٦٤ ؛ **الأعلام**: الزركلي، دار العلم للملايين، بيروت، ط١٥، سنة ٢٠٠٢م، ٧: ٧٠ ؛ **النور الأبهر في طبقات الجامع الأزهر**: محيي الدين الطعمي، دار الجيل، بيروت، ط١، سنة ١٩٩٢م، ١٢٧-١٢٨.

(٣) انظر: عجائب الآثار ٢ : ٣٠٣ .

(٤) يقول جورج زيدان في كتابه **تاريخ آداب اللغة العربية** ٣ : ٢٩١« أمّا الآداب العربية على الإجمال، فأصبح في أحط أدوارها، وندر نبوغ العلماء المفكرين أو المستنبطين فيها. وأكثر ما كتب في هذا العصر، إنما هو من قبيل الشروح والحواشي، والتعاليق، وشروح الشروح ونحوها». ومما لا شك فيه أنّ هذا الحكم هو خطأ بيِّن لتعميم الحكم على عصر بأكمله أمتد لعدة قرون، هو جزء من تاريخ ثقافتنا وتراثنا المجيد.

(٥) استفدت في معرفة مؤلفات الزَّبيدي من كتب التراجم والتاريخ التي ترجمتْ له ولمؤلفاته، وكذا فهارس المخطوطات أمثال: **عجائب الآثار** ٢ : ٣٠٣-٣٢١ ؛ **حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر** ٣: ١٤٩٣-١٥١٦ ؛ **فهرس الفهارس** ١ : ٥٢٦-٥٤٣ ؛ **الأعلام** ٧: ٧٠ ؛ **تاريخ الأدب العربي** ٨: ٦٢-٦٤.

(٦) راجع في ترجمته وحالة الدولة العثمانية في عصره: **تاريخ الدولة العلية العثمانيَّة**: محمد فريد بك، تحقيق: د. إحسان حِقي، دار النفائس، ط١، بيروت، ١٩٨١م، ٣٤١-٣٦٢ ؛ **الدولة العثمانية عوامل وأسباب السقوط**: د. علي محمد الصلابي، دار التوزيع والنشر الإسلاميَّة، القاهرة، ط١، ٢٠٠١م، ٣١٦-٣١٩ ؛ **الدولة العثمانية في التاريخ الإسلامي الحديث**: د. إسماعيل أحمد ياغي، مكتبة العبيكان، ط٢، السعودية، سنة ١٩٩٨م، ١٢٣.

(٧) **المقّري صاحب نفح الطيب**: محمد عبد الغني حسن، الدار المصرية للتأليف والترجمة، سلسلة أعلام العرب، القاهرة، سنة ١٩٦٦م، ٦٢.

(٨) انظر **عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمي والأدبي**، في النثر الفني: د. محمود رزق سليم، مكتبة الآداب، القاهرة، سنة ١٩٥٥م، المجلد الخامس ١٨٣.

(٩) انظر المرجع السابق، المجلد الخامس ١٨٤.

(١٠) **عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمي والأدبي، في النثر الفني**: د. محمود رزق سليم، ١٩٤-١٩٥.

(١١) **الأدب المصري في العصر العثماني**: محمد سيد كيلاني، دار الفرجاني، القاهرة، (د.ت)، ٤٢.

(١٢) **الأدب العربي في العصرين المملوكي والعثماني**: د. قصي الحسين، المؤسسة الحديثة للكتاب ناشرون، طرابلس، لبنان، سنة ٢٠٠٦م، ٣٨٣.

(١٣) سورة البلد، آية ١٧.

(١٤) الأبيات لأبي العتاهية، في ديوانه ٣٧٥، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٨٦م.

(١٥) سورة المعارج، آية ٦، ٧.

(١٦) أنكاد الزمن: أي عسر الزمن وشؤمه. انظر **لسان العرب**، مادة (نَكِدَ).

(١٧) في البيت تضمين من قول الشاعر ابن الرومي في ديوانه ١: ٤١١، شرح: أحمد حسن بسج، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٣، سنة ٢٠٠٢م:

هذا ثنائي وهاتيكم مناقبُكم   بأعين النَّاس ما أبْعدتُ إشهادي.

(١٨) لم أقف على نسبته لأحدٍ من الشعراء.

(١٩) اقتباس من الحديث الشَّريف: الذي رواه عَبْد الله بنِ عُمَرَ -رضى الله عنهما- أَنَّ عَائِشَةَ أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ أَرَادَتْ أَنْ تَشْتَرِيَ جَارِيَةً فَتُعْتِقَهَا، فَقَالَ: «أَهْلُهَا نَبِيعُكِهَا عَلَى أَنَّ وَلاَءَهَا لَنَا، فَذَكَرَتْ ذَلِكَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: لاَ يَمْنَعُكِ ذَلِكَ؛ فَإِنَّمَا الْوَلاَءُ لِمَنْ أَعْتَقَ». انظر: حديث ٢٢٠٩، **صحيح البخاري**، كتاب البيوع، باب إذا اشترطوا في البيع شروطًا لا تحلّ، **موسوعة الحديث الشريف**، جمعية المكنز الإسلامي، القاهرة، سنة ١٩٩٩م.

(٢٠) اقتباس من قوله تعالى: (لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ) سورة النَّحل، آية ١٠٣.

(٢١) البيت من أشعار البديع الأسطرلابي: هبة الله بن الحسين بن يوسف، أبو القاسم، المتوفّى سنة ٥٣٤هـ. انظر **الوافي بالوفيات**: صلاح الدين الصفدي ٢٧: ١٦١، وروايته فيه مختلفة، إذ هي:

كالبحرِ يُمطرُه السَّحابُ وما له　　　فضلٌ عليه لأنَّه من مائِهِ

وفي رواية أخرى: مَنٌّ عليه.

(٢٢) سورة النساء، آية ٦٩.

(٢٣) تُوفِّي سنة ١١٧١هـ، راجع **عجائب الآثار في التراجم والأخبار**: عبد الرحمن الجبرتي، ١: ٤٢٢.

(٢٤) هو الشَّهير بالبناء، خاتمة من قام بأعباء الطريقة النقشبندية بالديار المصرية، ورئيس من قصد لرواية الأحاديث النبوية، تُوفِّي سنة ١١١٧هـ بالبقيع. راجع **عجائب الآثار في التراجم والأخبار**: عبد الرحمن الجبرتي، ١: ١٦٠-١٦١.

(٢٥) راجع في ترجمته **الضوء اللامع**: محمد عبد الرحمن السَّخاوي، دار الجيل، بيروت، (د.ت)، ٣: ٢٣٤-٢٣٨.

(٢٦) تُوفي سنة ٩٢٣هـ، راجع في ترجمته **البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع**: محمد بن علي الشَّوكاني، تحقيق: محمد حسن حلاق، دار ابن كثير، دمشق-بيروت، ط١، سنة ٢٠٠٦م، ١٣٢-١٣٣.

(٢٧) من كبار حفَّاظ الحديث، تُوفِّي سنة ٨٠٦هـ، راجع في ترجمته **الضوء اللامع**: محمد ابن علي السخاوي، ٤: ١٧١؛ **البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع**: محمد ابن علي الشَّوكاني، ٣٩٢.

(٢٨) هو أحفظ أهل عصره، مات في شهر رمضان سنة ٧٥٤هـ، راجع **الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة**: ابن حجر العسقلاني، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ٤: ١٥٧-١٥٨.

(٢٩) هو الشيخ الجليل مسند الديار المصرية، كانت وفاته سنة ٦٧٢هـ، راجع **المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي**: يوسف بن تغرى بردي الأتابكي، حققه ووضع حواشيه: د. محمد محمد أمين، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، سنة ١٩٩٣م، ٧: ٣٥٦.

(٣٠) أبو الفرج علاّمة عصره في التاريخ والحديث، تُوفِّي سنة ٥٩٧هـ، راجع **الأعلام**: خير الدين الزركلي، ٣: ٣١٦.

(٣١) توفي بعد سنة ٤٣٠هـ بنيسابور، راجع **التقييد لمعرفة الرواة والسنن والمسانيد**: لابن نقطة، طبعة حيدر آباد الدَّكن، الهند، ط١، سنة ١٩٨٣م، ١: ٢٤٢.

(٣٢) هو الأمين المتقن الثقة المحدّث الصوفي نسيج وحده في طريقته وجمعه وإفادته، وتوفي في شهر رمضان من سنة ٤٧٠هـ، راجع **التقييد لمعرفة الرواة والسنن والمسانيد**: لابن نقطة، ١: ١٥٩.

(٣٣) فقيه نيسابور ومحدّثها في أيامه، توفّي سنة ٤١٠هـ، راجع **تهذيب الأسماء واللغات**: لأبي زكريا محيي الدين بن شرف النَّووي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ٢: ٢٤٥؛ **طبقات الشافعية الكبرى**: عبد الوهَّاب السبكي، تحقيق: عبد الفتاح محمد الحلو- محمود محمد الطناحي، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، (د.ت)، ٤: ١٩٨.

(٣٤) هو الشيخ المُسند الصَّدُوق، الثقة المأمون المشهور، سمع منه الكبار، وانتهى إليه علو الإسناد، تُوفّي سنة ٣٣٠هـ، راجع **سِيَر أعلام النبلاء**: شمس الدين الذهبي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط-وإبراهيم الزيبق، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، سنة ١٩٨٣م، ١٥: ٢٨٤.

(٣٥) هو عبد الرحمن بن بشر بن الحكم بن مهران العبدي النيسابوري، كان صدوقًا ثقة، مات بعد الخمسين والمائتين. راجع **الجرح والتعديل**: للرازي، دار الكتب العلمية، بيروت، مصورة عن طبعة دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد، الدكن، الهند، سنة ١٩٥٣م، ٢: ٢١٥؛ **الثقات** لابن حبّان، طبع تحت مراقبة: د. محمد عبد المعيد خان، طبعة دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد، الدكن، الهند، سنة ١٩٧٣م، ٨: ٣٨٢.

(٣٦) كانت وفاته سنة ١٩٨هـ، راجع في ترجمته **سِيَر أعلام النبلاء**: شمس الدين الذهبي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط- ومحمد نعيم العرقسوسي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٢، ١٩٨٢م، ٨: ٤٥٤.

(٣٧) انظر: **سنن الترمذي**، كتاب البر والصلة ـ باب ما جاء في رحمة المسلمين، حديث رقم ٢٠٤٩، موسوعة الحديث الشَّريف ـ جمعية المكنز الإسلامي؛ **مسند الإمام أحمد مسند عبد الله بن عمرو بن العاص** رضي الله عنهما، حديث رقم ٦٦٠٥،

موسوعة الحديث الشَّريف ـ جمعية المكنز الإسلامي ؛ **سنن أبي داود**، كتاب الأدب، باب في الرحمة، حديث رقم ٤٩٤٣ ، **موسوعة الحديث الشَّريف**– جمعية المكنز الإسلامي.

(٣٨) كذا في المخطوط، وتمييز الأعداد من أحد عشر إلى تسعة عشر، مفرد منصوب، وجوز الفرّاء أن يأتي جمعًا منصوبًا، ولم أقف على وجه الجر عمومًا عن العرب. وانظر **همع الهوامع**: للسيوطي، تحقيق: د. عبد الحميد هنداوي، المكتبة التوفيقية، (د.ت)، ٢: ٣٤٧.

(٣٩) سورة الفتح، آية ٢٩.

(٤٠) انظر **صحيح مسلم**، كتاب الإيمان، باب بيان أنَّ الدين النَّصيحة، حديث رقم ٢٠٥، موسوعة الحديث الشَّريف ـ جمعية المكنز الإسلامي.

(٤١) **صحيح البخاري**، حديث رقم ٩٠١، ٢٧٨٩ و**صحيح مسلم**، حديث رقم ٤٨٨٢ – موسوعة الحديث الشريف، جمعية المكنز الإسلامي.

(٤٢) أخرجه مسلم في **صحيحه**، حديث رقم ٤٨٢٦.

(٤٣) انظر **الترغيب والترهيب**: إسماعيل بن محمد بن الفضل الجوزي الأصبهاني، اعتنى به: أيمن بن صالح بن شعبان، دار الحديث، ط١، القاهرة، (د.ت)، حديث رقم ٢١٧٩، ٢١٨٠.

(٤٤) سورة الذاريات، آية ٥٥.

(٤٥) سورة الأنبياء، آية ١٠٦.

نظريَّة المحبَّة عند العرب

قراءة في كتاب "عطفُ الألِفِ المألوفِ على اللامِ المعطوفِ"

تأليف: علي بن محمد الديلمي، تحقيق: الدكتور حسن الشافعي والدكتور جوزيف نورمنت بِل

بقلم: د. علي القاسمي*

"نسألك اللهم أن تجعل قلوبنا أوعية محبتك، وأرواحنا محالَّ إلفتك، وأسرارنا مواضع هيبتك، وعقولنا عوامل حكمتك، وجوارحنا فواعل قدرتك".

الديلمي (في مقدمة كتاب **العطف**)

تمهيد، طبيعة الحبّ وأنواعه:

"الحبُّ" اسمٌ مجرَّد، وهذا يعني أنه لا يدلُّ على شيءٍ حقيقيٍّ أو ملموس، فهو عاطفةٌ نشعر بها ولا نستطيع وصفها، كما قال الشاعر البهاء زهير (ت ٦٥٦هـ):

يقول أناسٌ لو وصفتَ لنا الهوى   فوالله، ما أدري الهوى كيفَ يوصَفُ!

ومع ذلك فعندما يُصيبنا الحبُّ يؤثِّر فينا وفي العالم المحيط بنا. فبالحب ينفعل الوجود. وعاطفة الحبِّ عامَّة خاصَّة، أي أنها تصيب الكائنات جميعًا، ولكن كل ثقافة لها منظورها الخاص للحبِّ، وتعبّر عنه في آدابها وفنونها وعلومها وطريقة عيشها. ونظرًا لأهمية الحبِّ النفسية، فإنه أكثر الموضوعات ترددًا في الآداب والفنون الإبداعية الأخرى.

ولعلَّ أقدمَ عمل أدبي تصدى لطبيعة الحبِّ وأنواعه، الملحمةُ السومرية "**جلجامش**" (القرن ١٨ق.م.) التي تأثَّرت بها ملاحم الإغريق كـ"**الإلياذة**" و"**الأوديسة**" المنسوبتين إلى الشاعر الأعمى، هوميروس (؟) (٨٥٠ق.م.) ففي هذه الملحمة السومرية، تأملاتٌ في الوجود والإنسان، ونظراتٌ في الحياة والحبِّ والموت. فبطل الملحمة "جلجامش"، ملك أوروك، أراد أن يرافقه صديقٌ يضارعه في البأس والقوة في رحلة خطيرة للبحث عن عشبة الخلود، فأخبروه عن "انكيدو" الخارق القوَّة الذي كان يعيش مع الوحوش الكاسرة في البراري. واستطاع "جلجامش" ترويضه، باستخدام مومسٍ لإثارة غريزته الجنسية وإغوائه. وعندما اتّخذه خليلاً، نمت عاطفة المحبة الإنسانية الأخوية بينهما وتجلّت في الدموع التي ذرفها جلجامش والبكائيات التي أنشدها حزنًا على مصرع أنكيدو. وتبرز لنا محبّة الأمِّ لولدها في مشهد وداع جلجامش لأمّه "ننسون" قبيل انطلاقه في مغامرته. وهكذا فالملحمة تتطرَّق بذكاء ودهاء لأنواعٍ متباينةٍ من الحبِّ، في محاولةٍ لتحديد طبيعته.

وتراوحت نظريات الفلاسفة الإغريق عن الحبِّ بين النظر إلى مفهوم الحبِّ بوصفه ظاهرة فيزيائية تقتصر على ممارسة الجنس بين حيوانين، ذكر وأنثى، بدافع اللذة المادية أو بدافع غريزة حفظ النوع، وبين النظر إليه بوصفه ظاهرة روحية خالصة تتيح لنا الاتصال بالخالق المقدَّس، كما ظهر ذلك في كتاب كبيرهم إفلاطون (ت ٣٤٨/٣٤٧ ق.م) "**المحاورات**" التي وضعها على لسان سقراط وتلامذته ليطرح آراءه هو (إفلاطون)، "ففيما كان تلامذته يتحدثون أساسًا عن الحبّ الجنسي المثلي بين الرجال، الذي يعكس حقيقة اجتماعية في بلاد الإغريق الطبقية آنذاك، يقودهم سقراط، عن طريق الحوار، إلى نوعٍ سامٍ من الحبِّ الطاهر غير الجنسي من أجل التأمل الروحي والتسامي للوصول إلى المقدس"[1]. ومن هنا جاءت التسمية الذائعة "الحب الإفلاطوني".

وفي العصر الحديث، تصدّى علماء النفس لدراسة الحبّ، وطوّروا نظرياتٍ مختلفةً عنه. فعالِم النفس النمساوي سيغموند فرويد (١٨٥٦-١٩٣٩م) يعزو الطبيعة البشرية إلى الرغبات اللاشعورية، وتتمركز نظريته حول حاجة الفرد إلى "الأنا المثالي" أي إلى صورة الإنسان الذي يقدّره ويريد أن يكونه، فيحبّه. ويذهب عالم النفس الأمريكي أبراهام ماسلو (١٩٠٨-١٩٧٠م) إلى أنّ الفرد لا يستطيع تحقيق ذاته ما لم يشبع أولاً حاجاته الغريزية، وأنّ مَن يحقق ذاته يستطيع أن يحبَّ. أما النظرية الثلاثية التي طوّرها عالم النفس والاختبارات النفسية الأمريكي المعاصر، روبرت سترنبرغ (١٩٤٩-)، فتقول إنه في إطار العلاقات بين الأفراد، تكون

مكوِّنات الحب ثلاثة: ١) **الألفة**، التي تشتمل على مشاعر التعلّق، والقرب، والاتصال، والارتباط؛ ٢) **العاطفة**، التي تدفع إلى العشق والانجذاب الجنسي؛ ٣) **الالتزام**، الذي يتضمَّن قرار الفرد بالبقاء مع المحبوب على المدى القريب، والتخطيط معه للمستقبل على المدى البعيد. وهكذا نرى أنّ نظريات الحب الغربية الحديثة انتقلت من الأساس السريري الكلينيكي إلى الأساس الاجتماعي؛ وانتقلت من الاهتمام بالقدرة على الحبِّ إلى الاحتفاء بأنواع الحبِّ.

أمّا نظرية الحبّ عند العرب والمسلمين، فسنعرض لها في الكتاب موضوع هذا المقال.

عنوان الكتاب:

عنوان الكتاب هو "**عطف الألف المألوف على اللام المعطوف**" ويرمز إلى علاقة الألفة والتعاطف والمحبة بين الخالق والمخلوق في أجمل وأكمل صورها. والعنوان مقتبس من تراث المتصوفة الذين قالوا بقدسية الحروف ورمزيتها وأسرارها. فالألِف في العنوان يرمز إلى الله، أصل المحبّة وحقيقتها، واللام يرمز إلى الإنسان الذي يحنُّ دومًا إلى العودة إلى موطنه الأول بعد رحلة الاغتراب ليكون في جوار حبيبه الخالق. ويبدو أنّ العنوان مقتبس من مقطوعة شعرية للصوفي حسين بن منصور الحلاج (ت ٣٠٩هـ) ورد فيها:

لما بدا البدءُ أبدى عشقَهُ صفةً ... فيمن بدا، فتلالا فيهِ لألاءُ

واللامُ بالألفِ المعطوفِ مؤتلِفٌ ... كلاهما واحدٌ في السبقِ معناءُ

مؤلِّف الكتاب:

مؤلِّف الكتاب هو أبو الحسن علي بن محمد الديلمي، من متصوفة القرن الرابع الهجري، ولكننا لا نعرف -مع الأسف- تاريخ ميلاده ولا تاريخ وفاته على وجه التحديد (ربّما وُلِد حوالي سنة ٣٣٥هـ وتوفي حوالي سنة ٣٨٥هـ). عاش في شيراز في عصرٍ كان البويهيون، ذوو الأصل الديلمي، يسيطرون فيه على غرب فارس والعراق، مستمدين شرعيتهم في الحكم من رعاية الخليفة العباسي، وقد ازدهرت العلوم والآداب في ظلِّ دولتهم.

تتلمذ المؤلِّف على المتصوف الشيخ ابن خفيف (ت ٣٧١هـ) في شيراز، وقد أرَّخ لشيخه في كتاب "**السيرة**" وفي كتاب آخر لم يصلنا هو "**المشيخة**". والمؤلِّف معاصرٌ لكثير من مشاهير الأدب والفكر في العصر العباسي، مثل الأديب أبي الفرج الأصبهاني (ت ٣٥٦هـ)، والشاعر الشريف الرضي (ت ٤٠٦هـ)، والمتكلم أبي بكر الباقلاني (ت ٤٠٣هـ)، وفيلسوف الأدباء أبي حيان التوحيدي (ت ٤١٤هـ)، وغيرهم من أعلام الفكر والأدب.

وعلى ديدن المتصوفة، فقد سافر المؤلِّف كثيرًا بقصد الحج أو مقابلة الشيوخ والأخذ عنهم، فرحل إلى مكة المكرمة وبغداد وأنطاكية وغيرها من الحواضر الإسلامية.

موضوع الكتاب وأهميته:

يدور الكتاب حول نظرية المحبَّة بوجهٍ عامٍّ، والحبِّ الإلهي بوجه خاص؛ فيتناولها بالدرس العميق والتحليل الدقيق، فيعرض لأصلها ومنبتها، وأسبابها ودوافعها، وأنواعها ومستوياتها، وأطوارها وأحوالها، ونتائجها

وآثارها، وآراء المفكِّرين المسلمين وغيرهم من أدباء وحكماء وفقهاء وعلماء فيها.

وغرض الكتاب هو تبيان حقيقة المحبَّة، بسبب ما أصابها من تحويرٍ وتغييرٍ وتزوير، لكثرة المدَّعين لها، الداخلين فيها، المنتفعين منها؛ فالناس جميعهم ينسبون المحبّة لأنفسهم حتى لو لم يكُن لهم نصيبٌ يسير منها، كما يقول المؤلِّف.

لم يكن الكتاب أول كتاب في الحبّ عند العرب، فقد سبقه كثيرون مثل:

ـ الجاحظ (ت ٢٥٥هـ) الذي ألَّف رسالتين في الحبّ هما "**رسالة العشق والقيان**" و"**رسالة القيان**".

ـ الفقيه الظاهري ابن داود (ت ٢٩٧هـ) صاحب كتاب "**الزهرة**".

ـ الأديب النحوي محمد بن أحمد الوشاء (ت ٣٢٥هـ)، مؤلِّف كتاب "**الموشَّى**" في مسالك المحبين والظرفاء.

ـ الأديب المتفقه أبي بكر الخرائطي (ت ٣٢٧هـ) صاحب كتاب "**اعتلال القلوب**".

ولكن هؤلاء الكتّاب اعتنوا أساسًا بالجانب الإنساني والأدبي لظاهرة الحبِّ، أمّا كتاب الديلمي فقد تناول هذه الظاهرة من جميع جوانبها الإنسانية والإلهية والروحية والفكرية والأدبية.

وقد تأثَّر المؤلِّف في هذا الكتاب بشيخه ابن خفيف (ت ٣٧١) الذي ألّفَ كتابين في الموضوع هما: "**كتاب المحبة**" و"**كتاب الود والإلفة**". وتأثَّر بعددٍ كبير من شيوخ المتصوفة بطريق غير مباشر، وذكر بعض آرائهم في

كتابه هذا، مثل: الحسين بن منصور الحلاج (ت٣٠٩هـ)، وعمر بن عثمان المكي (ت حوالي ٢٩١هـ)، وابن الأعرابي(ت٣٤١هـ) كما تأثر بغيرهم بصورة مباشرة أو غير مباشرة مثل محمد بن جرير الطبري (ت٣١٠هـ)، والمسعودي (ت ٣٤٥هـ)، وأبي حيان التوحيدي (ت ٤١٤هـ) صاحب كتاب "**الصداقة والصديق**" الذي يعدّ الصداقة نوعًا من المحبة والشغف والهوى.

ولا تكمن أهمِّية الكتاب في استخدامه عددًا هائلاً من المراجع والمصادر وإحاطته بالموضوع فحسب، بل كذلك في حفظه لنصوصٍ من بعض المصادر المفقودة، وفي تأثيره في عددٍ من الكتب اللاحقة التي تصدّت لظاهرة الحبِّ، مثل كتاب "**روضة المحِّبين ونزهة المشتاقين**" للفقيه الشهير ابن قيّم الجوزية (ت٧٥١هـ).

ويتحلّى الكتاب بتنظيمٍ دقيق لمحتوياته، فبعد مقدِّمة قصيرة، يشتمل الكتاب على أربعة وعشرين بابًا، تضم خمسة وثمانين فصلاً. وقد خصص المؤلِّف الباب الأول لذكر أبواب الكتاب وفصوله، ليعطي القارئ فكرةً شاملة عن مضمون الكتاب وترتيبه.

المحقّقان:

تصدّى لتحقيق هذا الكتاب عالمان بارزان أحدهما عربي هو الدكتور حسن محمود عبد اللطيف الشافعي والآخر أمريكي هو الدكتور جوزيف نورمنت بِل.

الدكتور الشافعي عالم دين مصري، ولد سنة ١٩٣٠، ودرس في كلية أصول الدين بجامعة الأزهر وكلية دار العلوم بجامعة القاهرة في آنٍ واحد، ونال شهادة الدكتوراه من كلية الدراسات الشرقية والإفريقية بجامعة لندن في الفلسفة الإسلامية عام ١٩٧٧، ودرَّس في كلية دار العلوم بالقاهرة وفي عدد من الجامعات العربية، وتولى رئاسة الجامعة الإسلامية في باكستان، وهو أول أزهري يتولى رئاسة مجمع اللغة العربية بالقاهرة؛ إذ انتُخِب لهذا المنصب العلمي الرفيع سنة ٢٠١٢، وله بحوث قيمة وأكثر من عشرة كتب تُرجم بعضها إلى اللغة الإنجليزية.

أمّا الدكتور جوزيف نورمنت بِل فهو مستشرق، كان رئيسًا لقسم اللغة العربية في جامعة برغن في النرويج، ودرَّس اللغة العربية في تلك الجامعة وفي بعض الجامعات الأوربية والأمريكية، وأسَّس سنة ١٩٩٥ "**مجلة الدراسات العربية والإسلامية**" journal of Arabic and Islamic Studies، وله مؤلّفاتٌ عديدة تناول في بعضها نظرية الحبّ عند المسلمين، مثل كتابه الشهير بالإنجليزية "**نظرية المحبة لدى الحنابلة المسلمين الأواخر**" الذي نشرته جامعة ولاية نيويورك[٢]. ويكفيه فخرًا أنّ المستشرقة الألمانية المتميزة المرحومة ماري آن شمل كتبت مقالاً عن هذا الكتاب في "**مجلة كلية الدراسات الشرقية والإفريقية**" في جامعة لندن بيّنت فيه أنه على الرغم من أنّ الفقهاء الحنابلة يولون أهمِّية للعبادات والأعمال أكثر من الأفكار والنظريات، فإنّ الأستاذ بِل تمكّن من العثور على منجم من أفكارهم

ونظرياتهم. وللأستاذ بِل دراسة معمَّقة حول رسالة الفيلسوف الحكيم ابن سينا (ت ٤٢٧هـ) في المحبَّة.

منهجية التحقيق:

يتحدَّث المحقّقان الفاضلان عن منهجية التحقيق في مقدِّمتهما التي استغرقت أكثر من خمسين صفحة، ومنهجيتهما رصينة حقًّا. وفي وسعي أن أقول بكل ثقة إنها تجسِّد خلاصة خبرة عمرها أكثر من قرن من الزمن من تصدي الباحثين العرب والمستشرقين لتحقيق بعض مخطوطات التراث العربي الإسلامي التي يقدَّر عددها بحوالي خمسة ملايين مخطوطة. ومنهجيتهما في التحقيق قمينة بأن تدرَّس في جامعاتنا وتحتذى.

لا توجد سوى نسخة مخطوطة واحدة معروفة من كتاب "**العطف**"، وهي محفوظة في مكتبة توبنجن. وكان الأستاذ فاديه، مدير المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية بالقاهرة قد عثر عليها، وحقَّق نصَّها العربي، وأصدره في معهده بالقاهرة سنة ١٩٦٢، ثم ترجمه إلى الفرنسية ونشر ترجمته في جنيف سنة ١٩٨٠[٣].

وكانت نية الدكتور الشافعي والأستاذ بِل متجهة إلى ترجمة الكتاب إلى اللغة الإنجليزية فقط، ولكن واجهتهما صعوبات تتعلّق بالنص العربي المحقَّق، لأنّ نشرة الأستاذ فاديه "قد جاءت مشوبة ببعض العيوب والأخطاء"، فصحَّ عزمهما على تحقيق مخطوطة الكتاب أولاً[٤] ثم ترجمته إلى الإنجليزية[٥].

لأضرب مثلاً في العبارة التالية لبعض الفروق بين تحقيق الأستاذ فاديه والتحقيق الجديد:

فاديه: "قال بعض الحكماء: العشق يؤنس النفس، ويهذّب الأخلاق؛ إظهاره طمع، وإغماضه تكلّف، وحاجبه الصبر، وخادمه الجوارح...".

الشافعي وبِل: "قال بعض الحكماء: العشق يؤنس النفس، ويهذّب الأخلاق؛ إظهاره طبع، وإغماضه تكلّف، وحاجبه الضمير، وخادمه الجوارح...".

وقد توصّل المحققان إلى قراءتهما الصحيحة للفظتين بفضل النظر في سياقهما، وبفضل مضاهاة النص بما ورد في الكتب الأخرى التي أثبتته، مثل كتاب "**روضة المحبين ونزهة المشتاقين**" لابن قيّم الجوزية (ت ٧٥١هـ)، ومخطوط "**منية المحبين وبغية العاشقين**" لمرعي بن يوسف الكرمي (ت ١٠٣٣هـ) وغيرهما. ومن نافلة القول إنّ مثل هذه الفروق اللفظية تؤدي إلى فروق دلالية ومفهومية تنال من قيمة الترجمة ذاتها.

ولا أشك في أنّ التحقيق الجديد أفضل من تحقيق الأستاذ فاديه، وذلك لتظافر جهود عالمين كبيرين، ولتكامل قدراتهما، ولتضلُّع أولهما من اللغة العربية، وتبحُّر ثانيهما في نظرية المحبة لدى المسلمين، إضافة إلى تخصصهما في الفكر الإسلامي عامة والفكر الصوفي والحب الإلهي خاصة، وبفضل عملهما الدائب سنين طويلة على نص المخطوطة لوقوعهما في محبتها، إذ استغرق تحقيق المخطوطة حوالي عشرين سنة تقريبًا، فقد كانا يعملان منفردين خلال العام الدراسي ثم يجتمعان في القاهرة خلال العطلة الصيفية لتدارس ما توصلا إليه ووضعه في صورته النهائية.

ومع ذلك، فإنّ المحققين الفاضلين لم يغمطا حقَّ الأستاذ فاديه الذي له فضل السبق، فقد استفادا من بعض قراءاته لألفاظ وعبارات غير واضحة في المخطوطة الأصلية أو أصابها شيء من التصحيف أو التحريف، فكانا يشيران إلى ذلك في الهامش بقولهما: "القراءة من فاديه".

وقد جاء تحقيقهما بتعريفٍ مفصَّل بالكتاب ومؤلّفه. واضطلعا بتحرير النصِّ طبقًا للأصل ومقارنته بالنصوص الموازية له، والاستعانة بالبحوث ذات العلاقة باللغات العربية والفارسية والإنجليزية والفرنسية والألمانية، إضافة إلى التعريف بالأعلام، وتخريج الآيات القرآنية والأحاديث النبوية والأشعار الواردة في الكتاب، وأخيرًا وليس آخرًا تذييل الكتاب بتسعة فهارس تفصيلية هي: فهرس الآيات القرآنية، فهرس الأحاديث القدسية، فهرس الأحاديث النبوية، فهرس الأبيات الشعرية، فهرس الأعلام، فهرس الأماكن والبلدان والأقوام، فهرس الألفاظ والعبارات الاصطلاحية، فهرس المراجع (المراجع العربية والفارسية، والمراجع باللغات الأخرى)، وأخيرًا فهرس الموضوعات.

شمولية الكتاب:

تتجلّى شمولية الكتاب في القضايا التالية:

أولاً- تتجلّى شمولية الكتاب أول ما تتجلّى في تعمُّق المؤلِّف في استجلاء الأصل اللغوي لألفاظ المحبّة. مثل "الألفة" و"الحبّ" و"العشق" و"الشغف"، ويتطرَّق إلى أقوال اللغويِّين في تأثيلاتها واشتقاقاتها.

فيشرح معنى "الألفة" بقوله:

“وتقول أيضًا: ألفتُ فلانًا إذا سكنتَ إليه كنفسك، وآثرتَه على غيره... ويعود كلُّه إلى معنى واحد، وهو ائتلاف القلوب، ومن ذلك قول العباس ابن الأحنف (ت ١٩٢هـ):

وإلفيْن كالغصنيْن شفَّهما الهوى ... فروحاهما روحٌ وقلباهما قلبُ
يُميتهما بُعدُ المزارِ إذا نأتْ ... ديارُهما، شوقًا، ويُحيهما القربُ

و“الحبُّ” اسمٌ لصفاء المودة، لأنّ العرب تقول لصفاء بياض الأسنان ونضارته: “حَبَب الأسنان”؛ أو أنّ الحبّ مأخوذ من “حَباب” أي الغاية، لأنّ العرب تقول “حَبابُكَ أن تفعل ذلك” أي غايتك. فالحبُّ غاية القلب؛ أو أنّ الحبَّ يعني اللزوم والثبات الذي لا براح معه، كما يُقال: أحبَّ البعير إحبابًا فهو محبٌّ، أي أنه يبرك فلا يثور؛ أو أنّ الحبَّ مأخوذ من القلق، لأنّ العرب تسمّي القُرط حِبًّا، لقلقه واضطرابه. أو أنّ الحُبَّ مأخوذ من الحِبّة، وهي بزور نبات صحراوي، لأنّ الحُبَّ لُباب الحياة، كما أنّ الحِبَّ لباب النبات.

أمّا “العشق” ففي أثله واشتقاقه أقوال كذلك، منها أنّ العشق مشتق من (العِشقة) أي اللبلاب، وسمّي العاشق به، لدقته وضعفه. ومنها أنّ العشق نهاية الحبّ، كما أنّ الصبابة نهاية الشوق، والرأفة نهاية الرحمة. وقد جمع بعضهم هذه الألفاظ في بيت واحد فقال:

رحمتي رأفةٌ وحُبِّي عشقٌ ... واشتياقي صبابةٌ ما تُطاقُ

أمّا "الشغف" فهو بلوغ الحبِّ غلاف القلب، والتغلغل فيه، لقوله تعالى: (قد شغفها حبًّا)، أي تغلغل في قلبها حبًّا، وقال مزاحم بن عمر (ت ١٢٥هـ):

شـقفتِ القلـبَ ثـم ذررتِ فيـه　　　هــواكِ، فلِـيمَ فالتـامَ الفُطـورُ

تغلغـل حيـثُ لم يبلُـغ شـرابٌ　　　ولا حـــزنٌ ولم يبلـــغ ســـرورُ

ونلاحظ أنّ شمولية المؤلِّف تتجلّى كذلك في استشهاداته، فهي ليست مقتصرة على القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، بل تشمل كذلك الأدب والشعر، سواء كان هذا الشِّعر لشعراء عذريِّين مثل مجنون ليلى أو شعراء عفيفين مثل العباس بن الأحنف أو شعراء لا عذريين ولا عفيفين مثل مزاحم بن عمر السلولي. ويميل المؤلِّف إلى اعتبار هذه الألفاظ الثلاثة شبه مترادفة.

بيدَ أننا نرى أنّ "الألفة" و"الحب" و"العشق"، على الرغم من انتمائها إلى حقلٍ دلالي واحد، فإنها تمثِّل بعض درجات المحبة أو مراتبها. ويختلف أهل الفكر واللغة في هذه المراتب. فإذا رجعنا إلى كتاب **"فقه اللغة وسرّ العربية"** لأبي منصور الثعالبي (ت ٤٢٩هـ)، نجد أنه يرتِّب درجات الحبِّ على الوجه التالي: الهوى، العَلاقة، الكَلف، العشق، الشَّعف، الشَّغف، الجوى، التيم، التَّبْل، التدليه، الهيوم.

أمّا المؤلِّف فيجعل مراتب الحبِّ على الوجه التالي: الألفة، الأنس، الودّ/المودّة، المحبّة، الخُلّة، الشَّعف، الشَّغف، الاستهتار، الوله، الهيمان، العشق.

ويبدو أنّ كثيرًا من المتصوفة يجعلون للمحبّة مقدِّمات ونتائج؛ فيرتّبونها على مقامات هي: التعرُّف، التأمُّل، التعجّب، التولُّع، التشرَّف، التطلُّع، التعلُّق، التتبُّع، التآلف، الود، الحب، الغرام، الصبابة، الاستهتار، الكلف، العشق، الشجن، التتيم، التولُّه، التهالك.

وجميع هذه الألفاظ تنتمي إلى منظومة مفهومية واحدة، وإذا كانت لا تختلف من حيث النوع والطبيعة، فإنها تختلف من حيث الدرجة والشدّة.

ثانيًا- لا تقتصر مصادر الكتاب على الفكر الإسلامي فقط، ففي الباب الخامس الذي يتناول أصل المحبة والعشق، يورد المؤلِّف آراء بعض الفلاسفة الإغريق، والمنجمين البابليين، والطبيعيين، والأطباء، مثل انبداقليس الذي يرى أنّ أول ما أبدعه المبدع الأول المحبّة والكره؛ وهيراقليطس الذي يذهب إلى أنّ الخالق أبدع العوالم العلوية من المحبّة، وأبدع العوالم السفلية من المنازعة، وأنّ البارئ يفسح للأنفس التي يخلقها فسحة حتى تنظر إلى نوره المحض الخارج من جوهره الحق، فحينئذٍ يشتد عشقها وشوقها إليه. ويورد المؤلّف أقوال المنجّمين في أصل العشق، فيأتي برأي المنجّم البابلي طيقروس القائل بأنّ المهيّج للعشق من النجوم زُحل وعطار والزهرة، إذا اشتركوا في أصل المولد. ويذكر المؤلِّف أقوال الحكماء الأطباء الأوائل مثل أرسطاطاليس، وفلاديوس، وجالينوس الذي أدرك، ذات مرة، أنّ مريضه يحبُّ امرأةً دخلت عليهما؛ لأنه جسّ عرق المربض فوجده يضطرب اضطرابًا عريضًا عندما كلمته المرأة.

والمؤلِّف يورد أقوال الفلاسفة والمتكلِّمين المسلمين في أصل المحبَّة والعشق ومبدئهما، مثل رأي أستاذ الجاحظ، إبراهيم النظام المعتزلي (ت ٢٢١هـ)، الذي يرى أنّ العشق ثمرةُ المشاكلة ودليلٌ على تمازج الروحين، وهو من بحر اللطافة ورقة الصفة وصفاء الجوهر، ورأي هشام بن الحكم (ت ١٩٩هـ) الذي يقول إنّ العشق من اعتدال الخَلق والخُلق، ومن تكافؤ في الطريقة، وملاءمة في الهيئة.

ثالثًا- لا يقتصر الكتاب على المحبة الإلهية، بل يأتي كذلك بحكايات أدبية كثيرة عن الحبِّ الإنساني والغرام بين الرجال والنساء، ومنها الحكاية التالية عن الفقيه التابعي سعيد بن المسيّب (ت ٩٤هـ):

"... رُفعت قُصَّة إلى سعيد بن المسيّب، وفيها:

يـا سـيِّدَ التـابعينَ والخِيَـرهْ　　أُنسِيتَ في العِشقِ سـورةَ البقَرهْ
فكُـن لِفَتـوايَ مُحسِنًا رَفِقًـا　　باهَى بِكَ اللهُ أكـرمَ البَـرَرهْ
هَـلْ حـرَّمَ اللهُ لـثمَ بَهْكَنَـةٍ　　فتَّانـةٍ بالجمـالِ مشتَهِـرهْ؟

فأجابَ فيها:

يـا سـائلاً عَـنْ خَفِـيِّ لَوْعَتِـهِ　　عَليـكَ بالصَّبـرِ تَحمَـدَنْ أثَـرَهْ
ولا تَكُـنْ طالِبًـا لفاحِـشـةٍ　　مثلَ الذي فاقَ سَيلُـهُ مَطَـرَهْ
وَقبِّـل الثَّغْـرَ من مُحِبِّـكَ ذا　　في كُلِّ يـومٍ ولَيلَةٍ عَشَـرَهْ...."

ومن هذه الحكايات حكاية عن الفقيه التابعي محمد بن سيرين (ت ١١٠هـ):

"... ورفِعت قصة إلى محمد بن سيرين وفيها:

يـا ابـنَ سـيرينَ أفـتِني في غرامـي　　وبِفتـواكَ داونـي مـن سـقامي

هِمتُ، لولا المنى لَصيَّرني العشـ ـقُ سَلِيبَ الفـؤادِ حِلفَ الهـوامي
أنـا صَـبٌّ بأحـسنِ النـاسِ وجهًـا هـلْ علـيَّ في ضـمِّهِ مِـنْ مَـلامِ؟

فأجاب:

عَلِّـلِ الـنفْسَ بالتـصَبُّرِ عَمّـا حظـرَ اللهُ تَحـظَ عنـدَ الكِـرامِ
سَـلْ مُحِبَّـكَ أن يواصـلكَ الدَّهـ ـرَ ففـي وصـلهِ شِـفاءُ الـسِّقامِ
ضَـمَّةٌ في الهـوى لحـبٍ ألـوفٍ هـي خـيرٌ مـن حِجّـةٍ كـلَّ عـامِ
أنـتَ فيمـا ذكـرتَ أفـضلُ مِمَّـنْ هـوَ في زُهـدِهِ بـأعلى لُكـامِ...»

والعجيب في الأمر أنّ المؤلِّف المتصوِّف لم يتردَّد في سوق عددٍ من هذه الحكايات الغرامية، مع تقديري أنه كان يدرك -كما يُدرك القارئ الكريم- أنّ هذه الحكايات ليست حقيقية، وإنما أبدعها شعراء لسرد قصص حكمية مشوِّقة تلقى إقبالاً من القرّاء الشباب، وإنها على الأكثر أُلِّفت بعد عصر سعيد بن المسيَّب ومحمد بن سيرين. إضافةً إلى أنّ هذين التابعين الجليلين اشتهرا بالزهد والعلم والفقه وبتعبير الرؤى، ولم يُعرف عنهما نظم الشِّعر. ولهذا كله فإنّ الفقيه الجليل ابن قيّم الجوزية كذَّبَ أمثال هذه الروايات أو تأوّلها.

وفي الباب الثاني والعشرين الذي يحمل عنوان «في ذكر مَن مات منهم عشقًا»، يذكر المؤلِّف الحكاية التالية:

«وروى جرير بن إسحاق الرافعي قال: كنتُ في مجلس بالرِّقة عند صديق لي: ومعنا فتًى يعشق مُغنية، وكانت المغنّية معنا في المجلس، فغنَّت فقالت:

عَلامةُ ذُلِّ الهوى   على العاشقين البُكا

ولا سِيما عاشِـقٌ   إذا لم يجـد مُشتكى

فقال الفتى: أحسنتِ والله، يا سيِّدتي، أفتأذنين لي أن أموت؟ قالت: مُتْ، فوضع رأسه وغمّض عينيه، فذهبنا نحرِّكه فوجدناه ميّتًا".

وهذه قصة أخرى نحسب أنّ أصحاب المواهب الإبداعية قد نسجوها من خيال خصب، وصاغوها بلغة جميلة، وحلّوها بشِعر حسن؛ ولكن الصنعة واضحة فيها. وأحسب أنّ المؤلِّف أورد هذه الحكايات المتنوعة، لأنه أراد أن يكون كتابه شاملاً لظاهرة الحب في جميع أنواعه ودركاته، الإلهي منه والإنساني، والأدبي.

أصل المحبة وأسبابها ودواعيها:

يرى المؤلّف أنّ أصل المحبّة هو الله جلّ جلاله، وسبب المحبة الرئيس هو الجمال. فالله أبدى معنى (الحُسن) فألبسه شخصًا سمّاه (حَسَنًا)، وجعل شخصًا يستحسِن ذلك الحُسن وسمّاه (المُستحسِن) وهو الذي أصبح مُحبًّا للحَسَن. وهكذا فـ(الحبّ) يقابل (الحُسْن)؛ و(المُستحسِن أو المُحبّ) يقابل (المُستحسَن أو المحبوب).

للحُسن فضائل بيِّنة، إذ حالما يرى الناس (الحَسَن) يحبّونه. ويروى عن الرسول ﷺ قوله: "ثلاثٌ يَزِدنَ في قوة البصر: النظر إلى الخضرة، والنظر إلى الوجه الحَسَن، والنظر إلى الماء الجاري". فالحُسن منّة من الله تعالى، فالحَسَن محبوب، لأنّ لديه الخير. فقد روي عن الرسول ﷺ: "اطلبوا الخير

عند حسان الوجوه". والخَلق يستمدّون الحُسْن من الحُسْن الكلِّي، وكلّما قربوا منه ازدادوا حُسنًا، وكلّما بعُدوا عنه ضعف حُسنهم ونقص.

ومن فضائل المحبة أنّ مَن يُحبّه الناس، يحبه الله تعالى، لقول الرسول ﷺ: "أحبّكم إلى الناس، أحبّكم إلى الله".

أنواع المحبّة:

يقسِّم المؤلِّف المحبَّة أو الحبَّ أو العشق إلى خمسة أنواع لخمسة أصناف من الناس:

- نوع إلهي لأهل التوحيد، ونوع عقلي لأهل المعرفة، ونوع روحاني لخواص الناس، ونوع طبيعي لعامة الناس، ونوع بهيمي لرُذّال الناس.

ويؤكّد المؤلِّف أنّ الحب الطبيعي قد يرتقي إلى منزلة المحبة الإلهية. وهذا الرأي يذكّرنا بما ورد في الفكر المسيحي: "مَن لا يعرف الحبّ، لا يعرف الله، لأنّ الله محبة" (**إنجيل يوحنّا**، ٧:٤-٨).

فضائل العشق:

يُفرد المؤلِّف فصلاً لفضائل الحبّ والعشق، ويورد أقوال بعض الحكماء في ذلك، مثل قول الأديب ثمامة بن الأشرس (ت ٢٢٥هـ) عن العشق، في محاورته مع قاضي القضاة الفقيه يحيى بن أكثم (ت ٢٤٢هـ) في مجلس الخليفة المأمون العباسي (ت ٢١٩):

"هو جليسٌ ممتع، وأليفٌ مؤنس، وصاحبٌ مالك، وملكٌ قاهر؛ مسالكه لطيفة، ومذاهبه متضادة، وأحكامه جائرة؛ يملك الأبدان وأرواحها، والقلوب وخواطرها، والعيون ونواظرها، والعقول وآرائها..."

ويرى المؤلِّف أنه إذا كان للمحبوب فضل الحُسْن، وللحُبِّ فضل ترويض النفس وتهذيب الأخلاق، فإنّ للمُحبِّ كذلك فضل القدرة على الحبّ، وامتلاء نفسه بالخير، كما قال الرسول ﷺ: "لا خير فيمن لا يَألف ولا يُؤلَف".

خاتمة:

وخلاصة القول إنّ هذا الكتاب من الأعمال الرائدة في تقديم نظرية المحبّة عند العرب والمسلمين بجميع أبعادها الإلهية والإنسانية والأدبية، بمنهجية سليمة وبلغة سلسلة بليغة. والمحققان الجليلان، الدكتور حسن الشافعي، والأستاذ جوزيف نورمنت بِل، اللذان تجمعت لهما غزارة العلم وعمق الخبرة وواسع التخصص في الفكر الإسلامي، قمينان بالتنويه والثناء المستحقَّين، لعملها القيّم المحكم الذي استغرق حوالي عشرين عامًا في تحقيق مخطوطة الكتاب، وضبط ألفاظها وتعبيراتها الاصطلاحية، وذلك بالرجوع إلى المصادر العربية والفارسية والإنكليزية والألمانية والفرنسية، ومقارنة مواد المخطوطة بالنصوص الموازية، وتيسير دراسة الكتاب للباحثين بتصديره بمقدّمة ضافية تناولت الموضوع والمؤلّف وتوجهات الفكر الإسلامي في عصره، وبتذييله بمجموعة من الفهارس المتنوعة المفيدة. ويستحق المحققان الجليلان الثناء مضاعفًا لترجمة الكتاب إلى اللغة الإنجليزية، وهو موضوع آخر سنعود إليه في مقبل الأيام إن شاء الله.

الهوامش:

* كاتب مجمعي عراقي مقيم في المغرب.

(١) en.wikipedia.org/wiki/symposium -(Plato

(٢) Joseph Norment Bell, Love Theory in Later Hambalite Islam (Albany: State Univ. of New York Press, 1979), 280 pages.

(٣) al-Daylami, **Le traité aylami mistique d'al-Daylami**. Trad.en français par Jean-Claude Vade (Geneva: Librairie Droz) ،١٩٨٠.

(٤) أبو الحسن علي بن محمد الديلمي، **عطف الألف المألوف على اللام المعطوف**، تحقيق: حسن محمود عبد اللطيف الشافعي وجوزيف نورمنت بل (القاهرة: دار الكتاب المصري ودار الكتاب اللبناني، ١٤٢٨هـ/٢٠٠٧م). وأشرنا إلى هذا الكتاب بكتاب "العطف".

(٥) Al-Daylami, A Treatise on Mystical Love. Edinburgh: Edinburgh Univ. Press, 2005.

لغة الكتابة[1] في نصوص البرديات العربية

بقلم: د. سعيد المغاوري محمد*

البرديات العربية سجلٌ وثائقيٌ فريدٌ يتضمن معلومات بالغة الأهمية عن جوانب مازالت غامضة في مجال التاريخ والحضارة والفكر والفنون والنظم والآثار والدراسات الإسلامية، هذا بالإضافة لمعلومات أخري هامة في مجال علم اللغة واللهجات خاصة لهجة المصريين وذلك منذ القرون الأولي للهجرة ١-٣هـ/٧-٩م.

وكما هو معلوم فإنّ نصوص البرديات العربية متعددة ومتنوعة الموضوعات فهي تشمل تقريبًا جميع نواحي الحياة في الدولة الإسلامية، منها علي سبيل المثال: إيصالات الجزية والخراج والعقود بشتى أنواعها "زواج - بيع - شراء - إيجار - عمل"، هاذ بالإضافة لكشوف العمال والأجراء والصناع والحرفيين، أيضًا هناك المكاتبات الديوانية والسير والمغازي والوصفات الطبية وبعض النصوص الأدبية وبعض الأحاديث النبوية الشريفة وآيات من القرآن الكريم وغيرها كثير يصعب حصره. وفي حالة واحدة فقط عثر على كتاب كامل كتب جميعه على أوراق من البردي يتكون من (١٩٩) صفحة، عثر عليه في منطقة تل أدفو وعنوانه: "**الجامع في الحديث**"

للفقيه المصري عبد الله بن وهب بن مسلم ١٢٥-١٩٧هـ/٧٤٣-٨١٣م[٢]، وهو محفوظ حاليًا في دار الكتب المصرية بالقاهرة برقم سجل (٢١٢٣-حديث)[٣].

والمتأمل في لغة الكتابة المنفذة في لفافات أوراق البردي العربي يلاحظ وجود سمات وملامح محددة بالغة الأهمية للطلاب والدارسين في مجال علم اللغة واللهجات وخاصة اللهجة المصرية.

أولاً- أسلوب الكتابة في البرديات العربية:

للكتابة على أوراق البردي أسلوب مميز يطلق عليه (خط التحرير المخفف) وهو نوع خاص من الخطوط العربية يتناسب مع طبيعة ورق البردي ذي الألياف الطويلة والعرضية[٤] وهو خط مستدير بطبعة تؤدّى به الأغراض اليومية السريعة، وهو أيضًا خط قائم بذاته ليس اشتقاقًا من الخط الكوفي الثقيل[٥]؛ لأنه أقدم وجودًا منه في الكوفة، ويتميّز بأنه خط مدوّر سريع الإنجاز[٦]؛ وذلك لأنّ ورق البردي كانت تكتب فيه المعاملات والمكاتبات اليومية الصادرة عن دواوين الدولة بداية من عهد الخلفاء الراشدين حتى نهاية عهد الدولة العباسية وكانت تكتب فيه أيضًا مراسلات الخلفاء للولاة والعمال ورجال الشرطة ومكاتبات الفقهاء والقضاة... وغيرها، هذا بالإضافة للمراسلات اليومية بين عامة الشعب لقضاء الحوائج وشراء السلع والمتطلبات اليومية وغيرها.

ويلاحظ أنّ العديد من نصوص البرديات العربية كتبت بلغتين وأحيانًا أخرى بثلاث لغات وهي اللغة اليونانية[٧] وهي لغة الحاكم البيزنطي،

والثانية اللغة القبطية[٨] وكانت لغة عامة الشعب المصري. والثالثة اللغة العربية – لغة العرب الفاتحين.

وتجدر الإشارة إلى أنّ اللغة اليونانية كان لها تأثيرات قوية في اللغة القبطية تبين ذلك من خلال ظهور العديد من الألفاظ والحروف اليونانية بها[٩].

أمّا بالنسبة للغة العربية فقد أصبحت لها السيادة بعد سنوات الفتح الأولي لمصر، وذلك بعد أن تضاءل استخدام اللغتين اليونانية والقبطية ويعلل المؤرخ ابن خلدون ذلك بقوله:

"أنّ الناس تبّع للسلطان وعلى دينه، فصار استعمال اللسان العربي من شعائر الإسلام وطاعة العرب، وهجرت الأمم لغاتها وألسنتهم في جميع الأمصار والممالك، وصار اللسان العربي لسانهم حتى رسخ ذلك لغة العرب في جميع أمصارهم وصارت الألسنة الأعجمية دخيلة فيها وغريبة"...[١٠].

جدير بالذكر أيضًا أنّ اللغة العربية كانت معروفة ومنتشرة في مصر قبل الفتح العربي وذلك بسبب وجود العديد من القبائل العربية في عدد من أقاليم مصر وخاصة الوجه القبلي، فقد أشارت بعض المصادر العربية أنه كانت هناك علاقات تجارية بين مصر والجزيرة العربية قبل الإسلام، وذلك عن طريق البحر والبر، حتى إنّ مدينة غزة كانت تعدّ مركزًا تجاريًّا هامًّا، وكانت تعتبر ملتقًى رئيسيًّا للتجار العرب والمصريين يتمّ فيه عقد الصفقات التجارية بين مصر والجزيرة العربية[١١].

أيضًا أشار المؤرخ المقريزي إلى العديد من الهجرات العربية إلى أرض مصر عن طريق سيناء والبحر الأحمر وغيرها من السواحل المصرية. ومن القبائل العربية التي ذكرها المؤرخ المقريزي: قبائل كهلانية من عرب الجنوب وهي قبائل عربية ذات أصل قحطاني، هذا بالإضافة لقبائل أخرى من طيئ ومن بلي وبطون من خزاعة... وغيرها[١٢].

مما سبق ذكره يتبين لنا أنّ اللغة العربية كانت معروفة في مصر قبل الفتح العربي.

وفي أعقاب الفتح العربي وبالتحديد قبل نهاية الربع الأول من القرن الأول[١٣] الهجري أقبل العديد من الأقباط على تعلّم اللغة والكتابة العربية وذلك للحفاظ على استمرار أعمالهم في الدواوين، وهناك عدد كبير من الأقباط رغب في تعلّم اللغة والكتابة العربية بعد أن وفّقه الله تعالى ودخل الدين الإسلامي. وفي هذا الخصوص يذكر المؤرخ الكندي إقبال عدد كبير من الأقباط المصريين على اعتناق الدين الإسلامي في ولاية حفص بن الوليد[١٤] ١٢٤-١٢٨هـ/٧٤١-٧٤٥م، وكان من جراء دخولهم الدين الإسلامي إقبال عدد كبير منهم تعلّم اللغة والكتابة العربية لأداء شعائر الدين الإسلامي ومنها فريضة الصلاة... وغيرها[١٥].

ويلاحظ أنّ الأقباط عندما بدأوا في تعلّم اللغة والكتابة العربية كتبوها أولاً بحروف قبطية حتى يسهل عليهم إتقانها وتجويدها فيما بعد. والدليل على ذلك ما تم العثور عليه من قطع أوراق كانت في مجلد بدير الأنبا مقار السرياني ببرية شيهات في وادي النطرون[١٦].

ثانيًا– السمات المميّزة للغة الكتابة في نصوص البرديات العربية:

هناك العديد من السمات المميزة للكتابة في نصوص البرديات العربية، وهي في واقع الأمر سمات فريدة تشكلت من جراء احتكاك لغة ولهجات القبائل العربية التي وفدت إلى مصر قبل الفتح وبعده، هذا بالإضافة لتأثيرات أخرى من اللغة اليونانية والقبطية... وغيرهما.

ويلاحظ أنّ العديد من هذه السمات بالغة الأهمية في مجال علم اللغة نظرًا لوجود عدد من المفردات اللغوية واللهجات المصرية والعربية، هذا بالإضافة لشيوع بعض الاختصارات في نصوص البرديات العربية وكذلك بعض الظواهر الإملائية وانتشار ظاهرة الحذف والدمج والإحلال والتركيب بالأعداد... وغيرها كثير.

جميع هذه السمات وغيرها حملتها طيات نصوص بعض البرديات العربية ومنها:

١- استعمال العديد من الكلمات اليونانية والفارسية والقبطية في العديد من نصوص البرديات العربية منها على سبيل المثال كلمة "سفتجة" بمعنى "إيصال"، وكلمة "سفتجة" فارسية الأصل وردت في العديد من نصوص إيصالات الجزية والخراج(١٧). أيضًا ورد في نصوص بعض البرديات العربية كلمة "تليس" بمعنى "زكيبة" أو "كيس كبير" قيل إنّ أصلها قبطي(١٨)، ومنها أيضًا ورود كلمة "جسطال" أو "قسطال"(١٩) في العديد من نصوص وكشوفات أوراق البردي، وهي كلمة يونانية بمعنى حاكم مقاطعة أو مديرية... وغيرها من الكلمات.

٢- ظهور العديد من اللهجات المصرية في عدد كبير من نصوص البرديات العربية، ومنها:

أ- اختفاء حرف (الهاء) من اسم الإشارة (هذا)، فنقرأ على سبيل المثال (كيل دا عن نفسه[٢٠]) وعبارة (مرقورة دا عن نفسه)، وفي واقع الأمر إنّ مثل هذه الظاهرة موجودة في العديد من لهجات البلدان العربية مثل سلطنة عُمان وشمال أفريقيا "ماعدا تونس". وفي هذا الخصوص ذكر عالم النحو سيبويه أنّ الهاء ليست جزءًا من اسم الإشارة وإنما حرف تنبيه[٢١].

ب. يلاحظ استعمال كلمة "إيش" بمعنى "أي شيء"[٢٢] وهي في الواقع من التأثيرات العربية الأصلية في نصوص لغة الكتابة في البرديات العربية.

ج- اختفاء حرف الألف في العديد من الكلمات[٢٣] بعض النصوص مثل "ياخي" بدلاً من كلمة "يا أخي" وكلمة "مره" بدلاً من "امرأة".... وغيرها.

٣- اختفاء حرف الهمزة في جميع نصوص البرديات العربية تقريبًا وذلك تخفيفًا لنطقها، وهي في واقع الأمر ظاهرة لغوية وفدت إلى مصر مع القبائل العربية الحجازية زمن الفتح العربي، وفي هذا الخصوص يشير صاحب كتاب "**المباني في نظم المعاني**" بقوله:

"فأمّا الهمز فإنّ من العرب من يستعمله وهم قبائل تميم ومن يوافقها في ذلك، ومنهم من يقلّ استعمالهم له وهم قبائل هذيل وأهل الحجاز[٢٤]".

٤- اختفاء واو العطف[٢٤] في العديد من نصوص البرديات العربية مثل ورود عبارة "مئة ستة وأربعون درهم"، وفي هذا الخصوص يذكر الدكتور عبد المحسن بكير أنه لا توجد أداة عطف في اللغة المصرية القديمة بل تأتي

الكلمات المعطوفة بعضها يتلو البعض الآخر، وذلك بغرض التخفيف من تكرار الواوات في السطر الواحد.

٥- انتشار ظاهرة الحذف والدمج[٢٦] في نصوص بعض البرديات ومنها على سبيل المثال: حذف حرف الألِف المتوسطة في كلمة "عثمان" فكانت تكتب (عثمن)، وكلمة "أهناس" كانت تكتب (أهنس)، أمّا ظاهرة الدمج ويقصد بها دمج كلمتين ببعض كما في كلمتي (نصف وثمن) فكانت تكتب (نصفثمن) وكلمتي (جعلت فداك) كانت تكتب (جعلتفداك)... وغيرها.

٦- شيوع ظاهرة الإحلال في عدد من كلمات نصوص البرديات العربية منها على سبيل المثال إحلال حرف (التاء) محل حرف (الثاء) كما في كلمة "ثلاث" كانت تكتب "تلات" وكلمة "تمن" محل كلمة "ثمن"[٢٧] وغيرها.

٧- ظهور العديد من التراكيب الخاصة بالأعداد، وكان يشيع فيها تعريف العدد وتنكير المعدود، وهو ما يعتبره علماء اللغة العربية من الأخطاء المخالفة لما في قواعد اللغة العربية، فنقرأ على سبيل المثال هذه العبارات في نصوص بعض البرديات العربية مثل[٢٨]: "العشرة دنانير" "والعشرة الدنانير"، وعبارة "سبعة عشر جرة" وعبارة "اثني عشرة ليلة"... وغيرها.

٨- انتشار ظاهرة حذف (النون) من كلمات (من) و(عن) إذا وليهما حرف ساكن. ومن أمثلة هذه الظاهرة في نصوص برديات العربية كلمات (مالبيت) و(عالبيت) بدلاً من عبارات (من البيت) و(عن البيت)[٢٩].

٩- شيوع ظاهرة الإبدال في العديد من نصوص البرديات العربية ومنها على سبيل المثال[٣٠]:

أ- إبدال حرف (الظاء) ضادًا كما في كلمة (احفض) بدلاً من كلمة (احفظ).

ب- إبدال حرف (الضاد) طاء كما في كلمة (محطره) بدلاً من كلمة (محضره)[٣١].

ج- إبدال حرف (الياء الأخيرة) أَلِفًا كما في كلمة (نصارى) كانت تكتب (نصارا).

١٠- شيوع ظاهرة استخدام لفظَتَيْ (قبلي وبحري)[٣٢] في مقابل لفظَتَيْ (جنوبي وشمالي)، وذلك عند التحدث عن وصف حدود الأراضي والمنازل والعقارات في وثائق الوقف والبيع والشراء والإيجار... وغيرها.

الهوامش:

❖ أستاذ الآثار والحضارة الإسلامية- جامعة المنوفية- عميد كلية السياحة والفنادق جامعة المنوفية- الأسبق- جمهورية مصر العربية.

(١) الكتابة في اللغة مصدر كتب، فيقال مثلاً يكتب كتابة وكتبة وكتابًا وكتيبة ومعناها: الجمع، أو يقال كتب القوم إذا اجتمعوا، ومنه قيل لجماعة الخيل كتيبة.
انظر في ذلك:
(الجوهري) إسماعيل بن حماد، (ت ١٠٠٨هـ/١٥٨٩م): **تاج اللغة**، تحقيق أحمد عطار، ج١ ص٢٠٨، طبع دار الكتاب اللبناني، بيروت.

(٢) هذا المخطوط النادر نشره المعهد العلمي الفرنسي للدراسات الشرقية بالقاهرة
J. David Weill: Le Djami, Ibn Wahb (Text. Planches et Commentaire I.F.A.O) Cairo, 1939–1948.

(٣) يلاحظ أنّ أوراق المخطوط متساوية الأبعاد، والنصوص المنفذة مكتوبة على الوجه Recto فقط بينما الظهر Verso خالي من الكتابة.

(٤) في طبيعة ورق البردي وخاصية زراعته ونموّه في مصر انظر:

فيفي تاكهلم ومحمد دراز: نباتات مصر. نشرة كلية العلوم جامعة القاهرة، رقم ٢٨، طبعة القاهرة، سنة ١٩٩٥م.

(٥) د. إبراهيم جمعة: **دراسة في تطوير الكتابات الكوفية**، طبع دار الفكر بالقاهرة، سنة ١٩٦٩م.

(٦) هناك بعض الباحثين والمستشرقين ذكروا أنّ وجود خط التحرير المخفّف في معظم نصوص البرديات العربية - يعد داحضًا قويًّا للنظرية القائلة بأنّ ابن مقلة (أبو محمد ابن مقلة) ٢٧٢-٣٢٨هـ/٨٩٢-٩٤٨م هو مخترع خط النسخ والخط اللين أو المستدير، ولكن نصوص البرديات العربية سبقت هذا التاريخ حيث أثبتت الدراسات أنّ أقدم بردية عربية وهي بردية أهناسيا المؤرخة في شهر جمادى الأولى سنة ٢٢هـ أنّ خط التحرير المخفّف قد ورد في كل سطورها انظر:

De, Slane: Rise of the North Arabic Script, p. 34

(٧) اللغة اليونانية أطلق عليها العرب اللغة الرومية، وكان العرب يسمّون اليونان (الروم) انظر: جورج صبحي: **قواعد اللغة المصرية القبطية**، طبع المعهد العلمي الفرنسي بالقاهرة، سنة ١٩٥٢م، ص٦.

(٨) القبط، الأقباط: اسم أعطاه العرب للمصريين قبل الفتح وبعده وهناك عدد من الأحاديث النبوية الشريفة ورد بها اسم القبط منها ما رواه الإمام مسلم بن الحجّاج في كتابه: **صحيح الإمام مسلم**، "كتاب الفضائل" (باب وصية الرسول بأهل مصر) طبع عيسى البابي الحلبي، ج٢ ص٣٧٤ القاهرة ١٣٤٩هـ.

(٩) أورد بعض المستشرقين العديد من الألفاظ والحروف اليونانية المنتشرة في بعض كلمات اللغة القبطية. ومنهم الباحث.

Quatremere: Recherches sur la Langue et la Littérature de L´Egypte–Paris, 1880. P.5.

(١٠) ابن خلدون (عبد الرحمن بن محمد) ت ٨٠٨هـ/١٤٠٦م، **المقدمة** - المطبعة البهية بالأزهر - القاهرة - ١٢٨٣هـ.

(١١) د. جمال الدين الشيال: **تاريخ مصر الإسلامية**، ج١ - دار المعارف ١٩٦٧م ص٥.

(١٢) المقريزي (تقي الدين أحمد بن علي) ت ٨٤٥ هـ/١٤٤٧م: **البيان والإعراب عمّا بأرض مصر من الأعراب**، تحقيق د. عبد المجيد عابدين، ج١، طبع القاهرة، سنة ١٩٦١م.

(١٣) انظر في ذلك بردية أهناسيا المؤرخة شهر جمادى الأولى سنة ٢٢هـ/٦٤٢م المحفوظة في المكتبة الوطنية بالنمسا - مجموعة الأرشيدوق راينر وموضوعها "إيصال باستلام أغنام لإطعام جنود المسلمين" ولقد كتبت بلغتين عربية ويونانية.

(١٤) الكندي (ابن عمر محمد بن يوسف الكندي المصري) ت ٢٥٠هـ/٩٤٦م: **الولاة والقضاة**، طبع بمطبعة الآباء اليسوعيين- ببيروت- لبنان - ١٩٠٨م ص٨٢-٨٣.

(١٥) أ. س. ترتون: **أهل الذمة في الإسلام**، ترجمة حسن حبشي- طبع القاهرة سنة ١٩٦١م، ص٨٣.

(١٦) هذه الأوراق وجدت بها العديد من الكلمات والحروف العربية منفذة بحروف قبطية، وهي محفوظة حاليًا في المتحف القبطي بالقاهرة.

انظر: د. جورج صبحي: **قواعد اللغة المصرية القبطية**، طبع المعهد العلمي الفرنسي بالقاهرة - سنة ١٩٥٢م، ص١٢.

(١٧) وردت هذه الكلمة في العديد من نصوص إيصالات الجزية والخراج، إحداهما محفوظ في دار الكتب المصرية بالقاهرة برقم سجل (١٦٧) مؤرخ بعام ٣٤٦هـ/ ٩٥٨م.

(١٨) هذه الكلمة فسّرها ابن منظور وذكر بأنها: "وعاء كبير يسوي من الخوص يشبه القفعة وهي شبه العيبة التي تكون عند العصارين".

أيضًا ذكرها الباحث القبطي أقلوديوس لبيب في كتابه: **مجموعة الألفاظ القبطية المتداولة باللهجة العربية العامية**. وذكرها كذلك الباحث القبطي جورج صبحي في كتابه:

Sobhy.G: "Common Words in the Spoken Arabic of Egypt of Coptic Origin". Cairo. 1950.

(١٩) ذكر الدكتور أدولف جروهمان أنّ هذه الكلمة معناها حاكم مقاطعة أو مديرية أصلها يوناني أو لاتيني:

Grohmann. A: "Griechische und Latinische Verwaltungstermini in Arabischen Agypten Chronique d'Egypte XIII/XIV, 1932, p. 238.

(٢٠) انظر في ذلك **البردية العربية** المحفوظة في دار الكتب المصرية بالقاهرة – برقم سجل (٢١٧) والتي تنسب للقرن ٣هـ/٩م.

(٢١) د. أحمد مختار عمر: **تاريخ اللغة العربية في مصر**، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر بالقاهرة ١٣٩٠هـ/١٩٧٠م، ص١٤-١٥.

(٢٢) د. أحمد مختار عمر: نفس المرجع السابق ص١٣٩.

(٢٣) انظر في ذلك **البردية العربية** المحفوظة في متحف اللوفر بباريس بفرنسا برقم سجل (P.Louvere.inv.E6864) والتي نشرها الباحث.

Yusuf Ragib: Marchands D'étoffes du Fayyoum au III/IX pp. 40-44.

(٢٤) د. رمضان عبد التواب: **لغة البرديات العربية في مصر في العصور الإسلامية الأولى وعلاقتها بالحضارة العربية**، مركز الدراسات البردية والنقوش، جامعة عين شمس بالقاهرة، ١٩٩٣م، ص٣٩١.

(٢٥) د. عبد المحسن بكير: **قواعد اللغة المصرية في عصرها الذهبي**، الطبعة الأولى، القاهرة، ص١.؟

(٢٦) انظر في ذلك **البردية العربية** المحفوظة في دار الكتب المصرية بالقاهرة - برقم سجل (٩٩) وهي مؤرخة بعام ٢٣٦هـ/٨٥١م - السطر الرابع.

(٢٧) يروى أنّ عرب خيبر كانت تنطق (التاء) عوضًا عن (الثاء). د. عبد المجيد عابدين: **من أصول اللهجات العربية في السودان**، طبعة أولى، سنة ١٩٦٦م، ص٤٩.

(٢٨) انظر في ذلك **البردية العربية** المحفوظة في دار الكتب المصرية بالقاهرة - برقم سجل (١٨٧١) مؤرخة في شهر صفر سنة ٢٣٣هـ/٨٤٧م.

(٢٩) تجدر الإشارة إلى أنّ هذه الخاصية من خواص قبائل خثعم وزبيد وهي من قبائل كهلان اليمنية، د. أحمد مختار عمر: المرجع السابق ص١٣٨.

(٣٠) انظر في ذلك **البردية العربية** المحفوظة في دار الكتب المصرية بالقاهرة - برقم سجل (٢٨٦) والتي تنسب للقرن ٣هـ/٩م موضوعها: "خطاب بدفع الأموال".

(٣١) انظر في ذلك **البردية العربية** المحفوظة في دار الكتب المصرية بالقاهرة - برقم سجل (١٧٤٢ب) وهي مؤرخة في عام ٢٤٩هـ/٨٦٤م.

(٣٢) ربما كان ذلك راجعًا لطبيعة الأرض المصرية التي يحدّها من الشمال البحر، ومن الجنوب جهة القبلة. وفي هذا الخصوص يشير المؤرخ المقريزي بقوله:

"أنّ أهل مصر يستعملون في تحديدهم بدلاً من الجهة الجنوبية لفظة القِبْلية، ويقولون الحد القِبْلي ولا يقولون الحد الجنوبي، وكذلك ويقولون الحد البحري ويريدون الشمالي....".

انظر: د. أحمد مختار عمر: المرجع السابق ص١٣٦.

موقف الباحثين

من

استشهاد عبد القاهر الجرجاني بالقرآن الكريم

في كتاب "دلائل الإعجاز"

دراسة وتحليل

(٢)

بقلم: د. هارون المهدي ميقا*

كان الشيخ يؤسس لعلم يَقِفُك على طرائق إدراك إعجاز القرآن عامّة، ووسائله ودلائله، وليس على القارىء -بعد أن يعرفها- إلا أن يطبقها بنفسه في أيّ آية من القرآن. وفي هذه الطريقة احترام لعقل القارىء ودينه، وتقوية ثقته ويقينه، وزيادة علمه؛ بتعويده على البحث والمدارسة، واستقصاء الشاهد والدليل، والاستنباط، بدلاً من حفظ الدليل وتقليد غيره فيما توسَّل إليه[1]. أليس هو القائل: «واعلم أنّه ليس إذا لم تُمْكِنْ معرفةُ الكلّ، وجب تركُ النّظر في الكلّ. وأن تَعرف العلّة والسبب فيما يُمكن معرفةُ ذلك فيه وإن قلّ فتجعله شاهدًا فيما لم تعرف أحرى مِنْ أن

تسُدَّ باب المعرفة على نفسك، وتأخذها عن الفهم والتَّفهُّم، وتعوِّدها الكسل والهُوينا»[٢].

ليس عبد القاهر بِدْعًا -وإن فاق غيره- في جَعْلِ معرفة الشِّعر وإجادة نقده وحسن تذوُّقه، دليلاً ووسيلة لإدراك الإعجاز وحسن تذوّقُه؛ لأنّنا نجد إشارات إليه قبله؛ فقد قال ابن قتيبة (ت ٢٧٦هـ): «وإنّما يعرف فضل القرآن مَن كَثُر نظرُه، واتسع علمُه، وفَهِم مذاهب العرب وافتنانها في الأساليب، وما خصّ الله به لغتها»[٣].

وأبو بكر بن الطيّب الباقلاني (ت ٤٠٣هـ) الذي لم يكتب كتابًا في النقد وإنّما في إعجاز القرآن، ومع ذلك فإنّه في كتابه «يُحدِّد علمَ ومعرفةَ وعمقَ ثقافةِ مَن يتكلَّم في الإعجاز. وأنّه لا يرتقي إلى الحديث في الإعجاز إلاّ إذا تناهى في معرفة عِلم الشِّعر ونقده»[٤]، بل شدَّد وبالغ حين طالَبه بتمييزٍ دقيق ومتناهٍ بين مذهب كلّ شاعر أو كاتب ومذهب غيره، وما ذلك إلا لأنّ القضية التي سيتكلّم فيها هي القضيّة الأمُّ في حياة البشر كلّهم[٥].

فكيف يصح القول بأنّ عبد القاهر أخذ دلائل الإعجاز من خارج القرآن؟؟!! وكيف تصح تهمة «قصور عبد القاهر نفسه في الاستشهاد بالآيات القرآنية، وفي عدم تفسيره، وبدليل أنّ الزمخشري الذي أراد تطبيق تلك الأدلّة في القرآن كلّه تمكَّن منه في تفسيره، وقد عُدَّ علمه هذا دراسَّة تطبيقيَّة لجهد عبد القاهر في رسالته ودلائله وأسراره»[٦]؟؟!!!

ممَّا أسهم في اتهامه بقلّة الشواهد القرآنية[٧]:

- عَـدُّ رسـائل وتعليقـات كتبهـا مـستقلّة عـن دلائـل الإعجـاز ضـمن فصوله، ثمّ محاسبته على قلّة الـشواهد القرآنيـة في هـذه الرسـائل والتعليقـات إضافة إلى ما ورد في أصل الكتاب الذي تمَّ بـ(ص٤٧٨) من نسخة شاكر.

- عَدُّ كثير من الأبيات التي ذكرها قبل الشاهد أو بعده عـدُّها شـواهد، والصواب أنّها إمّا تمهيد للشاهد أو دعم لـه حيـث تـأتي بعـده. والغـرض من هذا المنهج إمّا تهيئة النفس لتلقِّي ما في الشاهد مـن جمـال والاقتنـاع به، أو تـصوير المعنـى جملـة، أو توضـيح بيـت الـشاهد؛ بـسبب ضـمير ونحوه في بيت الشاهد مرجعُه في غيره. يتبيَّن ذلـك عنـد تحليلـه للمعنـى، فقد يشرح بيت الشاهد وغيره، وقـد يـذكر الـشاهد وحـده، وعندئـذ لا يخلو الأمر -غالبًا- من مقدَّمة نثريّة، جملة أو أكثر. وليس الأمر كذلك في أغلب الشواهد القرآنية، حيـث يُكثِر مـن ذكـر مـوطن الـشاهد فقـط. ومن غير الأغلب في شواهده ما جاء في بعض المواطن[٨].

جدول (١) عدد الأبيات التي يذكرها مع بيت الشاهد[٩]

الصفحات من طبعة شاكر	عدد الأبيات
٥٧	٢
٧٥	١
٧٦-٧٧	٢
٧٨	١
٨٥	١

٨٦	١
٨٩	١
٩٠	٤
٩١	٥
٩٢	١
١١٩	١
١٤٦	٢
١٤٨	٤
١٤٩	٢
١٥٠	٥
١٥١	٢
١٥٢	٣
١٥٨	١
١٦٦	١
١٧١	١
١٧٦	١
١٨٤	٢
٢٠٨-٢٠٧	١
٢٠٩	١
٢١٠	١

٢٣٦	١
٢٣٧	١
٢٣٨-٢٣٩	١
٢٤٤	١
٢٧٤	٢
٢٧٧	٢
٢٨٢	١
٢٩٧	١
٢٩٨	٢
٣٠٩	٢
٣١٣	١
٣١٤	١
٣١٨	٢
٣٢٥	١
٤٦٢	٢
المجموع	٦٨ بيتًا

فإذا أضفنا هذه الأبيات (٦٨) بيتًا، إلى تلك التي وردت فيما ارتأينا أنّه باب تمهيدي للكتاب ولدلائل إعجاز القرآن[١٠] وعددها (١٢٦) بيتًا، صار العدد (١٩٤) بيتًا. ومن الضرورة مراعاة أنّ بعض الأبيات مكرَّرة، وبعضها يُذكَر مع بيت الشاهد (حوالي ٢٦٤ بيتًا في الصلب)، أدركنا يقينًا

-عند ذلك كلّه- ما في رمي الجرجاني بقلّة شواهده القرآنية من غلوٍّ، بل ضيم، وتعجُّل في إصدار حكم من غير تمحيص وتثُّبت، وإلا كيف يفسَّر وصول شواهده القرآنية حوالي (٢٤٨) آية، بعضها مكرَّرة (مرّتين أو ثلاث أو أربع أو ستّ)[١١]؟ واقتصاره -تارة- على الاستشهاد بالآيات القرآنية فقط من غير ذِكر بيتٍ واحدٍ، وذلك في مواطن يصف فيها النظم بـ"عِظَم الشأن"[١٢]، وتارة للتقعيد[١٣]؟

والغريب -حقًّا- أن يفوت هذا الأمر على مَنْ آخذ عبد القاهر بالإكثار من الشواهد الشعريّة، وهو أبين ما يكون، ومرجع الغرابة إغفال ثلاثة أمور، أحدها: أنّ عبد القاهر كثيرًا ما يقرن الشاهد بغيره، وكان بِمُكْنَته أن يكتفي بذكر ما يوضِّح الشاهد من كلامه هو بمقدَّمة نثريّة، جملة أو أكثر، كما فعل في بعض المواضع.

والثاني: أنّ عبد القاهر إنّما ذَكر غير الشاهد -في المواضع التي ذكرها فيها- انطلاقًا من نظريّة النظم ومكانته في بيان المعنى، وتلك القضيّة مدار الكتاب كلِّه والأساس في إدراك الإعجاز.

والآخَر: أنّ عبد القاهر إنّما كان تركيزه على الوسائل والدلائل الخارجية للحاجة التي سبقت الإشارة إليها[١٤].

يؤيد الأمور السابقة الأبياتُ المفردة الكثيرة التي استشهد بها؛ إذ يُدرَك موطنُ الشاهد من غير ذِكر آخر قبله أو بعده[١٥].

إنّ القضية الأساس ليست في كثرة الشواهد وقلّتها، بل في الإكثار من التحليل، وفي منهجية التعامل مع الشاهد أوعدمهما؛ ذلك أنّنا نجد السكاكي

قد عُنِي عناية فائقة بالشاهد القرآني وأكثر منه، فاستشهد بما يزيد على خمس مئة (٥٠٠) آية في القسم البلاغي من كتابه "**مفتاح العلوم**"، ولم تشفع هذه الكثرة للسكاكي من اتهامه بتحويل البلاغة إلى مادّة جافّة، وشواهدُ عبد القاهر من الآيات في كتابيه "**دلائل الإعجاز**" و"**أسرار البلاغة**" إنَّما تقارب نصف شواهد السكاكي، يقول د.العطوي: «ومع هذا كله لم تشفع هذه الكثرة من الشواهد القرآنية في رفع اللوم عنه [السكاكي] فيما يخصُّ جفاف الأسلوب وطغيان المنطق؛ لأنّ الأمر ليس مردّه إلى كثرة الشواهد -فحسب- بل إلى طريقة التعامل معها وهو الأهمّ»[١٦].

وكذلك الخطيب القزويني لا تنقصه كثرةُ الشواهد القرآنية؛ إذ يفوق فيها عبد القاهر والسكاكي؛ فهي تزيد عنده على ست مئة (٦٠٠) آية[١٧]، ومع ذلك اتُّهِم بمثل ما اتُّهِم به السكاكي أو بقريب منه!!!

أمر آخر غريب -أيضًا- وهو إغفال المدخل الذي جاء مستقلاً في المطبوعات (نسخة رضا، وشاكر) عن الكتاب، وقد بلغ ثماني صفحات، بعنوان: "المدخل في دلائل الإعجاز، من إملائه، تأليف عبد القاهر الجرجاني"، وفيه (٨) آيات و(٢٣) بيتًا من شِعره هو!!! سيأتي بيان صلتها القويّة بقضيّة النظم التي فصَّل القول فيها، وحلَّل، واستشهد.

منهج عبد القاهر في الاستشهاد بالآيات وبالأبيات:

اتّبع عبد القاهر منهجًا في الاستشهاد بالآيات القرآنية، يتمثّل في ثلاثة أمور:

– الاستشهاد إمّا بشِعر أو بنموذج نثريّ ثمّ إردافه بآية[١٨]. لعلّ سبب تقديمهما على الآيات –هنا– هو اتباع طريقة التعليم وشرح القاعدة؛ إذ يُبدَأ فيها بأسهل مثال وأقربه تناولاً، ثم يُنتَقَل إلى الأعلى.

من الأدلة على ذلك العناوينُ التي قد يُقَدِّم بها للآيات أو يذكرها بعدها، من نحو: «وهل تشك إذا فكَّرت في قوله تعالى....أنّك لم تجد من المزية الظاهرة»[١٩]، «ومِنْ دقيق ذلك وخَفيِّه أنّك ترى الناس إذا ذكروا قوله تعالى: ... »[٢٠]، «ونَظيرُ هذا في التنزيل قولُه ﷻ...»[٢١]، «بَيِّنُ ذلك قوله تعالى...»[٢٢]، «وإذ قد عَرفتَ هذا فممَّا هو من هذا الضرب قوله تعالى...»[٢٣]، «ومِن أجْل ذلك قُدِّم غَيرُ في قوله تعالى...»[٢٤]، «وكذلك الحكم في قوله تعالى...»[٢٥]، «وأَبْيَنُ من الجميع قوله تعالى...»[٢٦]، «ويدل على صحة ما قالوه أنّا نعلم ضرورة في قوله تعالى...فخامة وشرفا وروعة»[٢٧]، «فهذا مِن أبين شيء»[٢٨]، «وإنْ أَردتَ أنْ تَزداد تبيُّنًا لهذا الأصل...فانظُرْ إلى قوله تعالى...»[٢٩]، «ومجيء المشيئة بعد لو وبعد حرف الجزاء هكذا موقوفةً غيرَ مُعَدَّاة إلى شيء، كثيرٌ شائع، كقوله تعالى...»[٣٠]، «ولهذا الذي ذكرنا مِنْ أنَّ للتصريح عملاً لا يكون مثلُ ذلك العمل للكناية، كان لإعادة اللفظ في مثل قوله تعالى...»[٣١]، «وإذا أردتَ أن تَعتبِره حيثُ لا يخفى أنّ أحدهما لا يصلح في موضع صاحبِه فانظر إلى قوله تعالى...»[٣٢]، «ومِنْ ذلك قوله تعالى...»[٣٣]، «وعليه التنزيل والكلام، ومثاله من التنزيل قوله ﷻ...»[٣٤]، «ومِن الواضح البيِّن في هذا

المعنى قوله تعالى...» [٣٥]، «ومِنَ اللطيف في ذلك قوله تعالى...» [٣٦]. «أوَ لا ترى إلى قوله تعالى...» [٣٧].

- الاستشهاد بالآية مباشرة أي من غير تمهيد لها[٣٨]. لعلّ سبب الاكتفاء بها -فحسب- هو وضوح القضيّة التي يتحدَّث عنها، ووضوح موطن الاستشهاد لها من الآية. لكنّه قد يردفها بشِعر أو بنثر، أو بتحليل، وقد تأتي غُفْلاً منها. فإن أردفها بشِعر كان السبب -فيما يبدو لي- التوضيح والتأكيد[٣٩]، وإن أردفها بنثر وتحليل فللشرح والإيضاح[٤٠]، أو تركها غُفْلاً من تحليل؛ فاكتفاء بما سبق قوله في شاهد أو أكثر، أو ترغيبًا للقارئ في التدرُّب على حسن التذوُّق وتنمية القدرات الاستنباطية.

-الاستشهاد إمّا بشعر فقط، أو بمثال من عنده أو من كلام العرب، أو بهما معًا: الشِّعر أوّلاً ثم المثال فقط، أو المثال أوَّلا ثم الشِّعر. هذان النوعان من الاستشهاد هو الأكثر لديه[٤١]). قد يكون لعدم الاستشهاد بآية -هنا- أسباب منها: عَدمُ وقوفه على شاهد من القرآن، كما في "مثل وغير" في معناهما الكنائي لا التعريضي، أو لأنَّ الحديثَ عن عيوبٍ بلاغية وأخطاءٍ وَقَع فيها الشاعر[٤٢]، أو لأنّ في الأبيات أو البيت غُنيةً في فهم الفنّ البلاغي وفي حسن تذوُق الدليل والوسيلة إلى إدراك الإعجاز؛ إذ جاء البيت أو المثال على درجات المرتبة العليا من مراتب الكلام البليغ ذي النظم الدقيق، وهو الذي يحتاج إلى صنعة وفكر ورويَّة. فالدرجة الدنيا هي التي لا تَظهَر لك المزيَّة والحسن إلا بعد استيفاء عِدّةِ أبيات ينظم بعضها إلى بعض، ويكون معناك معنى لا يحتاج إلى صنعة وفكر ورويّة.

والدرجة الوسطى هي التي لا تُدرِك مِنْ أوَّل بيت أو من بيت واحد -فقط- تمكُّنُ قائله، وطولُ باعه، وأنّه شاعرٌ فَحْلٌ، وأنّ شِعرَهُ «هو الشعر الشاعر، والكلام الفاخر، والنمط العالي الشريف، والذي لا تجده إلا في شِعر الفحول البُزَّل، ثم المطبوعين الذين يُلهَمون القول إلهامًا» وقد تحتاج إلى استقراء عدّة قصائد والتنقيب في ديوان الشاعر حتى تجمع منه عدّة أبيات[٤٣].

والدرجة العليا هي التي فيها يَتَّحِد أجزاء الكلام، ويَدخل بعضُها في بعض حتى يوضع وضعًا واحدًا «وأن تحتاج في الجملة إلى أن تضعها في النفس وضعًا واحدًا، وأن يكون حالُك فيها حالَ الباني يضع بيمينه ههنا في حالٍ يضع بيساره هناك... وليس لما شأنه أن يجيء على هذا الوصف حَدٌّ يحصره، وقانونٌ يحيط به؛ فإنّه يجيء على وجوه شتَّى، وأنحاءٍ مختلفة»[٤٤]. وقد سمّاه النمط العالي، والباب الأعظم!!!

واضح أنّ الحسن في المرتبة الدنيا يرجع إمّا إلى اللفظ دون النظم أو العكس (النظم دون اللفظ). أمّا في المرتبة العليا فمردّ الحسن إلى الجمع بين الأمرين معًا أي بين الصورة المفردة المتكوِّنة من اللفظ والصورة المركَّبة من تلك ومن النظم، بمعنى مناسبة الموقع، والمقدار المناسب، وكيفية الترتيب. فبعد الحديث والتمثيل للمرتبة الدنيا والتفريق بين أن تكون المزيَّة في اللفظ وأن تكون في النظم يقول عبد القاهر: «وجُملةُ الأمر أنّ ههنا كلامًا حُسنُه للفظ دون النظم، وآخَرُ حُسنُه للنظم دون اللفظ، وثالثًا قَدْ أتاها الحسن من الجهتين، ووجبتْ له المزيّة بكلا الأمرين. والإشكال في

هذا الثالث، وهو الذي لا تزال ترى الغلط قَدْ عارضك فيه، وتراك قَدْ حِفْتَ فيه على النظم فتركتَه وطمحتَ ببصرك إلى اللفظ، وقدَّرتَ في حسن كان به وباللفظ، أنّه للفظ خاصّة. وهذا هو الذي أردتُ حين قلتُ لك: إنّ في الاستعارة ما لا يمكن بيانه إلاّ من بعد العلم بالنظم، والوقوف على حقيقته»(٤٥).

فالاستعارة المفردة -مثلاً- تكون من لفظ واحد وتؤتيك صورة حسنة للمعنى، والنظم يتكوَّن من هذه الصورة ومن صورة أخرى روعي فيها مناسبة الموقع، والمقدار المناسب، وحسن علاقة الجوار لصور أخرى تكوَّنتْ من الكلم أو من الجمل في العبارة نفسها. وكذلك الشأن في الألفاظ والتراكيب الأخرى غير الاستعارة سواء استعملتْ في دلالاتها الحقيقية أم المجازيّة أم في دلالات الإيحاء والظلال.

إنّ هذا النوع من الاستشهاد -بجوانبه الثلاثة- لَمِن أقوى الأدلة على أنّ عبد القاهر هدف من كتاب "**دلائل الإعجاز**" إلى تنمية حسن التذوُّق ومعرفة دلائل إعجاز القرآن ووسائله وليس الإعجاز نفسه حتى يقال إنّه كان عليه أن ينطلق من القرآن نفسه لا أن يكثر من الشِّعر!!!

جدول (٢) للشواهد القرآنية والفنّ البلاغي الذي استشهد له بها في مدخل الكتاب:

تعلّق الكلم بعضها ببعض: اسمين، أو اسم بفعل، أو تعلّق حرف بهما

الآية	السورة ورقم الآية	عدد الآيات	تعلق اسمين	الصفحة
أخْرِجْنا مِن هذه القريةِ الظالِمِ أهلُهَا	النساء ٧٥	١	اسم فاعل	٤
وَهُمْ يَلْعَبُونَ، لاهِيَةً قُلُوبُهُمْ	الأنبياء ٢، ٣	٢	((	٤
ذلك يومٌ مجمُوعٌ لَهُ النَّاسُ	هود ١٠٥	١	اسم مفعول	٥
أو إطعامٌ في يومٍ ذِي مَسْغَبَةٍ يَّتِيمًا	البلد ١٤، ١٥	٢	مصدر	٥
ملء الأرضِ ذَهَبًا	آل عمران ٩١	١	تمييز جلاّه منتصبًا عن تمام الاسم	٥
ومَن يَّفْعَل ذلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللهِ	النساء ١١٤	١	تعلق اسم بفعل	٥
المجموع		٨		

لم يستشهد لتعلق الحرف بالاسم والفعل من القرآن الكريم. لَخَّص ما تقدَّم بقوله: «ومُختصَر كُلِّ الأمر أنّه لا يكون كلام من جزء واحد، وأنّه لابدّ من مسند ومسند إليه، وكذلك السبيل في كلّ حرف رأيته يدخل على جملة»[٤٦]، وبقوله: «وجُملة الأمر أنّه لا يكون كلام مِن حرف وفعل أصلا، ولا من حرف واسم، إلاّ في النداء نحو يا عبد الله، وذلك إذا حُقِّق الأمرُ كان كلامًا بتقدير الفعل المضمر الذي هو أعني، وأريد، وأدعو، و"يا" دليل عليه، وعلى قيام معناه في النفس»[٤٧].

كيف استدلّ عبد القاهر على إعجاز القرآن في هذا المدخل الذي لم يستشهد فيه إلاّ بثماني آيات، وبأمثلة نثريّة من عنده، دون شواهد شعريّة؟

لعلّ الجواب أنّه إنّما يُبَيِّنُ الدلائل والوسائل والطرق التي يجب معرفتها، وتنمية حسن التذوُّق لها فيمن أراد أن يُدرك إعجاز القرآن، ومنها معرفة أساليب التراكيب وما تتكوَّن منه، والعلاقة والفروق بينها. وأعاد تأكيد أَنَّ طرقَ ووجوهَ تعلُّق الكلم بعضِها ببعض هي معاني النحو وأحكامه، وأنَّ هذه السبيل عامّة في كلّ ما له مَدخل في صحة تعلُّق الكلِم بعضِها ببعض. ثمّ عرج على وجود هذه الطرق في كلام العرب، وكون العلم بها قدرًا مشتركًا بينهم. ثمَّ افترض خَصْمًا يعترض على مقولته فصاغ اعتراضَه على النحو الآتي: إذا كان ذلك كذلك فما جوابنا لخصم يقول لنا: إذا كانت هذه الوجوه من التعلُّق التي هي محصولُ النظم موجودةً على حقائقها، وعلى الصحة، وكما ينبغي، في كلام العرب

شِعره ونثره، وعرفوها وتصرَّفوا فيها، وكانت حقائق لا تتبدَّل، ولا يختلف بها الحال، فما هذا الذي تَجدَّدَ بالقرآن من عظيم المزيّة، وباهر الفضل، والعجيب من الرصف، حتى أعجز الخلق قاطبة، وحتى قهر من البلغاء والفصحاء القُوى والقُدَر؟(٤٨).

لم يردَّ عبد القاهر مباشرة على الاعتراض المتقدِّم، ليس لعدم أهميّته بل لأنّ الردّ عليه هو مدار كتابه كلّه، وللحاجة إلى تفصيل وبيان، واستشهاد؛ بدليل أنّه أهاب بكلّ ذي دين وعقل إلى قراءة هذا الكتاب بتأمُّلٍ مُستقصٍ لما فيه، يقول: «أيلزمنا أن نجيب هذا الخصم عن سؤاله، ونردّه عن ضلاله، وأن نَطِبَّ لدائه، ونُزيل الفساد عن رائه؟ فإن كان ذلك يلزمنا فينبغي لكلّ ذي دين وعقل أن ينظُر في الكتاب الذي وضعناه، ويستقصي التأمُّل لما أودعناه، فإنْ عَلِم أنّه الطريق إلى البيان، والكشف عن الحجّة والبرهان، تبِع الحقّ وأخذ به، وإن رأى له طريقًا غيرَه أومأ لنا إليه، ودلّنا عليه، وهيهات ذلك!!»(٤٩). ثمَّ أتى بقصيدة من إنشاده هو تتكوَّن من ثلاثة وعشرين (٢٣) بيتًا(٥٠) مُلخصٌ فحواها:

- تَصدِّيه لمقال مَخُوف، له خصوم، لكنّه لا يَهابُهم، ولن يثنوه عنه.
- لا طريق إلى إثبات الإعجاز في النظم إلاّ الطريق التي يسلكها، وقد أكّد هذا المعنى في موضع آخر(٥١).
- ليس النظم سوى تعلُّق الكلم بعضها ببعض حسبما تقتضيه قوانين النحو سواء كان التعلُّق بين اسمين أو اسم وفعل، وما زاد عليهما فهو فضلة تأتي بعد التمام.

- هذه القوانين والطرق مُتَشَعِّبة وكثيرة، وَعِرة، يعجز المرء عن تقصِّيها بابًا من جميع النواحي، وإن كان من الناس مَن يرى ذلك سهلاً ميسورًا.
- كيف لا يوجد نَظْمٌ ولا كلامٌ يشبه القرآن إذا كان النظم هو توخِّي أحكام النحو ومعانيه فيما بين الكلم؟ وإذا كان من المحال تحصيلُ معنى للنظم غير هذا؟ ثمَّ إذا كان مَن حاول ذلك لا يرجع إلا بخسران وغيّ، وإذا سلَّمنا بالمحال السابق فَبِمَ زاد نظم القرآن حتى أعجز؟
- مَنْ عنده رَدٌّ علميٌّ عن هذه الأسئلة فَلْيأتِ به وإلا فلْيُصْغِ للبيان الوارد في هذا الكتاب.

لا أُبالغ إذا قلتُ: إنّ كلّ ما جاء في كتابه -بعد هذه القصيدة- إنّما هو شرح وتفصيل، واستدلال وتحليل، وتأكيد، لما في القصيدة؛ فتأمَّلها وارجع إليها بعد الانتهاء من قراءة الكتاب.

بعد هذا المدخَل تأتي خُطبةُ الكتاب[٥٢]، بَيَّنَ فيها مكانةَ العلم، وأشار إلى علم البيان وما لَحِقَه من ضيم وغَلَط، وناقش مَن ذمَّ الشِّعر والنحو، ثم أبان عن منزلتهما مِن إعجاز القرآن. وهنا نجد بعض الأسباب التي جعلت عبد القاهر يركِّز على الشِّعر، ويكثر من شواهده، وقَدْ تَقدَّم تفصيلُ القول فيها[٥٣].

وبالتدقيق في هذه الخطبة نجد أَنَّ الشيخَ هَدِف منها إلى أمور يعنينا منها: التسويغ لاعتماده على الشِّعر في بيان دلائل الإعجاز؛ بكثرة الاستشهاد بالشعر أو بكلام البلغاء -أوّلاً- ثم بالآية. يُؤيِّد ذلك أنّه في فصل التقديم والتأخير في الخبر -مَثَلاً- وبعد استشهادِه لدلالته على التوكيد وتقويةِ

الحكم بعدّة أبيات قال: «وأَبْينُ مِن الجميع قوله تعالى: ﴿واتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لاَّ يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَّهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ [الفرقان ٣]. وقوله ﷻ: ﴿وَإِذَا جَاؤُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ﴾ [المائدة ٦١][٥٤]. وهذا كثير وشائع عند الشيخ. ومنها: بيان أنّ إعجاز القرآن في نظمه من خلال مناقشته لبعض حجج المعتزلة[٥٥].

جدول (٣) للشواهد القرآنية والفنون البلاغيّة التي وردت لها بعد مدخل الكتاب

الآية	السورة والرقم	عدد الآيات	الفنون المُستشهَد لها	الصفحات
وما علّمناه الشِّعْرَ وما يَنْبَغِي له	يس ٦٩ (٣ مرات)	١	الاحتجاج لمنع الشعر	٢٤-٢٥
إلاّ الذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ	الشعراء ٢٢٧ (٣ مرات)	١	الاحتجاج لمنع الشعر وللإثبات والتوكيد بـ"إن وإلاّ"	٢٨ ٢٣٠
فإذا نُفِخَ في الصُّورِ نَفْخَةٌ وَّاحِدَةٌ	الحاقة ١٣	١	عدم الحاجة إلى النحو	٣١
إنَّ الَّذِينَ آمَنُوا... وَالصَّابِئُونَ	المائدة ٦٩	١	((	٣١
وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الماءُ	هود ٤٤	١	التلاؤم بين الكلم وأن لا تفاضل بين الألفاظ من حيث هي ألفاظ	٤٥
واشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا	مريم ٤ (٦ مرات)	١	وقوع الشبهة في موضع الحسن، الاستعارة	١٠٠، ٣٩٣،

			فصاحة الكلمة في موقعها أنّ الفصاحة والبلاغة للمعاني	٤٠٢، ٤٠٧، ٤٢٧ ٥٢١
وَفَجَّرْنَا الأَرْضَ عُيُونًا	القمر ١٢	١	"	١٠٢
أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا؟	الأنبياء ٦٢	١	الفرق بين تقديم الفاعل والفعل، الاستفهام التقريري الإنكاري التوبيخي على فعل وقع	١١٣
بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا	الأنبياء ٦٣	١	جواب السؤال السابق	١١٣
أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُمْ بِالبَنِين وَاتَّخَـذَ مِـنَ الملائِكَـةِ إِنَاثًا؟	الإسراء ٤٠	١	الاستفهام التقريري الإنكاري التوبيخي على فعل لم يقع أصلاً	١١٤
أَصْطَفَى البَنَـاتِ عَلَـى البَنِينَ؟ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ؟	الصافات ١٥٣، ١٥٤	٢	"	١١٥
قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا أَنْزَلَ اللهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلالاً قُلْ ءَآللهُ أَذِنَ لَكُمْ؟	يونس ٥٩	١	إنكار الفعل من أصله بإنكار الفاعل ونحوه	١١٥
قُلْ ءَآلـذَّكَرَيْنِ حَـرَّمَ أَمِ الأُنْثَيَيْنِ؟	الأنعام ١٤٣	١	"	١١٥
أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ	هود ٢٨ (مرّتين)	١	تقـــديم الفاعـــل أو المفعول والفعل مضارع	١١٧، ١١٨-

			بعد همزة الاستفهام الإنكاري الإبطالي : لم يكن أو لا يكون	١١٩
أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي العُمْيَ؟	الزخرف ٤٠	١	لا يكون الإنكار لمجرّد الإنكار، فلا يقرر بالمحال	١٢٠
قُلْ أَغَيْرَ اللهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا؟	الأنعام ١٤	١	تقديم المفعول به على المضارع	١٢١
قُلْ أَرَأَيْتكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللهِ تَدْعُونَ؟	الأنعام ٤٠	١	تقديم المفعول به على المضارع	١٢١
فَقَالُوا أَبَشَرًا مِّنَّا وَاحِدًا نَّتَّبِعهُ؟	القمر ٢٤	١	))	١٢٢
إِنْ أنتم إِلاّ بَشَرٌ مِّثْلُنا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا	إبراهيم ١٠	١	التدليل لمعنى الآيتين السابقتين في نفي الكفار لبشرية الرسول	١٢٢
إِنْ هَذَا إِلاّ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ	المؤمنون ٢٤	١	))	١٢٢
أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ؟	يونس ٩٩	١	تقديم الاسم والفعل مضارع واقع	١٢٣
أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ؟	الزخرف ٣٢	١	))	١٢٣
وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لاَّ يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَّهُمْ يُخْلَقُونَ	الفرقان ٣ (مرّتين)	١	تقديم الفاعل للتوكيد	١٣١ ١٣٤
وإذا جَاؤُوكُمْ قَالُوا آمنّا	المائدة ٦١	١	))	١٣١

وقد دَّخَلُوا بِالكُفْرِ وَهُمْ قد خَرَجُوا بِهِ	(مرّتين)			١٣٤
فإنّها لا تَعْمَى الأَبْصَارُ	الحجّ ٤٦	١	))	١٣٢
إنّه لا يُفْلِحُ الكَافِرُونَ	المؤمنون ١١٧	١	))	١٣٣
وَيَقُولُــونَ عَلَــى اللهِ الكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ	آل عمران ٧٥، ٧٧	١	))	١٣٣
إنَّ وَلِيِّيَ اللهُ الَّذِي نَزَّلَ الكِتَــابَ وَهُــوَ يَتَــوَلَّى الصَّالِحِينَ	الأعراف ١٩٦	١	))	١٣٧
وقـالوا أسـاطِيرُ الأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَّأَصِيلاً	الفرقان ٥	١	))	١٣٧
وحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الجِنِّ وَالإِنْسِ فَهُمْ يُوزَعُونَ	النمل ١٧	١	))	١٣٧
وَالَّـذِينَ هُـمْ بِـرَبِّهِمْ لاَ يُشْرِكُونَ	المؤمنون ٥٩	١	))	١٣٨
لَقَـدْ حَـقَّ القَـوْلُ عَلَـى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ	يس ٧	١	))	١٣٨
فَعَمِيَـتْ عَلَـيْهِم الأَنْبَـاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لاَ يَتَسَاءَلُونَ	القصص ٦٦	١	))	١٣٨
إنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ	الأنفال ٥٥	١	))	١٣٨

قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ؟	الزمر ٩	١	حذف مفعول الفعل المتعدِّي وسرُّه البلاغي	١٥٤
هو الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ	غافر ٦٨	١	))	١٥٤
وأنّه هو أَضْحَكَ وَأَبْكَى وأنّه هو أَمَاتَ وَأَحْيَى ، وأنّه هو أَغْنَى وَأَقْنَى	النجم ٤٢ ، ٤٣ ، ٤٧	٣	))	١٥٤
وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ....فَسَقَى لَهُمْ ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ	القصص ٢٣ ، ٢٤	٢	))	١٦١
وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى	الأنعام ٣٥ (مرّتين)	١	الحذف والذكر بعد المشيئة المسبوقة بـ لو	١٦٤
وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ	النحل ٩	١	))	١٦٤
وَلَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا	الأنفال ٣١	١	))	١٦٥
فَإِن يَّشَإِ اللهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ	الشورى ٢٢	١	الحذف بعد المشيئة في حروف المجازاة	١٦٦
من يشأ اللهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَّشَأْ يجعلْهُ على صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ	الأنعام ٣٩	١	))	١٦٦
وبالحقِّ أنزلناه وبالحقِّ نَزَلَ	الإسراء ١٠٥	١	الإظهار والإضمار	١٧٠
قُلْ هو اللهُ أَحَدٌ، اللهُ الصَّمَدُ	الإخلاص ١ ، ٣ (٥ مرّات)	٣	الإظهار والإضمار بيان قراءة في آية من الإسراء	١٧٠ ٣٧٦
وكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ	الكهف ١٨	١	الفروق في الخبر بين	١٧٥

بِالوَصِيدِ			الإثبات بالاسم وبالفعل	
هل مِن خالقٍ غيرُ اللهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ السماءِ والأرضِ؟	فاطر ٣	١	تبادل الاسم والفعل دلالتيهما	١٧٧
ولا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرْ	المدّثّر ٦	١	جملة الحال والفعل مضارع مثبت	٢٠٥
وَسَيُجَنَّبُها الأَتْقَى ، الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى	الليل ١٧ ، ١٨	٢	((	٢٠٥
ويَذَرُهُم في طُغْيانِهِم يَعْمَهُونَ	الأعراف ١٨٦	١	((	٢٠٥
أَدَعَوْتُمُوهُم أَمْ أنتم صامِتُونَ	الأعراف ١٩٣	١	الحمل على المعنى وتنزيل الشيء منزلة غيره	٢١٩
ألم ذلك الكتابُ لا ريبَ فيه	البقرة ١ ، ٢	٢	(الفصل والوصل): الجمل المؤكّدة لا تحتاج إلى عاطف	٢٢٧
إنّ الذين كفروا سواء عليهم ءَأَنْذَرْتَهُم أمْ لَمْ تُنْذِرْهم لا يؤمنون خَتَمَ اللهُ على قلوبِهِمْ وعلى سَمْعِهِمْ وعلى أبصارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ	البقرة ٦ ، ٧	٢	((	٢٢٨
ومِنَ النَّاسِ مَن يَّقُولُ آمَنّا باللهِ وباليومِ الآخِرِ وما هم بمؤمنينَ يُخادِعُونَ اللهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا	البقرة ٨ ، ٩	٢	((	٢٢٨

وإذا لَقُوا الـذينَ آمَنُـوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إلى شـياطِيْنِهِمْ قـالوا إنّـا مَعَكُــمْ إنَّمَــا نحــنُ مُسْتَهْزِئُونَ اللهُ يَستَهْزِئُ بِهِــمْ وَيَمُــدُّهُمْ في طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ	البقرة ١٤ ، ١٥ (الأولى : ٣ مرّات ، والثانية مرّتين)	٢	الجملة المؤكَّدة لا تحتاج إلى عطف. والجملـة يظهـر فيهـا وجـوب العطـف ثـم يُترَك لعارض.	٢٢٨ ٢٣١ ٢٣٣ ٢٣٤
وإذا تُتلَـى عليـهِ آيَاتُنَـا وَلّـى مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّـمْ يَسْمَعْها كَأَنَّ في أُذُنَيْهِ وَقْرًا	لقمان ٧	١	))	٢٢٨
ما هذا بَشَرًا إنْ هذا إلاَّ مَلَكٌ كَرِيمٌ	يوسف ٣١ (مرّتان)	١	)) أنّ الفصاحة والبلاغة للمعاني	٢٢٩ ٤٠٣
ومـا يَنْطِـقُ عـنِ الهَـوَى إنْ هو إلاّ وَحْيٌ يُوحَى	النجم ٣، ٤	٢	))	٢٣٠
إنّما نحنُ مُسْتَهْزِئُونَ اللهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِـمْ وَيَمُدُّهُم في طُغْيانِهِم يَعْمَهُونَ	البقرة ١٤ ، ١٥	٢	الجملـة يظهـر فيهـا وجـوب العطـف ثـمّ يُترك لعارض	٢٣١
يخادعون الله وهو خادعهم	النساء ١٤٢	١	))	٢٣١ ٢٣٢
وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللهُ	آل عمران ٥٤	١	))	٢٣١ ٢٣٢
وإذا قِيــلَ لَهُــمْ لا تُفْــسِدُوا في الأَرْضِ قَالُوا إنما نحنُ مُصْلِحُونَ	البقرة ١١ ، ١٢ (٣ مرات)	٢	)) مجيء إنّما للتعريض التأكيد في الإنكار بـ:	٢٣٢ ٣٥٨ ٣٥٨

ألا إنّهم هُـمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لاَّ يَشْعُرُونَ			ألا ، وإنَّ	
وإذا قِيلَ لهم آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَـا آمَـنَ الـسُّفَهاءُ ألاَ إِنَّهُـم هُـمُ الـسُّفَهَاءُ ولَكِن لاَّ يَعْلَمُونَ	البقرة ١٣	١	))	٢٣٢
وقالوا لَـوْلاَ أُنْزِلَ عليهِ مَلَـكٌ وَلَـوْ أَنْزَلْنَـا مَلَكًا لَقُـضِيَ الأَمْـرُ ثُـمَّ لاَ يُنظَرُونَ	الأنعام ٨	١	))	٢٣٣
هَلْ أتاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إبـراهيمَ الْمُكْـرَمِينَ، إذ دَخَلُـوا عليـهِ فَقَـالُوا سلامًا قـال سـلامٌ قـومٌ مُّنْكَـرُونَ، فَـرَاغَ إلى أَهْلِـهِ فَجَـاءَ بِعِجْـلٍ سَـمِينٍ، فَقَرَّبَـهُ إلـيهِمْ قـال ألا تَـأْكُلُونَ، فَـأَوْجَسَ مِـنْهُمْ خِيفَـةً قَالُوا لا تَخَفْ	الذاريات ٢٤-٢٨	٥	مـا جـاء مـن "قـال" في التنزيل غير معطوف	٢٤٠
قـال فرعـونُ ومـا رَبُّ العـالمينَ؟ قَـالَ رَبُّ الـسَّمَاوَاتِ والأرضِ ومـا بينهمـا إن كُنْـتُمْ				

مُـوقِنِينَ، قـال لِمَـنْ حَوْلَـهُ ألاَ تَـسْتَمِعُونَ؟ قال رَبُّكُمْ ورَبُّ آبَائِكم الأوّلِـــينَ، قـــال إنَّ رَسُـولَكُم الَّـذِي بُعِـثَ إلـيكم لَمَجْنُـونٌ، قـال ربُّ المـشرقِ والمغـرِبِ ومـا بينهمـا إن كنـتم تَعْقِلُـونَ، قـال لَـئِنِ اتخـذْتَ إِلَهًـا غَيْـرِي لأَجْعَلَنَّـــكَ مِـــنَ المسجُونِينَ، قال أوَ لَـوْ جِئْتُـكَ بِـشَيءٍ مُّـبِينٍ، قـال فَـأْتِ بِـهِ إنْ كُنْـتَ مِنَ الصَّادِقِينَ	الشعراء ٢٣-٣١	٨	((	٢٤٠-٢٤١
قَـالَ فَمَـا خَطْبُكُم أَيُّهَـا الْمُرْسَـلُونَ قَـالُوا إنَّـا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُّجرِمِينَ	الحِجر ٥٧، ٥٨	٢	الفصل لتقدير سؤال سابق	٢٤١
واضْـرِبْ لَهُـم مَّـثَلاً أصْحَابَ القريةِ إذ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ، إِذْ أَرْسَلْنَا إلـيهم اثْنَيْنِ فَكَـذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فقـالُوا إنَّا إليكُم مُّرْسَلُونَ، قـالوا مـا أنـتم إلاّ بَـشَرٌ مِّثْلُنَـا				

وما أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَـــيْءٍ إنْ أنــــتم إلاّ تَكْـذِبُونَ، قَـالُوا رَبُّنَـا يَعْلَـــمُ إِنَّـــا إلـــيكم لَمُرْسَـلُونَ، وَمَـا عَلَيْنَـا إلاّ البلاغُ المُبِينُ، قـالوا إنّا تَطَيَّرْنَا بِكُـمْ لَئِن لَّـمْ تَنْتَهُـــوا لَنَــرْجُمَنَّكُم ولَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عـذابٌ ألِـيمٌ، قـالوا طَـائِرُكُم مَّعَكُـمْ أَئِـنْ ذُكِّـرْتُمْ بَـلْ أنـتم قَـوْمٌ مـسرفونَ، وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا المدِينَةِ رَجُلٌ يَّسْعَى قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُـــوا الْمُرْسَــــلِينَ، اتَّبِعُـوا مَـن لاَّ يَـسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَّهُم مُّهْتَدُونَ	يس ١٣-٢١	٨	))	٢٤١-٢٤٢
ومَن يَّكْسِب خَطِيئَةً أو إثْمًا ثمّ يَرْمِ به بَرِيئًا فقـد احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَّإِثْمًا مُّبِينًا	النساء ١١٢	١	العطف في الشرط والجزاء	٢٤٦
ومَـن يَّخـرجْ مِـن بَيْتِـهِ مُهَاجِرًا إلى اللهِ وَرَسُولِهِ ثـم يُدْرِكْـهُ المـوتُ فقـد وَقَعَ أَجْرُه على اللهِ	النساء ١٠٠	١	))	٢٤٦
وَمَـــا كُنْـــتَ بِجَانِـــبِ				

الغربـــيِّ إذ قَـــضَيْنَا إلى مُوسَى الأمرَ وما كنتَ مِن الـشاهِدِينَ، ولكنّا أَنْـشَأْنَا قُرُونًـا فَتَطَـاوَلَ عليهم العُمُرُ وَمَا كُنْـتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عليهم آياتِنا	القصص ٤٤، ٤٥	٢	))	٢٤٧
وَلَكُمْ فِي القِصَاصِ حَيَاةٌ	البقرة ١٧٩ (٣ مرات)	١	التفريـق بـين عبـارتين يتبـادر أنّهمـا يؤدّيـان غرضًا واحدًا تنكير حياة	٢٦١ ٢٨٩ ٣٩٠
ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بعضٍ إذا أَخْرَجَ يَـدَهُ لَـمْ يَكَـدْ يَرَاهَا	النور ٤٠	١	شـرح دلالـة "لم يكـد يفعل"	٢٧٥
فَـذَبَحُوهَا وَمَـا كَـادُوا يَفْعَلُونَ	البقرة ٧١ (٣ مرات)	١	))	٢٧٥، ٢٧٦
وَجَعَلُوا للهِ شُرَكَاءَ الجِنَّ	الأنعام ١٠٠	١	الدليل على عِظَم شأن النظم	٢٨٧
وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ	البقرة ٩٦	١	))	٢٨٨
يخــرجُ مِــن بُطُونِهــا شَـرَابٌ مُخْتَلِـفٌ ألوانُه فيه شِفَاءٌ للنَّاسِ	النحل ٦٩	١	))	٢٩٠
فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُم	البقرة ١٦ (٦ مرّات)	١	المجاز العقلي))	٢٩٣ ٢٩٦

			الاستعارة أنّ الفصاحة والبلاغة للمعاني	٣٩٦ ٤٢٧ ٤٢٩ ٥٢١
واسْأَلِ القَرْيَةَ	يوسف ٨٢	١	المجاز العقلي	٣٠١
إنّ في ذلــكَ لَــذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ	ق ٣٧	١	))	٣٠٤
يــا أيّهــا النــاسُ اتَّقُــوا رَبَّكُم إنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ	الحجّ ١ (مرتان)	١	دخـول "إنّ" في الكـلام وخصائصها: هذا الضرب كثير في التنزيل جدًّا	٣١٦ ٣٢٣
يَا بُنَيّ أَقِمْ الصَّلاةَ وَأْمُرْ بــالمعرُوفِ وَانْــهَ عــن الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ علـى ما أَصَـابَكَ إنَّ ذَلِـكَ مِـنْ عَزْمِ الأُمُورِ	لقمان ١٧	١	))	٣١٦- ٣١٧
خُذْ مِنْ أَمْوَالِهم صَدَقَةً تُطهِّرُهم وَتُـزَكِّيهِم بهـا وَصَـــلِّ علـــيهم إنّ صَلاتَكَ سَكَنٌ لَّهم	التوبة ١٠٣ (مرّتان)	١	))))	٣١٧ ٣٢٣
ولا تُخَـاطِبْنِي في الَّـذِينَ ظَلَمُوا إنّهم مُّغْرَقُونَ	هود ٣٧	١	))	٣١٧
وَمَـا أُبَـرِّىءُ نَفْـسِي إنّ الـنفسَ لأَمَّـارَةٌ بالـسُّوءِ إلاّ ما رَحِمَ رَبِّي	يوسف ٥٣	١	))	٣١٧
إنّه مَن يَتَّقِ ويَصْبِرْ فَإِنّ	يوسف ٩	١	))	٣١٧

اللهَ لا يُضيعُ أجرَ المحسنِينَ				
إنّه لا يُفْلِحُ الكَافِرُونَ	المؤمنون ١١٧	١	))	٣١٧
أنّه مَن يُّحَادِدِ اللهَ ورسولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهنَّمَ	التوبة ٦٣	١	))	٣١٧
أنّـه مَـنْ عَمِـلَ مـنكم سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ	الأنعام ٥٤	١	))	٣١٧
فَإِنَّهَا لاَ تَعْمَى الأَبْصَارُ	الحجّ ٤٦	١	))	٣١٧
إنَّ هَذَا مَا كُنْتُمْ تَمْتَرُونَ إنَّ المتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ فِي جَنَّاتٍ وَّعُيُونٍ	الدخان ٥٠-٥٢	٣	))	٣٢٢
لهم فيها زَفِيرٌ وَّهُمْ فيها لا يَسْمَعُونَ إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الحُسْنَى أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ	الأنبياء ١٠٠-١٠١	٢	))	٣٢٢
إنّ الذين آمنوا والذين هَـادُوا وَالصَّابِئِينَ والنَّصَارَى وَالمجُوسَ والَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ	الحجّ ١٧	١	))	٣٢٢
إنَّ الذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنّا لا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً	الكهف ٣٠	١	))	٣٢٣

وأُشْرِبُوا في قُلُوبِهِمُ العِجْلَ	البقرة ٩٣ (٣ مرات)	١	الاستعارة، أنّ الفصاحة والبلاغة للمعاني تحرير القول في الإعجاز والفصاحة والبلاغة	٣٩٧ ٤٢٧ ٥٢١
وَآيَةٌ لَّهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ منه النَّهَارَ	يس ٣٧ (مرّتان)	١	الاستعارة، تحرير القول في الإعجاز والفصاحة والبلاغة	٣٩٧ ٥٢١
فَاصْدَعْ بِمَا تُؤمَرُ	الحجر ٩٤ (مرّتان)	١	))	٣٩٧ ٥٢١
فلمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا	يوسف ٨٠	١	))	٣٩٧ ٥٢١
حَتَّى تَضَعَ الحَرْبُ أَوْزَارَهَا	محمد ٤	١	))	٥٢١
وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي القَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عليكم مِّنه ذِكْرًا إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ	الكهف ٨٣، ٨٤	٢	الجواب بـ"إنَّ" عن السؤال في كثير من مواقعها	٣٢٤
نحن نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالحَقِّ إِنَّهُم فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ	الكهف ١٣	١	))	٣٢٤
فإنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ	الشعراء ٢١٦	١	))	٣٢٤
قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ	الأنعام ٥٦، غافر ٦٦	١	))	٣٢٤

وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ المبِينُ	الحجر ٨٩	١	))	٣٢٤
فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولاَ إِنّا رَسُول رَبِّ العَالَمِينَ	الشعراء ١٦	١	))	٣٢٤
وقال موسى يا فرعون إنّي رسولُ ربِّ العالمين	الأعراف ١٠٤	١	))	٣٢٤
آمنتم له قبلَ أن آذنَ لَكُم إن هَذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ	الأعراف ١٢٣	١	الجواب بـ"إنّ" عن السؤال في كثير من مواقعها	٣٢٤
قَالُوا إِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ	الأعراف ١٢٥	١	))	٣٢٤
قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ	آل عمران ٣٢٧	١	دلالة إنّ على ردّ الظنّ	٣٢٧
قَالَ رَبِّ إنّ قَوْمِي كذّبون	الشعراء ١١٧	١	))	٣٢٧
قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ	الأعراف ٣٣	١	تضمن إنّما معنى النفي والاستثناء	٣٢٨
قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ	البقرة ١٧٣	١	))	٣٢٨
وَمَا مِنْ إِلَهٍ إلاّ اللهُ	آل عمران ٦٢ (٣ مرّات)	١	الفرق بين دلالة إنّما والنفي والاستثناء القياس عليها	٣٢٩ ٣٧٩ ٣٨١
إِنَّمَا يَستَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ	الأنعام ٣٦	١	دلالة إنّما على أمر لا يجهله المخاطب ولا	٣٣٠

			يـدفع صـحته أَوْ لِمَـا يُنزَّلُ هذه المنزلة	
إِنَّمَـا تُنذِرُ مَـنِ اتَّبَـعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الـرَّحْمَنَ بِالغَيْبِ	يس ١١	١	))	٣٣٠
إِنَّمَا تُنْذِرُ مَن يَّخْشَاهَا	النازعات ٤٥	١	)) الدلالة على التعريض	٣٣٠ ٣٥٤
إِنْ أَنْـتُمْ إِلاَّ بَـشَرٌ مِّثْلُنَـا تُرِيـدُونَ أَنْ تَـصُدُّونا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا	إبراهيم ١٠	١	الفرق بين إنّما وإن وإلاّ	٣٣٣
قَالَـتْ لَهُـمْ رُسُـلُهُم إِن نَّحْنُ إِلاّ بَشرٌ مِّثْلُكم	إبراهيم ١١	١	))	٣٣٣
قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُم	الكهف ١١٠ فصّلت ٦	١	))	٣٣٣
وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّنْ فِي القُبُورِ إِنْ أَنتَ إِلاَّ نَذِيرٌ	فاطر ٢٢ ، ٢٣	٢	))	٣٣٣
قُـلْ لاَّ أَمْلِـكُ لِنَفْـسِي ضَـرًّا وَّلاَ نَفْعًـا إِلاَّ مَـا شَاءَ اللهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الغَيْبَ لاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ الـسُّوءُ إِنْ أَنَـا إِلاَّ نَـذِيرٌ وَّبَـشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُّؤْمِنُونَ	الأعراف ١٨٨	١	))	٣٣٤
مَـا قُلْـتُ لَهُـمْ إِلاَّ مَـا أَمَرْتَنِـي بِـهِ أَنِ اعْبُـدُوا	المائدة ١١٧	١	نماذج لـ"ما" و"إلاّ"	٣٣٧

اللهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ				
إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ العُلَمَاءُ	فاطر ٢٨	١	بيان دلالة إنّ في الآية	٣٣٨
وَلاَ يَخْشَوْنَ إِلاَّ اللهَ	الأحزاب ٣٧	١	اختلاف المعنى في هذه الآية عن آية فاطر السابقة	٣٣٩
فَإِنَّمَا عَلَيْكَ البَلاَغُ وَعَلَيْنَا الحِسَابُ	الرعد ٤٠	١	حكم المبتدأ والخبر بعد إنّما وفروق الدلالة	٣٤٥
إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ	التوبة ٩٣	١	))	٣٤٥
إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ	الغاشية ٢١، ٢٢	٢	ما لا يحسن فيه العطف بـ: لا	٣٥٣
إنّما يَتَذَكَّرُ أُولُو الأَلْبَابِ	الرعد ١٩، الزمر ١٩	١	مجيء إنّما للتعريض	٣٥٤
إِنَّمَا تُنْذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ	فاطر ١٨	١	))	٣٥٤-٣٥٥
وَجَعَلُوا المَلائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُم سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُم وَيُسْأَلُونَ	الزخرف ١٩ (مرّتان)	١	بيان في المجاز أنّ الفصاحة والبلاغة للمعاني	٣٦٨ ٤٣٨-٤٣٩
قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنْسُ وَالجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا القُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ	الإسراء ٨٨ (مرّتان)	١	غَلَط قوم في عدم البحث عن برهان الإعجاز ودليله رغم تلاوتهم لهذه الآية	٣٦٩، ٣٨٥

بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا				
قُلِ ادْعُوا اللهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا فَلَهُ الأَسْمَاءُ الحُسْنَى	الإسراء ١١٠	١	إزالة شبهة في عطف جملة ادعوا الثانية	٣٧٥
وَقَالَتِ اليَهُودُ عُزَيْرُ ابنُ اللهِ (على قراءة عزير بدون تنوين)	التوبة ٣٠ (مرّتان)	١	))	٣٧٥ ٣٨٤
وَلاَ اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارَ (على قراءة سابقة بدون تنوين ونصب النهار)	يس ٤٠	١	))	٣٧٦
يا أَهْلَ الكِتَابِ لاَ تَغْلُوا فِي دِينِكُم وَلاَ تَقُولُوا عَلَى اللهِ إِلاَّ الحَقَّ إِنَّمَا المسِيحُ عِيسَى ابنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللهِ وكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ فَآمِنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ وَلاَ تَقُولُوا ثَلاَثَةٌ انْتَهُوا خَيْرًا لَّكُمْ إِنَّمَا اللهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ	النساء ١٧١ (٣ مرّات)	١	بيان معنى ثلاثة في الآية الوصف بالعدد	٣٧٩، ٣٨٢، ٣٨٣- ٣٨٤
لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ ثَالِثُ ثَلاثَةٍ	المائدة ٧٣	١	الوصف بالعدد	٣٨٣
قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ	الإسراء ٨٨	١	بيان معنى التحدّي	٣٨٥
وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا	البقرة ٢٣	١	))	٣٨٥

نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ				
وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الحِسَابِ	ص ١٦	١	تحرير القول في الإعجاز والفصاحة والبلاغة	٣٩٧
ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ	القمر ١٣	١	»	٣٩٧
قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا	مريم ٢٤	١	»	٣٩٧
يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ العَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ	المنافقون ٤	١	فصاحة اللفظة في موقعها	٤٠٣
هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا	يونس ٦٧	١	أنّ الفصاحة والبلاغة للمعاني	٤٠٣
الحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ- وَلاَ الضَّالِّينَ	الفاتحة ٢-٧	٦	عزو الفصاحة إلى النظم	٤٥٢-٤٥٣
فَشَرِّدْ بِهِمْ مَّنْ خَلْفَهُمْ	الأنفال ٥٧	١	الإيجاز	٥٢١
ولا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ	فاطر ١٤	١	»	٥٢١
وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ	الأنفال ٥٨	١	»	٥٢١
المجموع		٢١٥ آية		

إذا أضفنا هذا العدد (٢١٥) إلى (٨) آيات وردت في المدخل، وإلى (٢٥) آية مكرَّرة (حوالي ٤٥ مرّة) بعضها مرتين أو ثلاث أو أربع، بل وستّ، وهو يستشهد لدلائل الإعجاز ووسائله وكيفيّة حسن تذوُّقه،

كان المجموع أكثر من مئتين وثمانٍ وأربعين (٢٤٨) آية[٥٦]، وردت في إطار الحديث عن الدلائل والوسائل الخارجية التي تعين على إدراك إعجاز القرآن الكريم، فهل العدد قليل مقابل (١٩٦) بيتًا ورد منها (٤٧) بيتًا لا شاهد فيها وإنّما يذكرها معه تمهيدًا له، أو دعمًا، أو توضيحًا، وقصيدة له مكوَّنة من (٢٣) بيتًا عن النظم في المدخل، و(١٢٦) بيتًا في الباب التمهيدي، و(٢٦٤) بيتًا في الصلب[٥٧]، يضاف إليها (٢١٩) بيتًا في الرسائل والتعليقات، فالمجموع (٦٧٩) بيتًا. مع ضرورة مراعاة أنّ بعض الأبيات مُكَرَّرة عدّة مرّات، وتلك الرسائل والتعليقات هي زيادات خارجة عن أصل الكتاب بمدخله، وبابه التمهيدي، والصلب، وإن كان لها صلة وثيقة بالموضوع لما فيها من شرح وتفصيل، واحتجاج، وموازنات بين بعض الوسائل الخارجية، وتأكيد لضرورة حسن تذوُّق الأساليب الراقية لمن أراد أن يتصدَّى لإدراك الإعجاز وكشف المقاصد. لذلك كلِّه ولأسباب سبقت الإشارة إليها لا غرابة ولا عيب في أن يصل عدد الأبيات حوالي(٦٧٩) بيتًا.

(للبحث صلة)

الهوامش:

❖ جامعة باماكو، مالي.

(١) انظر: المصدر السابق/٤٠-٤١.

(٢) المصدر السابق/٢٩٢.

(٣) **تأويل مشكل القرآن**، ابن قتيبة، تحقيق السيّد أحمد صقر/١٢، دار التراث، القاهرة عام ١٣٩٣هـ.

(٤) **مراجعات في أصول الدرس البلاغي**/٢٢٩.

(٥) انظر: **إعجاز القرآن** ، الباقلاني، تحقيق السيّد صقر/١٢٠-١٢٥ ، دار المعارف بمصر، بدون، و**مراجعات في أصول الدرس البلاغي**/٢٢٦-٢٣٢.

(٦) **الأسلوب في الإعجاز البلاغي للقرآن** /٢٦٤.

(٧) للمزيد انظر: **مدخل إلى كتابي عبد القاهر الجرجاني**/٩٦-٩٨، ١٠٣، ١٠٨.

(٨) انظر: كتاب **دلائل الإعجاز**/ ٤، ٥، ١١٤، ١٣٣، ١٥٤، ١٧٠، ٢٠٥، ٢٢٧، ٢٢٨، ٢٣٠، ٢٣٢، ٢٤٠، ٢٤١، ٢٤٢.

(٩) وليست من التضمين العروضي إلاّ قليلا، انظر: كتاب **دلائل**/٨٩، ٩٤ وحتى ما قد يبدو أنّه من هذا النوع فإنّه يدخل فيما يقتضيه النظم، والتشبيه، والتقسيم، والشرط وجوابه، والتعليل، ونحوها؛ نتيجة تدفق المشاعر وتقطّعها، والحاجة إلى تعليل، أو توضيح، أو تفصيل....إلخ.

(١٠) انظر: كتاب **دلائل الإعجاز**/٣-١٠٥.

(١١) انظر: جدول ٣ ص٢٥-٣٥ من هذه الدراسة وسيأتي التفصيل.

(١٢) انظر المصدر السابق/١١٣-١١٦، ١٢١-١٢٣، ٢٢٧-٢٣٥، ٢٤٠-٢٤٢، ٢٤٥-٢٤٨، ٢٦٨-٢٩٠،

(١٣) انظر: المصدر نفسه/٣٢٢-٣٢٣.

(١٤) انظر: ص١٣ من هذه الدراسة.

(١٥) انظر: كتاب **دلائل الإعجاز**/٣٢، ٤٠، ٤٧، ٤٨، ٥٧، ٥٨، ٦٧، ٧٦- ٧٧، ٧٨، ٧٩، ٨٣، ٩٣، ٩٥، ٩٦، ٩٨، ١٠٢-١٠٥، ١١٧، ١١٨، ١٢٥، ١٢٩-١٣١، ١٣٤-١٣٧، ١٣٨-١٣٩، ١٥٦-١٥٨، ١٦٢، ١٦٣-١٦٥، ١٦٦، ١٦٧، ١٧٠.

(١٦) **منهج التعامل مع الشاهد البلاغي**/٥٢٣.

(١٧) انظر: المرجع السابق/٥٢٣، ٥٢٧.

(١٨) انظر: كتاب **الدلائل** /٣١، ٤٥، ١٠٠، ١١٣، ١١٨، ١١٩، ١٢٠، ١٢١-١٢٢، ١٢٣-١٣٣، ١٣٦، ١٣٧، ١٣٨، ١٥٤، ١٥٥-١٦٢، ١٦٣-١٦٤، ١٦٥-١٦٦، ١٧٤-١٧٦، ١٧٥-١٧٧، ٢٠٥، ٢٧٤-٢٧٥

(١٩) المصدر نفسه/٤٥.

(٢٠) المصدر نفسه/١٠٠

(٢١) المصدر نفسه/١٠٢.

(٢٢) المصدر نفسه/١١٣

(٢٣) المصدر نفسه/١٢٠.

(٢٤) المصدر نفسه /١٢١

(٢٥) المصدر نفسه /١٢٢.

(٢٦) المصدر نفسه /١٣١

(٢٧) كتاب **دلائل الإعجاز**/١٣٢.

(٢٨) المصدر نفسه/١٣٣.

(٢٩) المصدر نفسه/١٦١.

(٣٠) المصدر نفسه/١٦٤.

(٣١) المصدر نفسه /١٧٠.

(٣٢) المصدر نفسه/١٧٥

(٣٣) المصدر نفسه/١٧٧.

(٣٤) المصدر نفسه /١٧٧

(٣٥) المصدر نفسه/٢٢٨.

(٣٦) المصدر نفسه/٢٢٩.

(٣٧) المصدر نفسه/٤٣٩.

(٣٨) انظر -مثلاً- : المصدر نفسه/٤٥، ١١٤-١١٥، ١٢٣، ١٣٢، ١٣٣، ١٣٤، ٢٢٧، ٢٣٠، ٢٤٠، ٢٤١، ٢٤٥-٢٤٧، ٢٨٦، ٢٨٨

(٣٩) انظر: المصدر نفسه/٢٣٥-٢٣٩.

(٤٠) انظر: المصدر نفسه /١١٤-١١٦.

(٤١) انظر: -مثلاً- كتاب **دلائل الإعجاز**/١٣-١٤، ١٧-٢٣، ٤٦-٤٨، ٦٧-٦٩، ٧٤-٧٩، ٨١، ٨٣-١٠٥، ١١١-١١٢، ١١٦-١١٧، ١٣١، ١٣٢، ١٣٣،

١٣٤-١٣٥ ، ١٤٢-١٤٥، ١٣٨ ، ١٤٦-١٥٤ ، ١٧٣-١٧٧، ١٧٤-١٧٩،
١٨٠-١٩٨ ، ١٩٩-٢٠١، ٢٠٢-٢٠٥، ٢١٣-٢١٨.

(٤٢) انظر : المصدر نفسه/٥٧ ، ٦٧ ، ٧٠-٧١، ٧٤-٧٩ ، ٨٣-٨٦، ١٣٨-١٤٠.

(٤٣) المصدر نفسه/٨٨-٨٩، وانظر **الشواهد والتعليقات** في ص : ٨٩-٩٢.

(٤٤) كتاب **دلائل الإعجاز**/٩٣ ، وانظر **التعليقات** في ص٩٣-٩٦.

(٤٥) كتاب **دلائل الإعجاز**/٩٩-١٠٠ ، وانظر تحليله لبعض الشواهد في ص١٠٠-١٠٥.

(٤٦) كتاب **دلائل الإعجاز** /٧.

(٤٧) المصدر نفسه /٨.

(٤٨) كتاب **دلائل الإعجاز**/٨-٩ بتصرُّف.

(٤٩) المصدر السابق /٩.

(٥٠) انظر : الأبيات في المصدر السابق/٩-١١.

(٥١) انظر : المصدر السابق/٢٦.

(٥٢) انظر : كتاب **دلائل الإعجاز** /٣-١٠.

(٥٣) انظر : ص٩-١٢ من هذه الدراسة.

(٥٤) انظر : المصدر السابق/١٢٨-١٣١ ، و١٣٣.

(٥٥) انظر : المصدر نفسه/٩-١٠.

(٥٦) العدد عند د. عويض العطوي (كما سبق في ص٩) هو -تارة- ما يزيد على مئتين وستين آية ، وهو قريب ممّا ذكرناه إذا عُدَّتْ الآيات المكررة.

(٥٧) كتاب **دلائل الإعجاز**/١٠٦-٤٧٨.

بَرِيدُ العَرَبْ:

ورد إلى "**العـرب**" مـن الـدكتور محمـود محمـد خلـف، أسـتاذ التـاريخ والحضارة الإسلامية بجامعة الأزهر، ما يلي:

من ملامح العلاقات الثقافية القديمة بين مصر وبلاد ما وراء النهر في علم اللغة المتيّم الإفريقي وابن حيونة أنموذجًا

التمهيد:

كانت الرحلة بالنسبة لعلماء اللغة في أول الأمر إلى البادية، لأخذ مفردات اللغة عن العرب الخُلّص، ثم ظهرت المعاجم العربية، وخطت اللغة العربية خطوات واسعة في الجمع والتدوين[١].

وفي عصرنا الذي نؤرخ له، كانت علوم اللغة قد استقرت في الأمصار الإسلامية وشاع الأخذ عن العلماء، وكثير من هؤلاء العلماء بدأ محدِّثًا، ثم انتهى به المطاف ليتخصص في علم آخر، وليكن -مثلاً- علم اللغة.

١] المتيم الإفريقي:

يعدّ من أشهر الشعراء الذين جمعوا في رحلتهم بين مصر وبلاد ما وراء النهر [المنطقة الواقعة بين نهري جيحون -سرد ريا حاليًّا- وسيحون -أمود ريا حاليًّا-، وتشمل معظم دولة أوزبكستان الحالية]، المتيّم الإفريقي، أبو الحسن محمد بن أحمد بن المغربي الإفريقي، أصله من شمال إفريقية[٢]، وعاش في فارس فترة كبيرة.

زار المتيم الإفريقي كثيرًا من البلاطات الملكية، ومدح الأمراء والخلفاء، وطوَّف معظم العالم الإسلامي؛ فدخل مصر، والعراق، وإقليم الجبل، وأذربيجان، وبلاد ما وراء النهر، خاصة إقليم الشاش(٣). وجالس الصاحب ابن عباد(٤) [٣٢٦-٣٨٥هـ/٩٣٨-٩٩٥م] ودارت بينهما مسامرات(٥). كما لقي أبا الفرج الأصبهاني [٢٨٤-٣٥٦هـ/٨٩٧-٩٦٧م] صاحب كتاب "**الأغاني**"، وروى عنه(٦) وله معه أخبار كثيرة.

اشتهر المتيّم بالشِّعر والأدب، وقيل: إنه كان له عناية بالطب والفلك. سكن أصفهان مدة، ثم قصد سيف الدولة الحمداني [٣٠٣-٣٥٦هـ/٩١٥-٩٦٧م]، سنة [٣٣٣هـ/٩٤٤م] بحلب، وهنالك التقى بالمتنبِّي [٣٠٣-٣٥٤هـ/٩١٥-٩٦٥م]، فتأثّر به وبشِعره حتى لقب بـ"راوية المتنبِّي"(٧). ومن نماذج شِعره التي عارض فيها المتنبِّي قوله:

عدمت من النحول فلا بلمس يكيفني الوجود ولا عيان

ولولا أنني أذكى البرايا لكنتُ خفيتُ عَنِّي وَلا أَرَانِي

أخذها من قول المتنبِّي:

كفى بجسمي نحولاً أنني رجل لولا مخاطبتي إياك لم ترني

ثم قال عن نفسه: "فزدت عليه فلم أدع لغيري فيه زيادة"(٨)

ارتحل المتيّم إلى بخارى، وأقام فيها حتى أدركته الشيخوخة، وكان يمتدح الوزير عبد الله بن جيهان(٩)، وأورد لنا الثعالبي نماذج كثيرة من شِعره(١٠).

● آثاره:

ترك لنا المتيم الأفريقي كثيرًا من المؤلفات، أهمها(١١):

١] "ديوانه الكبير" لم يصل إلينا كاملاً، ووصلت إلينا منه مقتطفات في "**يتيمة الدهر**"[١٢]، و"**معجم الأدباء**"[١٣] و"**الوافي بالوفيات**"[١٤]. كما وصلت إلينا مجموعة من رسائله في نفس هذه المصادر.

٢] كتاب: "**الانتصار المنبي عن فضل [أو فضائل المتنبِّي]**".

٣] كتاب: "**البنية المنبي عن رذائل المتنبِّي**".

٤] كتاب: "**أشعار الندماء**" ويسمّى: "**الشعراء الندماء**".

٥] كتاب: "**تحفة الكتاب في الرسائل**".

٦] كتاب: "**تذكرة النديم**".

٧] كتاب: "**الرسالة الممتعة**".

٨] كتاب: "**بقية الانتصار المكثر للاختصار**".

٩] كتاب: "**المحكم في اشتقاق حروف المعجم**".

وللأسف لم تصل إلينا معظم هذه المؤلفات، ولا يوجد منها إلا بعض مقتطفات في بطون المصادر العربية، تحتاج إلى أحد الباحثين في الأدب العربي يجمعها ويرتّبها، ويخرجها للباحثين، حتى يستطيعوا الحكم على أشعار المتيم الإفريقي، وإن كان يبدو لي من خلال المقتطفات التي وصلت إلينا أنّ السجع يغلب على شِعره، إلى جانب التكلف وأن ظاهرة الصنعة، ولم يصل إلى مستوى رواية شِعره، أعني المتنبِّي.

أمّا رسائله، فلا تختلف كثيرًا عن شِعره، وإن كان يغلب عليه روح الدعابة والمرح من آنٍ إلى آخر. كما هو حال كثير من الشعراء، للحصول على الأموال والعطايا من الأمراء والوزراء[١٥].

وفاته:

كما فقدنا مؤلفات المتيم الإفريقي، فلم تصلنا، فقد فقدنا معها سنة وفاته. فلم أرَ اختلاف المؤرخين في شيء اختلافهم في سنة وفاة هذا الشاعر. فقد سكت ياقوت الحموي، ولم يذكر لنا شيئًا عن وفاته، على الرغم من أننا ندين له بالفضل في حفظ مجموعة من أشعار ورسائل صاحب الترجمة.

أمّا الصفدي، فعلى الرغم من الاضطراب الواضح في روايته، إلا إنه أرّخ وفاته بسنة [٣٢٢هـ/٩٣٣م](١٦) وهذا أمر مستبعد، لأنّ المتيم الإفريقي -كما سبقت الإشارة- دخل بلاط سيف الدولة الحمداني سنة [٣٣٣هـ/٩٤٤م]. واكتفى الثعالبي بقوله: "إنه توفي حوالي آخر القرن الرابع الهجري [١٠م]"(١٧). وذكر صاحب "**معجم المؤلفين**": "إنه كان حيًّا قبل سنة [٣٥٤هـ/٩٦٥م]"(١٨). وانفرد صاحب "**هدية العارفين**" برأي غريب، حيث أرّخ وفاته سنة [٤١٥هـ/١٠٢٤م](١٩).

هكذا، يبدو الاضطراب واضح في كلام المؤرخين، فلم أهتدِ إلى تاريخ يستريح له القلب، ويتماشى مع منهج البحث العلمي الصحيح. لذا، فقد تركت الإشارة إلى سنة وفاته، ولعل أحد الباحثين اللغويين يقدّم لنا جديدًا في هذه القضية.

٢] ابن حَيُّونة البخاري [ت ٣٥٩هـ/٩٦٩م]:

سبق القول، إنّ كثيرًا من العلماء بدأوا محدِّثين، ثم انتهى بهم المطاف ليتخصصوا في علوم أخرى، ومن هؤلاء: عبد الصمد بن محمد بن حيونة البخاري(٢٠).

بدأ حياته محدِّثًا، فسمع ببخارى سهل بن السري الحاف[٢١] ورحل إلى خراسان، وطاف بأقاليمها. فسمع بمرو عمر بن علك، ودخل نيسابور سنة [٣٣٣هـ/٩٤٤م] وأقام بها أربع سنين، سمع من معظم علمائها[٢٢]، ثم دخل الدينور وسمع بها. ثم رحل إلى العراق، التي كانت تموج بالحركة العلمية، فدخلها عام [٣٤٠هـ/٩٥١م] وسمع: محمد بن شعيب الطبري، ومحمد بن الفضل الفريابي، ومحمد بن محمد بن حاتم السجستاني، والهيثم بن كليب الشاشي[٢٣] وغيرهم.

وبعد انصرافه من بغداد، ارتحل إلى الشام، فدخل دمشق وسمع بها: عبد الله بن الحسن بن بندار، وإبراهيم بن علي الهجيمي[٢٤]. وسمع ببيروت العلاّمة مكحول البيروتي.

ثم يمّم وجهه إلى مصر، التي كانت تزخر بحركة علمية واسعة استطاعت أن تنافس بغداد -عاصمة الخلافة الإسلامية- خاصة وأنّ الدولة الفاطمية كانت تحكم مصر حينئذ، فأرادت أن تجعل من القاهرة عاصمة الثقافة في العالم الإسلامي. فأقبل الشعراء على البلاط الفاطمي ينهلون من عطايا الخلفاء الفاطميين[٢٥]. وبعد فترة ليست بالقليلة، خرج ابن حيونة إلى بلاد الحجاز لأداء فريضة الحج، وبعدها عاد إلى مسقط رأسه بخارى[٢٦] سنة [٣٥٥هـ/٩٦٥م].

هكذا كانت رحلة ابن حيونة العلمية، دخل معظم الأمصار الإسلامية، وسمع من علمائها، وجمع مادة علمية زاخرة، نال من خلالها ثناء وثقة العلماء. حتى قال الحاكم النيسابوري عنه: "أديب، حافظ، نحويّ، كان من

أعيان الرجال.... وله نظم"[٢٧]. لم تذكر لنا المصادر شيئًا من شِعر ابن حيونة، غير أنّ الحافظ أبا عبد الله النيسابوري ذكر في "**تاريخ نيسابور**" أنَّ عنده قصيدة لابن حيونة قالها في مدح شيخه أبي أحمد التميمي، ولكنه لم يذكر لنا شيئًا منها"[٢٨].

على كل حال، استطاع ابن حيونة أن يكوّن حوله حركة علمية في بخارى، وهي حركة يغلب عليها علم اللغة. لذا فقد رحل إليه طلاب العلم للأخذ عنه، ومن أشهرهم: الحاكم النيسابوري الذي قال: "كتبنا عنه ببخارى سنة [٣٥٦هـ/٩٦٦م] وكان قلَّما يفارقنا"[٢٩]. كما أخذ عنه تّمام الرازي، وعبد الغني بن سعيد الأزدي المصري، وأبو عبد الله غنجار، ومحمد بن عمر بن بكير المقرئ، وعلي بن يعقوب بن أبي العقب[٣٠] وغيرهم.

توفى ابن حيونة في بخارى سنة [٣٥٩هـ/٩٦٩م][٣١]، بعد رحلة طويلة من العطاء والبذل. رحل ولم يترك لنا شيئًا من شِعره أو نظمه أو مؤلفاته. ويكفيه كلام الإمام الذهبي عنه "الإمام، الحافظ، الرحَّال، النحوي، الأوحد"[٣٢].

صفوة القول، إنّ العلاقات الثقافية بين مصر وبلاد ما وراء النهر في مجال علوم اللغة كانت قليلة جدًّا، لم تشهد حراكًا ثقافيًّا إلا على نطاق ضيِّق، وربما يرجع ذلك إلى استقرار علماء اللغة في الأمصار الإسلامية، فلم يرغب طلاب العلم في الرحلة عن أوطانهم كما فعل المحدثون.

وربما يرجع -أيضًا- إلى غلبة اللغة الفارسية في بلاد ما وراء النهر[٣٣] على اللغة العربية، حيث لم يستطع الشعراء العرب إجادة اللغة الفارسية

إجادة تامّة ومدح الأمراء بها. ومن ثم لم يرغبوا في السفر إلى بلاد ما وراء النهر، وفضّلوا الحواضر الإسلامية، مثل: القاهرة، وبغداد، ودمشق.

الهوامش:

(١) التفاصيل في: أحمد أمين: **ضحى الإسلام**، ج٢، ص٢٦٣.

(٢) د. سزكين: **تاريخ التراث العربي**، م٢، ج٤، ص٢٥٠.

(٣) ياقوت الحموي: **معجم الأدباء**، ج٢، ص٣٠٢.

(٤) ابن الأنباري: [كمال الدين عبد الرحمن بن محمد ت ٥٧٧هـ]: **نزهة الألباء في طبقات الأدباء**، تحقيق د. إبراهيم السامرائي، الأردن، مكتبة المنار، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م، ط٣، ص٢٣٨.

(٥) التفاصيل في الصفدي: **الوافي بالوفيات**، ج٨، ص١٠٢.

(٦) كحالة: **معجم المؤلفين**، ج٩، ص١٨.

(٧) الثعالبي: [أبي منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل النيسابوري ت ٤٢٩هـ]: **يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر**، تحقيق د. مفيد محمد قميحة، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م، ج٤، ط١، ص١٧٨.

(٨) ياقوت الحموي: **معجم الأدباء**، ج٢، ص٣٠٣.

(٩) نماذج من هذا الشِّعر في ياقوت: نفس المصدر، نفس الجزء، ص٣٠٥.

(١٠) **يتيمة الدهر**، ج٤، ص١٧٩.

(١١) إسماعيل البغدادي: **هدية العارفين**، ج١، ص٧٢، كحالة: **معجم المؤلفين**، ج٩، ص١٨، د.سزكين. تاريخ التراث العربي، م٢، ج٤، ص٥١.

(١٢) المصدر السابق، نفس الصفحة.

(١٣) ياقوت الحموي: ج٢، ص٣٠٣-٣٠٥.

(١٤) الصفدي، ج٨، ص١٠٢.

(١٥) انظر على سبيل المثال حكايته مع الصاحب بن عبّاد التي أوردها ياقوت الحموي: **معجم الأدباء**، ج٢، ص٣٠٥ وما بعدها.

(١٦) **الوافي بالوفيات**، ج٨، ص١٠٢.

(١٧) **يتيمة الدهر**، ج٤، ص١٧٨.

(١٨) كحالة: ج٩، ص١٨.

(١٩) إسماعيل البغدادي، ج١، ص٧٢.

(٢٠) القفطي: **أنباه الرواة**، ج٢، ص٣٩٢، ذكره "حُيُوية".

(٢١) السيوطي: [عبد الرحمن بن أبي بكر ت٩١١هـ]: **بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة**، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، لبنان، المكتبة العصرية، [ب.ت]، ج٢، ص٩٧.

(٢٢) ابن عساكر: **تاريخ دمشق**، ج٣٦، ص٢٥٦.

(٢٣) الخطيب البغدادي: **تاريخ بغداد**، ج١١، ص٤٢.

(٢٤) ابن منظور: **مختصر تاريخ دمشق**، ج١٥، ص١٢٨.

(٢٥) أحمد أمين: **ظُهر الإسلام**، القاهرة، النهضة المصرية، ١٩٥٨م، ج١، ط٤، ص٢٠٥-٢٠٨.

(٢٦) الذهبي: **سِيَر أعلام النبلاء**، ج١٦، ص٢٩٠.

(٢٧) السيوطي: **بغية الوعاة**، ج٢، ص٩٧.

(٢٨) القفطي: **أنباه الرواة**، ج٢، ص١٣٢.

(٢٩) ابن عساكر: **تاريخ دمشق**، ج٣٦، ص٢٥٦.

(٣٠) الذهبي: **سِيَر أعلام النبلاء**، ج١٦، ص٢٩٠.

(٣١) السيوطي: **بغية الوعاة**، ج٢، ص٩٧. وذكر الخطيب البغدادي: **تاريخ بغداد**، ج١١، ص٤٢، والذهبي: **سِيَر أعلام النبلاء**، ج١٦، ص٢٩٠، أنه توفى سنة [٣٦٨هـ/٩٧٨م].

(٣٢) المصدر السابق، نفس الصفحة.

(٣٣) براون: **تاريخ الأدب في إيران**، ق١، ج١، ص٢٢٠ وما بعدها.

مؤرِّخو نَجْدٍ من أهلها، حَمَد الجاسر، ط١، ١٤٣٦هـ، إصدار مركز حمد الجاسر الثقافي، ١٦٨ص.

صدر هذا الكتاب من مركز حَمَد الجاسر الثقافي، وهو أثرٌ من آثار علاَّمة الجزيرة الشيخ حَمَد الجاسر -رَحِمَه الله- التي تُعنى بالتاريخ، كتبه في مقالاتٍ نُشرت في مجلَّة «**العرب**» وجريدة «**الرياض**»، فضَمَّها مركز حَمَد الجاسر الثقافي بين دفَّتَي هذا الكتاب؛ تسهيلاً للباحثين والدارسين والمهتمِّين بتاريخ منطقة نَجْد وبأخبارها، وبمن كتب عنها وأرَّخ لها من المؤرِّخين والعلماء والأدباء.

وهذه المقالات على قسمَيْن:

- الأوَّل: استعراضٌ للمؤرِّخين الذين أَرَّخوا لنَجْد من أبنائها إلى زمن الشيخ.
- والثاني: بحثٌ في كتاب «**النَّجم اللاَّمع، للنَّوادر جامع**» للمؤرِّخ محمَّد العلي العُبَيِّد، يعرض فيه الشيخُ الكتابَ ويدرس جوانب منه. ووَجْه إلحاقه بهذا الكتاب أنَّ الشيخ -رحمه الله- يستعرض حياة المؤلِّف ويُترجِم له ترجمةً وافية، ويبيِّن جهود علماء عُنَيزة في التاريخ، مستعرِضًا نُبَذًا عن حياة كلٍّ منهم وإسهاماته في تدوين تاريخ نَجْد، ويُشيرُ إلى مصادر ترجمته له. وقد نُشر هذا البحث في ستِّ حلقاتٍ بعنوانٍ واحد، فعُنوِنَت

كلٌّ حلقةٍ منها في هذا الكتاب بعنوانٍ خاص.

وبما أنَّ كُلاًّ من البحثَيْن منشورٌ في موضعٍ وزمانٍ مختلفَين، فمن الطبيعي أن يُورَد الحديث عن مؤرِّخي عُنَيزة (في القسم الثاني) ضمن مؤرِّخي نَجْد (في القسم الأوَّل) ببعض المعلومات المشتركة، ولكن لكلٍّ من القسمَيْن معلوماته التي انفرد بها، وعند ذِكر المؤرِّخ في الموضعَيْن فإنَّ القارئ يُحال في كلٍّ منهما إلى الموضع الآخَر؛ للمقارَنة.

يصف الشيخ -رحمه الله تعالى- الكتابَ التاريخي ومعلوماتِه، وآخِرَ ما صار إليه الكتاب، ويُضيف إلى ذلك تعليقاته وملاحظاته، وطبعاتِ الكتاب ومحقِّقِيه، ونُسَخَه المخطوطة. بعد ذلك يتتبَّع مصادر المؤرِّخ المعرفية، التي كثيرًا ما ينقُل فيها المؤرِّخ عن سَلَفه ويزيد قليلاً، ثم يشير الشيخ إلى قيمة هذه الزيادة في التاريخ من الناحية العلمية.

وهذه الأبحاث مُجمَلة مُوجَزة، راعى فيها الشيخ تقديمها إلى قرَّاء الصُّحُف والمجلات، فسَلَّمَها من الجدال والنقاش، مع كونها مُقنِعةً مكثَّفةً موثَّقة، وهي تكتسب قيمة معرفية إضافية من خلال إيراد الشيخ للتعليقات المُخالِفة لرأيه التي تصله من القرَّاء أو كانت بَلَغَتْهُ من قَبْلُ، فقد يشير إليها أو يوردها بتمامها استدراكًا، أو يرى أنها جانبت الصواب فيعلِّق عليها تعليقًا موجَزًا، أو يترك التعليق عليها؛ لأنَّ الجريدة والمجلَّة ليستا موضعَيْن صالحَيْن للنقاش والاستقصاء، ومن ثَمَّ فهو يعوِّل على القارئ نفسه في المقارَنة والحُكْم.

وفي هذه المقالات صورة صادقة لعلاقات الشيخ حَمَد -رحمه الله- مع المثقَّفين في الجزيرة العربية، والمهتمِّين بأدنى طرفٍ من تاريخها، وسيأخذك العَجَب من الشيخ وهو يتقصَّى أبلغَ التقصِّي، فهو يتَّصل، ويسافر، ويراسل، ويكاتب، ويستخبر، حتى استطاع أن يجعل بحثه عُصارة تجربة علمية ضمَّت معارفه وخبراته في هذا الموضوع.

وهذا الكتاب لا يستغني عنه باحثٌ في تاريخ منطقة نَجْدٍ بخاصَّة، والجزيرة العربية بعامَّة، وسيجد فيه ملاحظاتٍ دقيقةً للشيخ، لاسيَّما تلك التي تتعلَّق بحياة المؤرِّخين ومصادرهم، ونُسَخ كل تاريخ وميزته العلمية.

محمد النقشبندي

إهداءات إلى مكتبة العرب

أولاً– الكتب:

- أمي، عبدالله بن سالم الحميد، ط١، ١٤٣٣هـ/٢٠١٢م، خنساء نجد للنشر والتوزيع.
- فلسفة الوداع لدى غازي القصيبي، عبدالله بن سالم الحميد، ط١، ١٤٣٤هـ/ ٢٠١٣م، خنساء نجد للنشر والتوزيع.
- قطر في الذاكرة والوجدان، عبدالله بن سالم الحميد، ط١، ١٤٣٤هـ/٢٠١٣م، خنساء نجد للنشر والتوزيع.
- صاحب السمو الملكي الأمير سلمان بن عبدالعزيز آل سعود: خطب وكلمات، إصدار دارة الملك عبدالعزيز (٢٨٥)، الرياض، ١٤٣٤هـ.
- نفح العود في أيام الشريف حمود، تأليف عبدالرحمن بن أحمد البهكلي، تكملة الحسين بن أحمد عاكش، دراسة وتحقيق د. علي بن حسين الصميلي، إصدار دارة الملك عبدالعزيز (٢٨٦)، الرياض، ١٤٣٣هـ.

ثانيًا– المجلات:

- الفرقان، العدد ٧١٠، ٢٥ صفر ١٤٣٤هـ/ الموافق ٢٠١٣/٠١/٠٧م، رئيس التحرير: د. بسام الشطي.
- مجلة البحوث الإسلامية، العدد ٩٦ (ربيع الأول–ربيع الثاني–جمادى الأولى–جمادى الآخرة ١٤٣٣هـ)، رئيس التحرير: د. محمد بن سعد الشويعر.
- الفرقان، العدد ٧١١، ٠٢ ربيع الأول ١٤٣٤هـ/ الموافق ٢٠١٣/٠١/١٤م، رئيس التحرير: د. بسام الشطي.
- الفيصل، السنة ٣٧، العددان ٤٤١–٤٤٢، الربيعان ١٤٣٤هـ/ يناير–فبراير ٢٠١٣م، رئيس التحرير: يحيى محمود بن جنيد.
- الفرقان، العدد ٧١٢، ٠٩ ربيع الأول ١٤٣٤هـ/ الموافق ٢٠١٣/٠١/٢١م، رئيس التحرير: د. بسام الشطي.

الأصول العربية لتراث العرب في علم المعادن

بقلم: أ. مصطفى يعقوب عبدالنبي❖

مقدمة:

لعل القارئ المتتبّع لكتابات المستشرقين ومؤرخي العلم -عدا قلّة محدودة منهم- يستطيع أن يستخلص محورين أساسيين في جميع مؤلفاتهم:

المحور الأول: يدور حول تجاهل العلم العربي كلية، حتى إنّ بعض المؤرخين من الغرب قد قسموا العصور العلمية إلى عصرين رئيسيين؛ الأول: العصر الإغريقي ويمتدّ من سنة ٦٠٠ ق.م حتى سنة ٢٠٠م، أمّا العصر الثاني، فهو عصر النهضة الأوروبية التي تبدأ من سنة ١٤٥٠م وحتى الآن[١].

وواضح من هذا التقسيم الجائر، أنه قد أسقط حقبة الحضارة العربية الإسلامية، وهي حقبة وسع ملكها قارات العالم القديم من الأندلس غربًا إلى حدود الصين شرقًا، وامتد زمنها ما يقرب من ثمانية قرون، وهو زمن ليس بالقليل في عمر الحضارات. ولعل مرجع هذا التقسيم أنه كاد ينعقد الرأي عند جمهرة المستشرقين في القرن التاسع عشر على الاستخفاف بدور العرب في بناء الحضارة الإنسانية، والادعاء بأنّ العرب بطبيعتهم لم يخلقوا للتفكير الأصيل المبتكر[٢].

أمّا المحور الثاني فيدور حول تضخيم دور الثقافة الإغريقية وتأثيرها في الثقافة العربية، بحيث يخيّل للمرء من خلال استعراض آراء المستشرقين، أنّ الثقافة العربية في زعمهم، ما هي إلا ثقافة يونانية قد كتبت باللسان العربي، مستندين في هذا الزعم إلى حركة الترجمة الواسعة النطاق التي جرت في العصر العباسي، والتي بلغت ذروتها في عصر الخليفة المأمون الذي كان يعطي وزن ما يترجم إلى العربية ذهبًا مثلاً بمثل(٣). يقول مارتن بلسنر M.Plessner في الفصل الخاص الذي كتبه ضمن فصول كتاب "**تراث الإسلام**": «وبرغم معرفة المسلمين بالمنجزات العلمية للثقافات الأخرى، فإنّ علوم الإغريق كانت هي التي قدّر لها أن تؤثر تأثيرًا حاسمًا على العلم الإسلامي»(٤).

وقد ردّد هذا المعنى رينيه تاتون R. Taton المشرف على موسوعة "**تاريخ العلوم العامّ**" بقوله: «إنّ النظرة القائلة بأنّ العلم العربي ناتج عن خليط أو تلقيح وتخصيب للمعارف العلمية عند كل الأمم لا يثبت أمام الفحص. إنّ هيكلية الفكر العلمي العربي هي يونانية تمامًا»(٥).

أمّا المستشرق الفرنسي كارا دو فو Carra de Vaux فلا يتوانى عن الطعن الصريح في العرب حيث يقول: "لا ينبغي أن نتوقع أن نجد لدى العرب تلك العبقرية الخارقة، وتلك الموهبة المتمثّلة في المخيّلة العلمية، وذلك الحماس، وذلك الابتكار في الفكر، مما نعرفه عن الإغريق. فالعرب قبل كل شيء إنما كانوا تلاميذ للإغريق، وما علومهم إلا استمرار لعلوم اليونان التي حافظوا عليها ورعوها، وفي بعض الحالات طوّروها وحسّنوها(٦).

وعلى نفس الوتيرة ونفس النهج يقول المستشرق الإيطالي ألدو ميلي: «عن التأثر العلمي في العالم العربي إنما حصل دون استثناء تقريبًا عن طريق الكتب الإغريقية»(٧).

تلك هي النظرة التي سادت في أوساط غالبية المستشرقين والمؤرخين، وهي نظرة أبرز ما فيها، الجهل الواضح، والتعصب الفاضح حيال العلم العربي.

ولعل المستشرق اليوغوسلافي أحمد سمايلوفتش Smilovitch لم يتجاوز حد الصواب بإدراكه الدافع الخفيّ وراء مثل هذه الادعاءات وذلك في قوله: «ولعل بعض النفوس في الغرب قد أحسّت بالمرارة من خضوع بلادها المطلق لذلك الطارق الجديد -يقصد بذلك الحضارة العربية والمدّ الإسلامي- فأرادت إنكار فضله وأشادت بحضارة اليونان والرومان. وكان من نتائج صراع الشرق والغرب منذ قرون، وتفوّق العرب على أوروبا أن صار الغربيون يشعرون بمذلّة سببها الخضوع للحضارة الإسلامية فحاولوا أن ينكروا فضل المسلمين على أوروبا»(٨).

وحول هذا المعنى يقول مونتجمري وات M. Watt: «إننا معشر الأوروبيين نأبى -في عناد- أن نقرّ بفضل الإسلام الحضاري علينا، ونميل أحيانًا إلى التهوين من قدر وأهمية التأثير الإسلامي في تراثنا، بل ونتجاهل هذا التأثير تجاهلاً تامًّا. والواجب علينا أن نعترف اعترافًا كاملاً بهذا الفضل. أمّا إنكاره أو إخفاء معالمه فلا يدل إلا على كبرياء زائف»(٩).

وبرغم هذا لم تعدم الحضارة العربية نفرًا من المستشرقين والمؤرخين، قد تميّزوا بقدر من الحيدة والموضوعية، فردّوا الحق إلى نصابه وأنصفوا العلم العربي، بل وأبرزوا دوره المؤثر في بناء الحضارة الإنسانية، نذكر منهم على سبيل المثال: جوستاف لو بون J. Le Bon الذي أوضح أنّ ما قام به العرب في ثلاثة أو أربعة قرون من اكتشافات، يزيد على ما حقّقه الإغريق في زمن أطول من ذلك بكثير(١٠). كما عبّر ول ديورانت W. Durant أصدق تعبير عن مبلغ ارتقاء العلم العربي، حيث يقول في مؤلَّفه الشهير "**قصة الحضارة**": «وليس ما نعرفه من ثمار الفكر الإسلامي في تلك القرون الثلاثة إلا جزءًا صغيرًا مما بقى من تراث المسلمين. وليس هذا الجزء الباقي إلا قسمًا ضئيلاً مما أ ثمرته قرائحهم، وليس ما أثبتناه إلا نقطة في بحر تراثهم. وإذا كشف العلماء عن هذا التراث المنسي، فأكبر ظننا أننا سنضع القرن العاشر -يقصد القرن الرابع الهجري- من تاريخ الإسلام في الشرق بين العصور الذهبية في تاريخ العقل البشرى»(١١).

كتاب الأحجار المنسوب لأرسطو... الحقيقة والوهم:

على هذا الأساس لم يترك المستشرقون ومؤرخو العلم، علمًا من العلوم قد برع فيه العلماء العرب، إلا وأرجعوا هذه البراعة إلى التأثير الأجنبي الناجم عن حركة الترجمة والنقل -سواء أكان هذا التأثير يونانيًّا أم فارسيًّا أم هنديًّا- وإن كان التأثير اليوناني -في زعمهم- هو الرافد الأساسي الذي استمدّت منه الحضارة العربية علومها وإبداعها.

وعندما نأتي إلى علم المعادن Mineralogy عند العرب، سوف نجد أنه لم يسلم هو الآخر من نظرة جائرة تردّ معارف العرب العلمية فيه إلى أصول يونانية ممثلة في كتاب "**الأحجار**" المنسوب إلى أرسطو. يقول مارتن بلسنر في الفصل الذي تولى كتابته عن العلوم الطبيعية عند العرب ضمن فصول كتاب "**تراث الإسلام**": «كذلك فإنّ مؤلفات المسلمين في خواص المعادن والأحجار أثارت اهتمام الغرب. وكان المؤلفون المسلمون يُقبلون بشغف على الإفادة من كتاب "**الأحجار**" المنسوب لأرسطو»[١٢]. ولعل هذا القول ينمّ عن جهل عميق بمنهج التأليف في التراث العربي، فهذا "الشغف" الذي يدّعيه بلسنر، إنما هو أحد السمات الأساسية في التراث العربي الذي يعتمد في كثير من أدبياته على أقوال السابقين كما قيلت، وكما هي كنوع من توثيق المصادر الذي يصبّ في مجرى الأمانة العلمية التي افتقدها علماء الغرب وهم يسطون على الإنتاج العلمي العربي[١٣].

وعلى حين يظن فريق من المستشرقين أنّ العرب قد استمدّوا معارفهم العلمية في علم المعادن من كتاب "**الأحجار**" المنسوب إلى أرسطو نجد أنّ الرأي السائد في أوساط غالبية المستشرقين ومؤرخي العلم أنه كتاب منحول وليس من مؤلفات أرسطو، والدليل على ذلك أنّ المستشرق الألماني روسكا Ruska الذي حصل على الدكتوراه في سنة ١٩١١ من جامعة هيدلبرج برسالة عنوانها "**أبحاث في كتاب الأحجار لأرسطو**" حيث بيّن أنّ هذا الكتاب المنسوب إلى أرسطو، إنما تمّ تأليفه على يد أحد المشتغلين بالدراسات الطبية في الوسط السرياني الفارسي في منطقة الرها[١٤].

ويذهب هذا المذهب كل من سارتون، مؤرخ العلم الشهير، وكذلك المستشرق هولميارد، يقول عدنان النقاش: «يعتقد سارتون أنّ الكتاب ذو أصل سرياني أو فارسي، إذ إنه يحتوي على أسماء بعض الأحجار بالفارسية، وقد أغنانا هولميارد عن سرد تفاصيل هذا الجد بما توصل إليه من رأي حاسم في الموضوع فقد لفت نظره أنّ الذيل الملحق بالكتاب الرابع من موسوعة "**الآثار العلوية**" لأرسطو والمسمّى بالمعادن يحتوي على أسماء أعلام عرب، مما حدا بالمؤلفين إلى تناوله بالتحقيق الدقيق الذي أبرز شواهد أخرى دلّت على أنّ بعضه ترجمة مباشرة تمّت في العصور الوسطى لأجزاء من كتاب عربي قديم هو "**الشفاء**" لابن سينا، وبعضه الآخر ملخصات بتصرف لأجزاء أخرى من الكتاب نفسه»[١٥].

وأغلب الظن أنّ هذا الكتاب قد لفّق زورًا إلى أرسطو الذي نسب إلى اسمه عدد كبير من الكتب المزيّفة، وهي من الظواهر السلبية المعروفة في حركة الترجمة والنقل[١٦].

ومن الطريف أنّ كتاب "**الأحجار**" إنما هو كتاب ملفّق نُسب زورًا إلى أرسطو ما وجدناه في "**عجائب المخلوقات**" للقزويني، حيث يقول عن الماس: «قال أرسطو: والموضع الذي فيه الماس لم يصل إليه أحد، وهو وادٍ بأرض الهند. وفي الأفاعي فألقى الإسكندر بفيها قطاع باللحم، فتشبثت بقطاع الماس وجاءت الطير من الجو وأخذت من ذلك اللحم وأخرجته من الوادي، فأمر الإسكندر أصحابه باتّباع الطير والتقاط ما ينتثر من ذلك اللحم -يقصد قطع الماس-...الخ»[١٧]. غير أننا وجدنا هذه

الطريقة لجلب الماس مذكورة بحذافيرها في "**ألف ليلة وليلة**" ضمن رحلات السندباد البحري[١٨]. وإذا كان هذا الأمر مقبولاً في قصص كقصص "**ألف ليلة وليلة**" حيث يسود الخيال الذي هو أقرب إلى الخوارق والأساطير، فليس من المقبول على الإطلاق أن يكون هذا هو رأي أرسطو لسببين: الأول: ذلك التوارد العجيب في الفكرة والمعنى وإلى حد كبير في الألفاظ، وهو التوارد الذي يوشك أن يكون مثل "وقع الحافر على الحافر" كما يقولون. ومن يدقق فيما جاء على لسان القزويني سوف يلاحظ أنّ أرسطو قد نقل هذه الطريقة لجلب الماس عن الإسكندر، غير أنّ التاريخ له رأي آخر، وهو رأي يقطع بتلفيق أو اختلاق ما جاء على لسان القزويني؛ لأنّ الإسكندر قد مات بعد عودته من الهند في بابل سنة ٣٢٢ق.م[١٩]. بينما كانت وفاة أرسطو بعده بسنة واحدة، أي في سنة ٣٢٢ ق.م[٢٠]. ومعنى هذا أنهما لم يلتقيا، فكيف نقل أرسطو عن الإسكندر ما نقل عن طريقة جلب الماس من الهند.

والثاني: من المعروف علميًّا أنّ الماس ليس بهذه الكثرة بحيث يلتصق بقطعة من اللحم، إذ إنّ الندرة هي من أخص مميّزات الأحجار الكريمة فضلاً عن الماس الذي يعدّ من أندر أنواع الأحجار الكريمة.

والحقيقة أنّ علم المعادن عند العرب -خلافًا لأيّ زعم ينادى بأصوله اليونانية- هو علم أبعد ما يكون عن التأثير اليوناني، أو على الأقل إنّ التأثير اليوناني فيه تأثير ضعيف للغاية، ولا نجاوز الصواب إذا قلنا إنه إذا كان هناك تأثير يوناني على علم المعادن عند العرب فهو تأثير سلبي،

بمعنى أنّ ما أدخل على علم المعادن من معطيات يونانية إنما هي معطيات لا تستقيم عقلاً ومنطقًا، بل هي أقرب للخرافات والأوهام، ويكفي للدلالة على ذلك ما أورده القزويني في كتابه "**عجائب المخلوقات**" من كمّ كبير من الخرافات والخواص العجيبة للمعادن والأحجار نقلاً عن أرسطو(٢١).

ولعل ما ينفي التأثير اليوناني على العرب **-**جملة وتفصيلاً**-** فيما يتعلق بعلوم المعادن عن طريق كتاب الأحجار المنسوب إلى أرسطو هو أنّ دراسة المعادن هي من الدراسات العملية وليست من العلوم النظرية كالهندسة والحساب والفلَك مثلاً، بمعنى أنه لابد أن يتوافر لمثل هذه الدراسة؛ الجوهر الفرد، أي المعدن المطلوب دراسته. وعلى هذا فالكتاب -على فرض ما زعمه المستشرقون- ليس بذي جدوى في هذه الحالة. ولعلنا لا نجاوز الصواب إن قلنا: إنّ العرب كانوا أسبق من اليونانيين في معرفة الكثير من معادن الأحجار الكريمة، بحكم قرب الجوار من فارس، حيث الفيروز واللازورد، ومن الهند وسيلان، حيث الماس واليواقيت وسائر صنوف الأحجار الكريمة التي اشتهرت بها كل من الهند وسيلان.

شواهد من معرفة العرب القدماء بالمعادن:

أولاً- الأحجار الكريمة:

الأحجار الكريمة هي طائفة خاصة من المعادن تتميّز بالجمال والجاذبية في الشكل واللون، مما جعلها مطلبًا من مطالب الزينة عند الإنسان من أقدم العصور في سائر الحضارات الإنسانية. وقد عرف العرب القدماء هذا

النوع من المعادن، ولعل الشِّعر الجاهلي أو الشِّعر في العصر الأموي وهو أقرب زمنيًّا إلى العصر الجاهلي، باعتبار أنّ الشِّعر هو ديوان العرب الذي لم يترك شاردة أو واردة في حياة العرب السياسية أو الاجتماعية أو البيئية أو حتى النفسية إلا وأوردها وعددها، هو الشاهد العدل على معرفة العرب القدماء بالمعادن وخاصة الأحجار الكريمة. يقول طرفة بن العبد في معلّقته الشهيرة:

وفي الحيّ أحوى ينفُضُ المرْدِ شادنٌ مظاهر من سمطي لؤلؤٍ وزبرجد[٢٢]

ويقول قيس بن الخطيم:

وجِيدٌ كجيدِ الرِّئمِ صافٍ يزينه توقّد ياقوت وفصل زبرجد[٢٣]

يقول سحيم بن عبد بني الحسحاس:

وجِيدٌ كجيدِ الرِّيمِ ليس بعاطل من الدرّ والياقوت والشذر حاليا

والشذر خرز من فضة[٢٤].

ويقول حاتم الطائي:

ونحرًا كفى نور الجبين يزينُه توقد ياقوتٍ وشذرٌ منظما[٢٥]

ويقول الأعشى:

وجل زبرجدة فوقه وياقوتة خلت شيئًا نكيرا[٢٦]

ويقول أيضًا:

وبيض كأمثال العقيق صوارم تصان ليوم الدوخ فينا وتخشب[٢٧]

ويقول المرقّش الأصغر، وهو شاعر جاهلي:

تحلين ياقوتًا وشذرًا وصيغة وجزعًا ظفاريًّا ودرًّا توائما[٢٨]

ويقول امرؤ القيس في معلّقته الشهيرة:

فـــأدبرن كـــالجزع المفـــصل بينـــه بجيـــد معـــمٍّ في العـــشرة مخـــول[٢٩]

ويقول في قصيدة أخرى:

كـأن عيـون الـوحش حـول خبائنـا وأرحلنـا الجـزع الـذي لم يثقـب[٣٠]

والجزع من وجهة نظر علم المعادن واحد من أفراد كثيرة ضمن مجموعة شهيرة من مجموعات المعادن؛ وهي مجموعة السيليكا Silica Group التي تنقسم إلى قسمين؛ قسم متبلور Crystalline وقسم خفي التبلور Cryptocrystalline، ومن بين الأنواع المتبلورة البلور الصخري Rock Crystal الذي يعرف في أدبيات التراث العربي بـ"المها" أو البلور. ومن بين الأنواع الخفية التبلور العقيق Agate والجزع Onyx والفرق بين العقيق والجزع، أنّ العقيق يتميّز بوجود طبقات أو صفوف ملوّنة دائرية أو متموّجة، بينما الجزع يتميّز بوجود طبقات وصفوف مستقيمة[٣١]. والمهاة -كما جاء في **اللسان**- «الحجارة البيض التي تبرق. والمهاة: البلورة التي تبصّ لشدة بياضها. وقيل: هي الدرة. والمها: البلور»[٣٢]. ومن الواضح أنّ هذه الأنواع كانت من الوفرة بمكان في شبه الجزيرة العربية، يقول الهمداني في كتابه "**صفة جزيرة العرب**" وتحت عنوان: عجائب اليمن التي ليس في بلد مثلها: «وبها فصوص البقران، وهو أن يكون وجهه أحمر فوق عرق أبيض فوق عرق أسود. والبقران ألوان ومعدنه بجبل أنس، والسعوانية من سعوان واد إلى جنب صنعاء، وهو فص أسود فيه عرق أبيض، والبلور في مواضع منها... الخ»[٣٣]. إذًا فقد كان للعرب القدماء

معرفة بالأحجار الكريمة التي كانت سائدة في ذلك العصر، والأحجار الكريمة هي طائفة من المعادن تتمتع بالجمال والجاذبية في اللون والمنظر، وهي من القواسم المشتركة في الحضارات القديمة وليست معرفتها حكرًا على حضارة بعينها. ومعنى هذا أنّ العرب القدماء -وحتى في بداواتهم- كانوا على عِلْم بتلك الطائفة من المعادن. ليس هذا فحسب بل صارت الأحجار الكريمة كلها، سواء أكانت المعروفة لدى العرب أم كانت غير معروفة لهم، في حوزتهم وبين أيديهم إبان الفتوحات الإسلامية وخاصة عند فتح فارس، يقول جرجي زيدان: «وأكثر ما تناقله المسلمون من الحجارة الكريمة في أوائل دولتهم، مأخوذ من غنائم الفُرس، لأنهم غنموا ما يفوق الحصر من الجواهر التي قضى الفرس الأجيال وهم يجمعونها ويتوارثونها»[٣٤]. ومعنى هذا أنّ العرب لم يكونوا بحاجة إلى كتاب مترجم يعرّفهم بما هو معروف لديهم أصلاً، لتسقط تلك الحجة التي يردّدها المستشرقون لدى كل عِلْم برز فيه العرب على نحوٍ ما، بأنه وليدة حركة الترجمة، وخاصة ترجمة التراث اليوناني إلى العربية.

ثانيًا- الذهب والفضة:

الذهب والفضة من أوائل المعادن التي عرفها الإنسان القديم، فهما من القواسم المشتركة في الحضارات القديمة، وإن اشتهر المصريون القدماء، من بين سائر الحضارات القديمة ببراعتهم الفائقة في تعدين واستخلاص الذهب متمثّلة في الآثار والمقتنيات الأثرية المصنوعة من الذهب ولاسيما قناع توت عنخ أمون الذهبي الشهير. ومن الحقائق التي تبدو غريبة، غير

أنها من الحقائق الثابتة والمؤكدة أنّ العرب القدماء كانوا على حظ عظيم من البراعة في التنقيب وفي البحث وفي استخلاص الذهب من مكامنه، بدليل وجود ١٦٦ منجمًا قديمًا للذهب(٣٥)، وكذلك ١٢ منجمًا قديمًا للفضة(٣٦) عدّدها جميعًا وحدّد مواقعها بدقة وإحداثياتها بخطوط الطول والعرض علاّمة الجزيرة الشيخ حمد الجاسر -رحمه الله- لدى تحقيقه الرائع والممتاز كتاب "**الجوهرتين العتيقتين**" للهمداني. ومما يؤكد تلك البراعة في التنقيب عن الذهب معرفة العرب القدماء بحقيقة من الحقائق الأساسية التي لا غنى عنها في أعمال التعدين وهو معرفتهم بأساليب التهوية في المناجم(٣٧). غير أنه للأسف الشديد لم يحتفظ التاريخ بشيء ذي بال من المقتنيات الذهبية أو الفضية التي استخرجها العرب القدماء من المناجم، ولعل العرب القدماء استغلّوا الذهب والفضة المستخرج من المناجم في المبادلات التجارية، كتفسير محتمل لعدم وجود شيء من الآثار الذهبية والفضية، بعكس المصريين القدماء الذين احتفظوا بكل جرام من الذهب في صياغة وصناعة المقتنيات الذهبية التي تزخر بها المتاحف المصرية.

ثالثًا- النحاس:

النحاس هو أيضًا من أوائل العناصر التي اكتشفها الإنسان القديم، فأقدم الأدوات النحاسية التي كان يستخدمها الإنسان والتي تمّ العثور عليها هي مشغولات وحليّ نحاسية ترجع إلى ٩٥٠٠ ق.م، وقد وجدت في أحد الكهوف في جبال زاجروس شمال شرق العراق، وكذلك خرزات

نحاسية في مقابر حضارة مال الأسرات في البداري في صعيد مصر (٥٠٠٠-٤٥٠٠ ق.م)[٣٨]. ولم يكن نصيب العرب القدماء بأقل من نصيب الحضارات التي عرفت النحاس ومعادنه، إلا أنه للأسف الشديد لم يحفظ التاريخ شيئًا من المقتنيات المصنوعة من النحاس، فخلا تاريخ العلم من أيّ دور للعرب القدماء في هذا الشأن، غير أنه يوجد من الشواهد والدلائل ما يقطع أنّ العرب القدماء قد برعوا في التنقيب عن النحاس واستخلاصه من معادنه.

الشاهد الأول: وجود عدد من مناجم النحاس القديمة، فقد أورد الشيخ حمد الجاسر ٢٨ منجمًا للنحاس عدّدها جميعًا بالاسم، وإحداثيات العرض والطول[٣٩]، وهو عدد غير قليل في منطقة بعينها وهي حدود المملكة العربية السعودية.

الشاهد الثاني: في فبراير سنة ١٩٧٣ عقدت سلطنة عُمان مع إحدى شركات التعدين للقيام ببرنامج تنقيب معدني في جبال عُمان وكتبت تقريرًا تحت عنوان "بحث مبدئي في التعدين القديم في سلطنة عُمان" جاء فيه: "كان الناس يلاحظون في المتاحف مصنوعات نحاسية (يرجع تاريخها إلى الألف الثاني ق.م). ففي كتابه "**البحث عن دلمون**" وصف القائم على البحث ألواحًا فخارية عثر عليها في أور تذكر شحن عشرين طنًّا من النحاس حوالي ١٨٠٠ ق.م من مجان إلى أور. كما تبيّن للشركة القائمة على برنامج التنقيب المعدني وجود ما لا يقلّ عن ٤٤ موقع تعدين قديم[٤٠]. كما تبيّن أنّ كمية نفايات المعادن القائمة على المواضع المختلفة

تتراوح بين ١٠٠ طن إلى ما يزيد على ١٠٠,٠٠٠ طن (مئة ألف طن) مما يدل على استخراج كميات ضخمة نسبيًّا من المواد المعدنية[٤١]. ويلاحظ في هذا التقرير أمران؛ الأول: وجود هذا العدد الكبير من مناجم النحاس القديمة في منطقة محدودة للغاية كسلطنة عُمان. الثاني: وجود هذا الكمّ الكبير من النفايات المعدنية الناتجة عن عمليات الحفر والاستخراج والصهر الذي يصل في بعض المواقع إلى مئة ألف طن، مما يقطع بوجود عمليات تشغيل كبيرة ومستمرة لهذه المواقع.

رابعًا- الزرنيخ:

الزرنيخ Arsenic هو اسم عربي نقل إلى اللاتينية تحت اسم "أرزينكوم" Arsenicum ومنه جاء في الإنجليزية "ارزينك" Arsenic[٤٢]. وحول سبق العرب في معرفة الزرنيخ يدور قدر من الجدل. يقول العالم ريمي في سياق الحديث عن تاريخ الزرنيخ: «ذكر أرسطو وتلميذه ثيوفراست الساندارخ Sandarch معبّرين بذلك عن مركّبي الزرنيخ: الرياجار Realgar والأوربيمنت. أمّا تحضير الزرنيخ فقد ورد ذِكره لأول مرة في كتابات ألبرت ماجنوس Albert Magnus في القرن الثالث عشر»[٤٣].

وهذا القول يحتاج منا إلى تدقيق ومراجعة عبر أمرين:

الأول: أنّ اسم الزرنيخ هو اسم عربي، كما أنّ معدنه الأساسي وهوك؛ الرياجار هو أيضًا اسم عربي محض، فمعدن الرياجار والذي يتكوّن كيميائيًّا من كبريتيد الزرنيخ، إنما هو تحريف لاسم (رهج الغار)، أي

مسحوق المنجم Powder of Mine كما جاء في **معجم وبستر** الشهير(٤٤) فكيف لأرسطو وتلميذه معرفة عنصر ومعدنه الأساسي كلاهما ذو اسم عربي. ومن السهل تعليل ذلك فنقول إنّ الكثير من مؤلفات أرسطو إنما هي مؤلفات منحولة وملفّقة، أي أنها مؤلفات عربية نسبت زورًا إلى أرسطو، طمعًا في المكافأة إبّان حركة الترجمة الواسعة النطاق التي كان الخليفة المأمون يعطي زنة ما يترجم إلى العربية من الذهب مثلاً بمثل كما مرّ بنا.

الثاني: وقد يبدو من هذا القول أنّ ألبرت ماجنوس هو عالم من علماء الكيمياء وأنه أول من قام بتحضير الزرنيخ، غير أنّ الحقيقة خلاف ذلك تمامًا؛ لأنّ ريمي قد قصد بقوله هذا أنّ أوروبا لم تعرف طريقة تحضير الزرنيخ إلا من كتابات ألبرت هذا. وألبرت ماجنوس أو كما يطلق عليه أحيانًا ألبرت الكبير (١٢٠٦-١٢٨٠م) إنما هو مستشرق ألماني توفّر على دراسة كنوز الثقافة العربية، وصنّف كتبًا في الحيوان والنبات، أمّا في الفلسفة فقد اقتبس عن الفارابي وابن سينا والغزالي واستعان بشروح ابن رشد ...الخ(٤٥).

ومن الأمور ذات الدلالة الخطيرة والتي لم يفطن إليها كثير من الباحثين، تلك الإشارة المتعلّقة بألبرت الكبير، والتي أوردها فرانك أدمز F. Adams مؤرخ الجيولوجيا في مؤلفه الشهير "**مولد وتطوّر العلوم الجيولوجية**"، إذ أشار أدمز إلى أنّ ألبرت الكبير قد ألّف في سنة ١٢٦٠م كتابًا من خمسة أجزاء تناول في الجزأين الأولين منها المعادن والأحجار،

وقد نقل أدمز عن ألبرت نفسه اعترافه بأنه قد استمد نظرية أصل الأحجار من ابن سينا[٤٦].

إذا فقد عرفت أوروبا الزرنيخ ومعدنه الأساسي وهو معدن الريالجار، وكذلك طريقة تحضير الزرنيخ نقلاً عن مؤلفات التراث العلمي العربي عبر ترجمة ودراسة ألبرت الكبير لتلك المؤلفات .

ولعله من المناسب في هذا المقام أن نفسّر معرفة العرب القدماء للزرنيخ في هذا الوقت المبكر، رغم أنّ الزرنيخ لا يتمتع بالانتشار الواسع أو الوفرة التي تجعل من معرفته أمرًا ميسورًا. فمن المعروف علميًّا وخاصة في أدبيات علم الجيوكيمياء، أنّ هناك عناصر تميل إلى التلازم مع عناصر أخرى بعينها وتسمَّى تلك العناصر بـ(العناصر الدالة) Indicator elements وقد وجد أنّ عنصر الزرنيخ يميل إلى التواجد مع عنصر الذهب، حيث يعدّ وجود عنصر الزرنيخ دالاً على وجود خامات الذهب العرقية[٤٧]، كما أنّ الريالجار يوجد في العروق الحاوية على خامات الرصاص والفضة والذهب[٤٨]. وبالنظر إلى الكم الكبير من مناجم الذهب في شبه الجزيرة العربية الذي يصل إلى ١٦٦ منجمًا سوف نجد أنه من السهل معرفة العرب القدماء لعنصر الزرنيخ الذي يميل إلى التلازم مع خامات الذهب. أمّا عن اسم معدن الزرنيخ الأساسي وهو: رهج الغار الذي تم تحريفه ليصبح في مراجع علوم المعادن بلغات العالم المختلفة؛ الريالجار فـ"رهج" في اللغة -كما جاء في **لسان العرب**- الرهج: الغبار[٤٩]، والغار: مغارة في الجبل، وقيل: الغار كالكهف في الجبل[٥٠]. ومعنى هذا

أنّ الغار في لغتنا المعاصرة هو: المنجم. وإذا علمنا أنّ من أهم الصور التي وجد عليها معدن الرياجار هي الصورة الترابية[٥١] لأدركنا على الفور معنى كلمة (رهج) هنا التي تعني: الغبار أو التراب.

خامسا- الأنتيمون:

الأنتيمون Antimony: هو أحد العناصر المعروفة بندرتها في سطح القشرة الأرضية، بل هو من أندر العناصر وجودًا، ولا يكون سوى ٠٠٢ , ٠ في المئة من القشرة الأرضية[٥٢] والذي يتميّز بلونه الأسود البرّاق، ومن هذه الخاصية فقد استخدم قديمًا في تكحيل العيون، وحتى الآن لا تزال مركّباته تستخدم في مستحضرات التجميل لنفس الغرض، ومن أهم مصادره المعدنية معدن (الأنتيمونيت) Antimonite -ويعرف في بعض المراجع باسم ستيبنيتٍ Stibnite- الذي يتكون من كبريتيد الأنتيمون[٥٣].

يقول العالم الكيميائي ريمي في سياقه التاريخي حول هذا العنصر: «كان كبريتيد الأنتيمون معروفًا في القرون الغابرة، وكان يستخدم لإكحال العيون والرموش، وكان معروفًا عند الإغريق باسم (ستيمي) وعند الرومان باسم (ستيبيوم) Stebiuem، ثم انحدر إلينا لفظ الأنتيمون المشتقّ على ما يحتمل من اللغة العربية، وانتقل الاسم من الخام إلى الفلز»[٥٤]. ليس هذا فحسب، فإنّ الدكتور التونجي ينقل عن كتاب وولت تايلور Walt Taylor والذي عنوانه: **Arabic Words in English** التاريخ الذي وردت فيه لفظة Antimony -أي الإثمد العربية- إلى اللغة الإنجليزية والتي حدّدها بسنة ١٤٧٧م[٥٥].

والحقيقة أنّ لفظ (أنتيمون) قد اشتق من الكلمة العربية (إثمد) جاء في "**اللسان**": "الإثمد: حجر يتخذ منه الكحل، وقيل: ضرب من الكحل؛ وقيل هو نفس الكحل. ويقال: فلان يجعل الليل إثمدًا، أي يسهر، فجعل سواد الليل لعينيه كالإثمد[٥٦].

ومن المحقق أنّ العرب القدماء قد عرفوا هذا العنصر النادر فقد ورد ذِكر الإثمد كثيرًا في الشِّعر الجاهلي، فيقول قيس بن الخطيم:

ومـاء علـى حافاتـه أُبِّـدُ القطـا ... تخـال بـه دمـن المعـاطن إثمـدا[٥٧]

ويقول عبيد بن الأبرص:

غـداة بـدت مـن سترها وكأنهـا ... تحـف ثناياهـا بحالـك إثمـد[٥٨]

غير أنّ هناك بيتًا يجب أن نتوقف عنده قليلاً؛ يقول حميد بن ثور الهلالي، وهو من الشعراء المخضرمين:

فغـادرن مـسودّ الرمـاد كأنـه ... حـصى إثمـدٍ بـين الـصلاء سـحيق

وجاء في شرح الشارح: «الإثمد حجر يتخذ منه الكحل. والصلاء مداقّ الطيب ونحوه، شبه مسود الرماد على إثر ذهاب المطر بحصى حجر الكحل المسحوق في المداقّ»[٥٩]. والرؤية العلمية لهذا البيت تقول: إنّ هناك فئة من العرب القدماء قد احترفت البحث والتنقيب عن كتل معادن الإثمد -وهو معدن الأنتيمونيت- تلك الكتل التي عبّر عنها الشاعر بـ(الحصى) وهو الحصى الذي يُدقُّ في أواني الدق والتي عبّر عنها الشاعر بـ(المداق) ثم يُسحق؛ أي يصير مسحوقًا، تمهيدًا لاستعماله في الكحل. ومعنى هذا أنّ هناك من العرب القدماء كانوا على علم بمكامن هذا المعدن النادر

يستخرجونه من مكامنه، فهم في هذه الحالة أقرب ما يكونوا إلى جيولوجيي ذلك العصر الذين يقومون بالبحث والتنقيب عن المعادن.

ومن الطريف في الأمر أنّ اليونان لم تعرف هذا الحجر إلا على يد الرحّالة والجغرافي الشهير بليني (٢٣-٧٩ م) الذي وجد نساء الشرق يستخدمنه في الاكتحال، ومن الجدير بالذكر أنّ بليني هذا هو الذي أطلق عليه اسم (أنتيمون)، غير أنّ هذه اللفظة المشتقّة من (الإثمد) العربية[٦٠] والتي قد غلبت شهرتها على ما عداها لتبقى دليلاً حيًّا يطالع كل المشتغلين والدارسين لعلوم الكيمياء والمعادن على فضل سبق العرب، وهو فضل لا سبيل لإنكاره أو تجاهله.

ومن هنا يبرز دليل دامغ على أنّ كتاب "**الأحجار**" المنسوب لأرسطو إنما هو كتاب لفقه أحد النقلة الذين كانوا جميعًا من غير بني العرب -كما هو معروف- طمعًا في المكافأة، ما جاء في "**عجائب المخلوقات**" «إثمد: قال أرسطو: هو حجر معروف له معادن كثيرة وأغلبها في أكناف الشرق ...الخ»[٦١]. فكيف يستقيم هذا القول من أرسطو الذي توفي سنة ٣٢٢ق.م[٦٢] مع بليني الذي توفي سنة ٧٩م الذي تعرّف على الأنتيمون أو الإثمد لأول مرة، أي أنّ أرسطو كان سابقًا بأكثر من ثلاثة قرون.

سادسًا- الحديد:

على الرغم من أنّ الحديد من أكثر المعادن شيوعًا وانتشارًا بحيث كان من المفروض أن يكون أسبق في المعرفة من النحاس إلا أنّ درجة انصهار الحديد العالية وقلّة درجة انصهار النحاس وقفت حائلاً دون أن يكون

للحديد السبق في المعرفة، فكان النحاس أسبق منه في الاكتشاف. وعلى الرغم أيضًا من وجود خامات الحديد في شبه الجزيرة العربية، إلا أنه لم يثبت بصورة مؤثّرة وجود مقتنيات أثرية حديدية بحيث تسجّل في تاريخ التعدين، بدليل أنّ ول ديورانت لم يُشر ولو مجرد إشارة في الفصل الذي خصّصه عن (ظهور المعادن)[٦٣]. غير أنّ هناك ما يثبت أنّ العرب القدماء قد عرفوا الحديد وكيفية استخلاصه على نحو ما، فقد كانت من أبرز فترات النشاط التعديني فترة حكم الملك سليمان خلال القرن الثامن قبل الميلاد[٦٤]. وإذا كان الدليل المادي الملموس من المقتنيات الأثرية الحديدية قد عدت عليه عوادي الزمن بفعل البشر أو بفعل الطبيعة فإنّ هناك دليلاً آخر ربما يصلح ما أفسده البشر وما أضاعته الطبيعة، وهذا الدليل هو: الشِّعر فهو الكاشف لكل صغيرة وكبيرة في حياة العرب القدماء؛ فمن المعروف أنّ السيف اليماني كان ذا شهرة واسعة في طول شبه الجزيرة وعرضها، ويبدو أنّ صناعة السيوف قد نشأت وازدهرت اعتمادًا على وجود بعض الخامات المحلية وخاصة في ناحية صعدة باليمن[٦٥].

يقول النابغة الجعدي:

فقد أبقت صروف الدهر مني كما أبقت من السيف اليماني[٦٦]

ولم يقتصر الأمر على السيف اليماني، بل كان هناك الدروع اليمانية، يقول عمرو بن كلثوم في معلّقته الشهيرة:

علينا البيض واليلب اليماني وأسياف يقمن وينحنينا

واليلب: الدرع. وقيل: الترسة[٦٧].

ومن المناطق التي تعدّ -في لغتنا المعاصرة- من المراكز الصناعية الرئيسية في صناعة الدروع مدينة سلوق اليمنية. جاء في "**معجم البلدان**" لياقوت الحموي: «سلوق: قال شمر: السلوقية من الدروع منسوبة إلى سلوق قرية باليمن؛ قال النابغة:

تقد السلوقيّ المضاعف نسجه وتوقد بالصُّفّاح نار الحباحب

قال ابن الحائك: سلوق كانت مدينة عظيمة بأرض الجديد، واسم بقعتها اليوم حسل الزينة، وهي آثار مدينة قديمة يوجد فيها خبث الحديد وقصاع الفضة والذهب والحلي»[٦٨]. ودلالة وجود (خبث الحديد) أنّ سلوق كانت يتمّ فيها استخلاص الحديد من خاماته تمهيدًا لتصنيع الدروع.

ويقول ذو الرمّة:

تجر السلوقيُّ الرباب وراءها وسعدٌ يهزّون القنا حين تُذعر[٦٩]

أصول التراث العلمي العربي في المعادن:

لا شك أنّ العرب قد استمدوا -في البداية- قدرًا كبيرًا من معارفهم العلمية في الرياضيات والفلسفة والمنطق من التراث اليوناني، وهي حقيقة مؤكدة وغير منكورة في تاريخ العلم، غير أنّ تراث العرب العلمي في علوم المعادن يأتي مغايرًا لهذا النهج. فعلم المعادن هو ضمن علوم شتّى لم يكن للتراث اليوناني تأثير يذكر بل أنّ تلك العلوم، إنما هي علوم عربية محضة بشهادة جمهرة كبيرة من المستشرقين ومؤرخي العلم من الغربيين كالكيمياء على سبيل المثال. يبقى لنا بعد ذلك أن نحدد الأصول التي

استمدّ منها علم المعادن عند العرب معطياته. ولعل القارئ قد يعجب إذا قلنا إنّ الأصول الأولى لعلم المعادن عند العرب هي أصول عربية بالدرجة الأولى، بالإضافة إلى رافدين ثانويين هما: رافد فارسي وآخر هندي.

ويمكن بشيء من التحقيق والمراجعة التدليل على الأصل العربي لعلم المعادن من خلال كتاب البيروني "**الجماهر في معرفة الجواهر**" الذي يعدّ من أشمل وأكمل ما كتب عن المعادن في التراث العلمي العربي، إن لم يكن أشملها وأكملها جميعًا. وإذا كان من الطبيعي ألا يخلو كتاب من كتب التراث العربي من الأخذ أو الاقتباس عن الغير، سواء أكان هذا الأخذ أو الاقتباس عن طريق السماع أو النقل، وهو نهج حرص عليه العلماء العرب من قبيل الأمانة العلمية وهو ما يعرف الآن في المصطلحات الحديثة بـ"توثيق المصادر"، سوف نجد أنّ البيروني قد استمدّ بعض معارفه العلمية نقلاً عن عالمين قد حددهما بالاسم، وهذان العالمان هما الكِنْدِي (١٨٥-٢٥٢هـ) الذي عرف بفيلسوف العرب، ونصر بن يعقوب الدينوري (٤١٠هـ).

وقد أوضح البيروني هذا بقوله: «ولم يقع إليّ من هذا الفن غير كتاب أبى يوسف يعقوب بن إسحاق الكِنْدي في "**الجواهر والأشباه**" قد افترع فيها عذرته وظهر ذروته كاختراع البدائع في كل ما وصلت إليه يده من سائر الفنون، فهو إمام المحدِّثين وأسوة الباقين، ثم مقالة لنصر بن يعقوب الدينوري الكاتب عملها بالفارسية لمن لم يهتد لغيرها وهو تابع للكندي في أثرها»[٧٠]...الخ.

وبجانب هذين المصدرين، فقد اطلع البيروني على كتاب عطارد بن الحاسب، إلا أنه لم يأخذ بما فيه أو ينقل عنه لكثرة ما به من الخرافات. يقول البيروني: «ولعطارد بن محمد الحاسب كتاب سمّاه **منافع الأحجار**، أكثر فيه من هذا الباب، إلا أنه خلطه بمثل العزائم والرقى فاسترذل»[٧١]. أمّا كتاب "**الأحجار**" المنسوب إلى أرسطو فيتلخّص رأي البيروني فيه بقوله: «وما أظنه إلا منحولاً عليه»[٧٢]، وهو رأي له قيمته وخطره من البيروني لأكثر من سبب فهو -أولاً- عالم بالأحجار الكريمة وخصائصها ويستطيع التمييز بين الغثّ والسمين فيما يتعلّق بتلك الخصائص. وهو -ثانيًا- قد قرأ لمن سبقه في هذا الفن من العلوم الطبيعية من عرب وغير عرب، ويمكنه التمييز بين المنحول وغير المنحول من المؤلفات وهو -ثالثًا- لم يستشهد في "**الجماهر**" برأي ذي قيمة عن أرسطو برغم كثرة استشهاده نقلاً عن معاصريه أو عمّن سبقوه من العلماء العرب، أو نقلاً عن سواهم من خلال المؤلفات المترجمة.

وخلاصة القول في هذا الشأن إنّ الأحجار الكريمة كانت كتابًا مفتوحًا أمام البيروني، وخاصة أنه قد مكث -كما تدل سيرته- مدة طويلة في الهند، حيث تغزر وتتنوّع الأحجار الكريمة بها كما هو معروف. لقد كانت تجارة الأحجار الكريمة، تجارة رائجة حتى فيما قبل عصر البيروني، حيث يقول في هذا الشأن: «وكانت الجواهر تغزر في أيام بني أميّة وأوائل دولة بني العباس، حتى قالوا إنه كان يعمل منها أواني، ولهذا قال الشافعي: لا يجوز استعمال أواني الياقوت والبلور؛ لأنّ قيمتها فوق قيمة الذهب»[٧٣].

وبالطبع فإنّ أول ما يعتني به التاجر هو العلم بمفردات تجارته، وليس أدل على رواج هذه التجارة سوى كثرة التجار، فقد ذكر نصر بن يعقوب عددًا كبيرًا منهم، مما اضطر البيروني أن يذكر المشهورين منهم قائلاً: «وتحامينا اتباعه لأنّ هذه العدة تتكاثر في الأزمنة والأمكنة وتشتهر عند الملوك الأجلّة، وتتفاضل بحسب العلم والفطنة، وفوق كل ذي علم عليم»[٧٤].

خاتمة:

نخلص من هذا لنقول: إنّ العلماء العرب لم يكونوا بحاجة إلى كتاب ملفّق ومنسوب زورًا إلى أرسطو ليعلّمهم ما جهلوه من علم المعادن، لأنّ معرفة العرب بهذا العلم أصيلة وراسخة منذ القدم.

ويبقى لنا سؤال على قدر كبير من الأهمية وهو: منذ متى كانت اليونان تشتهر بالأحجار الكريمة؟ إنّ أبسط مفاهيم وأسس الجيولوجيا الاقتصادية تسقط مثل هذه المزاعم، وهي أنّ تجارة الأحجار الكريمة في العالم القديم كانت غالبيتها حكرًا على الهند وسيلان، وهما البلدان اللذان كانت لهما أوثق الصلات التجارية مع شبه الجزيرة العربية منذ العصر الجاهلي، فضلاً عما غنمه العرب من جواهر الفُرس إبّان الفتوح الإسلامية.

إنّ الباحث في تراث العرب العلمي في علوم المعادن، بعين مدقّقة ومنصفة، بعيدًا عن أكاذيب المستشرقين ومؤرخي العلم الذين لا يرون في العلم العربي سوى أنه علم يوناني قد كُتِب باللغة العربية، سوف يخلص في نهاية المطاف إلى أنّ علم المعادن إنما هو علم عربي خالص العربية، لا شبه

لتأثير يوناني من أيّ نوع، بدليل كثرة الأسماء العربية والمعرّبة من المعادن إلى لغات العالم المختلفة، دالة بلفظها على أصلها العربي[٧٥].

ولعل خير ما نختم به هذا البحث قول الفرزدق:

أولئـك آبـائي فجـئني بمثلـهم إذا جمعتنـا يـا جريـر المجـامع[٧٦]

الهوامش:

* جيولوجي، كبير باحثين بهيئة المساحة الجيولوجية (سابقًا)، جمهورية مصر العربية.

(١) **تـاريخ العلـم ودور العلمـاء العـرب في تقدمـه**، د. عبـد الحليـم منتـصر، ط٢، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٧م، ص١٥.

(٢) **في تراثنـا العربـي الإسـلامي**، د. توفيـق الطويـل، المجلـس الـوطني للثقافـة والفنـون والآداب، الكويت، ١٩٨٥م، ص٥٨.

(٣) **عصر المأمون**، د. أحمـد فريـد رفـاعي، مطبعـة دار الكتـب المصرية، ١٩٢٧م، ج١ ص٣٧٧.

(٤) **تراث الإسلام**، شـاخت وبـوذورث، ترجمـة: د. حسين مـؤنس وآخـرون، المجلـس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ١٩٧٨م، ج٢ ص٣١٤.

(٥) **تاريخ العلوم العامّ**، رنيه تاتون، ترجمة: علي مقلد، المؤسسة الجامعية للدراسـات والنشر والتوزيع، بيروت، ١٩٨٨م، ج١ ص٤٤٠.

(٦) **فضل الإسلام على الحضارة الغربية**، مونتجمري وات، ترجمة حسين أحمد أمين، دار الشروق، القاهرة، ١٩٨٣م، ص٤٦.

(٧) **العلم عند العرب وأثره في تطور العلم العالمي**، ألدو مييلي، ترجمة: د. عبد الحليم النجار ود.محمد يوسف موسى، دار القلم، القاهرة، ١٩٦٢م، ص٣٩.

(٨) **فلسفة الاستشراق**، د. أحمد سمايلوفتش، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٠م، ص٤٣.

(٩) **فضل الإسلام على الحضارة العربية**، مصدر سابق، ص٨.

(١٠) **حضارة العرب**، جوستاف لوبون، ترجمة: عادل زعيتر، عيسى البابي الحلبي، القاهرة، ١٩٦٩م، ص٤٣٧.

(١١) **قصة الحضارة**، ول ديورانت، ترجمة: محمد بدران، ط٣، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٦٨م، ج١٣ ص٢١٣.

(١٢) تراث الإسلام، مصدر سابق، ج٢ ص٢٦٧.

(١٣) راجع: "عصر النهضة الأوروبية أو عصر السطو على العلم العربي"، مصطفى يعقوب عبد النبي، **الإمارات الثقافية**، العدد ١٦، أغسطس ٢٠١٣، ص١٤ وما بعدها.

(١٤) **موسوعة المستشرقين**، د. عبد الرحمن بدوي، دار العلم للملايين، ط٣، بيروت، ١٩٩٣م، ص٢٨٩.

(١٥) **الجيولوجيا عند العرب**، عدنان النقاش، الموسوعة الصغيرة ٢٤٧، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، بدون تاريخ، ص٢٦.

(١٦) راجع "الترجمة في العصر العباسي...الأطوار والظواهر والسلبيات"، مصطفى يعقوب عبد النبي، **جذور**، العدد ١٥، شوال ١٤٢٤هـ، ص ص٦٤٣-٦٦٩.

(١٧) **عجائب المخلوقات** للقزويني، تحقيق: فاروق سعد، ط٤، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت، ١٩٨١م، ص٢٤٧.

(١٨) **ألف ليلة وليلة**، مكتبة عيسى البابي الحلبي، القاهرة، بدون تاريخ ،ج٣ ص٩٤.

(١٩) **قصة الحضارة**، مصدر سابق، ج٧ ص٥٣٨.

(٢٠) المصدر السابق، ص٣٧٧.

(٢١) **عجائب المخلوقات**، مصدر سابق، من ص٢٤٢-٢٨١.

(٢٢) **ديوان طرفة بن العبد**، عناية حمدو طماس، دار المعرفة، بيروت، ٢٠٠٣م، ص٢٦.

(٢٣) **ديوان قيس بن الخطيم**، تحقيق: د. ناصر الدين الأسد، دار صادر، بيروت، بدون تاريخ، ص٢٥.

(٢٤) **ديوان سحيم بن عبد بني الحسحاس**، تحقيق: عبد العزيز الميمني، الدار القومية للطباعة والنشر، نسخة مصورة عن طبعة در الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٦٥، ص١٧.
(٢٥) **ديوان حاتم الطائي**، دار صادر، بيروت، ١٩٨١م، ص٧٩.
(٢٦) **ديوان الأعشى الكبير**، تحقيق: د. محمد محمد حسين، مكتبة الآداب، القاهرة، ١٩٥٠م، ص٩٥.
(٢٧) المصدر السابق، ص٢٠٥.
(٢٨) **ديوان المرقشين**، تحقيق كارين صادر، دار صادر، بيروت، ١٩٩٨م، ص٩٩.
(٢٩) **ديوان امرئ القيس**، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٤م، ص٢٢.
(٣٠) المصدر السابق، ص٥٣.
(٣١) **علم المعادن**، د. محمد عز الدين حلمي، ط٣، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٧٤م، ص٢٤٣ وما بعدها.
(٣٢) **لسان العرب** لابن منظور، تحقيق: عبد الله الكبير وآخرون، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٠م، ج٦ ص٤٢٩٢.
(٣٣) **صفة جزيرة العرب** للهمداني، تحقيق: محمد بن علي الأكوع، مكتبة الإرشاد، صنعاء، ١٩٩٠م، ص٣٢١.
(٣٤) **تاريخ التمدن الإسلامي**، جرجي زيدان، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، بدون تاريخ، ج٣ ص٦٤٤.
(٣٥) **الجوهرتين العتيقتين** للهمداني، تحقيق: حمد الجاسر، المطابع الأهلية للأوفست، الرياض، ١٩٨٧م، ص٣٢٢.
(٣٦) المصدر السابق، ص٣٢٨.
(٣٧) راجع "العرب أول من عرف الأكسجين"، مصطفى يعقوب عبد النبي، **الخفجي**، العدد الثاني، محرم ١٤٢٥ هـ، ص١٢.
(٣٨) **قصة العناصر**، د. مصطفى محمود سليمان، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٢م، ص٥٤.

(٣٩) **الجوهرتين العتيقتين** للهمداني، مصدر سابق، ص٣٢٨.
(٤٠) بحث مبدئي في التعدين القديم في سلطنة عمان، جي. جوتيلر وآخرون، سلسلة **تراثنا**، العدد ٤٤، وزارة التراث القومي والثقافة، سلطنة عمان، يونيو ١٩٨٣م، ص٣.
(٤١) المصدر السابق، ص١٢.
(٤٢) **قصة العناصر**، مصدر سابق، ص٧٣.
(٤٣) **الكيمياء غير العضوية**، هـ. ريمي، ترجمة: أحمد رياض تركي وآخرون، مركز كتب الشرق الأوسط، القاهرة، ١٩٦٨م، ج ٣ ص٢٢٣.
(٤٤) Webster's New Collegiate Dictionary, G. & C. Merriam Co., Publishers Springfield ,U.S.A. 1960 .P.704.
(٤٥) **المستشرقون** لنجيب العقيقي، ط٤، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨١م، ص١١٩.
(٤٦) Adams F. D. ,The Birth and Development of the Geological Sciences ,The William & Wilkins Company, Paltimor,1938. P.820.
(٤٧) **مبادئ وطرق الاستكشاف الجيوكيميائي للرواسب الخام**، د. سالم محمود الدباغ، مديرية دار لكتب للطباعة والنشر، الموصل، ١٩٨٨م، ص٤٣.
(٤٨) **علم المعادن**، مصدر سابق، ص٢٣٠.
(٤٩) **لسان العرب**، مصدر سابق، مج٣ ص١٧٥١.
(٥٠) المصدر السابق، مج ٤ ص٣٣١٣.
(٥١) **علم المعادن**، مصدر سابق، ص٢٣٠.
(٥٢) **العناصر الكيماوية**، جيروم ماير، د. أنور محمود عبد الواحد، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٦٧م، ص١٦٩.
(٥٣) **المعجم الجيولوجي المصور**، أ.د.وولي، ترجمة: د. محمد فتحي عوض الله، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٩م، ص٤٢.
(٥٤) **الكيمياء غير العضوية**، مصدر سابق، ج١ ص٣٢٥.
(٥٥) **عبقرية العرب في لغتهم الجميلة**، د. محمد التونجي، المنشأة العامة للتوزيع والنشر والإعلان، طرابلس، ١٩٨٢م، ص٥٩.

(٥٦) **لسان العرب**، مصدر سابق، ج١ ص٥٠٣.
(٥٧) **ديوان قيس ين الخطيم**، مصدر سابق، ص٢٢٠.
(٥٨) **ديوان عبيد بن الأبرص**، شرح: أشرف أحمد عدرة، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٩٤، ص٥٨.
(٥٩) **ديوان حميد بن ثور الهلالي**، مصدر سابق، ص٣٤.
(٦٠) Parkes C. D.,Mellor' s Modern Inorganic Chemistry, Longman, Bristol, 1967 P.844.
(٦١) **عجائب المخلوقات**، مصدر سابق، ص٢٥٢.
(٦٢) **الموسوعة العربية الميسرة**، إشراف: د. محمد شفيق غربال، المكتبة العصرية، بيروت، ٢٠٠٩م، ص٢٢٨.
(٦٣) **قصة الحضارة**، مصدر سابق، ج١ ص١٧٧.
(٦٤) **تنمية الموارد المعدنية في الوطن العربي**، محمد سميح عافية وآخرون، معهد البحوث والدراسات العربية، القاهرة، ١٩٧٧م، ص٢٧٩.
(٦٥) المصدر السابق، ص٥٠٧.
(٦٦) **ديوان النابغة الجعدي**، تحقيق: واضح الصمد، دار صادر، بيروت، ١٩٩٨م، ص١٧٩.
(٦٧) **ديوان عمرو بن كلثوم**، جمع وتحقيق: د. إميل بديع يعقوب، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٩١م، ص٨٤.
(٦٨) **معجم البلدان**، ياقوت الحموي، دار صادر، بيروت، ١٩٨٤م، ج٣ ص٢٤٢.
(٦٩) **ديوان ذي الرمّة** بشرح الخطيب التبريزي، تحقيق: مجيد طراد، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٩٢م، ص٢٢٧.
(٧٠) **الجماهر في معرفة الجواهر** للبيروني، تحقيق: سالم الكرنكوي، حيدر آباد، الدكن، ١٣٥٥هـ، ص٣١.
(٧١) المصدر السابق، ص٢١٧.
(٧٢) لمصدر السابق، ص٢١٧.

(٧٣) المصدر السابق، ص٥٤.

(٧٤) المصدر السابق، ص٣٢.

(٧٥) راجع "الأصول العربية لأسماء المعادن في اللغات الأجنبية.. أو ما أهمله تاريخ العلم"، مصطفى يعقوب عبدالنبي، **آفاق الثقافة والتراث**، العدد ٦٥، مارس ٢٠٠٩م، ص ص١٣٧-١٥٣.

(٧٦) **شرح ديوان الفرزدق**، إيليا الحاوي، منشورات دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٨٣م، ص٧٢.

تذكرة ابن العديم
تعليقات وإضافات

بقلم: أ. محمد كمال*

كان الصاحب بن العديم عمر بن أحمد بن أبي جرادة من ألمع رجال التاريخ والعلم والأدب في مدينة حلب، فقد تألّق نجمه في القرن السابع الهجري، فحظي عند أهل العلم وعند أهل الحكم بمنزلة عالية رفيعة ومكانة سامية مرموقة. وكان كما يقول ابن شاكر الكتبي (محدِّثًا فاضلاً ومؤرِّخًا صادقًا وفقيهًا مفتيًا ومنشئًا بليغًا وكاتبًا محمودًا. درَّس وأفتى وصنّف وترسّل عن الملوك)[1]. فكم من مرة أرسل سفيرًا إلى بلاد الروم والعراق والشام وبيت المقدس ومصر، وهناك يخرج لاستقباله رجال الأدب والعلم والشِّعر ويحفّون به ويبالغون في إكرامه، ويسارع هواة الخط إليه بصحفهم ويسألونه أن يكتب لهم بخطه البديع بيتًا أو بيتين من الشِّعر لتكون نسخة هذا الخط من مقتنياتهم الثمينة. وفي أسفاره هذه كان يركب في محفة تشدّ له بين بغلين ويجلس فيها ويكتب[2] ويقرأ ويصنّف.

وكانت له الوجاهة العظيمة عند السلاطين والملوك، حتى إنه ليقول فيما ترجمه عن نفسه وما ترجمه عن آبائه وأجداده في كتابه "**الأخبار**

المستفادة في ذِكر بني أبي جرادة": (وكان الملك الظاهر غازي بن صلاح الدين، صاحب حلب، رحمه الله، كثير الإكرام لي، وما حضرت مجلسه قط فما أقبل على أحد إقباله عليّ مع صغر السن)[٣].

ولا عجب أن يكون هذا الرجل واسطة العقد بين آباء وأجداد عاصروا الدولة المرداسية فالنورية فالأيوبية وتولوا مناصب القضاء والتحديث والخطابة، وبين أبناء وأحفاد كان معظمهم من القضاة والشعراء والكتّاب.

ولقد خلّف ابن العديم مجموعة من المؤلفات نافت على العشرة، ولعل كتابه الضخم في التاريخ والتراجم "**بغية الطلب في تاريخ حلب**" أوسع هذه المؤلفات مادة وأكثرها شهرة، وهو كتاب في تاريخ حلب وأخبار ملوكها وابتداء عمارتها ومن كان بها من العلماء ومن دخلها من أهل الحديث والرواية والدراية والملوك والأمراء والكتّاب والشعراء، مرتَّب على حروف المعجم، ويقع في أربعين مجلدًا، إلا أنّ المنيّة قد أدركته سنة ٦٦٠هـ قبل إكمال تبييضه. وشاء الله تبارك وتعالى لما سلم من هذا الكتاب على مرّ العصور أن يظهر إلى الوجود، فتصدّى لتحقيقه الدكتور سهيل زكار ونشره سنة ١٩٨٨م في دمشق في عشرة مجلدات وجزء خاص بالفهارس، فأصبح بذلك مرجعًا مهمًّا لكل باحث في تاريخ حلب ومستقص لأخبارها ومنقّب عمّن سكن فيها أو مرّ بها مِن الأعلام البارزين.

وقد عمد ابن العديم إلى استثمار هذا الكتاب في مؤلَّفين آخرين، أولهما "**زبدة الحلب من تاريخ حلب**". وكان الملك العزيز محمد بن الملك الظاهر غازي (ت ٦٣٤هـ) قد طلب منه أن يضع كتابًا على السنين،

فتوجّه إلى اختصار "**البغية**" فلم يقف عند تراجم الأعلام بل قصر عمله على الجانب السياسي وتقلّب الدول وتعاقب الملك في هذه المدينة منذ أيام اليونان والرومان إلى سنة ٦٤١هـ، وبذلك لم يتح للملك العزيز أن يطلع عليه. وقد تولى تحقيق هذا الكتاب الدكتور سامي الدهان فنشره في ثلاثة أجزاء(٤).

وثانيهما: كتاب "**التذكرة**" الذي نتحدّث عنه والذي نهض بعبء تحقيقه عالِم جليل ومدقِّق متمكّن هو الأستاذ إبراهيم صالح، فحفظ لنا بجهده الخيّر أثرًا من الآثار الأدبية التراثية طالما تشوّق المهتمّون بابن العديم إلى الوصول إليه، فظهر في مجلّد واحد يضمّ ٤٢٩ صفحة عام ٢٠١٠م عن هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث (المجمع الثقافي).

والكتاب كما وضعه مؤلفه يقع في ستة عشر جزءًا فقدت منه الأجزاء الأربعة الأولى، ونقصت في بعض أجزائه المتبقّية بضع ورقات. وقد اعتمد المحقّق على نسخة وحيدة للكتاب تحتفظ بها دار الكتب المصرية بالقاهرة. وفيه تطالعنا مجموعة من الأحداث التاريخية ونوادر الأخبار الأدبية وفرائد القصائد والاختيارات الشعرية ونُبَذ من تراجم بعض الرجال، فكان كتاب "**البغية**" المصدر الأوفى للمواد التي اشتملت عليها "**التذكرة**".

ويلفت نظر القارئ أمران اثنان: أولهما عناية المؤلف بالأسانيد في كل ما يروى وينقل من أخبار، وتلك عادته في جميع مؤلفاته الأخرى، وكأنه في ذلك يتلو تلو أهل الحديث. والثاني الاعتماد على تجربته الشخصية فيما أودعه مِن أخبار مَن عاصرهم مِن الكتّاب والشعراء والأدباء، فكثيرًا ما

نمرّ بقوله: أنشدني فلان، أو أنبأني أو حدثني، أو قرأت بخط فلان أو قال لي فلان...

و"**تذكرة ابن العديم**" يمكن أن تماثلها "**التذكرة الحمدونية**" التي وصفها الدكتور إحسان عباس بأنها (أقرب إلى أن تدل على مقيّدات مرسلة لا يضبطها ضابط، تقف فيها الموعظة إلى جانب النادرة إلى جانب الفائدة العلمية، إلى جانب التجربة الذاتية، ولكن ابن حمدون شاء لتذكرته التبويب، فقسمها في خمسين بابًا)(٥). أمّا **تذكرة ابن العديم** فلا تخضع لأيّ تبويب منظّم أو خطة تصنيفية، وتكاد أجزاؤها لا يختلف بعضها عن بعض لا في المنهج ولا في طبيعة الموضوعات لما بين هذه الموضوعات من ألفة وتآلف.

وقد بذل المحقق الكريم كل ما في وسعه من جهد علمي، وهيّأ لقارئ الكتاب كل ما يحتاج إليه من معرفة شاملة، فقدّم للكتاب باستعراض لحياة ابن العديم وتحصيله العلمي، وأثبت ما وصفه به من جاء بعده من المؤرخين والمترجمين، ثم عدد مؤلفاته المطبوع منها والمخطوط، ولم يفته أن يحدثنا عن أولاده وذريته الذين اشتهر بعضهم بالعلم والأدب والقضاء متابعة منهم لما كانت عليه هذه الأسرة المباركة منذ سالف العصور.

ثم وصل في هذه المقدمة إلى كتاب "**التذكرة**" فعرَّف به وبيَّن منهجه ومضمونه وقيمته بين كتب الأدب والثقافة العامة، وأكد نسبته إلى ابن العديم بدلائل وثائقية قاطعة. ثم أخذ في وصف النسخة المخطوطة الفريدة من هذا الكتاب وتحدّث عمّا فقد منها من أجزاء وما أصابها من خروم. ثم نقل أقباسًا مما مدح به ابن العديم من شعراء عصره كأبي الحسين الجزار

والأمير أيدمر المحيوي وجمال الدين بن مطروح، كل ذلك استقاه المحقق من خمسة وعشرين مصدرًا، مما يدل على مكانة ابن العديم أينما حل وحيثما ارتحل.

وقد أراد المحقق الكريم الأستاذ إبراهيم صالح أن يتمّم فضله في خدمة ابن العديم فأودع في المقدمة ما جمعه من شِعره، ورتّبه على الحروف، فبلغ ست عشرة مقطوعة تلقطها المحقق من مصادر شتى. وهذا المتبقّي من شِعره يدل على شاعرية فذّة وتفوّق في صناعة النظم، إلا أنه جاء مقتصرًا على الغزل والفخر والإخوانيات والرثاء، وكأنما أبت عليه همّته العالية أن يكون شاعر بلاط يتزلّف بشِعره إلى الملوك والأمراء، وأن يرمي بقريحته على أعتابهم؛ فقد عاصر كلاًّ من الملك الظاهر غازي والملك العزيز محمد والملكة ضيفة خاتون والملك الناصر يوسف وغيرهم من أمراء البيت الأيوبي فما مدح أحدًا منهم في حياته ولا رثاه بعد موته مع ما كان بينه وبينهم من تقدير وتكريم.

أمّا عمل المحقق في نصوص الكتاب فيتضح في ضبط حروفها سواء في الشعر أو النثر، وفي إثبات ما كان على هوامش المخطوط من تعليقات وتنبيهات، وفي رد بعض الأخبار الواردة في الكتاب إلى مصادرها الأصلية لاسيما ما كان منقولاً من "**البغية**" وفي التعريف بأسماء الرجال من شعراء وكتاب وحكام، وبالمدن والمواضع التي تناثرت في ثنايا الكتاب، وذلك بالعودة إلى ما يقرب من ٢٨٠ مصدرًا معتمدًا. ثم أتبع عمله بفهارس

عامّة بلغت اثني عشر فهرسًا تسهّل على الدارسين الرجوع إلى الكتاب والاستفادة منه.

ومما يحمد للمحقق أنه عمد إلى تقسيم الكتاب إلى فقر متسلسلة تستقل كل فقرة منها بخبر أو بنادرة أو بمقطوعة شِعرية، فجاءت في ٤٢١ فقرة.

وبعد، فهذه طائفة يسيرة من التعليقات والإضافات أردت أن ألحقها بالجهد الواسع الذي أفاضه المحقق الفاضل على جوانب الكتاب، لعلني أشارك بها في خدمة إرث هذه الأمّة الزاهر وتاريخها الأدبي المجيد، إذ أعدّ نفسي واحدًا من المولعين بابن العديم والمهتمّين بمؤلفاته منذ زمن بعيد.

- في الصفحة (١٩): عدّد المحقق مؤلفات ابن العديم وذكر من بينها كتابه "**الدراري في ذِكر الذراري**".

أقول: لم يشر المحقق إلى أنّ هذا الكتاب كنت قد عنيت به وقدّمت له ونشرته في دار الأنصاري بحلب عام ١٩٩٦م، ثم أعدت طبعه في مطبعة جامعة حلب بمناسبة اختيار حلب عاصمة للثقافة الإسلامية. وكان قد طبع أول ما طبع سنة ١٢٩٨هـ في مطبعة الجوائب في القسطنطينية.

- في الصفحة (٢٠) تحدّث المحقّق عن أولاد ابن العديم وذريته فذكر ثلاثة من أولاده.

أقول: فات المحقق أن يذكر ابنته شهدة المتوفاة سنة ٧٠٩هـ. وكانت قد تزهدت وتركت اللباس الفاخر بعد وفاة أخيها مجد الدين عبد الرحمن سنة ٦٧٧هـ. (انظر: "**الدرر الكامنة**" لابن حجر، ٢/٣٤٩، و"**أعلام النبلاء**" للطباخ، ٤/٤٩٩).

- ص٤٣ ، البيت الخامس : وأفنى بني أيوب كثرَ جميعهم...

أقول : رواية الشطر عند ابن واصل : وأفنى بني أيوب معْ كثر جمعهم.

وهذا البيت من القصيدة الوثائقية الرائعة التي نظمها ابن العديم بعد أن عاد من مصر إلى حلب سنة ٦٥٨هـ ورأى ما خلّفه التتار فيها من خراب ودمار. وقد ظلت هذه القصيدة مختفية زمنًا طويلاً مع ما اختفى من شِعر الصاحب إلا بضعة أبيات أوردها أبو الفداء في "**تاريخه**"، إلى أن عثر عليها المرحوم الدكتور سامي الدهان في مخطوطة "**عقد الجمان**" للعيني، وأورد بعضًا منها في مقدمة تحقيقه لكتاب "**زبدة الحلب**". كما أوردها ابن واصل في كتابه "**مفرج الكروب في أخبار بني أيوب**" ص٣٤٣. ولهذا فهي بحاجة إلى نظر وتحقيق لعلها تبرز في صورتها الصحيحة.

- ص٤٣ ، البيت الثامن :

أحاطوا كأسراب القطا بربوعها   على سُبَّق جُرْد من الخيل طُهَّمِ

أقول : رواية ابن واصل للشطر الثاني : تقل بهم جرد من الخيل طُهَّمُ

وبذلك يزول الإقواء.

- ص٤٣، البيت الحادي عشر : أتوها كأمواج البحار زواخرٍ...

أقول : الصواب : زواخرًا.

- ص٤٤، البيت السابع عشر : ... والقطان فيك مخيم.

أقول : الصواب : تخيم. وهي رواية ابن واصل.

- ص٤٨، البيت الأول :

ضـائع نـشرُه أجُـزتَ بداريـ   ـنَ أم مزجـتَ فيـه مـداما

أقول: لم يشر المحقق إلى أنّ الشطر الثاني من البيت مختلّ الوزن.

- ص٦٥ : مُدَرَّع المحامد. والصواب: مُدَّرِع المحامد.

- ص٦٨ ، الفقرة ١٠ : أورد ابن العديم بيتين أنشدهما الشريف تاج العلي لنفسه وهما:

بنـو زمانـكَ هـذا فـاخشَ نقلَهُـمُ ... فـــإنهم كـــشَرارٍ بَثَّـــه لهـــبُ

إن يسمعوا الخيرَ يُخفوه وإن سمعوا ... شرًّا أذاعوا وإن لم يسمعوا كذبُوا

أقول: لا يخفى أنّ البيت الثاني أنشده الشاعر على سبيل التضمين، وهو لطريح بن إسماعيل الثقفي يذمّ قومًا. (انظر **الأغاني ٣١١/٤**).

- ص٩٤ ، البيت الحادي عشر: أو تيمِّمه تجدْ في ذُراه..

أقول: الصواب: ذَراه -بفتح الذال- أي في كنفه وستره.

- ص١٠٥، الفقرة ٥٩، صدر البيت الأول: خليلي إن تسعداني على وجدي...

أقول: الصواب: إمّا تسعداني... وبذلك يستقيم الوزن.

- ص١١٩، الفقرة ٨٢، البيت الأول:

خذ ما تيسَّر يا أبا منصور واعـ ... ـذِرْ فقد أسرفتُ في التقصيرِ

أقول: الصواب: واعذرني... وبذلك يستقيم الوزن.

- ص١٣٣ ، البيت الأول:

وشبابٍ قبل حلول الشيـ ... ـب شائبِ همٍّ لم يشبِ

أقول: لعل الصواب: وشائب... بإضافة واو العطف، وبذلك يستقيم الوزن.

- ص١٣٣، البيت الخامس:

لـولا الظـاهرُ أصـبح عُـود الــ ـفـضل يُعـدُّ مـن الحطـبِ

أقول: صدر البيت مختلّ الوزن. ولا يستقيم إلا بقطع همزة ال في (الظاهر) ونقل دال (عود) إلى العجز. فيصبح البيت:

لـولا ألظـاهر أصـبح عـو د الفـضلُ يعـد مـن الحطـب

أو أن يكون في البيت خطأ من الناسخ.

- ص١٣٧، الفقرة ١١٢، البيت الرابع:

فاسـق الثـرى الجعـدَ يـا غيـ ـثَ كـلِّ جـديب وصِـبْنا

أقول: الصواب: يا غيث كل جدب. وبذلك يستقيم الوزن.

- ص ١٣٧، الفقرة ١١٣، البيت الأخير:

فلم يبق منها إلا نصف عجانها ....

أقول: الصواب كما في "**اللسان**" (شنتر): فلم يبق منها غير نصف عجانها، وبذلك يستقيم الوزن.

والأبيات الثلاثة الأخيرة في مصادرها مكسورة الرويّ فعمد المحقق إلى تقييد المقطوعة كلها.

- ص١٣٩، البيت الرابع:

لا يرفع السوطَ من حَثٍّ ومن دأبٍ عنها استمرت على التجويد أو وَنَتِ

أقول: ليس للشطر الثاني معنى إلا إذا كانت الرواية: مهما استمرت على التخويد أو وَنَتِ. والتخويد: الإسراع.

- ص١٥١، الفقرة ١٣٦، البيت الرابع:

وعهدي بها كانت عِذارًا منمنمًا   فمن أجل ذا صِرت أرعى لها العهدا

أقول: عجز البيت مختل الوزن، ولا يستقيم إلا بإضافة (قد):

....   فمن أجل ذا قد صرتُ أرعى لها العهدا

– ص١٥٥، أثبت ابن العديم نصًّا لكتاب كتبه بعضهم من طرابلس إلى حلب، وفيه يستشهد الكاتب بقول الشاعر:

وأصبح لا يدري وإن كان حازمًا   أقُدَّامُـــه خـــيرٌ لـــه أم وراءُهُ

أقول: لم يخرج المحقق البيت، وهو ثالث ثلاثة أبيات رواها أبو العتاهية عن علي بن ثابت (انظر **تلخيص المتشابه في الرسم** للخطيب البغدادي ١/٣٢٤). وعلي بن ثابت هذا كان صديقًا لأبي العتاهية وبينهما مجاوبات كثيرة في الزهد والحكمة كما ذكر صاحب "**الأغاني**" ٤/٤٣.

– ص١٥٦، السطر السابع: ورد ذكر كتاب "**الإشارات الإلهية**" مع فقرة مقتبسة منه وهي: (ما فيها عين تدمع بالاعتبار، ولا يد ترتفع بالاستغفار، ولا قلب يخضع عند تصرف الأقدار، ولا نفس تندم على ما فاتها من التوبة والاعتذار).

أقول: لم يكشف المحقق في حواشيه عن صاحب الكتاب، وهو أبو حيان التوحيدي.

وقد حقق الجزء الأول من الكتاب ونشره الدكتور عبد الرحمن بدوي في القاهرة عام ١٩٥٠م.

أمّا الفقرة التي أثبتها ابن العديم في "**تذكرته**" فتقع في الصفحة ١٥٣ من (الإشارات الإلهية) مع بعض الاختلاف، فنصها عند التوحيدي: (لا عين

تدمع بالاعتذار، ولا يد ترفع إلى الله بالاستغفار، ولا قلب يخضع عند تصرف الأقدار، ولا نفس تخشع لما فاتها من التذكرة والاعتبار). فلعل الذي نقل عنه ابن العديم قد اعتمد على ذاكرته دون الرجوع إلى الأصل.

- ص١٥٨، السطر التاسع: جاء في كتاب ابن العميد الذي نقله المؤلف: (ليس الغرضُ في الوزير إنشاءُ كتاب، أو نظمُ حساب، أو تفريقُ مال وجمع، أو تقديمُ عطاء ومنع...)

أقول: جاءت أخبار (ليس) المتعاطفة في هذا المقطع مشكولة بالضم، وحقها النصب، ولعل ذلك من هفوات الطباعة.

- ص١٦٠، السطر السادس عشر: نقل ابن العديم ما نصه: (...دامت أيامه المرباع منها والمصيف، ولك منها حكمك والنشيطة، ولي منها الفضول ....).

أقول: لم يذكر المحقق في حواشيه أن في هذه الفقرة إيماءً إلى قول عبد الله بن عنمة يخاطب بسطام بن قيس وهو يرثيه:

لــك المِربــاعُ منهــا والــصَّفايا وحكمُـكَ والنَّـشيطةُ والفُـضولُ

ولا أدري كيف حُرِّفت الصفايا إلى المصيف. وهذه المصطلحات الواردة في البيت مشروحة في مواضعها في "**لسان العرب**". وانظر كذلك "**الحيوان**" للجاحظ ١/١٤١.

- ص١٦٥، الفقرة ١٤٥: أورد ابن العديم قصائد ومقطّعات للشاعر أبي الفضل عبد الواحد بن محمد بن العطار الرَّبَعي الحلبي آخرها في الصفحة ١٦٩، قالها في أبي المكارم مسلم بن قريش.

أقول: لم أعثر لهذا الشاعر على ترجمة، ويبدو أنها مخفية في الأجزاء المفقودة من "**بغية الطلب**"، وذلك أنّ ابن العديم كان قد أورد له بيتين اثنين في "**زبدة الحلب**" ١٥/٢ قالهما في محمود بن نصر بن صالح المرداسي سنة ٤٦٢هـ وهما:

رددت على الإسلام شرخَ شبابهِ وكادتْ عليه أن تُقامَ المآتمُ
وظنَّ طُغاةُ الرومِ منذُ أغبَّهُمْ نزالُكَ أنَّا حين ذاك نُسالمُ

أمّا مسلم بن قريش فهو أحد أمراء الدولة العقيلية، استولى على حلب سنة ٤٧٢هـ بعد أن قضى على الدولة المرداسية، ثم قتل سنة ٤٧٨هـ. (انظر ترجمته موسعة في **أعلام النبلاء** للطباخ ٣١٥/١).

– ص٢٢٦، الفقرة٢١٧: فأنشد عمار بيتًا على فص خاتمه، وهو:

وكلُّ مصيبات الزمان وَجَدْتُها سوى فرقةِ الأحباب هيِّنةَ الخطبِ

أقول: فات المحقق أن يخرج البيت، وهو لقيس بن ذريح (انظر **الأغاني** ١١٢/٨).

– ص٢٣٩، الفقرة ٢٣٢: ذكر المؤلف خبرًا عن أبي منصور سعيد بن مروان، ولم يذكر المحقق شيئًا عن ترجمته.

أقول: هو سعيد بن مروان، من أمراء الدولة المروانية الكردية، كان قد استخلف سنة ٣٨٦هـ على ديار بكر وميافارقين بعد اغتيال أخيه أبي علي الحسن بن مروان، ثم قتل سنة ٤٠١هـ فاستخلف بعده أخوه أبو نصر أحمد بن مروان (انظر **النجوم الزاهرة** ٦٩/٥ و**وفيات الأعيان** ١٧٧/١ ضمن ترجمة أبي نصر).

- ص٢٤٣، الفقرة ٢٤٤: أورد المؤلف بيتين لابن الدويرة أولهما:

يا عالـم السـر وأخفـى ويـا   معـوَّل العـالم إلا عليـكْ

أقول: لعل الرواية الصحيحة للبيت والتي بها تستقيم الصياغة هي:

يـا عـالم الـسر وأخفـى ومـا   معـوَّلُ العـالم إلا عليـك

وسبق أن ذكر المحقّق في حاشية الفقرة (١٦٢) أن روايته:

يـا رب هـذا الخلـق جمعًـا ومـا   مُتَّكـلُ العـالم إلا عليـك

- ص٢٥٤، أورد المؤلف أبياتًا لشرف الدين راجح بن إسماعيل الحلي خاطب فيها الملك المعظم عيسى بن الملك العادل.

أقول: لم يعلّق المحقق على البيتين الأخيرين من الصفحة كما فعل بالبيت الذي سبقهما والأبيات التي تلتهما، وفيهما إشارة إلى بعض ما جرى من وقائع في يوم شعب جبلة بين عبس وذبيان (انظر **الأغاني** ١٣١/٠).

- ص٢٦١، الفقرة ٢٨٣، جاء في كلام المؤلف: كان للياروقية بحلب دانشمند يعقد لهم عقود الأنكحة...

أقول: الياروقية محلة في ظاهر حلب عند قرية تعرف الآن بحي الأنصاري، بناها ياروق بن أرسلان التركماني المتوفى سنة ٥٦٤هـ وهو من أمراء نور الدين الزنكي على شاطئ نهر قويق فوق تلٍّ مرتفع، وهي شبه القرية. (انظر **إعلام النبلاء** للطباخ ٢٤/٣، ٢٤٣/٤). أمّا (دانشمند) فمعناها بالفارسية: العالم أو الحكيم.

- ص٢٧١، السطر الرابع:

حسبتك لي على وجدي معينٌ ....

أقول: لا أدري الوجه الذي ضبطت فيه كلمة (معين) بالرفع وحقها النصب (معينًا).

- ص٢٩٧، السطر الثالث:

فالدهر دوَّالٌ وأيامُهُ تدول والناس مع القائم

أقول: لعل في قوله (دوَّال) تصحيفًا، ولعل الصواب (دوَّار)؛ لأنّ الدهر عادة ما يوصف بأنه دوار كما في قول الراجز: والدهر بالإنسان دوَّاريٌّ.

- ص٢٩٧، السطر الرابع:

عجز البيت: ما أقرب العرس من المأتم.

أقول: الصواب: الماتم -بتخفيف الهمزة- لأنها ألِف التأسيس؛ وبذلك يتمّ الانسجام مع قوافي الأبيات السابقة.

- ص٣٤٥، السطر الثالث عشر: جاء في كلام المؤلف: قال من قصيدة يخاطب بها الأفضل (يريد الملك الأفضل شهنشاه المذكور قبل أسطر) وقد هزم بالبصة من أعمال عسقلان. ولقي بها الفرنج في جموع عظيمة، وكانت وقعة مشهورة.

أقول: كيف تكون البصة من أعمال عسقلان وهي تابعة لمدينة عكا وتقع على بعد ١٩ كم إلى الشمال منها، بينما تقع عسقلان في الجنوب على بعد ٢٠ كم من غزة؟ وقد ذكر البصة باسم (عين بصة) العماد الأصفهاني

في (الفتح القسي) ص١٦٠ حين اصطدم السلطان صلاح الدين الأيوبي بالفرنجة عند عكا سنة ٥٨٥هـ.

أمّا هذه الوقعة المشهورة التي أشار إليها المؤلف فكانت سنة ٤٩٢هـ قرب عسقلان (انظر: **ابن الأثير** ١٩٠/٨) وفيها تمّت هزيمة الجيوش المصرية أمام القادة الصليبيين.

وأمّا الملك الأفضل شهنشاه فهو أحمد بن بدر الجمالي الذي خلف أباه في إمارة الجيوش المصرية، وكان داهية شهمًا جيّد السياسة، ثم نقم عليه الآمر بأحكام الله العبيدي فدسّ له مَن يقتله سنة ٥١٥هـ.

الهوامش:

* الرياض.

(١) **فوات الوفيات** ١٢٦/٣.

(٢) **الوافي بالوفيات** ٤٢٣/٢٢.

(٣) **معجم الأدباء** ٥٣/١٦.

(٤) نشر في المعهد الفرنسي للدراسات العربية بدمشق سنة ١٩٥١م.

(٥) مقدمة **التذكرة الحمدونية**، ص١١.

تجربة السجن في شِعر هُدبة بن الخَشرم

بقلم: أ. حسن شهاب الدين*

من الشعراء الذين نالوا عناية الرواة والدارسين قديمًا وكانت أخباره وأشعاره زينة أهل الفضل هدبة بن الخشرم بن كرز العذري وهو شاعر إسلامي فصيح من شعراء الصدر الأول، دار شِعره حول تجربة السجن، وهو يعتبر أول شعراء العربية الذين اتضحت تجربة السجن في شِعرهم؛ إذ نجده يصف السجن وبناءه المحكم وبابه الكبير وغرفته الضيّقة وحرّاسه الغلاظ، كما استطاع بموهبته الغنية أن يتطرق لأحوال النفس في ذلك السجن فوصف لنا ليله الذي لا ينقضي وضيق نفسه في ذلك المحبس، ولم ينس أن يصف لنا صوت خطى الحراس وما يتعرّض له من غلظتهم ولون الجدران الكئيبة وصرير الأبواب، وقد بلغ شاعرنا في ذلك مبلغًا كبيرًا من الإجادة جعل كبار الشعراء والنقّاد من بعده يثنون عليه؛ فقد روي لنا في "**الأغاني**" كلمة مروان بن أبي حفصة في هدبة إذ يقول:

"كان هدبة أشعر الناس منذ يوم دخل السجن إلى أن أقيد منه"[(1)].

أمّا عن أخباره التي سوف نتمهّل عندها فنجد أنها لا تقلّ أهمية عند الرواة ومحبِّي الأدب، فهذا مصعب الزبيري يقول:

"كنا بالمدينة أهل البيوتات إذا لم يكن عند أحدنا خبر هدبة وزيادة وأشعارهما ازدريناه، وكنّا نرفع من قدر أخبارهما وأشعارهما، ونعجب بها"[٢].

وزيادة هو ابن عمّ هدبة، ولهما خبر طويل انتهى بمقتل زيادة على يد هدبة، ثم ما لبث أن سُجن القاتل حتى اقتيد منه بعد أن صار أشعر الناس.

إطار التجربة:

ويقتضي منا إطار التجربة أن نعرف شيئًا عن حياة شاعرنا وسبب دخوله السجن وظروف الاقتياد منه بعد أن ظل متأرجحًا بين اليأس والأمل ما يقرب من ست سنوات.

ونحن لا نعرف على وجه التحقيق متى ولد شاعرنا، وقد اختلف كذلك في تاريخ قتله، والذي نطمئن إليه ما استنتجه الدكتور يحيى الجبوري بأنه قتل في حوالي ٥٧هـ[٣]، إلا أنّ من المحقق أنه اقتيد منه شابًّا في حياة أبيه بعد أن قضى عدة سنوات قيل ست (على اختلاف) قضاها في محبسه حتى يكبر ابن زيادة، ويستطيع أخذ ثأره من قاتل أبيه بيده.

وهدبة من أسرة شاعرة تواتر فيها قول الشِّعر، قد تزوّج بامرأةٍ وُصِفت بالجمال والوفاء، إذ أقدمت على جدع أنفها وقطع شفتيها ليطمئنّ زوجها إلى أنها لن تكون لغيره بعد مقتله، وقد أُثر عن شاعرنا أشعار تغزّل فيها بامرأته وشكا فيها شوقه إليها وهو في السجن.

ولشاعرنا صلات بكبار رجالات عصره وشعرائه، ولقد سعى في محاولة إطلاق سراحه وقبول أهله الدية العديد من كبار الشخصيات، كما زاره

في السجن بعض الأصدقاء من المشاهير، وفي آخر لحظات حياته أرسل إليه وجوه قريش كفنًا وحنوطًا، وقد أرسل لأمّ المؤمنين السيدة عائشة رضوان الله عليها يطلب منها أن تستغفر له فقالت: "إن قُتلت استغفرت لك"(٤).

وشاعرنا خرِّيج أعرق مدرسة شعرية عرفت في شِعرنا العربيِّ، وهو آخر الشعراء الفحول الذي اجتمعت له الرواية مع الشِّعر، وننقل عن **الأغاني**:

"وهدبة شاعر فصيح متقدّم من بادية الحجاز، وكان شاعرًا راوية، كان يروي للحطيئة، والحطيئة يروي لكعب بن زهير، وكعب بن زهير يروي لأبيه زهير ،وكان جميل راوية هدبة، وكُثَيِّر راوية جميل؛ فلذلك قيل إنّ آخر فحل اجتمعت له الرواية إلى الشِّعر كثير"(٥).

أمّا أخباره فتدور معظمها حول الحادثة التي دارت بينه وبين ابن عمه زيادة العذري، والتي أنتجت هذا الشِّعر الرائع الذي سارت به الحقب.

وملخّصها كما تذكرها كتب الأدب أنَّ هدبة بن خشرم، وزيادة بن زيد -وهما ابنا عمٍّ- قد جمعهما سفر، وهم حجّاج، ومع هدبة أخته فاطمة، فاعتقبوا سوق الإبل، فنزل زيادة بن زيد، وجعل يقول -وهو يحدو الإبل-:

عُوجِي عَلَيْنَا وارْبَعِي يا فَاطِمَا   ما دُونَ أنْ يرَى البعيرُ قَائِمًا

وهي أبيات كثيرة، فلمّا سمعه هدبة يتغزل بأخته غضب، ونزل عن بعيره وجعل يحدو، ويتغزل بأمّ حازم، أخت زيادة بن زيد العذري، ويقول:

لَقَد أُرَانِي وَالغُلامَ الحازِمَا   نُزْجِي الْمطِيَّ ضُمْرًا سَوَاهِما

مَتَى تَقُولُ الزُّبلَ السَّواهِمَا   والجلة النَّاجِية الْعَياهِمَا

يَـــبْلُغْنَ أمَّ حَـــازِمٍ وَحَازِمَـــا ألاَ تَـرَيْنَ الـدَّمعَ مِنِّـي سَـاجِما

والله لا يشْفى الفؤاد الهائِمَا

فتشاتما وكان بينهما شر، فلمّا وصلا إلى ديارهما جمع زيادة رهطًا من أهل بيته، فبيت هدبة، فضربه على ساعده، وشجّ أباه خشرمًا، وقال زيادة في ذلك:

شَجَجْنا خَشْرَمًا في الرَّأسِ عَشْرًا وَوَقَّفْنَـــا هُدَيْبَـــةَ إِذْ هَجَـــانا

فقال هدبة:

فـإِنَّ الدَّهْـــرَ مُؤْتَنِـفٌ جَـــدِيدٌ وشَـــرُّ الخَيْـلِ أَقْـصَرُهـا عِنَانَـا

وشـرُّ النـاسِ كـلُّ فَتًـى إذا مـا مَرَتْـهُ الحَـرْبُ بَعْـدَ العَـصْب لانَـا

فلم يزل هدبة يطلب غرة زيادة حتى أصابها فبيَّته فقتله، وتنحّى مخافة السلطان، وعلى المدينة يومئذ سعيد بن العاص، فأرسل إلى عم هدبة وأهله فحبسهم بالمدينة، فلمّا بلغ هدبة ذلك أقبل حتى أمكن من نفسه وتخلّص عمّه وأهله، فلم يزل محبوسًا حتى شخص عبد الرحمن بن زيد أخو زيادة إلى معاوية فأورد كتابه إلى سعيد بأن يقيد منه إذا قامت البيّنة، فأقامها، فمشت عذرة إلى عبد الرحمن فسألوه قبول الدية فامتنع، وسُجن هدبة حتى بلغ ابن زيادة واقتاد من قاتل أبيه(٦).

هذا هو الإطار الذي أحاط حياة هدبة، أمّا الشِّعر الذي تركته هذه الحادثة وما أعقبها من أحداث حتى قتل شاعرنا فقد خرج عن هذا الإطار الضيّق وسار كل مسير وتناشده محبُّو الشِّعر الخالد حتى قال فيه مروان

كلمته الشهيرة: «كان هدبة أشعر الناس منذ يوم دخل السجن إلى أن أقيد منه».

أغراض شِعره:

دار شِعر هدبة حول تجربته الكبيرة والأليمة في السجن وقد أخلص لها شاعرنا كل الإخلاص ولكن بما لا يعني ذلك أنه اقتصر فقط على وصف السجن ولياليه الطويلة فيه، ولكن يعني أنه قد وسَّع تجربته في السجن، واستطاع أن يجعلها أكثر ثراء بما تناوله من أغراض شِعرية وثيقة الصلة بتجربته، إذ شملت الفخر والهجاء والوصف والغزل وإرسال الحكمة بالإضافة لما يتّصل بالحادثة التي دارت بينه وبين ابن عمّه زيادة العذري وأثرها في شِعره بما استتبعته من وصف السجن وذِكر الصبر وتقلّب الأيام ورثاء النفس وغير ذلك.

الفخر:

لم يكن فخر هدبة بن الخشرم في سجنه وسيلة للتسامي على الحدث والظهور بمظهر الصابر المتحمّل، بينما المحنة تدكّ أركان نفسه كما عهدنا عند بعض الشعراء ممن حاول أن يجمل من السجن ورأى فيها عزّة ومكانة خُصَّ بها، وليست دالية عليّ بن الجهم منّا ببعيد والتي مطلعها:

قالَت حُبِستَ فَقُلتُ لَيسَ بِضائِرٍ حَبـسي وَأَيُّ مُهَنَّـدٍ لا يُغمَـدُ[٧]

ونستمع إليه يبرّر الحبس ويرى أنه وسيلة للكمال:

أَوَ ما رَأَيتِ اللَّيثَ يَألَفُ غيلَهُ كِبـرًا وَأَوبـاشُ الـسِّبَاعِ تَـرَدَّدُ
وَالـشَّمسُ لَـولا أَنَّهـا مَحجُوبَـةٌ عَـن ناظِرَيـكِ لَمـا أَضـاءَ الفَرقَـدُ

بل يرى الحبس نعمة كبرى:

وَالحَبسُ ما لَم تَغشَهُ لِدَنِيَّةٍ ... شَنعاءَ نِعمَ المَنزِلُ المُتَوَرَّدُ
بَيتٌ يُجَدِّدُ لِلكَريمِ كَرامَةً ... وَيُزارُ فيهِ وَلا يَزورُ وَيُحفَدُ

وهي قصيدة رائعة سيَّارة أعجب بها القدماء وأشادوا بها، ولا يستطيع القارئ إلا أن يعجب بمهارة الشاعر في ضرب الأمثلة التي يؤكد بها تساميه على السجن، ولكن عين الخبير لا تخطئ الألم الذي يعتصر الشاعر، وأنه وإن نجح فيما ذهب إليه إلا أنه لم يقنعنا بهذا الفخر بل أكد لنا أنه أكثر من جازع.

أمّا هدبة بن الخشرم فلم يمنحه السجن فخرًا لم يكن لديه بل أظهر ما جُبلت عليه نفسه من فخر أصيل وخُلق فارس نبيل؛ لذا فنحن نستمع إلى فخره مُقرِّين له ومقتنعين تمامًا بعكس عليّ بن الجهم، ومنه هذه الأبيات:

وأَنَّ خَليقَتي كَرَمٌ وأَنّي ... إِذا أَبدَت نَواجِذَها الحروبُ(٨)
أُعينُ عَلى مَكارِمِها وَأَغشى ... مَكارِهَها إِذا كَعَّ الهَيوبُ
وأَنّي في العَظائِمِ ذو غَناءٍ ... وأُدعى لِلفعالِ فأَستَجيبُ
وأَنّي لا يَخافُ الغَدرَ جاري ... وَلا يَخشى غَوائِلِي الغَريبُ

والشاعر لم يفخر هنا إلا بأخلاقه الكريمة من كرم وإعانة ووفاء، ورغم أنّ القصيدة قيلت في سجنه إلا أنه لم يسمح لمحنته أن تبدل من أخلاقه، ولم يكن الموت المتوقّع بين لحظة وأخرى بقادر على منع الشاعر من الاعتداد بما جُبل عليه من خُلقٍ كريمٍ.

ومن فخره الذي مزج فيه الشاعر بين الفخر الفردي والفخر الذاتي هذه القصيدة التي نقض بها بائية زيادة ابن عمّه:

أَنا المَرءُ لا يَخشاكُمُ إِن غَضِبتُمُ   وَلا يَتَوَقّى سُخطَكُم إِن تَغَضَّبا[٩]

أَنا ابنُ الَّذي فاداكُمُ قَد عَلِمتُمُ   بِبَطنِ مُعانٍ والقِيادَ المُجَنَّبا

وَجَدّي الَّذي كُنتُم تَظلّونَ سُجَّدًا   لَهُ رَغبَةً في مُلكِهِ وَتَحَوُّبا

وبعد أن يقضي الشاعر حق نفسه ووالده وجدّه من الفخر يسير صعدًا صوب أفعال قومه العظيمة فيسطّرها بأحرفه الخالدة قائلاً:

وَنَحنُ رَدَدنا قَيسَ عَيلانَ عَنكُمُ   وَمَن سارَ مِن أَقطارِهِ وَتَأَلَّبا

بِشَهباءَ إِذ شُبَّت لِحَربٍ شُبوبُها   وَغَسّانَ إِذ زافوا جَميعًا وَتَغلِبا

بِنقعاءَ أَظلَلنا لَكُم مِن وَرائِهِم   بِمُنخَرِقِ النَقعاءِ يَومًا عَصَبصَبا

فَأُبنا جِدالاً سالِمينَ وَغُودِروا   قَتيلاً وَمَشدودَ اليَدَينِ مُكَلَّبا

ثم يؤكد فخره بذِكر ما أنعم به قومه على هؤلاء الذين يفخر عليهم:

أَلَم تَعلَموا أَنّا نُذَبِّبُ عَنكُمُ   إِذا المَرءُ عَن مَولاهُ في الرَّوعِ ذَبَّبا

وَإِنّا نُزَكّيكُم وَنَحمِلُ كَلَّكُم   وَنَجبُرُ مِنكُم ذا العِيالِ المُعَصَّبا

وينصب معدًّا شاهدًا على ما يتمتع به قومه من مكانة لا تُنكر:

وَإِنّا أُناسٌ لا نَرى الحِلمَ ذِلَّةً   وَلا العَجزَ حينَ الجَدُّ حِلمًا مُؤَرَّبا

وَنَحنُ إِذا عَدَّت مَعَدٌّ قَديمَها   يُعَدُّ لَنا عَدًّا عَلى الناسِ تُرتَبا

سَبَقنا إِذا عَدَّت مَعَدٌّ قَديمَها   لِيَومِ حِفاظٍ مَيعَةً وَتَقَلُّبا

ولا ينسى شاعرنا مفاخر قومه المعنوية ليكمل بها تلك الصورة الجميلة التي تفنّنت فيها ريشته الشاعرة:

وَإِنّـا لَقَـومٌ لا نَـرَى الحِلـمَ ذِلَّـةً   وَلا نُبسِلُ المَجدَ المُنى والتَجَلُّبا

وإِنّا نَرى مِن أُعدِمَ الحِلمَ مُعِدمًا   وإِن كـانَ مَدثورًا مِنَ المالِ مُترِبا

وَذو الـوَفرِ مُستَغنٍ وَيَنفَـعُ وَفـرُهُ   وَلَيسَ يَبيتُ الحِلـمُ عَنّـا مُعَزَّبـا

وَلا نَخذُلُ المَولى وَلا نَرفَعُ العَصا   عَلَيـهِ وَلا نُزجي إِلى الجارِ عَقرَبا

ولابد من ختام لهذه الملحمة الخالدة، وهو هذا البيت:

فَهَـذي مَساعينا فَجيئـوا بِمثلـها   وَهَـذا أَبونـا فـابتَغوا مِثلَـهُ أَبـا

والملاحظ أنّ الشاعر لا يزال يؤكد على الفخر بالأخلاق الكريمة له ولقومه؛ وإذا حاولنا أن نزن فخره بالقوة والشجاعة والانتصار في الحروب وكذلك فخره بالأخلاق الكريمة وما يتفرع عنها من كرم وصبر ووفاء و... و... فسنجد أنّ كفّة الفخر المعنوي أرجح، وهذا يؤكد ما ذهبنا إليه من أنّ فخر الشاعر فخر أصيل امتزج بنفسه وظهر في شِعره. وأستطيع أن أؤكد أنّ الشاعر كان حريًّا بهذا الفخر سواء أكان في السجن أو كان خارجه. ولنستمع إلى هذين البيتين اللذين يؤكدان هذا الرأي:

وَلَستُ بِمفراحٍ إِذا الدَهرُ سَرَّني   وَلا جازِعٍ مِن صرفِهِ المُتَقَلِّبِ(١٠)

وَلا أَتَمَنّـى الـشَرَّ والـشَرُّ تـارِكي   وَلَكِن مَتَى أُحمَل عَلى الشَّرِّ أَركَبِ

وللشاعر فخر بشِعره الذي يسخِّره في خدمة قومه مدافعًا عنهم هاجيًا عدوّهم ومنه:

إِنّـي مِـن قُـضاعَةَ مَـن يَكِـدها   أَكِـدهُ وَهـيَ منّـي في أَمـانِ(١١)

وَلَستُ بِشاعِرِ السَفساف فيهِم ... وَلَكِن مِدرَهُ الحَرب العَوانِ
سأهجو مَن هَجاهُم مِن سِواهم ... وأَعرِضُ مِنهُم عَمَّن هَجاني

ومن فخر الشاعر الذي حاول فيه أن يتسامى على ما أحدثه في وجهه السيف من جدع لأنفه فقال:

فإن يَكُ أَنفي بانَ مِنهُ جَمالُهُ ... فَما حَسَبي في الصالِحينَ بأَجدَعا[12]
وَما حسَّنَت نَفسي ليَ العَجزَ مُذ بَدَت ... نَواجِذُها يَمجُجنَ سُمًّا مُسَلَّعا

والشاعر يجد عوضًا في حسبه التامّ عن أنفه الذي جدعته الخطوب.

ولا بد أن نختم فخر الشاعر بهذا البيت الذي أطلقه في مواجهة الموت إذ قال وقد قُدِّم للقتل مقيَّدًا:

إِن تَقتلوني في الحَديدِ فإِنَّني ... قَتَلتُ أَخاكُم مُطلَقًا لَم يُقَيَّدِ[13]

الغزل:

كذلك كان الغزل وثيق الصلة بتجربة السجن، إذ أطلق الحبس عواطف الشاعر الكامنة تجاه المرأة وطافت به ذكريات حبِّه القديمة وربما مرَّ به طيف الحبيبة في محبسه فأثار شوق الشاعر لها، وقد سجّل الشاعر هذه الخواطر في أبيات شجيّة زان بها مطالع قصائده أو أطلقها في مقاطع قصيرة حملت من الشِّعر والحب الكثير.

ومن شِعره الذي نفَّس به عن نفسه كربة الشوق وهو حبيس جدران السجن هذه الأبيات الرائعة:

أَلا لَيتَ شِعري هل إلى أُمِّ مَعمَرٍ ... عَلى ما لَقينا مِن تَناءٍ وَمِن هَجرِ[14]
تَباريحُ يَلقاها الفُؤادُ صَبابَةً ... إِلَيها وَذِكراها عَلى حينِ لا ذِكرِ

فَيا قَلبُ لَم يأَلَف كإِلفِكَ آلِفٌ   وَيا حُبَّها لَم يُغرِ شَيءٌ كَما تُغري
وَما عِندَها لِلمُستَهامِ فؤادُهُ   بِها إِن أَلَمَّت مِن جَزاءٍ وَمِن شُكرِ

والبيت الأول من هذه الأبيات يتيح لنا أن نتعرّف على حالة الشاعر النفسية الصعبة التي يكابدها، فهذا التساؤل الممض في بداية البيت يدل بشكل قاطع على عجز الشاعر عن تحمّل هذا الفراق، وكذلك التصريح بذِكر الحبيبة ثم ذِكر التَّنائي والهجر. وأمّا البيت الثاني فقد جاء بالتباريح جمعًا ليكون في مواجهة الفؤاد المفرد العاجز عن تحمّلها وطابق بين تذكّره للحبيبة وعدم ذِكرها لها ليؤكد لنا وفاءه وصدق حبه، ثم أتى بالبيت الثالث وهو من أرقّ الشِّعر الغزلي وأجمله، ليختم بعد ذلك بذِكر فؤاده المستهام مرة أخرى وكأنه يحاول أن يؤكّد صدق ما يعانيه هذا القلب العاشق.

ويستخرج الشاعر من أوتار قيثارته أنغامًا أخرى تصف عشقه وشوقه لتلك المرأة التي أحبّها ووهبها قلبه فيقول:

أَبى القَلبُ إِلا أُمَّ عَمرٍو وَما أَرى   نَواها وَإِن طالَ التَذَكُّرُ تُسعِفُ[١٥]
وَقَد كُنتُ لا حُبٌّ كَحُبِّيَ مُضمَرٌ   يُعَدُّ وَلا إِلفٌ كَما كُنتُ آلَفُ

ويرسم لنا صورة شِعرية رائعة لتلك الفاتنة:

مِنَ البيضِ لا يُسلي الهُمومَ طِلابُها   فَهَل لِلصِّبا إِذ جاوَزَ الهَمَّ مَوقِفُ
رَداحٌ كأَنَّ المِرطَ مِنها بِرَملَةٍ   هَيامٍ وَما ضَمَّ الوَشاحانِ أَهيَفُ
أَسيلَةُ مَجرى الدَمعِ يَرضى بِوَصلِها   مُطالِبُها ذو النيقَةِ المُتَطَرِّفُ

وانظر لهذه الصورة التي يحاول الشاعر أن يؤكد فيها مدى عشقه لتلك المرأة التي يتحمّل فيها سرى الليل المخوف الذي يهابه الساري من أجل أن يلقى الحبيبة:

وَلَيلٍ لألقى أُمَّ عَمروٍ سَرَيتُهُ   يَهابُ سُراهُ المُدلِجُ المُتَعَسِّفُ
وَمُنشَقٍّ أَعطافِ القَميصِ كأَنَّهُ   صَقيلٌ بَدا مِن خِلَّةِ الجَفرِ مُرهَفُ
نَصَبتُ وَقَد لَذَّ الرُقادُ بِعينِهِ   لِذِكراكِ والحِبُّ المُتَيَّمُ يشعَفُ

ويطوف به خيال الحبيبة رغم تنائي المسافة فيزيده شغفًا ذلك الزائر المنتاب ويضمخ قصيدته بذِكره قائلاً:

بَل الزائِرُ المُنتابُ مِن بَعدِ شُقَّةٍ   وَطولِ ثُناءٍ هاجَ شَوقًا وَذكَّرا(١٦)
خَيالٌ سَرى مِن أُمِّ عَمروٍ وَدونَها   تَنائِفُ تُردى ذا الهِبابِ المُيَسَّرا
طَروقًا وَأَعقابُ النُجومِ كأَنَّها   تَوالي هِجانٍ نَحوَ ماءٍ تَغَوَّرا

ولا نحب أن يغفل القارئ الكريم عن صورة النجوم في البيت الأخير، فهي صورة سنجد صداها عند ذي الرمّة في بيته الشهير:

وَقَد لاحَ لِلسّارِي سُهَيلٌ كَأَنَّهُ   قَريعُ هِجانٍ عارَضَ الشَولَ جافِرُ(١٧)

إلا أنّ ذا الرمّة اختص سهيل من النجوم بهذا الوصف الرائع.

ومن شِعر هدبة تلك الفائية التي استطرد فيها لوصف النساء وزينتهن وكأنهن عرائس أحلامه الضائعة فيقول وفي البيت الأول إقواء:

وَلَم تَرَ عَيني مِثلَ سِربٍ رأَيتُهُ   خَرَجنَ عَلينا مِن زُقاقِ ابنِ واقِفِ(١٨)
خَرَجنَ بأَعناقِ الظباءِ وأَعيُنِ الـ   ـجآذِرِ وارتَجَّت بِهِنَّ الرَوادِفُ
طَلَعنَ عَلينا بَينَ بِكرٍ غَريرَةٍ   وَبَينَ عَوانٍ كالغَمامَةِ ناصِفِ

خَـرَجنَ عَلينـا لا غُـشينَ بِهوبَـةٍ ... وَلا وَشوشيّاتُ الحِجالِ الزَعـانِفُ
تَـضَمَّخنَ بِالجـاديِّ حَتّـى كأنّما ... الأُنوفُ إِذا استَعرَضتَهنَّ رَواعِفُ
كَشَفنَ شُنوفًا عَن شُنوفٍ وَأَعرَضَت ... خُدودٌ وَمالَت بِـالفُروعِ السَوالِفُ
يُـدافِعنَ أفخـاذًا لَهُـنَّ كأَنَّهـا ... مِنَ البُدنِ أَفخاذُ الهِجانِ العَلائِفِ

(في البيت إقواء)

عَلَيهِنَّ مِن صُنعِ الـمَدينَةِ حِلِيَةٌ ... جُمـانٌ كأَعنـاقِ الـدَبا وَرَفـارِفُ
إِذا خُرِقَـت أَقـدامُهنَّ بِمِـشيـة ... تَناهَينَ وانباعَت لَهُـنَّ النَواصِفُ
يَنُـؤنَ بأَكفـالٍ ثِقـالٍ وَأَسـؤقٍ ... خِـذالٍ وَأَعـضادٍ كَسَتها المَطـارِفُ
وَيَكسِرنَ أَوساطَ الأَحاديثِ بِـالمُنى ... كَما كَسَر البَرديَّ في الماءِ غـارِفُ

والأبيات غارقة في الفتنة بالمرأة استطاع فيها الشاعر أن يرسم صورة مثالية لها في زينتها، وربما كان الشاعر يرسم صورة لما يتمنّى أن يرى عليه المرأة بعد أن حِيل بينه وبينها بهذا السجن البغيض، فقد بدأ الشاعر بوصف هذا السرب من النساء الخارجات من زقاق ابن واقف ولتحديد المكان أهمية كبرى؛ إذ يدل على اشتياق الشاعر للعودة إلى تلك الأماكن التي كانت مراتع صباه ومآلف هواه، ثم وصف الشاعر بدقة متناهية ما كانت عليه تلك النساء من الزينة، وهنّ بين بكر غريرة وعوان ناصف، وقد تضمخن بالجاديِّ وكشفن عن الشنوف وقد لاحت خدودهن وشعورهن، ويصف حليتهن من الجمان الذي تصنعه المدينة، وقد لاحت آثار شوق الشاعر الجسدي النهم للمرأة في هذه الأبيات وهو الشوق الذي أطلقته جدران السجن الصمّاء.

وهذه القصيدة تحوي أبياتًا من أرقّ ما قيل من الشِّعر الغزلي وهي :

كَلِفتُ بِها لا حُبَّ مَن كانَ قَبلَها ... وَكُـلُّ مُحِـبٍّ لا مَحالَـةَ آلِـفُ

إِذ النـاسُ نـاسٌ والـبِلادُ بِغِـرَّةٍ ... وإِذ أُمُّ عَمّـارٍ صَـديقٌ مُـساعِفُ

وإِذ نَحـنُ أَمّـا مَـن مَـشى بِمَـوَدَّةٍ ... فَنَرضى وأَمّا مَن وشـى فنُخالِفُ

إِذا نَـزاواتُ الحُـبِّ أَحـدثنَ بَينَنـا ... عِتابـا تَراضَـينا وَعـادَ العَواطِـفُ

ذَكَـرتُ هَواهــا ذِكـرَةً فَكأَنَّمــا ... أَصـابَ بِهـا إِنسانَ عَـينيَّ طـارِفُ

وأحب أن يتوقف القارئ أمام البيت الثالث ويستعيد قراءته مستمتعًا بتلك الرقة الفاتنة في موقف العتاب بين الشاعر وعروس أحلامه.

الهجاء :

لم يكن الهجاء من ديدن تلك النفس الكبيرة ؛ لذا فقد اقتصر شِعره في الهجاء على أبيات قلائل نتلمّس فيها رغم الإجادة ترفّع الشاعر عن هذا الغرض، وأنه كان لا يتخذ من شِعره قناعًا يتوارى خلفه ويقذف أعداءه بأوابده ؛ ولنتسمع إلى هذه الأبيات التي هجا فيها الشاعر من أسماهم بني أميمة، ولم يأتِ بالشاعر على ذِكر الأمِّ إلا ليحرمهم ذِكر آبائهم وشرف الانتساب إليهم ويجعل منها هدفًا لسهامه أيضًا مع بنيها :

نـاطوا إِلى قَمَـرِ الـسَماءِ أُنـوفَهُم ... وَعَنِ التُرابِ خُدودُهُم لا تُرفَعُ[١٩]

وَلَـدَت أُميمَـةُ أَعبُدًا فَغَـدَت بِهِـم ... ثُجـلاً إِذا مَـشَتِ القَـوائِمُ تَظلَـعُ

أَبَـني أُمَيمَـةَ إِنَّ طالِـعَ لؤمِكُـم ... لَـونٌ إِذا وَضَـحَ المَـراسِنُ أَسـفَعُ

والأبيات على قصرها قد ناطت المخازي بهؤلاء البؤساء بني تلك المرأة التي صارت بولادتها لهؤلاء العبيد ذات بطن عظيمة واسعة، ونعرف من

الأبيات أنّ بني أميمة، مدَّعو الكبرياء، يرفعون أنوفهم حتى السماء، بينما هم لاصقو الخدود بالتراب، وهم بنو تلك المرأة العرجاء ذات البطن العظيمة التي ولدتهم عبيدًا لؤماء.

واستمع إليه في بيت مفرد يهجو بني رقاش، التي تتوارث اللؤم كما تتوارث الحمير ما بباطن أعضادها من أثر:

وَرِثَـت رَقـاشِ اللُـؤمَ عَـن آبائِهـا كَتَوارُثِ الحُمُراتِ رَقمَ الأَذرُعِ[٢٠]

أمّا أروع ما قاله من الهجاء فهو ما جاء في وصيته الأخيرة لامرأته أن تتحاشى الزواج من الرجال البخلاء الخور اللئام الذين لا يشبهونه، ضنًّا بها عن غيره حتى بعد مماته فقال:

فأوصـيكِ إِن فـارقتِني أُمُّ عـامِرٍ وَبَعضُ الوَصايا في أَماكِنَ تَنفَعا[٢١]
وَلا تَنكَحي إِن فَرَّقَ الـدَهرُ بَينَنا أَغَـمَّ القَـفا والوَجه لَـيسَ بأَنزَعـا
مِـنَ القَـومِ ذا لَـونَينِ وَسَّـعَ بَطنَـهُ وَلَكِـن أَذًّيـا حِلمُـهُ مـا تـَوَسَّعا
كَليلاً سِوى ما كانَ من حَدِّ ضِرسِهِ أُكَيبِـدَ مِبـطانَ العَـشيّاتِ أَروَعـا
ضَروبًا بِلَحَييهِ عَلى عَظمِ زَورِهِ إِذا القَـومُ هَـشّوا لِلفَعـالِ تَقَنَّعـا
وَلا قُرزُلاً وَسطَ الرِجالِ جُنادِفًا إِذا مـا مَـشى أَو قـالَ قَـولاً تَبَلتَعـا

والشاعر لا يستطيع أن يخفي ما تظهره أبياته من مرارة أن يترك امرأته للئام الرجال؛ لذا ترك لها شروطًا قاسية لاختيار رجل من بعده وكأنه يسألها أن تهجر من أجله الزواج بعده وتحيا في محراب ذكراه كرجل كامل تامّ المروءة، وهي لم تكن بأقل منه حبًّا ووفاءً وضنًّا بنفسها عن غيره، لذا قامت –وهي أجمل النساء– بما لم تقم به امرأة، إذ استعارت شفرة قصّاب

وشوّهت وجهها حتى لا يكون لأحد مطمعًا فيها من بعده فطابت نفسه بالموت.

الحكمة:

رغم أنّ شاعرنا قضى في ميعة الشباب إلا أنّ طول فترة السجن ووحدته القاسية أتاحت له أن يطيل التأمّل، ومنحه ذلك شيئًا من الحكمة وشّى به قصائده فجاءت طبيعية غير متكلّفة ولا وهي حكمة أصيلة نابعة عن نفس ملهمة متأمّلة، وتأتي في مكانها من القصيدة غير متقلقلة ولا نابية، وهو صاحب الحكمة الشهيرة التي تدور على الألسنة منذ هذا العهد القديم حتى الآن، وصارت كأنها ميراث للشعب العربي بأجمعه، وهي التي جاءت في شطر هذا البيت:

فـإن يَـكُ صَـدرُ هَـذا اليَـومِ وَلّـى   فـإِنَّ غَـدًا لِنـاظِرِهِ قَريـبُ[٢٢]

ومن حِكَمه الصادقة:

وَلِلـدَّهرِ في أَهـلِ الفَتـى وتِـلادِهِ   نَصيبٌ كَقَسمِ اللَّحمِ أَو هوَ أَبرَحُ[٢٣]

وَحِبَّ إِلى الإِنسانِ ما طالَ عُمرَهُ   وإِن كـانَ يُشقى في الحَياةِ وَيُقبَحُ

تَغُـرُّهُم الـدُنيا وَتأَميـلُ عيـشها   أَلا إِنَّمـا الـدُنيا غُـرورٌ مُتَـرِّحُ

وقد كرّر الشاعر معنى البيت الأول من هذه الأبيات في هذا البيت:

وَلِلـدَّهرِ مِـن أَهـلِ الفَتـى وتِـلادِهِ   نَصيبٌ كَحَزِّ الجـازِرِ الُمتَشَعِّبِ[٢٤]

ولعل انتظار الموت هو الذي أملى على شاعرنا هذه الحكمة القاسية.

ومن حِكَم هدبة أيضًا:

وَبَعضُ رِجاءِ المَرءِ ما لَيسَ نائِلاً غَناءً وَبَعضُ اليأسِ أَعفى وأَروَحُ[٢٥]

وهذا البيت الذي يتنازعه الرجاء واليأس أبلغ ما وصف به الشاعر نفسه القلقة المتأرجحة بين هذا وذاك في غرفة حبسه الضيّقة المظلمة.

ومما أملته عليه أحداث حياته وقراءته لمصيره هذه الأبيات الرائعة:

رأَيتُ أَخا الدُنيا وإِن كانَ خافِضًا أَخا سَفَرٍ يُسرى بِهِ وَهوَ لا يَدرِي[٢٦]

وَلِلأَرضِ كَم مِن صالِحٍ قَد تَلمَّأَت عَليهِ فَوارَتهُ بِلَمَّاعَةٍ قَفرِ

فَلا ذا جَلالٍ هِبنَهُ لِجَلالِهِ وَلا ذا ضَياعٍ هُنَّ يُترَكنَ لِلفَقرِ

ولا ينسى الشاعر أنّ ما جرَّ عليه كل هذه الخطوب كان مجرد كلام بينه وبين ابن عمّه، وسرعان ما تفاقم الأمر واستطار العداء بينهما، فانتهى الأمر بهما إلى قتيل وسجين ينتظر القتل؛ لذا نراه يستخلص العبرة من هذه الأحداث وينشد:

وَرُبَّ كَلامٍ قَد جَرى مِن مُمازِحٍ فَساقَ إِلَيهِ سَهمَ حَتفٍ فَعَجَّلا[٢٧]

فَدَع عَنكَ قُربَ المَزحِ لا تَقرُبَنَّهُ كَفى بامرئ وَعظًا إِذا ما تَكَهَّلا

وما أمر وأصدق الحكمة في البيت الأول وكأنها تروي لنا مأساة وتجسّد لنا أبطالها وأحداثها.

الوصف:

لم يستطع السجن أن يقيّد موهبة شاعرنا بل أطلق لها العنان فانهمرت بأجمل الشِّعر وأشجاه، وصار به صاحبها أشعر العرب كما قيل، وكان لشاعرها خطرات رائعة في الوصف فنراه في تضاعيف القصائد يلمُّ بما اختزنته ذاكرته الشِّعرية وعينه اللاقطة مما أحاطت به بيئته الواسعة أو بيئته

الضيّقة في السجن. ولا بد أن نؤكد أنّ الأوصاف التي جاء بها شاعرنا لا تخرج عن كونها أحد عناصر تجربته الأليمة في السجن حتى وإن بدت على غير ذلك في الظاهر.

فمن وصفه للصحراء وقد تفنّن الشعراء منذ الجاهلية في إبداع أجمل الشِّعر في وصفها ووصف مظاهرها :

وَداويَّــةٍ قَفــرٍ يَحــارُ بِهــا القَطــا بِها مِن رَذايا العيسِ حَسرى وَزُحَّفُ[٢٨]
عَسَفتُ بُعَيدَ النَومِ حَتّى تَقَطَّعَت تَنائِـفُها والكُـورُ بِـالكُورِ مُــردَفُ
إِذا نَفنَــفٌ بــادي الميــاهِ قَطَعنَــهُ نَواشِـطَ بِالَموماةِ أَعـرَضَ نَفنَـفُ

ولا نعجب للغة الشاعر الجزلة حين يتوقّف أمام مشهد الصحراء ؛ فقد تواطأ الشعراء على ذلك وكأنهم لابد أن يقابلوا الصحراء المهيبة بلغة هي أشبه بها ، وهنا يصف هدبة تلك الصحراء القفر الواسعة إلى حد أن يضل بها طائر القطا وهو المشهور بالاهتداء ، وقد انتثرت على رمالها الإبل التي لقيت حتفها إعياء في جنبات هذا القفر الموحش ، ويصف الشاعر قدرته على اعتساف هذه الداوية بعيد النوم ويواصل السير فيها بناقته النشيطة رغم رحابة هذه الصحراء التي لا تنتهي.

ومن وصف الصحراء أيضًا :

وَداويَّــةٍ سَـيرُ القَطــا مِـن فَلاتِهـا إلى مائِها خِمسٌ لَهـا مُتَقـاذِفُ[٢٩]
بُطـونٌ مِـنَ الَموماةِ بَعَّـدَ بَينَهـا ظُـهورٌ بَعيـدٌ تَـيهُها وأَطـايفُ
يَحـارُ بِها الهـادي وَيَغتـالُ رَكبَهـا تَنائِـفُ في أَطـرافِهِنَّ تَنـائِفُ
هَواجِرُ لَو يُشوى بِها النَيُّ أَنضَجَت مُتونَ الَمها مِن طَبخِهِنَّ شَواسِفُ

إِذا مـا أَتاهـا القَـومُ هَـوَّلَ سَـيرَهُم		تَجـاوبُ جِنّـانٍ بِهـا وَعَـوارِفُ

والشاعر هنا يضيف خطوطًا جديدة للوحته فيتطرق لوصف التيه وصوت الجنان؛ مما يوحي بمزيد من الرهبة في مواجهة الصحراء الواسعة وكأنها اتصلت بعضها ببعض.

وقد استتبع وصف الصحراء وصف السراب:

بَعيـدٌ كـأَنَّ الآلَ فيـهِ إِذا جَـرى		عَلى مُستَوى الحِزّانِ رَيطٌ مُفَوَّفُ(٣٠)

ووصف السراب بالريط المفَوَّف أمر مشترك بين الشعراء منذ الجاهلية وكأنهم رأوا في حركة السراب ما يشبه الملاء المنشر ومثله:

وَخَرقٍ كـأَنَّ الـريطَ تَخفِـقُ فَوقَـهُ		مَعَ الشَمسِ لا بَل قَبلُها يَتَضَحضَحُ(٣١)

أمّا وصف الحر وما يقاسيه سالك الصحراء من الهجير فقد أبدعته كذلك ريشة الشاعر فقال من قصيدته السابقة:

وَيَـومٍ مِـنَ الـشِّعري تَظَـلُّ ظِـباؤُهُ		بِـسـوقِ العِـضاهِ عـوَّذًا مـا تَبَـرَّحُ
شَديدِ اللَّظى حامي الوَديقَةِ ريحُهُ		أَشَدُّ لَظًى مِن شَمسِهِ حينَ يَصمَحُ
تَنَصَّبَ حَتّى قَلَّصَ الظِـلُّ بَعدَمـا		تَطاوَلَ حَتّى كادَ في الأَرضِ يَمصَحُ

ولا نعجب مما أتى به الشاعر من وصف لهذا اليوم اللاهب فهو ابن بيئته الصحراوية القاسية، ولذا نراه يتكئ مرة أخرى على هذه الصورة ليرسم لنا هذا المشهد المتكرر:

وَيَـومٍ مِـنَ الجَـوزاءِ يَلجـأُ وَحـشُهُ		إِلى الظِلِّ حَتّى اللَيـلَ هُـنَّ حَواقِفُ(٣٢)
يَظَـلُّ بِهـا الـهـادي يُقَلِّـبُ طَرفَـهُ		مِنَ الهَولِ يَدعو لَهفَهُ وَهوَ واقِفُ

وعادة ما يستطرد الشاعر لوصف ناقته التي تنجو به من هذه الصحراء المهلكة، وقد أجاد الشاعر وصف ناقته تلك ببراعة مثل قوله:

قَطَعتُ بِمرجاعٍ يَكونُ جَنينُها دَمًا قِطَعًا في بَولِها حينَ تَلقَحُ[٣٣]
يَداها يَدا نَوَّاحَةٍ مُستعانَةٍ عَلى بَعلِها غَيرى فَقامَت تَنَوَّحُ

ويهمنا أنّ الشاعر لا يرى ناقته إلا من زاوية إنسانية عميقة، فهو لا يطيل في وصف الناقة كبعض الشعراء بل يكتفي من القلادة بما يحيط من العنق ويدير عدسته دومًا ليرى الناقة في لحظات ضعفها كهذه الناقة التي قطع بها الصحراء وقد نثرت دمًا في بولها مما كان يُظن أنّ بها حملاً، كما يلتفت إلى سرعة يديها في السير ويراهما كيدي النائحة على بعلها الراحل، ورغم أنّ الشعراء اعتادوا وصف يدي الناقة وإعمالها السير، إلا أنّ هدبة كان من الأوائل الذين نظروا هذه النظرة الحانية لناقته.

وانظر إلى هذه الصورة التي وصف بها عير الصحراء وقد تلطّخ بالدم من شدة الحر لترى كيف التفت الشاعر إلى هذه الدقائق التي قد لا يعيرها بعض الشعراء اهتمامًا وحملت لنا شيئًا من إحساس الشاعر الرقيق بهذا الحيوان:

يَظَلُّ بِها عَيرُ الفَلاةِ كَأَنَّهُ مِنَ الحَرِّ مَرثومُ الخَياشِمِ راعِفُ[٣٤]

وللشاعر أوصاف أخر كوصف للصبح البادي بعد سرى الليل كله:

عَلى حينِ يُثني القَومُ خَيرًا عَلى السُّرى وَيَظهَرُ مَعروفٌ مِنَ الصُبحِ أَفصَحُ[٣٥]

ولا أستطيع أن أخفي مدى إعجابي بقدرة الشاعر على الوصف الرائع وخاصة في اختياره لكلمة "أفصح" التي حملت معاني لا يسعها الشرح.

ومن وصفه للبرق والسحاب هذه الأبيات التي تشيع فيها الحركة وتختلط فيها الصور، إذ يستعين الشاعر بمظاهر بيئته ويستقصي وصف المشهد حتى لا ينسى أدق تفاصيله من صوت السحاب وانهمار المطر وسوق الريح في لوحة بديعة بتوقيع الشاعر:

فَدَع ذا وَلَكِن هَل تَرى ضَوءَ بارِقٍ قَعَدتُ لَهُ مِن آخرِ اللَيلِ يَلمَحُ(٣٦)
يُضيءُ صَبيرًا مِن سَحابٍ كَأَنَّهُ جِبالٌ عَلاها الثَلجُ أَو هوَ أَوضَحُ
فَلمّا تَلافَتهُ الصَّبا قَرقَرَت بِهِ وَأَلقى بِأَرواقٍ عَزاليهِ تَسفَحُ
طِوالٌ ذُراهُ في البُحورِ كَأَنَّهُ إِذا سارَ مَجذوذُ القَوائِمِ مُكبَحُ
سِجالٌ يَسُحُّ الماءَ حَتّى تَهالَكَت بُطونُ رَوابيهِ مِنَ الماءِ دُلَّحُ
أَجَشُّ إِذا حَنَّت تَواليهِ أَرزَمَتْ مَطافيلُهُ تِلقاءَ ما كادَ يَرشَحُ

والشاعر من القلائل الذين التفتوا إلى وصف الثلج وهو بالتأكيد وصف نادر في الشِّعر العربي، لما تمتاز به البيئة العربية من شيوع الصحراء. وقد تطرّق الشاعر إلى وصف الثلج مرة أخرى في هذا الوصف النادر في هذا البيت:

وَوادٍ كَجَوفِ العَيرِ قَفرٍ قَطَعتُهُ تَرى السَّقطَ في أَعلامِهِ كالكَراسِفِ(٣٧)

وهو هنا يصف ما يتساقط على هذا القفر من ندف الثلج وقطرات الندى بالقطن، وهو تشبيه رائع بلا شك.

ومن وصف الشاعر للخمر ولم يقصده لذاته بل تطرّق إليه وهو يصف ثنايا الحبيبة:

كَأَنَّ ثَناياها وَبَردَ لِثاتِها بُعَيدَ الكَرى تَجري عَليهِنَّ قَرقَفُ(٣٨)
شَمُولٌ كَأَنَّ المِسكَ خالَطَ ريحَها وَضُمِّنَها جَونُ المناكِبِ أَكلَفُ

تُشابُ بِماءِ الْمُزنِ في ظِلِّ صَخرَةٍ   تَقيها مِنَ الأَقـذاءِ نَكباءُ حَرجَفُ

وكالعادة يستقصي الشاعر وصفه محيطًا بكل تفاصيل المشهد، فهو لا ينسى أن يذكر الزمان (بعيد الكرى) والمكان (في ظل صخرة)، ويصرّح بذِكر الخمر (القرقف) و(الشمول)، ويذكر رائحتها (المسك) والدن الذي احتواها بلونه الأسود الذي يضرب إلى الحمرة، كما لا ينسى مزجها بماء المزن الصافي، إلى غير تلك التفاصيل التي تغني المشهد وتشهد ببراعة الشاعر.

ذِكر الحادثة وأثرها في شِعره:

ويستتبع ذلك وصف السجن وصبره عليه وذِكر تقلّب الأيام وأمله في النجاة وكذلك التسليم بما خط له في لوح القضاء والقدر في خاتمة المطاف. وقد أردنا أن نفرد ذِكر هذا الشِّعر هنا رغم شيوعه في ثنايا القصائد ولكن لنؤكد على أهميته، إذ إنه كان الأساس الذي أقام عليه الشاعر بناء شِعره الشامخ.

ذِكر الحادثة:

وقد أتينا في مقدمة الدراسة على ما جرى بين هدبة وابن عمّه زيادة وما قيل من رجز استثار غضبهما وأرث نار العداوة بينهما، ولا حاجة لنا أن نعيد ذِكره ولكننا نذكر هذه الأبيات التي يلخّص بها الشاعر تلك الحادثة -من وجهة نظره- والتي استتبعت كل ما جرى بعدها من خطوب وهي:

فَلَمَّـا رأَيـتُ أَنَّـما هـيَ ضَـربَةٌ   مِنَ السَّيفِ أَو إِغضاءُ عَينٍ عَلى وِترِ[٣٩]

عَمَـدتُ لأَمْـرٍ لا يُعـيِّرُ والـدي   خـزايتُهُ وَلا يُـسَـبُّ بِـهِ قَبـرِي

رُمينـا فَرامَينـا فَـصادَفَ سَـهمُنا   مَنيَّـةَ نَفـسٍ في كِـتابٍ وَفـي قَـدرِ

والشاعر يصف اضطراره في هذا الموقف لأن يلجأ للقتل، فقد وقف موقف الحيرة بين إعمال السيف على كُرهٍ وبين أن يغضي طرفه على وتره، وهو ما لا يرضاه لنفسه ولا لمقام والده، وما كان الأمر إلا مناوشة رمى كل منهما فيها الآخر فصادف القدر ضربة شاعرنا لابن عمّه فراح ضحية لها؛ ثم لا يكتفي هدبة بذِكر الحادثة بل يرفع الأمر للخليفة راضيًا بحكمه:

وأَنـتَ أَمــيرُ المؤمِنــينَ فَمـا لَنـا وَراءَكَ مِن مَعدي وَلا عَنكَ مِن قَصرِ[40]

فإِن تَكُ في أَموالِنـا لا نَـضِيق بِهـا ذِراعًـا وإِن صَبـرٌ فَنَـصبِرُ لِلـصَّبرِ

وإِن يَكُ قَتـلٌ لا أَبـا لَـكَ نَـصطَبِر عَلى القَتلِ إِنّا في الحُروبِ أُلـو صَبرِ

والشاعر راضٍ بما يحكم به الخليفة سواء أكان هذا الحكم دفع الدية التي لا يضيق بها ذرع الشاعر وقومه أو القتل، وهو ما يحتسب نفسه له ويصبر عليه صبر الكرام. ونلاحظ أنّ الشاعر قدّم ذِكر الدِّيَة لأمله في النجاة ثم ذكر الصبر، ولكلا الأمرين حديث طويل عن الشاعر، وسوف نتتبّع الشاعر في تقديم ذِكر أمله في النجاة على ذِكر الصبر، ولكن بعد أن نعرّج على شِعره في وصف السجن.

وصف السجن:

تبدأ مأساة الشاعر الحقيقية حين تنطبق عليه جدران السجن ويضيِّق عليه بهذا القيد المحكم، ويضطر لتحمّل هؤلاء الحراس الغلاظ، ويكفي أنّ السجن قام حائلاً بين الشاعر وزيارة مَن يحب، وفي ذلك يقول:

إِنّـي عَـداني أَن أَزورَكِ مُحكَـمٌ مَتى ما أُحَرِّك فيهِ ساقيَ يَصخَبِ[41]

حَديدٌ وَمَرصوصٌ بِشَيدٍ وَجَنـدَلٍ لَـهُ شُـرُفاتٌ مَـرقَبٌ فَوقَ مَرقَـبِ

يُخَبِّــرُني تُرَّاعُــهُ بَــينَ حَلقـــةٍ أَزومٍ إِذا عَـضَّت وَكَبـلٍ مُـضَبَّبِ

والشاعر أكثر من موفّق في وصف ذلك السجن وما يقاسيه من قيده، ولكنني أحب أن أشير إلى ما في البيت الثاني من جَمالٍ باذخٍ حيث جسَّد مأساته في السجن عن طريق ذلك الوصف الدقيق الرائع لعناصر المشهد من حديد وصخر وجص وشرفات عالية حتى بدا الشاعر وكأنه يحمل على صدره ذلك الجندل وكأنما تضيق هذه الجدران على روح الشاعر.

ولكن الشاعر يؤكد أنّ السجن لا يستطيع أن يحول بينه وبين ذكرى حبيبته رغم حلقات القيد:

وَلَمّا دَخَلتُ السِّجنَ يـا أُمَّ مالِكٍ ذَكَرتُكِ والأَطرافُ في حَلَقٍ سُمرِ[٤٢]

ومن وصفه للسجن وما يلاقيه من قسوة الحرّاس وإغضائه قسرًا ورغمًا عنه:

لَعَمري لَئِن أَمسَيتُ في السِّجنِ عانيًا عَلَـيَّ رَقيـبٌ حـارِسٌ مُتَقَـوِّفُ[٤٣]

إِذا سَــبَّنِي أَغـضَيتُ بَعـدَ حَميَّـةٍ وَقَـد يَـصبرُ المَـرءُ الكَـريمُ فَيَعـرِفُ

لَقَد كُنتُ صَعبًا ما تُرامُ مَقادَتي إِذا مَعشَرٌ سيموا الـهَوانَ فَأَحنَفُوا

والأبيات بالغة الدلالة على معاناة الشاعر النفسية في محبسه.

وفي أبيات أخرى يصف قلق امرأته مما رأت في ساقيه من ندوب أحدثتها القيود، ونستمع إلى الشاعر وهو يعترف لأول مرة بأنّ إحساس الخوف ينتابه:

وَقَـد شَئِزَت أُمُّ الـصَبِيَّينِ أَن رأَتْ أَسـيرًا بِـساقَيهِ نُـدوبٌ نَواسِـفُ[٤٤]

فإِن تُنكِري صَوتَ الحَديدِ وَمِشيَةً فـإِنّي بِمـا يأَتــي بِـهِ اللهُ عـارِفُ

وإِن كُنتِ مِن خَوفٍ رَجَعتِ فِإِنَّني مِنَ اللهِ والسُلطانِ والإِثمِ راجِفُ

ولا يرى الشاعر ملجأ إلا جناب الله ﷻ وهو في محبسه بين سطوة الأمير والحرّاس والأبواب ذات الصرير، فيبوح بهذه الأبيات في مناجاة طاهرة يرفعها إلى سماء الرحمة:

أَذا العَرشِ إِنّي مُسلِمٌ بِكَ عائِذٌ   مِنَ النارِ ذو بَثٍّ إِلَيكَ فَقيرُ[٤٥]

بَغيضٌ إِليَّ الظُّلمُ ما لَم أُصَب بِهِ   مِنَ الظُّلمِ مَشعوفُ الفُؤادِ نَفيرُ

وإِنّي وإِن قالوا أَميرٌ وَتابِعٌ   وَحُرّاسُ أَبوابٍ لَهُنَّ صَريرُ

لأَعلَمُ أَنَّ الأَمرَ أَمرُكَ إِن تَدِن   فَرَبٌّ وَإِن تَغفِر فأَنتَ غَفورُ

الأمل في النجاة:

في غمرة الليل الذي يحياه الشاعر ورغم جدران السجن العالية ومحبسه الضيّق تتسلّل أشعة الأمل لنفس الشاعر ويمنِّي نفسه بالنجاة فيسكب هذا النور الذي أشرقت به نفسه في قصائده ويسمعنا مثل هذين البيتين:

عَسى الكَربُ الَّذي أَمسَيتُ فيهِ   يَكونُ وَراءَهُ فَرَجٌ قَريبُ[٤٦]

فَيأَمنَ خائِفٌ ويُفَكَّ عانٍ   وَيأَتي أَهلَهُ النائي الغَريبُ

ومثل هذه الأبيات الراجية:

فَلا تَعجَبي أُمَّ الصَبيَّينِ قَد تُرى   بِنا غِبطَةٌ والدَّهرُ فيهِ عَجارِفُ[٤٧]

عَسى آمِنًا في حَربِنا أَن تُصيبَهُ   عواقِبُ أَيامٍ وَيأمَنَ خائِفُ

فيُبكينَ مَن أَمسى بِنا اليَومَ شامِتًا   وَيُعقِبنَنا إِنَّ الأُمورَ صَرائِفُ

ولا تنسى هذه الأبيات أن تذكر الشامت الفرِح بما يعانيه الشاعر.

ولنا أن ننشد مع الشاعر هذا البيت:

فإِن نَنجُ مِن أَهوالِ ما خافَ قَومُنا   عَلينا فإِنَّ اللهَ ما شاءَ يَسَّرا[٤٨]

وهو يعترف بالفضل إن نجا لله ﷻ ولكنه يذكر لنا إشفاق قومه عليه وخوفهم من أن يصيبه القتل.

الصبر:

والشاعر يبدو صابرًا أمام ما يقاسيه من سجن وبُعد عن الأهل والولد وما يلوح أمامه من سيف للموت مشهر، وقد روي لنا في أخبار الشاعر ما يثير الإعجاب حقًّا من صبر على الموت حتى اللحظات الأخيرة، وهو يضع إحدى قدميه في الآخرة، فمن ذلك أنه رؤي يصلح قبال نعله الذي انقطع وهو في طريقه للموت، وحين جلس ليصلحه قيل له: أو تصلحه وأنت على ما أنت؟ فقال بثبات عجيب:

أَشَــدُّ قِبــالَ نَعلــي أَن يَرانــي عَــدوِّي لِلحَــوادِثِ مُــستَكينا(٤٩)

إذن هو صابر على حاله غير مستكين للحوادث، وقد أملى عليه الصبر أبياتًا رائعة تضمّنتها قصائده وسارت مسير الشمس مثل قوله:

صَبورٍ عَلى مَكروه ما يَجشِمُ الفَتى وَمُـرٍّ إِذا يُبغـى المَـرارَةُ مُمقِـرا(٥٠)

رُزينــا فَلَــم نَــعثُر لِوَقعَتِــهِ بِنــا وَلَـو كـانَ مِـن حَـيٍّ سِـوانا لأعثَـرا

وَمـا دَهرُنـا أَلاَّ يَكـونَ أَصابَنـا بِثِقـلٍ وَلكِـنَّا رُزِينَـا لِنَـصبِرا

والشاعر يكرّر لفظ الصبر لتوكيد ما جُبلت عليه نفسه من خليقة التحمّل وعدم الجزع. وفي ختام هذه القصيدة أيضًا يؤكد الشاعر صبره على هذه الخطوب فيقول:

فـإِن يَـكُ دَهـرٌ نـابَني فأَصـابَني بِرَيبٍ فما تُشوي الحَوادِثُ مَعشَرا(٥١)

فَـلا خـاشِعٌ لِلنَّكـبِ مِنـهُ كآبَـةً وَلا جـازِعٌ إِن صَـرفُ دَهـرٍ تَغَيَّـرا

وَقَـد أَبقَـتِ الأَيـامُ مِنّـي حَفيظَـةً | عَلى جُلِّ ما لاقَيتُ واسمًا مُشَهَّرا
فَلَستُ إِذا الـضَراءُ نابَـت بِجُبّـإٍ | وَلا قـصِفٍ إِن كـانَ دَهـرٌ تَنَكَّـرا

وقد قُدر للشاعر أن يفقد أحبّة فتحلّى بالصبر الجميل؛ ولم يظهر الجزع على ما يعانيه من عظم المصاب، مخافة أن يساء قريب أو يبدو مستكينًا أمام أعدائه وقد قال في ذلك:

وَكَـم مِـن صـاحِبٍ قَـد بـانَ عنّـي | رُميـتُ بِفَقـدِهِ وَهـوَ الحَبيـبُ[٥٢]
فَلَـم أُبـدِ الَّـذي تَحنُـو ضُلوعـي | عَليـهِ وإِنَّـني لأَنـا الـكَئيبُ
مَخافَـةَ أَن يَـراني مُـستَكينًا | عَـدُوٌّ أَو يُـساءَ بِـهِ قَريـبُ
وَيَـشمَتَ كـاشِحٌ وَيَظُـنَّ أَنّـي | جَـزوعٌ عِنـدَ نائِبَـةٍ تَـنوبُ

ولا يكتفي الشاعر بأن يبدو صابرًا متماسكًا بل يدفع أقرب الناس إليه أن يتحلّوا بهذه الفضيلة وأن يحاولوا التشبه به في التحلِّي بها فيقول:

أَبليـاني اليَـومَ صَـبرًا مِنكُمـا | إِنَّ حُزنًـا مِنكُمـا عاجِـلُ ضُـر[٥٣]
لا أَرى ذا المَـوتَ إِلاَّ هَيِّنًـا | إِنَّ بَعـدَ المَـوتِ دارَ المُـستَقَر
اصـبِرا اليَـومَ فـإِنّي صابِـرٌ | كُـلُّ حَـيٍّ لِقَـضاءٍ وَقَـدَر

تقلّب الأيام:

من محبسه يرقب الشاعر الأيام ودولابها الذي لا يكفّ عن الدوران، فيقرأ في صفحاتها ماضيه ويفسّر على هديها حاضره، بل ويكاد يطالع ما خطّته له أناملها، وها هو ذا في سجنه الكئيب ينشد:

وَحالَت خُطوبٌ بَعدَ عَهدِكَ دونَنا | وَعَدّى عَنِ اللَّهوِ العَداءُ فأَقصَرا[٥٤]

أُمــورٌ وأَبنــاءٌ وَحـــالٌ تَقَلَّــبَت   بِنـا أَبطُـنٌ يـا أُمَّ عَمــروٍ وأَظهُـرا
أُصِبنا بِما لَو أَنَّ رَضوى أَصابَهـا   لَـسَهَّلَ مِـن أَركانِــها مـا تَـوَعَّرا
فَكَم وَجَدَت مَن آمنٍ فَهوَ خائِفٌ   وَذي نِعمَـــةٍ مَعــــروفَةٍ فَتَنَكَّـــرا

وله بيتان في تقلّب الأيام بين الخليلين نستطيع أن نقرأهما في ضوء القصة التي دارت بينه وبين ابن عمّه زيادة العذري وهما:

وَكُنّــا وَديـــدي أُلفَــةٍ وَتَقــرُّبٍ   صَفيَّينِ لَم نَحفِل مَقـالاً لِقائلِ[٥٥]
فَغَيَّرنـا صَـرفٌ مِـنَ الـدَّهرِ عـاثِرٌ   وَسـاعٍ سَـعى مـا بَينَنـا بِالغَوائِـلِ

وإذا كان تفسيرنا صحيحًا كان لهذين البيتين أهمية بالغة في وصف حالة الشاعر بعد أن خلا الشاعر لنفسه واسترجع الأحداث التي مرّت به، وشدّته عاطفة الودّ والألفة إلى ابن عمّه فتلفّت فلم يجده إلى جانبه بل وجد حادثًا قاسيًا أودى بهذا الصفيّ وتركه بين جدران هذا السجن الذي لا يرحم ينتظر القتل بيد ابن هذا الصديق الحبيب.

التسليم للقضاء والقدر:

ولما لم يبق إلا انتظار المصير المحتوم الذي لا مفرّ منه يقف الشاعر على أعتاب القدر وقفة التسليم والقبول فنسمعه ينشد:

فـإِن غالَنـا دَهـرٌ فَقَـد غـالَ قَبلَنـا   مُلوكَ بَني نَصرٍ وكِسرَى وَقَيصَرا[٥٦]
وآباؤنـــا مـــا نَحـــنُ إِلاَّ بَنوهُـــمُ   سَنَلقَى الَّـذِي لاقوا حِمامًا مُقَدَّرا

ونلاحظ أنّ الشاعر يلتمس التسلّي بذِكر الماضين من الملوك ملقيًا بهذه الحكمة الصادقة في البيت الثاني التي توحي بقبول الموت الذي هو سبيل الناس جميعًا أبناء تتبع آباء.

ثم هذه الأبيات التي يخاطب فيها امرأته حيث يسلّم فيها بالموت مصيرًا لكل الناس ولا يتبقّى بعد أن يفنى المال إلا التقى فيقول:

فَلا تَعذُليني لا أَرى الدّهر مُعتِبًا   إِذا ما مَضى يَومٌ وَلا اللَّومَ مُرجِعا(٥٧)

وَلَكِن اَرى أَنَّ الفَتَى عُرضَةُ الرَّدَى   وَلاقِي المَنايا مُصعِدًا وَمُفَرِّعا

وأَنَّ التُّقَى خَيرُ المَتاعِ وإِنَّمَا   نَصيبُ الفَتَى مِن مالِهِ ما تَمتَّعا

رثاء النفس:

وفي السجن والشاعر متأرجح بين الأمل واليأس تتسلّل لقصائد الشاعر أبيات هي رثاء صريح لنفسه تحمل ما تحمل من شجون وآلام لم يستطع صبر الشاعر وقدرته على التحمّل أن يخفيها فنقرأ له هذه المقطوعة الغارقة في الحزن واليأس والجزع أيضًا:

أَلا عَلِّلانِي قَبلَ نَوحِ النَّوائِحِ   وَقبلَ اطِّلاعِ النَّفسِ بَينَ الجَوانِحِ(٥٨)

وَقَبلَ غَدٍ يا لَهفَ نَفسِي عَلى غَدٍ   إِذا راحَ أَصحابي وَلَستُ بِرائِحِ

إذا راحَ أَصحابي بِفَيضِ دُموعِهِم   أوغُودِرتُ في لَحدٍ عَليَّ صَفائِحِي

يَقولونَ هَل أَصلَحتُمُ لأَخيكُمُ   وَما الرَّمسُ في الأَرضِ القِواءِ بِصالِحِ

يَقولونَ لا تَبعَد وَهُم يَدفِنونَني   وَليسَ مَكانُ البُعدِ إِلاَّ ضَرائِحِي

ولعل هذه الأبيات تذكّرنا بقصيدة خالدة شهيرة في رثاء النفس هي قصيدة مالك بن الرَّيب اليائية، ولعلّنا نلاحظ التقارب الشديد بين بعض الأبيات عند الشاعرين، وقد توفي مالك بن الرَّيب في ٦٠هـ وثابت يقينًا أنه نطق بكلمته تلك في لحظاته الأخيرة، وعلى ذلك يكون شاعرنا هدبة أسبق من مالك، ويكون صاحب اليائية هو التابع لهدبة وخاصة فيما

نلاحظه من تقارب بين بعض الأبيات في القصيدتين، ولكننا يجب أن نقرر أيضًا أنّ هذه المعاني متداولة بين الشعراء، ولدينا رصيد من قصائد رثاء النفس منذ الجاهلية كبائية ابن أبي خازم الخالدة مثلاً، كما يجب أن نعترف أنّ مالك بن الرَّيب في لحظاته الأخيرة كان ينطق بلسان نفسه ويصف لحظاته الأخيرة هو وعليه نقرر أنّ هدبة كان السابق زمنيًّا لا شعريًّا.

خاتمة في خصائص شِعره وسماته الأسلوبية:

هدبة شاعر راجز استطاع أن يتفوّق في الفنين ويبدع فيهما، ولنا أن نستشهد ببعض أشطر الرجز التي تركنا الحديث عنها إلى الخاتمة. وبادئ ذي بدء نقرر أنّ رجز الشاعر صار في ركاب شِعره وطاف في أوديته فتنوّعت أغراضه، وقد تفنّن فيه هدبة فجاء عالي الطبقة رغم أنّ الرجز عادة ما كان يجيء به الشاعر عفو الخاطر، إلا أننا نعرف أنّ الشاعر إذا أخذ فنّه بجدِّية ودربة صارت الإجادة لازمة له وتساوت لديه البديهة والارتجال والتأنِّي، وقد أتينا في المقدمة على شيء من فنّ الشاعر في الرجز، ونذكر هنا هذه الأسطر التي جاءت في الفخر:

إنّي إذا استَخفى الجَبانُ بِالخَدَر[٥٩] وَكـانَ بِـالكَفِّ شِـهابٌ كالـشَرَرِ
صَدقُ القَناةِ غَيرُ شَعشاعِ العُذَر حَمَّالُ ما حُمِّلتُ مِن خَيرٍ وَشـرِّ

والصنعة لا تخفى على عين القارئ المتأمل، فالأشطر تصل إلى هدفها عن طريق التصوير الفني الإبداعي لا كما عهدنا عن الشعراء الذين تدفعهم مواقفهم لارتجال الرجز إذ تأتي بصورة مباشرة أحيانًا وتصل إلى المعنى من أقصر الطرق. أمّا شاعرنا فقد استخدم الاستعارة التصريحية في التعبير عن

الرمح (شهاب كالشرر)، واستخدم من المحسنات البديعية الطباق مثلاً بين (خير وشر) كما توسّل التوكيد بـ(إنَّ) والتخصيص بالتقديم والتأخير وغير هذه الأساليب البلاغية التي استدعتها موهبة الشاعر فجاءت طوعًا لتنسج هذه الأشطر البديعة الجمال.

وللشاعر مدح قليل لم نتطرّق له؛ لأننا لم نر له صلة بتجربة السجن التي عاشها الشاعر وأملت عليه معظم شِعره وكانت مدار دراستنا. أمّا ملاحظاتنا على شِعر هدبة بن الخشرم فقد عرضنا للكثير منها أثناء قراءة نماذج من شِعره، ونحب هنا أن نشير إلى استخدام الشاعر للإقواء وقد عرضنا لمثالين لها في تضاعيف الدراسة، وقد يكرر الشاعر بعض معانيه وربما كان شيئًا من هذا من عمل الرواة إذا اتفق البيتان في الوزن والرويّ، كما نجد أنّ الشاعر قد قام في قصيدته الحائية بالتصريع مرتين؛ فقد أتي بالمطلع مصرعًا وهو:

أَلا عَلِّلانــــي والمُعَلِّـــــلُ أَروَحُ   وَيَنطِقُ ما شاءَ اللِّسانُ المُسَرَّحُ(٦٠)

ثم قام بالتصريع مرة أخرى بعد عدة أبيات فقال:

أَغــادٍ غُــدوًّا أَنــتَ أَم مُتَــرَوِّحُ   لَعَـلَّ الأَنـى حَتّـى غَـدٍ هـوَ أَروَحُ

وقد نسب لشاعرنا بعض أبيات شاركه في نسبتها عدد من كبار الشعراء مثل أبي الأسود الدؤلي وابن هرمة وعمرو بن أحمر وهذا دليل على المكانة الكبيرة التي بلغها شِعر هدبة بحيث لا يتخلّف عن هؤلاء الفحول.

أمّا عن أثر الشاعر في الشعراء من بعده فقد سار هذا الشِّعر وأعجب به الكثيرون، وقد عرضنا لكلمة مروان بن أبي حفصة التي يعترف فيها لهدبة

بالإجادة بل بأنه أشعر الناس بينما نجد الإعجاب يأخذ شكلاً آخر عند أبي تمّام، ذلك الشاعر الرائد، بل أحد أركان الثالوث الشِّعري الأخلد في تراثنا الأدبي فنجده تأثّر بقول هدبة:

مَا النَّاسُ بِالنَّاسِ الَّذِينَ عَرَفتَهُم وَلا الدَّارُ بِالدَّارِ الَّتِي أَنتَ تَعرِفُ[61]

وافتتح رائيته العظيمة ببيت هو ابن شرعي لبيت شاعرنا هدبة، وأعني قصيدته التي مطلعها:

لا أنتِ أنتِ ولا الدِّيار دِيارُ خفَّ الهوَى وتولَّت الأوطارُ[62]

والإتيان بشاهد واحد لتأثّر واحد من أكبر شعراء العربية بهدبة بن الخشرم يغنينا عن كثرة إيراد الشواهد وهي متناثرة على صفحات الدواوين لمن يودّ الاطلاع والبحث.

أمّا دوران شِعر هدبة بن الخشرم في كتب الأدب ومصادر اللغة وكتب المختارات والتراجم فهو أمر أشهر من أن ينكر، ويكفي أن نذكر **الأغاني** و**الكامل** و**العقد الفريد** و**أمالي القالي** و**الشِّعر والشعراء** وكتب **الحماسة** على اختلافها و**منتهى الطلب** الذي احتفظ لنا بذخيرة كبيرة من شِعر هدبة و**كتاب** سيبويه و**الصحاح** و**لسان العرب** و**مقاييس اللغة** و**شواهد الكشاف** و**معجم ما استعجم** وكثير من كتب التاريخ والأنساب والتراجم مما يخرج بالأمر عن الحصر.

وفي ختام الدراسة نؤكد على إنسانية التجربة وثرائها عند هدبة بن الخشرم، وسنظل نؤكد على أنّ عمق التجربة الشعرية العربية وإنسانيتها وشمولها أكثر ما يميّز شِعرنا العربي القديم؛ لذا نفتح هذا الباب مرارًا

وتكرارًا لا نسأم ولا نملُّ؛ لأنّ في العودة إلى ينابيع الجمال في تراثنا العربي الخالد هو أمرٌ حتميٌّ ليس فقط لصقل أرواحنا وتربية الأذواق على تلمّس الإبداع والانفعال به والتواصل مع لغتنا العربية في أزهى عصورها بل أيضًا للحفاظ على هويتنا العربية، وإقامة تواصل بنَّاء بين حاضرنا وماضينا للعبور إلى مستقبل جديد بنا ونحن أيضًا جديرون به.

الهوامش:

❖ القاهرة.

(١) **الأغاني** ج٢١ تحقيق د. إحسان عباس ود. إبراهيم السعافين وأ. بكر عباس، ط٣، ١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م، دار صادر، بيروت، ص١٩١.

(٢) المصدر السابق.

(٣) **شِعر هدبة بن الخشرم العذري** ص٢٢ بعناية د. يحيى الجبوري، دار القلم، الكويت، ط٢، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م.

(٤) **الأغاني** مصدر سابق ص١٩٢. (٥) المصدر السابق ص١٧٩.

(٦) جاءت أخبار هدبة بن الخشرم في **الأغاني** ج٢١ ص١٧٩ وما بعدها وفي عدة مصادر أخر.

(٧) **ديوان علي بن الجهم** ص٤١، ديوان عني بتحقيقه خليل مردم بك، ط٢، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م، دار الآفاق العربية، بيروت.

(٨) **شِعر هدبة بن الخشرم العذري** ص٦٠. (٩) المصدر السابق ص٧٠.

(١٠) المصدر السابق ص٧٤. (١١) المصدر السابق ص١٤٦.

(١٢) المصدر السابق ص١١٩. (١٣) المصدر السابق ص٩٠.

(١٤) المصدر السابق ص١٠١. (١٥) المصدر السابق ص١٢١.

(١٦) المصدر السابق ص٩٣.

(١٧) **ديوان ذي الرمّة** شرح الباهلي برواية ثعلب ص١٠١٧، الجزء الثاني حقّقه وقدّم له وعلّق عليه د. عبد القدوس أبو صالح، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٣، ١٤١٤هـ/ /١٩٩٣م.

(١٨) **شِعر هدبة بن الخشرم العذري** ص١٢٦. (١٩) المصدر السابق ص١١١.
(٢٠) المصدر السابق ص١٢٠. (٢١) المصدر السابق ص١١٣.
(٢٢) المصدر السابق ص٦٠. (٢٣) المصدر السابق ص٨٤.
(٢٤) المصدر السابق ص٧٦. (٢٥) المصدر السابق ص٨٨.
(٢٦) المصدر السابق ص١٠٣. (٢٧) المصدر السابق ص١٣٩.
(٢٨) المصدر السابق ص١٢٣. (٢٩) المصدر السابق ص١٣١.
(٣٠) المصدر السابق ص١٢٣. (٣١) المصدر السابق ص٨٥.
(٣٢) المصدر السابق ص١٣٢. (٣٣) المصدر السابق ص٨٥.
(٣٤) المصدر السابق ص١٣١. (٣٥) المصدر السابق ص٨٥.
(٣٦) المصدر السابق ص٨٦. (٣٧) المصدر السابق ص١٣٧.
(٣٨) المصدر السابق ص١٢٢. (٣٩) المصدر السابق ص١٠٤.
(٤٠) المصدر السابق ص١٠٤. (٤١) المصدر السابق ص٧٦.
(٤٢) المصدر السابق ص١٠٦. (٤٣) المصدر السابق ص١٢٣.
(٤٤) المصدر السابق ص١٢٩. (٤٥) المصدر السابق ص٩١.
(٤٦) المصدر السابق ص٥٩. (٤٧) المصدر السابق ص١٣٠.
(٤٨) المصدر السابق ص٩٧. (٤٩) المصدر السابق ص١٤٨.
(٥٠) المصدر السابق ص٩٤. (٥١) المصدر السابق ص٩٤.
(٥٢) المصدر السابق ص٦١. (٥٣) المصدر السابق ص١٠٧.
(٥٤) المصدر السابق ص٩٣. (٥٥) المصدر السابق ص١٣٨.
(٥٦) المصدر السابق ص٩٧. (٥٧) المصدر السابق ص١١٣.
(٥٨) المصدر السابق ص٨٩. (٥٩) المصدر السابق ص١٠٩.
(٦٠) المصدر السابق ص٨٣. (٦١) المصدر السابق ص١٣٥.
(٦٢) **ديوان أبي تمّام بشرح الخطيب التبريزي**، المجلد الثاني، تحقيق محمد عبده عزام، دار المعارف، القاهرة، ط٤، ص١٦٦.

موقف الباحثين

من

استشهاد عبد القاهر الجرجاني بالقرآن الكريم

في كتاب "دلائل الإعجاز"

دراسة وتحليل

(٣)

بقلم: د. هارون المهدي ميقا*

وصف نظريّة النظم ببلاغة غير شِعريّة أو معادية للنصّ الشِّعريّ

مُقابِلُ اتهام عبد القاهر بقلّة الشواهد القرآنية -وقد حصحص الحق في أمرها- تَجدُ مَن يَتَّهِمُه بأنّ جهده كلَّه، وما قدّمه في نظريّة النظم كان لتأسيس بلاغة غير شِعريّة، تعادي النص الشِّعري؛ فهو ينقض الموقف السابق وزيادة؛ حيث يتّهم الجرجاني ببلاغة معادية للشِّعر في حين اعتمد الجرجاني على حسن تذوُّق الشِّعر وفهمه كدليل خارجي لإدراك الإعجاز. يقول د. محمد العمري: «من المعلوم أنّ الجرجاني صاحب الكتابين المذكورين [كتاب **دلائل الإعجاز** وكتاب **أسرار البلاغة**] إنّما كان يبحث عمّا يتميَّز به النصّ القرآني ويتفوَّق به، وما دام النصُّ القرآني ليس

شعرًا، ولا ينبغي له أن يكون، فمِن المحتمل أن تُبنى له بلاغةٌ غيرُ شعريّة، إنّـه بلاغـةُ مُلاءَمَـةِ المعنـى لمقتـضى الحـال والمقـام، بلاغـةٌ تُرضـي الـنصّ الخطابيّ النثريّ أكثر ممّا تُنصف النصّ الشِّعريّ. بل سنقدِّم في الحديث عنها الحُججَ القاطعةَ على مُعاداةِ هذه النظريّة للنصّ الشِّعريّ، برغم قدرة أصحابها على إلباسها لباس البحث البلاغيّ، وتعميق جانب من جوانب هذا البحث وهو جانب المعنى، والوصول فيه إلى نتائج باهرة ما زالتْ تُشهد بجدّتها وحداثتها، ونقصدُ بقولنا هذا التفريق بين الخُطَّة العامّة والإستراتيجية الشاملة التي تُلغي جانبًا مهمًّا من البلاغة، وبين تعميق البحث في جانب من جوانب هذه البلاغة ولو في إطار مناهض للشِّعر»[1].

ويقول: «نلاحظ أنّ المصدرين الأساسين لمفهومنا للبلاغة هما مصدران يهتمّان إمّا بالنصّ القرآني –وليس شعرًا في كلّ حال– أو بالنصّ النثري الشفوي وشروط تحقُّقه شفويًّا......فالتياران معًا يُغَيِّبان الشِّعر في إستراتيجيتهما العامّة، ويُغيِّبان مكوِّنًا من مكوِّناته الأساسية المميزة له في ممارستهما»[2].

ويرى أنّه ليس خافيًا ارتباطُ هذين التيارين باتجاهين فكريين دينيين؛ فنظريّة المعنى هي نتاجُ جهد الأشاعرة في بناء نظريّة الإعجاز، ونظريّة الفصاحة هي نتاجُ اهتمام المعتزلة، لكنّهما «يلتقيان معًا في الاهتمام بالمقام ومراعاة الأحوال، أي بالخطاب الإقناعي الذي لا تلعب فيه الموازنات إلا دورًا مساعدًا بل ثانويًّا»[3].

من المسلَّم به أنّ عبد القاهر في كتاب "**دلائل الإعجاز**" انطلق من خلفية دينية تدور حول الكلام الإلهي في أعلى مرتبة من درجات الكلام البليغ موازنا بالكلام الإنساني في الدرجات العليا من البلاغة لكنّه تحرَّك حركة واسعة وطليقة استوعب فيها جهود مَن سبقه، وشواهد من الكلام البشري البليغ شِعره ونثره، في قالب نظري قدَّم تحليلات كشفتْ عن العلاقات الداخلية (النفسية) والخارجية (الصياغة والنظم) في الخطاب الأدبي، دون أن تنفصل عن النصّ؛ وبذلك تجاوز الخلفية الدينية التي منها انطلق(٤).

إنّ مَن يقول بأنّ هذه النظريّة "بلاغة غير شعريّة"، و"بلاغة ترضي النصّ الخطابي النثري أكثر ممَّا تنصف النصّ الشِّعريّ"، و"بلاغة معادية للنصّ الشِّعريّ"، وبأنّه بلاغة جاءت في إطار مناهض للشِّعر"!!! يحتاج مَن يقول ما سبق إلى:

١) الوقوف بجديّة على الآراء التي تذهب إلى قلّة الشواهد القرآنية عند الجرجاني؛ لأنّها آراء مناقضة لما يذهب هو إليه.

٢) قراءة متأنِّية وفاحصة للمدخل المهمّ في كتاب "**دلائل الإعجاز**"؛ لأنّ عبد القاهر بَيَّن فيه أهميّة الشِّعر، وعنَّف القول لمن يدعون إلى الزهد فيه أو عَدم روايته، أو يقلِّلون من قيمتها. وحذَّرهم من الآثار السيّئة العلميّة والدينيّة التي تنتج من مثل هذا الموقف(٥). كما بيَّن ما لحسن تذوُّق جمال الشِّعر من أثرٍ حَسنٍ في إدراك إعجاز القرآن، بل جعله دليلاً ووسيلة على حسن فهمه.

٣) إنعَام النظر في الأبيات التي ذكرها -استشهادًا أو نقدًا- حيث يَجدها: **أ-** لأبرز فحول الشعراء في التراث الشِّعريّ العربيّ القديم إلى القرن الخامس الهجريّ. **ب-** ومن الشِّعر الذي يكاد يُجمَع -قديمًا وحديثًا- على شعريَّته وأدبيَّته ولغويَّته؛ فعبد القاهر كثير الاستشهاد بأبيات **الحماسة** لأبي تمّام، كما كان كثير الاستشهاد بأبيات "**الكتاب**" [السيبويه]. ثمَّ إنّ كثيرًا من الشواهد في "**الكتاب**" مذكورة في "**الحماسة**".

ج- وأنَّ عبد القاهر إنَّما كان يختار شواهده بعد مراجعة، وكأنّه كان يقصد إلى ما فيها من فضائل النفوس حتى ينتفع القارىء بها؛ لأنّ الأهمّ هو بناء النفس على مكارم الأخلاق(٦).

وقد استشهد بـ(٥٧) شاهدًا للمتنبِّي، و(٤٨) شاهدًا للبحتريّ، و(٤٥) شاهدًا لأبي تمّام(٧).

٤) ويحتاج إلى إدراك أنَّ أهمَّ النتائج لاستشهاد عبد القاهر بالشِّعر الجاهلي على الإعجاز القرآني «هو إظهار هذا التفاوت الهائل بين أودية معاني الشِّعر ومعاني القرآن الكريم. وأنّه لو كان من كلامه عليه الصلاة والسلام لكان أشبه بكلام قومه؛ لأنّنا لم نعرف إنسانًا ظهر في الناس يتكلَّم بغير كلام قومه على هذا الوجه الذي نراه في القرآن مقارنة بالشِّعر. ثمّ إنّ رسول الله ﷺ كان -أحيانًا- يخاطب بعض مَن يلقاه ممن يدعوه للإسلام بمعانٍ من القرآن، ولم يقرأ عليه القرآن، كان يستفتح كلامه بالحمد والثناء، وشهادة الحق، ومن العرب مَن آمن على ذلك»، كما في قصة ضِماد من أزد شنوءة(٨).

٥) وإلى معرفة أنَّ وصف البلاغة عند الجرجاني بـ"بلاغة ملاءمة المعنى لمقتضى الحال والمقام" دليل قاطع على أنّ القائل بهذا الوصف لم يُنعِم النظر، ولم يدقق البحث، في نظريّة النظم عند الجرجاني؛ لأنّها -في حقيقتها- قائمة على الدمج بين اللفظ (بمعنى الصورة) والمعنى معًا، سواء في الدراسة البلاغية أم في دراسة النصّ الأدبي شِعره ونثره. وما فائدة اختيار كلمة من أصوات مُعيَّنة إذا كانت لا تناسب المعنى والمقام والحال، مع تسليم الجميع بتأثُّر المعنى بأصوات الحروف وعلاقتها بالحال والمقام؟

«فهناك مُنزَلق يقع فيه الدارسون لآثار عبد القاهر فلا يُعطَى المكانة التي هو أهل لها، ولا تُرى أعمالُه من زوايا تُبصِر النقاد والباحثين على نحو أفضل بكيفية التناول النقدي والتحليل الأدبي من داخل النصوص وبرؤية لتفاعلات مكوِّناتها وروابط أبنيتها، ذلك المُنزَلق هو اتباع تقسيم شكلي للبلاغة والنقد والدوران في حلقة مفرغة»(٩).

٦) الالتفات إلى أنّ هذا الموقف تضييق لواسع؛ ذلك أنّه يكاد يحصر البلاغة ودراسة الخصوصيّة الشِّعريّة في كتب البديع ونقد الشِّعر التطبيقيّ، وبخاصّة التي اهتمّت بالموازنات الصوتيّة، يقول بعض أصحابه: «أمّا المجال الذي عولجتْ فيه القضايا الشِّعريّة، وأُنتجتْ فيه المصطلحات التوازنيّة فهو مجال النقد التطبيقي المتذوِّق للنصوص الذي مارسه القرّاء العاديّون والشعراء أنفسهم وأصحاب الاختيار، ووضع له البديعيون الأسماء وجمعوه في كتب، ابتداء مِن كتاب البديع لعبد الله بن المعتزّ»(١٠).

ثُـمّ يـضيف «إنّ كتـب البـديع ونقـد الـشِّعر التطبيقـي هـي المصدر الـرئيس لدراسة الخصوصيّة الشعريّة وعلى رأسها الموازنات الصوتيّة»(١١).

لم أقف على جهد ناقد قديم يستحق أن يوصف بـ"النقد التطبيقي" أكثر من عبد القاهر. وليت الباحث يطلع على كتاب "**النقد التحليلي عند عبد القاهر الجرجاني**" أحمد عبد السيد الصاوي(١٢). يقـول محمـد خلـف الله: «لعلّنا لا نعدو الإنصاف إذا قلنا إنّ عبد القاهر يستحق مكانًا بين الخالـدين من علمـاء الدراسـات النقدية، لا لِسعة أفقه ووفـرة معارفه ودقّة تحليله -فحسب- ولكـن لِنجاحـه في التوفيـق بـين مـا يتطلبـه الـذوق الأدبـي، ومناهج التفكير الموضوعي المنظَّم»(١٣).

إذا كان هذا الموقف قد تغافل عن الموازنات النقدية التحليليّة المنتشرة في كتـاب "**دلائـل الإعجـاز**" بـين الأسـاليب والتراكيـب تـارة، وبـين الأبيـات تـارة، وبـين صَـنعة الـشعراء تـارة أخـرى، وتغافـل عـن حديثـه في كتـاب "**أسرار البلاغة**" عن التجنيس والسجع ونحوهما ومـا لهـا مـن أثـر فعَّـال في الكلام شِعـره ونثره(١٤)، إذا كـان قـد تغافـل عـن ذلـك كلِّـه فإنّـه يتنـاقض مرّتين:

الأولى حـين يتغافـل عــن الفـصل الـذي عقـده الجرجـاني للموازنـة الشعريّة، وافتتحه بقولـه: «وقـد أردتُ أن أكتـب جُملـة مـن الـشِّعر الـذي أنت ترى الشاعرين فيه قد قالا في معنى واحد، وهـو ينقـسم إلى قـسمين: قسم أنت ترى أحـد الـشاعرين فيـه قـد أتـى بـالمعنى غُفـلاً سـاذجًا، وتـرى الآخَر قد أخرجه في صورة تروق وتُعجب. وقسم أنت ترى كلّ واحـد قـد

صنع في المعنى وصوَّر»، ثمّ أخذ في موازنة شعريّة استغرقت (٢٩ صفحة) من كتابه[١٥]. وَرَدَ فيها حوالي مئتين وتسعة عشر بيتًا (٢١٩) لا حديث فيها عن الإعجاز وإدراكه، وإنّما عن موازنة بين الأبيات من حيثُ الصنعةُ والأستاذية، واختلافُ جوانب الإجادة حتى لو اتحدّ المعنى وتعدَّد اللفظ والصورة، وعن شِعر الشعراء في وصف الشِّعر الجيّد والإدلال به. وقد خرج من الموازنة ببيان غرضه من كتابة هذه الأشعار وهو الاستظهار والاستدلال على أنّ الإعجاز ليس في مذاقة الحروف وسلامتها -حسب- وتأكيد غَلَط مَنْ زعمه؛ لأنّ صنعة الشعراء المفلقين ومعاناتهم في تجويد أشعارهم لم تكن -في كلّ زمان ومكان- من أجل أن تسلم ألفاظُها من حروف ثقيلة على اللسان؛ لأنّ طريق ذلك الحسّ، لا الفكر والعقل[١٦].

من الجدير بالذكر أنّ الموازنة قد تكون بين بليغ القول ورديئه، وقد تكون بين درجات البليغ، وكلاهما مبنى دراسته لدلائل الإعجاز. والمهم أنّ هذه طريقة رائعة في إظهار وجه الجمال، وتنشيط الذهن، وشحذ الهمّة على البحث والدراسة وحسن التذوُّق، والإقناع[١٧].

أليس كلّ هذا تأكيدًا لجانب تنمية الذوق وتعيين الوسائل والدلائل لمن أراد إدراك إعجاز القرآن؟

والمرّة الثانية التي تناقض فيها الموقف السابق هي حين يُسلّم بأنّ من البلاغيين مَن سعى إلى بناء بلاغة عامّة جامعين بين جهود مختلفة، تتمثَّل هذه البلاغة العامّة في محاولة الجمع بين قضايا بلاغة الخطاب الشفوي المستخلَصة من نظريّة البيان عند الجاحظ وبلاغة الخطاب الشِّعريّ

(البـديع)؛ فـنجح هـذا الاتجـاه في الجمـع بـين: أ- الحـديث عـن المقـام الخطـابي. ب- والـصور البديعيّـة المختلفـة. ج- وقـضايا نقديّـة أخـرى مثـل قـضيّة الـسرقات. ومـن كتبـه: "**الـصناعتين**" للعـسكري، و"**سرّ الفـصاحة**" للخفاجي، مع فارق بينهما في الخطّة والمنطلق[١٨].

إنّنا نلحظ على هذا الموقف أنّ الأمور الثلاثة (بلاغـة الـنصّ الـتي تقـوم على المقام الخطابي ومراعاة الأحوال، والصور البديعيّة المختلفة، وقضايا السرقات) التي ذكرها لبعض البلاغيين هـي أمـور أسـاس في نظريـة الـنظم التي رماها هي وصـاحبَها بالقـصور البلاغـي، وبـذلك أقـرّ بنظريـة الـنظم وبلاغة عبد القاهر وبأهميّتهما من حيث يدري أو لا يدري!! فهل بقي له مأخذ عليهما؟!!!

تحدَّث أبو الفتح ابن جِنِّي عـن قـوَّة الـصلة بـين الأصـوات والأحـداث، ورَجَعَ عَدمَ إدراكها إلى ثلاثة أسباب لا أجد واحدًا منها عند عبد القاهر، وأجدها كلَّها في أصحاب الموقف السابق، وهـي: قـصور فينـا نحـن نتيجـة عدم إنعام النظر، أو أصول من أصول اللغة تاهت عنَّا وخفيـت أسـبابها، أو لأنّ للأوّل علمًا لم نقع عليه[١٩].

ذكر عبد القاهر بعض الشروط للمفاضلة بين اللفظين المفـردين ومنهـا: أن تكون هذه مألوفة مستعملة وتلك غريبة وحشية، أو أن تكـون حـروف هذه أخفَّ وامتزاجها أحسن وممَّا يكدُّ اللسان أبعـد، ومـن شـروط جمـال اللفظ ألاَّ يكون عاميًّا، سخيفًا[٢٠].

ويُكثِر عبد القاهر من استعمال اللفظ بمعنى الصورة المفردة المتكوِّنة من دلالة اللفظ مقابل النظم للصورة المركَّبة من تركيب الألفاظ[٢١]، وتوفُّر الشروط التي ذكرها لتكون للكلمة مزيّة، ومنها: مجيء المزيّة بسبب المعاني والأغراض التي يوضع لكلام، وحسن علاقتها مع ما يجاورها من ألفاظ واستعمال بعضها مع بعض[٢٢]. والفرق عنده بين أن تكون المزية في اللفظ وأن تكون في النظم، باب يكثر فيه الغلط، ويؤتى اللفظ ما ليس له من الحسن والمزيّة[٢٣]. يقول: «وجُملةُ الأمر أنّ ههنا كلامًا حُسنُه للفظ دون النظم، وآخَر حُسنُه للنظم دون اللفظ، **وثالثًا** قد أتاها الحسن من الجهتين، ووجبتْ له المزيّة بكلا الأمرين. والإشكال في هذا الثالث، وهو الذي لا تزال ترى الغلط قد عارضك فيه، وتراك قد حِفْتَ فيه على النظم فتركتَه وطمحتَ ببصرك إلى اللفظ، وقدَّرتَ في حُسنٍ كان به وباللفظ، أنّه للفظ خاصّة. وهذا هو الذي أردتُ حين قلتُ لك: إنّ في الاستعارة ما لا يمكن بيانه إلاّ من بعد العلم بالنظم، والوقوف على حقيقته»[٢٤].

فهناك صورة مفردة حسنة تكوَّنتْ باللفظ المفرد من خلال دلالته الحقيقية أو المجازية أو صيغته ومادّته. وصورة مركَّبة حسنة تركَّب حُسنُها من الحسن السابق ثم من حسن النظم بالموقع، والمقدار المناسب، وكيفية ترتيبها في الكلام سواء استعملتْ كلّ كلمة في دلالاتها الحقيقية أم المجازيّة أم في دلالات الإيحاء والظلال. وعندئذ يتمثَّل التأثير الحقيقي والفعَّال للفظ في الجمع بين الحسنين، الذاتي والتركيبي، وفي توفية المقدار المحتاج إليه وفي الترتيب المناسب.

تجد أدلَّة على ذلك كلّه فيما اشترطه لحسن الأصباغ والنقوش في ثوب منسوج وأنّه لا بدّ منها كذلك في الكلام الحسن النظم، وهي أربعة شروط، يقول: «إنّما سبيل هذه المعاني سبيل الأصباغ التي تُعمَل منها الصور والنقوش، فكما أنّك ترى الرجل قد تهدَّى في الأصباغ التي عمل منها الصورة والنقش في ثوبه الذي نسج، إلى ضرب من التخيُّر والتدبُّر في: أنفُس الأصباغ، وفي مواقعها، ومقاديرها، وكيفية مزجه لها وترتيبه إيّاها، إلى ما لم يتهدَّ إليه صاحبه؛ فجاء نقشه -من أجل ذلك- أعجبَ، وصورتُه أغربَ، كذلك حال الشاعر والشاعر في توفِّيهما معاني النحو ووجوهه التي علمت أنّها محصول النظم»[٢٥].

الشروط الأربعة للأصباغ وللألوان في الثوب الجميل المنسوج بدقة هي نفسها في الألفاظ مفردة، ومركَّبة لتكوين صورة معبِّرة عن المعاني من خلال نظم دقيق، وهي: الحسن الذاتي للفظ والصبغ "في أنفس الأصباغ". والحسن التركيبي "وفي مواقعها". وتوفية المقدار المحتاج إليه لتحقيق الحسنين كليهما "ومقاديرها". ثم حسن دمجها وترتيبها "كيفية مزجه لها وترتيبه إيّاها".

والنتيجة في العمل الذي توفَّرتْ فيه هذه الشروط -ثوبًا كان أم كلاما أم نحوهما- أن يأتي نقشُه أعجب، وصورتُه أغرب، وتأثيره في النفوس أقوى، وجذبه للعقول أشدّ.

وما أكّد الجرجاني علميّ ودقيق؛ لأنّنا لو سلّمنا بالحسن أو القبح المطلق للفظ المفرد في كل حال لَوَجب أن يكون ذلك ملازمًا له في كلّ موضع وفي كلّ عبارة وحال ومقام، وليس الأمر كذلك؛ لأنّ هناك فرقًا

كبيرًا بين الحسن أو القبح الذاتي الذي لا يتعدّد، والحسن أو القبح التركيبي الذي يتعدَّد بالسياقات والنظم والأحوال. وقد صرَّح بذلك «فإنّك ترى الكلمة تروقك وتؤنسك في موضع ثم تراها بعينها تثقل عليك، وتوحشك في موضع آخر كلفظ الأخدع»[٢٦].

فموقفه هذا وما ذكره عن الجناس والسجع ونحوهما تُحقِّق له ما يهمه أو يحتاج إليه في قضيّة نظرية النظم؛ فلا مَعاب عليه؛ لأنّ لكل باحث أن ينظر ويأخذ من المسألة الجانبَ الذي يناسب موضوعه الذي يناقشه. ألا يكفيه أنّه أوجب في حسنه بعض الشروط، وأثبت تأثيره في المعنى وفي إدراك إعجاز القرآن؟ لكنّه إنّما رفض أن يكون معجزًا وحده، أو الأصل والعمدةَ في الإعجاز، كما رفض ربط البلاغة والبيان والمزيّة بالقدرة على الأداء الصوتي؛ فكيف إذا استحضرت ثلاثة أمور:

الأوَّل: أنّه يقصد باللفظ في أكثر المواقع الصورة. فرّق د.عبد القادر المهيري بين استعمال عبد القاهر للكلم أو الكلمات واللفظ والألفاظ تفريقًا استند فيه على بعض ما جاء في الدلائل «فالكلم أو الكلمات مصطلح يستعمل -دائمًا- لمفهوم له جانبان: جانب صوتي، وجانب معنوي. أمّا اللفظ أو الألفاظ فلا يُطلق إلاّ على الجانب الصوتي. هذه المقابلة نستنتجها -مثلاً- من حديثه عن حقيقة النظم عند ما يقول: والنظم والترتيب في الكلام -كما بيّنّا- عمل يعمله مؤلِّف الكلام في معاني الكلم لا في ألفاظها[٢٧]. كما نستنتجها من حديثه عن التحام أجزاء الكلام وسببه وهو قوله: فانظر -الآن- في اتحاد هذه الكلم التي هي أجزاء البيت»[٢٨].

«إنّ عبد القاهر في موقفه من اللفظ المفرد كان صادقًا مع نظريّته في النظم، فإذ قد رفض أن يكون اللفظ أو المعنى [المفردين] مرجع الجمال والحسن، وأبى إلا أن يكون النظم كذلك، فمن الطبيعي -بعد ما اشترطه في اللفظ من الخلوّ من الغرابة والتنافر والعامّية- ألاَّ ينظر لقيمته بعد ذلك إلا من خلال موقعه في النظم»[٢٩].

الأمر الثاني الذي يجب استحضاره عند الحديث عن موقف عبد القاهر من الكلمة أنّه لا يفرِّق بين الفصاحة والبلاغة كما ورد عند المتأخرين وإن كان لا يمنع التفريق بينهما ما لم يُقَصَّر الفضيلة عليه في تفضيل كلام على آخر ولا في جعل الإعجاز لا يكون إلا به وفيه؛ لما في هذين كليهما من خطورة بالغة تتمثَّل في تعطيل دلالات أوصاف للبلاغة وأبواب وفنون يذكر فيها. والفصاحة إمّا أن تكون نظيرة ومرادفة للبلاغة وغيرها من المصطلحات المماثلة أو تكون اسمًا مشتركا تدلّ -تارة- على ما تدلّ عليه البلاغة، وأخرى تكون خاصة بسلامة اللفظ[٣٠].

الأمر الآخِر الذي يجب استحضاره عند الحديث عن موقف عبد القاهر من الكلمة أنّنا إذا جعلنا تلاؤم الحروف وسلامتها وغيرها من الشروط السابقة وجهًا من وجوه المفاضلة وداخلاً في عِداد ما يُفاضَل به فإنّ عبد القاهر لا يمنع وصف الكلمة المفردة بالفصاحة والبلاغة، ولا ينفي أن يكون لها أثر في الكلام البليغ وفي إعجاز القرآن أو في تأكيد الإعجاز. أمَّا الذي يرفضه وينكره فهو جعلُ ذلك الوجه الوحيد للمزيَّة في الكلام البليغ وللإعجاز أو الأصل والعمدة فيهما، أو ينسب إليه كلَّ الفضيلة يقول: «اعلم أنَّا لا نأبى

أن تكون مَذاقةُ الحروف وسلامتُها ممَّا يَثْقُل على اللسان داخلاً فيما يوجب الفضيلة، **وأن تكون ممَّا يؤكِّد الإعجاز، وإنَّما الذي ننكره ونُفَيِّل**[٣١] رأيَ من يذهبُ إليه أن يجعله معجزًا **به وحده**، ويجعلَه الأصلَ والعُمدةَ؛ فيخرج إلى ما ذكرنا من الشناعات». بل يتعجَّب كلَّ العجب ممَّن يجعل كلَّ الفضيلة لذلك[٣٢].

«إنّ كتاب "**دلائل الإعجاز**" يدور كلُّه حول شرح مزايا النظم، وخصائص سياق اللفظ، وكأنّ الكتاب ثمرة لقراءة كلام العرب، وتتبُّعه، وتفقُّده، واستقصائه، وهذا هو الذي جعل لهذه البلاغة قيمة؛ لأنّها أصول مستخرجة من الكلام العالي، وهذا الكلام العالي هو أصلها ومعدنها، ومنبعها، وهي ثمرته»[٣٣].

أفَلَيْس عجز أصحاب هذا الكلام العالي وغيرهم عن تحدّي القرآن دليلاً قاطعًا من أدلّة إعجازه التي هدف عبد القاهر في كتابه إلى إبراز بعضها والوسائل المعينة على إدراكه؟

أَوَلَيْس أهمّ هذه الوسائل هي إدراك مزايا نظم الكلام الحسن وخصائص سياق ألفاظه، ثم التعليل لها، ثم الإبانة عنهما (الحسن والتعليل)، وأخيرًا توثيق المعلومات والاستدلال والبرهنة لها، وذلك كلُّه جوهر وصلب نقد الشِّعر والأدب[٣٤]؟!!

ثمَّ أَلَيْس من الغرابة الشديدة -إذن-:

- رفض نظريّة النظم؛ بأحكامٍ مبناها فهم متعجِّل، والحديثُ عن دلائل الإعجاز ووسائل فهمه إنَّما هو حديثٌ يضع أسسًا وأصولاً نقديّة للأدب؟

- أو رفض بلاغة عبد القاهر بحجّة أنها غير شِعريّة وما في كتاب "**أسرار البلاغة**" نقد أدبي خالص لا مدخل فيه لحديث عن الإعجاز؟!!

الخاتمة:

تَبيَّن من الدراسة والتحليل أَنَّ الاستعجالَ في الحكم -من غير تمحيص وتدقيق- قد سَيْطَر على موقفِ كثيرٍ من الباحثين المعاصرين حين آخَذُوا عبدَ القاهر الجرجاني بقلّة الاستشهاد بالقرآن الكريم في كتاب "**دلائل الإعجاز**"؛ حيث انتظروا منه أن يُتحِفَهم بدلائل أغلبُها من القرآن نفسه. وكان من أهمِّ حُجَجِهم العنوان "**دلائل الإعجاز**" الذي حصروه في الدلائل الداخليّة وعبد القاهر -بالتنظير والتطبيق- إنَّما قصد الدلائل الداخليّة والخارجيَّة، مع تركيز أكثر على النوع الثاني؛ انطلاقًا من الكلام البليغ شِعره ونثره؛ إذ بمعرفة بلاغتهما، وبحسن تذوّقهما، وبإدراك الفروق الدقيقة بين أساليبهما وتراكيبهما البليغة، بذلك كلِّه يُمكِن إدراكُ إعجاز القرآن ويبرز الإبلاس في العجز عن التحدِّي.

وقُلِ الأمرَ نفسَه في وصف بعض هؤلاء المعاصرين لنظريّة النظم عند الجرجاني ببلاغة غير شِعريّة أو ببلاغة معادية للنص الشِّعري؛ لانطلاقه من دلائل الإعجاز.

كلُّ ذلك -إذن- لم يكن صائبًا، وانطلق من منطلقات خاطئة، وأقيم على أسس غير متينة. وقد سبقت التفاصيل والبراهين؛ فالحمد لله وليّ التوفيق، الهادي إلى سواء السبيل، الذي بفضله ونعمته تتمُّ الصالحات.

الهوامش:

* جامعة باماكو، مالي.

(١) **الموازنات الصوتية في الرؤية البلاغية**، د. محمد العمري، ٣٥-٣٦، منشورات دراسات سال، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ط١، عام ١٩٩١م.

(٢) المرجع السابق، ٣٦. (٣) المرجع السابق والصفحة نفسها.

(٤) انظر: **البلاغة العربية قراءة أخرى**، د. محمد عبد المطلب، ٢٨.

(٥) انظر: كتاب **دلائل الإعجاز**، ١١-٢٨.

(٦) **خصائص التراكيب، دراسة تحليلية لمسائل علم المعاني**، د. محمد أبو موسى، ٦٩.

(٧) **الشواهد الشعرية**، ١٣٢٧/٣.

(٨) **مراجعات في أصول الدرس البلاغي**، ١٩٤، رواها مسلم وأحمد عن ابن عباس، وخلاصتها أنّ ضِمادًا كان صديقًا للرسول ﷺ قبل بعثته يعرفه صحيحًا معافى، فلمّا بُعِث سمع من سفهاء أهل مكّة رميَه بالجنون؛ فأتاه وعرض عليه أن يرقيه لعلّه يُشفى، فقال له الرسول ﷺ: «إنّ الحمد لله نحمده، ونستعينه، من يهد الله فلا مضلَّ له، ومن يُضلل فلا هادي له...»، فطلب منه ضماد إعادة ما قال، ولمَّا أعاده عليه ثلاثًا قال ضماد: «لقد سمعت قول الكهنة، وقول السحرة، وقول الشعراء، فما سمعت مثل كلماتك هؤلاء، ولقد بلغن ناعوس البحر، فقال: هات يدك أبايعك على الإسلام فبايعه» **قضية الشعر الجاهلي في كتاب ابن سلام**، محمود شاكر/٦١، وانظر: **مراجعات في أصول الدرس البلاغي**، ١٩٤-١٩٥.

(٩) **الأصول دراسة إبيستمولوجية للفكر اللغوي عند العرب نحو فقه لغة بلاغة**، د.تمّام حسّان/٢٠٦-٢٠٧، الهيئة المصرية العامّة للكتاب، عام ١٩٨٢م.

(١٠) **الموازنات الصوتية في الرؤية البلاغية**، ٣٦. (١١) المرجع السابق نفسه، ٣٦.

(١٢) ط٢، عام ١٤٠٢هـ، دار بور سعيد للطباعة، الإسكندرية، مصر.

(١٣) **نظرية عبد القاهر الجرجاني**، ٤٢، وانظر: ٤٧.

(١٤) انظر: كتاب **أسرار البلاغة**، ٥-١٨.

(١٥) انظر: كتاب **دلائل الإعجاز**، ٤٨٩-٥١٨.

(١٦) المصدر نفسه، ٤٨٤-٥١٨، ٥١٩.

(١٧) انظر: **منهج التعامل مع الشاهد البلاغي**، ٥١٣، ٥١٥.

(١٨) انظر: **الموازنات الصوتية،** ٣٦-٣٧.

(١٩) انظر: **الخصائص**، ابن جنّي، تحقيق: محمد النجار، ٢٦٤/٢، دار الكتب المصرية، بيروت، ط٢، بدون. و**مراجعات في أصول الدرس البلاغي،** ١١٩، ١٢٤.

(٢٠) انظر: كتاب **دلائل الإعجاز،** ٣٦، وانظر: ٤٧، ٤٠١ ، وكتاب **أسرار البلاغة،** ٩.

(٢١) انظر: كتاب **دلائل الإعجاز،** ٥١-٥٣، ٨٧-٨٨، ٩٨.

(٢٢) انظر: المصدر السابق، ٨٧-٨٨.

(٢٣) انظر: المصدر السابق، ٩٨-٩٩.

(٢٤) المصدر السابق، ٩٩-١٠٠، وانظر تحليله لبعض الشواهد في ص١٠٠-١٠٥.

(٢٥) كتاب **دلائل الإعجاز**، ٧٨-٨٨.

(٢٦) المصدر السابق، ٣٨-٣٩، وانظر تحليل الآية ﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ﴾ المصدر السابق، ٣٦-٣٧، وانظر: مناقشة تفصيلية للقضية في: **نظرية النظم عند عبد القاهر الجرجاني وصلتها بقضية اللفظ والمعنى**، د.سيد عبد الفتاح حجاب، ص٣٣٢-٣٣٧، ٣٣٨-٣٤٠، **مجلة كلية اللغة العربية**، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض، عدد٩، عام ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م.

(٢٧) كتاب **دلائل الإعجاز**، ٣٣٧.

(٢٨) المصدر السابق، ٣٧٧، وانظر: **مساهمات في التعريف بآراء عبد القاهر الجرجاني في اللغة والبلاغة**، ٩٦-٩٧، **حوليات الجامعة التونسية**، عدد ١١، عام ١٩٧٤م، والأنسب أن يقول: فيطلق -أحيانًا- على الجانب الصوتي؛ لأنّ عبد القاهر يطلقه -أحيانًا أخرى- على الصورة.

(٢٩) **نظرية النظم عند عبد القاهر**، ٣٣٩.

(٣٠) انظر: كتاب **دلائل الإعجاز**، ٥٧-٦٣.

(٣١) تفييل الرأي أو القول تقبيحه وتخطئته لفساده.

(٣٢) المصدر نفسه، ٥٢٢.

(٣٣) **مدخل إلى كتابي عبد القاهر**، ١٩٩.

(٣٤) انظر: المرجع السابق، ٢٠٠.

مكتبة العرب

الدعوة الوهابية والمملكة العربية السعودية، تأليف ديفيد كمنز، ترجمة عبد الله بن إبراهيم العسكر، ط٢، الكويت: جداول للنشر والترجمة والتوزيع، ٢٠١٣م، ٣٤٢ص.

هو كتاب جديد عن دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب وارتباطها بالمملكة العربية السعودية منذ نشأتها حتى العصر الحاضر، وهو من كتب المستشرقين الذين يدرسون منطقتنا العربية وفقًا لخلفياتهم العلمية، وتوجهاتهم السياسية ورؤاهم الفكرية، ولذلك فإننا قد نتّفق أو نختلف مع بعض ما يقولون. لكن المترجم الدكتور عبد الله العسكر يجد في الكتاب ميزة قد لا توجد في غيره من كتب الغربيين عن المملكة، وهي أنّ مؤلفه مؤرّخ وأنه اعتمد على مصادر تاريخية أولية عن نجد وسائر مناطق الجزيرة العربية.

يضمّ الكتاب ستة فصول:

الأول: بعنوان "بدأ الإسلام غريبًا وسيعود غريبًا"، تناول فيه المؤلف الحقبة السابقة لظهور الشيخ محمد بن عبد الوهاب مع ترجمة للشيخ وإشارة إلى أهم مبادئ دعوته.

والثاني: بعنوان "التمسك بثبات ضد عبادة الأوثان"، ويغرض لتحالف الدولة مع الشيخ في تطبيق الدعوة.

والثالث: بعنوان "عبد العزيز بن عبدالرحمن آل سعود وترويض الحماس الوهابي"، وهو يتناول بعض الأحداث في عهد الملك المؤسس للدولة الثالثة.

والرابع: بعنوان "الوهابية في الدولة الحديثة"، وفيه يتحدّث الكاتب عن موقف الدعوة والدولة من التحديث الإداري، والتعليم الحديث والتحديات مع بعض التيارات المخالفة.

والخامس: بعنوان "الدعوة الوهابية والإحياء الإسلامي"، ويتناول علاقة الدعوة بالتيارات الإسلامية المعاصرة.

والسادس: بعنوان "تحديات الهيمنة الوهابية"، ويتناول التحديات التي تواجهها الدعوة في العصر الحديث.

ويتضمن الكتاب ملحقًا، وجدولاً بترتيب الأحداث زمنيًّا، وفهرسين أحدهما للأعلام وآخر للأماكن.

كانت خطة المترجم ألا يملأ الكتاب بالردّ على المؤلف في كل ما يختلف معه فيه، وإلا أصبح عمله -كما يقول- محاكمة للمؤلف وتأليفًا على تأليف، ولذلك ترك ذلك للنقّاد، وكُتَّاب المراجعات العلمية. غير أنه اضطرّ في بعض المواضع إلى توضيح بعض النقاط التي فاتت المؤلف لنقص معلوماته، أو للخطأ الواضح منه.

ترجمة الكتاب سلسة، وجاذبة للقراءة، وهي عمل تمرّس فيه الدكتور العسكر عبر نقله لكتب تاريخية أخرى مشابهة.

أ. م. ض.

إهداءات إلى مكتبة العرب

أولاً– الكتب:

- تحفة المشتاق في أخبار نجد والحجاز والعراق (مصوَّر)، عبدالله بن محمد البسام، أكمله إبراهيم بن صالح بن عيسى وسبط المؤلف محمد بن سليمان البسام، دراسة: أيمن بن عبدالرحمن الحنيحن وسعد بن محمد آل عبداللطيف، من إصدارات دارة الملك عبدالعزيز (٢٩٢)، الرياض، ١٤٣٤هـ.
- إنسانية ملك، د. عبدالعزيز بن عبدالرحمن الثنيان، من إصدارات دارة الملك عبدالعزيز (٢٩٠)، الكتاب العشرون، ط١، الرياض، ١٤٣٤هـ.
- جهود الليث بن سعد في التدوين التاريخي، د. خالد بن عبدالكريم البكر، من إصدارات دارة الملك عبدالعزيز (٢٩١)، الكتاب الحادي والعشرون، الرياض، ١٤٣٤هـ.
- تاريخ الوهابيين وحياة العرب الاجتماعية، تأليف: آندرو كرايتون، ترجمة: د. عبدالله الصالح العثيمين، من إصدارات دارة الملك عبدالعزيز (٣٠١)، الكتاب الثالث والعشرون، الرياض، ١٤٣٤هـ.
- دليل الكتابة التاريخية، تأليف: ماري لين رامبولا، ترجمة: د. تركي بن فهد آل سعود ود. محمد بن عبدالله الفريح، من إصدارات دارة الملك عبدالعزيز (٣٠٣)، الكتاب الرابع والعشرون، الرياض، ١٤٣٤هـ.
- العلاقات السعودية المصرية في عهد الملك فيصل بن عبدالعزيز (١٣٨٤–١٣٩٥هـ/١٩٦٤–١٩٧٥م) دراسة في العلاقات السياسية، د. فاطمة بنت محمد الفريحي، إصدار دارة الملك عبدالعزيز (١٨٠)، الرياض، ١٤٣٤هـ.
- مشروع مسح المصادر التاريخية الوطنية: المرحلة الثانية ١٤٢٦–١٤٢٩هـ، إصدار دارة الملك عبدالعزيز (٢٩٤)، الرياض، ١٤٣٤هـ.
- المدينة المنورة في الوثائق العثمانية، ج٣، إعداد مركز بحوث ودراسات المدينة المنورة، إصدار دارة الملك عبدالعزيز، الرياض، ١٤٣٤هـ/٢٠١٣م.

ثانيًا– المجلات:

- الفرقان، العدد ٧٢٤، ١٢ جمادى الآخرة ١٤٣٤هـ/ الموافق ٢٠١٣/٤/٢٢م، رئيس التحرير: د. بسام الشطي.
- الفرقان، العدد ٧٢٥، ١٩ جمادى الآخرة ١٤٣٤هـ/ الموافق ٢٠١٣/٤/٢٩م، رئيس التحرير: د. بسام الشطي.
- الفرقان، العدد ٧٢٦، ٢٦ جمادى الآخرة ١٤٣٤هـ/ الموافق ٢٠١٣/٥/٠٦م، رئيس التحرير: د. بسام الشطي.
- الفرقان، العدد ٧٢٧، ٣ رجب ١٤٣٤هـ/ الموافق ٢٠١٣/٥/١٣م، رئيس التحرير: د. بسام الشطي.
- الفيصل، السنة ٣٧، العددان ٤٤٣–٤٤٤، الجماديان ١٤٣٤هـ/مارس–إبريل ٢٠١٣م، رئيس التحرير: يحيى محمود بن جنيد.
- الخفجي، العددان ٥–٦، السنة ٤٣، مايو–يونيو ٢٠١٣م/رجب–شعبان ١٤٣٤هـ، رئيس التحرير: م. سليمان ناصر الرشيدي.
- الفرقان، العدد ٧٢٨، ١٠ رجب ١٤٣٤هـ/ الموافق ٢٠١٣/٥/٢٠م، رئيس التحرير: د. بسام الشطي.
- الفرقان، العدد ٧٢٩، ١٧ رجب ١٤٣٤هـ/ الموافق ٢٠١٣/٥/٢٧م، رئيس التحرير: د. بسام الشطي.
- الكوثر، العدد ١٦٤، السنة ١٤، جمادى الآخرة–رجب ١٤٣٤هـ/يونيو ٢٠١٣م، رئيس التحرير: د. عبدالرحمن حمود السميط.
- مجلة البحوث الإسلامية، العدد ٩٩ (ربيع الأول–ربيع الآخر–جمادى الأولى–جمادى الآخرة ١٤٣٤هـ)، رئيس التحرير: د. محمد بن سعد الشويعر.
- الفرقان، العدد ٧٣٠، ٢٤ رجب ١٤٣٤هـ/ الموافق ٢٠١٣/٦/٠٣م، رئيس التحرير: د. بسام الشطي.
- الفرقان، العدد ٧٣٥، ٢٩ شعبان ١٤٣٤هـ/ الموافق ٢٠١٣/٧/٨م، رئيس التحرير: د. بسام الشطي.

- الفيصل، السنة ٣٨، العددان ٤٤٥ و٤٤٦، رجب وشعبان ١٤٣٤هـ/مايو-يونيو ٢٠١٣م، رئيس التحرير: يحيى محمود بن جنيد.
- المؤرخ العربي، العدد ٦٨ (١٤٣٤هـ/٢٠١٣م)، رئيس التحرير: د. محمد جاسم حمادي المشهداني (عدد خاص بالاحتفال بمشروع بغداد عاصمة الثقافة العربية لعام ٢٠١٣م).
- العالمية، العدد ٢٧٦، رمضان ١٤٣٤هـ/يوليو ٢٠١٣م، رئيس التحرير: إياد أحمد الشارخ.
- التربية الإسلامية، العدد ٢، السنة ٤٠، محرم ١٤٣٤هـ/تشرين الثاني ٢٠١٣م، رئيس التحرير: د. كوان كعيد خلف.
- الفرقان، العدد ٧٣٦، ٧ رمضان ١٤٣٤هـ/ الموافق ٢٠١٣/٧/١٥م، رئيس التحرير: د. بسام الشطي.
- مجلة البحوث الإسلامية، عدد: رجب-شعبان-رمضان-شوال ١٤٣٤هـ، رئيس التحرير: د. محمد بن سعد الشويعر.
- الفرقان، العدد ٧٣٨، ٢١ رمضان ١٤٣٤هـ/ الموافق ٢٠١٣/٧/٢٩م، رئيس التحرير: د. بسام الشطي.
- الفرقان، العدد ٧٤٠، ١٩ شوال ١٤٣٤هـ/ الموافق ٢٠١٣/٨/٢٦م، رئيس التحرير: د. بسام الشطي.
- الفرقان، العدد ٧٤١، ٢٦ شوال ١٤٣٤هـ/ الموافق ٢٠١٣/٩/٢م، رئيس التحرير: د. بسام الشطي.
- عالم المخطوطات والنوادر، المجلد ١٧، العدد الأول (المحرم-جمادى الآخر ١٤٣٣هـ/ يناير-يونيو ٢٠١٢م)، رئيس التحرير: يحيى محمود بن جنيد.
- أقلام جديدة، العدد ٤٧، ٢٠١٢م، رئيس التحرير: إبراهيم غرايبة، تصدر عن الجامعة الأردنية.
- إذاعة وتلفزيون الخليج: السنة ٢٩، العدد ٩٤، شعبان ١٤٣٤هـ/يوليو ٢٠١٣م، رئيس التحرير: د. عبدالله بن سعيد أبوراس.
- أقلام جديدة، العدد ٤٨، ٢٠١٣م، رئيس التحرير: إبراهيم غرايبة، تصدر عن الجامعة الأردنية.

- أقلام جديدة، العدد ٤٩، ٢٠١٣م، رئيس التحرير: إبراهيم غرايبة،تصدر عن الجامعة الأردنية.
- الفيصل، العددان: ٤٤٧-٤٤٨، رمضان وشوال ١٤٣٤هـ/يوليو-أغسطس ٢٠١٣م، رئيس التحرير: يحيى محمود بن جنيد.
- المجلة الثقافية، العدد ٨٣، حزيران ٢٠١٣م، رئيس التحرير: محمد شاهين.
- الفرقان، العدد ٧٣١، غرة شعبان ١٤٣٤هـ/١٠/٦/٢٠١٣م، رئيس التحرير: د. بسام الشطي.
- الفرقان، العدد ٧٣٢، ٨ شعبان ١٤٣٤هـ/١٧/٦/٢٠١٣م، رئيس التحرير: د. بسام الشطي.
- الفرقان، العدد ٧٣٣، ١٥ شعبان ١٤٣٤هـ/٢٤/٦/٢٠١٣م، رئيس التحرير: د. بسام الشطي.
- الفرقان، العدد ٧٣٤، ٢٢ شعبان ١٤٣٤هـ/٠١/٧/٢٠١٣م، رئيس التحرير: د. بسام الشطي.
- إذاعة وتلفزيون الخليج: السنة ٢٩، العدد ٩٥، ذو الحجة ١٤٣٤هـ/أكتوبر ٢٠١٣م، رئيس التحرير: د. عبدالله بن سعيد أبوراس.
- الفرقان، العدد ٧٤٣، ١٠ ذو القعدة ١٤٣٤هـ/١٦/٩/٢٠١٣م، رئيس التحرير: د. بسام الشطي.
- الفرقان، العدد ٧٤٤، ١٧ ذو القعدة ١٤٣٤هـ/٢٣/٩/٢٠١٣م، رئيس التحرير: د. بسام الشطي.
- الفرقان، العدد ٧٤٦، ٠٢ ذو الحجة ١٤٣٤هـ/٠٧/١٠/٢٠١٣م، رئيس التحرير: د. بسام الشطي.
- الفرقان، العدد ٧٤٧، ٢٣ ذو الحجة ١٤٣٤هـ/٢٨/١٠/٢٠١٣م، رئيس التحرير: د. بسام الشطي.
- الفرقان، العدد ٧٤٨، ٣٠ ذو الحجة ١٤٣٤هـ/٠٤/١١/٢٠١٣م، رئيس التحرير: د. بسام الشطي.

- الفرقان، العدد ٧٤٩، ٠٧ محرم ١٤٣٥هـ/٢٠١٣/١١/١١م، رئيس التحرير: د. بسام الشطي.
- الفرقان، العدد ٧٥٠، ١٤ محرم ١٤٣٥هـ/٢٠١٣/١١/١٨م، رئيس التحرير: د. بسام الشطي.
- الفرقان، العدد ٧٥١، ٢١ محرم ١٤٣٥هـ/٢٠١٣/١١/٢٥م، رئيس التحرير: د. بسام الشطي.
- الفيصل، العددان: ٤٤٩-٤٥٠، ذوالقعدة وذوالحجة ١٤٣٤هـ/سبتمبر-أكتوبر ٢٠١٣م، رئيس التحرير: يحيى محمود بن جنيد.
- الخفجي، السنة ٤٣، العددان: ٩ و١٠، ذوالقعدة وذوالحجة ١٤٣٤هـ/ سبتمبر-أكتوبر ٢٠١٣م، رئيس التحرير: م. سليمان ناصر الرشيدي.
- مجلة البحوث الإسلامية، عدد: ذوالقعدة-ذوالحجة-محرم-صفر ١٤٣٥هـ، رئيس التحرير: د. محمد بن سعد الشويعر.
- الفرقان، العدد ٧٥٢، ٢٨ محرم ١٤٣٥هـ/٢٠١٣/١٢/٢م، رئيس التحرير: د. بسام الشطي.
- الفرقان، العدد ٧٥٥، ٢٠ صفر ١٤٣٥هـ/٢٠١٣/١٢/٢٣م، رئيس التحرير: د. بسام الشطي.
- الفرقان، العدد ٧٥٦، ٢٧ صفر ١٤٣٥هـ/٢٠١٣/١٢/٣٠م، رئيس التحرير: د. بسام الشطي.
- الفرقان، العدد ٧٥٧، ٥ ربيع الأول ١٤٣٥هـ/٢٠١٤/١/٦م، رئيس التحرير: د. بسام الشطي.
- الفرقان، العدد ٧٥٩، ١٩ ربيع الأول ١٤٣٥هـ/٢٠١٤/١/٢٠م، رئيس التحرير: د. بسام الشطي.

﴿ تنبيه ﴾

أخي الكريم

سلام الله عليكم ورحمته وبركاته

بهذا الجزء ينتهي اشتراكك لهذه السنة

يرجى إذا رغبت التجديد

تحويل قيمة اشتراك السنة القادمة

وفّق الله الجميع لما يحبّه ويرضاه

إدارة المجلة

فهارس أعداد السنة التاسعة والأربعين

١– الكُتّاب والمعلِّقون

٢– الموضوعات العامة

٣– الأعـلام

٤– القبائل والأُسَر والجماعات

٥– الكُتب والمجلات والصحف

٦– المواضـع

فهرسة أعداد السنة الخمسين

١- الكُتّاب والمعلِّقون	٢- الموضوعات العامة	٣- الأعـلام
٤- القبائل والأُسَر والجماعات	٥- الكُتب والمجلات والصحف	٦- المواضع

أولاً: الكُتّاب والمعلِّقون

ثانيًا: الموضوعات العامة

ثالثًا: الأعلام

رابعًا: القبائل والأُسَر والجماعات

خامسًا: الكتب والمجلات والصحف

سادسًا: المواضع